

قَارِئُ الْأُسْتَاذِ الْأَمَامِ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

(١٢٦٦ - ١٣٢٢ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الأول

التسعة الأولى

كتاب تفصيل سيرة سيدنا محمد وآله وأصحابه

الشيخ محمد بن عبد الله

(١٢٦٥ - ١٣٢٢ هـ = ١٨٤٨ - ١٩٠٧ م)

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

مفتي دار الفکر

(١٢٨٢ - ١٣٤٠ هـ = ١٩٦٥ - ١٩٢٠ م)

الطبعة الثانية دار الفکر

٢٠٠٦

تَارِيخُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

الشيخ محمد عبد الله

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الأول

القسم الأول

وفيه تفصيل سيرته وخلاصة سيرة موقظ الشرق وحكيم الإسلام

السيد جمال الدين الأفتاني

(١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)

بجامعة

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



دار الفَضَائِلَة للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات ، دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 19625 / 2003 م

الترقيم الدولي : 8 - 182 - 297 - 977

(تصويب أهم ما وقع من الخطأ وتحريف الطبع وخفائه)

(في الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام)

بذكر العوالب دون الخطأ وقد منا رقم السطر المعبر عنه بحرف س على رقم الصفحة المعبر عنها بحرف ص
(جعلناه منفصلاً ليصحح بالقلم قبل القراءة، وتركنا بعض البيهقي والمحكي)

في ص ٣ صفحة (ج) من التصدير: القرن الخامس - ص ١٧ صفحة (م) الذين آمنوا -
ص ١٢ ص ٦ وعلية - ص ١١ ص ١٨ الناس نسباً -- ص ٢٣ ص ٥٥ ودفع ص ١٧ ص
٥٩ دناؤه ص ١٦ ص ٩٣ وهو يحضر ص ١٥ ص ١١٠ طابخة ص ٢١ ص ١١١ من أغري
ص ١٥ ص ١١٥ ويحاول - ص ٢٢ ص ١١٧ في اصطلاحهم ص ١٧ ص ١١٨ غيبة ص
٢٠ ص ١٣٢ الواضع ص ٢ ص ١٤٢ مابيرو - ص ١٨ ص ١٤٣ قراراته ص ١١ ص
١٤٤ تألفت لجنة ص ٩ ص ١٤٥ يتأخر - ص ١٦ ص ١٤٧ الاتقجاني ص ١٧ ص ١٥١
جبلتنا - ص ١٨ أمحاهها بجملتها ص ٢٢ ص ١٥٨ أجل وأوفى ص ١٩ ص ١٧١ تدريج
س ١٥ ص ٢٢٤ M. Brodley - ص ١٦ defended Orabi

ص ٢١ ص ٢٥٦ (يرمج) الشطب) السطر كله لان كلمة منوفي الاصل صواب) ص ١٢
ص ٢٦٦ كاحوكوا ص ٢ ص ٢٨٧ يد - ص ١٠ ص ٢٨٩ لا يظن أحد ص ٢٣ ص ٢٩١
نجمه هذه الامم ص ٩ ص ٢٩٢ بل مايجري ص ٢٣ ص ٢٩٤ للراسلات - المدوان
الاجنبي ص ٣ ص ٢٩٥ ولئن قانت فكم ص ٣ ص ٣٠٨ المقالة ص ١٧ ص ٣١٢ وكوي
ص ١٤ ص ٣٢٢ البشرية ص ٢٣ ص ٣٢٣ فيها ص ٥ ص ٣٤٢ استار أكتف ص ٢٣ ص ٣٤٨
عدة مقالات ص ٢٤ لتمثيل ما كان ص ١٣ ص ٣٦٩ يراق ص ١٩ ص ٣٨٠ من سنة - ص
١٢ ص ٣٨٣ الجعر - ص ١٧ ص ٣٨٨ اجتثت ص ١٩ ص ٣٩٣ فقتهم ص ٢٤ ص
٣٩٥ بخوض - ص ١ ص ٣٩٦ اختتمه ص ١٦ ص ٤١٤ طريقها ص ١٩ ص ٤١٨
يلت ص ٢٥ إياها على تكوين قوة بها في أمته لا رجاء في رفع السلطة الاجنبية عنه وعنها
بدونها (*) ص ١٦ ص ٤٢٦ حتى أهله ص ٩ ص ٤٣٩ وضع ص ٤ ص ٤٦٥ والمقارنة

(*) في هذا السطر تقديم وتأخير سببه سقوطه عند البدء في الطبع وامادته على
غير اصله. ويحسن في تصحيحه أن يوضع على كل كلمة رقم على الترتيب الاصل الذي هنا

صواب ما وقع من الخطأ في الكتاب

من ٢٢ ص ٤٧٤ الشيخين من ٢٤ ص ٤٩٠ كان ثونا من ١٧ ص ٤٩٨، متماقين من ٢٤
 من ٥٠٢ مذهب من ١٧ ص ٥٠٤ الاصلاح الديني من ١٦ ص ٥١١ نفي الشيخ
 العظيم اشتغالهم - من ١٧ ص ٥١٢ ازلاستاذ وفي من ١٨ الاستدراك - من ٩ ص
 ٥١٩ الحنفي - من ١٨ ص ٥٣١ كيلا يجرموا - من ٢٣ ص ٥٣٣ لوجدتها - من ٢
 ص ٥٤١ وأوهام من ١٧ ص ٤٤٤، أقرر من ٦ ص ٥٦٨ تلمذ من ٨ ص ٥٧٣ لحثلي أم
 من ١٨ نص القانون من ١٣ ص ٥٧٨ الوجدان يقبل من ١٨ ص ٥٨٢ ار كستره من ٢٥
 ص ٦٥١ ثرا من ١٨ ص ٦٥٥ المشروع من ٧ ص ٦٦٣ في الدين من ٢١ فان طالب الخير
 من ١٥ ص ٦٨٠ أمر - الدم من ٢٢ ص ٦٩٣ الرئيس العظيم من ٢١ ص ٧١١ قصد
 من ٨ ص ٧١٢ والنصارى من ٢٠ ص ٧٢٠ فيها وعون من ١٦ ص ٧٢٥ يونه دار الكرامة
 من ١٤ ص ٧٥٣ إحياء من ٢٠ ص ٧٥٧ الذين من ٣ ص ٧٥٨ الشيخ حسين من ١٣ ص ٧٥٩
 كلام غير المصنوع من ٢٠ ص ٧٧٨ سنة ١٣٠٦ - من ١١ ص ٧٩٢ أجد - من ٢٠ ص ٧٩٦
 وإبراهيم الفارسي قصة من ٢١ ص ٨٠٢ مقال من ٦ ص ٨٠٦ كذبت اليوم من ٨ ص ٨١٤
 ثم ذكر - من ٢٤ ص ٨١٥ وسط - من ١٤ ص ٨١٩ علما لإبرانيا - من ٦ ص ٨٢٥ يؤولوا
 من ٢٥ ص ٨٢٥ يستأذنه من ١٧ ص ٨٢٦ ان يهديهم من ٥ ص ٨٥٦ ويهدم العلم اللازم
 من ٢ ص ٨٥٧ ويا ليت من ٤ ص ٨٦٥ تلمذ للفتة من ٢٥ ص ٨٨٢ مذكراته من ٢١ ص ٩٠٨
 إلى جبرها من ٢٣ ص ٩١٥ الصفتان اللتان من ١٢ ص ٩١٧ اللذان كان من ٢٣ ص ٩٢٧
 تذاكر نافية من ٢٣ ص ٩٣٦ ختمتها من ٧ ص ٩٣٨ بان اسمه من ٤ ص ٩٤٥ بجعله من ٩
 ٩٤٦ والمرشدين من ٢٠ ص ٩٧٦ مذكراته فيها من ١٦ ص ٩٨٤ أو عاداته من ١ ص
 ٩٨٧ عبده من ١٦ ص ١٠٠٣ أخالفكم فيه من ٢ ص ١٠١٣ ويهدم من ٥ تفسير القرآن
 من ١٨ ص ١٠٢٠ ما كان من ٧ ص ١٠٢١ رشيداً من ٢٠ ص ١٠٢٥ كتابة من ٢ ص
 ١٠٢٩ لا يملؤه من ١٥ ص ١٠٣٢ تربيته من ١٣ ص ١٠٥٤ لم يتعدوا من ١٤ ص
 ١٠٦٢ عوض أفندي واصف من ٢٥ ص ١٠٦٤ أدونها من ١٠ ص ١٠٩٠ داحس
 الفرلبي من ١٩ ص ١١٠٣ سعيد الشرتوني

تصدير الكتاب

بيان كنه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والاسلام
(وشيخنا الاستاذ الامام ، ووجه الحاجة اليه ، ووجوب المحافظة عليه)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥: ٢٧) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠: ٧) وَتِلْكَ
الْآيَاتُ نُذَوُّ لَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠: ٣)

جرت سنة الله تعالى في أفراد البشر أن يؤتهم قوى المشاعر الحسية والمدارك
العقلية بالتدرج حتى يبلغ اعدام أشده ، ويستكمل رشده ، ويستقل بنفسه بالعلم
والعمل والتجارب ، وجرت سنته في الشعوب والامم أن يمنح كلا منهم من هداية
الوحي في كل طور من أطوار حياتهم الاجتماعية ما هو مستعمل له وصالح لحاله
وزمانه ، على مثال سنة التدرج في الافراد ، إلى أن استعد النوع البشري في جملة
ومجموعه لفهم أعلى هداية إلهية لا يحتاج بعدها إلا لاستعمال عقله في الاهتداء بها ، في كل
زمان ومكان بحسبهما ، فوهبه هداية القرآن ، وختم النبوة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام
ولما كان من طباع البشر أن يضمف تأثير الوحي في قلوبهم بطول الامد على
عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربهم ، ويتأولوا كتبه باهواشهم ، أنهم عليهم بما يجي
هداية النبوة فيهم ، بان يبعث فيهم بعد عصر النبوة مجددين ، وأئمة مصلحين ، يرثون
الانبياء بالدعوة الى اصلاح ما أفسد الظالمون في الارض ، ويكونون حجج الله
على الخلق ، وقد بشرنا نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المصلحين ، بان الله تعالى يبعث

في هذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، ليكونوا خلفاءه فيا جده من دين الله تعالى اللام كلها (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) إذا طال عليهم الامة ، فقس قلوبهم ، وفسقوا عن أمر ربهم

إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس ، فكان الامام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن الثاني لما أبلى قومه بنو أمية وأخلقوا ، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا ، وكان الامام احمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما أخلق بعض بني العباس من لباس السنة ، ورشاد ساف الامة ، باتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله وما ورد في عالم الغيب ، بالقياس على ما يتعارض في عالم الشهادة . وكان الشيخ ابو الحسن الاشعري مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى ، وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي مجدداً في أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شبرقت نزغات الفلاسفة وزندقة الباطنية ، والامام ابو محمد علي بن حزم الظاهري في القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية - وشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لجيئهم ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والالحادية ، من حلال الكتاب والسنة السنية ، في جميع العلوم والاعمال الدينية ، وحسبنا هؤلاء الامثال في التجديد الديني العام

وظهر مجددون آخرون في كل قرن كان تجديدهم خاصاً انحصر في قطر او شعب ، او موضع كبير او صغير ، كابي اسحاق الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام في الاندلس ، وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند ، والمولى محمد بن يبر علي البركوي في الترك ، والشيخ محمد عبد الوهاب في نجد ، والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن

وهناك مجددون آخرون للجهاد الحربي بالدفاع عن الاسلام ، او تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وإقامة أركان العمران فيه ، وهم كثيرون في الشرق والغرب والوسط ، ورجاله معروفون ، كبعض خلفاء العباسيين والامويين ، ومنهم

من جمع بين أنواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الايوبي الذي كسر جيوش الصليبيين من شعوب الافرنج المتحدة ، وأجلاهم عن البلاد الاسلامية المقدسة وغيرها ، وأزال دولة ملاحدة البعيدين الباطنية من البلاد المصرية ، وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك اوربة عرف فيها مجد الاسلام

ضعف الاسلام السياسى ومملكه

ثم اتسع ملك الاسلام وزالت وحدة أحكامه بانقسام الخلافة إلى خلافتين فزوال كل منهما ، وكثرت دوله فتفرقت وحدة أمتة السياسية إلى شعوب مختلفة في الاجناس والاطنان، ووحدة ماته الدينية إلى مذاهب مختلفة في الاصول والفروع، فتعادوا في الدنيا والدين، وتقاتلوا على عصبيات الملوك والسلاطين، فحق عليهم قول كتاب ربهم (ولا تنازعوا في فئشوا وتذهب ربحكم) فسلط الله عليهم أعداءهم فتلوا أكثر عروشهم، وانتزعوا منهم أكثر بلادهم (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم (٥٣:٨) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهائها مصلحون (١١ : ١١٧) وكان يظهر في هذه الدول المتفرقة مجددون متفرون في العلم كما تقدم وفي الادارة والعمران كحمد علي باشا بمصر - وفي الحرب كالامير عبد القادر في الجزائر ويعقوب بك في تركستان الصينية - وفي السياسة كسطفى رشيد باشا وعالى باشا وفؤاد باشا في الترك وخير الدين باشا في تونس - وفي ارشاد العامة والبدو للدين والدنيا كالسيد السنوسى

مال البسر الصغير وما يقنضيه من التجرير

في أثناء هذا الضعف الاسلامي العام - دخلت الشعوب الافرنجية في طور جديد في الفتح والغلب والسياسة والعمران ، قوامه العلوم الكونية والفنون والصناعات والثروة والنظام، وتجدد فيهما من آلات الحرب وكراعها، وأسلحة القتال وعتاها، ما يمكن الجند القليل من إبادة جند يفوقه أضمافا مضاعفة في العدد والشدة والشجاعة في زمن قصير

واستحدث فيه من النظام ما يسهل به على أفراد ممن حذقوه ومردوا عليه

أن يسخروا لخدمتهم شعباً كبيراً غريباً عنهم في جنسه ولغته ودينه كما يسخرون الانعام الداجنة والسائمة، والجرالموكفة والخليل المسومة، فيذلون بالجماعات المذلة منه الجماعات المتمردة، ويستنزفون ثروته كلها فيجرفونها إلى بلادهم التي ترحوا منها فاتحين مستعمرين، ويتصرفون في قواه المعنوية، وروابطه القومية والدينية، كما يتصرفون في حرثه ونسله، ولحمه ودمه، وأرضه وماله، وهكذا يتصرف العلم بالجهل، والنظام بالفوضى

وابتدع فيه من مصراكب النقل والسيار، وآلات رفع الاثقال، وأجهزة تبليغ الاخبار، ما مهد السبل لمبتدعيها ومتخذيها من كل ما أشرنا اليه من الاعمال الحربية، والتصرفات السياسية، والوسائل الاقتصادية، وصارت المسافة بين القارة والقارة، اقرب من المسافة بين بلد وأخرى من مملكة واحدة، وهو ما عبر عنه في الحديث النبوي بتقارب الزمان

اتسعت بذلك مسافة الخلف بين الشعوب في العلم والعمل ووسائلهما، واشتدت الحاجة إلى تجديد الحياة في المتخلفة منها عن المتقدمة، لا ينهض بثلة أمثال أولئك المجددين القدماء بالوسائل القديمة وحدها، ولا يطمح اليه صوفي يستمد قوته من الاموات، ويتكل على الكرامات ويعتبر بالمنامات، ولا يطمع في تذليل صعابه واقتحام عقابه غريق في بحار النظريات العقلية، ومفترق الافكار بنظريات الفلسفة، ولا يطلع ثنياه، ويحتلي خفاياه، منقطع إلى كتب الشرائع، واستنباط أحكام الوقائع، ولا يتسامى اليه من تعلم العلوم والفنون العصرية تعليماً آلياً ليكون أحد المال في دائرة من دوائر الحضارة أو ديوان من دوائرها حكومتها.

إن هذا البدع من الخطوب الكبرى غير عادي، لا ينبعث إلى تلافيه إلا بدع من كبراء الرجال غير عادي: أمم قوية بالعلم الجديد والفن الجديد، والسلاح الجديد، والنظام الدقيق في السياسة والادارة والمال، والتعاون بتوزيع الاعمال، واستخدام قوى الطبيعة، تستلب ملك أمم جاهلة، متفرقة متخاذلة، مختلة النظام، مستعبدة المستبدين، منقادة للخرافيين، وقد قذف في قلوبهم الرعب فكانوا مصداق قول النبي ﷺ « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة إلى

قصصهما»^(١) فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غشاء كغشاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال « حب الدنيا وكرهية الموت »^(٢) فمن ذا الذي يضطلم بتجديد حياة هؤلاء الموتى وبحشرهم من قبورهم ألا إن الرجل الذي يذبح إلى نفخ روح الحياة في شعوب هبطت إلى هذه الدرجات من الوهن ، وبمئها إلى مجاهدة أمم عرجت إلى تلك الدرجات من القوة ، يجب أن يكون ذا روح علوية ، أوتيت حظا عظيما من وراثته النبوة ، في كال الايمان ، وصحة الالهام ، وعلو الهمة ، وقوة الارادة ، وصدق المزيمة ، واخلاس النية ، وقوة الفراسة ، والزهد في الشهوات البدنية ، واحتقار الزينة الخادعة . والزهد في الجاه الباطل ، وعدم الخوف من الموت ، وأن يكون ذا وقوف على حالة العصر ، وتاريخ الشعوب الديني والسياسي ، ومنن الله في الاجتماع ، وفصل الخطاب في الاقتناع ، وفصاحة اللسان وبلاغة التعبير ، وقوة التأثير ، ثم يكون ما يحدقه من سائر العلوم مددآ له في عمله

حكيم الشرق والاسلام

كذلك كان ذلك الروح العلوي النبوي ، الذي تمثل للافغان في ناسوت بشري ، جلس في دروس العلم خذلق العلوم والفنون القديمة تقليا او عقليا في بضع سنين ، وألم بالهند لتلقي مبادي العلوم الاوربية فوقف على ماشاء منها في زهاء سنتين ، ثم حج في سنة ١٢٧٣ ومكث في مفره زهاء سنة يتقارب في البلاد الاسلامية ، لاكتناه اخلاقها وعقائدها الدينية ، واختبار أحوالها الاجتماعية والسياسية

ثم عاد إلى بلاده فانتظم في سلك حكومتها وهي ممزقة بالفتن الداخلية ، وموبوءة بالاسانس البريطانية ، فكاد يتدير ويخلص الامر فيها لأميرها محمد أعظم خان الذي برأه مكان الوزير الاول عنده ، لو لا ما عارض ذلك من الاسانس الانكليزية ، التي تمددها القناطر المنقطرة من الجنيهاات الاسترلينية ، والروبيات الهندية

(١) تداعى بفتح الدال أصله تداعى أي يدعو بعضها بعضا . والاكلة بفتح الحين جميع آكل (٢) رواه ابوداود والبيهقي في دلائل النبوة من حديث ثوبان (رض)

واضطرب بفشل أميره إلى هجر وطن ولادته ونشأته، إلى حيث يمكنه الإصلاح من أوطان امته، فر بالهند فبالت حكومة الانكليزية في الحفاوة بضيافته، مع إحاطة عمالها وجواسيسها بمجالسه، ومنع علماءها من الاتصال به، ولكنه نفخ فيمن لقيه من كبارها روح الاستقلال،، والجراة على كسر مقاطر الاستعباد، ثم كان يغذي ذلك الروح بالكتاب وتلقين الافكار، ان باقى من رجالها في مصر وأوربة وسائر البلاد، وبمقالات له في الجرائد نشرناها في النار، وناهيك بالبروة الوثقى التي كادت تضرم نيران اثورة فيها، وكان موقنا باستقلالها من بعده، حتى انه قال للشيخ عبد الرشيد التتاري: يا ولد انك ستعطي صلاة الجنائزة على القيصرية الروسية، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية في الهند، وقد تمت البشارة الاولى وظهرت بوادر الثانية في هذه الاعوام

وأغرب من ذلك انه حمله تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية في عاصمة الروسية رئيسها عم القيصر وقال له اذهب بهذه الرسالة وأوصلها إلى الفراندوق فلان، واعلم انك إما ان تقتل، وإما ان تفوز وتغنم، فأوصلها فقام الفراندوق لها وقعد، ثم اعاده بها إلى بلاد اليونان ليطعمها فيها باللائحة الروسية ويرسأها اليه، وعرض عليه من المال ماشاء فلم يأخذ الا القدر الضروري، ولقي اهلها كادت تذهب بحياته

جاء هذا السيد مصر فنفخ فيها روح الحكومة النيابية، وألف فيها الحزب الوطني الاول لتقييد سلطان الحكومة الشخصية، وغذى تلاميذه ومريديه بمشق الحرية ووسائلها من العلم والكتابة والخطابة، كما ارشد المسلمين منهم إلى الإصلاح الديني، والجمع بينه وبين العلم المصري، وكان من أثر هذا ما شرحه هذا الكتاب

ذهب إلى إيران، فنفخ فيها روح التجديد في السياسة والعمران، فازال بفعل فعله فيها بين قيام وقعود، وهبوط وصعود، حتى ظفرت بالحكومة النيابية في عهد الشاه مظفر الدين خان، وما زالت تنتقل في أطوار التجديد والإصلاح

ثم انتهى إلى عاصمة الدولة العثمانية فأنشأ يرشد السلطان إلى وسائل الاستفادة من منصب الخلافة الاسلامية، ويجمع له كلمة الشعوب والمذاهب المختلفة، حتى انه أقتع كثير آمن علماء الشيعة المجتهدين بالاعتراف بمخلافته وجمالها مناطا ألوحدة الجامعة

للمسلمين ، ولكن قرنائه السوء خوفوا السلطان من النهوض بهذه الجامعة فأعرض عنها ، وكان السيد مع ذلك يثبت هنالك أفكار الإصلاح والتجديد ، الجامع بين الطريف والتليد ، إلى ان قضى نحبه ، واتي ربه ، رحمه الله وقُدس سره

الأستاذ الامام

أرايتك هذا المصالح العظيم ، والمجدد الحكيم ، انه لم يظفر في شعب من الشعوب الاسلامية بمن يصلح أن يكون خليفة له ، ومتما لاصلاحه بما يرجي به دوامه ، بعد أن وجه اليه الوجوه ، وعلقت بطلبه القلوب ، على كثرة من المصطفين بصفتهم ، إلا رجل مصر الشيخ محمد عبده ، لان منصب إمامة الإصلاح والتجديد ، لا يرتقى اليه بوسائل الذكاء والتفكير والتربية والتعليم وحدها ، بل لابد فيه من الاستعداد الروحي والمواهب الفطرية كما قررنا

كان الشيخ محمد عبده سليم الفطرة ، قدسي الروح ، كبير النفس ، وصادف تربية صوفية نقية ، زهده في الشهوات والجاه الدنيوي ، وأعدته لورثة هداية النبوة ، فكان زيتة في زجاجة نفسه صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسه نار ، فستته شعلة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نوراً على نور (يهدي الله انوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

اقرأ في الصفحة ٢٥ من هذا الكتاب كيف زار السيد المرة الاولى هو وصديقه وأستاذه الشيخ حسن الداويل في خان الخليلي ، وكيف كان اول حديثه معهما السؤال عن تفسير بعض آي القرآن وما يقول العلماء والصوفية فيها ، وانه بين لها قصور كل ما قالوه ، وجاء من عنده بخير منه ، وكيف اعجبا كلاهما بما قال ، ولكن الشيخ حسناً ظال على حاله ، لانه كان قد بلغ منتهى استعداد ، وكان أرق علماء الازهر عقلاً وعلماً وزهداً

وأما الشيخ محمد عبده فكان يشعر بأن كل ما اصابه من حسن تربية الشيخ درويش ، ومن علم الشيخ الطويل والشيخ القصير ^(١) دون ما تسمو اليه نفسه ، (١) المراد بالشيخ القصير احمد الرفاعي القصير القامة وكان اصلب الازهرين جهوداً كما كان الشيخ الطويل اشد هم استقلالاً

رثاء الأستاذ الامام السيد جمال الدين وتأثير روحه العلوية في أعماله ط

ويستطاع اليه عقله ، وتضطلع به همته ، و كان يطلبه بما استطاع من الوسائل فلا يجدّه ، ذلك ان روحه كانت مستشرقة للعرفان الذي يصعد بها إلى سماء الوراثة النبوية في إصلاح البشر ، وتجديد أمر الدين الذي بشر به المصلح الاعظم ﷺ ، فاتصل بالسيدجة ن الدين من ذلك اليوم حتى اقتبس منه وكان خليفته فيه ، لكن من ناحية ربية الامة التي كان يتمنى قيام السيد بنفسه بها ، إذ لا يثبت إصلاح الحكومات بدونها ، لا من ناحية استبدال حكومة صالحة مكان غيرها (راجع ص ٩٧٤) تلك الوراثة النبوية التي عبر عنها يوم موت السيد بقوله في رثائه الوجيز البليغ : « والدي أعطاني حياة يشاركني فيها علي ومحروس » السيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمداً و ابراهيم وموسى وعيسى (ص) والاولياء والقديسين . ما رثيته بالشعر لانني لست بشاعر ، ما رثيته بالنثر لانني لست الآن بنائر ، رثيته بالوجدان والشعور لانني انسان أشعر وأفكر « اه بنفسه تقريباً »

هذه الوراثة هي التي أخرج الله تعالى بها محمداً عبده من خمول تصوفه وخمود أزهريته الى ميادين الجهاد في سبيل التجديد الديني ، والاصلاح الاجتماعي المدني ، يخوض غمرات الثورات ، وتتقاذفه أمواج الاسفار ، وتكافحه قن الامراء المستبدين ، وجهالة حملة العمام الجامدين — من حيث بقي حسن الطويل نديده في التصوف والفلسفة قابعا في كسر بيته ، راضيا بخموله وراحة نفسه . وإن في الصلاة لراحة ، وإن في العلم والذكر للذة ، ولكن ثوابها قاصر على صاحبها ، وثواب الجهاد متعدد لكل من ينفع به ، والانسان الكامل من يجمع بينهما

بهذا الروح العلوي كان يقول له أستاذة السيد جمال الدين وهو مجاور يلبس الزعوط : قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت ؟ ذلك السيد الذي كان يخاطب الملوك المستبدين خطاب الاقران ، بل يهدد بعضهم ويمن على بعض فيقول للسلطان عبد الحميد انني لاجل أمرك قد قُدمت عن شاه إيران ، ويقول له السلطان : بحق يخاف منك الشام خوفا عظيماً (٢)

(١) هما أخواه اللذان يشتغلان بالزراعة (٢) كنت كتبت العبارة من مذكرة له وقدت المكتوب وبقي المحفوظ (٣) هذا لفظ السيد في ترجمة لفظ السلطان سمعه منه كثيرون في الآستانة

بهذا الروح العلوي كان يشرف من سماء إدارة المطبوعات بالسيطرة والاساطان على الحكومة المضربة من أعلاها الى أدناها، فيأمرها وينهاها، منتقداً أعمالها، مرشداً عمالها ، يخطي لغتهم الكتابية فيضطرهم إلى إصلاحها في معاهد التعليم ، ويفند أعمالهم فيقيمهم على صراط العدل المستقيم . بل ازعج بمقالاته في انتقاد وزارة المعارف ناظرها حتى شكاه إلى رئيس النظائر رياض باشا فما أشكاه ، وكلم الرئيس الشيخ فأقام له البرهان على وجوب الإصلاح ، وأقنعه بإنشاء المجلس الأعلى المقيد لاستبداد وزيرها في الاعمال ، فأنشأ برأيه ، وكان هو سكرتير ذلك المجلس وصاحب التأثير الأكبر فيه

بهذا الروح العلوي كتب ذلك الكتاب البليغ في سجنه ، وأعلن فيه عفوه عن وشوا به وأسأوا اليه على ما كان من احسانه اليهم ، وجزم بما أعدت له العناية من المجد ، واعداً بأن سيفعل المعروف ، ويفيئ الملهوف . . . وكذلك كان

بهذا الروح العلوي كان هو الرأس المدير في كل مجلس رسمي عين عضواً مرءوساً فيه كمجلس إدارة الازهر ومجلس الاوقاف الاعلى ومجلس شورى القوانين . تجد إثبات ذلك في بيان اعماله فيها من هذا الكتاب ، سافرة الوجه ليس دونها نقاب

بل بهذا الروح العلوي كان اميره يكبره ويها به ويقول انه يدخل علي كانه فرعون . وإنما كان يدخل عليه كدخول موسى عليه السلام على فرعون ، متوكفاً على عصا الحق ، داعياً الى الإصلاح والخير ، ناهياً عن الاستبداد والبغي - كقوله له في مجلس تشريف المقابلة الحافل بالعلماء : ان مجلس إدارة الازهر لا يعرف لسموكم أمراً عليه ، الا بهذا القانون الذي بين يديه ، دون الاوامر الشفوية التي يبلغها عنكم ، من لا يثق به المجلس لمخالفته لقانونكم



تلك آيات بينات من حياة كل من الروحين على الانفراد ، فما رأيك إذا اجتمع هذا الروح العلوي بذلك الروح الاعلى الذي اذكى سراج الوهاج ، واتحدوا في عمل من الاعمال ؟ ذلك ما كان من اصدارهما جريدة العروة الوثقى التي لانعرف في تاريخنا كلاماً بتمرياً ابلغ من مقالاتها في إصابة مواقع الوجدان من النفس ،

اشترك الروحانيون والمجددين في العروة الوثقى وتأثيرها الغريب ك

ومواضع الإقناع من العقل ، وتجربة الضمير ، على الثورة على الاقوياء ، والجهاد
لتحرير امتهم ، واستقلال بلادهم

فان سألت عن تأثيرها في رعب العظمة البريطانية ، وإثارة العالم الاسلامي
والشعوب الشرقية ، فانك تجد قصصها مبسوطا في هذا الكتاب ، بما يشبع هممتك
السياسية من إسهاب ، ويروي غلتك الادبية من إسهاب ، (ص ٢٩٨ و ٣٠٣)
وانه ليس بظلم بالروايات الصحيحة ، والشواهد الصادقة ، كل ما أشرنا اليه في
هذا التصدير من آثار تلك الروح القدسية ، وتجديد الاصلاح المنقذ للامم والشعوب
من رق الفاتحين المستعمرين ، وظلم المستبددين القاهرين ، وجود الفقهاء المقلدين ،
ودجل المتصوفة الخرافيين ، فاطلبه من هذا التاريخ فانه يقصه عليك مفصلا تفصيلا
فاقرأها في الفيور على قومه ووطنه فصلا فصلا ، وتدبر مقاصد فصوله مقصداً
مقصداً ، ثم اقرأ في الجزء الثاني له مقالات الامام الاجتماعية والادبية ، ولوانه في
إصلاح التربية والتعليم ، ورسائله الدينية والادبية للعلماء والادباء . ثم ارجع البصر
إلى الجزء الثالث واعتبر بتأثير وفاته في العالم الديني والمدني ، وتأمل إجماع كتاب
الامم والشعوب المختلفة الاجناس والاديان والآراء والافكار على تركيته وتقديسه ،
او تدبر مقدمتنا لكل منهما - تعلم انه هو الامام الذي يجب اتباعه في تجديد الامة وإحياء
الملة ، وإيجاد المدنية الفاضلة ، ثم انظر ما اقترحت على مصر في خاتمة هذا الكتاب
لعلك تكون من حزب الدعاة المصلحين ، وأنصار التجديد المستبصرين الذين قال
الله تعالى فيهم (وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة
ونجعلهم الوارثين)

هذا ما توخيت التنويه به من هذا الضرب البديع من التجديد لحياة الشرق
على ما وصفت من التباين بينه وبين الغرب ، وما كان من تأثيره الذي يشبه خوارق
العادات ، كبراء الاكهم والابرص وإحياء الاموات ،

المجددون للوثنية والرجل

الا وإنه قد نجم في هذين القرنين قرنان اوقرون من أدياء التجديد، بعضهم في إيران وبعضهم في الهند، وانهم إلا مسحاء دجالون، ومتنبئون كذابون، لبسوا على الناس لباس الاصلاح الديني، وعملوا لهم بالشكل الذي تصوره تقاليدهم لما ينتظرون من المسيح والمهدي، وانتحلوا لدعايتهم آيات، واخترقوا لانفسهم معجزات، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من ادعى الألوهية، وقد اتبعهم فئام من المحرومين من مزايا الانسان، الكافرين بنعمتي العقل والقرآن، الجاهلين لثبوت نبوة خاتم النبيين باالم والعقل، وان الله ختم به نزول الوحي، فزادوهم رجسا على رجسهم، وعبودية للاجانب على عبوديتهم، فكانوا دعاة وأنصاراً للمعتدين على استقلال بلادهم، المستعبدين لاقوامهم، فوالله لو عمت فتنهم لاستولى الانكليز على بلاد فارس كلها، ولما وجد في الهند من يطالب الانكليز باستقلال، ولا بحق من الحقوق ولا عمل من الاعمال

أليس من مثار العجب الذي جاء بها ابو العجب^(١) ان يضع كل من أتباع هؤلاء الدجالين لانفسهم نظاما، ويجمعوا لبث فحلهم أموالا، وينفروا للدعوة اليها خفافا وثقالا؟ فيكون لهم في كل واد أثر، وفي كل قطر ذكر، وينضوي اليهم بعض الملاحدة طمعا في أموالهم، لا إيمانا بمسيحهم او اللههم؟

أوليس باوغل من هذا في أعماق العجب واوغل في احشائه أن يتخاذل المعارفون بقدر حكيمة الشرق، وامامي الاسلام بالحق، عن تأليف حزب اتعمم اصلاحهما، واستمرار تجديدهما، وأن يكون لجماعتهم نظام يكفل دوام سيرهم ومال يضمن نجاح سعيهم، ومدارس تربى النابتة على منهاجهم، وأطباء يداوون أمراض الاجتماع بملاجهم؟ على استقلال الفكر، وحرية العلم والرأي، وهداية الدين، وتوطين النفس على الجهاد لاعلاء كلمة الحق. واقامة ميزان العدل لتكون عزيزة لاتدين لاجنبي معتد، ولا لوطني مستبد؟

(١) ابو العجب الشموذي وكل من يأتي بالا عايب

نعم ان ذلك لمعجب ! وان هذا لا عجب منه . ويشبههما في العجب أن المتمين إلى السنة من المسلمين أقل من المبتدعة تعاونوا وتناصروا وعصية ودعاية : أفلا أنبتك بالسبب ، الذي يفتشك من حيرة العجب ؟

ان حقيقة السنة والجماعة هي حقيقة الاسلام . وان الاسلام الحق هو دين توحيد العبودية والربوبية لله وحده . والحرية وعزة النفس تجاه ماسواه . واتباع رسوله وحده فيما بلغه عنه والعمل بمقتضى الوازع النفسي التابع للمقيدة ، والنظام الاجتماعي الذي تقرره الشريعة ، فلا تذلل نفس صاحبه بالانقياد لرئيس ديني ولا دنيوي لذاته ، ولا سلطان ورأى أو تقليدي فيما وراء تنفيذ أحكامه . وأما هذه النحل الباطلة والمذاهب المبتدعة التي أشرنا إلى بعضها فأساسها العبودية والخضوع لفرد أو جماعة من البشر ، يقدر منتحها أشخاصهم ويرفعهم على نفسه وعلى سائر الناس وهم منهم ، ويوجب طاعتهم عند فريق وعبادتهم عند آخر . فتكافل هؤلاء يكون تاما شاملا لانه تعبدى ، وعصيتهم تكون أقوى لأنها وجدانية لا عقل للأفراد ولا رأى للجمهور فيها .

ويرد علينا هنا ان العقائد الباطلة والتعاليم الواطئة ، خير للجماعات والشعوب التي تأخذ بهما من العقائد الصحيحة والتعاليم العالية ، من حيث جمع الكلمة ووحدة الامة . ونرد هذا الاراد بقولنا ان العقائد الحق والتعاليم الصحيحة لا يقوم بها إلا أصحاب العقول النيرة والافكار المستقلة الذي آمنوا بها عن حجة وإذعان . وما تنازع هؤلاء مع المخالفين لهم إلا وكان لهم الرجحان . سواء أكان التنازع في الدين أو في الحكم والسلطان ، وبهذا ظهر الاسلام على جميع الاديان .

وهذا الفريق فريق العقل واستقلال الفكر قل في جميع فرق المسلمين ببناء التعاليم فيهم على أساس التقليد الذي يحتم على طالب العلم أن يقبل كل ما يقرره شيخه بعنوان مذهبه وإن لم يكن منه ، سواء أعقله أم لم يعقله ، فإن تنازعه فيه حكم بكفره ، ولهذا صار أكثر المسلمين يقبلون البدع والخرافات مهما تكن المذاهب التي ينتمون اليها ، إذ ليست المذاهب فيهم إلا عناوين لمصيبيات لها رؤساء يطاعون باسمها ، وأكثرتهم يجهلون اصولها وقواعدها . ومن تلقى منهم شيئاً منها فانما هو لفظ ينقله ولا يعقله ،

ن سبب قلة أنصار الحكيمين من رجال الدين وكثرتهم في رجال الدنيا.

ولا يرجع اليه في فروع علمه ولا عمله ، ومن كان غير مستقل الفهم والعقل في عقيدته ، لا يكون مستقل الارادة في عمله . ومن نتائج هذا الخضوع ان صاروا خائعين للمستبدين ، وظهراء للظالمين ، وان كانوا بملتهم كافرين

وأساس الاصلاح الديني والسياسي الذي قام به وعليه الاسلام ديننا ودولة وقامت عليه الدول القوية هو الاستقلال بنوعيه . وهو الذي دعا اليه الحكيمان المجددان الافغاني والمصري ، وقد بينه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد ، لهذا كان أنصارهما من رجال الدين هم الاقلين وخصوصهم ما منهم هم الاكثرين . وكان أشد ما أنكروه عليهما القول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد - ويقال له أن كان أكثر المعجبين بهما والذين قدرهما قدرهما ، هم الذين نبغوا في المدارس المدنية العالية التي يسير فيها التعليم على منهاج استقلال الفكر وكذا من تلقى من بعض أهلها وعاشرهم على استعداد فيه فصار مستقلا . ثلة من المدنيين وقليل من المعممين

ولو كان مادعا اليه الحكيمان هو التجديد السياسي والمدني دون الديني لآلف له هؤلاء الانصار حزبا كبيرا منظما كما فعل سعد باشا من تلاميذهما بعدهما ولو دعا الاستاذ الامام الى نهضة دينية تقليدية صوفية لوجد من الازهريين وأهل الطرق من يؤسس له عصبية قوية يتبعها الالوف والوف الالوف في زمن قريب ، ولا سيما اذا أباح لنفسه أن يظهر لم تبده الخفي ، ومعرفته بأسرار التصوف ، وغير ذلك من خصائصه الروحانية ، التي كان يعتقد وجوب كتمانها لانها غير طبيعية . فإظهارها للمقيدين بالسنن الطبيعية فتنة لهم ، وفيها كثير مما يمد من الكرامات عندهم ، وقد تقلت هذا عنه في بيان رأيه في التصوف والصوفية .

يبد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وان السيد جمال الدين رجل دين وان غلبت عليه السياسة . والشيخ محمد عبده رجل سياسة وان غلب عليه الدين . بل هو أقرب من أستاذه الى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين . فيهما ، فقد كان في الازهر لا يملو قوله قول ولا يثلب رأيه رأي . وكذلك كان بين الرافقين من رجال الدنيا كالوزراء والقضاة والمحامين والادباء والمنشئين ، بل كان كذلك بين علماء الافرنج وساستهم ، وترى نموذجا من شهادات الجميع له في هذا التاريخ

خلاصة الخلاصة

في وجوب الجمع بين التجديدية الدينية والمدني

وحزب الاصلاح المعتدل

الذي يقوم به

و خلاصة ما أريد عرضه على قراء هذا التاريخ في هذا التصدير ان اصلاح الامة الاسلامية في أي شعب من شعوبها لن يكون إلا بالجمع بين التجديد الديني والدنيوي. هذا ما صرح به الحكيمان وجريا عليه بالعمل. وصرح لي به سعد باشا زغلول وقد نقلته عنه في المنار. بل هذا ما يعتقد أهل الرأي الناضج من غير المسلمين، وقد صرح به الكثيرون منهم قولاً وكتابة، كما يراه القاري. فيما كتبه بعضهم في تأييدهم. الاستاذ الامام وترجمتهم له من الجزء الثالث، وذكرت كلمات منها في الشهادات المعدودة لاشهرهم قبل خاتمة هذا الجزء

فالجهد الذي يخوض غمراته دعاة الاستقلال السياسي والاصلاح الديني لا يتم لهم النصر فيه، ولا يتسقى أمره وثبتت بوانيه، إلا بالتعاون والتظاهر مع دعاة الاصلاح الديني، وقد كثرت جنده المستقلون في فهم الاسلام في الازهر وغيره من القطر المصري وفي سائر الاقطار الاسلامية وهم منذ سنين يفكرون في تكوين وحدتهم وتنظيم حزبهم، فاذا وجدوا من زعماء الاحزاب المدنية رغبة في الاتحاد بهم والتعاون معهم، ظهر هؤلاء من قوتهم في الرأي، وتأثيرهم في الشعب، بألسنتهم الخطابية، واقلامهم الكتابية، ما لم يكونوا يحسبون،

واختصر في هذا الموضوع هنا لانني قد وفيته حقه في خاتمة الكتاب بما ليس وراءه مزيد، إلا اذا ظهر الاستعداد له وانتقل إلى حيز التنفيذ

فراجع الخاتمة، واجمع بينها وبين هذه الفاتحة، وأما الاعمال بالخواتيم (ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

✽ وكتبه محمد رشيد رضا في سلخ جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ ✽

﴿ المواد المهمة التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا التاريخ ﴾

- (١) ما كان شرع فيه الاستاذ الامام من ترجمة نفسه بخطه .
 - (٢) مذكرة بتاريخ حياته كتبها لي لاجملها أصلاً لخلاصة لتاريخه طلبت منه
 - (٣) ما كتبه من تاريخ الثورة العراقية ومذكراته الوجيزة فيها
 - (٤) مجموعة خطية له فيها بعض المستندات في عمله مع السيد جمال الدين في تأسيس جمعية العروة الوثقى السرية ونظامها . وبعض المكاتبات بيده وبين أعضائها
 - (٥) مسودات مقالات ومكتوبات وتقارير كان يعطيني إياها لتبسيطها أو بسطها ونشرها في الجرائد أو إرسالها لبعض الناس ومنها ما هو خاص بالازهر
 - (٦) مؤلفاته كلها وما اقتبسته من تفسيره ودروسه في الازهر
 - (٧) جلة من المكتوبات والرسائل والمصائد التي كانت ترسل اليه وحفظها عنده
 - (٨) مجموعة فيها حكم مقتبسة منشورة بخط السيد جمال الدين وخطه ومقالاته
 - (٩) مقالاته الاصلاحية في جريدة الوقائع المصرية
 - (١٠) مجموعة العروة الوثقى برمتها بخطي وخط بعض اخواني
 - (١١) قوانين الازهر ولوائح التعليم فيه ومحفوظات أخرى في شأنه
 - (١٢) كتاب اعمال مجلس ادارة الازهر
 - (١٣) تقرير محمد بك ابوشادي في مسألة فتوى طعنا اهل الكتاب
 - (١٤) إرشاد الامة الاسلامية إلى أفعال الائمة في الفتوى الترانسةالية للجامعة
- من أكابر علماء الازهر
- (١٥) مجموعة مجلدات المنار وما فيها من المقالات والآراء له وعنه وفي شأنه
 - (١٦) عدة أجزاء من مجلة ضياء الخافقين فيها مقالات للسيد جمال الدين
 - (١٧) مجموعات المجلات والجرائد المصرية التي نشرت ترجمة السيد وترجمته
 - (١٨) كتاب الدفاع عن العراقيين لمحاميهم مستر بروولي
 - (١٩) ما كتبه لي أصدقائنا من تلاميذه ومريديه عن سيرته في سورية بعد النفي ورحلته إلى السودان وفي مدحه والدفاع عنه
 - (٢٠) مذكراتي الخاصة ومكتوباته لي وما اقتبسته واستفدت منه من معاشرته ٨ سنين





THE
LIBRARY OF THE
MUSEUM OF
COMPARATIVE ZOOLOGY
AT HARVARD UNIVERSITY
CAMBRIDGE, MASS.



۱۳۲۵/۱۱

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ
صَادِقٍ فِي الْآخِرِينَ (٢٦: ٨٣) أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٢: ١٠١)

فلك الحمد أن جعلت سير الاولين عبرة للاخرين ، ومننت على عبادك بمن
بعثته في الاميين ، يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا
من قبل لني ضلال مبين . محمد خاتم النبيين ، ورحمك العامة للعالمين ، فصل وسلم
الاهم عليه وعلى آله وصحبه ، والمجدين لهديه واصلاحه من بعده ، حتي ترث
الارض ومن عليها وأنت خير الوارثين

أما بعد فيقول محمد رشيد رضا صاحب المنار إن مصر لن تنسى ذكر الحكيمين
المجدين ، والامامين المصلحين ، السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده
المصري ، فطلاب الاصلاح الديني والاصلاح المدني والاصلاح السياسي ، لا يفتؤن
يشيدون باسميهما على أعواد المنابر ، وفي اعمدة المجلات والجرائد ، ولا يزالون
يجعلونها مضرب الامثال ، ويتناقلون ما يؤثر عنهما من حكم الاقوال ، وجلال
الاعمال ، بل ذكرهما الحميد معروف في سائر الشرق ، غير مجهول في عالم الغرب ، وإن
لقب « حكيم الشرق » ولقب « الاستاذ الامام » لاصقان بهما ، وهغنيان عن تسميتهما
وقد أجمع العارفون والمدونون للتاريخ الحديث على انهما مصدر هذه النهضة
العصرية في مصر والافغان و إيران والهند ، وهم يشعرون بالحاجة إلى وضع
تاريخ لها يدون سيرتهما ، ويفصل أعمالهما الاصلاحية ، ويرون ان ما كتب في
الصحف عند وفاة كل منهما ، وما ينشر فيها أحيانا من التنويه باصلاحهما ، نزر
يسير من أعمالهما وآرائهما النافعة . وعجب بعض المفكرين ان رأوا بعض الافرنج
يكتب في تاريخهما ما لم يكتب مثله أولادها وأحفادها من دعاة الاصلاح والتجديد
وينحون بأشد اللائمة على المصريين منهم عامة وعلى صاحب المنار خاصة إذ
كان أخص مريدي الاستاذ الامام ونابشر علمه وحكمته . والمدافع عن اصلاحه

في عهده ومن بعده . وقد وعد بكتابة تاريخ له عقب وفاته . فنشر سفرأ جمع فيه أكثر منشأته القلمية ، وجزء أجمع فيه أهم ما قيل وما كتب في تأييده ورثائه ، وهما الجزء الثاني والجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام . وقد مر ربع قرن ونيف ولم يصدر الجزء الاول الذي هو التاريخ الحقيقي

أشهد ان لوم اللائمين لمصر على هذا القصير حق . وانني بما يخصني من التثريب علي لاجله وهو أكبره أحق . ورب لائم ملهم . ورب ملوم معذور . وهما أذا أخلص عذري بعد أن اعترفت بتقصيري . وبرئت من ذنبي بانجاز وعدي

توفي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في إثر معارك من جهاده في الإصلاح ماصلي ناراها معه غيري . ومات ما تصدبت له من الضرر . غير متمهل ولا ضجر . وأما ما لدع قلبي من نار فقدده فهو الذي لم يكن لي بحمله حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم كنت مهتداً بعده بالنفي من هذه البلاد كما هدت في آخر عهده . وقد وطنت نفسي على النفي وعزمت على السفر الى الهند . ولم أتحوّل عن خطتي قيد شعرة أعلنت عزمي على كتابة تاريخ للاستاذ الامام فلم ألبث أن بلغت عن الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ان أصدقاؤه قد فرروا تأليف تاريخه بالتعاون بينهم وهم به أولى ، فقلت للمبلغ ان تأليف تاريخين لهذا الامام الكبير ، ليس بكثير ولا كبير . فليكتبوا ما عندهم وأنا أكتب ما عندي

ثم أرسل إلي عميد حزبه المدني وأقوى أركانها سعد باشا زغلول وكان عاده مع شقيقه احمد فتحي باشا من أوربة ، فخبته فبلغني أنه هو واخوانه من مرادي الامام وأصدقاؤه يرون أن أتولى كتابة تاريخه . وأن يساعدوني بما لديهم من المواد والمعلومات . ثم يساعدوني على طبعه ونشره بالمال ، بشرط أن أطلعهم على عملي وأستشيرهم فيه ، فان كثيراً من سيرته رحمه الله كانوا يعدون متكافلين معه فيه . ويعدون من بعده مسؤولين عنه

فاجبته انني لست الا واحداً منكم بل أنا أصغركم ، ولا أستغني عن مساعدتكم ومشاورتكم . ولا أحب الخروج عما ترونه من مصالحتكم . وفي إثر ذلك اجتمع بدعوة منه الشيخ عبد الكريم سلمان وحسن باشا عاصم وشديدك راسهم وقاسم بك أمين والشيخ عبد الرحيم الدهرداش (باشا) وقرروا نذب أحدكم احمد فتحي باشا زغلول ليكون نائباً عنهم في التعاون والتشاور معي في العمل والمفاوضة بك عبده ذلك ، وانه يرضيهم أن يعطيني ما عنده من مواد هذا التاريخ . وانما اختاروه لذلك لانه أنشطهم وأقدرهم عليه وأكثرهم مودة وزبارة لي ، وطلاقة في حرية الكلام معي ، وكان هو المتصل من جماعتهم بسمو الحديو ومحيطا بسياسته وسياسة الانكليز في الامور علما . وهما الجانبان اللذان يحسب لرضاها وسخطها ، كل حساب

وكان كل ما قدمه لي من المساعدة نسخ مقالات الاستاذ الامام الاصلاحية من جريدة الوقائع المصرية الرسمية اذ كان يقتني مجموعتها . وكن أول ماشاورته فيه مقالات جريدة العروة الوثقى وكانت كلها منسوخة عندي . فاما ما كان منها خاصا بالسياسة ومسالمة مصر والسودان وتهديج العالم الاسلامي والهند على الدولة الانكليزية فقد وافقته على تركه وعدم نشر شي منه في منشأته لان الحرية في مصر لا تنسج لنشرها . وقد كانت العروة الوثقى ممنوعة من مصر والسودان والهند لاجلها . وقد نشرت أهمها في هذا الجزء . وأعطاني حموده بك بعض المواد ومن أهمها ما كتبه الاستاذ من تاريخ الثورة العرابية

وأما المقالات الاصلاحية العامة التي بث الحكيمان فيها الدعوة الى جمع كلمة المسلمين واصلاح ذات بينهم . والتعاون على احياء مدينتهم بما تقتضيه وسائل هذا العصر . فقد اتفقنا على نشر أكثرها . وترك ما تعدد انكثارة تحريضا عليها منها . ولكنه أشار أيضا بحذف جل من بعض المقالات ما وافقته عليها إلاكارها . وأقنت اني لا يمكنني أن أكتب هذا التاريخ تحت مراقبه والتقييد بماشاورته بالحرية التي أريدها ، وقد ساعدتني اللجنة بمبلغ من المال أعطيتها في مقابلة مئات من النسخ وزعها أعضاؤها بالجنان ، وبيع بعضها بثمان بخس

فهذا ما حملني على التعجيل بجزء الثاني والرثاء والتعازي ثم بجزء المنشآت والتسويق بجزء الترجمة ثم التطويل في فصول تربية الاستاذ الامام وتعليمه منه بذلك الاستطراد الطويل في الكلام على حقيقة التصوف وما يوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه واتفقنا على جعل ترجمة المنار للاستاذ الامام هي الاصل لجزء الترجمة في مواده مع بسطها والتوسع فيها . وقد قرأه هو ورتبه وأشار بالخير الامر الى حذف بعض المسائل منه لمخالفتها لمقتضى الحال أو سياسة الوقت

وفي أثناء ذلك استقال لورد كرومر العميد البريطاني وخلفه السر ألدون غورست صديق سمو الخديو وكان ذلك في أوائل سنة ١٣٢٥ قبل أن تتم على وفاة الامام ستان ، فكبر نفوذ سموه في الحكومة وضاعت بكبره سعة الحرية علينا ، وأعيد في عهده العمل بقانون المطبوعات فاقنتع أحمد فتحى باشا نفسه بارس كتابه تاريخ الاستاذ الامام كتابة حرة مفيدة صار متعذراً ، فاتفقنا على الوقوف عند ما كان قد تم منه وهو الى ٢٣٢ صفحة وهو المقدار الذي أطلعت عليه الشيخ عبدالكريم سلمان اذ رأيت شاكافي بدني بطبع الكتاب فاعترف بأنه لا يمكن نشره

وجملة القول ان طبع هذا الجزء كان يسوء الخديو عباسا وإن لم ينشر فيه ما كان من مقاومته للامام في اصلاح الازهر والمحام الشرعية والاقواف حتى المساجد فان نشر هذا فيه كإبراء القاري . هنا فانه كان يذل كل قواه في عقاب مؤلفه ، وما

كان أحد فتحي باشا ليرضى بذلك ولا سعد باشاً أيضاً، ومكانهما في حكومة جنابه مكانهما وما انتهى عهد سموه إلا بسبب الحرب الكبرى التي جعلت الحكومة الانكليزية مصر في اثنائها خاضعة لاحكامها العسكرية وأعلنت حمايتها عليها، واشتدت مراقبتها العسكرية ومراقبة الحكومة المحلية بأمرها على المطبوعات، واستمرت هذه المراقبة الشديدة الى ما بعد الحرب بزمان طويل

وانما سنحت الفرصة الاولى لاصدار الكتاب في العهد الاخير لسعد باشا في زعامة الامة ورياسة الحكومة واستقرار نفوذه في البلاد أي في سنة ١٣٤٥ هـ إذ لم يبق للانكليز من النفوذ القوي في هذا العهد ما يخشى أن يمكنهم من حمل الحكومة على مصادرة، على ان ثورة مصر قد انتهت ولم يعد ما في الكتاب من التحريض السابق يضيق على حريتهم. بيد أنه قد عاقني عن افتراض هذه السانحة بالسرعة عدة عوائق منها انني كنت انتقلت من الدار التي طبعت فيها القسم الاول من التاريخ الى دار أخرى وتعذر وضع كل نوع من المطبوعات الكثيرة وحده فلم تقدر على العثور على المطبوع من التاريخ إلا بعد الانتقال الى دار المنار الجديدة ووضع كل كتاب من مطبوعاتنا في محل خاص به. وانما تم بعد وفاة سعد رحمه الله تعالى. وقد وجدنا بعض المطبوع ثالفا وبعضه قد فقد، فاضطررنا الى اعادة طبع أكثرها وشرعت في اتمام الكتاب في أواخر سنة ١٣٤٨ وعرض لي موانع عن المضي فيه مدة سنة وعدت اليه في أواخر سنة ١٣٤٩ وكنت أقدره بثانين كراسة (ملزمة) أو مائة، ثم كنت كلما شرعت في مقاصد فصل من الفصول أتذكر من مواد ومسائله ما كنت ذا هلا عنه حتى بلغ ما يرام القاري، وقد صيرت نفسي وحسبتها على كتابة ثلثة الاخير اربعة أشهر من هذا العام (١٣٥٠) لا اشرك به عملاً آخر حتى تم طبعه في هذه الايام، وبقي كثير من المواد والمستندات من تاريخه وتاريخ السيد جمال الدين ضاق عنها هذا الجزء فوعدت باثباتها في جزء الذيل الذي اضعه له ان شاء الله كيف كتب هذا التاريخ

كتب هذا التاريخ في أثناء سنين كثيرة وفترات بعيدة، وأوقات يختلف فيها الفكر والشعور باختلاف الاحوال، والالاء والاستعجال، ولم تكن مواد مجموعة مرتبة وانما جريت في ترتيب أكثرها على ما كتبته في المنار عقب وفاة الاستاذ الامام من ترجمته، ومنها ما ليس له ذكر في تلك الترجمة، ومن ثم يجد القاري فيه تكراراً لبعض المسائل عن سهو أو عمد، وربما تختلف فيه العبارة في المسألة الواحدة بعض الاختلاف في اللفظ كاختلاف الورق، ولا سيما المسائل التي اعتمدت في كتابتها على حفظي، وأرجو أن لا يكون فيها شيء من التناقض فانهني بفضل الله تعالى قوي الذاكرة للمعاني

ولولا ان طال هذا الجزء حتي صار يثقل حمليه، وعطلت أهم أعماله لاجل اتمامه، مع سوء الحال، وقلة المال، لوضعت له خلاصة كلية ألتخص فيها مقدمات كل مقصد من مقاصد فصوله ونتيجته، وأبين مواضع العبرة فيه على نحو ما ذكرته في أثنائه لبعضها، كأن أعد ما كان عليه الأزهر قبل تصدي الامام لاصلاحه من الصفات والاحوال واحدة واحدة، واعدا ما كان عليه شيوخه وطلابه من الصفات والعادات والاعمال صفة صفة وعادة عادة وعملا عملا، ثم أبين ما كان من تغيير الاصلاح لبعض ما ذكر وأعد فوائده واحدة بعد واحدة، ومثله أن ألتخص آراءه في التربية والتعليم قاعد المفاسد التي ذكرها في لوائح اصلاح التعليم في الدولة العثمانية وفي مصر، وما ذكره منها في خطبه في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية، ثم أعد ما ذكره في تلك المواضع وغيرها من قواعد الاصلاح كلها وهي التي ادعو اليها، ولكنت أفعل هذا في كل فصل بل كل مقصد، واذا لكنت الفائدة اتم والنفع أعم، واذا تعذر على كتابة هذا فأنني أوجه همه الراغبين في مثله أن يتولوه لا أنفسهم بانفسهم، ومن لا يعنيه ذلك فلا يهتم لقراءته . وعسى أن أوفق لهذا في الذيل الذي أرجو أن يكون هو المكمل له وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين والمؤرخين في بيان آراء الاستاذ الامام وعاداته وشيئله وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق، ومنها ما هو منتقد عندي على ما كان بيننا من الاتفاق، الذي يندر أن يوجد مثله بين اثنين من الناس، وأنا أعلم ان منها ما يكون منتقداً في نظر غيري وان كان صوابا عندي، ومنها ما ينتقد علي نشره لأن مثله غير معتاد، أو لانه من مبالغاته التي ربما كان يقصدها التأثير الخاص، ككلمته في تحريف الفقهاء، وهذا نادر ومن أنعم النظر في فوائد هذا الاستقصاء رأى ان أهمها تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية كي يحيط القاري به خيرا، ويحكم عليه حكما صحيحا، فان الذين يترجمون الرجال بذكر محاسنهم ومناقبهم، واخفاء هناتهم ومثالبهم . انما هم شعراء مداحون، لا مؤرخون حقيقيون .

فاذا رأى القاري . انني على اعجابي بسعة علومه ورسوخه في معارفه التي كان بها جديراً بلقب الاستاذ الامام، الذي قبله وأجازه الرأي العام . أثبت انه كان مقصراً في علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الأزهر - وانني على اعجابي باخلاقه التي كان بها حقيقا زعامة الاصلاح والتجديد للامة والملة، صرحت بأنه كان كأستاذه لا يخلو من الحدة . ومما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة، والمبالغة في الورع، المغريتين لصاحبهما بآثارهما على المصلحة العامة - وأنني على اعجابي بقوة تدينه وحسن تعبده ومخافته على تهجده . صرحت بأنه كان يجمع بين الصلاتين في الحضرة أحيانا ترخصا اجتهدا يا خالف فيه المذاهب الاربعة، ولكنه وافق حديثا صحيحا أخذ به غيرهم من الائمة

إذا رأى القارىء هذا وذالك أقن انني لم أكن محاييا له في هذا التاريخ، ولا سالكا فيه مسلك الشعراء، ولا انصار المذاهب وزعماء السياسة، الذين يصورون آئمتهم وزعماءهم صورا مكبرة مزينة مجلّة بما يظهر محاسنهم ويخفى مساوئهم، أو يدل سيئاتهم حسنات، وعلم ان كل ما انتقد على الاستاذ يصح أن يقال فيه « حسنات الابرار سيئات المقر بين » واني وأيم الحق لم أطلع له على عمل ينافي العفة والزاهة ولا الورع والشرف. ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد. فهو أكمل من عرفت من البشر. ومن اطلع على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقوى، او الحكمة والفلسفة، أو تاريخهم الصحيح رأى كثيرا من العجر والبجر. فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرياسة؟

ولقد كنت داعية لزعامته وامامته، وانما كانت دعاية صدق ودين، وجهاد وجلاد، لزعامه تجديد واصلاح. لازعامه رياسة وجاه، ومناصب ومال، وهل يتوسل العاقل المتدين الى الحق بالباطل، والى الاصلاح، بالكذب الذي مطية كل افساد، فيتعجل لنفسه الاجرام نقدا، لاجل ما يرجو لغيره من الاصلاح نسيئا؟ وقد سئل الاستاذ الامام أترجو أن تجني ثمر اصلاحك في حياتك؟ قال أستبعد هذا ولا أظنه، وحسبي أن يتم فيجنيه من بهدي

وجملة القول ان هذا الرجل اكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وخلقا وعلمًا وعملا وصدقا واخلاصا. وان من مناقبه ما ليس له فيه ند ولا ضرب، وانه هو السري الاحوذى العبقري الحقيق بلقب « المثل الاعلى » من ورثة الانبياء في هذا العصور ان لم اطلقه عليه لانه على اطلاقه خاص بالله في نص كتابه، وقد اجتذله الناس في الخطب والجرائد حتى خرج عن معناه.

صنوف قراء هذا التاريخ

ألا وان قراء هذا التاريخ صنوف فمنهم طلاب الاصلاح والتجديد النافع للامة، مع المحافظة على مقوماتها ومشخصاتها التي تمت بها حقيقتها وامتازت من غيرها، وهؤلاء يشكرون لي عملي ويرون أنني أحسنت فيه وأصبت. ويعفون عما عساني أخطأت فيه أو قصرت، ويساعدوني على نشر الكتاب، لانه خير عون على اثاره الهمة، وتقوية الامل، والتنشيط على العمل. بل هؤلاء منا، من عرفنا منهم ومن لم يعرفنا

و يليهم المستعدون للإصلاح بسلامة فطرتهم وحسن نيتهم . ولكنهم غافلون عنه لقد الباعث والمنبه ، وسيجدون في هذا التاريخ أقوى دعاية ، وأوضح هداية ، فلا يلبث قارئه أن يكون منا وينصيرنا بقدر ما أوتي من همة واستطاعة

ومنهم دعاة النهضة المدنية الوطنية اللادينية وسيجد المخلصون منهم ان امامنا امام لهم في جانب من جانبي اصلاحه ، وان الجانب الآخر ينفعهم ولا يضرهم ، فان الجامدين في التقاليد الدينية والخرافيين فيها هم أعداء التجديد المدني ، فاذا صلحوا التقوا معهم في تعزيز النهضة الوطنية وتعاونوا معهم عليها ، مالم يكونوا دعاة للاحاد لذاته . وقد كان المعاصرون منهم للحكيم الافغاني والامام المصري يدينون لزعامتهما ، وان لم يكونوا من مريديهما والمقتبسين منهما مباشرة . بل كان اخلص منهم لقومه ووطنه يعترف بفائدة إصلاحهما الديني وضرورته لا كمال النهضة المدنية ، والرابطة الوطنية ، كما ترى في تابين احرار النصارى وملاحدة المسلمين للاستاذ الامام

وأما الجامدون المصريون على التقاليد والخرافات ، المطبوع على قلوبهم بما مردوا عليه من الخطيئات ، فقد يوجد فيهم من ياتمس لنا العثرات ، ويبدل حسناتنا سيئات ، ويكبر الصغير من الهفوات . ولا خوف على أنصارنا منهم فالحق يدع الباطل والنور يطرد الظلمات ، وانما ضررهم محصور في مقلدتهم من العوام الجاهلين الخرافيين . يصدونهم عن قراءة كتبنا ، وما قرأها أحد وفهمها الا واتبعنا

ومن دون هذه الصنوف والطبقات صنف الملاحدة والزنادقة ، ودعاة الاباحة المطلقة ، وصنف اجراء الاجانب وأعوانهم ، وصنف المتملقين للظلمة المفسدين . وهؤلاء تحوت أدنياء لا يرجعون عن غيهم الا اذا صار للإصلاح دولة قوية غنية تستصلح هؤلاء بالرزق ، وتكبح شر أولئك بالقوة . وأما نحن فاذا خاطبونا قلنا سلاما . واذا مررنا بلغوم مررنا كراما . ونساله تعالى ان يجعلنا معهم ممن قال فيهم (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به . انه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

سيرة الاستاذ الامام

بدء الشعور بالحاجة اليها ومطالبتها بالشروع في تدوينها ما كان الاستاذ الامام يفكر في أن تكون له ترجمة تكتب أو سيرة تدون، لانه كان يستصغر عظام اعماله لتوجه همته الى ما هو أعظم منها . ولا أعظم منها الا غاياتها وثمراتها . وأما علمه وحكمته وأخلاقه وشيئله فكانت محجوبة عنه بتواضعه، فلا يخطر في باله ما في اظهارها للناس من المثل الكامل والاسوة الحسنة . فبينما هو غافل عن هذه ومستصغر لتلك اذا به يطالب من بعض أهل العلم والفضل بالتفضل عليه بترجمته . ثم اذا هو بمعجب به يقترح عليه أن يكتب بيده سيرته . واذا بالمقترح جاد يلحف في السؤال ويكرر الاقتراح، فهل كان هذا المقترح وذلك الطالب من تلاميذه ومريديه وعم أولى الناس بعرفان فضائله ؟ أم من صنائع أياديه فكان من حق الشكر عليها تعريف الناس بفواضله ؟ أم كانا من أولى النزعة الوطنية والعصية القومية، فاحبا أن يباهيا به الاوطان، ويفاخرا به الاقوام ؟ لا هذا ولا ذاك جاء في الامثال « مغنية الحي لا تطرب » والعجيب اذا ألف لا يعود يعجب ، ولذلك يكون اجلال الغرباء للرجل العظيم أبلغ من اجلال أهله وقومه ، وقد كان للاستاذ الامام نصيب عظيم من اكبار الغرباء له لفضائله ومناقبه ، على حين كان أكبر تحويم قومه عليه لجأه ومنصبه ، لالعلمه وحكمته ، واكثر اغتباط اصحابه بالكثيرين به لعلومه ورويته ونجدته ، لا لاجل اصلاحه وجهاده ، فكان لاكثر الفريقين حظ شخصي من تعظيمه

وأما اعجاب الغرباء به فالباعث عليه فضائله الذاتية . لا فواضله العرضية . وقد كان الذي طالبه بكتابة سيرته وتاريخه رجل من فضلاء الاجانب لا من متبعي ملته ولا من اهل وطنه . والذي طالبه بتفضله عليه بخلاصة من سيرته ليزداد علما بمناقبه . وتأسيا به في عمله ، رجل كريم يشاركه في الدين دون الوطن . فكان هذان الاقتراحان سببا لعلنا بما لم نكن لنعلمه لولاها

أما هذا المقترح للخلاصة فكان سببا لحمل الاستاذ نفسه على كتابة مذكرة في خلاصة سيرته أعطانيها لازيد فيها ما علمته منه بالمشاهدة والمشاهدة . وأيضها ليرسلها اليه ، ففعلت ، وبقي عندي الاصل وقد ازدادت به علما . وكان مادة لي في هذا التاريخ فيما سبق صحبتي لصاحبه من الزمن ، وأما المقترح لتدوين كتاب حافل في سيرته التفصيلية فقد كان بالحاحه وما شعر به الامام من اخلاصه ، سببا لشروعه فيه ، ولكن كثرة أعماله وضيق أوقاته عن الاتساع لها كلها قضت بان يسترق له من خلس الراحة سويعات من كل أسبوع أو شهر ، وكان كل ما أمكنه أن يكتبه المقدمة وبعض الفصل الاول الذي موضوعه أهله وبيته . واني أبدأ به وهذا نصه تجاهك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ولي الضعفاء اذ رجعوا اليه ، ونصيرهم اذا اعتمدوا في أعمالهم عليه ، وأخلصوا له العمل ، ومحضوه من شوائب الحيل ، ولم يأسوا من رحمته ، ولم يبطروا بنعمته ، والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله ، الهادي الى الحق وسبله ، الداعي اليه بقوله وفعله ، المؤثر له على نفسه وأهله ، المعرض عن نعيم الدنيا لأجله ، وعلى آله وصحبه الذين بايعوه ، وعلى الصراط المستقيم والنهج الواضح تابعوه .

وبعد فما أنا ممن تكتب سيرته ، ولا ممن تترك للأجيال طريقته . فإني لم آت لأمي عملا يذكر ، ولم يكن لي فيها الى اليوم أثر يؤثر ، حتى أكون لأحد منها قدوة ، أو يكون لأحد في أسوة ، وهذا الذي أجده من استصفار أمري ، وخفاء أثري ، وظهور عجزني عن بلوغ ما يرمي اليه فكري ويطمح اليه نظري كان بمنعني من أن أكتب شيئا يتعلق بحياتي ، تعرض فيه بداياتي ، وشي من أعمالي بعدها وصفاتي ، حتى أكون به باقيا عند من يطالعهم بعد مماتي . وكنت أقول : وقت أصرفه في حكمة أستفيدها خبر من زمن أفنقه في قصة أستعيدها ، وما الذي عساه يبقى مني ، وأنا في قومي لم أترك ما يؤثر عني .

ولكن عرض لي أن زرت يوما بعض معارفي من الغربيين ممن نظروا في الآفاق ، وبحثوا في العادات والأخلاق ، وجابوا لذلك الاقطار ، وركبوا الاخطار ، ونجشوا مشاق الأسفار ، وحققوا في ذلك ونقبوا ، وكتبوا فيه ماشاء الله أن يكتبوا ، فدار الحديث بيننا على شؤون بعض الأمم الحاضرة ، وما يجري فيها مما أدت اليه حوادثها الماضية فذكرت لهم ما عندي في ذلك وما أقيم عليه رأيي من مشاهدات ، في أياحي الخاليات ، فقرأوا فيما ذكرت شيئا يستحق أن يذكر ، ولا ينبغي أن يهمل ويهدر ، وزادوا على ذلك أن قالوا : انهم يسمعون أن يروه منقولاً الى لقتهم ، مقروءاً في قومهم بلسانهم ، ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجا في سيرتي ، معروضاتي تضاعف وصفني لميشتي ، وما تنقلت فيه من أدوار ، وما ندرجت اليه من آراء وأفكار ، مع اسناد

كل شيء الى سببه، ورد كل أمر الى أصله، وسألوني مع ذلك ان اكتب ما أعرف من نسبي وما كان عليه بيتي ومنزلة أهلي من قومي فقلت سبحان الله لو كانوا من المسلمين لقلت انهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تحقرن من المعروف شيئا » أولئك قوم يعرفون الاقدار، ويقدرن الآثار، لا يبخسون شيئا حقه، ولا ينكرون عليه ما استحقه، يطلبون المنفعة في كل شيء حتى فيما لا قيمة له في نظرنا، وفيما نعهده من الضائعات فيما بيننا . هذا الذي الفهم الى دعوتي لتحرير سيرتي - نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتي، وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته، ولاء بكبريائه وعنجهيته، ومفرور بمقامه ورتبته، ومعجب بسنه وشيخوخته، وما استحقني على اثبات شيء مما غشيني الا رجل واحد يشاركني في الملة، ولكنه يفارقي في الاصل والمنشاء، (١) وكان من كلامه في استنهاضي لذلك « انه ان لم ينفع أهل عصرنا انتفع به من يأتي بعدنا » غير أن المرء ولوع بما بين يديه غير واثق بما غاب عنه فكنت اذا فعه بما قدمت من الأعاليل، ولكن لما نصره أولئك الغرباء، وأيده في طلبه العرفاء، وبالغوا في الالاح علي حتى قال لي أحدهم ثاني يوم (٢) « لعل الفصل الاول قد تم » يريد بذلك لعل بدأت في العمل عقب مفارقتي وأتممت الفصل الاول من الكتاب مع اني لم أكن شرعت فيه وفي يوم سفره قال « أرجو أن أقرأ الكتاب بلفتنا في مثل هذه الايام من العام القابل »

لما تكرر الطلب في هذه الصور المختلفة رأيت ان الاضراب عن الاجابة اغراق في الخمول وتقصير في احترام رأي لم يشبهه ياء ولم يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة في المطلوب .

ثم نظرت نظرة في نفسي وما كانت بدايتي، وما لاقيت في تربيتي، وما نزعته اليه اثناء الطريق في سبيري، وما انتهيت اليه فيما تأخر من أيام عمري، قسمت جميع ذلك الى ما عليه الناس حولي، فوجدت اخلافا قد يسهو عنه الغافل، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل .

(١) يعني بهذا الرجل مؤلف هذا الكتاب الذي هو إمام مآشرع به فأنني كنت ألح عليه في ذلك (٢) هو المستر ويلفرد بلانت الانكليزي المشهور

وجدت انني نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الاعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن ان مشمت الاستمرار على ما بالفلون، واندفعت الى طلب شي مما لا يعرفون، فتمت على ما لم يكونوا يصترون عليه، وناديت أحسن ما وجدت ودعوت اليه، وارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين - الاول محور الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة ألف الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لئلا يرد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الانساني وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً الى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس واصلاح العمل، كل هذا أعده أمراً واحداً وقد خالفت في الدعوة اليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الامة - طلاب علوم الدين ومن على شان كلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم .

أما الأمر الثاني فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كاذفي الخطابات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجماً من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجج الذوق وتشكره لغة العرب: الاول ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لاني صورته ولا في مادته ولا يزال شي من بقاياه الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم غير انه والحمد لله قليل . والنوع الثاني ما كان يستعمله الادباء والمتخرجون من الجامع الأزهر وهو ما كان براعى فيه السجع وان كان بارداً، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجنس وان كان رديئاً في الذوق، بعيداً عن الفهم ثقيل على السمع غير مؤد للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللغة العربية وهو وان كان يمكن رده الى أصول اللغة العربية في صورته لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها، ولا يزال هذا النوع موجوداً في عبارات المشايخ خاصة . ثم

ورد علينا في أخريات الايام ضرب آخر من التعبير كان غريباً في بابه وهو ما جاءنا من الأقطار السورية في جريدتي الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني وهذا الضرب كان يعد من غرائب الاساليب وبه أنشئت جريدة الاهرام في مصر وقد محي أثره والحمد لله .

وهناك أمر آخر كنت من دعائه والناس جميعاً في عمي عنه، وبعد عن تعقله، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الامة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الامة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً . دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلهم شهواتهم وانه لا يردده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا نصيح الامة له بالقول وبالفعل .

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه
والظلم قابض على صولجانه . ويد الظالم من
حديد . والناس كلهم عبيد له أي عبيد .

نعم اني في كل ذلك لم أكر الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير اني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا أبرح ادعو الى عقيدتي في الدين وأطالب باتمام الاصلاح في اللغة وقد قارب . اما أمر الحكومة والمحكوم فحركته لتقدر بقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لانني قد عرفت انه ثمرة نجبها الامم من غراس تفرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن والله المستعان .

أصبت نجاحاً في كثير مما عانيت به ، أخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي اليه ، ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز في طبعي، وشي منها مما احتف حولي، وطائفة

منها من اصالتني في الرأي أو خطلي، ومن الذي يستطيع ان يفصل ذلك غيبي، حتى يكون ان شاء الله عبرة لمن يأتي من بعدي،

لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت، وأثبت ما صادفت من لدن عقلت، منبها على ما في من معائب، وعلى احسان الله الي في بعض المزايا، وعلى علل الحوادث التي صررت بها أو صرت بي في أطوار حياتي. غير انني أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بما في بيتي وهو ما لا أعرفه الا بالسماع من أهله كما لا يخفى

الفصل الاول - أهلي

أول ما عقلت من أنا ومن والدي ومن والذي ومن هم أقاربي وجيران بيتي عرفت اني ابن عبده خير الله من سكان قرية محلة نصر ببركز شبراخت من مديرية البحيرة ووقر في نفسي احترام والدي ونظرت اليه أجل الناس في عيني وسكن من هيبته في قلبي ما لا أجده لاحد من الناس اليوم عندي أفاعول هذا الاحترام وذلك الاجلال فأذكر منها قلة الكلام امامي ووقار كان في الحركات والاعمال والهيأة، والتزهد عن مخالطة الصغار من الناس، ومشاهدتي أهل بلده يحترمونه ويبالغون في توقيرهم اياه، وانفراده بالطعام دون والدي وأخوتي فان ذلك كان آية العظم عندنا فانه ما كان يواكل نساءه وأولاده في تلك الاوقات الا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية.

ثم وجدت والدي يقري الضيف ويؤوي الغريب ويفتخر باكرام النزول وذلك كان يزيد منزلته من نفسي علواً وألأناهم من هذا الا أنه شيء يختبره بدون أن أعقل له علة وبالجملة كنت أعتقد أن والدي أعظم رجل في القرية وكل من فيها دونه وهو بذلك كان أعظم رجل في الدنيا فان الدنيا عندي لم تكن أوسع من قرية محلة نصر وكان يمدني في اعتقادي هذا رؤيتي لبعض الحكام كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولا ينزلون في بيت العمدة مع انه كان أوسع رزقاً من والدي وأكثر دوراً وأرضين وفناً في ذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال.

هذا وكنت أعقل من صفري ما كان عليه والذي من ثباته في عزمته وشدة في
المعاملة وقسوته على من يعاديه وقد أخذت عنه ماعدا القسوة وأحمد الله ولا أحصي
ثناء عليه

أما والذي فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والذي وكانت
ترحم المساكين وتطف على الضعفاء وتمد ذلك مجدا، وطاعة لله وحدا . ولم
أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك في نفسي الى اليوم .

عرفت لي عما يسمى بهنسى ولا أعرف من أحواله شيئا لانه مات قبل أن
أحفظ عنه وكان لو الذي ابن عم يسمى ابراهيم ولم يكن له بين الناس ما يدكر به
وكان يساكتنا في بيت واحد ولا يزال ولده يسكن في قسم من منزلنا الى اليوم
ولنا أقارب كثيرون يتصلون بنا من جهة النساء وبيوتهم من خير البيوت في القرية .

هذا ما عرفته من حاضر بيتي في أول أمري وما طرأ عليه سيأتي ذكره في
سيرتي أما ماضيه فأتما أذكره حديثا عن أبي ورواية عن بعض من عرف شيئا منه ممن
أثق به من ذوي قرابتي وغيرهم . جدي لاسي كان يسمى حسن خير الله توفي عن
أبي وعمي بالهواء الأصفر الذي فتك بسكان القطر المصري في أواسط القرن الماضي
ويقال انه كان له قبل موته من نبي عمه وذوي عصته نحو اثني عشر رجلا وثني
بهم واث من بيت آخر جا بالبلدة وسكن فيها وحسد أهل الحسب من سكانها فسمى
بأهل هذا البيت (بيت خير الله) عند الحكماء بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ويقف
في وجوه الحكماء وأعوانهم عند تنفيذ المظالم فأخذوا جميعا وزجوا في السجون واحدا
بعد واحد ومن دخل منهم السجن لا يخرج الا ميتا وكان جدي حسن شيخا بالبلدة
وهو الذي بقي من البيت مع ابن أخيه ابراهيم الذي سبق ذكره

بعد وفاته طالت به ذلك الكاشح بمساعدة أعوان الحكومة الى سلب ما كان
في البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه فان لم يكن بقي الا والذي في سن الرابعة
عشرة وعمي في سن السادسة عشرة و ابراهيم في سن الثامنة عشرة والنساء فأخذ جميع
ما كان في البيت حتى الابواب وبعض أخشاب السقوف فهاجر والذي وعمي ومن
معهما من البلدة ولجأوا الى خال والذي الحاج محمد خضر وكان عدة في قرية صغيرة

تخوف بكينسة أورين من مركز شبراخيت ولكنه لم يستطع إيواءهم عنده خوف
 الاضطهاد لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلقت احقاد الظلمة من الحكام
 ولوشاة فأخدم خفية وسار بهم الى مديرية الغربية عند احد أقاربه في
 قرية يقال لها منية طوخ بمركز السنطة ثم انتقلوا الى قرية بجانبها تسمى شبرا
 وكان معهم من النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون في زراعتها اما بانفسهم
 أو بشركاء يعملون بأيديهم ويقسمون الربيع معهم واشتهر والذي بالفتوة والبراعة
 في الصيد بالسلاح وأحبه لذلك مصطفى أفندي المنشاوي ومحمد أخوه وكانا
 موظفين في دائرة المرحوم اسماعيل باشا الحديوي الاول في وظيفة مفتش زراعة
 والثاني بوظيفة ناظر وطابت له صحبتها وعدوه كأنه واحد من أهلها ودام ذلك
 مدة سنين

ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر وضافت بهم السبل كما كان يسومهم
 ذلك الواشي من الخسف والذل أخذوا يتسللون ليلاً بعديت يمحرون القرية
 ويذهبون ليقبضوا في جوار من سبقهم من أهلي فأحس الشقي بأشراف القرية على
 الحراب وفي ذلك انتقاص منافعه وخسار كبير في مصالحه فجدد لوشاية بالذي
 ومن معه ورفع شكوى الى مدير البحيرة وكان في شبراخيت يذكر فيها ان والذي
 مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية وكان قد صدر أمر المرحوم عباس باشا الاول
 بتجريد الاهالي من السلاح وحظر حمله عليهم فكتب مدير البحيرة بذلك الى
 مدير الغربية وأنهم مع ذلك مصطفى أفندي المنشاوي بایوائه بعض الفارين من
 العسكرية فأخذ الجميع على غرة وقبض عليهم في بيوتهم وسيقوا الى مديرية الغربية
 أما مصطفى المنشاوي فارسل الى لجان الاسكندرية وأما والذي ومن معه فارسلوا
 الى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك الى أن يصدر الامر في شأنهم ولم يزالوا في السجن
 الى أن توفي عباس باشا فافرج عنهم وعن غيرهم وبعد ذلك عاد والذي الى مسقط
 رأسه في أول ولاية المرحوم سعيد باشا ولم يجد شيئاً مما كان يملكه اسلافه الا
 جدران البيت مهدمة .

تقدم انه طالبت اقامته في مديرية الغربية ويقال ان مدتها بلغت نحو خمس

عشرة سنة وفي أثنائها عرف كثيرا من سكان البلاد المجاورة لشبرا وعرف فيمن عرف بيت والدتي وهو بيت كبير في بلدة تسمى حصّة شبشير يعرف بيت عثمان كان كبيره اذ ذاك جدي ابراهيم عثمان الكبير فتزوج والدتي وأخذها الى شبرا وفيها ولدت في أواخر سنة خمس وستين بعد المئتين والالف من الهجرة (*) ولم يولد له منها غيري الا بستان احدهما تسمى زمزم وهي بكرة وتوفيت قبل ولادتي والاخرى تسمى مريم وهي لم تمت حتى تزوجت وأنا في آخر سني طلب العلم

كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا بيت التركمان فسألت والدي عن ذلك فآخبرني أن نسبنا ينتهي الى جد تركاني جاء من بلاد التركمان في جماعة من أهله وسكنوا في الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن ثم انفقوا ان اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ولكنه كان معتقدا له كرامات تنسب اليه واتخذ له خلوة في المحل الذي أسست فيه قرية محلة نصر فلما توفي رأى جدنا ومن كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت الغرنواني ان يبنيوا له قبة ثم يقيموا لهم بيوتا من البناء حول تلك القبة ويسكنوها ثم انضم اليهم بيوت كثيرة تكون من مجموعها قرية محلة نصر وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداءه ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه الى اليوم اما تسميتها بمحلة نصر فذلك لان مزارع البلدة كانت أعطيت أقطاعا لشخص يسمى نصرا فسميت باسمه وذلك في زمن لا نعرفه أيضا . وقد أخبرني المرحوم علي باشا مبارك انه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادي الشهير تعرف بالرحلة الكبرى ورأى فيها اسم محلي نصر ومسروق وأنه نزل ضيفا في بيت خيرا لله التركاني وقال ان البيوت الكبيرة في البلدة كانت ثلاثة: بيت الشيخ وبيت خيرا لله وبيت الغرنواني .

اما بيت والدتي فيقال انه عربي قرشي وأنه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها .

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الانساب في الاسلام وكيف وصل الامر بالمسلمين الى ان لا يعرف الواحد منهم من آثانه أكثر من ثلاثة ومنهم من

(*) كذا بخطه وفي رواية عنه أنه ولد سنة ١٢٥٦ وهي المشهورة

لا يعرف غير والده

جاء الاسلام والعرب أشد الناس محافظة على انسابهم وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لاسلافهم من مجد وحسب وكانوا يبالغون في الاعتزاز بشرف الاحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئا يساوي شرف النسب. وهيات أن يرتفع قوادب بادبه، الى رتبة شريف بنسبه، وان كان خاملا في نفسه غير شي في عمله. ولا يخفى ما كان في ذلك من بخس الحق والاستهانة بالكرم الذاتي والشرف العصامي والانسكال في نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون، لا على ما يكتسبه المرء بمجده واجتهاده. نعم كان في الافئدة بالآباء والاجداد ومعرفة ما أتوا به من جليل الأعمال وما كانوا عليه من كريم الخصال تحريض لأخلافهم على الاقتداء بهم، وحفظ ما ورثوه من علو ورفعة، لكن الكسل الملازم لطبيعة الانسان كان يغلب جانب الانسكال على جانب الاسوة فجاء الدين الاسلامي ينكر الافراط وانقلو في اعتبار الانساب كما أنكر ذلك في كل شي. حتى في الدين نفسه وقال التنزيل (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم «اثنوني باعمالكم ولا ثنوني بآسابكم» ليدل على أن النسب وحده ليس بالشيء يرفع ويخفض ولكن المعول عليه، وما يصح ان يرجع الكرم اليه، انما هو ما يكون عليه المرء نفسه فان وافق ذلك نسباً عاليا وحسبا تالدا كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم والا فلن يخس العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الآلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباءهم، فجعلهم بذاتهم أصولا للكرم وأدواحاً للمجد بما أودع فيهم من الفرائض الغاضلة، ووقفهم للأعمال الصالحة، فمنهم يبتدىء الحسب، واليهم في القرون المستقبلة يرجع النسب

هذا ما اراده الاسلام وما دعا اليه ولكنه مع ذلك امر برعاية النسبة الى الآباء. ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والاتحام بالادعياء وفرض على المؤمنين ان يدعوا لآبائهم ليعرفوا بهم لا بمن اندرجوا فيهم وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقصر من بلوغه رواحل الآمال وأوصى علي بن ابي طالب أن يعهد بمجلائل الاعمال الى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة

وجاءت سنة السلف شاهدة بان للانساب وتوارث الاحساب مظاهر في أعمال الاشخاص
 وآثاراً في خصالهم ينبغي النظر اليها . فلم يهمل الاسلام شأن النسب ، ولم يضع من شأن
 الادب المكتسب ، بل طلب العدل في الامرين ، وجمع لاهله بين النظرين الصادقين .
 ولكن ماذا يصنع الاسلام في المسلمين وقدمهروا في تحريفه وقلب مقاصده
 المالية الى اضدادها كما هم مفرون بذلك من أعدائه . رأوا من بداية الأمر
 أن بعض من لا نسب لهم من الموالي والملصقين قد بلغوا من منازل الكرامة بين
 المسلمين ما يبطئهم عليه أهل الاحساب وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة أو علم
 وفضيلة وبلغ من أمر بعض الموالي الذين لا يعرف أبائهم فضلاً عن أجدادهم في الدولة
 العباسية أن استبدوا على الخلفاء من نسل العباس ابن عبد المطلب واغتصبوا الملك منهم
 وسادوا على كل ذي حسب ونسب في أيامهم بل قد فعل كثير منهم الا فاعيل بأشرف
 الناس نسباً من آل بيت النبوة فسقطت لذلك منزلة الذئب من نفوس المسلمين
 وعاندوا سنة من أعظم سنن الله في خلقه وهي سنة توارث الاخلاق والفرائض وان
 ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيئ الابناء لكسب مثلها وما جاء مخالفاً لذلك
 فهو من مبدعات القدرة الالهية وأما التريّة فان كانت حسنة مهدت السبيل واسرعت
 بشكو بن الملكة الصالحة في النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة
 الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الاخلاق وليس له سلف فيها وان
 كانت رديئة أمانت الاستعداد للخير ومحنه من طبيعة النفس وجاءت بدله بضده .
 وشأن التريّة مع الاستعداد للذائل ذلك الشأن بعينه فان كانت صالحة أمانت ذلك
 الاستعداد ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال وان كانت غير صالحة أسرع
 بتكوين الملكات الخبيثة في نفس الناشئ حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد
 بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم برمي القدر من أول نشأته من قسي الحاجة فيأخذ يكلف
 نفسه ما ليس في استعدادها ويحمل على معاطاة مالا يليق من الحلال من الحيلة والمكر
 والخديعة مثلاً وهو ليس من أهلها .

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنة في أنفسهم مع أنهم لم يغفلوا عنها
 في دوابهم من الخيل والحمير وما شبتهم من البقر والغنم والابل ونحوها فيطلبون

فناج الجهاد من الجياد ولكنهم لا يطلبون البنين من أم البنين بل ولعوا بالجواري والاماء ممن لا تعرف أصولهن ، ولم تعرض على الاختيار خلاهن ، في بيوت آبائهن ، وأكثر ما كان من ذلك في بيوت الخلفاء ومن يليهم من عليا الناس فكان خيرا للابن أن ينسى خوولته بعد ان كان يفتخر بها . وولع الملوك بالماليك وظنهم فيهم الاخلاص في الولاء وثقتهم بامانتهم ذهب بهم الى رفعهم على رؤس من سواهم فتوجهت اليهم النفوس بالرعاية والاحترام وما كان لاحد من أولئك العبيد المحترمين أن يذكر له ابا ، أو يتذكر نفسه نسباً ، فصار الجبل بالانساب عادة وبشت العادة وأصبح البيت القديم المؤسس على مئين من السنين لا يعرف من أسلافه الا واحدا أو اثنين ومن بقي بعد ذلك فقد أكل الزمن ذكره وحجى جهل خلفه أثره .

ولذلك أقول ان ما أسمع من بيت والدي والدي انما هو روايات في أفواه الاهل والاقارب ومن يعرفهم من الناس قد يكون لها طريق الى الصحة وقد تكون ما يخترعه الناس لتزهد في الفضل غير أن ذلك يأتي في الانساب الى قریش وعمر ابن الخطاب أما في الانساب الى أصل تركاني فلا أظن ذلك يأتي ولهذا يرجح عندي جانب صحة الخبر ويؤيده ما يرى في أهل بيتنا من بعض الخصال التي لا يشاركون فيها من يجاورهم في مساكنهم .

(يقول مؤلف الكتاب) هذا ما كتبه رحمه الله في ترجمة نفسه ومن الاخلاق المعروفة لبيته ان والده كان الى آخر عمره شعماً شجاعاً وقوراً مهيباً سخي النفس كريم النخبة محترماً من كل من يجالسوه وكانت والدته برة رحيمة بالمساكين ذكية الفؤاد شديدة الحياء ولا أبعد إذا قلت ان والديه كانا من أسلم الناس فطرة وأحسنهم خلقاً . وكانت هذه الاخلاق فيهما موروثاً ومكتسبة بالمعاشرة والتدوة لا بتعليم المدارس ولا بتأديب المعلمين . وهذا أصل عظيم في استعداد الرجل لما وصل اليه من الكمال الذي لم نر ولم نسمع بمثله وقد قال صلى الله عليه وسلم « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » رواه البخاري ومسلم . لذلك كان السيد جمال الدين يقول له : قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت : يشير الى أن ما كان عليه من الاخلاق العالية وشرف النفس كان وراثياً

❦ الفصل الثاني ❦

❦ نشأته وتربيته وطلبه العلم ❦

نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من سنه وقد كتب هو عن مبدإ تعلمه وتأديبه من مذكرات أعطائها لآسنخرج منها ترجمة مختصرة له - وكان قد طلبها بعض الغرباء الفضلاء - مانصه : « تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاؤا من مكتب آخر ايقروا القرآن عند هذا الحافظ ظانمنهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني والدي الى طنطا حيث كان أخي لأمي الشيخ مجاهد رحمه الله لا جود القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرأه بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

» ثم في سنة احدى وثمانين جلست في دروس العلم وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصف لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بتفهم معانيها لمن لم يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر ثم عثر علي أخي فأخذني الى المسجد الاحمدي وأراد اكرامي على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت ان لا أنجح لي في طلب العلم ولم يبق علي الا أن أعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدال بتغليبي عليه فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا أعود الى طلب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

» فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الازهر وهو الأثر الذي يحده خمسة وتسعون في المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحة

من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم — سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو لا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجة استعدادة لفهم غير أن الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون نفهمهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن يملفوا سن الرجال ، وهم في أحلام الأطفال ، ثم يبئلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه

» بعد أن تزوجت باربعين يوماً جاءني والذي ضحوة نهار وأزمني بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج ونمخ وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر ووجدت فرساً أحضره فركبته وأصحبني والذي بأحد أقاربي وكان قوي البنية شديد البأس ليشيعني الى محطة (إيتاي البارود) التي أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا . كان اليوم شديد الحروالريح عاصفة ملتهبة سافياً ، تحصب الوجه بشبه الرمضاء ، فلم أستطع الاستمرار في السير فقلت لصاحبي أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة ولا بد من التعرّيج على قرية أنتظر فيها أن يخف الحر ، فأبى عليّ ذلك فركبته وأجريت الفرس هارباً من مشادته وقلت اني ذاهب الى (كنيسة اورين) — بلدة غالب سكانها من خوالة أبي — وقد فرح بي شبان القرية لانني كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح وأملاوا أن أقبح معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . أدركني صاحبي وبقي معي الى المصر وأرادني على السفر فقلت له خذ الفرس وارجم وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لو الذي انني سافرت الى طنطا . فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوماً تحوت فيها حالتي ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتني ، ذلك ان أحد أحوال أبي واسمه الشيخ درویش سبق له أسفار الى صحراء ليبيا ووصل في أسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاسنانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث وبجيد

حفظ القرآن وفهمه ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاح الارض وكسب الرزق بالزراعة

« وان هذا الشيخ جاءني صبيحة الليلة التي بتها في الكنيسة ويده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض مريديه بالاطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان أقرأ له فيها شيئاً لضمف بصره فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد لكن الشيخ تبسم ونجلى في ألطف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معاني ما قرأت بعبارة واضحة ثقالب اعراضي فطلبه وتسبق الى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألح عليّ في قراءة شيء منه فقرأت وفسرتم تركته الى اللعب وفعل في اليوم اثاني كما فعل في الأول أما اليوم الثالث فقد بقيت اقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أملّ فيها فقال لي إنه في حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فركه ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى ينازعني الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سأله عمالم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل الى الفهم

« كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا

« لم يأت عليّ اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء إليّ ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء إليّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب وبزهدوني

في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا احتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجر. في اليوم السابع سألت الشيخ ما هي طريقكم فقال طريقنا الاسلام فقلت أوليس كل هؤلاء الناس بمسلمين قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمور ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم - متاع تلك الدعاوي الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الفرور بأننا مسلمون ناجون ، وإن كنا في غمرة ساهين ، سأله ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال لا ورد لنا سوى القرآن تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر : قلت أنى لي أن أفهم القرآن ولم أعلم شيئا قال أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة و بركتها فيفيض الله عليك التفصيل وإذا خلوت فاذكر الله - على طريقة بينها - وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض علي بضعة أيام الا وقد رأيتني أظير بنفسى في عالم آخر غير الذي كنت أعهد ، واتسع لي ما كان ضيقا ، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني جميع المهوم ولم يبق لي الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدني الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد الى إطلاق التوحيد ، - هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسى من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي ان كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي رد لي ما كان غاب من غريزتي ، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي ،

« وفي اليوم الخامس عشر من بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني ان والدني ذهبت الى طسلا لتراني فعلمت ان سيقول لوالدي اتني لا أزال في الكنيسة فأصبحت مبكرا الى طسلا خوف عتاب الوالد واشتداده في اليوم لانني لو كنت أقمت له ألف دليل على اتني وجدت في مهربي مطلبه ومطلبي لما اقتنع

« ذهبت الى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق ان بعض المشايخ كانت ماتت بنته فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على العزية وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجر ومية فأدركت كلا منهما في أوائل الكتاب الذي كان يدرس وجلست في المدرسين فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس ما استلقاه . وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطالع بين الطلبة وأقر لهم معاني شرح الزرقاني فأرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجازيب فلما رفعت رأسي اليه قال مامعناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء : فقلت له وأين الحلوى التي معك ؟ فقال سبحانه الله من جد وجد : ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهاماً مساقه الله الي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا

« وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الازهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لنير ضرورة . وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين - من منتصف شعبان الى منتصف شوال - وكنت عند وصولي الى البلد أجد خال والدي الشيخ درويشا قد سبقني اليه فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم الى يوم سفري . وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ما درست الحساب ما درست شيئاً من مبادئ الهندسة : وهكذا وكنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان : فكنت اذا رجعت الى القاهرة أتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطئ في الطلب وأخرى أصيب الى ان جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر وأواخر سنة ١٢٨٦

« وقد صاحبه من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت ألتقي عنه بعض العلوم الرياضية والحكبية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقي عنه كذلك وأخذ

مشايخ الأزهر والجمهور من طالبيه يقولون عليه وعلينا الاقاريل ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوي بالنفس في ضلالات تخرمها خيرى الدنيا والآخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي: ان الله هو المليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وان اعدى أعداء المليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بمقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علماً وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلها الاضرار بالناس:»

هذا ما كتبه الفقيه عن مبدأ تربيته وتعليمه في ترجمته التي كتبها لي قبل اشتداد مرضه الاخير وكان حدثني بشيء من ذلك قبل ومنه أنه لم يكن يواظب على حضور دروس من لا يفهم أولاً يستفيد منهم وأنه ربما كان يحضر درس أحدهم وفي يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس وان من شيوخه الذين فهم منهم واستفاد في أول تحصيله الشيخ محمد البيهقي وأنه بعد الحضور في الأزهر ثلاث سنين مل الدروس المتأداة كأنه أخذ حظه منها وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً وتميل الى العلوم العقلية ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح الى إعادة شيء منها. وكان الشيخ حسن الطويل ممتازاً في الأزهر بعلمه المنطق فحضره عليه ولم يكن يشفي ما في نفسه بل كانت تشوف دائماً الى علم غير موجود فكان يبحث في خزان الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء ومما ظفر به القطب على الشمسية ناقصاً. وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئاً من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات أو شبه الحزر فيما بينهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها، وأقصى أمنيتهما،

وأخبرني الشيخ رحمه الله تعالى ان الذي أخبره بقدم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين في رواق الشوام قال انه جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو بقم في خان الخليلي فسر بذلك وأخبر الشيخ حسناً ودعاه الى زيارته معه فألقيا بعض فداهما الى

الأكل معه فاعتذرا فطفق يسألها عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب فقيدنا به عجباً وشغفه حباً لأن التصوف والتفسير هما قرّة عينه أود كما قال مفتاح سعادته . وأخبرني رحمه الله تعالى أنه قرأ على السيد كتاب الزوراء للدواني في التصوف ، وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق ، والهداية والاشارات وحكمة العين وحكمة الاشراق من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدواني في التوحيد والتوضيح مع التلويح في الاصول ، والجفميني وتذكرة الطوس في الهيئة القديمة وكتاباً آخر في الهيئة الجديدة نسبت اسمه .

ثم ان السيد أرشده كغيره من تلامذته الى الانشاء وكتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية وصرنهم على الخطابة فبرع فقيدنا في ذلك حتى صار أبرع من أستاذه نفسه لان عبارة السيد رحمه الله تعالى كانت على متانتها وبلاغتها لم تصف من كدورة العجبة الى صفاء الانسجام العربي الخالص كعبارة الشيخ ثم ان مجالس السيد في ناديه وسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة وقلما كان يفوت فقيدنا شيء منها اذ كان يلزمه ملازمة ظله وما يستفيده المرء بالمذاكرة في ساعة لا يستفيده بالدرس في ساعات لان المدرس يكلفك كل ما يلقى اليك سواء كنت تشمر بالحاجة اليه وتعتقد الاستفادة منه أم لا وسواء كنت مستعداً لفهمه أم لا ، وأما المذاكرة فهي مشاركة اختيارية في البحث والانسان لا يختار الا ما يرى نفسه محتاجة اليه ومستعدة لفهمه فمثل الدرس يلقي اليك كمثل من يكلفك أن تأكل مقداراً معيناً من الاطعمة التي قد تماقت بعضها ولا تستطيع تناولها الا بكلفة وغثاء فأنت لا تتغذى الا ببعضها والباقي اما أن يضر أو ما أزل لا ينفع ومثل المذاكرة كالطعام الذي تشتهي وتتناول منه ما يكفيك فيكون كله غداء نافعا . وقد قل بعض علماء التربية من الافرنج انه قلما يفلح من يقيم في مدارس العلم زمناً طويلاً . ولقد كانت مجالس اساتذنا العقيد كمجالس استاذة (رحمه الله) تفيض علماً وحكمة وأدباً ولكن الفصل بينهما في هذا هو ان السيد كان يلقي الحكمة لكل أحد وأما الشيخ فكان يخاطب كل أحد أو كل فريق بما يرى انه مستعد له ومتوجه اليه وقد قال لي

رحمه الله تعالى ان السيد جمال الدين كان يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ومن خواصه انه يجذب مخاطبه الى ما يريد وان لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لانني تؤثر في حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام الا اذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا ظاهرا وهكذا الكتابة: وانا في هذا المقام نورد ترجمته للسيد جمال الدين التي نشرها في أول ترجمة رسالة الرد على الدهريين ونزيد عليها قليلا قال

السيد جمال الدين الافغاني

بمحلنا على ذكر شئ من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباين صوره، في مخيلات الافغانيين لخبيره، حتى كأنه حقيقة كاتبة تجلست في كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله، ولرجل في صفاء حوهره، وزكا. مخبره، لم يصبه وهم الوهمين، ولم يمسسه حزر الخراصين، وانا ندكر مجملا من خبره، روي عن كمال الخبره، وطول العشرة:

هذا هو السيد جمال الدين ابن السيد صفير من بيت عظيم في بلاد الافغان ينسب الى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة (كتر) من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام ولهذا العشيرة منزلة عليا في قلوب الافغانين يجلونها رعاية لحرمه نسبها الشريف وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقل بالحكم فيه وانما سلب الامارة من أيديها دوست محمد خان جد الامير الحالي (١) وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة كابل

ولد السيد جمال الدين في قرية (اسعد آباد) من قرى كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل وفي السنة الثامنة من عمره اجلس لتعلم وعني والده بتربيته فأيد العناية به قوة في فطرته، واشراق في قريحته، وذكا في مداركته، فأخذ من بدائات العلوم ولم يقف دون نهاياتها . تلقى علوما جمة برع في جميعها

(١) يعني به المرحوم الامير عبد الرحمن لان الترجمة كتبت وهو حي

فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وثار يخ عام وخاص ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وألهمية ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك ومنها نظريات الطب والتشريح . أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى مافي الكتب الاسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة وأتى بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره إليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الامم التي مر بها في سياحته واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد أداء الفريضة الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان ولما زحف الامير الى هراة ليفتحها وبمسلكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى أن توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا . وتقلدا لامارة ولي عهدا شير علي خان سنة ١٢٨٠ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على اخوته خصوصا من هو أكبر سنا منه ويعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة والبلوهم للفساد طلبا للاستبداد بالامارة

وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد أعظم فلما أحسوا ابتدبر الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار ونفروا الى الولايات كل منهم ذهب الى ولايته التي كان يلبها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجاللات عنيفة عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن (الامير السابق) وتغلبا على عاصمة المملكة وألقوا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن قرنة وسمياه أميرا على أفغانستان ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد أعظم خان

وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لآيئه في العظام وما دونها (على خلاف ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق. وعدم التمويل على رجال حكومتهم) وكانت تخلص حكومة الافغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الأمير بالاغلب من ذوي قرابته حمله على تفويض مهمات من الاعمال الى أبنائه الاحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة ففاق الطيش أخذهم وكان حاكما في قندهار على منزلة عمه شير علي في هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجراة على الانفراد عن جيشه في مثنى جندي واخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما انتفت بمقرب خان قائد شير علي فوجد ذلك الفرع المتهور منقطعاً عن جيشه فكر عليه وأخذه أسيراً قد شنت جند قندهار وقوي الامل عند شير علي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي وبدلوا لها قناطير من الذهب ففرقتها في الرؤساء والامالين لمحمد أعظم فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات وبعد حروب هائلة تغلب شير علي وأهزم محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن فذهب عبد الرحمن الى بخارى (وعاد الى بلاده رحمه الله) وذهب محمد أعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر في مدينة نيسابور وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسه الأمير بسوء احتراماً لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للقدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه باطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد ايران كيلا يلتقي فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر فلما وصل الى الترخوم الهندية تلقته حكومة الهند بمفاوة في اجلال الا انها لم تسمح له بطول الاقامة في بلادها ولم تأذن لعمالها في الاجتماع عليه الاعلى عين من رجالها فلم يبق أكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند في أحد مرأى كباها على نفقنها الى السويس فجاء الى مصر وأقام بها نحو

أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر، وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين
وما لوا إليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه في بيته
ثم تحول عن الحجاز عزمه وتمجل بالسفر الى الاسنانة

وصل الاسنانة وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقة الصدر الاعظم عالي
باشا ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله
وهو مع ذلك بزبه الافغاني قباء وكساء وعمامة عجرا وحومت عليه افضله قلوب
الامراء والوزراء، وعلاذ كره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه وهو غريب
عن ازيائهم ولقنهم وعاداتهم وبعد ستة أشهر سعي عضوا في مجلس المعارف
فأدى حق الاستقامة في آرائه وأشار الى طرق لتعظيم المعارف لم يوافق على الذهاب
اليها رفاقؤه . ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الاوقات
حسن فهمي أفندي لانها كانت تمس شيئاً من رزقه فأرصد له العنت حتى كان
رمضان سنة ١٢٨٧ فرغب اليه مدير دارالفنون نحسين أفندي ان يلقى فيها خطاباً
لحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فألح عليه نحسين أفندي
فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل القائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا .
وعلى شرواني زاده وكان مشير الضابطية وعلى دولومنيوف باشا ناظر المعارف وكان
عضوا في مجلس المعارف واستحسنه كل منهم وأطنب في مدحته

فلما كان اليوم المعين لاسماع الخطاب تسارع الاس الى دار الفنون واحتفل
له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد وحضر في الجمع
معظم الوزراء وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعده وأرسل
حسن فهمي أفندي أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة لتمثيل به
وما كان بمجدها لوطالب حقاً ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية بيدن حي
وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه
العضو في البدن فشبه الملك مثلاً بالمنخ الذي هو مركز التدبير والارادة . والحداثة
بالمضد والزراعة بالكمد والملاحة بالرجلين وهضي في سائر الصناعات ولاعضاء
حتى أتى على جميعها بيان ضاف واف ثم قال هذا ما يأنف منه جسم السمادة الانسانية

ولاحياة الجسم الابروح وروح هذا الجسم أما النبوة وأما الحكمة ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تألها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالته . أما الحكمة فما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات وبأن النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه . وإن أحكام النبوات آتية على ما في علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فلاخذ بها من فروض الايمان اما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها الا من باب ما هو الاولى والا فضل على شريعة أن لا يخالف الشرع الالهي .

هذا ما ذكره متعلقا بالنبوة وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية الا ان حسن فهمي أفندي أقوم من الحق باطلا ليصيب غرضه من الانتقام فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم ان النبوة صنعة واحتج لتثيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتماق بالصنائع (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) ثم أوعز الى الوعظ في المساجد أن يذكروا ذلك مخفوفاً بالتفنيد والتنديد فاهم السيد جمال الدين المدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمي به ورأى ان ذلك لا يكون الا ببحثه شيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك واشتد في طلب المحاكاة وأخذت منه الحدة مبلغاً وأكثرت الجرائد من القول في المسألة فمنها نصراء للشيخ جمال الدين ومنها أعوان لشيخ الاسلام فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون وبغض على الكريهة وطول الزمان يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها فلم يقبل واجب في طلب المحاصمة فعظم الامر وآل الى صدور أمر الصدارة اليه بالجللاء عن الاستانة بضعة أشهر حتى تسكن الحواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء فقارق الاستانة مظلوماً في حقه ، مفلوياً لحداثته ، وحله بعض من كانت معه على التحول الى مصر فجاء اليها في أول المحرم سنة ١٢٨٨ هذا مجمل أمره في الاستانة وما ذكره سليم العنحوري في شرح شعره المسمى سحر هاروت مما يخالف ذلك خلط من الباطل لاشائبة للحق فيه

مال السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستأنته مساعيه الى المقام وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصري كل شهر نزلاً

أكرمه به لافي مقابلة عمل واهتدى اليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم واستوروا
 زنده فاوردى، واستفاضوا بحره ففاض دراهم وحملوه على ندر يس الكتب فقرأ من الكتب
 المالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية الطبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية
 وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ الى
 آخر ما اختتم ولم يذهب الى الا زهر مدرسا ولا يوما واحدا نعم كان يذهب اليه
 زائرا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائده الاخذ عنه وأعجبوا
 بديته وأدبه وانطلقت اللسان بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية ثم وجه
 عنايته لحل عقل الاوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك أبواب واستضاءت بصائر
 وحل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمة والدينية فاشتهروا
 على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان أرباب القلم في الديار
 المصرية القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل وما
 كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومحمد باشا سيد أحمد على
 ضعف فيه ومصطفى باشا وهبي على اختصاص فيه ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون
 في المراسلات الخاصة واما مصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية واما شاكلها
 ومن عشر سنوات ترى كتبه في القطر المصري لا يشق غبارهم ولا يوطأ
 مضارم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه
 أو عن أحد تلامذته أو قلد المنصلين به ومنكر ذلك مكابر ولحق مدابر هذا
 ما حده عليه أقوام واتخذوا سبيلا لاطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية
 أخذا بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها على أن القائلين بهذا القول لم
 يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول قصارا النظر خشية على عقائدهم من الزيف أما الثابتون
 في إيمانهم فلهم النظر في علوم الأولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين
 فلا يزين يدهم ذلك الا بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم ولنا في أئمة الملة الاسلامية
 أثبت حجة تقوم على ما نقول ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب
 الفلاسفة الى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم أيدهم اخلاط من الناس

من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون، غير ان هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، الى أن تولى خديوية مصر حضرة خديوها المغفور له توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناشئين لمحامده، إلا ان بعض المفسدين ومنهم (مسترفيان) قنصل انكترا الجنرال سعى فيه لدى الجناب الخديوي ونقل المفسد عنه، ما الله يعلم انه بريء منه، حتى غير قلب الخديوي عليه فأصدر أمره بأخراجه من القطر المصري هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ وأقام بمحيدرا آباد الدكن وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين . ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر دعي من حيدر آباد الى كلكته وأزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزية ثم أبيع له الذهاب إلى اي بلد فاخترار الذهاب إلى أوروبا واول مدينة أصعد إليها مدينة لوندرة اقام بها اياما قلائل ثم انتقل عنها الى باريز واقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه في أثنائها . ولما كلفته جمعية العروة الوثقى^(١) ان ينشئ جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية ايدها الله سألني ان أقوم على تحريرها فأجبت، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ما لم يأخذهم قبلها وعظ واعظ ولا تقيمه منبه، وذلك لخلوص النية في تحريرها، وصحة المقصد في تحبيرها، فمما قامت للوانع دون الاستمرار في اصدارها حيث اقلت ابواب الهند عنها واشتدت الحكومة الانكليزية في اعزازات من تصل اليهم فيه، ثم بقي بعد ذلك مقياً باوربا أشهر آني باريز وأخرى في لندرة إلى أوائل شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ وفيه رجع إلى البلاد الايرانية أما مذهب الرجل فحنيفي حنفي وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم، وله منابر شديدة على أداء الفرائض في مذهبه وعرف بذلك بين معاصريه في مصر أيام اقامته بها، ولا يأتي من الاعمال إلا ما يحل في مذهب امامه، فهو أشد من رأيتي في

(١) هي جمعية سياسية كان لها فروع في الاقطار الاسلامية

المحافظة على أصول مذهبه وفروعه

اما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد يكاد يذهب غيره على الدين وأهله
اما مقصده السياسي الذي قد وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعي اليه
مدة حياته، وكل ما اصابه من البلاء اصابه في سبيله، فهو انتهاز دولة اسلامية من
ضعفها، وتبنيها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الامة بالامم العزيزة، والدولة بالدول
القوية، فيعود للاسلام شأنه، والدين الحنيفي مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة
بريطانيا في الاقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية، وله
في عداوة الانكليز شؤون يطول بيانها

اما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلبي إلا بنوع من الاشارة
اليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وبراها في صورها اللاتقة بها
كأن كل معنى قد خلق له. وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش
فنظرة منه تفكك عقدها. كل موضوع يلقي اليه، يدخل للبحث فيه كأنه صنع
يديه، فيأتي على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر
المستور منه، واذ انكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم لفي باب الشعرية
قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والابداع، وله لسن في الجدل وحذق
في صناعة الحجلة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا يعرفه، وكفاك شاهداً
على ذلك انه ما خاصم أحداً إلا خصمه، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الاوربيون
بذلك بعدما أقر له الشرقيون. وبالحجلة فاني لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة
العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ. ذلك فضل
الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

اما اخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله ان
يسع، إلا ان يدنو منه أحد ليمس شرفه او دينه، فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض
منه الشهب، فينما هو حليم أو اب، اذا هو أسد واثاب، وهو كريم يبذل ما بيده، قوي
الاعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر، عظيم الامانة، سهل لمن لاينه، صعب
على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسي الذي قدمناه، اذا لاحت له بارقة منه،

تفجّل السير للوصول اليه ، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد من الغرور بزخارفها ، ولوع بمظالم الأمور ، عزوف عن صفارها ، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد الزاج وكثيراً ما هدمت الحدة مارفته الفطنة ، إلا أنه صار اليوم في رسوخ الأطواد ، وثبات الافناد ، فخور بنفسه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يبعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أنعم من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده

أما خلقه فهو يمثل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز حماء الله ربعة في طوله ، وسطي في بنيته . قمحي في لونه ، عصبي دموي في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عريض الجبهة في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الاحداق ، ضخم الوجنت ، رطب الصدر ، جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ، ما ينطبق على كمال خلقه بقي علينا ان نذكر له وصفاً لو سكتنا عنه سئلنا عن اغفاله وهو انه كان في مصر يتوسع في اتيان بعض المباني كالجُلوس في المنزهات العامة والاماكن المدة لراحة المسافرين ، وتفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة وكال الوقار . وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيداً من اللغو ، منزهاً عن اللهو ، وكان يوافيه فيها كثير من الامراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم . وهذا الوصف بما عده عليه بعض حاسديه ، لكن الله يحب ان تؤتى رخصه ، كما يحب ان تؤتى عزائمه ، وأي غضاضة على المراء المؤمنين ان يفرج بعض همهم بما اباح الله له . هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الاففاني آتيناه به دفعا لما افتراه عليه الجاهلون ولو سلكناه في تاريخه مسلك التفصيل ، لادى بنا الى التطويل . اه



(يقول المؤلف) وكتب الاستاذ الامام في كتاب أسباب الحوادث العراقية نبذة أثبت فيها أن هذا السيد كان ، مبدأ النهضة الاجتماعية السياسية بمصر ، وذلك قوله بعد بيان ما كانت عليه مصر في زمن الخديو اسماعيل باشا ما يأتي بنصه : « هذه كانت شذائد مهاكمة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتمتع فيها

العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ضياء لو كمل ظهوره ، وانتشر نوره ،
لاهدى به الضال ، وحسن به الحال

«ذلك ان أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الاعلى ومن يستنييه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته ، ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ، او خيائته ومظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له ان يبديه في ادارة بلاده ، او إرادة يتقدم بها الى عمل من الاعمال يرى فيه صلاحا لامته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى انهم محكومون مصر فون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الامم الاخرى سواء كانت اسلامية أو أوربية . ومع كثرة من ذهب منهم الى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا الكبير الى ذلك التاريخ الذي ذكرناه وذهب العدد الكثير منهم الى ماجاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد علي باشا الكبير و ابراهيم باشا لم يشعر الاهالي بشيء من ثمرات تلك الاسفار ولا فوائد تلك المعارف التي اكتسبت بها ، ومع ان اسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقه ان يعلم الاهالي ان لهم شأنًا في مصالح بلادهم وان لهم رأيا يرجع اليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بان له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية لان مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل . أما في النظام فلانه قد نص فيه على ان نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه وما يعن لها أن ترسله اليه للمداولة فيه ، واما في العمل فلانه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخبر الاعضاء بارادة جنابه فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، فكانوا يشعرون بان الارادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في آرائهم .

هل كان يمكن لاحد ان يعمل على خلاف ما يامر به ؟ هل كان يمكن لشخص ان يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له ، او الوجهة التي يتوجه اليها الحاكم ؟ لو حدثه الفكر السليم بان هناك وجهة خيرا من تلك هل كان يمكنه أن ينطق بما حدث به فكره ؟ كلا فانه كان بجانب كل لفظ نفي عن الوطن او إزهاق الروح أو تجريد من المال ،

وبينا الناس على هذا لا كاتب ينبيههم ، ولا خاطب يعظمهم ، اذ عرض امر
 قهرا بانتفت اليه ، أو نحوهم الافكار حواله ، وان كان مما يعرض في كل مكان ،
 وجرت به السنة الالهية في كل زمان
 ﴿ مبدأ النهضة المعنوية بمصر ﴾

« جرت سنة الله في خلقه بأن عظام الامور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام
 الاشجار تسبق من بزورها ، جاء الى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ رجل غريب ، بصير
 في الدين ، عارف بأحوال الامم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جريء القلب ، وهو
 المعروف بالسيد جمال الدين الافغاني ، وركن الى الاقامة في مصر فتعرف اليه
 في بادى الامر بعض طلبة العلم ، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان ، ثم
 انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من افكار وعقائد ، فكان ذلك داعيا لطلب
 الاجتماع به لتعرف ما عنده . ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان
 يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم ، وهو
 في جميع اوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يظهر العقيدة ،
 أو يذهب بالنفس الى معالي الامور ، أو يستلقت الفكر الى النظر في الشؤون العامة
 مما يمس مصالحة البلاد وسكانها . وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك
 المعارف الى بلادهم ايام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى احيائهم ، فاستيقظت
 مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في اطراف متعددة من البلاد
 خصوصا في القاهرة — كل ذلك والحاكم القوي في علومه مكانه ، ارفع من ان يناله
 هذا الشعاع في ضعف شأنه ، ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء ، وينتشر في
 الإنحاء على غير نظام الى ان نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة الروسية في سنة ١٢٩٣
 « وجد الناس من أنفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية
 صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسية فتطاعوا الى ما يرد من اخبار الحرب .
 وكثرت الاجانب في هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الاوردية الى طلابها
 من الاوربيين ، ومخاطبتهم للعامة والخاصة هدت الطريق الى العلم بما فيها ، فزادت شوق
 الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد

العربية التي كانت لا تزال الى هذا العهد قاصرة على مالا يهتم ، فانطلقت في ايراد الحوادث ونشرها ، وظهر فيها الميل الى اطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية ، وازدراء ما كان ينسب الى الجنود العثمانية ، فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها في نشر الاخبار ، ومناوأتها في المشرب ، واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لا يمكن منعه ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة

« لم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب بل اجتبر الكثير منها على نشر ما عليه سائر الامم في سيرتهم السياسية والمعيشية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الاحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد ، وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الاقلام على التحرير وانشاء الفصول الادبية والعلمية في مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتهما عن اصلاح الافكار ، وتهذيب الاخلاق ، فتساقطت الى ذلك الكتاب وتبارت الاقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه في عالم خيال ، أو أرض غير ارض الجبال ، ومن يطلع على اعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مراة الشرق والاهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا » اهـ ما اردنا نقله من كتاب اسباب الحوادث العراقية وهو على ايجازه صريح في ان السيد جمال الدين كان هو مبدأ هذه النهضة الفكرية في مصر . وكان بعد ذلك يغذيهما يارشاده وجرائد تلاميذه حتى صار له حزب سياسي عظيم من ذلك الحزب الادبي الذي لم يكن يخمار على البال



واننا نندم ما كتبه الاستاذ الامام على قوته وورسوخه بما كتبه اديب بك اسحاق الكاتب المشهور وكان من تلاميذ السيد جمال الدين وافراده حزبه في زمنه قال اديب :



جمال الدين

«هو الحكيم الخطيب البالغ الحجة، النبيه المتوقد الذكاء، الجري، الذي لا يعرف الخوف، النسيب السيد جمال الدين الحسيني الافغاني، ولد بكابل في بيت شرف وعلم وعمره الآن نحو ٤٥ عاما وطلب العلم بالفارسية والعربية على ماجرت به عادة الامراء والعلماء في بلاده فتبحر في المنقول والمقول، وغابت عليه مذاهب قدماء الحكماء، فدخل في ذلك بداء بدء شي، من التصوف فانقطع حيناً بمنزله يطلب اخوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيقة، حتى صار له في القوم كثير من الأتباع والريدين، كل ذلك وهو دون العشرين سنًا. ثم خرج من خلوته مستقر الرأي على حكم العقل وأصول الفلسفة القياسية، ومات عامئذ أمير الافغان عن ولدتين وهما شيرعلي خان ومحمد أعظم خان فاقتلا على الولاية فانتصر جمال الدين للثاني

فقربه وجعله من رؤساء جنده فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جراءة واستخفافاً بالموت، وأقام على ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان، حتى دارت الدائرة على محمد اعظم خان، فانصرف الاولياء عنه إلا جمال الدين ونفر غيره من الامناء فسار بهم الى الهند فلم يلبثوا أن أوجست حكومة الانجليز خيفة من صاحب الترجمة فعاد إلى أفغانستان ثم هاجر الى الحجاز على قصد المجاورة فلم يلائمه ثم الهواء، فقصداً لستانة وأقام بها بمجهول المكان، حتى اهتدى اليه بعض أكابر الوزراء فعرف قدره وفضله، فجعله من أعضاء مجلس المعارف العالي، ثم اقترح احد الاسراء عليه ان يخاطب في دار الفنون فأجاب وكانت خطبته في الصناعات فأنكر مشايخ العلم اشياء منها واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيراً على صاحب الترجمة لواقعة حال جرت له في مجلسه، فالتبس من الدولة إبعاده فارسلته الى الحجاز فاقام فيه مضطراً، وكان قد عرف رياض باشا احد وزراء مصر واتصل منه باسباب مودة فقصده وادي النيل عام ١٨٧١ فاجرت له الحكومة الخديوية رزقا كافياً على ان يكون من المدرسين، فجرت بينه وبين بعض علماء الازهر مناظرة، أفضت الى المنافرة، فانقطع إلى منزله وصار له فيه حكمة تدريس يحضرها كثير من الطالبة بل من المدرسين ثم صارت مآتيق للثبهاء من رجال الحكومة والوجهاء فكان يكشف بعضهم بأرائه الحرة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل، على انه بقي معجول الشأن عند العامة، حتى ظهرت آثاره وآثار مردييه في جريدة مصر، فظهرت شأنه، وصارت تذشر له بعض المقالات تارة باسمه ومرة تحت حجاب اسم مصنوع مثل (مظهر بن وضاح) فطار صيته، وعظم نفوذه

وكان السيد جمال الدين كثير التطلع إلى السياسة، شديد الميل إلى الحرية، قوى الرغبة في إنقاذ المصريين من الذل، فلما عظم التداخل الاجنبي في مصر واختلت أمورها المالية، علم أنه لا بد من تغير أحوالها فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكامة على مبدأ الحرية فدخل المساوئية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء ثم أسس محفلاً وطنياً تابعاً للشرق افرنسوي ودعا مردييه من العلماء والوجهاء اليه

حصلوا أعضاؤه فحوا من الأمانة عدا وعظم اقبال الناس عليه حتى ان توفيق باشا
 في العهد حينئذ طلب الدخول فيه وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة
 الانكليز جهر بذلك غير مرة ونشر في جريدة مصر فصولا ناطقة به خصوصا
 بعد اعتداء الانكليز على ابناء آية فاجوا عليها وترجمتها جرائد لوندرة واهتموا
 بها كثيرا حتى ان المستر غلادستون تولى بنفسه أمر الجدل في موضوعها فلما عظم
 شأن محمله داخل الخوف منه فحصل انكثاره فوثق به الى الحكومة وبث الرقباء
 في المحفل فسموا فيه فسادا

وفي خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك والاختلال فظهر للسيد
 جمال الدين ان الحديوي اسماعيل مخلوع لاحالة فكشف الفطاء عن مقاصده
 السياسية وأخذ يسعى في انفاذ أغراضه فلقي المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا
 ومكاتب التيمس وكلهما بلسان حزب كبير فقال أمره بعض أمراء المصريين
 قويت بذلك حجته وشأنه ونفذت سعاية أعدائه فأمر الحديوي الجديد بنفيه
 لواء شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر سبتمبر سنة ١٨٧٩ فأخذ غلساً وقبض
 على من كان في حلقة وأرسل هو وخادمه الأمين (أبو تراب) مخفورين الى
 السويس ومنها الى أبو شهر (فرضة في العجم) وهو الآن بمحدر أباد مرفوع المكان
 عالي المقام وبقيت كتبه وأوراقه في مصر وقيل ان روجرس بك أخذها ثم
 أعيدت لمصاحبا

(قال أديب) عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مرديبه ومحبيه طول مدة
 الاقامة بالمهرسة والاسكندرية فكلامي في ترجمة حاله عن علم واختيار على اني ملتزم
 فيه جانب الصدق برى من الهوى يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين
 واقف على ما أقول وكيل والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ربة ممتلي قوى البنية
 جذاب النظر نافذ اللحظ خفيف المارضين مسترسل الشعر بحجة وسراويلات سوداء
 تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زبي علماء الاستانة وانه عزب
 عفيف النفس قانت كثير القيام لا ينام الا الفلن الى الضحى ولا يأكل غير مرة

(٦ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

واحدة في اليوم على أنه يكثر من شرب الشاي والتدخين قوي المعارضة ميال الى
المعارضة طويل الحجة واسع المحفوظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر، ويهتك استار
السرائر، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج

ومن عجائب ذكائه انه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على
الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً في أقل من ثلاثة شهور بلا استاذ الا
من علمه حروف هجائها يومين

ومن غرائب فضله انه كان يتتبع حركة المعارف الاوربية والمستكشفات
المصرية ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديداً حتى كأنه قرأ العلم في بعض
مدارس أورباً بالمالية

ومن مدعشات أحواله الدالة على ثبات جأشه وعفة نفسه انه قبض عليه لما
لا تعلم من الشر، فكان سائراً الى الخطر، سير الشجاع الى الظفر، وانه أنزل الى البحر
في السويس منفياً خالي الجيب فأناء فيما يقال السيد النقادي قنصل ايران بذلك
انشر ومعه نفر من تجار المعجم وقدموا له مقدارا من المال على سبيل الهدية أو القرض
الحسن فردده وقال لهم «احفظوا المال فأنتم اهل الأوج ان الليث لا يمدم فربسة حبما
ذهب» اه من كتاب الدرر



ترجمة سليم بك العنحوري للسيد جمال الدين

قال في شرح ديوان (سحر هاروت) في تفسير قوله :

تنو الي بمقله غضبي اذا بصرت بطود سال كالوديان

فكأنني يكون نسفيلد زمانه وكأنها من بنضها الافغاني

ما يأتي بعد ترجمة وجيزة لورد يكون نسفيلد الوزير الانكليزي الشهير :

« وأما الافغاني فهو السيد جمال الدين العالم الفيلسوف الشهير . نبغ في بلاد
الافغان فتعلم فيها اللغة الفارسية والعلوم الدينية والمنطق وشيئاً من علم الاخلاق
وكان ممن انتظروا في سلك الهندية فلما قام الخلاف عام ١٨٦٣ على امارة الافغان

من شير علي خان واخوته وأولاد اخوته انحاز جمال الدين الى أفضل خان
 (أو الى محمد أكبر خان) «وعدت من مشاهير أنصاره بيدان الانكليز أخذوا
 أخيراً بناصر شير علي واعترفوا له بمعاهدة عمت في أوائل سنة ١٨٧١ بأنه ولي
 البلاد الشرعي فاحقق سعي جمال الدين وفرت تحت الى الهند وهناك أخذ عن
 علماء البراهمة والاسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ وتبحر في لغة (السانسكريت)
 ثم لغات الشرق وبرز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك الى الاتحاد والقول
 بقدمية العالم زاعماً ان الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكوّنة بترك وتحويل
 طبيعيين مانراه من الاجرام التي تشغل الفلك وتبجاذبها الجو وان القول بوجود
 محرك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقى الانسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه
 في المعتقدات بمعنى انه عند ما كان همجياً صرفاً وساذجاً بحثاً كان يعبد خنافس
 للوجودات من مثل الخشب والحجر ولما ترقى في معراجي المدنية والسم رقى بالنسبة
 عنها معبوداته فصار يحترم النار فالسحاب فالافلاك فاجرامها وما يروح يتدرج
 بمرقي الخبرة ويستضيء بمشكاة العلم وهو آخذ في سير طبيعي برفع مكانة معبوده
 ويرقيه في مراتب السموات حتى قال هو منزّه عن الكيف والسّم معصوم من البداية
 والنهاية . بعيد عن الحصر والاحاطة . مالى السك وفي السك يرى الكل ولا
 يراه أحد غير ان مدارك الانسان ترقى بعد ذلك الى حد أوصلها الى العلم بأن
 كل هذا ضروب أوهام ، وأضغاث أحلام ، نشأت في الاصل عن خوف الانسان
 من الموت وميله الى الخلود ، ذلك ما جعله يثني في الهواء صروحاً من الاماني وابراجاً
 من التعلّات مما رسخ في تخيلته الى حد كاد يكون اعتقاداً فعلق يقول انه سينحول
 بعد هذا الموت الى حياة خالدة ونعيم مقبم وان الخشب أو الحجر هو الذي ينتهي
 به الى هذا المقام الاسمي اذا أداه احتراماً ، وأوسع اكراماً ، فانبثت في عبادته
 تخلصاً من مرارة التفكير بمات لا تعقبه حياة . ثم عن له ان النار أكثر اقتصاداً ،
 وأجل نفعا واضراراً ، قال عنه الپه ، ثم رأى ان السحاب خير من النار وأقدر
 فانضوى اليه ، وعول عليه ، وما برحت تزداد حلقات تلك السلسلة المصوغة باداني

« الصواب انه تمجيز لعمد أعظم خان كما تقدم

وهم وميل مراقبين لفريضة الانسان وفطرته حتى انتهى الى تلك الرتبة المتناهية علواً فصار من موجبات نوايس الاشياء رد الفعل المؤدي الى الجزم بان كل ذلك خزعات منشؤها الأماشي لاحتقيقة لها ولا رسم

وليس اعتقاد المرء ما خط كفه كما ان حاكم الكفر ليس بكافر (عود على بدء) وبعد ان أقام في الهند ردحاً جاء فروق عاصمة الدولة العليا فانصل بصدرها (أمين عالي باشا) وحظي لديه وما لبث هناك ان أفتن افقة التركية ولما رغب اليه الصدر ان يخاطب في دار الشورى ارتجل خطبة في الصناعات غالى فيها الى حد ان ادجج النبوة في عداد الصناعات المعنوية فشغب عليه طلبة العلم وشددت صحيفة الوقت عليه النكير بما الجأ الصدر الى ابعاده فقصده مكة وجاور هناك عاماً وبعث عام أخذ في خلالها مبادئ اللسان العربي (كذا) ثم جاء مصر وكان قد سبق فمرف في الاستانة رياضها المشهور (وزير المعارف أو انشد) فأكرم مشواً اجلالاً له ولله وانزله حجرة في الجامع الأزهر (كذا) وعين له راتباً رايياً مع وظيفة التدريس بعد ان محضه النصيح بان يلزم خطة الشرع الأنور والدين الخفيف فلبث في الجامع حيناً من الدهر في فروض الصلاة وبواصل الانفال والاوراد وبواظب على كشف الصوم مستمسكاً بشعائر أهل السنة وكان قد آانس من بعض الطلبة فكراً نيراً وذهناً وقادراً فجعل معولم عليه ، ومصدرهم عنه وموردتهم اليه ، ثم لاح له ان يغادر الأزهر فاتخذ له في حارة اليهود بيتاً مالبث ان صار متقدماً العلماء والادباء ، ومحط رحال الطلبة الاذكياء ، وكان من ديدنه ان يقطع يياض نهاره في داره حتى اذا جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه الى ملهى قرب الازبكية يدعى (قهوة البوسطة) وجلس في صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ينظم في سمعها القوي والشاعر والمنطقي والطبيب والكجاي والتاريخي والجغرافي والمهندس والطبيعي فيتسابقون الى إلقاء ادق المسائل عليه ، وبسط اعوص الاحاجي لديه ، فيحل عقد اشكالها فرداً فرداً ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحداً بلسان عربي مبين لا يهتم ولا يتردد بل يتدفق كالسبل من قريحة لا تعرف السكلال فيدهش السامعين ،

يرفعهم السائلين ، ويحكم المترضين ، ولا يبرح هذا الشأن شأنه حتى يشتعل رأس الليل شديداً وترعى غزالة الصبح نرجس الظلم فيقفل الى داره بعد أن ينقد صاحب الملهي كلما يترب له في ذمة الداخلين في عداد ذلك المجمع الاثني .

وبعد ان ذهب المنشئ الكاتب أديب اسحق الى الاسكندرية قصد تشغيل الروايات تحت رئاسة الفاضل المغفور له سليم نقاش صنعت عوارض قصت بالناء التشيل فأصبح أديب خالي الوفاض ، بادي الانفاض ، فبث به المرحوم حنين الخوري الي القاهرة مصحوبا بكتاب وصاة الى جمال الدين فأحسن هذا تقياه لما توسه فيه من امارات الذكاء ومخايل النجابة ولزمه ثم ملازمة اللام فلا ف ، وأقبل عليه إقبال الهائم العاني الكلف ، فحصل له امتياز صحيفة اسمها (مصر) واتخذ له دكانا ياب الشعريه بها له فيها من أدوات الطبع بالحرف البولاقي المشهور ما قوي معه على اصدار تلك الصحيفة فكانت ترد مودعة فصولا وأمالى منسوجة يبراع جمال الدين ومنشورة باسم المزهري بن وضاح أصارت لتلك الصحيفة شأناً مذكوراً ثم رأى ان ثمر الاسكندرية أقرب لاصطياد الاخبار فوفق بين أديب وسليم وأوعز اليهما بنقل الادارة اليها بعد ان مكنتهما من نوال امتياز آخر لصحيفة يومية دعياها (التجارة) ثم أوما الى كاتبه الشيخ محمد عبده و ابراهيم اللقاني ان يخرجا قفك الصحيفتين قلماً وسعياً ما استطاعا الى ذلك سبيلا وجعل يواصلهما بشذرات من قله البديع ، وخطرات من فكره المزري بلا لآء الرقيع ، حتى كان سبب شهرتهما كما كانا بتعظيمهما له سيفه النعوت والافاق من مثل (مهبط اصرار الحكمة وأسطرلاب فك العلوم واسطوخس هيوى الفلسفة) الى غير ذلك مما اعتادا ان يصفاه به سبب ثناء شهرته وانتشار صيته وله في صحيفة مصر مقالان احدهما في الحكومات الشرقية وأنواعها والثانية سماها (روح البيان في الانكليز والافان) ترنحت لهما اعطاف أولي العلم طرباء ، ومالت اليهما اعناق الحكام السياسيين عجباً ، حتى ان (غلادستون) زعيم الحرية في انكلترا اثبت في بعض الصحف رسالة تشهد له انه من اعلام الشرق واعيان العلماء ، حالة كون الانكليز من أعدائه الالهاء ، ولما شخص المؤلف الى القاهرة

عام ١٨٧٨ تعرف به وانتفع بصحبته ولازمه حيناً من الدهر في أوقات اجتماعه وخلوته وكان ممن ساعده على الوصول الى الخديو (اسمعيل) والتمكن منه وشوقه الى الاندماج في سلك الاخباريين فقال امتياز صحيفة دعاها (مرآة الشرق) ومطبعة سماها (الاتحاد) وكان قد أمر زعيم تلامذته الشيخ محمد عبده ان يقرظ كتابه (كنز الناظم) فوصفه برسالة ضافية القيل نسج أكثرها بقلم جمال الدين ونشرت في العدد ١٢٦ من صحيفة الاهرام فانه كان من خلقه الاخذ بناصر كل منتم الى العلم وشد أزر كل ذي ميل للادب ومع انه كان كثير الانفة شديد الوطأة على الحكام يعاملهم بالعجب والحيلاء، ويرنو اليهم بين المقت والازدراء، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لاولياء العلم وانصاره . مما كانوا خاملين قاصرين يبدل لهم الانس والدعة ويخفض جانب الرقة والدمانة ويؤاسي محتاجهم ومحتاجهم بكلمة يدر عليه ، وتصل يده اليه ،

وفي خلال عام ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً في البلاد ومما مقامه لانه تداخل في السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية من مثل محمود باشا البارودي (الذي نفى أخيراً مع عرابي الى جزيرة سيلان) وعبد السلام بك المويلحي النائب المصري في دار الندوة وأخيه ابراهيم كاتب الضابطة وكثير سواد القين يخدمون أفكاره ، ويعلمون بين الناس مناره ، من أرباب الاقلام من مثل الشيخ محمد عبده و ابراهيم الاقاني وعلي بك مظهر والشاعر الزرقاني وأبي الوفاء القوني في مصر ، وسليم نقاش وأديب اسحق وعبد الله نديم في الاسكندرية . فتغيرت ثم لمجته في أحاديثه وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم اثناء مكالماته مامناه : انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، وريتم بحجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتتمنون لو طأة الفزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الحسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جياهم بالقرعة والسوط وأنتم في غفلة معرضون ، فلو كان في عروقكم

جمع فيه كريات حيوة وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيت
بهذا الذل والمسكنة ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ولما قعدتم على الرضا
وانتم ضاحكون تناو بكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب
والاكراد والماليك ثم الفرنسيين والماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع
تحميه ويبيض عظامكم باداة عسفه، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم
ولا صوت انظروا اهرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيوة وحصون
جيمات شاهدة بمنمة آبائكم وعزة أجدادكم

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرشيد فلاح
هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا
كياتي الأمم احرارا سعداء، أو موتوا مأجورين شهداء، الى غير ذلك مما من
فجائه ان يحرك الماء فيجعله ناراً، ويشير نسيم الصبا فيفادها اعصاراً، فبدأت
تنتشر حركة الخواطر في الدمار المصرية وأخذ القوم يشكون من حكومتهم
مضطهدين، ويتناولون باعناقهم الى ما يقول مشراً بين، ومذ ذلك الحين طارت
الشجرة الأولى من شررات الثورة العرابية وكان المؤلف قد لمح الى هذا في
بعض أعداد صحيفته (مرآة الشرق) بقوله في جلته الافتتاحية

أرى خلل الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرام
فثار بعض قادة الجند (على) بولسن وذبليير الوزيرين الاجنبيين وأوسعوها
بمهرباً وإهانة واجتمع في بيت الشيخ البكري ثم في بيت راغب باشا لفيف
من اعيان البلاد وعدد الارياف وأجمعوا على تغيير الوزارة التوبارية
التبريقية ثم زاد انتشار الخواطر الثورية وكسبت صحف الاخبار اهمية ما كان
لها لان نكسبها في اسمى البلاد مدنيةً وحينئذ رأى المؤلف ان المسلك وعمره
واللوقف خطر، فقال الى الغاء التحرير بانني هي أحسن، والجنوح في هذا الامر
الصبر لاني هي أقوم، فاعتزل الجريدة بعد ان أحال امتيازها الى رجل أصارها
طوع اشارة الافغاني، فوكل بها كاتبه ابراهيم افغاني، فبدأ من العدد السادس
عشر باعابها مبادئ الثورة وأمالى الشكوى والتعريض وبعد حين نائب الافغاني

عن الأمة بسفارة الى الخديو فذكرت ذلك (مرآة الشرق) بطنطنة عادت عليه
 بالوبال * وعليها بالتمثيل والنكال (السبب الظاهري لنعطيلها غير هذا واما
 المطلعون على الحقائق فيعلمون ان الباعث عليه انما هو انها الى الافغاني) وكان
 قبل ذلك قطع في الاسكندرية بضعة ايام خطب في أثنائها بقاعة (زيزينيا)
 خطبة في النساء جمعت ألوفاً من الفرنكات فوزعت بايما منه على الفقراء ولم
 يمض زمن حتى انقلب دست (اسماعيل) وعلا أريكة الخديوية صاحب السمو
 الاميري (توفيق) وكان من الواجدین على جمال الدين فأخذ يحجس موامي
 أفعاله، ويرود مرامي أقواله، حتى علم انه ممن ينزعون الى ابدال الحكومة المتقيدة
 بجمهورية شوروية فحدثه نفسه بتولي زعامتها فاغتاله بعض الشرطة وهو عائد عند
 بزوغ الفجر من مقامه الليلي المعلوم وكان قد ارفض عنه أصحابه فاستاقوه الى
 دار الضابطاة وذهبوا به ثمت الى محطة السكة حيثما أرسل من طريق الاسميلية
 الى (بورت سعيد) ولما رأى قنصل المعجم في ذلك الثغر (وكان ماسونيا) انهم
 مزمعون على بعثه بطريق جدة الى بلاد فارس عرض عليه مئة دينار برسم النفقة
 فأبى مع كونه لم يملك ساعتئذ درهماً وأما مكتبته فحجرت عليها الحكومة وضبطتها
 وأما خادمه (أبو تراب) الذي صار بمعاشرته اياه وملازمته له فيلسوفاً صغيراً
 حالة كونه آمياً كبيراً فسجن زمناً ثم أطلق مسراحه فأتى بيروت منذ عامين ولا
 علم لنا الآن اين مسراه وكيف مسراه . وكان روح الثورة قد امتد في القطر
 ليبحث لم يكن اجلاء الافغاني الا ليزيده سريانا وانتشاراً (من هنا فما بعد يعلم
 كل بما جريات الديار المصرية مما يخرج عن وظيفة كتابنا هذا الافاضة بتفصيلاته)
 ومنذ ذلك العهد احتجبت عن المؤلف اخباره حتى ظهرت في باريز صحيفة العروة
 الوثقى موسومة باسمه وموشاة بقلم دهقان رجاله الشيخ محمد عبده فلم من منزعا
 انه عاود الاستمساك بالدين الخنيف وجنح الى نهج خطه جديدة تكسبه مبدل
 العالم الاسلامي ورضاء عنه

وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع
 معجزاته ولو لم يكن طموحاً الى المعالي بافراط واعجال واعجزاً عن كتمان مبداه

وغايته لرحب به التاريخ وافرزه من اسفاره صفحات ثرى * زينها برقم اعمال
 محميدة تكون قدوة للآتين وذكري * وهو الآن دون الحسين من عمره أسمر
 اللون الى صفرة * مفلفل الشعر أسوده * نحيف البنية * اهيف القامة * جذّاب
 الملامح * خفيف العارضين * حادّ البصر يكاد يتطاير الشرر من حدقيه . يلبس
 السواد ويتزني بزّي العلماء * طلي الكلام ذرب اللسان * فصيح اللهجة *
 يلغ العبارة * مليح النكتة * سمح الكف * طلق الحيا * وقور السمات * محتجب
 النساء * يطم نفسه عن الشهوات * يكره الخلو ويحب المرّ وقلماء خات جيبه
 من خشب الكينا والراوند ينقل بهما تفكهما * يأكل الوجبة (حرة كل يوم)
 ولا يأكل الا منفردا * يكثر من شرب الشاي والتبغ واذا تعاطى مسكرا قليلا
 من (الكونياك) وليس له من التأليف المطبوعة سوى تاريخ الافغان * يكره
 الكتابة ويتناقل منها فاذا رام انشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل ابراهيم افغاني
 لقاء قلما يراجعـه ويصلحه فيجيب من أوّل وهلة مسبوكا مفرغ الماني بقوالب
 لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد * فسبحان من خلقه بهذه الاطوار * وجهه بهذه
 الآثار * أنه قال لما يريد ما كتبه سايه بك النحوري في شرح سحر هاروت
 وقد اطلم الاستاذ الامام على هذا الشرح أيام كان مقبلا في بيروت واجتمع
 بالكاتب فأقنعه بأنه مخطئ . فيما وصف به السيد من الإلحاد فإدرا الى تخطئة
 نفسه في الجرائد فكان بذلك مصيبا للفضيلة ، وظهيرا للحقيقة ، وقد نشر الاستاذ
 الامام ما كتبه النحوري في آخر ترجمته للسيد التي نشرها في صدر ترجمة رسالة
 الرد على الدهريين قال :

« هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفعا لما افتراه
 عليه الجاهلون ولو سلكننا في تاريخه مسلك التفصيل ، لأدى بنا الى التلويل ،
 وانا تتبع هذا بما كتبو سليم افندي النحوري تخطئة لنفسه فيما نقله في شرح
 سحر هاروت والمطلع على ما كتبناه ، يعلم خطاه في جل ما رواه ،

« هذا ما نشره سليم افندي المنجوري في جريدة لسان الحال والجنة بحروفه:
 « لا يخفى اننا كنا أننا في حاشية كتابنا (سحر هاروت) على شيء من ترجمة
 الحكيم الشرقي الفزير المادة السيد جمال الدين الافغاني الطائر الصيت وأبتنا في
 عرض قصصنا لمحة مما تلقيناه عن بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته
 ووهن دينه مما كان مدعاة أسفاً وباعث استغراباً ثم أسعدنا البخت بان التقينا
 هاته الأيام بصديقنا المجلي بحلة الفضل، الحائز قصب السبق في مضماري العقل
 والنقل، الشيخ محمد عبده نزيل بيروت وأعزّ أخلاء الحكيم المشار اليه فجال بيننا
 حديث أفصى الى البحث بما يرويه عنه بعض الناس وروينا نحن عنهم فأوضح
 لنا بدلائل ناهضة، وبراهين داحضة، أن ما تناقله الألسن من هذا القبيل ما كان
 الا من آثار ما رماه به بعض من غرهم أياديه فجازوه بالكنود يعني بهم قوماً
 كفرّة تزلفوا اليه فاعترّ يراقيش السنثم ووطأ لهم جانب الأنس سالكاً في
 سبيل اسعادهم كل سبيل فلما دارت عليه الدوائر وتحولت الأحوال أخذوا
 يتبعجون بالملذة عليه، وينسبون ما أشربوا من الكفر اليه، وبين لنا بأجلى أسلوب
 ان المباحث التي كان يدور بها لسانه اثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد
 المعطلين كان المراد منها اظهار حقائق النحل والبدع بمنزل عن الاعتقاد بها، والخروج
 اليها، بل مع تعقيها بالرد عليها، واقامة الحجج على بطلانها، ثم تأييداً لمقاله هذا
 وقفنا على رسالة منسوجة بقلم المشار اليه سواً بها أصحاب المبادئ المعطلة من أي
 فريق كانوا وبين قبح طريقتهم بعبارة حنيف عريق بالاسلام ثبت منها هنا
 مبعثه في ضرورة اعتقاد الألوهية لسعادة الانسان

« قال بعد بيان وجوه زعموها كافية لصلاح النوع البشري ورد ما زعموا
 « فأذن لم يبق للشهوات قاصع، ولا للاهواء رادع، الا الايمان بأن للعالم صانعاً
 عالماً بمضمورات القلوب، ومطويات الانفس، سامي القدرة، واسع الحول والقوة، مع
 الاعتراف بانّه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحيوّة
 مرمدية» ثم قال « فلم يبق ريب في ان الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان
 فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطه شيء من أباطيل من

بزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب يكون سبباً في السعادة النامة والتعليم الكامل ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري ، والمعنوي ويصعد بذوبه الى ذروة الفضل الظاهري والباطني ، ويرفع اعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفروهم بسعادة الدارين ﴿

ثم أني بعد هذا في مزايا الدين الاسلامي خصصت بما يطول بيانه وبعلمه من اطاع على تلك الرسالة هذا كله بعد ما قال في وصف الماديين ﴿ أنهم كيفاً ظهروا ، وفي أي ضرورة نمتلوا ، وبين أي قوم نجموا ، كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم ، وصاعقة محتاجة لثأرهم ، وصداً متفاقاً في بنية جيلهم ، يمتنون القلوب الحية بأقوالهم ، وينفثون السم في الارواح بأرائهم ، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم ، فارتزت بهم أمة ، ولا مني بشرم جيل الا انتكث فتلته ، وتبددت آحاده ، وفند قوام وجوده ، ﴿ ثم أطال في بيان ذلك الى حدٍ لم يبق معه محل للرية في كمال اعتقاده وجلالة يقينه

﴿ فأخذنا لذلك خفة الطرب وسارعنا لا ذاعته بلسان الصحف شأن المؤرخ العادل وقياماً بحق الأدب وضاً بفضل هذا الرجل الخطير من ان تناله أسنة من لا يعرفه خطأ وافتراءً والله يتولى الصادقين ﴿ اه كلام المنحوري

(يقول محمد رشيد) ان الناس ولعوا منذ قرون كثيرة بأن ينهوا بالكفر والحاد كل نابغ في العلوم العقلية بل كل مسنقل في العلم لا يتبع الناس في جميع ما درجوا عليه من التاليد الدينية ولذلك نهزوا بلقب الكفر أو الابتداع مثل ابن سينا وابن رشد من الفلاسفة وأبي الحسن الشاذلي ومحبي الدين بن العربي من الصوفية ومثل النزالي ممن جمعوا بين الفلاسفة والتصوف : وكذلك فعل النصارى قبل المسلمين فانبع هؤلاء سفهم وسيا تي بيان ذلك في هذا الكتاب مفصلاً . من الناس من يتهم أمثال هؤلاء العقلاء متعمداً للكذب والبهتان ومنهم من ينهمم لسوء ظنه وقصور عقله وقد أشار الاستاذ الامام في ترجمة أستاذه السيد الحكيم الى ذلك وبه أقنع سليم بك المنحوري كما قرأت آنفاً . وقد ذكرني هذا درساً خاصاً ألقاه الاستاذ على بعض التابغين من أسانذة المدارس الأميرية وغيرهم في الدين هل هو فطري في البشر أم هو حاجة من حاجات الاجتماع تفرض لهم

فيعطيه إياها الجواد الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)

ذكر الأستاذ الامام في بيان كون الدين بطبيعته أمراً فطرياً أن الشعور بوجود إله ينصرف في الاكوان تصرفاً غيبياً فوق تصرف المخلوقات ، بما يكون من إفضاء الاسباب الى المسببات ، قد عرف في جميع البشر من أدنى القبائل الهمجية ، الى أرقى شعوب المدنية ، فهو شعور يستوي فيه الحضارة العراة في صحاري أفريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان في الماضي وفلاسفة الافرنج الآن وقد عرف في الفريقين عن قدماء الأمم كالمصريين والكلدانيين والهنود كما هو معروف في هذا العصر . ومثل هذا الاتفاق بين الشرقي والغربي والشامي والجنوبي في جميع الازمان من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين ولا تعليم لا يعقل الا أنه فطري في البشر

فان قيل ان في الناس من لا يؤمن بالله ولا بعالم الغيب كالماديين من الفلاسفة ومقلديهم ولو كان ذلك الشعور فطرياً لكان عاماً ولم يعرف منه هؤلاء : فاننا نقول ان من لا يؤمن بسلطة غيبية غير خاضعة للأسباب المعروفة نادر جداً واقاعدة لا تنقض بالنادر بل تبقى صحتها اثباتاً بالدليل ويبحث عن سبب شذوذ النادر كما يبحث الماديون وغيرهم من علماء الكون عن أسباب الشذوذ الذي يعبرون عنه بفلات الطبيعة ولا يعدون هذه الفلات دليلاً على بطلان الدين والنواميس العامة في الكون . (قال) فالحقيقة ان الاتحاد مرض من الامراض الاجتماعية

ثم تكلم في مسألة ترقى الشعور الديني في البشر بحسب ارتقائهم الاجتماعي وهي المسألة التي يصددها الملحدون من علماء الاجتماع أقوى الشبهات على الدين وهي التي ذكر النحوري ان السيد جمال الدين كان يحتج بها على كون الدين أمراً وضعياً وهي رقاء الانسان بحسب معارفه حتى بين له الأستاذ خطأه كما تقدم . وما قاله الأستاذ في الدرس بوشك ان يكون قد سمع هو وغيره مثله من السيد ففهم هو مالم يفهم أولئك الذين حرفوا الكلام عن مواضع جهلا وغباوة أو كذباً وبهتاناً

بين الأستاذ رحمه الله تعالى ان البشر في طور الهمجية كانوا يذهبون في

ذلك الشعور الفطري بأساس الدين مذاهب الوم فسكنا أشكل عليهم فهم شيء من أسرار الخليفة توهموا أنه هو صاحب تلك السلطة الغيبية العالية التي كانوا يشعرون بوجودها فمظموه لهذا التوهم فكان ذلك عبادة له لأن العبادة هي تعظيم ينشأ عن الاعتقاد بالسلطة الغيبية التي هي وراء الاسباب لامتني لما الالهذا

رأى بعضهم الثعبان الصغير يبيت الانسان أو نحو الثور والجل من غير أن يذبحه أو يذق عنته أو يهشم رأسه وذلك ما لم يكونوا يهدونه ولا يفهمون سببه فعبدوه وعلى هذا النحو عبدوا كثيرا من الحيوانات ثم وضعوا لها التماثيل فكانت موضوع عبادتهم . ولما ارتقوا عن هذه المرتبة عبدوا السحاب فالكواكب وهكذا كانوا محصورون شمرهم بالاعتقاد بالخالق وعالم الغيب بما اتصل اليه ولم حتى استعدوا بالارتقاء الى فهم الحقيقة وهي أن كل ما في الكون ما عرف سببه وما لم يعرف مخلوق خاضع للسنن العامة في الاسباب والمسببات وأن الخالق الواضح لهذه السنن لا يعمل في شيء من هذه المخلوقات ولا يتقيد به . حينئذ بعث الله فيهم النبيين مبشرين ومنذرين ، فكانوا هم المبينين للحقيقة الدين ،

(يقول محمد رشيد) هذا ملخص ما علق بذمتي من ذلك الدرس ومن أراد كمال البيان فيه فليرجع الى ما كتبه رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية عند بيانه فيه لقول أبي مسلم الأصفهاني والقاضي أبي بكر (ص ٦٠ م ٨ من المنار . ص ٢٩٤ وما بعدها من الجزء الثاني من التفسير) فهذا ما رآه في منشأ وهم الوهم في عقيدة السيد جمال الدين من غير الكذبة المعتبرين

وأما ما ذكره النعشوري من عادة في أكله وشربه ففيه الخطأ والصواب فقد كان يأكل الوجبة ، واكسته لم يكن يأكل وحده ، وقد كان يكثّر من شرب الشاي ، ولم نسمع حتى من أعدائه أنه كان يشرب المسكرات ، فإن لم يكن ما قيل من شربه انليل من الكونياك فرية ، فيحتمل أن يكون له شبهة ، كان يكون رآه الناقل يشرب شيئاً يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تدابوا فظنه الناظر عادة . وهذه الشبهات كثيرة وقع لي منها ما ظن به من لا يعرفني الا بالسماع انني أفطر في رمضان متعمداً

ذلك أن إبراهيم بك الهلباوي كتب في المؤيد مقالة ضرب فيها المثل برجل كان في إدارة المؤيد يكلم صاحب المنار ويمدح الدين ويذكر فوائده وهو يدخن بسيكارته في نهار رمضان . فظن كثير ممن قرأ تلك المقالة أن القدي كان يدخن وقت الحديث هو صاحب المنار وتمعجبا من ذلك وتكلموا فيه فكان من يسمعه من العارفين بهذا القبيح يقول لهم أن صاحب المنار لم يتعود التدخين ويكرهه وربما يحرمه لاعتقاده بضرره :

على أن القصة ليست كما رواها الكاتب فإن ذلك القدي كان يمدح الدين — إنما كان يمدحه في معرض مدح المنار وفوائده — لم يكن يدخن في أثناء الحديث ولكنني تركته وخرجت لحاجة ثم عدت فاذا به يدخن ويشرب القهوة !!



تتمت الترجمة

علم أن السيد جمال الدين ذهب بعد إنشاء العروة الوثقى في باريس والسعي في المسألة المصرية ذهب إلى روسيا . ونقول إنه أقام في بطرسبرج عاصمتها أربع سنين كان فيها موضعاً لا كرام القيصير وكان مما خدم به المسلمين هناك إقناع القيصير بحسن معاملة المسلمين والإذن لهم بطبع المصحف الشريف وبعض الكتب الدينية فأذن بذلك وقد نشرت جريدة الفلاح التي كانت تصدر في القاهرة مقالة في هذا الموضوع وبيتنا هو في بطرسبرج زارها شاه إيران ناصر الدين وأظهر هناك رغبته في لقاء السيد فيبلغ السيد ذلك فلم يحفل به ولم يزر الشاه . ثم سافر السيد إلى مونيخ من بلاد ألمانيا فوافاه الشاه وهو فيها وهناك التقيا

ذكر السيد ذلك في بعض مجالسه في الاسطوانة وقال « إن بعض الكبراء من الألمان وغيرهم جمعوني به فرغب إليّ أن أذهب معه إلى بلاده ليجعاني رئيس

وزرائه فأيدت وقالت انني عزمت على الذهاب الى معرض باريس ولا أحب أن أقض عزمي فألح عليّ أشد الإلحاح حتى ألزمني بالذهاب معه . وكان يقول عني : هذا رجل العالم السياسي الحربي الجدير بأن يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب : فقال له بعض الحاضرين - وهو الشيخ عبدالقادر المغربي الذي كتب حديثه وأرسله اليّ من الاسنانة يومئذ - كيف يدعوك الى ذلك وأنت مشهور بشدة رغبتك في تشييد عقائد أهل السنة ؟ فقال جنون وهوس منه : وبعد أن مكثت مدة في بلاده طلبت الذهاب الى أوروبا (كذا كان يعرف الكلمة وأمثالها في كلامه) فنغني وسمعت عنه كلاماً خشناً في حقّي وآراء رديئة ما لها الحجر عليّ في البلاد الايرانية . فأعملت الحيلة وذهبت الى مقام عبد العظيم وهو من أحفاد بعض الأئمة ومقامه حرم من دخله كان آمناً فكثت هناك سبعة اشهر كتبت في أثنائها عدة مقالات وحررت في الجرائد جملة كتابات (كذا) في «ألب الشاه المذكور وحث الشعب على خلعهم ثم خرجت من هناك :

ثم ذكر بحديثه الى لوندرد وطلعه هناك في الشاه الى أن طلبه السلطان عبدالحميد الى الاسنانة وكلمه في الكف عن الطعن في الشاه . قال : أخبرني أفندينا أن سفير العجم قصده ثلاث مرات قال فحجبتني في الممرتين الأولىين ثم أذنت له فطلب مني أن آمره بالكف عن التعرض للشاه بسوء فأنا الآن أطلب منك الإعراض عن شاه العجم : فقلت حينئذ : امثالاً لأمر خليفة مصر قد عفوت شاه العجم قد عفوت شاه العجم (كذا قالها بتعديدية عفوت بنفسه) فقال مولانا أمير المؤمنين حينئذ : بحق أن يخاف منك شاه العجم خوفاً عظيماً :

قال الكاتب : وذكر أنه حمل بعض علماء العجم على الافناء بحرمه الدخان (التنبك) فخرمه ومنع العامة عن شربه فأطاعوه وشغبوا على الشاه وقصدوا داره لإهلاكه أو يبطل المفاولة الجديدة التي عقدها مع الافرنج لاجل حصر الدخان فاضطر الشاه الى ذلك ورفع غرامة لأصحاب المفاولة قدرها نصف مليون ليرة انكليزية :

(يقول المؤلف محمد رشيد) قد اطلعت علي صورة مطبوعة على حديثها من الكتاب الذي أرسله الى رئيس المجتهدين في ذلك الوقت وهذا نصه :

مكتوب من البصرة الى السامرة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقاً أقول : ان هذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية أينما وجدت ،
وحينما حلت ، وضراعة تعرضها الأمة على نفوس زكية تحفقت بها وقامت بواجب
شؤونها كيفما نشأت ، وفي أي قطر نبغت ، الا وهم العلماء فاحيت عرضه على الكل
وان كان عنوانه خاصاً ،

حبر الأمة ، وبارقة أنوار الأئمة ، دعامة عرش الدين ، واللسان الناطق
عن الشرع المبين ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة
الاسلام ، ورد كبد الزنادقة اللثام ،

لقد خصك الله بالنيابة العظمى ، عن الحجة الكبرى ، واختارك من العصاية
الحقة ، وجعل بيدك أزمة سياسة الأمة بالشرعية الغراء ، وحراسة حقوقها بها ،
وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتياح فيها ، وأحال اليك من بين الأنام (وانت
وارث الانبياء) مهام أمور تسعد بها الملة في دارها الدنيا ، وتحفظ بالعقبى ، ووضع
لك أريكة الرئاسة العامة على الافئدة والنهى ، إقامة لدعامة العدل وانارة لمحجة
الهدى ، وكتب عليك بما أولاك من السيادة على خلقه حفظ الحوزة والذود عنها
والشهادة دونها على سنين من مضى ،

وان الأمة قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، ووضعها وعاليها ، قد
أذعن لك بهذه الرئاسة السامية الربانية ، جائية على الركب ، خاتمة على الاذقان ،
تطمح نفوسها اليك في كل حادثة تمررها ، تطل بصارتها عليك في كل مصيبة
تمسها ، وهي ترى ان خيرها وسعدها منك ، وان فوزها ونجاتها بك ، وان
أمنها وأمانيتها فيك ،

فاذا ابح منك غض طرف ، أو نيت (١) بمجازيك الحظوة ، وأمهلتها وشأنها لمحة ،
 أو تحجفت أفئدتها ، واخثت مشاعرها ، وانتكثت عقائدها ، وانهدمت دعائم إيمانها ،
 نعم لا برهان للعامة فيما دانوا ، الا استفامة الخاصة فيما أمروا ، فان وهن هؤلاء
 في فريضة ، أو قعد بهم الضعف عن اماطة منكر ، لا عتور أولئك الظنون والواهام ،
 ونكص كل على عقبيه مارقا من الدين اقويم ، حائدا عن الصراط المستقيم ،
 واعد هذا وذلك وذلك أقول ان الأمة الايرانية بما دهمها من عراقيل
 الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين ، وتطاول الأجانب على
 حقوق المسلمين ، ووجوم الحجة الحق (اياك أعني) عن القيام بنصرها وهو
 حامل الامانة ، والمسؤول عنها يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شعاعا ، وطاشت
 عقولها ، وتاهت أفكارها ووقفت موقف الحيرة (وهي بين انكار واذعان
 وحجود وايقان) لاتهتدي سبيلها وهامت في بيداء المواجهس ، في عمة الوسواس ،
 ضالة عن رشدها لا تجد اليه دليلا ، وأخذ القنوط بمجامع قلوبها ، وسد دونها
 أبواب رجائها ، وكادت ان تختار اياسا منها الضلالة على الهدى ، وتعرض عن محجة
 الحق وتبعم الهوى ، وان آحاد الأمة لا يزالون يتسألون شاخصة أبصارهم عن
 أسباب قضت على حجة الاسلام (اياك أعني) بالسبات والسكوت ، وحتم عليه
 ان يطوي الكشح عن إقامة الدين على أساطينة ، واضطره الى ترك الشريعة
 وأهلها ، الى أيدي زنادقة يلبسون بها كيفما يريدون ، وبحكمون فيها بما يشاؤون ،
 حتى ان جماعة من الضمءاء زعموا أن قد كذبوا وظنوا في الحجة ظن السوء ،
 وحسبوا الامر أحبولة الخاذق ، وأسطورة المذق ، وذلك لانها ترى (وهو الواقع)
 ان لك الكلمة الجامعة ، والحجة الساطعة ، وان أمرك في الكل نافذ ، وليس
 لحكمك في الامة منابذ ، وانك لو أردت تجميع آحاد الامة بكلمة منك (وهي كلمة
 تنبثق من كيان الحق الى صدور أهل) فترهب بها عدو الله وعدوهم ، وتكف
 عنهم شر الزنادقة ، وتزيغ ملاحق بهم من العنت والشقاء ، وتشلهم من ضنك

(١) كذا في الاصل واليت هو التمايل من ضعف وفعله ككمال يكيل

(٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

العيش الى ما هو أرغد وأهنى ، فيصير الدين بأهله منيعا حربيا ، والاسلام بحجته رفيع المقام عزيزا ،

هذا هو الحق . انك رأس العصاة الحققة (١) ، وانك الروح الساري في آحاد الأمة ، فلا يقوم لهم قائم الا بك ، ولا تجتمع كلمتهم الا عليك ، لوقت بالحق نهضوا جميعا ولهم الكلمة العليا ، ولوقدت ثبطوا ، وصارت كلمتهم هي السفلى ، ولربما كان هذا السير والدوران حينما غرض جبر الأمة طرفه عن شؤونهم ، وتركهم هملين بلا راع ، وهمجاء بلا رادع ولا داع ، يقسم لهم عذرا فيما ارتابوا . خصوصا لما رأوا أن حجة الاسلام قدوني فيما أطبقت الامة خاصتها وعامتها على وجوبه ، وأجمعت على حظر الاتقاء فيه (٢) خشية لغوبه ، الا وهو حفظ حوزة الاسلام الذي بهد الصيت وحسن الذكر والشرف الدائم والسعادة التامة . ومن يكون أبقى بهذه وأحرى بها ممن اصطفاه الله في القرن الرابع عشر ، وجعله برهانا لآلئيه ، وحجة على البشر ، أيها الخبر الأعظم ، ان الملك قدوهنت سريرته ، فسات سيرته ، وضعفت مشاعره فبجحت سريرته ، وعجز عن سياسة البلاد ، وإدارة مصالح العباد ، فجعل زمام الامور كليها وجزئها بيد زنديق أثيم ، غشوم ثم بد ذلك زعيم . . يسب الانبياء في المحاضر جبرا ، ولا يذعن لشريعة الله أمرا ، ولا يرى لرؤساء الدين وقرا ، يشتم العلماء ، ويقذف الاتقياء ، ويهين السادة الكرام ، ويمامل الوعاظ معاملة القنام ، وأنه بعد وجوعه من البلاد الافرنجية قد خلم العذار ، وتجاهر بشرب القمار ، وموالات الكفار ، ومعاداة الأبرار ، هذه هي أفعاله الخاصة في هذه . . ثم انه باع الجزء الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعداء الدين - المغان ، والسبل الموصلة اليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب الى جميع ارجاء المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول . . نهر الكارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المنبع وما يستنبعها من الجنائن والمروج . . والجادة من الاهواز الى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول . . والتنياك وما يقبعه من

(١) الحققة الثابتة القوية والمراد طائفة العلماء لاسيما المجتهدين منهم (٢) الاتقاء التقية

المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين اني وجد وحيث
فتت ، وحكر العنب للخمر وما تنازله من الحوائث والمعامل والمصانع في جميع
أقطار البلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ، والبنك وما أدراك
مالبنك هو اعطاء زمام الأهالي كلية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه
اياهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان ،

ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواهي برهانه فخبق قائلا ان هذه
معاهدات زمانية ، ومقاولات وقتية ، لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة !! بالفه من
هذا البرهان الذي سوله خرق الخائنين ، وعرض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقا
لسكونها (لوسكنت) مرداب رشت وأنهر الطبرستان والمجادة من أنزلى الى
الحراسان وما يتعلق بها من الدور والقنادق والحقول . . . ولكن الدولة الروسية شمت
بأنفها وأعرضت عن قبول تلك الهدية ، وهي عازمة على استملاك الحراسان
والاستيلاء على الاذربيجان والمازندران ان لم تنحل هذه المعاهدات ولم تنسخ
هذه المقاولات القاضية على تسليم المملكة تماما بيد ذاك العدو الال ، هذه هي
النتيجة الاولى لسياسة هذا الاخرق ،

وبالجملة ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد الايرانية على الدول يبيع المزايد ،
وانه يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم الصلاة والسلام للاجانب ولكنه
لحسة طبعه ودنائة فطرته لا يبيعها الا بقبضة زهيدة ودراهم معدودة (نعم هكذا
يكون اذا امتزجت النامة والشره بالحيانة والسفه)

وانك أيها الحججة ان لم تقم بناصر هذه الأمة ولم تجمع كلمتها ولم تنزعها بقوة
الشرع من يد هذا الأثيم لاصبحت حوزة الاسلام تحت سلطة الأجانب (يحكون
فيها بما يشاؤون ويفعلون ما يريدون) ، واذا فاتتك هذه الفرصة أيها الجبر ووقع
الامروأت حيي لا أبقيت ذكرا جيلا بعدك في صحيفة العالم وأوراق التواريخ...
وأنت تعلم أن علماء الايران كافة والعامة بأجمعهم ينتظرون منك (وقد خرجت
صدورهم وضافت قلوبهم) كلمة واحدة ويرون سعادتهم بها ونجاتهم فيها...
ومن خصه الله بقوة كهذه كيف يسوغ له أن يفرط فيها ويتركها سدى ،

ثم أقول للحجة قول خير بصير ان الدولة العثمانية لتبجح بنهضتك على هذا الامر وتساعدك عليها لأنها تعلم أن مداخلة الافرنج في الاقطار الايرانية والاستيلاء عليها تجلب الضرر الى بلادها لاحتمالة ، وان وزراء الايران وأمراءها كلهم يهتمون بكلمة تنبص بها في هذا الشأن لأنهم بأجهم بما فون هذه المستحدثات طبعاً ، ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ، ويمجدون بنهضتك مجالا لا بطلها ، وفرصة المكف شر الشره الذي رضي بها وقضى عليها ،

ثم ان العلماء وان كان كل صدع بالحق وجبته هذا الاخرق الخائن بسوء أعماله ولكن ردعهم للزور وزجرهم عن الخيانة ونهرهم المجرمين ماقرت كسلسلة المعدات قراراً ، ولاجمتها وحدة المقصد في زمان واحد ،

وهؤلاء لتماثلهم في مدارج العلوم وتشاكلهم في الرئاسة وتساوهم في الرتب غالباً عند العامة لا ينجذب بعضهم الى بعض ولا يصبر أحد منهم لصفاً للآخر ولا يقع بينهم تأثير الجذب وتأثر الانجذاب حتى تتحقق هيئة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة . كل يدور على محوره ، وكل يردع الزور وهو في مركزه ، (هذا هو سبب الضعف عن المقاومة وهذا هو سبب قوة المنكر والبغي) . وأنت وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجة السامية والمثالة الرفيعة علة فعالة في نفوسهم ، وقوة جامعة لقلوبهم ، وبك تنضم القوى المنفرقة الشاردة ، وتلتئم القدر الملتصقة الشاذة ، وان كلمة منك تأتي بوحدانية ثامة يحق لها أن تدفع الشر المحرق بالبلاد . وتحفظ حوزة الدين وتصور بيضة الاسلام فالكل منك وبك واليك . . . وأنت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس

ثم أقول ان العلماء والصلحاء في دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته قد قاسوا من ذاك القتل شدائد ماسبق منذ قرون لها مثيل ، ونجحوا لصيانة بلاد المسلمين عن الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كل هوان وكل صغار وكل فضيحة .

ولا شك أن حبر الامة قد سمع ما فعله أدلاء الكفر وأعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج الملا فيض الله الدربندي وسندهم قريباً ماضيه الجفاة الطفافة بالعالم المجتهد النقي البار الحاج السيد على أكبر الشيرازي وسخط

علما بما فعله بحماية الملة والامة من قتل وضرب وكى وحبس . ومن جملتهم الشاب الصالح المبرز محمد رضا الكرماني الذي قتله ذلك المرتد في الحبس والفاضل الكامل البار حاج سياح والفاضل الاديب المبرز فروغي والاربيب النجيب المبرز محمد علي خان والفاضل المتفتن اعتماد السلطنة وغيرهم .

وأما قصتي ، وما فعله ذلك الكنود الظلوم معي ، فما بنت أ كباد أهل الايمان ، ويقطع قلوب ذوي الايقان ، ويتضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الاوثان ، ان ذلك اللثيم أمر بسحبي وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام في شدة المرض على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن ينصور دونها في الشناعة (هذا كله بعد النهب والغارة) « انالله وانا اليه راجعون »

ثم حلني زبائنته الاوغاد وأنامريض على برذون مسلسلاني فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرة وساقني جحفة من الفرسان الى خافقين وصحبني جمع من الشرط ... ولقد كاتب الوالي من قبل والتمس منه أن يبعدني الى البصرة علمانه أنه لو تركني ونفسي لايتك أبها الخبر وثبت لك شأنه وشأن الامة وشرحت لك ما حاق ببلاد الاسلام من شر هذا الزنديق ، ودعوتك أبها الحجة الى عون الدين ، وحملتك على إغاثة المسلمين ، وكان على يقين اني لو اجتمعت بك لا يمكنه ان يبق على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد، وهلاك العباد، واعلاء كلمة الكفر وما زاده لوءاً على لوءه ودناة على دناته أنه دفعا لثورة العامة وتسكيناً لهياج الناس نسب تلك العصاة التي ساقها غيره الدين وحمية الوطن الى المدافعة عن حوزة الاسلام وحقوق الاهالي (بقدر الطاقة والامكان) الى الطائفة البابية . . كما أشاع بين الناس أولاً (قطع الله لسانه) اني كنت غير مخنون (وا إسلاماه) ما هذا الضعف ؟ ما هذا الوهن ؟ كيف أمكن أن صعلوكاً دنيء النسب ، وغدا خسيس الحسب ، قد ران يبيع المسلمين وبلادهم بشمن بخس حوام معدودة وبزدرى بالمالآ وبهين السلالة المصطفوية وبهت السادة المرتضوية للبهتان العظيم ، ولا يد قدرة تسأصل هذا الجذر الخبيث شفاء لانيظ المؤمنين ، واتقما لآل سيد المرسلين ، عليه وآله الصلاة والسلام .

ثم لما رأيت نفسي بعيداً عن تلك الحضرة العالمة أمسكت عن بث الشكوى
ولما قدم العالم المجتهد القدوة الحاج السيد علي أكبر الى البصرة طلب مني ان اكتب
الى الخبر الاعظم كتاباً أثبت فيه هذه الفوائد والحوادث والكوارث فبادرت اليه
امثالاً، وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
السيد الحسيني

....

(يقول محمد رشيد) إن هذا الكتاب نفخ روح الحماسة والفيرة في ذلك
العالم العظيم صاحب النفوذ الروحي في الامة الفارسية فأفقي بحرمة استعمال التذباك
وزراعته واذا علماء فتواه بسرعة البرق فخضعت لها أعناق الامة حتى قيل
ان الشاه طلب في صبيحة يوم بعد وصول الفتوى الى طهران النارجيله (الشيشة)
فقيل له انه ليس في القصر تذباك لاننا اتلفناه فسأل عن السبب مبهوتاً فقيل له:
فتوي حجة الاسلام : فقال لم لم نتأذوني؟ قبل انها مسألة دينية لا حاجة فيها
الى الاستئذان !! واضطر بعد ذلك الى ترضية الشركة الانكليزية على أن تأخذ
نصف مليون جنيه وتبطل الامتياز . وبهذا انقذ السيد جمال الدين بلاد ايران من
احتلال الانكليز لها بابطال مقدمته وهو ذلك الامتياز أو الامتيازات التي قرأت
شرحها في كتابه فهكذا تكون الرجال وهكذا تكون العلماء

هكذا هكذا او الا فلا لا ليس كل الرجال تدعي رجالاً

وقد ظهر الآن تأثير نفوذ طائفة العلماء في بلاد فارس اتم الظهور بما كان قلب نظام
الحكومة وهم يولها عن الاستبداد المطلق الى الشورى . ولعل تلك الحادثة هي
المنبه الاول للعلماء الى ان الامر في ايديهم . فالسيد جمال الدين علي هذا هو
العامل الاول في هذا الانقلاب كما أنه سبب الانقلاب الذي حدث في مصر فان
عمل جمعيته كان اول سعي في مقاومة سلطة اسماعيل باشا وتقويضها وفي نفخ روح
الاصلاح في توفيق باشا حتى واثق السيد وخاصته بأنه اذا آل الامر اليه ليؤسن
مجلس نواب وليعملان . ولكن تداخل الجند في السياسة أفسد العمل بعد ذلك
ولم يكن نجاح العلماء بسعيه وإرشاده في ابطال تداخل الاجانب في بلاد

فارس هو المنبه وحده لكون سلطة العلماء والامة فوق سلطة الملك بل كان تمام
الذنب قتل الشاه بعد ذلك وما قبل من ان قاتله من اتباع السيد جمال الدين
لم يكنف السيد بنحريض كبير المجتهدين وسائر العلماء على الشاه ووزيره
ولا بنجاحه في نديهم له بل ذهب من البصرة الى أوربا وطلق بطن فيهما بالقول
والكتابة وقد أسس هناك مجلة شهرية تصدر باللغتين العربية والانكليزية باسم
(ضياء الخافقين) أو سعي في تأسيسها وكان يكتب في كل عدد منها مقالة في أحوال
فارس بتوقيعه المعروف (السيد) أو (السيد الحسيني) وكان الكلام في مهر من أهم مباحثها
وقد فضح في مقالاته عن بلاد فارس حكومتها وشاها شر فضيحة حتى جاءه
صغير المعجم في اندره يستميله ويسترضيه ليكشف عن الكلام والكتابة في ذلك
وعرض عليه مالا كثيراً فقال له السيد « لا أرضى الا أن يقتل الشاه ويتر
بطنه ويوضع في القبر » فكان هذا القول من الشبه على كون القاتل له من اتباع
السيد . واننا نورد هنا بعض ما كتبه في ضياء الخافقين عن بلاد فارس تحليداً
له في التاريخ . وهالك ما كتبه في العدد الثاني تحريضاً للعلماء على خلع الشاه والقيام
بشؤون الامة . وهذا العدد صدر في أول مارس (آذار) سنة ١٨٩٢

مجمل بلاد فارس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

حالة القرآن ، وحفظه الايمان ، ظهراء الدين المتين ، ونصراء الشرع المبين ،
جنود الله الغالبة في العالم ، وحججه الدامغة لضلال الأمم ، جناب الحاج الميرزا
محمد حسن الشيرازي . وجناب الحاج الميرزا حبيب الله الرشتي ، وجناب الحاج
الميرزا أبي القاسم الكر بلائي ، وجناب الحاج الميرزا جواد الأقال تبريزي ، وجناب
الحاج السيد علي أكبر الشيرازي ، وجناب الحاج الشيخ هادي النجم آبادي ،
وجناب الميرزا حسن الأشثاني . وجناب السيد الطاهر الزكي صدر العلماء .
وجناب الحاج آقا محسن العراقي ، وجناب الحاج الشيخ محمد تقي الاصفهاني ،

وجناب الحاج الملا محمد تقي البجنوردي . وسائر هداة الأمة . ونواب الأمة .
من الاحبار العظام ، والعلماء الكرام ، أعز الله بهم الاسلام والمسلمين ، وأرغم
أتوف الزنادقة المتجبرين ، آمين

طالما تافت الامم الافرنجية الى الاستيلاء على البلاد الابرازية حرصا منها
وشرها . ولكم سولت لها امانيتها خدعا تمكنها من الولوج في ارجائها ونمهد فيها
سلطانها على غرة من اهلها تحاشيا من المقارعة التي تورث الضغائن فتبعث النفوس
على الثورة كلما سنحت لها الفرص وقضت بها الفترات . واكنها علمت ان بلوغ
الارب والعلماء في عز سلطانهم ضرب من الخيال لان القلوب تهوي اليهم طرا ،
والناس جميعا طوع يدم يأتمرون كيفما أمروا ، ويقومون حيثما قاموا ، لامر
لقضائهم ، ولا دافع لحكمهم ، وانهم لا يزالون يدأبون في حفظ حوزة الاسلام
لاناخذهم فيه غفلة ، ولا نعروهم غره ، ولا نتميد بهم شهوه ، فنخست وهي تبرص
بهم الدوائر ، وتترقب الحوادث ، ايم الله أنها قد اصابنا فيما رأنا ، لان العامة
لولا العلماء وعظيم مكانتهم في النفوس لانتجأت بطيب النفس الى الكفر واستنظت
بلوائه خلاصا من هذه الدول الذليلة الجائرة الخرقى التي قد عدمت القوة ، وفقدت
النصفة ، وانفتت الجمالة ، فلا حازت منها شرفا ، ولا صانت بها نفسها حقا ، ولا
انشرح منها صدرها فرحا .

ولقد كلاً ضعفت قوة العلماء في دولة من الدول الاسلامية وثبت عليها طائفة
من الافرنج ومحت اسمها ، وطلمست رسمها ،
إن سلاطين الهند وأمراء ماوراء النهر جدت في إذلال علماء الدين فهاد
الوبال عليهم سنة الله في خلقه . . . وان الافغانين ماصانوا ببلادهم عن أطماع
الأجانب وما دفعوا هجمات الانكليز مرة بعد أخرى الا بقوة العلماء وقد
كانت في نصائبها *

ولما تولى هذا الشاه (الحاربية (١) الطاغية) الملك طفق يستأب حقوق العلماء
تدريجاً ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ كلمتهم حباً بالاستبداد يباطل أوامره ونواهي،

(١) هي الحمية كبرت فصصرت حتى بقي رأسها فيه سهو ونفسها وهي أخبت لافاعي

وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره ، فطرد جمّاً من البلاد بهوان ، ونهته فرقة
عن إقامة الشرع بصغار ، وجلب طائفة من أوطانها الى دار الجور والحرق (طهران)
وقهرها على الإقامة فيها بذل لخلاله الجو فقهر العباد وأباد البلاد وقطب في
أطوار الفطائع وتجاهر بأنواع الشنائع وصرف في أهوائه الدنية وملأه البهيبة
مامصه من دماء الفقراء والمساكين عصراً ونزع من دموع الأراذل والأيتام
قهرًا (يا الاسلام)

فاذا اشد جنونه بجميع فتونه فاستوزر وغداً خيساً ليس له دين يردعه
ولا عقل يزجره ولا شرف نفس يمنعه وهذا المارق ما قعد على دسه الا وقام
بإبادة الدين ومعاداة المسلمين وساقته دناءة الأرومة ونذالة الجرثومة الى
بيع البلاد الاسلامية بقيم زهيدة •

خسبت الأفرنج ان الوقت قد حان لاستملاك الأقطار الإيرانية بلا كفاح
ولا قتال وزعمت ان العلماء الذين كانوا يذبون عن حوزة الاسلام قد زالت
شوكتهم وقد نفوذهم فهرع كل فاعراً فاه يبغي أن يسرط قطعة من تلك المملكة •
فغار الحق وغضب على الباطل فدمغه فخاب مسماه وذل كل جبار عنيد •
أقول الحق إنكم يا أيها القادة قد عظمت الاسلام بعزيمتكم وأعليتم كلمته وملأتم
القلوب من الرهبة والهيبه • وعلمت الأجانب طرا ان لكم سلطاناً لا يقاوم وقوة
لا تدفع وكلمة لا ترد وانكم سياج البلاد ويحكم أزمة العباد ولكن قد عظم
المحلب الآن وجلت الرزية لأن الشياطين قد تألبت جبراً لا تكسر وحرصاً على
لوصول الى الغاية وأزعمت على اغراء ذاك المارق الأثيم على طرد العلماء كافة
من البلاد . وأبانت له ان اقفاذ الأمر انما هو باقيا دقواد الجيوش وان القواد
لا يصون العلماء أمراً ولا يرضون بهم شراً فيجب لاستنباب الحكومة اسبقدهم
بقواد الأفرنج . وأرت لذلك البليد الخائن وآسة الشرطة بقيادة فوج (١) القزاق

(١) يطلق الفرنسيون هذا اللفظ العربي على الطائفة من العسكرية التي يطلق عليها الترك
لفظ طابور (وصوابه بالعربية تابور) ويطلق عليها في مصر لفظ أوردطو وهي أعجمية
(٩ ج ١ تاريخ الاسناد الامام)

تمودجاً (كنت واضرابه) . وان ذاك الزنديق وزملاءه في الاتحاد يجدون الآن في جاب قواد من الأجانب . والشاه بجنونه المطبق قد استحسن هذا واهتز به طرباه لعمر الله لقد تحالف الجنون والزندقة وعاهد العتة والشره على محق الدين واضمحلال الشريعة وتسليم دار الاسلام الى الأجانب بلا مقارعة ولا مناقرة * ياهداه الأمة انكم لو أهملتم هذا الفرعون الذليل ونفسه وأهملتموه على سرير جنونه وما أمرعتم بخلعه عن كرسي غيه لقضي الأمر ففسر العلاج وتعدرا التدارك * أنتم نصراء الله في الارض . ولقد تمحصت بالشريعة الالهية نفوسكم عن أهواء دنية بُعث على الشقاق وتدعو الى التفاق ويؤس الشيطان بقذافات الحق عن قريق كلمتكم . فأنتم جميعاً يدٌ واحدة يدود بها الله عن صياصي دينه الحصينة و يذب بقوتها القاهرة جنود الشرك وأعوان الزندقة . وان الناس كافة (الامن قضي الله عليه بالحية والحمران) طوع أمركم . فلو أعلنتم خلع هذا (الحارية) لأطاعكم الأمير والحقير وأذن لحكمكم الغني والفقير (ولقد شاهدتم في هذه الأزمان عياناً فلا أقيم برهاناً) خصوصاً وان الصدور قد حرجت وان القلوب قد فطرت من هذه السلطنة القاسية الحقني اني ماعدت ثغورا ولا جندت جنودا ولا عمرت بلادا ولا نشرت علوماً ولا أعزت كلمة الاسلام ولا أراحت يوماً ما قلوب الأنام بل دمرت وأقوت وأفقرت وأذلت ثم بعد ذلك وارتدت وانها سمعت عظام المسلمين وعجننها بدمائهم فعمات منها البنات (١) بنت بها قصورا لشهواتها الدنية . هذه آثارها في هذه المدة المديدة والسنين العديدة ففسألها وتبت يداها * .

واذا وقع الخلع (وتكفيه كلمة واحدة يذبح بها لسان الحق غيره على دينه) فلا ريب ان الذي يخلف هذا (الطاغية) لا يمكنه الميدان عن أوامركم الالهية ولا يسهه الا الخضوع بمبتيتكم عتبه الشريعة الحميدة كيف لا وهو يرى عياناً مالكم من القوة الربانية التي تقبلون بها الطغاة عن كرسي غيها . وان العامة متى سمعت

بالعدل تحت سلطان الشرع ازدادت بكم ولما وحامت حولكم هيأما وصارت جميعاً جنداً لله وحزباً لا وليائته العلماء *

ولقد وهم من ظن أن خلع هذا (الحارية) لا يمكن إلا بهجمات المساكر وطلقات المدافع والقنابر. ليس الأمر كذلك. لأن عقيدة إيمانية قد رسخت في العقول، وتمكنت من النفوس، وهي أن الراد على العلماء راد على الله (هذه هو الحق وعليه المذهب) فإذا أعلنتم (ياحلمة القرآن) حكم الله في هذا الغاصب الجائر وأبنتم أمرة تعالى في حرمة إطاعته لانفض الناس من حوله فوقع الخلع لا جدال ولا قتال *

ولقد أراكم الله في هذه الأيام إنعاماً لحجته ما أولاكم من القوة انامة، والقدرة الكاملة، وكان الدين في قلوبهم زيغ في ريب منها من قبل. اجتمعت النفوس بكلمة منكم على إرغام هذا الفرعون الذليل وهامانه الذليل (مسألة التذكير) فعمجت الامم من قوة هذه الكلمة وسريعة نفوذها وبهت الذي كفر. قوة أنفسها الله عليكم لصيانة الدين وحفظ حوزة الاسلام. فلم يجوز منكم اهمالها وهل يسوغ التفريط فيها؟ حاشاكم حاشا *

قد آن الوقت لاهياء مراسم الدين، واعزاز المسلمين، فاخلعوا هذا (الطاغية) قبل أن يفتك بكم، ويهتك اعراضكم، ويثلم سياج دينكم، ليس عليكم الا أن تملأوا على رؤوس الاشهاد حرمة إطاعته فإذا برى نفسه ذليلاً فريداً يفر منه بطائفة ويفر منه حاشيته وينبذه المساكر ويرجه الأصاغر *

انكم يا أيها العلماء والدين قاموا معكم لتأييد الدين بعد اليوم في خطر عظيم. قد كسرتهم قرن فرعون بمصالح الحق وجدتم أنف الحارية بسيف الشرع فهو يترص فرصاً تساعد على الانتقام شفاء لفيظه ومرضاة لطيمته التي فطرت على الحق واللجاج فلا تمهلوه أياماً ولا تمكنوه أن يقبض زماماً اعلموا خلمه قبل اندمال جرحه *

وحاشاكم أيها الراسخون في العلم أن ترتابوا في خلع رجل سلطانه غضب وأفعاله فسق وأوامره جور وأنه بعد أن مص دماء المسلمين ونهش عظام

المساكين وترك الناس عراة حفاة لا يملكون شيئاً حكم عليه جنونه أن يملك
الأجانب بلاداً كانت للإسلام عزاً وللدين المتين حرزاً وساقته سورة السفه
الى اعلاء كلمة الكفر والاستغلال بلواء الشرك *

ثم أقول أن الوزراء والامراء وعامة الاهالي وكافة العساكر وأبناء هذا
(الطاغية) ينتظرون منكم جميعاً (وقد فرغ صبرهم ونفذ جلدكم) كلمة واحدة
حتى يظلموا هذا الفرعون الذليل ويريحوا العباد من ضره ويصونوا حوزة الدين
من شره قبل أن يحل بهم العار ولات حين مناص والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته *
(السيد الحسيني)

(يقول محمد رشيد) ان العلماء من الاحترام والتفوذ الروحي في بلاد الأعاجم
ما ليس لهم في البلاد العربية وان احترامهم في بلاد الفرس أشد منه في سائر بلاد
العجم فان الحكم ليس لهم عليهم من السلطة هناك مثل ماغيرهم من حكام المسلمين وما
أزال الملوك والأمراء احترام العلماء ومحور نفوذهم - حاشا ما كان منه مؤيداً لهم ومعيناً
لاستبدادهم - الا بما اخترعوه لهم من الرتب العلمية وكساوي الشرف الوهمية وبما
جعلوا من موارد أرزاقهم في تصرفهم . فصار رزق العالم وجاهه الديني بيد الأمير
أو السلطان وهما الرئسان اللذان يقودون بهما طالب المال والجاه من العلماء الى حيث
شاؤا . فاذا أمكن لطلاب الإصلاح الاسلامي أن يطلوا هذه الرتب العلمية
وما لها من الشارات ويخرجوا أرزاق علماء الدين من أيدي الحكم فأنهم يمحرون
العلماء من رق يكون مقدمة لا صلاح الامة كلها

الاسلام دين اجتماعي جمع بين مصالح الدنيا والآخرة وقد عبث الحكم
المتبذون في أهله بانتحال الرياسة فيه على كونهم قد أبطلوا اشتراط العلم الديني
وغيره في الخليفة وفي السلطان والوالي بالأولى ثم جعل بعضهم الاحكام والأعمال
والمناصب قسمين شرعية خاصة بعلماء الشرع كالتقضاء فيما يسمونه الامور الشخصية
وغير شرعية وهي سائر الاحكام القضائية والادارية والسياسية ولا يشترطون في
عمال هذه الاحكام والأعمال معرفة شيء من أحكام الشرع ولا الأخذ بشيء
من أمر الدين كما أنه لا يشترط في الحاكم الاعلى من أمير أو سلطان ان يكون

قد تاتى علم التوحيد والفقه فضلاً عن التفسير والحديث . ومع هذا كله يجمل هذا الحاكم رئيساً دينياً ويجمل أمر علماء الدين في يده فهو الذي ينعم عليهم بالرتب العالمة التي يمدّها بها بعضهم فوق بعض في الدين وعلومه من غير مبالاة بالقاعدة المشهورة التي لا يختلف فيها عاقلان وهي « فاقد الشيء لا يعطيه » فلمذا صار الدين أمراً ثانوياً في أكثر بلاد المسلمين لا يحترّم عند حكامه الا بقدر تعلق العامة به على حسب ما عليه العامة كالاحتفال بالمواسم الدينية والمبتدعة ينهزم ركن من اركان الاسلام كالزكاة فلا يبالى به الحكام الذين جعلوا انفسهم رؤساء للدين ويسكت معهم العلماء عن ذلك فلا يقومون بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي سياج الدين لانهم على قسمين قسم مرتبط بالسلطين والامراء فهم تابعون لهم وقسم لا شأن له فهو يستصغر نفسه ان تقوم بالدعوة الى احياء الدين فاذا عرف لنفسه قيمة وظهر بالدعوة فطفت العامة بحترمه ففحه الامراء بشيء من الدنانير التي قاموا على خزائنها - وهي للامة لالم - وألقوا في عنقه ورأسه طوقاً من الفضة او الذهب (علامة الشرف) فكان لهموام من المنقادين

فلا صلاح للاسلام الا باستقلال العلماء وعدم ارتباطهم في التعلم والتعليم والارشاد ولا في الرزق بالامراء والسلطين كما تقدم وكتب السيد في العدد الاول من ضياء الخافقين الذي صدر في فبراير (شباط) سنة ١٨٩٢ ما يأتي :

أحوال فارس الحاضرة

ان اهراخ الفارس دويبا في آفاق الارض . قد أقفرت البلاد وبارت الاراضي وغارت الأنهر وتبدد الناس في شاسعات الاقطار شذر مذر . ان سواد العراق ومدن القفقاز وامصار ماوراء النهر وقرى الخوارزم وقصبات بين النهرين غصت بوجوه غيره . ذرارى الامائل وسلالة الافاضل يكدون آناً الليل وأطراف النهار في أعمال خسيسة وحرف ذنيئة تأنف منها النفوس وتعاظمها الطباع . ان

الایران بسعتها قد ضاقت على أبنائها، ونبت بأهلها، وليس في تلك البسيطة الرحبة
الأشخاص حقيرة وكنان صغيرة ودور حرجة يستكنها شعث غبر رث الثياب
كانهم ينازعون الموت وبراقبون الأجل. الجور قد تمثل في تلك البلاد سلطاناً
قاهراً لا يحد طوره، ولا يبر غوره. والقسوة برزت بصور بشعة وهيبات شنيعة
تقشع منها الجلود. جدد الأنوف وقطع الأذان وشق البطون وجز الرؤوس
أعمال عادية وأفعال يومية لا يستغرب منها السامع ولا يثبها الرائي. ودونها
فظائع تأبى النفوس البشرية عن استماعها ونجم دون ذكرها ونضطرب حياء وخشية
كلما خطرت في لوح خيالها.

الحكومة قهرت الشرع فأبادته، وكهرت النظام المدني فججته، وازدرت
بناموس العقل والفطرة فطمسته، فلا يسود فيها إلا الهوس، ولا يأمر إلا الشره،
ولا يقوم بالأمر إلا القهر والزور، ولا يحكم إلا السيف والكي والسوط، بلذا
سفك الدماء، وتباهى بهتك الأعراض، وتعجب باستلاب أموال الأراذل والأيتام،
فلا أمان في تلك البلاد، وإن ظلتها لا يرون وسيلة لصون الحياة من أنياب الظلم
إلا الفرار،

قد هرب خمس الإيرانيين إلى الممالك العثمانية والبلاد الروسية وترامح بمولون
في الأزقة والأسواق بين حمال وكناس ووزبال وسقا. وهم يرثاث ثيابهم وكاوة
وجوههم وخساسة حرفهم يستبشرون بالنجاة ويشكرون الله على بقية الحياة ...
لاحد في الأقطار الإيرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس. إن
الجرثم ليست لها حقائق أحرزها الشرع وحكم بها العقل. والجزء لا يحد حصر.
كل هذه تحت سلطان الهوس والشره والقهر. لا دستور للحكومة ولا نظام ولا
قانون. كل يفعل ما يقدر عليه وتدعو شهوته إليه ولا رادع لاقضاء الحاكم ولا مانع
لحكمه. يأخذ الجار بالجار ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل (ولا ذنب له)
كل مسؤول لديه عن الكل

الحاكم يقدم لشاه على حسب عظام الحكومة وصغرها تقديداً (يشكش)
و يلتزمها على نفسه كل سنة شكرا انويلته (ولا شهرة له) ثم انه يأخذ من كل من

يستدعيه لخدمة الحكومة أو خاصة شخصه من مدير وكاتب ومعاون وشرطي وجلاد وطباخ وفراش وسائس وغال مبلغاً جزاء لاستخدامه (ولا شهرية لهؤلاء أبداً) . وهذه القطيعة الضارية والضباغ الجائئة تثب فجأة على البلاد فتفترس وتمش وتبلع وتدمر ولا شفقة تكف ولا عقل يزجر . فالويل كل الويل لقوم قضت الأقدار عليهم بحكومة جائرة وحشية كهذه . .

وان الحاكم واتباعه للاستئصال على ما نقدوه أولاً وما التزموا على ذمتهم لا يدعون في مدة الحكومة وهي غير معلومة عملاً شنيعاً وفلاً فظيماً وأمرأ بشماً الا ويرتكبونها . . يعاقبون النساء بشعورهن ويضعون الرجال مع الكلاب المارقة في الجواقق ويسمرون الآذان على ألواح من الحشب ويدخلون زمناً في العرين ويدبرون ذاك المظلوم بتلك الهبة المحزنة في الأزقة والأسواق وان أهون العذاب عندهم الكي والضرب بالسياط *

وان الحكومة الإيرانية لا تمنح المساكر وليست لهم لاشهرية ولا جارية فاعماً تكلمهم الى قدرتهم في النصب وخذقهم في السرقة . تدبر فيما يكابده الأهالي ويقاسيه من هذه الحكومة الجائرة الحق . أليست هذه هي الامة الإيرانية التي سادت الأمم في زمانها ؟ أليست هذه هي الامة الفارسية التي أحيت العلوم في العالم الاسلامي وأقامت الديانة على دعامة الحق بقرّة براهينها وقومت اللغة العربية بجالي تصانيفها ؟ أسفا على هذه الامة كيف أبادها الجور وبددها الظلم حتى سقطت عن عداد الأمم العظيمة وكاد أن يندرس رسمها وينطمس اسمها . أين العلماء وأين حملة القرآن وأين حفاظ الشرع والقائمين بأمر الامة وأين نصراء الحق والعدل *

(السيد)

(يقول محمد رشيد) ألم يكن الشاه جديراً بالخوف من اظهار هذه المحازي وعاقبة ذلك التحريض ؟ أم هل يستغرب القارىء — وقد قرأ هذا — قول السلطان عبد الحميد للسيد : بحق يخاف منك شاه المعجم خوفاً عظيماً . وبلغني أن له كتابة أخرى بحرض فيها على خلع السلاطين ، ويقول فيها ان خلعها أهون من خلع التتالين ،

وانا لم أطلع على ذلك . ولكن أغايه أحد السلاطين بالدهاء وحجر عليه في الاستانة حيث لا مجال للتعريض بالقول ولا بالكتابة . قال السيد في بعض محافله بالاستانة ان الشاه ناصر الدين طغى ونجبر وبائع في الكبر والعلو وكان كل استناده على دولة الانكليز . وذكر انه انما اختار عاصمة الانكليز لطمع فيه لاجل ان يحقر أمره في عين الشعب الانكليزي ويحفظ قلبه عليه .

وقتل البنا أن السلطان كان يريد ان يرسله الى أوروبا في أمر سياسي ثم عدل عن ذلك . وذكر هو أن السلطان أثنى عليه بخدمة الاسلام وقال له انني أحب ان اجعل وطنك الاستانة اذ لا وطن لك وعرض عليه ان يزوجه فأبى وقال في بعض مجالسه اني لو تزوجت لكان زواجي أغرب عند العارفين بحقيقة امري في مصر من ذهاب الشيخ عيش بتلاميذه الى أحد ملاهي الازبكية وتماطيم كورس (البيرة) جهرا : وقد ذكرت ذلك للاستاذ الامام فقال لي انه كان قد قد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه الى ماعلق آماله به من عظام الامور .

وحدثني الشيخ حسين الجسر وغيره عنه انه بعد مجيئه الى الاستانة استأذن له على السلطان فقبل له انه مشغول وضرب له موعد جاء فيه فقيل له انه مشغول وضرب له موعد آخر فقال لا أعود ثم طلب بأمر السلطان لمقابلته فتمنع وقال « هذه تلك » فاقنعوه بما ذكروا له من كثرة أعمال السلطان وتقيده بالمواعيد فرضى . وان السلطان كان اذا أغضبه بعمل يرضيه بالقول وحسن المعاملة . ومن ذلك انه لما سمي به اليه بأنه أفشى سره (اي سر السلطان) الى مكاتب التيمس وكان قد زاره وان عنده ديناميت وأنه يحقر السلطان في مجالسه امر السلطان بفتيش بيته الذي انزله فيه ففضب وذهب الى سفارة الانكليز وأراد ان يسافر من الاستانة فاستحضره السلطان بعد ذلك وقبله وقال لا يفرق بيني وبينك الا القضاء المحتوم ثم انزله في زورقه الذي ينتزه به في بحيرة « يلدر » وما زال به حتى استجابات حيثه لرقبته ، واندمل جرحه بمسبره ،

وكلن السلطان يتساهل معه ما لا يتساهل مع أحد اذ يبلغه عنه من الأقوال الجارحة ما يبلغه فلا يظهر له ولا لأحد ذلك . وقد حدثني بعض من حضر مجلسه في الاستانة انه سمعه يقول « ان هذا السلطان سلّ في رثة الدولة » وكان هذا بعد إعجاب بالسلطان استمر مدة طويلة كاتب في غضونهما علماء الفرس المجتهدين واقنعهم بأن يعترفوا له بأنه خليفة المسلمين فأجابوا وكتبوا اليه في ذلك . يقال إن هذا كان ابتداء في دعوة المسلمين كافة الى الاعتصام بعروة الخلافة والقيام بتدبير سياسي عظيم عرقله الشيخ ابو الهدى عليه واقنع السلطان بوجوب الانصراف عنه .

مذهب السيد جمال الدين السياسي

لعل ما قلناه آنفاً هو السبب فيما اشتهر عن السيد من السعي الى جمع كلمة المسلمين على خليفة واحد فاتي رأيت الناس يتناقلون هذا الرأي وقد كسبه غير واحد في الصحف المنشرة والتواريخ المصنفة . قال جرجي افندي زيدان في آخر ترجمة السيد من كتاب تراجم مشاهير الشرق (ص ٦٥ ج ٢) ما نصه :

﴿ آماله وأعماله ﴾ يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذي كان يصوّب نحوه اعماله ، والمحور الذي تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا السعي جهده واقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا ، اه المراد

والصواب أنه كان له من حياته مقصدان (احدهما) علمي وهو تنبيه المسلمين الى الاصلاح الديني والعلمي بالكتابة والخطابة (وثانيهما) سياسي اجتماعي وهو ماينه الاستاذ الامام في ترجمته (ص ٣٤) وهو ترقية دولة إسلامية أية دولة كانت وحسبك انه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى وهي الإمارة المصرية فقد كان يرمي الى تمدينها وتعزيزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كأحسن البلاد الاوربية . ثم تعلق أمله بالسودان ، ثم بلاد إيران ، ثم بالدولة العثمانية .

(١٠ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

أما شأنه في مصر فظاهره معروف في الجملة وقل من يعرف أسرار الخفية ، ومقاصده السياسية ، وقد علم بعضه مما تقدم ونزيده بيانا فتقول
 نقلنا فيما مر من هذه الترجمة (ص ٣٥ - ٣٨) نبذة من كتاب اسباب الحوادث
 العراقية للاستاذ الامام بين فيها ان السيد جمال الدين هو موجد النهضة الاجتماعية
 بمصر (من الجهتين العلمية والسياسية) وقد بين بعدما تقدم نقله ما كان من الارتباك
 الشديد في المالية المصرية بإسراف إسماعيل باشا وسوء تصرفه وتشكيل لجنة مختلطة
 من وكلاء الدول لذلك سميت « لجنة التفتيش العليا » وتعين وزيرين اوربيين
 احدهما انكليزي للمالية والاخر فرنسي للاشغال العمومية فكان ذلك مع حكم
 المحاكم المختلطة على الخديوي في مسألة مالية وتنفيذ الحكم بالقوة رغم إرادته مما أعان
 على تنبيه أفكار المصريين وبين لهم ان حاكمهم قد يقع تحت الحكم وان سلطته
 ليست إلهية تعاقب البشر . ثم أقاض في بيان سوء الحال وذكر حادثة الضباط
 التي توسل بها إسماعيل الى قلب وزارة نوبار باشا مع بقاء الوزيرين الاوربيين ثم
 توسله باعيان الأمة الى عزلها وخبر الائتحة الوطنية التي عملت لاجل ذلك وما كان
 من تنبيه الناس الى ان حاكمهم قد يحتاج اليهم في الدفاع عن سلطته (وهذا مما كان
 يغتمه السيد جمال الدين)

بعد هذا ذكر ما كان من سعي نوبار باشا في اوربا لعزل إسماعيل وأشار الى
 ما كان من سعي جمال الدين لذلك بمصر لما كان بينه وبين ولي العهد (توفيق باشا)
 من الموطاة على الاصلاح اذا صار الأمر اليه . قال بعد ذكر إرسال فرنسا موسيو
 تريكو مأمورا فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على عزل إسماعيل ما نصه :
 « ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (أي إسماعيل) بعيدا عن كرسي
 الخديوية ، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية
 بظهرون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله . وكانت بينه وبين
 السيد جمال الدين مكالمات ومخاطبات في هذا الأمر فسمى هو والكثير من الاعيان
 عند شريف باشا حتى يقنع الخديو السابق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد
 فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تتالا ما تطلبان

عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع، وان أمس شيء بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

« ثم ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبأنوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح (١) ويسعى اليه وأن الاصلاح لمصر لا يتم الا على يد وليّ العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطني الحر » اه

ثم ذكر ولاية توفيق باشا وما تشبث به من الاصلاح في اوائها ومنه شروع شريف باشا في وضع قانون اساسي لمجلس النواب ومعارضة الاوربيين لاسيما وكلي فرنسا وانكثرا لذلك وذكر انشاء جمعية في الاسكندرية باسم « مصر الفتاة » لم يكن فيها مصري حقيقي وانما كان أغلب أعضائها من شبان اليهود . ثم انشائها جريدة (مصر الفتاة) المتطرفة في الانتقاد والوعظ والارشاد ثم قال مانصه :

« لكن ما حظ الاجانب في مصر من اطلاق الحرية للمصريين ونحو يلهم الاصلاح المرغوب؟ لو صح شأن المصريين واستارت عقولهم وكان لهم رأي في ادارة بلادهم هل تزيد الضرائب ويضيق على الفلاح في ادائها حتى يأخذ المائة بمائة في بضعة اشهر وهو انما يأخذها من الاجنبي؟ ولو وضع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للاهالي سعادتهم هل يمكن للاجانب ان يتمتعوا بالسلطة والنفوذ الذي يتمتعون به تحت السلطة الاستبدادية وان يكونوا حكاما في اقتضاء ديونهم واستخدام المصريين في مصالحهم؟ ماذا اصاب الاجانب في عهد الاستبداد مما لا يحبون حتى يطلبوا الخلاص منه؟ نعم قد يصح هذا اذا امكن ان يكونوا ملائكة قدسين يؤثرون سعادة المصريين على سعادتهم ويزهدون في المنافع الخاصة بهم اذا جلبها ضرر عام يصيب غيرهم وان يكون ذلك الطلب مبدأ توبة عما اتوه من قبل

« وسواء صحت هذه الأقول أو لم تصح فالحق الذي لا ريب به ان وكيل دولة فرنسا عند ما أحس بمقاصد الخديو وميله الى مشايعة الاحساس العام أخذ

يسعى في إقامة الموانع دون ذلك ودعا وكيل دولة انكلترا للاتفاق معه في اقناع الخديو بمضرة هذه الأوضاع الجديدة في الوقت الحاضر وقت الارتباك في المسائل المالية وان دخول النواب في تصحيح الموازين ونحوها مما يعوق حل المشاكل الموقوفة لتشتت الآراء وافناء الوقت في المداولات لو تم ذلك وبقاء هذه العقد في الحكومة بدون حل سريع قد يؤدي الى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام . وساعدهم على ذلك بعض الوطنيين من حاشية الجنب الخديوي ولقرب حادثة الخديوي الاسبق من الأذهان وظهور السبب فيها تأثر الخديو الجديد بهذه الأدلة ومال الى غير ما أظهر للعامة في أول الأمر وصمم على رفض مشروع الاصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا وعندما عرض عليه رئيس النظار ما وضعوه في مشروعهم عرضاً غير رسمي ظهرت عليه علامات النفور منه غير انه لم يقطع بعدم قبوله الى ان جاء الفرمان وتلي في احتفال عظيم وذهب المندوب السلطاني الى الاسكندرية ليتوجه منها الى الاساتنة يوم الأحد غاية شعبان سنة ١٢٩٦ فبعد غروب ذلك اليوم دعا الخديو حضرات النظار فوفدوا عليه وبعد قليل قدموا استعفاءهم قبل وانصرفوا والسبب الصحيح لاستعفائهم ان شريف باشا صمم على تنفيذ لائحة الاصلاح ورأى حضرة الخديو السابق ان الاصلاح على هذه الصورة سابق وقته فلم يقبل ما عرض عليه فاستعفت النظارة وشكل الخديوي نظارة جديدة تحت رئاسته

« بذلت مساع كثيرة في اخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لا تشعربه الأنفس الطامحة الى الاصلاح الجديد لكن الحقيقة سطعت رغما من هذه المساعي وكثر القيل والقال في ذلك وكان وكلاء الدول أرباب النفوذ في مصر يظنون ان محرك هذه الافكار وباعث الأنفس على طلب الحرية ووضع أصول للنظام انما هو الشيخ جمال الدين فقدموا الى الجنب الخديوي باقامة الادلة على خطر الرجل واخافوه منه (١) كما اخافوه من النظام نفسه وكان التخلص من النظام باستعفاء الوزارة . اما التخلص من الشيخ جمال الدين فكان بنفيه سادس رمضان اخذ في الطريق آخر الليل وهو

ذهب الى بيته هو وخادمه وحجز في الضبطية ولم يمكن من أخذ ثيابه . وبعد ان انتشر ضياء النهار حمل في عربة مقفلة الى محطة السكة الحديد ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة الى السويس ومنها انزل في البحر ليسافر الى بمباي ققطع المسافة بقميص واحد على بدنه والوقت صيف والحرارة شديدة حتى تفرح جسده ولم يكن معه من النقود اكثر من ثلاث جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة وهذا المبلغ اخذ منه في السويس قنزل البحر ولم يكن معه شيء . ولما شعر بذلك احمد بك القاوي وكان قنصل دولة ايران في السويس ذهب لتشيعه وعرض عليه مبلغا وافرا من القند فأبى ان يأخذ منه شيئا (٢) هذا مارواه احمد بك القاوي وواقه عليه الشيخ جمال الدين عند ما سئل عن ذلك بعد عودته من الهند الى اوربا . وثاني يوم سفر الشيخ جمال الدين ذهب بعض تلامذته الى بيته فوجدوا بعض اعوان الضبطية يمشون كسبه فدهشوا ورجعوا وكان عنده كتب كثيرة في فنون شتى فاختار منها اعوان الاصلاح وحفظه الأمن ما اختاروا لأنفسهم وحشوا بالباقي بطون الصناديق وارسلوه الى بندر أبو شهر من بلاد ايران فلما منهم بأن صاحب الكتب ذهب الى ذلك التفرغ وبقيت الكتب في مخزن الجمر ك هناك الى ان اكملها المثلث هنيئا مرثيا

« اذ كره هذه الحادثة لما كان لها من الاراسي في افكار العامة قد ذكرتهم بالايام السالفة واجبت ما كان قد مات من ذكرى حوادث القتل وغيره وفجعت آمالهم بشدة هائلة وقسوة شديدة نزلت بمن كان يقول له الخديوي قبل الحادثة بأيام على مسمع من الحاضرين

« انك أنت موضع أمني في مصر ايها السيد »

« فإين موضع هذا العمل من الاصلاح الذي كان ينادي به الجتاب الخديوي في اوامره العالية وينعش بذكره ارواح الخاصة من الماثلين في حضرته ويجتهد في ابلاغ البشرى به الى الكفاية؟ اليس من اول مبادي الاصلاح تقرير الأمن على النفس وكفالة الحقوق بالعدالة ومتى يكون الامن اذا لم تحقق التهم ، ولم يسأل منهم ، ولم تتضح الجناية بادلتها الصحيحة ولم تقدر العقوبة بقدرها

«لاريب ان الانزعاج بنفي الشيخ جمال الدين كان عاما، والكدر كان تاما، ولكن الجنب الخديو أظهر سروره مما فعل وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار في رمضان فظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل في محضر الشيخ جمال الدين وألزمت الجرائد بنشر الامر الصادر بالنفي وفيه من التقرع الشديد ما لم يكن يستحقه الرجل كما انه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه فشره البعض وابت احدى الجرائد نشره لان محررها كان من تلامذته فغطلت . على ان هذه الشدة، لم تزد الافكار الا حدة، ولا اللسان الا جرأة، ولا الاحساس بضرورة الاصلاح الا نموا وظهورا » اه المراد هنا من كلام الاستاذ الامام في كتاب اسباب الثورة العرابية وهو مؤيد بما تقدم في ترجمة اديب بك اسحق وسليم بك العنحوري للسيد

هذا شيء من التفصيل لعمله السياسي في مصر فهو الذي نفخ فيها روح الحياة المعنوية ونقلها من طور الى طور ولكنه تركها في سن الطفولية وخلف عليها وصيه ووارث علمه وحكمته الاستاذ الامام كما صرح بذلك عند سفره فاستقل بتريبتها من بعده كما يعلم ذلك بالتفصيل من هذا الكتاب

وأما ما قصد اليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندره أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال . فقد عظم أمر محمد أحمد القائم بدعوى المهدية بالسودان في نفوس الانكليز وكان لها يدان فيما يرسل من مصر والسودان الى انكبترا من الاخبار حتى اقنعا الحكومة الانكليزية بإخلاء السودان وكبتت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حال دون امضائها الا بمجيء البرق بنيا وفاة محمد أحمد

وقد كان لها رحمها الله من المساعي في مسألة السودان وتمهيد السبل الى العمل فيه بعد ترك الانكليز له مالا فائدة في بيانه . ويجد قارئ كتب الاستاذ الإمام الى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى إشارات في بعضها الى بعض ذلك كما ترى في الرقم ٦ من كتبه الإصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني)

وأما إيران فقد علم القراء بعض نبيه فيها من الفصل الذي قبل هذا فهو نافخ روح الحركة التي تقيم البلاد وتقعدها الآن
وجملة القول انه كان العامل الاول في هذا الانقلاب الاجتماعي الذي حصل في مصر من نحو ثلاثين سنة والمنبه الأول الى الانقلاب الذي حصل في بلاد فارس وسمعت الاستاذ الامام يقول « ان السيد لم يعمل عملاً حقيقياً الا في مصر » ولا غرو فهو المنزل الأول لجود الازهر والمصلح الاول للتعليم الاسلامي فيه بتريته للاستاذ الامام وواضع المعول الاول في أساس بناء السلطة الاستبدادية بمصر ومؤسس الحزب الوطني لايجاد حكومة أهلية صالحة وقد كانت البلاد تشتغل بالعلوم الاوربية من قبله عشرات من السنين في غير ان يفكر احد فيها بشيء من هذا وقد كان من اسباب فشله والعوائق دون إتمام عمله بناء سياسته على عداوة انكلترا ومقاومة نفوذها في الشرق وله في ذلك مقالات كثيرة سنورد طائفة منها في جزء آخر نجمعه ملحقاً لهذا الكتاب مع طائفة أخرى من مقالاته في الفلسفة ومقاومة الاستبداد

فلسفة السيد جمال الدين

لا تزال فلسفة اليونان والعرب تدرس في بلاد الأعاجم ولكن قل من يقرأها في البلاد العربية كصر والشام . وقد تلقى السيد جمال الدين الفلسفة العربية القديمة في بلاده ثم تلقى شيئاً من الفلسفة الأوربية والرياضيات على الطريقة الحديثة في الهند وكان قد تصوف قبل ذلك علماً وعملاً فكانت فلسفته مزيجاً من التصوف والفلسفة القديمة والحديثة أي كانت له رأي خاص في العلوم العقلية وعلم النفس والاخلاق وعلم الوجود والتكوين يستدل عليه ويشد رأي من يخالفه ولا معنى لفيلسوف الا هذا

مذهب فلاسفة الافرنج في الوجود قريب جداً من مذهب الصوفية القائلين بالوحدة وكان السيد يميل الى هذا المذهب كما أشار اليه الاستاذ الإمام في ترجمته . ولا بد من التنبيه هنا الى ان مذهب السادة الصوفية قد اشتبه على كثير من المتأخرين بمذهب الباطنية الزاعمين ان الله تعالى يحل في بعض البشر سبحانه

وتعالى عما يصفون . والفرق بين المذهبين دقيق ، لا يمحسه الا أهل التحقيق ،
فللصوفية كلام في أنفسهم وفي شيوخهم ، يشبه كلام الباطنية في أئمتهم ، ومن ذلك
قول الاستاذ الامام في خطاب السيد (رحمهما الله تعالى) « أوتيت من لدنك
حكمة أقلب بها القلوب وأغفل العقول » الخ (راجع ص ٥٢٦ من الجزء الثاني)
فان كنت لا تعرف مذهب الباطنية حق العلم ومذهب الصوفية حق العلم ولا تدري
ما يريدون بالظهور والبطون والتجليات والتنزلات والمنازلات فأربأ بنفسك ان
تكون من أهل الدث والرجم ، وان تهفو ما ليس لك به علم (١٧ : ٣٦ ولا
تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً)
كذلك يشته على الجاهل الفرق بين رأي السيد في التشو. ورأي داروين قد
حكى الاستاذ الامام عن درس السيد للاشارات مانصه :

« بين حفظه وأثبت ان الانسان نوع من انواع الحيوانات الارضية (لا كما
يزعم ارباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من انهم ابناء السماء فليتنكر من
له فطنة) وانه قد أتى حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ، ويسير في
في عيشه سيرتها ، يتفأ ظلال الاشجار ، ويستكن في الجحر والاوكار ، ليس له شعار
ولا دثار ، ولكن خفيف اشمار ، يقتات بنبات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على
يد القوى الطبيعية ، لانفسها يد صناعية ، ولا تربية اجنية ، ليس له من المكسر
والتخيل الا مالا يداني فيه الثعلب ، ولا من العلم والتدبير الا مايضعه على الغدو
لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار ، والرواح للاستكثان من كن يواريه عن
أعين الحيوانات العادية ، والفرار من المكاره الحسية ، كما تفر الشاة من الذئب ،
والارنب من الثعلب ، ولم يكن له من رفعة القدر مايجلسه على كرسي سلطنة الوجود ،
ويقيمه متحكماً في كل موجود ، ويدعوه للحكم بانه خلاصة العالم ، ومتهى سير
الحقائق وعمار عالم الكون ، وان جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لاجله ، والكواكب
والسيارات إنما تتحرك لخدمته ، » الخ ما أثبتناه في مقالة فلسفة الصناعة من جز
المنشآت ، (راجع ص ٣٠ ج ٢)

فاذا قبلنا هذا القول برده على مذهب دارون وعلى الماديين الذين يقولون

انه لا فرق بين الانسان وبقية الحيوانات يتجلى لنا ان مذهبه وسط بين المذاهب في ذلك وهو ان الانسان حيوان مترق من جهة وملك أرضي من جهة أخرى اي انه جامع لخواص الجنسين . وقد قال في رسالته في الرد على الدهريين مينا خواص اعتقاد اهل الدين بأن الانسان ملك أرضي وانه اشرف المخلوقات في الأرض (اي لا في العالم كله) مانصه :
 « فما يلزم الاعتقاد بان الانسان اشرف المخلوقات ترفعُ المعتد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية ، واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ، ولا ريب انه كلما قوي هذا الاعتقاد اشتد به النفور عن مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلي ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بافر الحظوظ حتى قد ينتهي به الحال الى ان يكون واحداً من اهل المدينة الفاضلة بجما مع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة ، وتلك نهاية السعادة الانسانية في الدنيا وغاية ما يسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

« فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحر الوحشية في معيشتها ، والثيران البرية في حالتها ، ومضاربة البهائم السائمة ، والدواب الهائلة ، والهوام الراشحة ، لا تستطيع دفع مضرة ، ولا التقيّة من عادية ، ولا تهتدي طريقاً لحفظ حياتها ، وتقضي آجالها في دهشة الفرع ووحشة الانفراد

« هذه العقيدة أشد زاجر لانباء الانسان من التقاطع المؤدي لاقتراس بعضهم بعضاً كما يقع بين الاسود الكاسرة ، والوحوش الضارية ، والكلاب العاقرة ، وأشد مانع يدفع صاحبها من مشاكلة الحيوانات ، في خسائس الصفات ، وهذه العقيدة احجى خاد للفكر في حركاته ، وأنجح دافع للعقل في استعمال قوته ، وأقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل

« إن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لا يتقدون هذا الاعتقاد ، بل يظنون ان الانسان حيوان كسائر الحيوانات ، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، والى أي حد تصل بهم الشرور ، وبأي منزلة من الدناة تكون نفوسهم ، وكيف ان السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية »

رأي السيد في إصلاح حال المسلمين

كان يرى ان المسلمين ما صاروا أمة ذات مدنية ودول عزيزة إلا بحسن فهمهم لدينهم وحسن عملهم به وما ضعفوا واستكانوا بعد ذلك إلا بسوء فهمهم لدينهم وانحرافهم عن صراطه وابتداعهم فيه وأنهم لا يرتقون ولا يعتزون إلا بحسن فهمهم له ونهوضهم به واستقامتهم عليه وهذا الرأي معروف عنه . وقد كتب اللي شيخ عبد القادر المغربي من الاساتذة سنة ١٣١٠ انه زاره مرتين أو ثلاثاً وانه كان بما دار بينه وبينه ما يأتي بالص الذي كنيه للمغربي يومئذ :

« قال (السيد) ان بطرس برج وفيينا كيليس في حسن الانظمة والخرف وان فينا أكبر من الاساتذة . قلت الاساتذة منذ ثلاثين سنة لم تكن هكذا بل كانت متأخرة من عدة وجوه فهي لا تزال تتدرج في مدارج المدنية لاسيما باهتمام أفندينا ولي التعم وهذا يدل على ان المسلمين عن قريب يلغون من التمدن والترقي ما بلغت اليه أهالي البلاد الغربية . قلت اذا لم يبن قدامتاً وتعدت على قواعد ديننا وقرآنا فلا خير لنا فيه ولا يمكن أن نتخلص من رقة الانحطاط والتأخر . قلت إذا نظرنا الى حالتنا منذ ثلاثين سنة وقابلناها بما نحن عليه الآن نرى يوماً عظيماً . قلت : ما نراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهراً هو عين التدهور والانحطاط لاننا في تمدننا هذا مقلدين للامم الاوربية وبسبب ذلك يخشى علينا بعد من غير طويل ان نخضع للذل والسلطة الاجنبية أو تبدل صبغة الدين الاسلامي الذي من شأنه رفع راية السلطة والتغلب الى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة .

« قلت ما الطريقة القويمة التي ينبغي ان نسلكها لتوصل للتمدن الحقيقي ومساواة شعوب اوربا ؟ فقال لا بد من حركة دينية لاننا اذا نظرنا في سبب انقلاب حالة عالم اوربا من الخشونة الى المدنية نراه الحركة الدينية وذلك منذ عصر لوثيروس رئيس الطائفة البروتستانتية فانه لما رأى اهل اوربا تعتقد في البابا اعتقاداً يوجب عليها الخضوع له والاستكانة لاوامره وغير ذلك من الاعتقادات المسيحية الفاسدة

قام بتلك الحركة الدينية التي نشأ عنها الانقسامات بين الشعوب وجعل كل شعب يغار من الآخر ويحارب به في سلوك سبل النجاح . وخلاصة الامر ان تمدن أوروبا ينسب الى تلك الحركة ومبدأه من ذلك العهد

قلت ان دينهم فاسد فأصلحوه وديننا بحمده تعالى للآن محفوظ من التبديل والتغير فكيف تكون حركتنا الدينية وعلى اي شيء مبناها ؟ فقال حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ان لا يتحركوا للطلب مجد ولا لتخلص من ذل ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذي حملهم على عدم السعي وراء الإصلاح والنجاح ومثل . . . ومثل . . . فلا بد من بث العقائد الدينية الحققة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب وحملها على محاملها الصحيحة التي هو دهم لما فيه خيرهم دنيا وأخرى . ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا وتقيحها وتأليف كتب فيها قرينة المأخذ سهلة الفهم لتستعين بها على قدمنا لا أن نجعلها علماً مقصوداً لذاته كعلم النحو والبلاغة يصرف الانسان جلّ في حياته الاشتغال فيها ولا يقتدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم في نفسه من الافكار والامور التي يرجع اليها لإصلاح في الوطن وتعزيز للدين وهوية للامة

« وهنا شرع في بيان سوء اشتغالنا في العلوم على غير طائل حتى ان الغير اهتدى الى لب تلك العلوم واستعان بها على قويم اعوجاجه وتركنا نحن نتخط في مهامه الخيرة والغفلة وتبته في فيافي الجهالة غير مباليين بما ينجم عن ذلك من الدمار والانحما من صفحات الوجود » فلا بد إذن من الحركة الدينية ، ، ، اه ما كتبه المغربي من محاورته مع السيد

وهكذا كان السيد يدعو كل من لقيه من المسلمين الى الإصلاح الديني ويخاطبه في ذلك على قدر فهمه ولا شيء من آثاره ينجلي فيها ذلك الا العروة الوثقى التي عرفنا منها مذهب هذا على ما فيها من الاجمال ولكن الاستاذ الامام هو الذي كان يسلك مسلك التحلي والتفضيل ، وهو المثال الكامل الذي عرف به فضل جمال الدين

﴿ عشق المؤلف للسيد وكتابته اليه ﴾

نشأ مؤلف هذا الكتاب نشأة دينية صوفية فحب اليه النسك والتحنث منذ سن المراهقة بل التميز وكنت لا يلذ لي شيء كقراءة أخبار الصالحين والذكر والصلاة وهديت الى قراءة إحياء العلوم قبل طلب العلوم فأكبت على مطالعته مع مطالبة النفس بالعمل به ثم اشتغلت بطلب العلوم ولم اترك التصوف بل سلكت معه طريقة النقشبندية ففغني التصوف في طلب العلم من جهة واضربي من جهة اخرى فاني رغبت عند دخول (المدرسة الوطنية) عن درس اللغتين التركية والفرنسية لاعتقادي يومئذ انه ليس في دراستها فائدة دينية ولا هما مما يطلب لوجه الله عز وجل

وقد غلب عليّ الزهد وبغض الحكام والمُسرفين من اهل الدنيا حتى كنت انكر على من أراه منهم كل منكر يأتيه . فانكرت على والي بيروت مرة إساءة صلاته وهو في مسجد « السراي » بطرابلس حتى لآمني على ذلك بعض العلماء الرسميين وانكرت على كثير من رجال العدلية وغيرهم سيرتهم وحملهم للساعات والسلاسل الذهبية وغير ذلك

ثم اتفق لي ان كنت اقلب في اوراق والدي (رحمه الله تعالى) فرأيت عديدين من جريدة العروة الوثقى قرأتها بشوق ولذة فعلا في نفسي فعل السحر فطقت أبحث عن سائر الاعداد فوجدت بعضها عند والدي ووجدت الباقي عند استاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي فاستنسخت الجميع وقرأته المرة بعد المرة فانتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي وهو انه ليس روحانياً أخروياً فقط بل هو دين روحاني جسماني أخروي دنيوي من مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الارض بالحق ، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل ،

وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيمهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا . وكنت مجداً في ذلك حيث

كنت حتى اذا ما اردت ترويح النفس في بعض قرى الكورة (من لبنان) أخذت معي مثل كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) لأتوكأ عليه في المواعظ التي كنت أُنْهِيها في كل مجلس فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة الى المدينة والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة فطفت أستعد لذلك استعداداً

و كنت أبحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده وعماء قليل فيهما وما كتب عنهما . و كنت اناضل دونهما وادافع عنهما بحماسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ احد على الطعن فيهما أمامي . ولما اشتدت المنافسة بين السيد وبين الشيخ أبي الهدى أفندي في الاستانة وصار بدري باشا احد انباء أبي الهدى متصرفاً في بلدنا (طرابلس) وكان ما كان لصنائعه بني الانجا من النفوذ والبغي كنت في دفاعي عن السيد عرضة للايذاء ولكن ذلك لم يحولني عن مذهبي حتى إني جاهرته بذلك في دار بدري باشا على مسمع من مصطفى باشا الانجا . واني اذكر هنا صورة الكتاب الذي أرسلته من طرابلس الى الاستانة وهو يمثل حالي في ذلك الوقت تمثيلاً يينا وهو بحروفه :

كتاب المؤلف الى السيد جمال الدين

(في سنة ١٣١٠)

الحمد لله على افضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، وعلى سيدي بل السيد المطلق ذي القدح المعلى والجواد المصلي الاسبق، سدره متهى العرفان، وجنة مأوى المحاسن والاحسان، الذي له في كل جوة متنفّس، ومن كل نار مقتبس، الامام المفرد، والعقل المجرد، حجة الاسلام، وعلم الأعلام، أخطب الخطباء وأبلغ الكتاب، من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، بدل الأبدال، سيد الآل، الانسان الكامل، الوارث الكامل، المرشد الكامل

مهيّط الفيض مصعد الكلم الطيب . . . ب مجلى سر الجمال الأكل

جمال الدنيا والدين، وبقية رجا المسلمين، أيده الله تعالى، وزاده رفعة وكالا ان فرط الشغف بالجمال، ومساهمة بالانتساب للآل، قد حملاني على غارب الجرّة

والإقدام على خطابه خطاب نسيب لنسيب، ومحب لحبيب، ومفادرة الأحرى بل الواجب الذي لا تخير فيه من مخاطبته مخاطبة مملوك للمليك كريم، وخادم لسيد عظيم، وعليه قلت :
اني منذ لاحت على مخايل التميز ما نهي الى خبر ألد وأشهى، ولا انبل واسمى،
من خبر سيدي (جمال الدين) نبأ عظيم غرس في قلبي حبة الحب والشغف وسقاها
بماء الحياة فنبت نباتا حسنا، وامتدت أغصانها، وتشعبت أفنانها، حتي لم تذر في أرض
الجسم ذرة من دقايقه الا وجذورها راسخة فيها . شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في
السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، جنيت منها ثمرة حب الحكمة واقتطف
الناس منها ثمار الثناء، على حكيمة الحكماء، أعزه الله تعالى . ولم تزل تنمو بنموي حتي كأنها
من عناصر جسدي، وتقوى بقواي العاقلة حتي كأنها من مقومات ماهيتي، وهي الآن
أرسخ المملكات في نفسي : لا أتبوا مجلسا ولا أفيض في كلام الا ويكون ذكر الجمال
فاتحته أو ختامه، أو متخللا أجزائه وأقسامه، ان لم يكن هو موضوع الكلام، حتي عرفت
بين المعاشرين، بعاشق جمال الدين، وربما دعاني بعض الاصدقاء بالداعي له (واحد
الدعاة) لا سيما وأنا أعد له ما يعد عليه (كدخول الماسونية والجلوس في الاماكن العامة
وطول الإقامة في أوربا وتقريب وإرشاد غير المسلمين في البلاد الاسلامية)

إني حتي الآن لم أقف على شيء من سيرة سيدي الاما كتبه سليم أفندي العنحوري
في كتاب له خلط فيه الخطأ بالصواب : وما نقل في مستخبات اديب بك اسحق وما
كتبه الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده (حياه الله تعالى) على رسالة سيدي في
النسبة بين الدين والكفر في العمران (١) ولم أحظ بشيء من آثاره النفيسة إلا
الرسالة المشار اليها آنفا وتاريخ الافغان والاعداد ١٨ التي صدرت من العروة الوثقى
هذا كل ما اروي به وأثره عن سيدي وهو ان كان قليلا بالنسبة لمن أضرب به
الظما فلا يكتفي بقليل من الورد لكنه لا يقال له قليل بالاضافة لما فيه من عظيم
الفائدة التي لا يعني عنها لقاء المئين والالوف من المشيخة ولا مطالعة أسفار المتقدمين
والتأخرين في الفنون العديدة

(١) انني منذ اطلمت على هذه الرسالة وسمتها بهذا الوصف الذي ذكرته لمؤلفها

فله أنت من ذي نفس زكية ، وروح قدسية ، ماهبت نفحة من معارفها في
جوّ قوم الا ونفخت في رممهم روح الفضل ، ولا تدقت امواه فضائلها في ارض امة
الا وجرفت منها ادران الجهل ، بل اقول لا تنبث من ذلك الذهن المشتعل بالانوار ،
ذرات الفكر في فضاء قطر من الاقطار ، الا تكون منها في سماء العقل من كواكب
العرفان ، ماهو افيد من النظام الشمسي في عالم الحس والعيان ، وعلى هذا فما
اجدركم بقول القائل

أبدأ نحن اياكم الارواح ووصالكم ريحانها والراح

وما أعذرني وأنا أعد قر بكم أفضل القربات ، ولها كم غاية انغايات ، واني استير
كتابي هذا ليكون مستنخا عواطفكم ، ومستجديا مكارمكم ، قبولي لديكم بصفة مريد
يتلقف الحكمة ، وتليذ يقوم ببعض الخدمة ، يساهمكم السراء والضراء (وقا كم
الله) ويسيركم في الزرع والرخاء (حماكم الله) ولا أراني ارد عن أبواب فضلكم
فما جزاء من احب الا ان يحب وللرحم حقوق مثل سيادتكم من يراعيها ويصلها .
ثم ذكرت له في آخر هذا الكتاب ماخص ترجمتي ولا حاجة الى اثباتها هنا
على انني لم أجدها كلها فقد كنت كُتبت لهذا الكتاب مسودة بقلم الرصاص على ورقتين
فقدت مني الصغرى منها وفيها تمة الترجمة وعبارة اخرى اذكرها بنصها تقريرا وهي
قولي في الاعتذار عن عدم المبادرة الى الرحلة اليه في الاستانة « لاني اعتقد
ان القسطنطينية على سعتها بل المملكة العثمانية بما رجبت لا يفسح فيها لسيدي مقام
لأن ممالك الشرق امتست كالمریض الاحمق يأبى الدواء ويعافه من حيث إنه دواء »
وقد كتب الي الشيخ عبد القادر المغربي من الاستانة أنه اجتمع بالسيد وانه
ذكر كتابي اليه فاثني عليه مبالغا في الثناء وأمره ان يبلغني ذلك معذرا عن عدم
الكتابة الي بانه ليس عنده قلم ولا دواة ولا ورق (اي كان ممنوعا عن مكتابة
الناس او ممتعا عنها حتى لا يسوء ظن السلطان به) وذكر لي احمد بك رشوان
وغيره ممن كان يتردد عليه من المصريين أنه كان يثني على هذا الكتاب وعلى
صاحبه ويقرأه لزاثره المرة بعد المرة . ولا سبب لذلك الا اخلاص الكاتب
وشعور المكتوب اليه بذلك

﴿ نهاية امره في الاستانة ﴾

ذكرنا خبر مجي السيد الى الاستانة وحفاوة السلطان به . وقد كان لما طلبه السلطان من لندرة تمنع وكان ممن كتب اليه واجتهد في اقناعه الشيخ ابو الهدى افندي الشهير وكانت المادة بينها في أول مقدمه شديدة وانخدع السيد بحفاوة ابي الهدى واجلاله له فأحسن به الظن كماداته فكان يثني عليه ثم لم يلبث ان قلب له ظهر المجن ومحل به عند السلطان وعرقل عليه عمله في شد او اخي الاخاء بين العثمانيين والفرس أو بين اهل السنة والشيعة ووسوس للسلطان في شأنه ماشاء ان يوسوس حتى قويت ريبته فيه وجعله موضع الظنة واكثر من العيون والجواسيس حوله حتى ضاق صدره وناهيك بحياة من كان اشد الناس حرية وعزة في ضيافة السلطان عبد الحميد وتحت مراقبته مراقبة من يخشى منه على المملكة او الخلافة !!!

حدثني الثقة قال حدثنا السيد جمال الدين بالاستانة فقال مامثاله : ان الخديو كان شديد الرغبة في لقائي لما كان يسمع عني من اولادي واحفادي بمصر فأرسل الي في ذلك فقلت لا بد في ذلك من اذن السلطان فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال الماين فكانوا يرجئون ويسوفون ويجمعون في الجواب ولا يفصحون وينا انا جالس في الكاغدخانه (منزه مشهور في الاستانة كالجزيرة بمصر) أصيل يوم من الايام كمادتي واذا أنا بفارس قد اقبل عليّ وترجل مسلماً فقلت من انت ؟ قل عباس حلمي . فكثنا ساعة زمانية تحدث . وطار الجواسيس الى السلطان بالخبر فأرسل الي فلما لقينته قال : تريد ان تجعلها عباسية ؟ فقلت ان بني العباس قد انقرضوا وبنو عليّ أولى « ثم قال ان مولانا يريد عباس حلمي وهل هي خاتم يدي فأضعها في اي إصبع شئت

وذكر غير هذا الراوي ان السيد لم يفهم ان السلطان يريد بقوله « أنريد ان تجعلها عباسية » جعل عباس حلمي باشا خليفة فأجاب بما أجاب . وكنت عند سماع الرواية الأولى فهمت انه قال ذلك أولاً على سبيل المغالطة . فبمثل هذه الأوهام

كان شياطين الانس يوسوسون للسلطان ويخوفونه من السيد حتى حرم الاستفاضة منه

وحدثنا الثقة أيضاً ان السيد جمال الدين كان يركب عربته كل يوم بعد العصر فيذهب الى الكاغدخانه ففطن لجاسوس كان يتبعه ماشياً فقال لجماعة السلطان في نفس المايين انكم قد اعطيتموني مركبة وجعلتم لي جاسوساً بغير مركبة فاذا أنا أسرع بمررتي طفق يعدو ورأني وهو يلث كالكلب ولا يدركني فهلا وحمتموه فأعطيتموه عربة ليدركني أنى سرت ؟ ؟



(هذه آخر صورة للسيد قبل مرض وفاته)

(١٢ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

وقد بالغ الشيخ أبو الهدى في عداوته والكيد له حتى كان يسعى في إيذاء من يذكره بحجر أينما كان من بلاد الدولة . وكان يطعن في نسبه ودينه كما هي عادته فيمن يستاء منهم فانه يجردهم من اللباس الذي فصله وخطه لنفسه ولمن برضى عنهم من انصاره . وقد كتب إليّ في ٢٩ رجب سنة ١٣١٦ كتاباً قال فيه « اني أرى جريدتك طاغية بشقاشق المتأفمن جمال الدين الملققة وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان يزعمها زوراً وقد ثبت في دوائر الدولة رسماً انه ما زندياني من اجلاف الشيعة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » وكذلك قال الشيخ أبو الهدى في امام الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي هو من أشهر الشرفاء ، في كتب لقها باسماء الاموات والاحياء ، ولا ندرى في أي دوائر الدولة يسجل شتم الناس فصدق خبر أبي الهدى كذلك كان شأنه في الاستانة في آخر أيامه بمساعي أبي الهدى الى ان توفاه الله اليه



وهذه صورة السيد بعد العملية الجراحية

﴿ خبر مرضه ووفاته ﴾

المشهور انه أصابه وجع في احدى اسنانه أو أضراره فأشار الطبيب بقلعها فحصل له التهاب في موضعها كان يعالجه له الطبيب ثم ظهر في فكه السرطان فعملت له عمليات جراحية فلم تقدر ولم يلبث أن توفي على أثرها فشاع في كثير من البلاد انه مات مسموما كما شاع مثل ذلك في موت الاستاذ الامام وموت السيد عبدالرحمن الكواكبي ولما توفاه الله تعالى صدرت الارادة السلطانية الى الجرائد العثمانية بأن لا تكتب في شأنه شيئا بل ضبطت الحكومة في سوريا جميع الجرائد والمجلات المصرية التي أبنته واعني غير الممنوع منها كالهلال والبيان . وإنا نحتم الترجمة ببعض ما كتبه الصحف المصرية من خبر مرضه وموته

جاء في المؤيد الذي صدر في ٥ شوال سنة ١٣١٤ و ٩ مارث سنة ١٨٩٧ مانصه
 « علمنا من اخبار الاستانة العلية ان صحة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني في غاية الاعتلال شفاه الله وعافاه . وقد اقطع حضرته عن الكلام بالمرّة إثر العملية الجراحية الثالثة التي عملت له أخيرا فقطع فيها جزء من لسانه واستنصل الفك الاسفل . وجلالة دولانا السلطان قد كلف جملة من أطبائه الخصوصيين بعبادته على التناوب ويرسل للاستفسار عن صحته كل وقت رسلا وكثيرا ما يتوجه عطفوا عزت بك (المابد) من قبل الحضرة السلطانية لعبادته فيجد فضيلة السيد من هذه العاية ما يخفف آلامه لطف الله به

وفي العدد الذي صدر في ١٠ شوال و ١٥ مارث مانصه

انا لله وانا اليه راجعون

« نعت الينا أخبار الاستانة العلية المغفور له الاستاذ الفاضل والفيلسوف الشير السيد جمال الدين الافغاني .

« توفي رحمه الله في الساعة ٧ و ١٣ دقيقة من صباح يوم الثلاثاء الماضي خامس

شوال (٩ مارث) الماضي (كذا) حيث كان يعود كثير من الحاشية والخدم الذين خصصهم له مولانا السلطان الاعظم في منزله يشكطاش ولا حضرته الوفاة كان في خدمته كذلك حضرة جورج افندي كوتشي أحد موظفي محافظة مصر سابقا حيث يقيم معه من مدة وهو الذي نعاى الى المايين الهايوني فصدرت الارادة الشاهانية الى سعادة حسن باشا ضابط بشكطاش ان يعد جنازته ويشيعها بالاحتفال اللائق . وبلغ الخبر جماعة من حضرات العلماء الاعلام فبادروا الى منزل الفقيد كما بادر اليه كثيرون من رجال الدولة وبينهم سعادة سهل باشا نجل دوللو فضل باشا العلوي وحضرة علي بك راغب المصري من ضباط البحرية العثمانية وقد شيعت جنازته بالاحتفال اللائق حيث دفنت جسده في قرافة « شيخلرمزارلني » أي مقبرة المشايخ

« ولقد أسف جلالة السلطان عليه شديد الأسف كما حزن عليه أصدقاؤه وكبار المايين الهايوني الذين كانوا يعرفون فضله ويقدرونه حق قدره

« وجاء خبر وفاة الاستاذ الفقيد رحمه الله أمس تلغرافيا على حضرة الفاضل ابراهيم افندي اللقاني فأبلغنا إياه ولكن كان ذلك بعد ما طبع أكثر الجريدة . ثم جاءنا كتاب خصوصي من الاستانة العلية مساء أمس يفصل الخبر بما تقدم ولا شك ان وفاة هذا العالم العظيم تحزن جميع العارفين بفضله وما كان منفردا به من قوة الحجة والعارضة في الكتابة والخطابة مع التضع الرائد من العلوم العقلية والنقلية وسعة الاطلاع في المعارف الحديثة . فنحن نعزي أنفسنا وكل أصدقاؤه وتلامذته على وفاته ونسأل الله تعالى له الرحمة والرضوان »

وجاء في المقطم الذي صدر في ١٥ مارث ما نصه

« بلغنا نعي العلامة الشهير ، الفني عن الوصف والتعريف ، السيد جمال الدين الافغاني بعد صدور جانب من المقطم يوم السبت فذكرناه في الجانب الآخر . وما ذاع هذا النبأ في أطراف العاصمة حتى جل الخطب على كل أديب ، واشتد الاسى على كل من عرف فضل رجل طبق صيته المشارق والمغارب . وكان منارا للحرية

والعرفان في كل مكان احتله، وتعلقت به افئدة النجباء والاذكياء في كل بلاد اقام بها، ووقعت تعاليمه وآراؤه في نفوس الادباء وقمأعجيباء، حتى انك لتراهم في كل جهة من جهات المشرق يتحدثون في مجالسهم بمواهبه ويتناقلون اقواله، قد قد الشرق به عالما يهتدى بعلمه، وركنا يعتمد عليه، وداعيا الى الحرية يقتدي به في الدعوة اليها، ومقداما لا يهاب كبرا في المجاهرة بضميره، ولا يراعي اميرا في ما ليس من رأيه، ولنا ندعي في هذه المجالة لوفاءه حقا من حقوقه المتعددة في عالم الأدب والعلم والحرية، على انا سننشر ترجمته مفصلة في المقتطف. وكانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء في التاسع من هذا الشهر بداء السرطان فراح مأسوفا عليه مبكيا من جميع تلامذته ومريديه واحتفل بآتمه في الاستانة احتفالا يليق بمقامه ومكارم الحضرة السلطانية فعزى جميع انصار الحرية ومحبي العلوم والفضائل عن فقدته، ونسأل له الرحمة والرضوان ولهم طول البقاء من بعده،»

ثم جاء في العدد الذي صدر منه (اي المقطم) في ١٨ مارث مانصه « كتب الينا صديق يوثق بروايته تفصيل وفاة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وهو يخالف ما نشر من هذا القبيل قال : رأى الطيب هرون صباح الثلاثاء في ٩ الجاري ان ساعة وفاة السيد قد دنت فقصد جرجي افندي كونيحي صديقه الأمين وأيقظه من نومه قائلا ادرك السيد فقد حضرته منيته وقد تركته وهو يحاضر فأسرع جرجي افندي الى منزله فوجده في حالة النزاع وليس عنده غير خادمه فلما رآه امسك يده وكلما اشتدت عليه الحشجة حول عينيه اليه، كأنه يرتاح لوقوع عينيه على عينيه، ثم اسلم الروح في الساعة السابعة والدقيقة ١٣ من صباح ذلك اليوم. فأبلغ جرجي افندي الماين خبر وفاته في الحال فجاء بعض الاطباء وشاهدوه ثم أثبتوا الماين وفاته فصدرت الارادة الى حسن باشا ضابط بشكطاش بضبط أوراقه وسائر تركته فحضر حسن اشا ومعه بعض البوليس وبعض الجواسيس ودققوا في البحث والتفتيش وضبطوا كل ما كان باقيا عنده . وفي الساعة العاشرة امروا بدفن الجنازة في مقبرة بجهة نشان طاش اسمها « شيخلرم زارلني » فأرسل جرجي افندي الى اصدقائه يخبرهم بوفاته فلم يحضر أحد منهم غير سهل باشا ابن فضل باشا الملاباري

وعلي قبودان راغب المصري ثم حمله اربعة من حمالي الاستانة على اكتافهم وسار بعض رجال البوليس حولهم يخفرونهم ودفن كما يدفن أقل أنسان في بلاد آل عثمان وبقي السيد رحمه الله خمسة أشهر يقامى ألم السرطان وعذابه وقطع السلطان عنه راتبه منذ زمان فاشتدت عليه الحاجة والفاقة في مرضه ورجال المايين يشيعون ان السلطان يفيض عليه النعم ويغمره بالاحسان انتهى بمعناه. هذا واأسفاه ما يعامل به الفضلاء اذا قضوا نحبهم في دار السعادة »

وكان المقطم ذكر في العدد الذي صدر في ١٣ مارث و٩ شوال خبر اشتداد المرض على السيد وقال « ويقال ان السلطان ينفق عليه ١٨٠ ليره في الشهر آملا ان يشفى من مرض قلت فيه حيل الاطباء » وهذا يدل على ان المقطم كان يكتب مايلفه بدون تحامل . ولكن اصحابه لم يذكر وا ترجمته في المقتطف كما وعدوا وقد كسب الينا بعض المطلعين على الجرائد المصرية والمتقنين لأخبار السيد من العارفين مايؤيد رواية المقطم الاخيرة في الجملة وزاد ان جرجي افندي اتفق على السيدمشتي ليرة وان المايين لما بلغه ذلك بعد موت السيد أراد ان يعطي المبلغ لجرجي فلم يقبله . ومما رواه الكاتب من خبره عند مادعي الى السيد وهو محتضر انه قال « دخلت عليه وهو وحده يعاني سكرات الموت فاحترت ماذا اصنع والمحتضر يصلي او يذكر الله الله الله وأنا أدور من حول سريره حتى استأثر الله به »

تأين مجلة البيان

﴿ وترجمتها للسيد جمال الدين ﴾

كتب الشيخ ابراهيم اليازجي الكاتب اللغوي الشهير في الجزء الثاني من مجلة البيان الذي صدر في اول ابريل سنة ١٨٩٧

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الاقناني ﴾

هذا جمال الدين امسى نازلا جدثا تضمن منه أي دفين
قدّر به عمّ البكاء على امرئ فقدت به الدنيا جمال الدين

« نعمت الينا انباء الاستانة انسان عين الفضائل والكمال ، وجمع اشعة الحكمة
على قطب دائرة العلوم على الاجمال ، رُحلة البقاء وقُدوة العارفين ، وقاضي علوم
الدنيا والدين ، السيد جمال الدين الحسيني الافغاني المشهور ، فرع الارومة الزكية ،
وسليل الحسب القائم من منصب السؤدد في الذروة العلية ، فكان لمنه يوم اشتد
وقبه على القلوب والمحاجر ، وطال في وصفه أذن الاقلام فأمدتها بالدمع عيون المحابر ،
وكيف لا وهو خطيب الشرق الذي رنَّ في الخافقين صدى خطابه ، وامامه الذي
انبتت انوار اليقين من سماء محرابه ، واستاذ علومه الذي ما فتئت الحكمة تتدقق
بين فؤاده ولسانه ، وتطلع شمس البلاغة من ين خاطره ويانه ، ونجوي مناهل
العرفان ين اطلاقه وبنانه ،

« قضى رحمه الله في الثلث من الشهر الغابر بعلّة السرطان وقد تشبث منه بين
الحك والنحر ، وذهب في مجرى الفصاحة منه ولا عجب ان يدي السرطان في البحر ،
فبعض ذلك اللسان عن تدفق عيابه ، وحس تلك الدرر قاي يبرز مكنونها من
حجابيه ، الى ان نقله الله الى جواره فذهب حميد الار ، ودقن في قرارة المشايخ
مذكوراً بالرحمة ما غاب قمر ، وناح طائر على شجر ،

« وهذه ترجمته نلخصها عن فصل لحضرة العلامة الفاضل الشيخ محمد عبدالمشهر
صدر به تعريب رسالته التي كتبها في ابطال مذهب الدهريين على ما سيجي ، ذكره
في الترجمة قال حفظه الله :

(وهنا ذكر لمخص الترجمة التي تقدمت في ص ٢٧ - ٣٥ ثم قال)
« ووقفنا له على ترجمة اخرى باللغة الفرنسية فيها انه بعد ما فارق اوربا سار
يريد نجداً فوافقه رسالة برقية من الشاه ناصر الدين سلطان المعجم يدعوه اليه فتحول
قاصداً بلاده ولما بلغ طهران احتفل به الشاه احتفالاً بالاً وادناه منه ورفع منزله
وسماه وزير حربه وكان ينوي ان يرقبه الى مقام الصدارة

« وبعداً ان اقام مدة ببلاد فارس شاع ذكره وتناقلت الالسة فضائله وغزارة علمه
وادبه فتواردت عليه الخاصة من وجوه البلاد وامرائها وعلمائها ورأوا من كمال فضله
وسعة معرفته باحوال السياسة والتاريخ وسائر العلوم قديماً وحديثاً وتبحره في معرفة

الاديان مع ما رزقه من توقد الذهن و بلة المنطق و قوة الخطاب ما بهرهم وعظم به وقعه في نفوسهم فانصرفت اليه الوجوه وملكته القلوب اعنة احوالها وراى الشاه أن تسلطه على النفوس يزداد كل يوم وحرمنه تعلو عند الامة فاستشعر خشية من امره واضمر الخذر من ناحيته وتبين السيد جمال الدين ذلك من قبل الشاه واستأذنه في الانصراف وخرج من البلاد الايرانية فصار الى موسكو ثم تحول الى باريز ليشهد معرضها الذي كان سنة ١٨٨٩ وفيما هو مارفي مونيخ من بلاد الالمان وافق اشاه بها فاجل ملتقاه ودعاه للصير الى بلاده وألح عليه في ذلك فسار في صحبته وما كادت تستقر قدمه في بلاد ايران حتى تألب القوم حوله بما ارى على ما كان منهم في المرة الاولى ثم رغب اليه المتفقون منهم ان يرسم لهم قوانين دستورية تنجري بها الاحكام في نصابها من النصفة والعدل وتلزم الاحكام العمل بمقتضاها فأسر جمال الدين ذلك في نفسه ثم تلتف في عرضه على الشاه فاستصوبه ومال الى موافقته عليه لكنه لم يلبث ان نكل عن قبوله بمشورة الصدر الأعظم فانه حذره عواقبه بحجة ان الامة غير متأهبة له فصلا عن انه يؤدي الى تهديد سلطة الشاه وربما كان سببا في تقويض عرشه فقلما رأى جمال الدين ذلك خرج الى المشهد المعروف بشاه عبد العظيم وهو مقام مبني على نحو اثني عشر ميلا من طهران يفضى اليه بسكة حديد فاستمر اقوم يختلفون اليه في مقامه ذلك يفاوضونه فيما اشربته قلوبهم من أمرا القوازين والاحكام الى ان اتى على ذلك نحو من ثمانية أشهر وأمره لا يزداد الا انتشارا حتى ثارت الخواطر في جميع اطراف البلاد

د وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه فوجه الى الشاه عبد العظيم خمس مئة فارس مدججين بالسلاح فقبضوا عليه وهو مريض في فراشه وقاده خمسون منهم الى الحدود العثمانية فكان عن ذلك هرج شديد في البلاد الايرانية وانتشرت المشاغب وكثرت الرسائل والمنشورات وتواردت على الشاه كتب التهديد بان يجري على مقترحهم أو يخلع نفسه من الملك حتى بلغ منهم ان حاصروه يوما في قصره . وسار جمال الدين بعد ذلك الى البصرة لتفاقم العلة عليه بسبب اشتداد البرد في تلك الديار فلبث بها سبعة أشهر الى ان تماثل من مرضه ثم نهض متوجها

الى لندره فأنشأ بها جريدة سماها ضياء الخالقين) أكثر فيها من الطعن في سياسة
الشاه وتهيج خواطر الامة من رعيته عليه وكان يكثر التردد الى المحافل السياسية
يخطب فيها في امر الشاه وحض رجال الدولة الانكليزية على خلمه واقام على
ذلك مدة ثمانية أشهر وفي اعقاب ذلك بعث السلطان عبد الحميد يستدعيه اليه على
يد رستم باشا سفيره في لندره فأجاب بعد ما امتنع على ان يؤذن له في العودة الى
أوروبا متى شاء وقدم الاستانة سنة ١٨٩٢ فلقاه السلطان بتعطياته واحسانه واجرى
عليه زرقا واسعا وكان كثيراً ما يدعوه ويخلو به في اغراض سياسية ليس من شأن
هذه المجلة التمرض لها ولا لغيرها مما اتفق له من الحوادث مدة اقامته بالاستانة
حتى ظهر فيه الداء فالزمه الفراش أشهراً قاسى في اثائها عذابا واصبا الى ان اختار
له الله ما عنده فذهب مأسوفا عليه نعمده الله برضوانه وافرغ عليه سبحانه
رحمته وغفرانه

هذا ما وقع الينا من ترجمة هذا الرجل الشهير وهي كما تراها أدنى ان تكون
ترجمة رجل سياسي قد جعل نُصب ناظره غرضا بعيدا لا تبلغ اليه ذراعه، ولا
تصبر عن همته وأطماعه ، فهو أبداً تمثال يقفطه وطيف منامه ، وحديث خواطره
في رحلته ومقامه

و كنت إذا أرسلت طرفك رائدا قلبك يوما أتيتك المناظر
رأيت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر
فأقبل يضرب اليه آباط المسالك ، ويكثر في التماسه من الحركة في البلاد
والتنقل في الممالك ، لا تستقر له قدم ولا يقف على ساق ، ولا ينزل رحله في أفق
من الآفاق ، ولسان حاله ينشد قول المتنبي :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبغي ؟ ما أبغني جل ان يُسمى
وإنما تدرك الآمال ، بمضافة الرجال ، وتبلغ الأوطار ، بموازرة الأقدار ،
ولا نصبر اذا لم ينصر القدر ، ولا رفيق اذا توعدت شقة السفر ، وكانت محفوفة
(١٣ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

بالخطر ، فلا عجب اذا قصر مشايعوه عن مجاراته ، وتخاذل مريدوه عن موالاته ، فكان كما قال المتنبي أيضا

وحيد من الخلاف في كل بلدة اذا عظم المطلوب قل المساعد
وانما هي نفسه الكيرة اقدمت على ركوب العظام ، ومته ان يبلغ منفردا
ملا يبلغ الا بالجوش الخضارم ، فلا مأربا نال ، ولا نفسه أقال ، ولكنه اضاع أيامه
في الطلب ، ولم يجن من أمانيه سوى النصب ، وما أحسن ما قال المتنبي أيضا
واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام
وانما انتزع المتنبي هذه المعاني من صحيفة أيامه ، وما قرأ فيها من تخلف جده وتقدم
إقدامه ، كما قال :

أبدأ أقطع البلاد ونجمي في هبوط وهمتي في صعود
قد طبع الرجلان على غرار واحد وان تفاوتا المحتدان ، ونشأ في منشأ واحد
وان تباين البلدان ، فدرج كل منهما بين صليل السيوف وصهيل الجياد ، وترعرع بين
مزاحف الصفوف ومواقم الجلاد ، في بلاد لا حكم فيها الا للغالب ، ولا شرع الا ما
حكمت به شفار القواضب

وحقيق بمن ربي على مثل تلك الحال ، ان يخرج صلب النفس رغب الآمال ،
ولاسيما اذا كان له قديم يرجع اليه بصره ، او فائت يستحثه للكر على أثره
وعجيب من مثل السيد على استضاءة بصيرته بنور اليقين ، وضمه بين حاشيتي
علوم المتقدمين والمتأخرين ، ووقوفه على يفاع من الحكمة يجمع الدنيا به بنظرة ،
ويستقصي اطرافها بلحمة ، وقد تجردت له عن زيتنها وزخارفها ، وأماطت له اللثام
عن أباطيلها وسفاسفها ، أن يبقى في نفسه مكان شيء منها يقال له الرئاسة ، وتنزع
همته الى حال من احوالها تسمى بالسياسة ، بل ما كان اجدره وقد رزق من توقد
الذهن وسعة المحفوظ ما كان فيه آية من آيات الله ، وأوتي من قوة الحكم وسرعة
الخطاير ما انفرد فيه عن النظراء والاشباه ، ووعى في صدره من انواع العلوم العقلية
والنقلية ما كان فيه نسيج وحده ، ومن سياسات الممالك وتواريخ الامم ما عجز على غيره
من بعده ، ان ينزل نفسه من دنياه حيث انزلته الفطرة ، ولا يتعدى ما قسم له القدر

ووجد من نفسه عليه القدرة، فيجعل أيامه وقفا على الاشتغال والنفع، واستزادة ماشاء الله من العلوم مما هو متأهب له بالطبع، وتسطير ما يفتح به عليه مما غفل السلف عن تدوينه، أوفاتهم الوصول إليه من علوم هذا العصر وفنونه، ولو فضل لكان إمام الدنيا ملامداً دفع، وكانت حياته طائفة بالفوائد والمنافع، وتجاوبت الآفاق من صدق ذكره بما يأتي عليه كرور الليل، ولا ينقرض إلا باقراض القرون والأجيال، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو الكبير المتعال،

اهـ ما كتبه اليازجي ونجيب عما نعجب منه بكلمة واحدة وهي ان السيد رحمه الله كان يشتغل بالسياسة لانه يرى أنها اذا لم تصلح لاتدع احداً يعمل لإصلاحها، ولا يطلب فلاحها، ولا ينشر علماً يرقى به الأمة، ولا يطوي وهما يكشف به الغمة، وان هي سمحت لمثله بالإصلاح يث العلوم، وتربية الارواح والعقول، فان طريق ذلك يطول عليه، وربما حالت المطامع الاجنبية دون الوصول اليه، فهو ما اختار الإصلاح من طريق السياسة الا لا اعتقاده ان العمل من طريقها أسرع تأثيراً من العلم والكتابة لا لأجل الرياسة كما علم من مجموع ترجمته

وكتب صاحب مجلة الهلال ما ملخصه :

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الاقفاني ﴾

(ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٩ م) وتوفي سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م))

قد تمرُّ القرون وتتوالى الاجيال والناس على ما ساقهم اليه الحاجة في شؤون معاشهم لا يفتقون عنها من سمينها ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها حتى تتمخض الطبيعة قتلد من ابنائها افرادا يميطنون عن اسرارها التثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين. أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا استار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فهدوا سبل الاختراع والاكتشاف ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا اسرار الحكمة

المسترة وراء تلك النواميس وينبوا ما أودعه الخالق في خليقته من القواعد العقلية والروابط الأدبية

ولكن الطبيعة لا تجد بواحد من أولئك الافراد إلا كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته أجيالا حتى إذا كادوا يرجعون إلى غيهم جادت عليهم بآخريفت فيهم روحا حية فيتهون من رقادهم ويعودون إلى رشدهم رينما يأتيهم ثالث هكذا كان شأن العالم في بدء عمرانه ومن أولئك الفلاسفة سقراط وأفلاطون ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء العقول والمنقول ممن لا تزال نستضيء بنبراسهم ولكن الله في خلقه حكمة لا تتركها العقول فقد ينبغ في بعض الاجيال افراد توفرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال الاعمال فتحيط بهم ينات لا تصلح لئاء ما يفرسون فيذهب سعيهم هباء مشورا

ولما كان الانسان لا يقدر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الارض جهل الناس حق قدرهم واغفال التاريخ ذكرم كما هو شأننا بقعيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله فقد نشأ قطبا من اقطاب الفلسفة وعاش ركنامن اركان السياسة ولكنه مات ولم يتم عملا ولا الف كتابا . على أن ذلك لا يحبط من مقامه وقد رأينا اعظم فلاسفة اليونان (سقراط) مات ولم يدون شيئا من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثتها الاجيال خلفا عن سلف . فعسى ان لا نحرم من مريدي الاستاذوتلامذته من يفعل مثل ذلك »

نم ذكر الملل ملخص ترجمة الاستاذ الامام له مع زيادات منها ما كان من شأنه في بلاد فارس على نحو ما ذكر في مجلة البيان . ومنها قوله قبل ذلك « وقضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات نشر في جرائدها مقالات تبحث في سياسة روسيا وانكلترا او الدولة العلية ومصر ترجمت جرائد انكلترا كثيرا منها وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسي رينان في « العلم والاسلام » فشهد له هذا بسعة العلم وقوة الحججة ثم شغف إلى لوندرا بايعاز اللورد شرشل واللورد سالسبري ليسألام عن رأيه

في المهدي وظهوره إذ ذاك . ثم عاد إلى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها فأحلوه مكانا عاليا ، اه وما قاله في شمائله :

﴿ مجلسه وخطابه ﴾ كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزمائره على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته نزلا . وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم إلا باللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية وإذا أنس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح فإذا كان السامع عاميا تنازل إلى مخاطبته بلغة العامة . وكان خطيبا مصقلا لم يرق في الشرق أخطب منه ، اه

يقول مؤلف الكتاب . حدثنا الدكتور شبلي شميل انه شهد خطبة له في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح وإلقاء حسن لكلام مفيد حتى أدهش الناس . أو ما هذا معناه

هذا وإن كثيرا من الفرس يقولون إن السيد جمال الدين فارسي لا أفغاني فكلمة أبي الهدى لها أصل عن غيره زاد عليها من عنده كما هي عادته فقد ذكر في كتبه التي عزاها إلى الرفاعية طعنا مثل هذا في نسب السيد عبدالقادر الجيلي سواء بسواء وقد قال لنا بعض علماء الفرس إن أسيرة السيد هي من بيوت العلم والشرف في بلاد فارس وقد هاجرت إلى الأفغان وإن السيد جمال الدين ولد في بلاد الأفغان فهو أفغاني منشأ فارسي في الأصل . ومن الناس من يظن أن ادعاء بعض الفرس أن السيد منهم هو من قبيل ما جرت به العادة في الرجال العظام من تنازع الشعوب لهم

وجملة القول إن هذا الرجل كان آية من آيات الله وإن عمله في البلاد الإسلامية لم يكن قليلا فهو الذي نقل مصر من طور إلى طور وأحياها حياة جديدة لم يسبق لها نظير في تاريخها فثمتها كانت في كل أدوارها مستعبدة للحكام لم يخطر في بال شعبها أن يكون له شأن في حكومتها حتى في حركتها الأوربية الأخيرة في عهد بيت محمد علي فأننا لم نقرأ لمن ترجوا الكتب الأفرنجية ولا لمن ألفوا الكتب

المصرية ولم نرو عنهم كلمة تشير إلى وجوب جعل الحكم في البلاد مقيدا برأي أهلها حتى جاء السيد جمال الدين فأسس الحزب الوطني المصري لأول مرة على هذا الأساس كما يعلم من مقالاته وخطبه التي كان يلقيها على تلاميذه (١) ثم انه هو الذي كسر مقاطر التقليد الفكري والديني واللغوي فكان إمام النهضة العلمية والفكرية والدينية في مصر وغيرها كما كان إمام النهضة الاجتماعية والسياسية وهو أيضا إمام النهضة الاجتماعية السياسية في بلاد الفرس الذي بذر في نفوس الفارسيين بذرة الحكم الشوري كما تقدم . ولو انه انقطع إلى التصنيف لما كان بوجوده مثل هذا التأثير الكبير

وقول في خاتمة ترجمته انه لو لم يكن له من الأثر إلا الشيخ محمد عبده لكفى كما قال كثير من العلماء في شيخ الاسلام أحمد بن تيمية انه لو لم يكن له من الأثر إلا تلميذه ابن قيم الجوزية لكفى . ولتعد إلى ترجمة الاستاذ الإمام فقد جمع القلم في ترجمة السيد حتى جاء فيها بأكثر مما وعدنا به رحمه الله رحمة واسعة

﴿ دخول الاستاذ الامام الامتحان ﴾

(في الازهر)

بعد ان تلقى رحمه الله تعالى ما تلقاه على شيوخ الازهر وعلى السيد جمال الدين كما سبق البيان عرض نفسه على لجنة الامتحان لأجل شهادة العالمية كما هو المعمود وقد كتب عن امتحانه ما نصه :

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هجرية وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عlish وكان يعاديني على الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ان لا يمنحوني درجة ما في العلم وجرت أمور قبل الامتحان

(١) راجع مقالاته في الحكومة الاستبدادية في (ص ٥٧٧ و ٦٠١) من

مجلد المنار الثالث وربما نشرها مع مقالات أخرى له في ملحق لهذا الكتاب

يطول شرحها ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الأزهر وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية الخ وقد أخبرني رحمه الله أن بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان بمينا مؤكدة لا يأخذن فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن الجواب عما سألوه فوق ما كانوا ينتظرون ، طفقوا يناقشون ويراجعون ، وينتقلون به ويستطردون ، حتى صار الامتحان مناظرة ، تتولاها المشاغبة والمكابرة ، فعند ذلك حلف الشيخ العباسي أنه لم يراحد امتحن في عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الأولى درجة ممتازة لاستحقها فأراد أحد الشيوخ وأظنه الشيخ الرافعي أن يوفق ويصلح فأخذ الورقة وكتب له بالدرجة الثانية وطفق يعرضها على اخوانه الذين كانوا متفقين على حرمانه لبوقعوا عليها فوقعوا ثم أعطوها للشيخ العباسي فأمضاها لهم ولم يحب أن يراجعهم بعد أن رأى منهم مارأى فظفروا ببعض المطالب وهو حرمانه من الدرجة الأولى ، ما كانوا ضارين .

﴿ طلبة العلم بعد التدريس ﴾

هذا مجمل سيرة الرجل في تلقي العلم عن الشيوخ منذ بدأ إلى أن صار مدرسا وانك لتجد أكثر طلاب العلوم عندنا يمدون أخذ شهادة العالمية غاية التحصيل والتعلم فلا تتوجه همنهم بعده الا الى استغلال العلم وطلب المال به واحراز الجاه والمكانة عند الناس بما يتألون به من وظيفة وعمل . وان صاحبنا لم يسلك مسلكتهم بل سار على سبيل سلفنا الصالح الذين يوثر عنهم : اطلب العلم من المهد الى اللحد . فكان يقول الى آخر حياته اني لا أزال طالب علم أنتغي المزيد منه في كل يوم . فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الأزهر المعروفة من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتن مع الشروح والحواشي والتقارير . سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه الى علم أعلى وفهم أجلى فقيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكتا وأقرب غاية ، فانتاشه من الإخلاد الى أرض العبارات الركيكة والاساليب الضعيفة ، والاحتمالات البعيدة ، ورفعه الى سما عرفان الحقيقة ، والافصاح عنها بالعبارة البليغة ،

بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين ، وتعويده الحكم باليقين ، فهذا هو الدور الثاني وهو خاص كسابقه بالعلوم الإسلامية ، التي كتبت باللغة العربية ، مع شيء قليل من العلوم الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الأخيرة ، وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الأفرنج قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلم اللغة الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوما من الأيام . وكانت عنايته بعلوم الأخلاق والنفس وأصول الاجتماع الإنساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم وقاما علم بكتاب لافرنجي يتكلم فيه عن الإسلام والمسلمين الا واستحضره وقرأه وقد قرأ عدة كتب في تربية الإرادة خاصة ، وفي سفره الأخير إلى سويسرة تعلم هناك القلم المسند لانه علم ان في بعض المكاتب الأوروبية كتابا فيه وإن الانكليز تقلوا من حضرموت بعض ما هناك من الآثار الحيرية ولذلك دخل كثير في تاريخ العرب والإسلام . وهذه العلوم الأفرنجية هي التي أعطته القوة العظيمة في المدافعة عن الإسلام وفي زيادة البصيرة بخدمته لانه عرف من أين بهاجمه أعداؤه وكيف ترد هجماتهم . وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوروبية لا يعد عالما في هذا العصر وقد كتب لي في ترجمته لنفسه عن تعلمه اللغة الفرنسية مانصه :

« بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عند ما كانت سني أربعا وأربعين سنة ولكن ميلي الى تعلم لغة أجنبية ابتداء في أثناء الحوادث العراقية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيتة قريبا وعند ما سافرت الى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أعلم شيئا من الفرنسية لان اجتماعي كان بالسيد جمال الدين ورفاق من العرب واشتغالي بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لي بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة فذهب علي ذلك الزمن بدون فائدة في اللغة لا كثيرة ولا قليلة . أما بعد عودتي من النفي الى مصر واشتغالي بالقضاء في المحاكم الأهلية والحكم بها خصوصا في الجنائيات على أصول القوانين الفرنسية وجلسي بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها فقد قوي عندي الميل الى تعلم اللغة الفرنسية حتى لا أكون في معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء وبعد مجيئي الى القاهرة واشتغالي بالقضاء في إحدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء في العمل

فبحثت عن معلم فوجدت أستاذاً لا بأس به فدعوته فجاءني حاملاً كتاب نحو في يده (كرامير) فسألته ماهذا فقال كتاب نحو قلت له دلا وقت عندي لأن أبتدي وانما عندي زمن لأن انتهي ، ثم ناولته قصة من تأليف ألكسندر دوماس وقلت له أنا أقرأ وانت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو عليّ والنحو يأتي في أثناء العمل ، وهكذا أتمت الكتاب وكتاباً بعده وثالثاً عقبه وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خالياً فعملت مبادئ اللغة الفرنسية وحصلت منها ما كان يمكّتي من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام « سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة

الصيفية وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنسية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف . ثم ان الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة أوربية هو أنني وجدت انه لا يمكن لأحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا اذا كان يعرف لغة أوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خبرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم » اهـ

هذا ما يقال في طلبه للعلم وفيه عبر كثيرة لمن يعتبر بسير العظماء ، وتاريخ أفراد الحكماء ، أولها نفوره من التقليد والتسليم للشيوخ بما يقولون من غير أن يفهم وهذا هو مبدأ استقلاله بنفسه ، الذي فاق به أبناء جنسه ، وأوسطها عدم كفايته بما أتى عليه شيوخه في أكبر معاهد العلم في بلاده ، حتى صار يبحث عن علوم أخرى ويلتمس اسانذة آخرين ، وخاتمتها عدم الغرور بنفسه والرضا بما حصله على تفوقه فيه بل عمل بقول السلف « اطلب العلم من المهد الى اللحد »

الفصل الثالث

﴿ في تربيته الروحية وتصوفه ﴾

قد علم ممارس شيء من تربيته الأولى منها أنه نشأ في بيت يوصف أهله بالاخلاق الفطرية الحميدة التي لا ينقصها الانور العلم وقد كان له وانه لم يكن في صباه إلا بالفروسية وأعمال الرجولية فكان يلعب بالسلاح ويسابق الناشئين معه على ظهور الجياد ويكثر من السباحة وهذه الألعاب مما يحسن أن يربى عليها الولدان بالقصد كما قال الحكماء وعلماء التربية وهي مما يربى عليه أولاد الملوك والأمراء في أوروبا

بعد ان أخذ حظه من هذه التربية الفطرية أخذه الشيخ درويش خضر بالتربية الدينية فألزمه العزلة ومجاهدة النفس . وكان من جبلته أن يأخذ كل شيء بقوة فكان في مدة طلبه للعلم بصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر ويمشي مطرقالا ينظر الاحيث يضع قدميه ولا يكلم أحدا الا بضرورة وقد ظل عدة سنين لا يلقي نظره على امرأة أجنبية حتى في الطريق . وقد كان لكثرة الانعماء في الذكر والفكر والنظر في كتب التصوف والتأمل في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه ويرجع في عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون فيناجي أرواح السابقين . ولو كان يميز شرح ذلك لشرحه ولكنه كان يقول ان ما يحصل للصوفية من الأحوال غير الطبيعية لا يجوز ذكره لغير العارف به ولا تجوز كتابته بحال ولو كنت ملكا لحكمت بقتل الذين يكتبون ذلك لانهم يفتنون كثيرا من الناس ولا يفيدون به أحدا . وقال ما معناه مازج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر ويخرجه منه وذلك قليل

وأقول إن السيد جمال الدين هو الذي أخرجه منه ، ورقى به الى ما هو خير منه ، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان جراه عليه زمنا عرفه به أنه أعرف بتلك المعاهد ، وأسبق الى تلك المشاهد ، بما كان يحل له من عقد كلام الصوفية التي يعجز

عن حلها ، حتى أقنعه بأنه من أفراد أهلها ، ولو كان الجماهير من الناس يعرفون في أيام حادثة الشيخ عlish شيئا من أمر الرجل في تصوفه وتسلكه لماجوا على الشيخ عlish وان كانت شهرته بالصلاح عظيمة وعلى من وشى اليه من فساق المجاورين ولا خاضوا في قعيدنا بالذي خاضوا ولكنه كان يبالغ في كتمان ذلك خوفا من الرياء وحب السمعة والامة مستعدة للشر وكانت الشبهة عليه حضور كتب الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد رحمهم الله أجمعين

قلنا ان السيد جمال الدين هو الذي نقل قعيدنا من حال الى حال في الترية كما نقله في العلم وكان الشيخ درويش هو الذي مهد له السبيل للأمرين . وقبل ان تنقل من الكلام في تربيته وتعليمه الى الكلام في عمله وإصلاحه نذكر ان الشيخ درويشا هو الذي رباه أيضا على التعرض للإرشاد الديني والتصدي لنصيحة الناس فهد السبيل التي سلكها به السيد جمال الدين - سبيل الإصلاح العلمي والاجتماعي . ذلك ان الشيخ درويشا رأى ان مريده قد كملت نفسه بعد العزلة الطويلة وكل سلوكه فصار بآمن من المعاشرين الذين يقطعون الطريق على المريدن فأمره بمخالطة الناس والتعرض لإرشادهم وقد كتب لي رحمه الله في ذلك ما نصه :

« قلت اتني كنت في أوائل مدة طلب العلم بعد مجيئي الى الازهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما أو نصيحة لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك - والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكروه بالصوم تارة ولبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى . قال لي عندما رجعت الى محلة نصر في سنة ١٢٨٨ : الى متى هذه العزلة وما الفائدة في العلم وتحصيله اذالم يكن لك نورا تهتدي به ويهتدي به الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملك وان من لم ينفع بما تعلم قد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة فملك ان تحاط الناس وتعظم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة : فذكرت له اشتمزازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي اذا اقيمتهم وبعدهم عن الحق وفترتهم منه إذا عرض عليهم فقال لي : هذا من أقوى الالواعي الى ما حدثك عليه فلو كانوا جميعهم هداة مهدين لما كانوا في حاجة اليك : ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة ويفتح

الكلام في الشؤون المختلفة ويوجه اليّ الخطاب لا تكلم فيكلم الحاضرون فأجيبهم وأنطلق في القول على وجل في أول الامر وما زال بي حتى وجد عندي شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم وفي شوال من تلك السنة ودعني وبكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية رحمه الله تعالى « اه أقول يظهر أنه أحسر، بأن عمله قد تم بتكميل تربية مريده وأنه ألم بأنه قد دنا أجله إذ تم عمله فبكى بكاء مودع وللصوفية من هذا الالهام والشعور، ماهو معروف مشهور ،

ومن تدبر كيفية تربية الشيخ درويش للرجل وكان عارفا بطرق الصوفية يعلم انه يصدق على طريق الشيخ درويش ما قاله أبو السعود بن الشبل عن نفسه وعن شيخه عبد القادر الجيلي قال « طريق عبد القادر في طريق الاولياء غريب وطريقنا في طريق عبد القادر غريب » وأبو السعود هذا هو الذي كان يقول محيي الدين ابن العربي فيه وفي شيخه ان الشيخ عبد القادر أعطي حال الصدق فكان صاحب ظهور والشيخ أبا السعود أعطي مقام الصدق فكان نكرة لا تعرف .

وهكذا كان شيخنا محمد عبده في الصوفية نكرة لا تعرف أي انه صاحب مقام لا تغلبه الاحوال ، ولا يسهل عليه التأثير في نفوس الاغيار ، ولا يحتاج الى كلفة في إخفاء ماهو فيه ، وكتمان ما وهبه وأعطيه ، فكان مقامه مقام الصدق كالشيخ أبي السعود ابن الشبل ، ولذلك كان يظن المحجوبون عن خصوصيته انه كان من أبناء الدنيا ، ومن رآه منهم غير مبال بالمال ، ولا مبال إلى زينة الاثاث والرياش ، ظن ان حب الجاه هو الذي غلب عليه . ولكن من وقف على تاريخه يعلم ان هذا الظن من الباطل فانه كان يخفي ما استطاع كل مامن شأنه توسيع دائرة جاهه من الأعمال ، ولما عاد من منفاه في سورية إلى مصر وأراد توفيق باشا أن يجعله قاضيا في المحاكم الأهلية قال انني خلقت لا تكون معلما لا لا تكون قاضيا وانني أعلم انني إذا دخلت القضاء أرتقي الى أعلى درجاته ومع هذا أختار أن أكون معلما في مدرسة دارالعلوم على علمي بأنه لا ارتقاء في صنعة التعليم ، كما سيأتي

ولما بلغ انه صار مفتيا انكش وأخبرني بذلك وهو ممتعض حتى لم أنطق بكلمة نشر بالسرور أو التهنة ولكنتي قلت له ووالي أراك متقبضا ؟ قال لأن هذه

وظيفة لا عمل فيها . وسيأتي لذلك مزيد بيان في الكلام على أخلاقه وانما غرضنا الآن ان نبين شيئا من تربيته الصوفية لا آثار هذه التربية في الاخلاق والعمل وان ما نريد من ذلك يتوقف على بيان شيء من حقيقة التصوف ومن أحوال طرق الناس فيه قديما وحديثا فنذكر من ذلك ما لا بد منه لمن يريد ان يعرف الحقيقة التي نربي اليها فنقول

ماهو التصوف

يقال تصوف الرجل إذا صار صوفيا لا معنى للكلمة غير هذا ولهذا البناء اصل معروف لانزاع فيه فهو كيهود اذا صار يهوديا ومنه الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ولكن وقع الخلاف في الصوفي الى أي شيء ينسب فأشهر الأقوال وأقربها من اللفظ ان يكون نسبة الى الصوف لأن القوم كانوا يكثر من لبسه وعارض فيه بعضهم بأنه لم يكن خاصا بهم ولا كان كلهم يلبسه أو لم يكن شعارا لهم . وزعم بعضهم ان اسم الصوفي مأخوذ من الصفاء واشدوا:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقا من الصوف (*)
ولست امنح هذا الاسم غير قتي صافي وصوفي حتى سمي الصوفي

وزعم آخرون انه من الصفة نسبتها الى أهل الصفة من الصحابة أي الذين كانوا يلازمون صفة المسجد لفقرهم واقطاعهم للعبادة وحفظ القرآن واللغة تنفي هذا النسب وتبرأ منه . ويقول بعض الناس ان الصوفي منسوب الى كلمة «سوفاء» أو «سوفى» بعد التصرف فيها بالتعريب والكلمة يونانية معناها الحكمة والصوفية الحقيقيون كلهم طلاب حكمة وهم من صنف الفلاسفة الاشراقيين عند اليونان . وذلك انه لما دخلت الفلسفة اليونانية البلاد الاسلامية أخذ كل أناس منها ما يناسب استعدادهم ففني بعض الناس بالعلوم النظرية وبعضهم بالعلوم العملية مع العمل وذلك قسمين قسم يتعلق بالظاهر كالطب وقسم يتعلق بالباطن كرياضة النفس وتهذيب الاخلاق وهذا هو موضوع التصوف ويعرف أهل التاريخ ان هذا التصوف قديم العهد في البشر فهو معروف عند

(*) وبرى المصراع الثاني هكذا * وكلم قال قولاً غير معروف *

براهمة الهند الى اليوم وعند أهل الصين أيضا ومن الصينيين طائفة يسمون أهل الطريقة لهم شارات كشارات أهل الطريق وأعلام يكتبون عليهما كلمات دينيه كالذي تراه كل يوم عند أهل الطرق

وذهب الحافظ ابن الجوزي في كتاب «تليس ابليس» الى ان الصوفية نسبة الى رجل يقال له صوفة قال

« كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام والايمان فيقال مسلم ومومن ثم حدث اسم زاهد وعابد ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاقا تخلقوا بها ورأوا ان أول من انفرد بخدمة الله سبحانه عند بيته وجل يقال له صوفة واسمه الفوث بن مر فانتسبوا اليه بمشابهتهم اياه في الاقطاع الى الله سبحانه وتعالى فقسموا بالصوفية . وعن ابن سعيد الحافظ قال سألت وليد بن القاسم الى أي شيء نسب الصوفي فقال كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا الى الله عز وجل ووطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية . قال عبد الغني فهو لاء المعروفون بصوفة ولد الفوث بن مر اخي تميم بن مرة . وعن الزبير بكار وقال كانت الاجازة بالحج للناس من عرفة الى الفوث بن مر بن أذ بن طائفة (هـ) ثم كانت في ولده وكان يقال لهم صوفة وكان اذا حانت الاجازة قالت العرب «أجيزي صوفة» قال الزبير قال ابو عبيدة صوفة وصوفان يقال لكل من ولي من البيت شيئا من غير أهله اذا قام بشيء من أمر المناسك يقال لهم صوفة وصوفان . وعن ابن السائب الكلبي قال انما سمي الفوث ابن مر صوفة لانه كان لا يعيش لأمه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة وتجلته ريط الكعبة ففعلت فقيل صوفة ولولده من بعده . وعن عقاب بن شيبة قال قالت أم تميم بن مر ولدت نسوة فقالت لله علي ان ولدت غلاما لأعبدنه للبيت (هـ) طابخة هذا هو ابن الياس بن مضر وهو بالباء والخاء كاسم الفاعل المؤنث من الطبخ كما في المعاجم وضبط في نسخة التليس بالهمزة والخاء المهملة . والاجازة هي الافاضة من عرفات كانت العرب لا تفيض من موقعا يعرفات حتى يفيض بها صوفة وكذا من منى ونسبة الصوفية الى صوفة ذكرها الزمخشري في الاساس احتمالا

فولدت الفتوح بن مر فلما ربطته عند البيت اصابه الحر فمرت به وقد سقط واسترخى
فقال ما ضار الا صوفه فسمي صوفة وكان الحج ولإجازة الناس من عرفة الى منى
ومن منى الى مكة لصوفة فلم تزل الاجازة الى عقب صوفة حتى اخذتها عدوان فلم تزل
في عدوان حتى اخذتها قريش اه

أقول ولا مانع في القياس من صحة هذه النسبة عريية ولكن يبعد ان ينسب
القوم باختيارهم الى أهل الجاهلية ولو الى النساك وملازمي خدمة البيت منهم فاذا
صح ان هذا هو أصل النسبة فالمعقول ان يكون قد أطلق عليهم ذلك بعض العرب
اذ رأوهم يكثرون التحنث ويتعلمون للعبادة في المسجد الحرام وغيره لأن صوفة
ممن يضرب بهم المثل في مثل ذلك

وأما تاريخ التصوف ومبادئه فقد قال ابن الجوزي فيه: هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة

متين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها ان
التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحمله على
الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق الى غير ذلك من الخلال
الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة . وسئل الجنيد بن محمد
عن التصوف فقال الخروج عن كل خلق دري، والدخول في كل خلق سني، وعن
محمد بن حنيف قال لرويم كل الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على
الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وطالبوا أنفسهم بحقيقة الورع
ومداومة الصدق،

ثم ذكر ان هذا ما كان عليهم أوائلهم حتى لبس الشيطان عليهم فكان أول تليسه
ان صدمه عن العلم وأراهم ان المقصود العمل فلما انطلقوا مصباح العلم تخطوا في الظلمات
فمنهم من خلا في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق ومنهم أغري بتعذيب النفس
بالجوع والعري والنقر الاختياري . ومنهم من هام بالسباع والوجد والرقص، ومنهم من
غلبت عليهم الخيالات، حتى قالوا بالحلول والانحاد، وكانوا يعنون بالنظافة والتنطع في
الطهارة وراجت عليهم لقلة العلم الاحاديث الموضوعه

وذكر المؤلفين منهم وان بعضهم قد هذبوا التصوف . فأول من ألف لهم في الزهد

والغلو في ترك الدنيا الحارث المحاسبي . وصف لهم عبدالرحمن السلمي كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم ما فيه العجب من تفسير لا يستند الى أصل من أصول العلم . وذكر ابن الجوزي ان السلمي هذا غير ثقة وانه كان يضع لهم الاحاديث وحدث عن الاصم بشواذ كثيرة وهو لم يسمع منه الا قليلا ، وصف لهم ابونصر السراج كتاب لمع الصوفية وفيه كثير من الاعتقاد القبيح وصف ابو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الاحاديث الباطلة والموضوعات . وصف لهم ابونعيم كتاب الحلية وذكر في حدود التصوف اشياء منكورة قبيحة (وقال) لم يستح ان ذكر في الصوفية الخلفاء الراشدين وسادات الصحابة والتابعين وسفيان الثوري واحمد بن حنبل . وصف لهم عبدالكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والحال والوجد والوجود والجمع والفرقة والصحو والسكر والذوق الخ ثم ذكر تصنيف الغزالي للاحياء وما فيه من الاحاديث الباطلة وانه لم يكن يعلم بطلانها

ثم ان ابا الفرج بين ضرور التليس على الصوفية وما خلفوا فيه الشرع عن جهل أو تأول فأصاب في أكثر ما كتب وأخطأ في أقله وقد كان حسن النية كما كان أولئك الذين انتقد عليهم مخلصين فيما قالوا وفعلوا وهو لا ينكر ذلك عليهم ولكنه كان أعلم منهم بالسنة السنية وبما كان عليه السلف الصالح من هدي الدين لأنه من الحفاظ ولم يكن في أولئك الصوفية حافظ ولا يحدث الا من انتصر لهم في بعض المسائل كابن طاهر الذي انتصر لهم في القول بإباحة السماع وان إحياء علوم الدين هو أحسن كتبهم ومولفه الامام ابو حامد الغزالي كان أوسعهم علما بالكلام والفقه والأصول وأدقهم فهما في اسرار الشريعة وحكمها ومع ذلك كله نرى في الاحياء كثيرا من الاحاديث والآثار الموضوعية والواهية وجها أو كلها منقولة من كتاب قوت القلوب وهي هي وما أخذ منها وبني عليها هو جل ما ينتقد على هذا الكتاب الجليل ولكن لا نعرف كتابا لعالم من علماء الاسلام أشد جذبا الى الدين وتأثيرا في قلوب القارئ من هذا الكتاب . واذا كان كثير من الصوفية قد أخطأوا بقبول بعض الموضوعات والواهيات والاحتجاج بها والاستنباط منها فهذا خطأ لم يسلم منه كثير من الفقهاء الذين تحاملوا

عليهم رضالوا بعضهم وكفروا آخرين في القرون الأولى عند ما كان الصوفية صوفية كاملين في طريقهم ثم خضعوا لهم وذلوا وأولوا كلامهم الخائف لظواهر الشريعة وكذا الخائف لخصوصها وذلك بعد أن طرأ عليهم ما طرأ من الشذوذ والبدع الكثيرة وقف الصوفية على الطرف المقابل للطرف الذي وقف عليه الفقهاء من الاسلام: عني الصوفية بباطن الاسلام ولبابه وسره وهو تزكية النفس وتطهير القلب ومراقبة الله تعالى وما يوصل الى ذلك من علم حكمة التشريع وأسرار الدين وعلم النفس والاخلاق والعلم بصفات الله وسفنه في خلقه . وعني الفقهاء بظاهر الاسلام من علم طهارة الابدان والثياب وأعمال العبادات والاحكام القضائية مدنية وجنائية وسياسية . وكان كل من الفريقين يخطئ ويصيب على نسبة استقلاله في فهم القرآن والعلم بانسنة وبعده وقربه من ذلك و « كل حزب بما لديهم فرحون »

قد علم كل أناس مشربهم ، واقتدى قوم آخرون بهم ، ثم جاء المتولدون لكل منهم ، فذهب بهم الجهل الى الغلو فيهم ، حتى فضاهم بعضهم على الصحابة والتابعين ، وظنوا أنهم أوسع علما وأحسن عملا بهذا الدين ، هيئات هيئات لما تزعمون ، وشتان بين السلف والخلف فيما تصفون ، فلو صدق ما ظنتم ، وكانت حقيقة الامر ما زعتم ، لكان لقائل أن يقول ان هذا الدين من وضع البشر ، ولذلك ارتقى بتناول الزمن ، كلا ان السلف هم الذين أقاموا وزنه بالقسطاس المستقيم ، وجروا فيه على سنة الحنيفية السمحة وهداية الكتاب الحكيم ، فكل ما خالف جماعتهم من فنون زهد الصوفية البصريين ، أو اقيسة الفقهاء الكوفيين ، فهو في هذا الدين مردود ، وصاحبه إما مجتهد مذبذب وإما مقلد معذول ، ولا يتبع أحد منهما فيما يعمل من ذلك ولا فيما يقول ، اذ المسألة من مسائل النزاع فترد الى كتاب الله وسنة الرسول ، (٤ : ٥٨) فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والى الرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فلا أحد من الصوفية معصوم في أعماله وأقواله ، ولا أحد من الفقهاء معصوم في آرائه وأقواله ، ولكن المعصمة لكتاب الله عز وجل ، ولما بينه من سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله (١٥ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

وسلم ، فحكما هو الحكم العدل ، وقولها هو القول الفصل ، وسبيلها هي سبيل جماعة المؤمنين الاولين ، وهم سلف الامة الصالحين ، من جمهور الصحابة والتابعين ، ومن تبهم قبل حدوث الفرق ، ونحزب الاحزاب والشيع ، واجماع أولي الامر ، من أهل الحل والعقد ، يطاع في المصالح العامة ، دون العبادات والامور الخاصة ، ولقد غلامن كل حزب وفرقة أناس يعدوا بالدين عن كتابه وسنته ، وسيرة سلفه وأئمة : كان من غلو بعض الصوفية أن أفرطوا في الكلام على حكمة الدين وأسراره حتى يعدوا بها عن النصوص والسنن ثم زعموا ان للقرآن ظاهرا وباطنا ، وان مدلول النصوص هو الظاهر ، وأما الباطن فلا يعرف الا بالكشف والالهام ، ومن هذه الشبهة دخلت على هؤلاء الغلاة دسائس الباطنية الذين أوجسوا خلال الامة يفتونها الفتنة بتحريف النصوص وتأويلها ، وفيها سماعون لهم ، مخدوعون بزخرفهم ،

ثم انهم اشتغلوا بالفلسفة وعلوم الكون من الرياضيات والطبيعات كالمتكلمين ومنزجوا ما أخذوه منها بكتبهم التي يمحوا فيها عن الوجود وعوارضه ، ولكن طريقتهم فيها كانت مخالفة لطريقة المتكلمين ، فكانت عناية المتكلمين منصرفة الى عرض مسائل تلك العلوم على الكتاب والسنة وقرار ما وافقها وإبطال ما خالف النصوص بالأدلة والبراهين على طريقة الفلاسفة أنفسهم ، وما خالف الظواهر ان ساعدهم الدليل على إبطاله أطلوه ، وألا أولوا العبارة على طريق فنون الامة من جعلها مجازا أو كناية ، واما غلاة الصوفية فقد تصرفوا في المأثري والأفاظ ، وسلكوا سبيل التعمية والألفاظ ، فهم كغلاة الفلاسفة الاسلاميين واكثر منهم مخالفة للفلسفة ، ومخالفة للشريعة ، حتى إنهم قالوا شريعة وطريقة وحقيقة ، والتقسيم والمطف يفيدان المغايرة ، وكان المتكلمون والفقهاء يكفرون الغلاة من الفريقين بل كانوا على الصوفية أشد تحاملا لأنهم يخدعون العامة باظهارهم التمسك فتمظم الفتنة بهم ، والفريقان سواء في شر ما كفرهما به المتكلمون والفقهاء وهو أمران أحدهما علمي كقولهم العالم وتكون النبوة كسبية ، وثانيهما علمي وهو إباحة المحرمات للأخوامين الكاملين في العلوم وجعل الشريعة وسيلة لتربية النابتة وضبط العامة ، ومن دون ذلك مخالفة

التصوص واتباع الفلاسفة في مسائل العالم العلوي وعالم الغيب كالسموات والعرش والكرمي والملائكة والجن والجنة والنار ،

والذي استنبطته من طول البحث والمقارنة ان أكثر الذين خالفوا نصوص الشريعة بأقوالهم وكتبهم من لابي لباس التصوف هم باطنية في الحقيقة وأقلامهم قد مرق من الدين بشبهات عرضت له من تلك الفلسفة الباطلة التي كانت رائجة في تلك القرون ، ثم قلدهم في هذه الاباطيل كثير من المسلمين وهم لا يعرفون أصلها ولا الغاية التي وضعت لتؤدي اليها

مثل الصوفية في ذلك كمثل الشيعة فقد كان هؤلاء حزبا سياسيا من المسلمين يرى ان الحكومة الاسلامية يجب ان تكون حكومة أشرف وان احق النام بها بعد النبي (ص) أقرب زعماء الصحابة المرشحين لذلك إليه وهو علي وريبه وصهره وابن عمه ثم أولاد علي من بنته (ص) فجعل الباطنية من أصول تعاليمهم الرضوية الفلوي في علي وولده والقول بمصمتهم ، وانه لا يعرف باطن الدين ولا حقيقة الامتهم ، وبثوا ذلك في غلاة الشيعة وجهلتهم ، توسلا بذلك الى الطعن في ابي بكر وعمر وجهور علماء الصحابة وادعاء كتبهم لبعض القرآن وتحرifهم لبعض آخر وابطال ثقتهم بما كانوا عليه من الدين وصرف وجوههم الى زعماء منهم يدعون انهم اخذوا حقيقة الدين من أئمة آل البيت المعصومين فيطمسوا الاسلام الحقيقي وبحلول رابطة أهله ويستبدلوا به دينا جديدا ان لم يتيسر لهم إرجاع الناس الى المجوسية التي هي دين واضي تعاليم الباطنية للانتقام من المسلمين الذين أزالوا ملكهم واستولوا على بلادهم

هكذا ثبت الباطنية تعاليمها الاحادية الفاسدة في غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة وأنخدع بها الفريقان لظهور دعائهما الاسلام والتسك والتقوى حتى صار الناس يقولون ان الشيعة قسمان ظاهرة وباطنية ، ولم يكن أحد يقدر ان يميز بينهما لان الباطنية كانوا يخفون عقائدهم أو تعاليمهم المخالفة للاسلام نفسه المصراحة بعداوتهم الا لمن يقعون به بعد وصوله الى الدرجة الاخيرة من درجات دعوتهم ، ولذلك رأينا مثل الشريف الرضي من أئمة العلم والفضل في الشيعة يمدح بعض الخلفاء العبيدين ، ظنا منه انهم من الشيعة المسلمين ، وانهم حقيقة من العلويين ، فقال وقد كان مستاء من الخليفة العباسي

أبس الذل في ديار الأعداء وبصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ي إذا ضمني البعيد القوي
لف عرقى بفرقه سيدا الناس جميعا محمد وعلي

ولو علم أن الخليفة العبيدي عدو جده والساعي في إبطال دين جده لما قال ذلك فيه
ولما ظهرت تعاليم الباطنية في بعض فرقهم امتاز مسلمو الشيعة وثبتوا على الإيمان
بوحداية الله ورسالة محمد خاتم النبيين والمرسلين وإقامة أركان الإسلام الخمسة
بالعمل لا بالخالفون غيرهم من المسلمين فيها إلا بعض الفروع الاجتهادية، والباطنية
هدموا كل هذه الأركان والعقائد الأساسية، ولكن بقي في كتب الشيعة وقاليدهم
شيء من تعاليم الباطنية كما بقي في كتب أهل السنة شيء من أحاديثهم الموضوعة.
وأما كتب غلاة الصوفية فلا تزال حاوية لجميع ضلالاتهم أو أكثرها لا يستطيع
التمييز بينها وبين التصوف الصحيح إلا أفراد من المحققين - وكان الاستاذ الامام
صاحب الترجمة يقول إن التفسير المطبوع في جلدتين المنسوب الى الشيخ محيي الدين
بن عربي هو لكاشاني الباطني - ويقول بعض العلماء إن الفتوحات المكية
والفصوص أشهر مصنفات الشيخ محيي الدين فيها كثير من دسائس الباطنية فإن لم
يكن كذلك فهو من أكبر زعماء الباطنية أو أكبرهم على الإطلاق

قال ابن خلدون في مقدمته في سياق الكلام عن التصوف :

« ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس
توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملاؤا
الصحف منه مثل الهروي في كتابه المقامات له وغيره وتبعهم ابن عربي وابن سبعين
وتلميذها ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم
مخاطبون للاسماعيلية المتأخرين من الدافضة الدائنين أيضا بالحلول والهيبة الائمة
مذهبا لم يعرف لاولهم فأشرب كل واحد من الفرقين مذهب الآخر واختلط
كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة أقول بالعقاب ومناه رأس
العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله
ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان

« وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها
 قل : جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد ، وأن يطالع عليه الا الواحد
 بعد الواحد : وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وانما هو من
 أنواع الخطابة أو هو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به

« ثم قالوا بترتيب الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقاء حتى انهم
 استندوا لباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخلبهم دفعوه الى علي رضي
 الله عنه وهو في هذا المعنى أيضا والا فلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة
 بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان ابو بكر وعمر رضي عنهما ازهد الناس
 من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحدا منهم بشيء
 يوتر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة
 يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنا كثيرهم في ذلك مما
 ليس لسلف المتصوفة في كلام بنفي أو إثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة الرافضة
 ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق

« ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا اتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في
 هذه المقامات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق ان كلامهم
 معهم فيه تفصيل فان كلامهم في اربعة مواضع (احدها) الكلام في المجاهدات
 وما يحصل في الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق
 انني اصبر مقاما ويترقى الى غيره كما قلناه (وثانيها) الكلام في الكشف والحقيقة
 المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي
 والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الاكوان بأنواع
 الكرامات (وثالثها) التصرف في العوالم والاكوان بأنواع الكرامات (ورابعها) ألقاظ
 موهمة اظهار صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات
 تستشكل ظواهرها فنذكر ومحسن ومتأول

« وأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل في الاذواق والمواجد في نتائجها
 ومحاسبة النفس على التصبر في أسبابها فأمر لا مدغم فيه لا أحد وأذواقهم فيه صحيحة

والتحقق بها هو عين السعادة

د وأما في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الأستاذ أبو اسحاق الاسفرايني من أئمة الاشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق فلو وقعت من الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها مكابرة وقد وقع للصحاب وأكابر السلف كثير من هذا وهو معلوم مشهور

د وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه لما انه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم يعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لأنها لم توضع إلا للتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا تعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من التشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة

د وأما الالفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الانصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداؤه حل على القصد الجليل من هذا وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقْدان الوضع لها كما وقع لآبي يزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يبين لما ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بآثارها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فؤاخذ أيضا ولهذا اتقى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم د وسلف المتصوفة من أهل الرسالة (١) اعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل لم

يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والاعتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون انه من العوائق والمحن وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله أوسع وخلقه أتم وشريعته بالهداية أملك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاعتداء ويأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب اه
أقول وذ كر قبل ماقلناه أن بناء هذه الطريقة على مجاهدة النفس وغايتها الوصول الى مقام التوحيد والمعرفة : قال ان الادراك الذي يتميز به الانسان عن سائر الحيوان نوعان إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وإدراك للاحمال القائمة بالنفس من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف بالبدن تتشأن إدراكات وارادات وأحوال وهي التي يميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة ، والفرح والحزن عن إدراك المولى أو المتلذذ به ، والنشاط عن الجمال والكسل عن الاعياء . وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لابد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة ، وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد ، وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ، ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للكمال :

ثم ذكر غاية القوم بحاسبة النفس على الاعمال والخواطر وعدم الاكتفاء بالانسان بالعبادة موافقة لشروط بانته بل يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ، فأصل طريقةهم المجاهدة والحاسبة وانها في النفس ، وذ كر انهم اصطالحوا على ألفاظ تدل على ماافردوا به من هذه الاذواق ومبادئها وغاياتها كما وضع أهل الكلام والفقه والاصول اصطلاحات لعلومهم فصار علم الشريعة صنفين علم الفقهاء وعلم الصوفية

ثم تكلم على ما تنثره الخلوة والمجاهدة من كشف حجاب الحس وإدراك بعض العوالم الخفية وأطال في الكلام على هذا الكشف وعلته من سنة الله تعالى في النفس البشرية وما فيها من الاستعداد للادراك بغير واسطة الحس ، وما حدث للصوفية بعد عنايتهم بهذا الكشف من الكلام في حقائق الموجودات العالوية والسلفية وحقائق الملك والروح والعرش والكرمي ، وإنكار بعض الفقهاء وأهل الفتوى عليهم وتسليم بعضهم لم وأطال في ذلك

وأقول ان ابن خلدون أصاب في أكثر ما قاله وأخطأ في بعضه وانه ما سلم للصوفية من سلم من الفقهاء الا لظهور بعض خوارق العادات من بعضهم كالكشف وغير الكشف والانسان معها كان معتزاً قويا بعلمه وبقوته بمعرفته فانه يضعف وينقاد لأضعف الاشياء اذا ظهر له من قبلها ما يعدده مدداً من السلطة العليا والقدرة الإلهية اذ أودع الله في فطرته العبودية والخضوع لسلطانه الأعلى الذي سخر به الاسباب ولا تسخره الاسباب في شيء ، ومن الناس من لم يبال بخوارقهم لانه علم بأن مثلها قد كان من الهنود والصينيين وغيرهم فقالوا ان لهذه الخوارق أسباباً جارية على سنة الله تعالى في النفس البشرية وآثارها فنحن لا نسلم بشيء في الشرع لم يقم عليه الدليل الشرعي لان المقاتل به جاء بشيء غريب لانصرف سببه وهو نفسه لا يصلح أن يكون حجة على ما قاله ولا على عصمته فيما يكون عليه . وقد قل بعض كبراء العلم والتصوف . اذا رأيت الرجل يطير في الهواء فلا تفتروا به حتى تروا حاله عند الأمر والنهي ، أي فان كن متبها عما نهى الله عنه موثماً بما أمر به فهو المؤمن الصالح الولي لله والا كان فاسقاً شقياً أو كافراً غوياً ،

وقد غلا في علم التصوف فريقان فريق عده كله بدعاً محدثة يجب ردها وعدم قبول شيء منها الا اذا كان له أصل يقوم عليه من الكتاب أو السنة أو إجماع السلف العملي أو اقولي ولا يعتد بما يسمونه الاشارة ولا الكشف لانهما ليسا من طرق الدلالة في الشرع ولا في اللغة العربية . ومنهم من جعل ما ثبت عنهم ديناً يتقرب الى الله تعالى به وينكر على مخالفته كما ينكر على من خالف الكتاب والسنة أو نصوص أئمة الفقه عند مقلديهم ، ويؤمن بمشابهة كتب الكتاب والسنة مع ان الصوفية

أنفسهم أنكروا ذلك . وذكر الشعراني أن شيخه علياً الخواص قال له في جواب سؤال : أن مثابه كلام الصوفية لا يقبل ولا يؤول كمنشابه الكتاب والسنة ، لمصنعة الكتاب والسنة دون كلام الصوفية ، فإنهم غير معصومين من الخطأ فيه . وهذه الكلمة أحسن ما نقله عنه

والصواب أن كلام الصوفية ككلام غيرهم من أهل العلوم الشرعية كعلم الكلام والاصول والفقه — وأهل العلوم الكونية والعقلية كالفلسفة والطبيعات . وكتبهم ككتب هؤلاء العلماء فيها الخطأ والصواب . وقد كنت كتبت لهذا البحث أوراقاً ثم ضاعت ، وأفنيت أن أطلعت قبل كتابة غيرها على فتوى لشيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية في الصوفية والفقراء ذكر فيها تاريخ ظهورهم وحقيقة حالهم وغلو بعض الناس في مدحهم . وبعضهم في ذمهم وانتقاصهم ، وحق أن مبدأ ظهورهم كان في البصرة وأنهم من أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصري ، وإن أهل البصرة قد اشتهروا بالعبادة والزهد أكثر من أهل سائر الأمصار ، كما اشتهر أهل الكوفة بالفقه ، فكان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية وإن الصوفية والفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث في قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) وإن السابقين بالخيرات منهم كالسابقين بها من الفقهاء ، ويسمون أهل الحقائق ، وقد يصل بعض هؤلاء وأولئك إلى درجة الصديقين . ثم قال : « وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية وذكره الحافظ أبو الطيب في تاريخ بغداد

« فهذا أصل التصوف ، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق ، وصوفية الارزاق ، وصوفية الرسم ؛ فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم ، وأما صوفية الارزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك ، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز وأكبر أهل الحقائق (م ١٦ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

لا يتصدون بلوازم الخوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط احدها العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويحبتون المحارم ، والثاني التأدب بآداب أهل الطريق وهي الآداب الشرعية في غالب الاوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت اليها . والثالث أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال أو كان غير متعلق بالاخلاق الحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقا فانه لا يستحق ذلك . وأما صوفية الرسم فهم المقصرون على النسبة فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ؛ فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره انه منهم وليس منهم »

ولما كان الصوفية يسمون أنفسهم (الفقراء) تكلم شيخ الاسلام في مسألة الفقر ولقب الفقير في عرف الشرع وعرفهم ، وبين ان الفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث التي أشرنا اليها في تلخيص كلامه عن الصوفية وجملة القول ان مرادنا من التصوف والصوفية هنا ينحصر في المسائل الآتية نلخص بها ما تقدم ونزيد عليه . وهي

- (١) التصوف الاسلامي هو التخلق بأخلاق الصوفية والانتظام في سلوكهم
- (٢) الصوفية في الاسلام طائفة انقطعوا الى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة برياضة النفس وتربية الارادة والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس وحسن النية والمبالغة في العبادة . وغايتهم الوصول الى تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله تعالى، ثم ادعى حالمهم من ليس منهم غشاء وتلييساء وليس لباسهم من تناقض حاله حالم دعوى وتقليدا
- (٣) ان رياضة النفس والتدقيق في عيوبها والحرص على تزكيتها وتكميلها يشر علما وعرفانا بسنن الله تعالى في الارواح وأسرار قواها ، وأحوالا وأذواقا غريبة ، من أعماها الكشف ، وهو معرفة بعض الحقائق والوقائع من غير طرق الحس والفكر، (ومنها) التأثير بقوة الارادة في بعض الاشياء، وأكثر ما يكون ذلك بنحو شفاء مريض أو استهواء نفس تكون أطوع للمستهوي من طرفه ، وأتبع له من ظله . وذلك فوق ما يهتد الناس في هذا العصر من الاستهواء الذي يسهونه [التنويم المغناطيسي]

وقد ظهر في هذا الجيل رجل في سورية عرضت له حال اعتقد بها انه يجب عليه الخروج لإزالة الفساد ، واصلاح أمر العبادة ، فكان يسبر ويدعو الناس الى اتباعه فيتركون حرمهم وزرعهم وتجارتهم وصناعتهم ويتبعونه فرادى ومشى وجماعات ، من غير يئنة ولا برهان ، ولولا أخذ الحكومة له لكان له شأن وأي شأن ! (ومنها) أحوال تعرض ، وبروق تومض ، يلطف بها الكثيف ، ويرق بها الغليظ ، ويضعف سلطان المشاعر ، وينعكس نور الابصار الى البصائر ، فيرى صاحبها ويسمع ويشم ويدرك ما لا يشاركه به غيره ممن ليست له تلك الحال ، حتى انه لينزع به في عالم من الخيال ، يناجي فيه الارواح ، تتجلى في صور الاشباح ، بأغرب وأعجب مما يدعيه مستحضر الارواح الآن

(ومنها) الفوص على دقائق أسرار الشريعة وحكمها ، وصفات النفوس البشرية وقواها وعلاها ، وغير ذلك من العلوم العقلية ، والمعارف الكونية والإلهية

(٤) إن هذا التصوف برياضة النفس وما تثمره من الاحوال ليس من مستحدثات المسلمين بل سبقهم اليه قدماء الهنديين والصينيين واليونان وغيرهم — كما تقدم في أوائل الفصل — وقد سرى الى بعض صوفية المسلمين كثير من بدعهم وضلالاتهم ، وشعارهم وشاراتهم ، حتى انهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود ، فصارت هي غاية الطريقة عندهم ، كما كان تجريد التوحيد الشرعي غاية الطريق الاسلامي عند غيرهم . ولا ندري كيف دخلت هذه الدخائل على الصوفية ولا عن أي كتب الهند وغيرها أخذوا ، ولا تاريخ ذلك — لم تقف على ذلك كما وقفنا على ما يقابله من دخول فلسفة اليونان على علماء الكلام ، ولكننا رأينا في بعض كتب الصوفية ذكراً لصوفية البراهمة وتفرقة بين كشفهم وكشف المؤمنين . ويسمون الكشف الاول الكشف الصوري والظلماني ، والثاني الكشف المعنوي والروحاني ، وأما المتكلمون منا فقد قالوا بجواز وقوع الكشف وغيره مما يسمونه خوارق العادات من غير المؤمن التقي ، ويجعلون لكل نوع منها اسماً ، فما كان على يد المؤمن التقي يسمونه كرامة ، وما كان على يد الكافر أو المبتدع أو الفاسق يسمونه استدراجاً

(٥) اننا على جهلنا تاريخ دخول تلك الدخائل على صوفية المسلمين نعلم ان الباطنية

الذين كانوا يؤلفون الجماعات والاحزاب للكيد للاسلام ودولة العرب، والسعي لإفساد الدين وإسقاط الملك ، قد دخلوا على المسلمين من بابي التشيع والتصوف معا كما تقدم ، ولذلك ترى أكثر طرق الصوفية تتصل بأئمة آل البيت عليهم السلام وتنتهي الى أصلهم علي المرتضى كرم الله تعالى وجهه . وما عدا ذلك فهو مستحدث كطريقة النقشبندية التي تنتهي الى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . والباطنية هم الذين اخترعوا مسألة كون الشريعة لها ظاهر و باطن ، وكون أئمة الباطن هم العارفين بتأويل القرآن وحقيقة الدين دون غيرهم ، وكونهم يتصرفون بأمر الكون ، وهم الذين أدخلوا على التصوف بدعة وحدة الوجود البرهمية ونزغات فاسفة اليونان النفسية . وكان غرضهم من ذلك إفساد عقائد الاسلام وإزالة سلطانه وحكمه ، وكانوا يعنون بالأئمة والاقطاب وأهل الديوان المستورين أئمة نحلتهم الذين يريدون رفعهم الى عروش الممالك ليمموا لهم مايزيدون بقوة السلطة ، بعد التمهيد العظيم له بالدعوة . وقد تم لهم أمر الملك في مصر بدولة العبيديين ، ولكنهم عجزوا عن إبطال الاسلام وافساد أمره (٦) قد امتزجت دسائس الباطنية بتعاليم الصوفية فراج بعضها على الأكثرين وبعضها على الأقلين ، وعز التمييز بينها حتى على كثير من العلماء الراسخين ، كما راج على الأكثرين ما دخل عليهم من البدع الأخرى جهلهم بالسنة الصحيحة وسيرة السلف المتقدمين بهم من الصحابة وأئمة التابعين

فالضلالات والبدع المتغايلة في كتب الصوفية قسمان (أحدهما) ما أخذ به الباطنية من صوفية البراهمة واليونان ودسوه في التصوف الاسلامي وليس له أصل من كتاب ولا سنة (ثانيهما) ما أحدثه بعض شيوخ الطريقة من الاوراد والشعائر المخالفة للسنة في ذاتها أو في كيفيتها . ولا يخفى انه ليس لاحد بعد زمن الوحي ان يجعل بعض العبادات التي لا أصل لها في الدين شعائر تؤدي بطريقة مخصوصة في أزمنة مخصوصة بكيفية مخصوصة . اذا لم يرد هذا التخصيص في السنة المتبعة . مثال ذلك صلاة رجب (الرجائب) وشعبان اللتين نص الفقهاء على كونهما من البدع المذمومة . وقس عليهما ما هو دون الصلاة من شعائرهم كاجتماع اقراءة الاوراد والدلائل والملاذكار بالكيفيات المخصوصة في الايام المعلومة والمواسم المؤقتة كالموالد وغيرها ، وما فيها من

البدع والمنكرات الكثيرة

(٧) إنما الحكم العدل في التصوف والصوفية كتاب الله وسنة رسوله (ص) وسيرة أهل الصدر الأول في إقامتهما والعمل بهما، فما وافق ذلك فهو الحسن المقبول، وما خالفه فهو القبيح المردود، وما كان غير موافق ولا مخالف فهو محل الاجتهاد إذالم يمدّ ديننا، وتحسين الظن أولى بالعاجز عن الاجتهاد، ولو فيما كان مخالفاً للجمهور بن الناس

ولا يعرف هذا الحكم الا العالم الراسخ في التفسير والحديث وتاريخ الاسلام، لان شيوخ التصوف يلتزمون لما لديهم أدلة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، ولكنهم قد يستدلون على الشيء بما لا يدل عليه من التأويلات البعيدة للآيات والاحاديث، والاخذ بالاخبار الموضوعة بآلة الضعيفة، وترى علماً كبيراً كالامام الغزالي يقع في ذلك

(٨) طالما تمنيت ان يوجد كتاب لاحد أئمة العلم الجامعين بين علوم النقل والعقل والتصوف يحصي على التنسيب الى التصوف ما ألموا به من البدع، ويبين ماخالط كتبهم من دسائس الباطنية والفلاسفة، ويزن ذلك بالقسطاس المستقيم المبين في المسألة - السابقة - حتى عنرت على كتاب [مدارج السالكين بن منازل : اياك نعبد واياك نستعين] للامام الشيرازي القيم - وهو ابن مجدة هذا الامر وأبو عذرفته - فاذا هو قد شرح فيه كتاب [منازل السائرين] لشيخ الاسلام أبي اسماعيل عبد الله بن محمد الانصاري الهروي المتوفى سنة ٤٨١هـ فكان هو الأمانة أما أبو اسماعيل فهو - على كونه من أكابر أئمة الصوفية أرباب الحقائق - مفسر محدث فقيه حنبلي سلفي، وأما كتابه [منازل السائرين] فهو نسج وحده في متون التصوف، جملة عشرة أقسام في كل قسم عشرة أبواب، في كل باب كلام وجيز على منزلة من منازل السائرين الى الحق تعالى، وكل منزلة لها ثلاث درجات. وقد بمر بغير الدرجات قليلاً. وقد غاب تصوف مؤلفه على علمه بالسنة في بعض المواضع فشد كعبه. ولذلك نمتي الحافظ الذهبي لو لم يكن ألف هذا الكتاب وأما الامام ابن القيم فلا يعرف مكانته وعلو قدمه في التصوف الا من اطعم

على كتابه مدارج السالكين . وأما علمه بالسنة وسائر العلوم الاسلامية فهو فيه أشهر من علم ، وكتابه هذا هو الذي حرر علم التصوف وبقاه من دسائس ملاحدة الباطنية وغيرهم ، وحكم فيه كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) وسيرة السلف الصالح . فهو غاية الغايات في هذا الباب ، لانعرف كتابا غيره ندل عليه من يريد هذا العلم علما اسلاميا ليس فيه بدع ولا عقائد زائفة ، الا ان تذكر لتدحض شبهتها ، وتدمغ جبهتها

مكان صاحب الترجمة من التصوف

بيننا في أول الفصل ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ربي تربية صوفية ، وأنه كان صوفيا حفا خفيا ، وأنه كان يرى وجوب كتمان كل ما يؤتاه المرء من ثمرات التصوف ، وأن يكون مع الناس فيما يشاركون فيه من الصفات والاحوال . وكذلك كان : كان مع الحكماء حكميا ، ومع الفقهاء فقيها ، ومع الادباء أدبيا ، ومع المؤرخين مؤرخا ، ومع رجال الادارة والقضاء اداريا كاملا ، وقاضيا عادلا — وكان يخاطب كل قوم وكل فرد بقدر ما يراه من استعداده ، مع التزام الصدق واستقلال الرأي

ولما كان وجود الصوفية في هذا العصر أندر من الكبريت الاحمر كانت مكانة الشيخ في التصوف مجهولة حتى عند أصدقائه وتلاميذه ، ولا أعرف أحدا من أهل هذه البلاد كان يزوره ليزاكره في علم التصوف وأحواله الا أحد شيوخ الطريق المعتقدين في الصعيد وهو الشيخ أبو شروقادي رحمه الله تعالى . كان لهذا الشيخ تلاميذ يعتقدون أنه من أولياء الله تعالى ، ومنهم من هو سيء الاعتقاد أو الظن بالشيخ الذي كان شيخهم يسأله عن دقائق التصوف ويستفيد منه

ولولا أن سبق لمؤلف هذا الكتاب اشتغال بسلوك طريق التصوف وعناية بمطالعة كتبه لما أمكن أن أعرف من صاحب الترجمة ما عرفت من أمره فيه شيئا لانه كان نكرة لا تعرف كما قلت في أول الفصل . وقد أخبرني أن كتاب الفتوحات المكية عنده كتاريج ابن الاثير لا يقف فهمه في شيء منه

وقد بدا لي الآن ان أبدي شيئا مما كنت عازما على إخفائه من معنى قوله : مازج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر

ويخرجه منه وذلك قليل . فأقول :

ان كل من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة عرضة للوقوع في عالم الخيال ، ومن آثار ذلك ان يرى في البقطة (الطبعة لا ما تسميه الصوفية البقطة) مالا وجود له في الخارج ويسمع من نفسه تارة ومن الارواح التي تتمثل له تارة كلاما لا يسمعه غيره وان كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة ، وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما انه لا يمكن للرجال ان يعبروا للأطفال عما هو خاص بهم من لغة أو ألم ، وينبع هذه الاحوال تخيلات وأوهام كثيرة ، يمجدها صاحبها لغة عظيمة ، يحتقر في جنبها ما سواها ، فلا يسمع فيها عدل عاذل ، ولا رأي عاقل ، ولا فتوى فقيه ، ولا برهان متكلم أو حكيم . ولكنه قد يقبل كلام من يرى انه فوقه في أحواله وأعماله ، وأنتى لفريق خياله باقناذ فريق خياله ؟ بل ما كل من غرق ثم نجا يقدر على إقناذ الفريق ، وانما تكون النجاة من هذا الفرق بقوة واستعداد من الفريق ، وقوة واستعداد آخرين من المنقذ ، وقلمًا يتفق اجتماع الامرين ، كما اتفق ذلك للشيخين — الاستاذ الامام والسيد الحكيم — قدس الله أرواحهما

ومن لم يتح له هذا التوفيق يفتن بهذه الحال أو بذلك الخيال ، ويفتر به ويرى انه مستغن به عن جميع العلوم الدينية والدنيوية التي فرضها الله على العباد ، اذ جعلها مدار صلاح أمور المعاش والمعاد ، فاذا اقترن بذلك ما يقع كثيرا من المكاشفات ، أو التأثير بقوة الارادة في شفاء بعض الامراض ، أو حمل بعض الناس على أعمال ما كان ينظر ان يعملوها لولا ذلك التأثير ، وغير ذلك من الامور الغريبة التي يسمونها كرامات ، فحينئذ يكون من يقع له ذلك فتنة لنفسه ولغيره ، فيتلو فيه من يرى ذلك منه ، أو يروى له عنه ، حتى ان من الغالين من يمدلون هؤلاء الناس ببربهم ، ويعملونهم شركاء له في التعريف بهم وبغيرهم ، بل يدعونهم حتى عند الشدائد من دونه ، ويقدمون كلامهم على كلامه وكلام رسوله ، فاذا كان لاحد من رجال طريقته حزب أو ورد اتخذوا قراءته شعارا من شعائر الاسلام ، وهجروا لقراءته تلاوة القرآن ، ومنهم من يواظب على الورد ويترك الصلاة ، وإذا نسبت الى أحد

منهم بدعة ، قدموها على ما اتفق عليه المحدثون من السنة ، فيصدق عليهم بذلك ما فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (اتخذوا أجباهم ورهبانهم أربابا من دون الله) بأنهم اتبعوهم في مسائل الحلال والحرام ، وكذا فيما زادوا في الدين من العبادات

ومن رضي أن يرى نفسه إماما متبوعا ، وشارعا مطاعا ، جدير بأن تعظم فتنته ، ويرسخ غروره ، وقد يتوهم أنه على هدى من ربه ، وإن من ينكر بدعه من علماء الشرع محبوب بقشور الدين عن لبه ، فيكون من الاخسر بن أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ولكن منهم من يتخذ إلهامه معبودا ، وربما مقصودا ، وشارعا مطاعا ، وهو لا يدري ، واذ درى لا يرضى

ومن دون هؤلاء من ينتحل لنفسه مقام شيوخ الطريقة ، وهو لم يعرف للسلوك معنى ، ولم يذق للتصوف طمعا ، ولم يعقل له حدا ولا رسما ، إنما قصارى أمره فيه أن يرأس زعقة من الغوغاء ، على اللفظ والصياح بما يسمونه الاذكار والاوراد ، ثم أنه يُدَّعى له مقامات العارفين ، وكرامات الصالحين ، فيخادع العوام الغافلين ، بتخييلات السحرة وحيل المشعوذين ، ويخترع لهم من الرؤى المنامية ، ما هو عندهم أهدي من الكتاب العزيز والاحاديث النبوية ، فاذا مثل له الهوس في أحلامه ، بعض ما يشغله في عامة ليلائه وأيامه ، فقد يلبس على نفسه ما كان يلبسه على الناس ، ونعوذ بالله من شر الوسواس الخناس

فهؤلاء يعيشون في عالم خيالي ، وأولئك يعيشون في عالم خيالي ، والفرق بينهما كالفرق بين الملائكة والحدا دين — كما يقول في أمثاله الغزالي — بل هؤلاء من الشياطين ، وأولئك من الصالحين غير الكاملين ، فهم بفرورهم بما هم فيه والاستغناء به عن علوم السنة والفقه الصحيح والعلوم والفنون التي تميز بها الملة وذم ذلك واحتقار أهله كـ بعض غلاة علم الكلام وعلم الاحكام الذين يفضلون جدلهم وحياتهم التي يسمونها شرعية على كل شيء ، ويختفرون في سبيلها كل شيء .

ان المتسبين الى طرق الصوفية في هذا العصر ألوف الألوف ، ولكنهم هبطوا الى اسفل سافلين ، قلما يصلح احد منهم أن يعد ممن سماهم ابن تيمية صوفية الرسم

دع صوفية الارزاق الذين فقههم ، دع صوفية الحقائق الذين كلامنا فيهم طالما فكر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين في إصلاح شأن المتسبين الى طرق الصوفية ، وإيقادهم من خيالاتهم الفاسدة وبدءهم الفاضحة ، بل اخراجهم - من جحر الضب الذي دخلوه وهم لا يشعرون - فلم يهتد أحد الى ذلك سبيلا ، ولما هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥ كان أول إصلاح سعت اليه ان حادرات إقناع شيخ مشايخ طرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكري بالقيام بهذا الاصلاح ، كلمته بذلك قبل إصداري (المثار) ثم ما زلت ألح عليه في ذلك وهو يسوق مع الاستحسان حتى عمد الى ذلك بوضع لائحة رسمية ولائحة داخلية ، ثم وضع كتابا في الاخلاق والآداب ، على انه سألتني عن رأيي في ذلك فقلت له مرارا ان الاصلاح لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والاخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق كلها ، ثم عدت بعد طول السعي ان ما حاولت من الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحي يكاد يكون من محالات العادات ^(١) وقد جرت المذاكرة في ذلك مرة بيني وبين صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي - وكان يرى أن إصلاح هذه الطرق أو الاصلاح من بابها محال - فقلت أرأيت إذا اقمنا بعض إخواننا الصادقين في حب الاصلاح ، العالمين بطرق الارشاد ، بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة ، ألا يستطيعون ان يقفوا بعامة أهل طريقتهم عند حدود السنة ، ويربؤوا طائفة من المريدين تربية جديدة؟ فقال إننا جربنا ذلك فأقمنا رجلا من أمثل هؤلاء الذين تعنيهم بنحو مما ذكرت ، فكان عاقبة أمره معهم ، ان أفسدوه ولم يصلحهم ، فأنس بهذه الرياسة وآثرها ، فحسرتنا بها

(١) لما بعد من عجائب مصر أن مشيخة التصوف فيها منصب رسمي يورث كالمال ، فأمير البلاد يقبل بعض الوجهاء منصب (شيخ مشايخ الطرق الصوفية) وهو منصب محصور منذ عهد عبيد في بيت البكري من بيوتات مصر ، وشيخ المشايخ يقبل مشيخة أكثر الطرق المشهورة في هذا القطر من يرثها عن أبيه أو غيره ، ولهم عادات وتقاليد في ذلك لا غرض لنا في شرحها

(م ١٧ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

فعلم بهذا كله ان للحياة الخيالية التي يعيش بها هؤلاء الناس لذة عظيمة سواء كان الخيال فيها عاليا أم سافلا ، ولذلك كان اصلاح شأنهم عمرا جدا ، ولن يقوم به الا من جمع بين العلم الصحيح والتقوى والاخلاص وقوة التأثير بالكلام وبالارادة، وهيئات ان يتفق وجود افراد من هؤلاء اتفاقا ، وانما يوجد في كل عدة قرون منهم واحد ، وكثيرا ما يكون لهذا الواحد من الصوارف ما يحول دون التصدي لهذا الاصلاح، فيجب على المسلمين السعي لتربية طائفة منهم، وقد كان الاستاذ الامام من اولئك الافراد القادرين على هذا الارشاد لو تصدوا له ، ولكن صرف عنه حتي كان أكثر الناس يظنون انه ليس منه في ورد ولا صدر ، وطالما كانت نفسه تتوق اليه ؛ قال لي مرة : اذا يئست من اصلاح الازهر فاتي انتقي عشرة من طلبة العلم واجعل لهم مكانا عندي في عين شمس أربيهم فيه تربية صوفية مع اكمل تعليمهم وأستمع بك على ذلك ، وكان اقترح مثل هذا الاقتراح على السيد جمال الدين ايام كانا ينشئان العروة الوثقى في باريس ، وسيأتي بيان ذلك ولو تم للاستاذ هذا على الوجه الذي يريده لكان أعظم أعماله فائدة ، وما كان يحول دون تمامه الا تعسر الاهتداء الى عشرة من المريدين المستعدين لهذه التربية ، فان أوبئة فساد الفطر والاخلاق وضمف الارادات والعزائم لم يكد يسلم منها الا الافراد الذين يميز الاهتداء اليهم بالسعي ، وانما يعرف منهم من يعرف بالاتفاق والمصادقة غالبا. على ان تلك الروح العلية ، والارادة القوية جديرتان بتحويل الطباع ، وتبديل الاوضاع

الفصل الرابع

في الطور الاول من حياته العملية

وهو ما قبل النفي

يتألف هذا الفصل من تمهيد في تقييـة تربية صاحب الترجمة وتعلمه ، خمسة مقاصد — ١ —
تدريسه في الازهر — ٢ — تدريسه في مدارس الحكومة — ٣ — عمله في ادارة الحكومة
— ٤ — عمله في نظارة المعارف — ٥ — سيرته في الثورة العربية

تمهيد في حفظه مما يكون به الرجل عظيمًا لو سأل سائل: أي الرجال أعظم في
الامة وأفضل؟ — لاختلف الجواب باختلاف أفهام الافراد ومذاهبهم، فهذا يقول
أعظمهم العالم وذلك يقول بل الفيلسوف، ويقول ثالث بل هو الرجل الصالح، فينبزي
رابع قائلاً بل القائد الفاتح، ويخالفهم رجل آخر يدعي ان أفضل الناس السياسي
الحاذق، ويقول آخرون أقوالاً أخرى. واذا رجعت بالجميع الى البرهان رأيتهم
يتفقون على ان أعظم الرجال وأفضلهم المصلحون الذين يوجهون عزائمهم الى رفع
الامة من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا، وهؤلاء قلما تجود الاجيال بواحد منهم على
كثرة العلماء والصلحاء والقواد والسياسيين في كل زمان

انما يكون الرجل عظيمًا بأمرين أحدهما فطري لا يأتي بالكسب وهو الاستعداد
الذي يكون له بكمال الخلقة واعتدال المزاج، وحسن الوراثة للوالدين والاجداد.
وثانيهما كسبي وهو التربية القويمة والتعليم النافع، وقد كان استعداد الاستاذ الامام
لكل أمر عظيمًا حتى كان استعداداه هو الاصل في تربيته وتعليمه. فقد علمت مما
مر أن فطرته السليمة لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لا يفهمها ولم يعرف هذا

عن غيره من المبتدئين بطلب العلم حتى أذكياهم الذين استفادوا بعد العناء، فصاروا من كبار العلماء ، فقد كانوا يصبرون على مالا يفهمون زمنا طويلا ، وإذا حفظ أحدهم شيئا بالترار ظن ان هذا فهم وعلم، ولا سيما اذا حفظ تفسير المتن من شرحه وحاشيته . ولكن صاحبنا لم يكن يترك المسألة حتى يفهمها ، ويوقن أو يرجح أن الحكم فيها كذا ، ولذلك أسرع اليه الملل من دروس مشايخ الاحتمالات . وكان يقول ان حضور كتب العلوم العربية على طريقته قد أضر بذهنه وعقله، وأنه ظل يكس ذهنه وينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة . وقد أعجبه طريقة السيد جمال الدين فانه كان يشرح معنى المسألة حتى تتجلى للافهام ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبقتها عليها فان انطبقت والا أبان ما فيها من التقصير ، أو يقرأ العبارة ويبحث في دليلها فيقره أو يفنده ويجزم بغيره . وبهذه الطريقة ارتقى الى أن يحكم بنفسه في المسائل ولا يرضى بمجرد فهم المراد مع التسليم لمؤلف الكتاب ، فالذي امتاز به صاحب الترجمة على اخوانه الازهرين هو أنه في بدايته لم يرض أن يحضر شيئا لا يفهمه ، وفي نهايته لم يرض بما يفهمه الا بعد أن يشتير فيه الدلائل فيرضاه له، وأنه لم يقنع بالعلوم المتداولة في الازهر بل كان من أوائل عهده بطلب العلم الى يوم وفاته يطلب العلوم ويقدم منها ما يزيده كالا في نفسه ، ويعينه على رفع شأن ملته وأمته ، ولو انه تعلم في حديثه على طريقة قديمة كما تعلم النابغون من حكماء أوربة وعلمائهم في المدارس النظامية ولم يضع ذلك الوقت الطويل في البطالة وفي الطريقة الازهرية الملتوية - لرأينا من آياته العلمية أضعاف ما رأينا ، على ان مارأينا يكاد يكون من الخوارق، فانه لم يكن يتكلم في علم الاوتراء صاحب القدح المملى فيه حتى كأنه هو الواضع له ، فمن شاء أن يقتدي بطريقته المثل من الازهرين وغيرهم فليفعل عسى أن يكون من المفلحين

وأما تريته النفسية فقد علم مما تقدم أننا انه تربى على طريقة الصوفية القويمة الخالية من البدع والخرافات وسلم من أوهامها الخالية حتى ملك نفسه وكملة أخلاقه وصار الدين وجدانا له، فكمل دينه بالجمع بين صحة الوجدان وقوة البرهان . وأهم ما اتفق له تريته الارادة أي ملكة العزيمة والاقدام، فقد كان فيها تسبج وحده في أمته،

وسأني بيان ذلك في الكلام على أخلاقه .

تقدم ان الرجل توجهت نفسه الى العمل والاصلاح قبل أن يصير مدرسا رسميا فبدأ باحياء اللغة ونفخ روح العلم والدين في الازهر ثم ان السيد جمال الدين وجه وجهه الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي فجعله ساعده وعضده في ذلك، فاشتغل بها معه مدة ثم استقر رأيه على ان الاصلاح محصور في احياء لغة الامة واصلاح نفوسها بالترية الصحيحة والتعليم النافع. وسيعلم القارى من هذا الكتاب كيف تنقل في ذلك من حال الى حال حتى كان بدء عمله التعليم في الازهر وخاتمة التعليم في الازهر

المقصد الاول

تدريسه وبدؤه بإصلاح التعليم في الازهر

كان عفا الله عنه قبل أخذ شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التي يحضرونها في الازهر ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ المائنة منهم بعض الكتب فقرأ لهم إيساغوجي في المنطق ثم شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني مع حواشيه ثم مقولات السجاعي بمحاشية العطار وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر، فكفر سواد المجتمعين عليه، وكان يدعوهم الى مطالعة ما لم يودوا من الفنون والكتب، ويفتح لهم أبواب المداكرة والمناقشة ليلا، فكانوا يعالون اسبل ولا يشعرون بطوله، وحين الاذكياء بحسن بيانه ودقة فحوه، وحسنه أناس منهم فسلوا عليه قلب الشيخ عlish فكان ما كان من أمره معه، اذ ذهب ابن للشيخ عlish مع اب آخر فقالوا ان فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية، وقد رجع في دوسه أمسن مذهب المنزلة على مذهب الاشعرية، وكان الشيخ عlish رحمه الله اذنا يصدق كل ما سمع، وكان شديدا الغيرة في الدين حديد المزاج سريع الغضب فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذي لم يكن الشيوخ الكبار يتسامون لقراءته، فأرسل الى الفقيه فجاءه وهو يقرأ الدرس في المسجد الحسيني، فقال الشيخ عlish: بلغني أنك تقرأ شرح العقائد النسفية درساً قال: نعم، قال الشيخ عlish وبلغني أنك

رجعت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية قال : اذا كنت أتترك تقليد الاشعري فلماذا اقلد المعتزلي ؟ إذا أتترك تقليد الجميع وأخذ بالدلائل ، قال الشيخ عlish : أخبرني الثقة بذلك ، قال : هلم الثقة الذي يشهد بذلك فليميز امامنا هنا بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت ، قال الشيخ عlish : أوه تلك يفهم شرح العقائد ؟ قال : الكتاب حاضر وأنا حاضر فسلي ان شئت . فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب مجاور للشيخ عlish المبيب ، وقال بعضهم ان هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته ، وأخذ عمامته عن رأسه ، ولفظ الحاضرون ، فتركهم القيد رحمه الله تعالى وذهب حاسرا عن رأسه . فقال أناس ان الشيخ عlishا ضربه ، وقال آخرون انه منعه من الدرس . وكثرت الاشاعات والاقوال والرؤى والاحلام فيه وفي السيد جمال الدين . والحق أن ما ذكرناه هو كل ما حصل ، وأن القيد لم يمنع من قراءة الدرس ، وقد اشيع ان الشيخ عlishا لا بد ان يمنعه من الدرس باقوة ، واشتهر انه ترك قراءة الدرس في مسجد محمد بك أبي الذهب وأمه في بيته . وقد حدثني انه لم يترك الدرس ولكنه كان يضع بجانبه عصا وقال اذا جاء الشيخ بعكازه فله هذه العصا . وكان من الشجاعة على ما يدهد عارفوه كما سنيين ذلك في الكلام على أخلاقه .

أما تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها ، بل كان هو مبدأ خوض بعض الجامدين في دين كل من السيد الحكيم والاستاذ الامام رحهما الله تعالى حتى عدوا حبس الاستاذ في امر الثورة العرابية كرامة للشيخ عlish ولم يعدوا حبس عlish كرامة له . وسنقتد فصلا خاصا في هذا الجزء نبين فيه انه لم يسلم أحد من أئمة الدين ولا من كبار الحكماء والصوفية من مثل هذا الطعن ، وأنه من مناقب حكيمننا قدس الله روحهما ، وان الذين يتشفون بمثل هذا الخوض من الاعداء والحاسدين ومن يقدم من المساكين والمجانين لو عقلوا لكتموه وسعوا في ازالته

نعم ان ذلك الخوض والتقول مما نزين به تاريخ هذين الحكيمين ولكن لا ننكر أن تأثيره السي . وقع على الامة الاسلامية عامة وعلى الازهر خاصة دون الرجلين الذين لم يحترم الناس من عقلاء الامة الاسلامية ولا من الاجانب أحداً في هذا

العصر من أهل المشرق كاحترامهم إياها - ذلك أنه كان عقبة في سبيل اصلاحهما واستفادة الأمة منهما ، وهما مأجوران عند الله تعالى بحسن نيتهما ، وبذلها جهد المستطاع في خدمة أمتهم وملتهم . وقد كاد يترتب على ذلك حرمان فقيدنا من شهادة العالمية ومرتبة التدريس في الأزهر لولا عدل الشيخ العباسي وإنصافه .
ثم إن دروسه في الأزهر كانت بناءً جديداً للمقائد على أساس البراهين القطعية ، وتجديداً لما يلي من سائر العلوم العقلية ، وكانت حلقة درسه في الأزهر واسعة جداً تحيط بأعمدة كثيرة ، وكان يقرأ في بيته درساً في الاخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين : قرأ في ذلك كتاب (تهذيب الاخلاق) لابن مسكويه الرازي فكان ذلك سبب طبعه المرة الاولى . وقرأ كتاب (كيزو) في السياسة ولا أدري أتمه أم لا .

شعر الأزهر بشي . جديد يتجلى في تلك الدروس ، فهاها كثيرون ، كما أقبل عليها كثيرون ، وحسد الفقيد عليه بعض الشيوخ فكانوا يصدون تلاميذهم عنه ، حدثني صديقنا حقني بك ناصف أنه ما أقدم على حضور درسه في الأزهر الا على سبيل الاكتشاف ، مع مراعاة الحذر والاحتراص ، وانما اكتشف بتلك التجربة كثرًا من التبر ، وغاص في بحر جنى منه أنفاس الدر ، فترك له ما كان يلهو به من الخرف ، أو يخطف بصره من يريق الصدف ، وتبع هذا المصلح فكان من أنفع تلاميذه .

هذا ما كان من أمر الفقيد في الطور الاول من حياته العملية ، وهو وضع جرثومة الاصلاح في الأزهر ، وقد بقي هذا همه الا كبر طول حياته فكان المبدأ والختام ، وسباني تفصيل ما عمله في الأزهر في أواخر أيامه .

المقصد الثاني

تدريسه في مدارس الحكومة

عين الفقيد في أواخر سنة ١٢٩٥ مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم ولعلمو العربية في مدرسة الألسن الخديوية ، فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس .

في الجامع الأزهر، فبدأ دروسه في دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون بأنها مقدمة للتاريخ وإنما كان غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ، فكان يطبق ما فيهم من الكلام على نهوض الدول وسقوطها وشؤون العمران وأصوله على أمته، ويبين أسباب ضعفها، والوسائل التي تذهب به وتميد اليها ما فقدت من عزها وتجدها. وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول في ذلك فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب في هيكله، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده وإعلاء شأن أمته، لأن هذه الأفكار لم تكن مهودة في هذه البلاد، فلا تذكر في المدارس ولا في اجتماع المرء في أذهان جميع الناس وقلوبهم انهم عبيد للحكم لا حقوق لهم عليهم وقد كتب رحمه تدلي في ذلك العهد كتابا حافلا في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ اتقده به بعض ما قاله ابن خلدون واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتماع في هذا العصر من أحكام العمران في العصور الغابرة

وكان في مدرسة الألسن آية البيان في أحياء اللغة العربية واشراع الطريق اللاجب في التعليم، والخروج بالطلاب من مأزق العهد القديم وما نبغ من نبغ من تلاميذ السيد وتلاميذ الشيخ إلا لأنه كان يقصد بتربيتهم وتعليمهم إيجاد نابتة من المصريين تحيي اللغة العربية، والعلوم الإسلامية، وتقيم عوج الحكومة، إذ كانت قد رثت ووهت، ووقعت في النزاع أو أوشكت. عظم فيها سلطان الأجانب، وأحاطت بها سيول الفتن من كل جانب، ففئت الأمة بالمرية والمنفعة، وضربت عليها الذلة والمسكنة، ذلك بما أسرف اسماعيل باشا في الضرائب والمكوس، وتعذيب الأجساد وإذلال النفوس، وقد حدثني بعضهم أنهم عندما كانوا يحضرون دروس الشيخ ومجالس السيد يشعرون بأن في استطاعتهم القيام بكل إصلاح يناط بهم، وأنهم إذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته يصلحونها في أقرب وقت، وقد كان السيد مهد السبيل لهذا الإصلاح باتصاله بتوفيق باشا ولي عهد الخديوية المصرية، وإقناعه إياه بما يجب أن تكون عليه الحكومة إذا آل أمرها إليه، وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة السيد رحمه الله

ظهرت آثار روح الشيخين في أعمال تلاميذها فكان منهم أرقى القضاة

الاهلين والمحامين وأساتذة المدارس العالية ، ومن أشهرهم سعد زغلول ، وإبراهيم
اللقاني ، وحفني ناصف ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد

المقصود الثالث

عمله في إدارة المطبوعات والجريدة الرسمية

في أواسط سنة ١٢٩٧ توجّهت عناية رياض باشا إلى تحسين كتابة الجريدة
الرسمية وجعلها مفيدة مرغوباً فيها من الناس فاستشار الشيخ حسيناً الرصني ومحمود
باشا سامي البارودي كلا على حدته فأشارا برأي واحد كأنهما توأما به وهو جعل
الشيخ محمد عبده محرراً فيها أولاً ففعل بعد أن استرضى توفيق باشا فصدر
الأمر العالي بتمينه محرراً ثالثاً وانتظر رياض باشا مدة من الزمن فلم يرتضيه أي ذكر
فطلب الفقيدوسأله عن ذلك فقال إن أمر الجريدة ليس إلي وإنما أنا أحد المحررين
إن طلب مني شيء كتبته وإلا فلا .

ثم إن رياض باشا كتب من الاسكندرية يأمر قلم المطبوعات في مصر بأن
يكتب مقالة في مالية مصر تلم بشيء من تاريخها الماضي وحالها الحاضر الذي وضع له
قانون التصفية وأن تنشر هذه المقالة في أول عدد يصدر من الجريدة الرسمية وكان
قد بقي له يوم واحد فخاص كتاب الجريدة وحاروا فلم يدروا ما يكتبون ثم اهتموا
السبيل فأرسلوا إلى صاحب الترجمة من أحضره من الأزهر وكلفوه كتابة المقالة فكتبها
في مجلته ونشرت فلما قرأها رياضي باشا أعجب بها أشد الإعجاب وسأل عن كاتبها
ف قيل له هو فلان فزاد عجبه أن وجد في الأزهر شاب واقف على تاريخ المالية في
مصر عارف بجميع شؤونها قادر على بيان ذلك والافصاح عنه . ويقول بعض مريدي
الاستاذان رياض باشا طلبه وكانته كتابة تلك المقالة في بيان الغرض من قانون التصفية
وفائدته للبلاد وأما الرواية الأولى فقد سمعتها من الفقيدو لملها واقتتان لمقالتي .
وفي أواخر هذه السنة طلبه رياض باشا وسأله عن رأيه في إصلاح الجريدة اذ علم أنه
ابو عذرتها ، والمنفذ لما يرجو من ترقية ، فبين له رأيه في تقرير ضاف فأمر بان
(م ١٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

تؤلف لجنة للنظر في التقرير من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير، وأن توضع لأئحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة فكان ذلك ، وعين الفقيد رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية وسمي « المحرر الاول » لها ، فاختار لها من المحررين المهرة الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول (هو سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف لهذا العهد) والشيخ ابراهيم الملباوي (هو ابراهيم بك المحامي الشهير الآن) والشيخ سيد وفا (رحمه الله) وهم ممن كانوا قد برعوا في الكتابة معه على يد السيد .

ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان مالم يخطر على قلب بشر ، وهو ان رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهيناً على الحكومة والامة ، ينتقد الاعمال والاقوال . وينتقل بالناس من حال الى حال

وضع لأئحة لقلم المطبوعات أو للجريدة الرسمية اجازها وانفذها رياض باشا فكان من احكامها ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها ومجالسها في العاصمة وغيرها مكلفة ان تكتب الى ادارة الجريدة مخبراً بما علمت فتمت وما شرعت فيه فلم تتمه ، وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج احكامها ، وأن لادارة الجريدة الحق في انتقاد كل ما تراه منتقداً من الاعمال ومن المكتوبات الرسمية ، وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والاجنبية التي تصدر في اقطار المصري ، وأن تبحث عن حقيقة ما تقول في رجال الحكومة وأعمالها . وعلى الحكومة مساعدتها على ذلك بمعنى أنه اذا نشر في بعض الجرائد ما تراتب ادارة المطبوعات فيه فإن لها أن تسأل المصاححة او الادارة التي يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة لداخلية إن لم يكن ما نشر مستنداً الى النظارة وإلا سألتها هي مباشرة . فان كان حقاً ما نشر في الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذة من نسب اليه الذنب وذكر ذلك في الجريدة الرسمية . وإن كان كذباً طواب مدير الجريدة باثباته وإلا أنذر . وكان من احكام قانون المطبوعات انه اذا تكررت ائذاء جريدة ثلاث مرات يمنع اصدارها البتة أو الى الاجل الذي تراه الادارة

وكان من حق هذه الادارة أن تفصل في كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلاً لا تجوز المناقشة فيه . وكان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية

أن يجمع فيها قسماً غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعاً من المقالات الأدبية (ويدخل في الأدبية الاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك) ومن أحب أن يعرف قيمة هذه المقالات في ارشاد الأمة والحكومة فليرجع الى ما نشرناه من مقالاتها في منشآت الاستاذ في الجزء الثاني من هذا التاريخ

ان في هذا لمبة لاولي الالباب — صاحب عمامة أزهرية يدخل في حكومة مطابقة بعيدة في أعمالها عن رجل العلم والدين فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحكماتها مصالحها ما يلبسون ويرشدون الى اصلاح العمل فيما يعملون . ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الأمة فيتوهم من أخلاقها ، ويصاح ما فسد من عاداتها ، بالوعظ الصحيح ، والارشاد القويم . ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلم احسن التحرير ويريبها على الصدق في القول ، ويجعل للصادق منها سلطاناً نصيراً ، وتأثيراً ماثوراً ! يالها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتى حسدتها الطرايش ، وهابتها التيجان وعظمتها البرانيط . ونذكرها على سبيل الفكاهة ان بعض الكبراء رغبوا الى الاستاذ الامام في ذلك العهد ان يستبدل الطربوش بالعمامة لان صاحب العمامة لا يرتقي الى مراتب الرؤساء والنظار كصاحب الطربوش فأبى عليهم ذلك فأردوا الاستماتة عليه برياض باشا فوهوه انه يميل الى ايس الطربوش ولكنه لا يلبسه إلا بأمره فسأله فظاهر له أنه لا يرغب في ترك زيه وأنه اذا ألزمه ذلك الزما فانه يمثل مادام في عمل الحكومة . فاذا خرج من عمله عاد الى عمامته فقال رياض باشا كلا انني لا أَرْضِي لك الطربوش لانني أحب ان يعلم الناس انه يوجد تحت العمامة من العقول والافهام مثل ما يوجد تحت الطرايش وغيرها فلا در رياض باشا وجزاه الله الخير فانه هو الذي أحضر السيد جمال الدين ومكن له في أرض مصر وهو الذي كان السبب في ظهور مواهب الشيخ محمد عبده في اول نشأته حتى إنه حكمه في انتقاد نظارة الداخلية وهو أحد العمال المتوسطين فيها

كان من أثر مراقبة ادارة المطبوعات للجرائد أن اجتهد اصحابها في انتقاء المحررين وقد أنذر القعيد عامله الله تعالى باحسانه مذكر جريدة شهيرة بمنع جريدته

إذا لم يختار لها محرراً صحيح العبارة في مدة عينا فبادر ذلك المدير إلى الامتثال ولم يكن يأذن بطبع كتاب من الكتب الضارة . وكان من أثر انتقاد كتاب الحكومة في الجريدة الرسمية أن نبه شأن المجيدين ، وفتحت مدارس ليلية لتعليم المقصرين وتبرع تعمده الله برحمته بقرأة درس في بعضها . فهذا هو مبدأ النهضة القلمية الحقيقية في مصر ، فالفضل فيها للسيد جمال الدين وللشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى وأما انتقاده أعمال الحكومة فكان من أسباب تحريك الحق والعمل والاجتهاد في اصلاح كل نظارة ، وكل مديرية ومحافظة ، وقد ثنل على بعض المديرين انتقاد الجريدة اياه وأراد منها من مديريته وراجع نظارة الداخلية في أمرها زاعمان انتقاد أعماله يضع من قدر الحكومة في أعين الرعية ، فعادت عليه شكواه بضد ما أراد ، وعلم أن ساطة الجريدة الرسمية ، فوق ساطة المديرية

وقد عني الفقيد يومئذ بنفسه بانتقاد نظارة المعارف ومثل مساوي التعليم والتربية في مدارسها شر تمثيل ، فضايق ناظر المعارف لذلك العهد ذرعاً ، فلاذ برياض باشا شاكياً من الجريدة الرسمية ، فقال له رياض باشا إن كان ما كتب حقاً فلا وجه للشكوى منه ، وإن كان باطلاً فليكن أن تبين ذلك بالدليل والبرهان وفلان ينشره في الجريدة الرسمية نفسها ، فإنه لا يقصد بما يكتب فيها إلا المصلحة . فسكت الناظر واجماً ، وكان ذلك سبباً لما ترى في المقصد الرابع ، من المشروع في إصلاح نظارة المعارف

المقصد الرابع

(عمله في مجلس المعارف الأعلى)

اقتنع رياض باشا بما في نظارة المعارف من الخلل وعلم أن ما يكتب في الجريدة الرسمية حق فذاكر الفقيد في ذلك وفي وسائل تلافيه فأشار أولاً بأن يستبدل بناظر المعارف ناظراً آخر أقدر منه على الاصلاح المطلوب ، فقال له الوزير إن الوزارة متكافلة لا تستطيع أن تفتح للخديو باب التغيير والتبديل فيها ، فعرض عليه حينئذ أن يكون للمعارف مجلس أعلى يكون له الحكم الفصل في إدارة المعارف العمومية ويكون الناظر منفذاً لما يقرره فأنفذ ذلك رياض باشا باستصدار الامر العالي الآتي

وجعل صاحب الترجمة عضوا في هذا المجلس فكان له فيه الاقتراحات النافعة ولولا كثرة ما جعل فيه من الاعضاء الاجانب الذين كانوا يعارضون المشروعات النافعة للبلاد ثم حدوث الثورة لارتقت معارف البلاد في ذلك العهد ارتقاء عظيما .

صدر الامر العالي بتشكيل هذا المجلس في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ وهذا نص الامر العالي به وما كتبه ناظر المعارف الى صاحب الترجمة في ذيله نقل من الاصل الرسمي المختوم بختم الناظر وهو :

ترجمته

أمر عالي (?)

نحن خديوي مصر

بناء على ما رفعه لنا ناظر المعارف العمومية ومرافقة رأي مجلس نظارنا أمر بما هو آت :

قد تشكلت تحت رئاسة ناظر المعارف مجلس أعلى للمعارف العمومية مركب على الوجه الآتي :

ناظر الاشغال العمومية	علي مبارك باشا
ناظر الحفانية	حسين (فخري) باشا
مدير وكوميسارى صندوق الدين العمومي	موسيو موني
باشكاتب عموم التفتيش العام	موسيو ليرونه ديرول
رئيس عموم أركان حرب	استونه باشا
وكيل نظارة المعارف العمومية	عبدالله باشا فكري
ناظر المدارس الحربية	لاري باشا
رئيس مجالس الصحة العمومية	الدكتور سالم باشا سالم
ناظر مدرسة الطب	جالياردو بك

مسيو جاستون ماسيرو	ناظر دار الآثار القديمة (الانتقخانة) ومدير
موسيو موجيل	عماليات الحفر والبحث في جوف الارض
اسماعيل بك الفلكي	ناظر مدرسة المعلمين
روجرس بك	ناظر مندرسة المهندسخانة
فيدال بك	ناظر قلم الاملاك الميرية المعروضة للبيع
جيجون بك	ناظر مدرسة الادارة
اسييتا بك	ناظر مدرسة العمليات
موسيو مونتان	ناظر السكتبخانة الاهلية
صادق بك شن	ناظر دروس المدرسة العالية
الدكتور عثمان بك غالب	ناظر مدرسة التجهيزية
الشيخ حسين الرصفي	وكيل مدرسة الطب
الشيخ محمد عبده	خوجه بمدرسة المعلمين
الشيخ زين الرصفي	محرر أول الصحيفة العربية الرسمية
الشيخ حسونه	عالم
موسيو بارنار	خوجه بمدرسة الادارة
	خوجه بمدرسة اللسن

بند — ٢

يمطي المجلس المذكور رأيه في المواد الآتية :

أولا في مشروعات القوانين واللوائح المختصة بالتعليم وخصوصا في جداول مواد التعليم بالمدارس الميرية
 ثانياً فيما يتعلق بإنشاء مدارس جديدة
 ثالثاً فيما يختص بتوزيع مايمطى من النقود على سبيل الاعانة والتشويق
 للمدارس الغير ميرية

رابعا فيما يتعلق بكتب التعليم التي تستعمل في المدارس الميرية
 خامساً في جميع المسائل المختصة بضبط ووربط المدارس الميرية وحساباتها وادارتها

سادسا في المسائل المتعلقة بمحقق وترقي المعلمين
سابعا في غير ماذكر من جميع المسائل التي يقدمها له ناظر المعارف العمومية
بند — ٣

على ناظر المعارف أن يقدم في كل سنة للجلس الاعلى صورة ميزانية المعارف
العمومية عن السنة التالية وعند تقديم هذه الميزانية لمجلس النظار ينبغي أن تكون
مصحوبة بما يبيده المجلس الاعلى من الملاحظات فيها بعد نظره اياها

بند — ٤

يجوز المجلس الاعلى أن ينتدب واحداً أو أكثر من أعضائه إماماً لمحقق الواد
التي تعرض عليه أو لتفتيش على المدارس الميرية أو المدارس الغير ميرية المربوط
لها مرتبات على سبيل الاعانة من طرف الحكومة

بند — ٥

على المجلس الاعلى أن يقرر وينشر في آخر كل سنة تقريراً عن حالة التعليم
في المدارس الميرية

بند — ٦

ينعقد المجلس المذكور بناء على طلب ناظر المعارف العمومية ويكون انعقاده
مرة واحدة بالاقبل في كل شهر ماعدا في مدة البطالة (؟)

بند — ٧

لا تكون مداوالات المجلس المذكور صحيحة ومعتبرة الا اذا كن حاضراً به
تسعة من أعضائه لأقل وتكون قراراته بأغلبية الآراء

بند — ٨

على ناظر المعارف تنفيذ أمرنا هذا
صدر بهراي عابدين في ٢٨ مارث سنة ٨١ — ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨
بأمر الحضرة الفخيمة الخديوية
رئيس مجلس النظار

ناظر المعارف

(امضاء) (رياض)

(الامضاء على ابراهيم)

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده

المسطر بهذا الترجمة الامر الكريم ^(١) الصادر بتشكيل مجلس أعلى للمعارف وحيث ان حضرتمكم من ضمن أعضاء المجلس المذكور فلزم تحريره للمعلومية بما اشتمل عليه الامر والحضور لديوان المعارف الساعة ٩ افرنجي صباحا في يوم الخميس الموافق ١٥ جا سنة ٩٨ حيث سيكون انعقاد اول جلسة في "اليوم المذكور" ١١ جا سنة ١٢٩٨

ناظر معارف
الحتم

٣٦٠
—
٣٥
رة

هذا نص ما بلغه صاحب الترجمة بحروفه ، وخاتم ناظر المعارف منقوش فيه قوله تعالى (والله غالب على أمره) لا اسمه — ويرى القارى ان الاعضاء الاوربيين أكثر من الوطنيين في هذا المجلس

في هذا المجلس تألفت للنظر في اصلاح طرق التعليم والتربية في جميع المدارس جعل القيد الكاتب العربي لجلساتها وكان له فيها الاراء الصحيحة والحجج القيمة على ما يطلب من الاصلاح

اذكر من اقتراحاته شيئا سمعته منه ولا ادعي أنني أحطت بتفصيله كل الاحاطة وهو أنه اقترح مرة على المجلس ان يطلب من الحكومة مبالغاً عليها من المال يوزع على المدارس الاجنبية مكاناً لها على خدمة العلم ونشره في البلاد ، فهش الاعضاء الاوربيون لهذا الاقتراح وعارض فيه بعض الاعضاء الوطنيين ووافق عليه الآخرون الذين عرفوا ما يرمي اليه المقترح فتمت زبناً كثيراً لآراء. ثم انه اقترح في جلسة أخرى أن يقرر المجلس وجوب جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر مفتشوا النظارة في نظام التعليم وسيره فيها فهش الاعضاء الوطنيين لهذا الاقتراح وعارض فية الاجانب ، فأقام عليهم الحجة بأن جميع الدول الاوربية تراقب جميع المدارس التي تأخذ منها اغانة وتفتش مدارسها اذ يجب على الحكومة ان تعلم أنها لا تضيع دراهمها بل تنفقها فيما ينفع بلادها . فقال بعضهم ان هذا قول حق وانما نعارض

(١) قرارات مجلس النظار المصري تصدر باللغة الفرنسية الى الآن وتدوينها

وترجم بالربية

الآن في هذا الاقتراح لا نناضل أن المعارف في مصر منحلة وأما اجتماعنا لتزقيتها، وأرباب المدارس الأجنبية مرتقون في العلوم والمعارف ولا يصلح الأدنى للإشراف على من هو أعلى منه ولا المنحط للحكم على المرتقي . فقال الفقيه رحمه الله تعالى للمعتز : كان يصح هذا الدفاع لو لم تكن أنت ورفاقتك الاوريون المرتقون من أعضاء مجلس المعارف المصري ، على انه اذا كان الطلب في نفسه حقا وعدلا فلا يصح أن يرفض لأن المعارف العمومية لم ترتق في البلاد المصرية . فان عدم ارتقاء المعارف وانتظام المدارس لا ينافي وجود أفراد من الموظفين في النظارة من الاوريين أو المصريين المتعلمين في مدارس أوربة العالية يصلحون لتفتيش المدارس الأجنبية : فنهضت حجته وتقرر اقتراحه . وانها لأمنية كان يتلخر على ذكرها السلطان والامير ، وبسبيل لتوهمها لعاب الناظر والوزير ، ولكن تقف دونها الآمال حسرى ، وتنحني أمامها العقول حيرى ، وتكبو في غايتها جياذ السياسة ، ويصغر عن الطمع فيها أهل الرياسة ، ثم تسمو اليها تلك الهمة ، وتستنزله من أعلى القمة ، ولولا الفتنة العرابية لجعل لنا ذلك العضو أو الكاتب ، سيطرة على مدارس الاجانب ، على ما كان لهم في ذلك الزمان ، من النفوذ والسلطان ، فكيف لو كان ذا منصب أعلى ، ونفوذ أقوى ؟

المقصد الخامس

عمله ورأيه في الثورة العرابية

علم مما تقدم ان البلاد المصرية كانت في أواخر إمارة اسماعيل باشا في ظلمات بحر من الظلم لحي يشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض — ظلمة الجور والظلم ، وظلمة الفقر والفاقة ، وظلمة الشرور وفساد الاخلاق ، والآداب ، وظلمة تحكم الاجانب وسيطرتهم على الحكومة بحجة المراقبة المالية للمهم من الديون على اسماعيل باشا ، وظلمة سلطنتهم على الرعية التي أغرقتها في الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجزى ، وكثرة الضرب وسوء الجزاء . وكان يظهر من غمرات هذه الظلمات بصيص من النور في مواضع مختلفة لمعت جذوة منه في الازهر فنفخ (م ١٩ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

الشيخ عlish نفخة أخذتها ولكنها ما أطفأتها، ثم كان هذا النور يظهر في ماهد خاصة فتعشو اليه الابصار، ويسير في ضوءه من سار، حتى أشرق وتلاأ في ادارة المطبوعات، وانتشر نوره في سائر الجهات، وكان ماكان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الاصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأمرهم الجديد (توفيق باشا) لعفته عن أموالهم، ورغبته في اصلاح حالهم، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) واذا بناجم الفتنة قد نجم، وطائر الشر قد وقع، اذهب ضباط الجيش من المصريين بطلون بمحقوقهم، وأيديهم على مقابض سيوفهم، وتلك هي ما يسمونه بالثورة العراقية

كان استاذنا في أول أمر هذه الثورة كارها لما مند ابزعمائها وهو ينهم، لانه كان يعلم انها تحبط عمله الذي مضى فيه، وكل اصلاح لعمله الحكومة أو تنويه، وأنها تمهد للاجانب سبيل الاستيلاء على البلاد، بل كان هو واستاذة يتوقعان ذلك من سيرة اسماعيل باشا، وقد صرح السيد بذلك في خطبه وفي بعض ما كتب وطبع لذلك العهد، وحاول ان يحول دون ما يخشى ويتوقع بالذمي في الاصلاح، فليس قولنا عن استاذنا أنه كان لا يحمل خطر الثورة من الدعوى أو الرجم بالغيب، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من العارفين بما كان. كان ينتقد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا في أنديتهم وسمارهم وبالكتابة في الجريدة الرسمية، حتى أرسل اليه عرابي مرة من يتهدده ويقول انك أهنت الشرف العسكري بما كتبت عن الجيش ورواياته. أرسل اليه ضابطين الى قلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما اذا هما لم يخرجوا، حتى صار عرابي وأعوانه ينفذون من المجالس الذي يدخل فيه

زار مرة طلبه باشا في أيام عيد الفطر فاذا بعرابي وأعوانه جلوس يتكلمون في الاستبداد والحرية، والحكومة الطائفة والحكومة النيابية الدستورية، واتفقوا على أن الامن على الارواح والاوال، وصعود الامة في مراقي الكمال، من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال، وان هذا التحويل قد آن في مصر أوانه، وأدركها إبانته، فعارض الاستاذ في ذلك وقال ان أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال

يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيزية، وحمل الحكومة على العدل والاصلاح، ومنه تعويدها الاهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتها اياهم في الامر بمجالس خاصة تنشأ في المديریات والمحافظات ، وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بما له قبل بلوغه سن الرشد وكال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد . ففطوق عراقي يجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحرية، وكان مما احتج به الفقيد عليهما أن الامة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في ادارة شؤنها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لانه ليس تصويرا لاستعداد الامة ومطلبها، ويخشى ان يجر هذا الشعب على البلاد احتلالا أجنبيا يسجل على مسبيه اللعنة الى يوم القيامة .

عند ذلك أبدى المجادل نواجذه لغير تبسم ، وقال أرجو أن لا أستحق هذه اللعنة، وليس الجند هو الذي يطلب مجلس النواب ولكنه مؤيد لطلب أعيان البلاد ووجهاتها ، ثم أسر الى الاستاذ أن سلطان باشا جمع الاعيان لهذا الطلب .

وقد كتبنا في ص ٥١٢ من مجلد النار الرابع (مجلد سنة ١٣١٩) ردا على صحافي عرض بأن الاستاذ الامام كان من أركان الثورة العراقية نذكره هنا وهو « عرض هذا الانفجاني المنذوق بذكر الفتنة العراقية وباليته كان يعرف حقيقة الفتنة العراقية ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال فهو لا يعرف ولا يجب أن يعرفه فاذا أحب فليسأل العارفين ، وإبراج كتاب الكاتبيين ، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين ، يظهر له أن هذا الرجل الكبير العقل البعيد الرأي كان ينتقد أعمال عراقي ونهوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الادبي منها على حين ترتعد فرائص قصر الخديوية من عراقي ، وعلى حين يرى هذا المنتقد الشجاع ان رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عراقي مكرها ويسمع من أتباعه ما يكره . ثم تظاهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة العراقية عند ما ألزمه حضور مجتمعتهم وان يقوم فيهم خطيبا .

« ماذا كان موضوع خطبته ؟

« كان موضوعها يانا تاريخيا اجتماعيا ملخصه أن المهود في سبر الام وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها والزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام ، وانه لم يهد في أمة من أم الارض ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك ، فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ (قال) فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سبر العالم الانساني ، أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم ونساووا الصماليك حبا بالعدالة والانسانية ؟ أم تسيرون الى حيث لا تدرسون ؟ وتعملون ما لا تعلمون ؟ : وأمثال هذا الكلام الذي فهمه بعضهم فطفقوا ينفضون رؤوسهم وعلا على أفهام الآخرين

« هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في أعظم مجتمعات لرؤساء العراقيين ولو كانوا ينفقون لرجعوا به الى رشدهم ، ولكن الامة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم ولما نستعد الى الآن ، ولهذا الاستاذ ان يتأمل بقول ابن الفارض رحمه الله تعالى
« ونهج مبلي واضح لمن اهتدى ولكنها الاهواء عمت فأعمت » اه

هذا ما كتبناه في سنة ١٣١٩ ويزيد عليه الآن أن عرابي ورجاله حققوا على الاستاذ وكاشفوا المرحوم السيد أحمد علي محمود والمرحوم ابراهيم افندي الوكيل وكانا من أعضاء مجلس النواب ومن أخص أصدقاء الاستاذ بما أضمره له من السوء فأعدا احتفالا في منزلها بقصر الشوك دعيا اليه كل ذي جاه ومقام ايصالها ذات البين بين الفريقين ، وتوالى الخطباء هنالك حتى جاء دور الاستاذ وقام ليعتذر عما مضى ففسر مقصده من الخطبة السابقة تفسيراً كان أسوأ تأثيراً في نفوس العراقيين مما كانوا يقومون منه وحقنوا عليه لاجله .

ولا يلتبس على القارئ معارضة الاستاذ الامام للعراقيين في مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعي الثاني الى ذلك بعد استاذه وأول من

تلقى ذلك عنه، فانه إنما كان يحاول أن يكون ذلك برضا الامبر وحكومته لا بالخروج عليه، وأن يكون في البداية من قبيل التمرين والتعويد، مقرونا بالثرية والتعليم الى أن تبلغ النابذة الجديدة أشدها، وتصل من طريق الحكمة الى رشدها، وقد رأيت كيف كان التوصل اليه منه، فيما رويناه لك عنه، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالاصلاح عند مهب الفتنة، ويأجأ الى قصر الامارة أو يتفأ ظلال العزلة، لانه في فكره وسط بين الطرفين، وفي عمله بين المصلحتين، وقد قال لعراقي مرارا كثيرة: عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضن لك أكثر مما تطلب في بضع سنين، ونهاء بمد ذلك عن محاربة الانكليز

انتهت الثورة بالاحتلال الانكليزي وقبض على زعمائها وألقوا في غيابة السجن ليحاكموا فيقتلوا تقتيلا، وجعل القيد منهم لأمرأى، وصدر الأمر بأن تكون محاكمتهم بالقانون الانكليزي، وعين لهم محام انكليزي جاءهم فسمع منهم، وكلفهم ان يكتبوا دفاعهم بأيديهم، كل يكتب عن نفسه، ولا يظن في غيره؛ فلم يرفي كتابة أحدا ما تقوم به الحجة، وتقدم به التهمة، ويدل على الغوص في أعماق الحوادث، والاحاطة بما لها من الاسباب والنتائج. الا ما كتبه وما قاله الاستاذ الامام، وقد زاد المحامي على بيان ذلك أن أشعره بالخفايا، وأطلعته على ما في زوايا القصر من الخبايا، كقوله ان الحاشية خاطبت محافظ الاسكندرية بلسان البرق بكذا في يوم كذا وعدد كذا بأن يفعل كيت وكيت. وأعطاه من المستندات ما يقلب وجه المسألة، ولا ترضى اظهاره السياسة، فكان ذلك سببا لتخفيف الحكم، ونسخ اعدام الزعماء بالنفي، فحكم على عراقي ورفاقه المعروفين بالنفي الابدي وعلى صاحب الترجمة بالنفي ثلاث سنين. وقد كان النفي بلاء وشقاء على كل من المنفيين حاشا الامام فانه كان رحمة له ونعمة عليه، ومزيديا في كمال علمه وتربيته، وسببا لشرعه في بلاد كثيرة، ذلك أنه كان من أهل الاخلاص والتقوى، فجعل الله تعالى له من كل ضيق فرجا ومخرجا، بل بدله بالثقة نعمة، والسيئة حسنة، فكان مبدأ حياة جديدة له نينها في الفصل الذي يلي هذا

هذا ما كنا كتبناه في النار ونزيد عليه هنا ما يلي :

﴿ قصيدة الفقيد في الثورة العرابية ﴾

أصبح الدلائل على رأي الإنسان في أمر من الأمور أو حدث من الأحداث وعلى موضع ذلك الشيء من شعوره ووجدانه ما يكتبه بشأنه في أثناء وقوعه ، وقد نظم صاحب الترجمة قصيدة في شأن هذه الثورة وهو في السجن صور فيها كل ما كان في دماغه وقلبه في ذلك الوقت ، إذ كانت نفثة مصدور ، وشكوى مظلوم ، وأمانى مصلح لم يدركه أهل زمنه ، فانهموه بضد ما كان عليه في نفسه ، ولو كان فقيدنا من الشعراء ، أو استمال بقصيدته أمير البلاد أو أصحاب السلطة العسكرية فيها ، أو اعتذر عن عمل عمله ، لا يمكن لمن لم يعرف أخلاقه أن يقول إنه قال غير ما يعتقد ويشعر به لاستمالة أصحاب السلطة اليه ، توسلا به للأفراج عنه . ولكن القصيدة كما ترى ، وهو لم ينظم الشعر قبلها ولا بعدها ، إلا تلك الأبيات التي قلها في مرض موته وقد سارت بها الركبان ، وحفظها الألوف من الناس . وقد قال لي إذ أنشدني إياها اتني قلت شعرا في هذه الأيام كأتني لا أقول الشعر إلا في المرض أو السجن (يشير إلى هذه القصيدة)

وقفت لنا نسخة من هذه القصيدة فيها غلط وتحريف وتصحيف ، فما عرفنا أصله باليقين صححناه ، وما لم نعرف أصله تركناه ، وهي :

دَهْرٌ يَسَالَعُ فِي عَجَبٍ وَفِي تَيْهٍ	مَالِي يَعْثَفُ قَلْبِي مِنْ تَغَاظِيهِ
زُرْقُ الْأَفَاعِي وَقَدْ شَدَّتْ أَيْدِيهِ ^(١)	أَيْتُ لَيْلِي كَمَلَسُوعُ تَسَاوَرِهِ
وَالْقَلْبُ فِي فَرْغٍ مِنْ خَوْفِ آتِيهِ	الْجِسْمُ فِي أَلَمٍ وَالرُّوحُ فِي قَلَقٍ
يَأْتِي الدُّنْيَا وَأَفْكَارُ تَضَاهِيهِ	وَمَا ذَنْبِي لَدَى دَهْرِي سِوَى شَمِّهِ
عَلَى أَسَاسٍ مِنَ التَّقْوَى أُرَاعِيهِ	سَرِيَتُ الْمَجْدِ هَوْنًا غَيْرَ ذِي عَجَلٍ
وَشِمَّةُ الْحَرِّ تَأْتِي خَفْضَ أَهْلِيهِ	مَجْدِي بِمَجْدِ بِلَادِي كُنْتُ أَطْلَبُهُ

(١) الأيادي جمع الأيدي وهي جمع يد ، وأكثر ما تستعمل الأيدي في النعم وصنائع المعروف ولعله يشير إلى عجزه عنها في تلك الحال

وإذا أحسنَ عداةَ الفضل مشيتنا
فأوقفوني شهورا في مقاومة
وازددت بسطة جاه لم يَنْ بها^(٢)
أزلت نفسي مقاما لا يحفُّ به
وقت للحق أجلوم من مطالعه
وأبرز الفكر كثرًا من جواهره
وصحّت يا ظلم لا تطرق مغائنا
نفرًا كلُّ غشوم واجفًا صمًا
وكنّت أسهر ليلي في مطالعة
أنعم به من سهاد كنت آله
وكان لي أمل في وضع قاعدة
ويؤخذ القوم طرا في مناهجهم
حتى يكون نظاما كل سيرهم
ويأخذ العلم والتهذيب مأخذه
ويصبح العدل طبعًا في جبلتنا
وتستقلّ بلاد في حكومتها
ويشمل الخصب انحاما بجملتها

قاموا على قدم: هيبًا تنالوه^(١)
نجوت منها بعزم هيب ماضيه
سوى مضيم ومظلوم أنجيه
الا الفضائلُ تعلية وتغليه
نورًا وكان غمام الظلم يحقيه
وزين النطق بأهيا بحاليه
[رياض] راع وعالي من حواريه^(٣)
وارتج كل ظلوم خيفة «الهي»^(٤)
ونثر در لتبيان أوفيه
وأبفض الشمس تُنثي عن وصاله
لكل نوع من الاعمال تحويه
أن لا يجوز راعن المشروع أوفيه^(٥)
بمقتضى الإيف مع فهم تركيه
من النفوس فترهو من دراربه
ويشهد الكون أنا من مواليه
وننم الترك مفروضا تؤديه^(٦)
ويثري القطر قاصيه ودانيه

(١) أصله تناوته بالهمز أي تقاديه (٢) أصل هنا (٣) حواريه بتشديد الاء أنصاره وخفف لضرورة الشعر (٤) هيب اسم صوت كان يردده رياض باشا دائما بغير قصد، وأدخل عليه حرف التعريف لقصد لفظه، والمعنى خوفا من ذلك الوزير (٥) جار عنه عدل وانحرف وجر في الحكم وفي الامر ظم أي بأن لا يتحرفوا عنه ولا يظلموا فيه (٦) قد كان موافقا لرجال الثورة في هذه المسألة

نقضي ديونا وننشى من ينازعنا
هذا سبيلي خبيت السير فيه على
ما كنت أسعى لنفسي في مصالحها
وكنتم أنجح قومي في مكالمته
وتنهض العزم أقوالي ولا عجب
أقاوم الصعب في سيري فأخضعه
وانما الفكر يغني نفس صاحبه

*

وينا أنا لاه في محادثتي
قامت عصابات جند في مدينتنا
ذاك الذي أنش الآمال غيرته
قاموا عليه لأمر كان سيدم
كان الرئيس حليف العدل منقبة^(٤)
جرؤا مدافعهم صفوا عساكرهم
فنال ما نال وانقضت جموعهم^(٥)
ثمالب الشر هبت من مراقدها
تفلت الحكم من أيدي مدبرة

(١) لعل البيت محرف (٢) الضمير راجع الى السبيل وهو يذكر ويؤنث (٣) هذه جملة محكية تستعمل في مصر عند إتمام الكلام وإرادة الشروع في غيره (٤) الرئيس رياض باشا أي كان العدل منقبة راسخة فيه لا متكلفا (٥) أي نال سيد الجند عرابي ما نال من عزل رئيس الحكومة رياض باشا

مانوا أمانى تبكيني وتضحكني
 حديثهم صخب أسرارهم لجب
 أما سبيلي فقد سدت منازعه
 رجعت أجري على خوف لمبدئه
 فغنغفوني وراموا خفض منزلي
 وعجت أسأل ماذا في حقائبكم؟
 هزوا الرؤوس جوابا أي نعم معنا
 فلولات مهجتي حزنا على وطني
 وصفت من كلمي شمسا تكاشفهم
 فأنكر الجهل ضوء الشمس ضاحية
 لووا رهوسهم عجبا بقوتهم
 مزجت بالهزل جدي عل يجيبهم
 وأعجم القول طورا في مناصحتي
 وعند ما حقت البلوى أثمرت لهم
 فلم يصيخوا وعجوا في محاضرم
 ولم يزالوا حيارى في ترددم
 وشب حربا صلاها من بني وطني
 وسح كل غني ماء ثروته

(١) مانوا كذبوا والاماني جمع أمنية وهي ما يستنمى الإنسان ويطلق على الكذب
 أي اختلفوا لانفسهم أمانى زعموا انها مطالبهم وهي الحرية ونظام الشورى المالي في
 الاحكام. ولفظ الشورى يختص فلا يمد لمراعاة الوزن (٢) أى لا يلاقيه ويحتمل أن يكون
 لا يوانيه (٣) كان موضع كلمة خطب يا ضامن كتب فيه بقلم الرصاص كلمة (سال)

سوعج كل فقيه في تضرعه
 والمسلمون وكل القبط في نهج
 نادوا بأجمعهم هذى مواطنتنا
 وبينما الظفر معقود بوحدهم
 واستدبر الجيش واستدعى لحضرته
 وقال أقدم فلا حرب ولا حرب
 فراهب الرب وانهارت عزائمهم
 وخالف الأمر واستعصى بقوة
 وصار جيش السدا جيشا لحاكمنا
 فاحل عقد نظام كان ملثما
 هذا وهذا الى ما كان من دخلي
 وزاد في الضعف ضعفا أن قرتنا
 وقائد الجند شهم في مكالمة
 يستطاع الرأي والتدبير في حُلم
 ما كان أحسنه شيخا بزواية
 أما البلاد فوانمي لحالتها
 واستنزفت طلبات الجند زورتها
 كما تفتقر قلبي من عواذيه
 مع اليهود كان لا دين بأوبه
 وطارق السوء فيها لا تخليه
 مال الأمير لأمر كان ينويه
 زعيم عسكره يبلو مغازيه
 فليصرف الجيش فورا لاتبقيه
 إذ كان جيش السدا بالفر ماليه
 وناصب الثمر مولى القطر واليه
 وقرة الملك تحمي وجه عاذه
 وبدد الرأي وفهم كان يوهيه
 في أنفس من كبار الجند تطويه
 ناس يرى ضبطهم صعبا تلافيه
 أشل قلبا إذ الهيجا تناديه (١)
 من المنامات جل الله هاديه
 ينشئ النساء بوعظ كان يمليه
 لم يبق فيها سوى أمر وتنيه (٢)
 واستأسد الذئب واشتدت عواذيه

(١) يعني ان عرابي باشا كان شهما أي ذكي الفؤاد عند الحديث ومكالمة الناس
 ولكنه جبان اذا نادته الهيجا أي الحرب الى القتال يصاب قلبه بالشلل ، وفيها
 كتبه الناظم في أسباب الثورة ومذكراتها بيان لذلك مؤيد بالحوادث (٢) أي لم
 يبق فيها سوى أوامر الجند تنفذ بأقوة ونذرهم التي يسمونها تنبيهات

حكام أريافها هاضوا بأجمعها
 مهاجرو الشمر زادوا في مصائبها
 ماذا أحمل نفسي في مداركي
 أظل يومي وأمسي في مناضلة
 وسقت من منطقي جيشاً أروع به
 حوائج الناس هالات على قري
 ونجح الجند مني في وقايتهم
 ولا جزاء أرجيه سوى ألم
 والناس قسمان قسم همه نسب
 وبينما الناس أحزاب وأغلبهم
 ساق النظام على الأشتات عسكره
 منا قتل ومنا هائم جزعا
 في موقع الشرق كانت شر هزمتهم

واستفرغوا من فقار الظهر شوكة (١)
 قوم جياع وباع العقل شارب (٢)
 هذا البلاء بتخفيف يسره (٣)
 مع الاهالي لدى من هم مراميه
 قلب السكي فألميه وأدنيه (٤)
 وليس في الناس إلا قاتل هيه (٥)
 ويقسم الظلم مذعوراً طوائفه
 يلم بالقلب والانجياز يشفيه
 وآخر همه العلياء تطريه
 من المنين (٦) يشدو باسم مسميه
 فصبح التل طود من سواريه (٧)
 قلبي الجريح فهلا من يداويه؟
 والشرق ضأن وذئب الغرب راعيه

(١) هاض العظيم كسره بعد الجبر والظاهر ان المراد هاضوها أى الارياض
 بمعنى أهلها . وكان يمكن أن يقال * حكام أريافها هاضوا العظام بها *
 ومعنى البيت انهم كسروا عظام الاهالي وانتقوها أى أكلوا ما فيها من النخاع
 حتى النخاع الشوكي الذى لا حياة بدونه — أى لم يبقوا للفلاح شيئاً يسد به الرمح .
 وله شوكة مخفف شوكة أى نخاعه الشوكي (٢) مهاجرو الثمر هم الذين هاجروا
 من الاسكندرية الى الارياض (٣) جواب الاستفهام معروف من السياق: أى أحملها
 حملاً ثقيلاً (٤) أدبه أنسبه الى الدهاء أو أرميه بداهية . يقال دهاه يدهاه بهذا
 المعنى (٥) هيه كلمة تفال للاستزادة (٦) أى ساق الانكيز أولو النظام عسكرهم على
 الرايين الاشتات المتفرقين فصيح المكان المعروف بالتل الكبير جبل من سواريه .
 أى جيش كبير من فرسانه كالجيل في عظمته

وقائد الجند واقانا بلحيته يسبل رعبا وثوب الدار كاسيه
وسلم السيف واستجدى بعقلته عفوا من الحق المنزوي خديويه
تخوف الذل فاستدعى مطيته ركضا اليه فوافاه موافيه
(*)

تذكرتني وجوه كنت أعرفها تعد لثم لعالي غاية التباه (١)
تيقن العزم اني لو برزت له أخرجت من ضغنه أخرى مخازيه
فهاص في قرم من ضل سحنته يعني مغالتي كلا ساقعيه (٢)
حجبت عنهم وعصبي غير محتجب صل يصلصل والاقدار تمليه
بنى الزمان لهم بيتا وشيده وليس يُبقي على مالست أبقيه
نعم له معنا فيهم مداركة فيهم أجرهم من صنع أيديه
هذا الزمان زحمتاه فذل لنا لكن به صرف عيب كنت أدريه
وأحفظ الدهر أني لا أشاكلة فما تبطن من غش وتمويه
أحارب الدهر وحدي ليس ينفعني إلا الثبات وحسي من أضافيه
تعلم الدهر مني كيف يطعنني نخاب ظنا وخاتنه مزاكيه
وليس يعجزني عن كسر فيلقه إلا المنايا تفاجيني فتحميمه
ان المنايا سهام الله سددها وليس يخطيء سهم الله مرميه

(*) حذف من هذا الموضع بضعة أبيات محرقة الاصل معظمها في طعن سلطان باشا
(١) رويت هذا البيت بهذا اللفظ عن محمود افندي السكجيل أحد تلاميذ الاستاذ
الامام في المدرسة السلطانية ببيروت وقد رواه كما سمعه منه أو من أخيه حموده بك
الذي كان تلميذاً معه في المدرسة. وتمت لو قال بناني بدل لعالي وقد يكون تقبيل
النعال حقيقة لا مجازاً (٢) هاص الطائر ساج وهاص بالشيء عنف به وأقنى الفارس
فرسه — رده القهقري . ولعل المصراع الاول محرف

كتاب الثورة العراقية

إذا كانت قصيدة السجن ناطقة برأي صاحب الترجمة وشعوره في الثورة العراقية وهو في شرح الشباب ، وأوان التأثر والانفعال ، ذي السلطان الأعلى على الخيال . وكان خيال الشعر في مثل هذه الحال والسن يصور الأشياء أحيانا بغير صورتها . وكثيرا ما يسمها بغير ميسمها . فاعلم أيها القارئ لسيرته أنه قد كان شرع في أواخر سني حياته ، أو قبل بضع سنين من سنة وفاته ، بكتابة تاريخ للثورة العراقية يبين فيه أسباب الحوادث ومسبباتها ، وعالل الوقائع ومعلولتها ، ويستنبط النتائج من مقدماتها . توجه الى كتابة هذا الكتاب بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبلغ من كمال الحكمة الغريزية والكسبية المنتهى . بطلب من أمير البلاد . خلف العامل الأكبر في تلك الأحداث . وانك لتجد ما كتبه في هذه الحل . القاضية بأتم الروية والاعتدال . مما يعد في معنى الشرح . لما جاء في قصيدة السجن ، الا ما فيها من الفخر . الذي لا يحسن الا في الشعر

ومن سوء حظ مصر والمصريين ، بل الشرق الأدنى والشرقيين ، ومحبي حقائق التاريخ أجمعين ، أن الاستاذ الامام . لم يتم تأليف هذا الكتاب ، وسبب ذلك أنه كان يكتبه لأمر البلاد عباس حلمي باشا بأمره . وكان اذ رغب اليه بكتابته — وذلك في السنين الاولى من امارته — موادا للاستاذ شديد الرغبة في استفادة الامة من معارفه ، ولكن لم يكتمل انقسم الاول من الكتاب ، وهو ما تقدم الثورة من المقدمات والاسباب . ففتح لها الطاق والباب . حتى نجمت نواجم التنكر بين الامير والاستاذ . وانتهت الى المفاضلة الشديدة المعروفة . وكان مفسدو ذات البين قد ألقوا الى الامير أن الاستاذ عدوله وابيت محمد علي ، ولا يزال يسعى الى سلب الامارة منهم . وبهذا صار تأليف الكتاب للأمر مشكلا ، لانه قد عديم مؤيدا لتهمة المفسدين بما فيه من إلقاء تبعه الثورة على الخديو توفيق باشا مباشرة . وجعل ما كان من اسراف الخديو سماعيل باشا وسوء ادارته للبلاد أسبابا ممهدة لها — ثم ان أعمال الاستاذ الامام تضاعفت بعد جعله مفتيا للديار المصرية وعضوا في مجلس

الاقواق الاعلى ومجلس شورى القوانين على كونه رئيسا للجمعية الخيرية وعضوا في مجلس ادارة الازهر . بل كاد يكون هو المجلس وحده — وسيأتي بيان كل ذلك في موضعه — فلا جل هذا كله ترك إمام كتاب الثورة ، منتظرا به سنوح الفرصة قد اطلمت على مسودة ما كتبه بعد أن كنت كتبت كل ما تقدم انقصيدة من هذا المقصد في ترجمته التي نشرتها في المنار فنقلت جلامنه في ترجمة السيد جمال الدين . ثم رأيت من تمام الفائدة تلخيصه أو الاتيان بخلاصة وجيزة منه هنا يعرف بها قراء تاريخه مالا سبيل لم الى معرفته من غيره . اذ كل ما كتب غيره في هذه المسألة لا يتجاوز بيان الظواهر الخادعة والاخبار الرسمية . وأبدأ بنشر خطاب المؤلف للامير في ذلك وهذا نصه :

خطاب الاستاذ الامام لسمو الخديو في أول الكتاب

الى مليك مصر المعظم عباس حلمي باشا الانغم

مولاي

هذا مقام اذا كر لنعمتك . العارف بقدر منتك . العاجز عن الايفاء بحق شكرك . انتالي في سره وجهره لايات حمدك . طوقني احسانا لم أكن أتأمله . اذ أمرتني أمرا ما كنت أتخيله . أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت . وما علمت وما . اعتقدت في الحوادث العرابية من عهد نشأتها الى نهايتها . مع بيان أسبابها . وإسناد الاعمال الى أربابها . سمحت بأن تكون الحقيقة بادية الرواء . حاسرة نقاب الرياء . أي مئة أعظم من الاذن للحقيقة أن تتجلى بعد أن نسجت عليها العناكب . وتدافعت عنها المناكب . وسترها عن الابصار غير الاهواء . وحجبها عن البصائر ضلة الاعالياء . وذلة الضعفاء . حتى أنكرها من شهداها . وخطب فيها من سمع خبرها . ممن تولى كبرها . أو ممن لم يقف على سرها . ولم يميز خلها من خمرها . أي إحسان أجل وأواني من رغبة مليك في كشف الغطاء عن حادثة الت بعرش الدولة .

واضطربت لها أركان الحكومة وتغير لها وجه السلطان وظهرت بعدها البلاد في شأن جديد؟

علم «بموامل هذه الفتنة يقرر تبعة الخطيئة على من اقترفها، ويبرئ منها من ربحي بها، وقد كان الساعي في تسكينها وحائي التراب في وجهها، وقوف على دخائل هذه النازلة يبعد بالعقل الرشيد في مثلها عن الاغترار بظواهر، ليست لها سرائر، وصور انما تنكشف عن غير، وعبر ويجنب الفكر السليم في ما يشبهها عن الزلل، في مزالق الخطل، ويضيء لأهل العزم مسالك الحزم، فلمولاي النة على الحقيقة ومظهرها، حتى قدرها حق قدرها، واستضاء بسناها واهتدى بنورها

مولاي: أرفع إلى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسي غير ناظر في كتاب ولا راجع إلى مقال سبقتي به غيري. اللهم إلا إلى بعض الاوامر الرسمية أو شيء من المحابر السياسية التي يضطر في بيان الوقائع إلى الإشارة إليها إذ لا غنى للقارىء عن الاطلاع عليها

أرفع إلى كرم مولاي المعظم ما استطعت أن أعرض على مقامه الفخيم، امثالاً لامره الكريم، معترفاً بقصوري عن ابلاغه منزلة كتاب يستحق النظر، أو عمل من الاعمال يليق به أن يذكر، إلا إذا شملته عناية الجنب العالي بحسن القبول، فعند ذلك تملو قيمته، وتستكمل له زينته، ويرتد عنه كيد الكائد، وتنقطع دونه نقشات الحاسد، أيد الله بالحق وليكنا ومولانا، وأبلغه من العزة والمجد متمنانا، آمين

﴿ خلاصة ما كتبه في أسباب الثورة العراقية ﴾

بدأ الاستاذ كتابه هذا بوصف حالة البلاد المصرية وحكومتها السوءى عند حاتنازل اسماعيل باشا عن إمارة مصر ووليها توفيق باشا، فبين أولاً بالانجاز ما كان من تدخل دولتي فرنسا وانكلترة في شؤون البلاد المالية وغيرها ومن تأثير المحاكم المختلطة في إضفاف سلطة الحكومة والتصرف في ثروتها وروء الامة - ومن سوء أحوال رجال الحكومة وأحوال الجند - ومن تصرف الربين في استنزاف ثروة

الامة بالربا الفاحش ومساعدة الحكومة لهم — ومن الاضطراب العام في البلاد وإشرافها على المجاعة — وبين أيضاً ما كان عليه أهل مصر إلى ما قبل سنة ١٢٩٣ من توكلهم على حكومتهم في كل شيء وتسليمها إليهم أمرشؤونهم العامة وكذا الخاصة أيضاً، إذ كانوا يرون كل شيء ملكاً لها، وبين أن أكثر من تعلم في اوردية من المصريين من عهد محمد علي الكبير إلى ذلك التاريخ لم يغير شيئاً من هذه الحالة ولا أثر فيها مجلس الشورى الذي ابدعه اسماعيل باشا سنة ١٢٨٣ لانه قيده في النظام والعمل فكان يقرر ما يوعز إليه بتقريره، فظل الناس معه على اعتقادهم أنهم عبيد للحاكم لا رأي لهم معه ولا أمر

ثم انتقل من هذا إلى بيان مبدأ النهضة المعنوية في مصر بإرشاد السيد جمال الدين الافغاني وسعيه قيين بالابحاز ما تقدم شرحه في ترجمة السيد من تربية نابتة جديدة وترقية أفكارها وأقلامها، وما كان من تأثير ذلك في ارتقاء الجرائد العربية وما أشرق عليها من نور الحرية. ومزج هذا بذكر بعض الحوادث الكبرى وتأثيرها في قلوب الناس وأفهامهم كالارتباك الشديد في المالية المصرية الذي أفضى إلى تأليف اللجنة المالية المختلطة وتعيين ناظر انكليزي للمالية وناظر فرنسي للاشغال العمومية وكأحكام المحكمة المختلطة على الخديو وحكومته — وما تلا ذلك من انطلاق الألسنة والاقلام بالأفكار الجديدة (الجمالية) كيان أنواع الحكومات الاستبدادية والدستورية وتأثير ذلك في طبقات الامة. ولكن الشعور بمحقوق الامة في أمر حكم نفسها ومراقبة أعمال حكامها لم يسر في هذه النابتة من المصريين إلا وقد صحبه رؤية التصرف الاجنبي في حكومتهم. فتعلقت آمال البصراء من الناس باصلاح عظيم ولكن لم يهتدوا سبيلاً يسلكونه إليه لسوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها وسوء الظن بالسلطة الاجنبية والخوف من مآلها

ثم بين أن الخديو اسماعيل ضاق ذرعاً بالوزيرين الاوربيين وأخذ يسعى إلى الخلاص منها، فكشرت الاشاعات عن سوء مقاصدهما بإعاز منه كما كان يقال. وفي اثناء ذلك دعي مجلس شورى النواب إلى الاجتماع فوفد أعضاؤه إلى القاهرة وفي أنفسهم ذلك الشعور الشديد بشر الاحوال ويلوح في أفكارهم الميل إلى الخلاص

منه « فاللأتم المجلس في أوائل سنة ١٢٩٦ في موج من التشويش شديد الاضطراب واتفق ان الحكومة لم تقدم اليه من المسائل التي تطالب نظره فيها الا ما لا قيمة له » فكثرت الانتقاد على الحكومة ، ولما أمرت باقفال أبواب المجلس سلك بعض النواب مسلك الشدة في الجواب عن ذلك الامر وحاولوا التوقف عن الانصراف حتى يعلموا من أحوال الحكومة ما ينبئون به منتخبهم ، وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأي يخالف رأي الحكومة، ولكن الحديو كان يشد عضد أعضائه المجلس في المعارضة هذه المرة

ثم ذكر قلق ضباط العسكرية من تأخير رواتبهم واحساسهم بانحراف الحديو عن نظار حكومته ومهاجمتهم لنظارة المالية وضررهم لناظرها الانكليزي واهانتهم لرئيس النظار نوبار باشا وقبض أحدهم عليه من شاريه وتصديهم لاهانة سائر النظار لولا أن جاء الحديو بنفسه وصرفهم ، وأما كانت حركتهم بتحريك منه توسل به الى إسقاط وزارة نوبار باشا قمع له ذلك ، ولكن لم يمكن إسقاط الناظرين الاوريين فأدخلوا في الوزارة الجديدة التي تألفت برياسة توفيق باشا ولي العهد وزاد نضيقهما على الحديو في التصرف فتوسل الى عزلها بوسيلة أخرى وهي طلب أعيان البلاد لذلك اذ اجتمعوا في دار السيد البكري ووضعوا اللائحة الوطنية المشهور أمرها التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربة العظيمة وأنهم ضامنون لها

وقد بين الاستاذ ما في هذا العمل من الخطل وقصر النظر ، وأنه « أحدث في الناس شعورا بقوة لم يكونوا يعرفونها من قبل فقد أيقنوا أن الحاكم القوي السلطان قد صار في حاجة اليهم ، ولا قوام لامره الا بالاعتماد عليهم ، فزاد ذلك ولوعا بما كانوا يعملون اليه من وجوب اشتراكهم في أعمال الحكومة دفعا للمضار التي نشأت عن استقلال الحاكم بالرأي ، وانفراده بالسلطة »

ثم بين سيرة اسماعيل باشا بعد ذلك في العود الى التصرف بأموال الحكومة وتبذيره وسوء الحالة العامة وذهاب رياض باشا ونوبار باشا الى أوربة بقصد الإقامة فيها وسعي الثاني الى اقناع فرنسة وانكلترة بالسعي الى خلع الحديو اسماعيل. ثم ارسال فرنسة موسيو تريكو مندوبا خاصا (فوق العادة) ليتحدث مع وكيل انكلترة في مصر في (م ٢١ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

مطالبة الخديو بالتنازل عن الخديوية لولي عهده ، واستشارة الخديو لحاشيته في الامر
واشارة أجهلهم بالسياسة عليه أن لا يتنازل والجيش حاضر يؤيده - وإشارة من
كان يقال انه أعلمهم بأن يتنازل ، وبين بعد هذا ان جمهور العقلاء يزرون ان رأي
ذلك الجاهل كان عين الصواب وان الخديو لو ظهر لمدوني الدولتين بجلد الاسد
الذي كان يلبسه للمصريين وعلموا ان دون التنازل حمل السلاح لأمكنه ان
يرضيهما بوسيلة أخرى مع بقائه على العرش

ثم بين ان السيد جمال الدين كان قد أسس حزبا في مصر باسم (الحزب
الوطني الحر) وانه كان بينه وبين ولي العهد توفيق باشا مكالمات في هذا الامر ،
وانه سعى مع الكثير من الاعيان الى شريف باشا الكبير بأن يقنع الخديو بالتنازل ،
وان أحسن ما يجيب به مندوب الدولتين تفويض الامر الى السلطان - وان السيد
جمال الدين ذهب بوفد من المصريين الى وكيل دولة فرنسا وكاشفوه بأمر الحزب
الوطني الحر الذي يطلب الاصلاح ويرى انه لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق
باشا ، وأن ذلك تأييدا لرأي شريف باشا في اقناع الخديو بما ذكر آنفا فأقنعه فحول
الامر الى السلطان فقبل السلطان تنازله ونصب توفيق باشا خديويا بدله - وقد
تقدم قل كلامه في ذلك في ترجمة السيد - فهذه هي الاسباب التمهيدية الاولى
للهوادث العراقية

١٠ الاسباب المباشرة للثورة من سيرة توفيق باشا

حالة البلاد وظاهره بالاصلاح

بين رحمه الله تعالى أن البلاد دخلت في عهد توفيق باشا في طور جديد من
الحياة فقد كان لها من ارشاد السيد جمال الدين وتعليمه وسعي الحزب الوطني
الذي أقمه فيها ما فتح أفعال القلوب والعقول لتترك كنه أعمال حكومتها وما يجب
أن تكون عليه ، وسيرة الاجانب فيها وما يخشى أن تنتهي اليه ، فقد تولى هذا
الامير ولاية امة غير الامة التي كان يتصرف فيها والده تصرف الراعي المالك
بالمواشي ، ولكن هذا الامير لم يكن شرها ولا مسرفا بل كان غنيا رحما فكان

لطلاب الإصلاح فيه آمال كبيرة ، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه وسوء سيرة حاشيته

وقد كان أول عمله أن كتب الى شريف باشا في اليوم الثاني من ولايته أمرا بتشكيل الوزارة بعد قبول استعفائها صرح فيه برغبته في تحقيق آمال الامة فيه واخراجها من الحال السيئة التي هي فيه بالاقتصاد القانوني في نفقات الحكومة والاستقامة في الوظائف العامة واصلاح القضاء والادارة - ثم كتب في اليوم الخامس أمرا آخر الى مجلس النظار فصل فيه ما يحقق الآمال بمجعل الحكومة شورى ونظارها مسؤولين وتوسيع نظام شورى القوانين واصلاح المحاكم والمجالس والسعي لتعميم التربية والتعليم وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم ، وصدر ذلك الأمر في ١٤ رجب سنة ١٢٩٦

وبين الأستاذ أن كل ما ورد في هذا اتما انعكس على فكر توفيق باشا من الحال الجديدة التي كانت عليها خاصة رعيته

يلي ذلك بيان مشروع شريف باشا في وضع قانون أساسي لمجلس النواب يضمن لهم حرية القول والفكر وحق النظر فيما يحق لنواب الامة النظر والكلام فيه على حسب ما قرأه ورآه في بلاد أوربة ، فأعجب بذلك أرباب الأفكار المتطرفة وقالوا ان التصديق عليه بعد فاتحة عصر جديد لمصر والمصريين

قال: وتظاهر الاجانب بالرضاء عن الاصلاح المشروع فيه ، وأنشئت جمعية في الاسكندرية باسم [مصر الفتاة] لم يكن فيها مصري حقيقي بل كان أكثر أعضائها من شبان الاسرائيليين الممتئين الى الاجانب ، وقد رفعت هذه الجمعية لافتحة الى الخديو فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار ، وأنشأت بعد ذلك جريدة [مصر الفتاة] فكانت تنشر فصولا حادة الانتقاد وشديدة الموعظة . على حين كان أولئك الاجانب في ظل الاستبداد يقرضون الفلاح المتهتمين في بضعة أشهر ، وكانوا يتصرفون في المصريين كتصرف حكومتهم بهم

سواء صح ذلك النظار أم لم يصح ، وأما الذي لا شك في صحته فهو أن وكل دولة فرنسة أخذ يسمى في إقامة الموانع دون إعطاء النواب حق النظر في تصحيح

الموازن وتقرير الامور المالية ودعا وكيل انكلترة الى مساعدته في إقناع الخديو بضرر هذه الاوضاع الجديدة في ذلك الوقت بحجة أنه مما يعوق حل المشاكل الموقوفة ، وساعد على اقناع الخديو بعض الوطنيين من حاشيته ، فتأثر الخديو بذلك ومال الى غير ما أظهره للجمهور من قصد الاصلاح المطلوب ، ثم رفض لأئمة شريف باشا عند عرضها عليه فاستقال شريف باشا لإصراره على هذا الاصلاح فشكل الخديو نظارة جديدة تحت رياسته

يتلو ذلك يان أن وكلاء الدول أصحاب النفوذ في مصر كانوا يظنون أن محرك هذه الافكار الاصلاحية ، وباعث الانفس على طلب الحرية ، إنما هو السيد جمال الدين ، فأقاموا الادلة للخديو على خطر الرجل وأخافوه منه كما أخافوه من النظام نفسه . فأما التخلص من النظام فكان باستعفاء الوزارة ، وأما التخلص من السيد جمال الدين فكان بنفيه من مصر الى الهند

أقول وقد فصل هنا مسألة نفي السيد وسوء تأثيرها في مصر ونحول القلوب بسببها عن الخديو الذي تناقل الناس قوله له « أنت موضع أملي في مصر أيها السيد » وقد تقدم ما كتبه في ذلك بنصه في ترجمة السيد (ص ٧٤ - ٧٨)

مبدأ الفوضى في الجند المصري

ثم بين انه في حولي هذه المدة وقبل استعفاء وزارة شريف باشا صرف مبالغ عظيمة من الجند الى بلادهم وتقرر جعل الجيش العامل اثني عشر ألفاً فقط . وأن جماعة من الضباط قدموا بعد ذلك عريضة الى الجناب الخديو يلتمسون فيها عزل ناظر الجهادية وبنا ذلك على أسباب منها رداة المآكل وضررها بصحة العساكر ، ومنها سوء حال المستودعين وعدم النظر في اصلاح معاشهم . فوعدوا باصلاح الحالة ، وبعد أيام استعفت الوزارة ولم ينظر في حال الضباط ولا العساكر بعد ذلك ولم يتوجه الفكر الى هذه الحركة الفوضوية بالبحث في أسبابها ، واستئصال عواملها من الجيش قبل ان تأخذ قوتها ويظهر أثرها بمثل ما ظهر به من بعد . (قال) وإنما قلت انها فوضوية لأن للضباط حق الشكوى مما يصل اليهم من الاذى أو ما يجدونه من

الضرر ولكن لا حق لهم في طلب العزل والنصب فما فعلوا كان خارجا عن حد النظام لهذا كان جديرا بالانتفات .

نفوذ الاجانب واسبابه وغايته

قضى باستعفاء الوزارة ونفى السيد جمال الدين غرض أرباب النفوذ من الاجانب وبعض الوطنيين في منع الاصلاح وأرهاب النفوس الطامحة اليه على ما ظنوا. وبعد ذلك أخذ القناصل في اقناع الخديو بأن هذه الوزارة الجديدة تحت رئاسته لا قدرة لها على تذليل المصاعب الحاضرة ومن الضروري ان يوجد مساعدون من الوطنيين والاجانب في الوزارة حتى تقوى بذلك على التخلص من الضيق الذي تعانيه الحكومة، وأشاروا الى عودة واسن ودبليار، فأظهر لهم أن ذلك غير ملائم للصحة وأنه لا يرضى البتة بأن يكون في النظارة أعضاء أوروبيون لانه يشوش أفكار المصريين ويؤدي الى الخلط في الاعمال، قال ومع ذلك فلو صممت الدولتان على ارحاعهما وزيرين فاني مستعد للاشتراك معهما في العمل وقبول ما يشيران به واحسبهما صديقين ولكني أترأى من تبعه ذلك، وقال: انني لا أنكر حاجتنا الى معونة الاجانب ولكني أريد رجالا مثل بارنج^(١) يشتغلون باصلاح المالية ولا يخلطون الادارة بالسياسة ويكونون في وظائف سامية غير انهم لا يكونون وزراء، فأشاروا الى نوبار باشا فأظهر غاية التمعن من قبوله بل أبى ان يسمح بعودته من أوربة إبعادا لدسائسه كما عرف ذلك كله وشاع بين العامة وتناقلته الجرائد في حينه، فأشير الى رياض باشا فأبان شدة ميله اليه وقال انه الصديق الحميم والصادق الامين، وانتهى الامر باستدعائه فحضر في النصف الاخير من رمضان ثم عهد اليه برئاسة النظار في ٥ شوال سنة ١٢٩٦ .

« كان الخطاب الصادر من الجناح الخديوي الى رياض باشا المؤذن بتعيينه رئيسا للنظار يشف عن كمال المودة وتأكد الثقة وخصوص السريرة في الاعتماد على امانته، وفيه التصريح بأنه لم يقصد بترأسه على مجلس النظار مدة الشهر الذي مضى ان يعيد السلطة الشخصية بل كان ذلك لمقتضى الاحوال (رفض لأئحة النواب) ونفى الشيخ جمال الدين اذ لم يظهر حال يقتضي التفرد بالسلطة سوى هذين الامرين)

(١) هو الذي صار لقبه بعد ذلك لورد كرومر .

« ومن المعلوم أن أهم المسائل لدى الحاكم والحكومة في ذلك الوقت هي المسألة التي لاجلها اجبر خديو واسع السلطة مدرب على الملك المطلق سبع عشرة سنة أن يتنازل عن مقامه ويهبط من عرشه ويترك ملكه ويبعد عن بلاده مشيعاً بالعويل والنحيب، ولاجلها ولي خديو جديد ناشئ في العمل لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان، وله الحق الكامل في المحافظة على ما وصل اليه بأي الوسائل الممكنة، وآماله في المستقبل تستدعيه في كل آن لحل ما وجده من العقيد ووضع حد للملك المضاعف التي جرت الى مثل تلك الحادثة العظيمة والانتقال الذي لم يكن في حساب، وتلك هي المسألة المالية التي كان يريد الجناب الخديو أن يأتي على حلها قبل كل المسائل، وبفضـ مشكلها قبل جميع المشاكل، على انه لم يكن مشكل سواها لولا ما أعقبتها مما تولد منها

« لم تكن عقدة الاشكال فيما يمس حالة المصريين وعلاقتهم مع الحكومة في الامور المالية، اذ لم تكن لهم حاجة الى أمور جسام وأعمال عظام فيما يتعلق بشأنهم مع الحكومة من هذه الوجهة، فقد كان يكفي ان تنظم أوقات التحصيل على وجه ما نظمت عليه أخيراً ويزاح عنهم من الضرائب ما يثقل عليهم ولا يفيد الحكومة كبير فائدة كما حصل فيما بعد، وما كان أسهل هذا الامر في ذاته، على انه لو بلغ من الصعوبة أقصاها وكان فيه من المشاكل ما يصل بين الارض والسماء، لما أخذ من اهتمام الحكومة جزءاً من المئة بل من الالف مما أخذت المسألة المالية في ذلك الوقت. واما كان خوف العاقبة يتعهد قلوب أولي الامر من وقت الى آخر ويحملهم على أعمال ربما لم يكونوا يقصدونها، على علم منهم بأنها تبعد عنهم قلوب الرعية ونصرف عنهم ميلها

« كان معظم الاهتمام منصرفاً الى ارضاء الاجانب ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا يناولون من فوائد الدين الباهظ. ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها في أوقاتها المحددة في سنة ١٨٧٦ ولكون الخديو الأسبق كان يريد أن يكون ذلك المعجز معروفاً عند الدول ذات النفوذ ويجب أن يتدخلن أيضاً في تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد ظناً منه بأنه متى ثبت عجز المالية

المصرية عن اداء الدين ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفي له أعلنت الدول قطع مرتب الاستانة ونادت به ملكا مستقلا على مصر لايؤدي خراجا الى سلطان آخر وكان يسره ان يكون ملكا ولو على الادخربة ورعية ضئيلة وبين خليط من الاجانب بصرفونه في داخلية بلاده حسب ما يريدون . ثم لم يكتف الخديو الاسبق عن تصرفه الخفي في المالية المصرية بما يزيد ارتباكها وكما تقدم الزمن ظهر الاختلال فيها فیدعو وكلاء الدول السياسيين للتدخل في اصلاحها ثم هم ينجيونه الى ما يدعوم اليه تمكيا لحق التدخل في الشؤون المصرية الى أن جر الامر الى تعيين لجنة التفيتش العليا ولم يكن فيها المصري واحد وسائر أعضائها من الاجانب، وأخذت تتناول البحث في الشؤون المالية وتصل بها ماشاءت من الامور الادارية، وكانت أحكام المحاكم المختلطة لارباب الديون السائرة على الحكومة من أشد الضربات عليها، ووقع الحجز على كثير من أملاك الخديو، وطلبت الحكومة سيلا للتخلص من بعض ورطانها فعقدت سلفة ورشيلد تحت شروط شديدة ورهنت بعض أملاكها وضمنت ما تعجز الاملاك المرهونة عن وفائه، فكانت هذه السلفة ضغنا على إبالة ومشكلا فوق المشاكل، فقد أبى بيت ورشيلد أن يؤدي بقية السلفة بعد ما دفع شيئا منها وطلب شروطا أخرى وكفالة أشد ضررا بمن يقبلها من الاستغناء عن تلك السلفة، وبذلك وقع الخديوي الاسبق في شباك من حائل السياسة التي ألقى بنفسه فيها اختيارا لا يشوبه شيء من الاضطرار وصدق فيه قول القائل "انه صرف مائة مليون من الجنيهات أخذها بأخفش الفائدة وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا تناولها من الرعية بأشد أنواع العذاب وقضى مع ذلك مدة سبع عشر سنة في سلطة تامة وكلمة نافذة — كل ذلك لان يعد بلاده ويهيأها لنفوذ اجنبي يسوسها، ولان يسجل عليها استكانة وذلا يتعذر الخلاص منها، بل كان يهين نفسه بالمال والسلطان للسقوط تحت سيطرة مسيطر لا يرحم، ورقب يعجز عقله الذكي عن اخفاء شيء دون علمه، بل قاهر شديد يضعف سلطانه القوي عن مناوآته وهكذا كان يبذل جهد المستطيع في اضاعه نفسه وهو يظن انه ساع الى الاستبداد بالملك والوصول الى الاستقلال به، ولهذا سمح بأن يأتي وكلاء عن أرباب الديون ليعثوا في شؤون المالية وأظهر لهم

قبول ماطلبوه بعد بحثهم، وعين مراقبة من الاجانب على عموم حسابات المالية، ولم يكتف بأن يكون شأنه مع دائنيه كماهي القاعدة المعروفة في كل ممالك العالم، بل حول المسألة من مالية الى سياسية، وأدخل فيها القناصل والوكلاء السياسيين ليصل بهم الى ذلك الغرض السامي الذي كان يخله، وهي فرصة لا يضيها أهل البصائر النافذة من وكلاء الدول ذات المصالح السياسية والتجارية في مصر

« ومن المقرر عند الاوربيين ان العادة قانون وأن العادة تتأصل بمرّة فبالك بالمرات الكثيرة، فلهذا انقلبت المسألة المالية آخر الامر الى سياسية محضة، وما أخذ الاوربيون من حق التدخل في شؤونها أصبح أمراً مقررّاً وقانوناً واجب الرعاية ولم يعد لاحد من حكامنا ان يفكر في إلثائه أو تعديله خصوصاً وقد وجد الاجانب من الادلة ما يحججون به المنازع اذ كانوا يقولون " لا ثقة بوعده ولا اعتماد على عهد فقد وعد الحاكم السابق وأخلف وعقد وتقض ولم نره يوماً أنى بعمل تكون النية فيه خالصة لنفع بلاده ولم نره آثراً في البلاد تساوي قيمته ما صرف فيه ، والحاكم الجديد حديث العهد لا نعلم ما يكون منه ولا نريد ان تقع في التجربة مرة أخرى، فلا بد من أخذ الاحتياط الشديد من بداية الامر، ولما كان توفير المال الذي يقوم بوفاء الدين وضبط حسابه موقوفاً على ضبط جميع الادارات والمصالح فلا بد ان يكون لنا نوع من المراقبة عليها، حتى نكون على ثقة من ان حالتها لا تنقص الايراد ولا تزيد في النفقة، ولما كان الفلاح هو العامل الفرد في سوق الاموال الى الخزينة ومنها الى الدائنين فشأنه مرتبط بشؤون الدائنين ولا يشرع عمل الفلاح الا اذا كان آمناً على نفسه وماله فلناحق المراقبة على كل ما يتعلق بالفلاح من هذه الجهة - والنتيجة التي لاشبهة فيها بعد تسليم هذه المقدمات ان لنا حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها لكن تحت اسم المراقبة المالية، وزاد نفوذهم شدة تدخلهم في خلع اسماعيل باشا فهنا كان موضع الاشكال ومن هذا كان ينبوع الخفة والاضطراب على المسند الجديد »

« قبلت الدولتان ماطلبه جناب الخديوي السابق في عدم تعيين وزيرين اوربيين ولكنهما صممتا على تعيين مراقبين عموميين يقيمان في نظارة المالية ونفوذها يشمل جميع الادارات المصرية ، وراتبهما الذي يتلانه من الحكومة أوفر بكثير من راتب

وزيرين ، وصدر الامر بتعيينهما قبل توسيد رئاسة النظار الى رياض باشا بأيام . ولما تعين رياض باشا رئيسا للنظار وجد موسيو بارنج (اللورد كرومر) محاسبا عموميا قلم الايرادات ، وموسيو دولنيار محاسبا عموميا قلم المحاسبة وادارة الدين العمومي ، ولم يبق الكلام الا في تحديد وظائفهما ، كأن عنوان الوظيفة لم يكن كافيا في فهم معناها ، وبعد قليل قدم اتصالا دوائي فرنسا وانكلترا لائحة تحدد وظائف المراقبين وبعد مداولة طويلة في مجلس النظار ونزاع شديد بينهم قبلت اللائحة كما قدمت قريبا ، وصدر الامر بتحديد وظائفهما على وجه ان لهما في الامور المالية حق المراقبة غير المحدودة على جميع المصالح العمومية ، وعلى الوزراء والمأمورين من أي رتبة كانوا أن يقدموا الى المراقبين كل ما يطلبانه من الاقادات ، وعلى ناظر المالية ان يقدم اليهما كل أسبوع كشفا مفصلا عن دخل نظارته ونفقتها ، وعلى كل ادارة ان تقدم كشفا مفصلا كذلك في كل شهر ، ويتقاسم المراقبان النظر في المصالح العمومية التي يكون من شأنهما مراقبتها والاشراف عليها بمقتضى الحقوق المثبتة لهما في ذلك الامر الخديوي ، وتقرر لهما مقام في مجلس النظار برأي شورى ، وتقرر ان لا يعزلا إلا بموافقة حكومتيهما ، ولهما ان يعزلا وان ينصبا جميع الموظفين في ادارة التفتيش وان يعينا لهم الرواتب ، وهما اللذان يضعان برنامج (ميزانية) التفتيش على حسب ما يريدان ، وعلى الحكومة ان تصرف لهما ما يطلبان صرفه بلامعارضة . ومن هذا ترى ان تحديد الوظائف كان عبارة عن رفع كل حد يوهمه عنوان وظيفتهما واطلاق حق المراقبة عن كل قيد » وقد ذكر في ذلك الامر ما نصه : « ان حكومتي فرنسا وانكلترا قد رضيتا بأن المراقبين العموميين لا يتدخلان في الوقت الحاضر في ادارة المصالح الادارية والمالية فالمرقبان يقتصران الآن ان يقدما الينا (الخديو) ولى وزرائنا ما تهديهما اليه مراقبتهما من الملاحظات » فهذا التقييد « بلوقت الحاضر » يدل على ما كان بين الدولتين والحكومة من المخبرات . واعتذار القنصلين باسم دولتيهما بعد صدور الامر الخديوي عن ألفاظ « الوقت الحاضر » و « الآن » المسطورة في الامر الخديوي وتأويلهما على وجه لم يزد التصد الا ظهورا يشير الى ان الامر سطر برأي القنصلين وان الحكومة تضجرت من هذا الوعيد بعد صدور الامر كما (م ٢٢ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

تضجرت منه قبله ، ولكن لم يتعطف القنصلان لارضائها الا بعد امضائه ، وكانت
الترضية عبارة عن إبقاء الالفاظ وتأويلها بما لا يفهم منها ليجري حكمها كما وضعت
« لم ير ذلك على الانفس والعقول بلا أثر خادش وهزة أسف عامة اكل من
كان يلوح في قلبه شعاع الفكر ويدور في خلدته خيال الميل الى استقلال البلاد ووضع
الاصلاح فيها على قواعد سليمة واحاطته بما ينبغي أعمال السلطة العليا من كل قصد
الى غير مصلحة الرعية ، ويصونها عن كل غرض يسوق الى تأييد السلطة الاجنبية ،
بعد ما عرفت آثارها ، وتمكنت من النفوس النفرة منها . وقد تحدث الناس بذلك
بمجرد تعيين المراقبين ، واكثروا الانتقاد عليه قبل مجيء رياض باشا وقبل ان تبين
حدود المراقبة على هذا الوجه ، وبعد ان نشر هذا الامر وعرفه العام والخاص لم
يدع انساناً حتى أنطقه ، ولا قلماً حتى أطلقه ، وجرائد ذلك التاريخ شاهدة به
«وهنا اترك تسلسل الحوادث وتوارد الاسباب التي جرّت الى الثورة حتى افرغ
من ذكر ماتم من الاصلاح مدة وزارة رياض باشا وما تحولت اليه أحوال المصريين ،
وما عرض على أفكارهم مما يحسب تقدماً وتأخراً . آتي على ذلك باجمال بغني عن
تفصيل ان شاء الله . ثم ترى بعد ذلك سلسلة الحوادث قد اتصلت حلقاتها بما ذكرناه
سابقاً بدون حاجة للتنبيه الى العود اليه »

وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة

بين الاستاذ ان رياض باشا حفظ لنفسه وزارة الداخلية اصالة لاصلاح الحال
العامة ، ونظارة المالية نيابة موقفة لحل مشاكلها مع الاجانب ، وانه سار في الاصلاح
سيرة حميدة لا عيب فيها الا محاولة تعميم العدل واساواة فيها بسرعة ، ونخلص
ذلك بما يأتي :

إلغاء رياض باشا للسخرة

كان أول إصلاح قام به إلغاء (السخرة الشخصية) وكان التسخير في البلاد
المصرية نوعين عاما وخاصا ، أما العام فهو إكراه الحكومة الاهالي على العمل بغير

أجر في المصالح العامة كإقامة الجسور (الخواجز) على الأنهار العظيمة وحفر الجداول الكبيرة وتشديد كل بناء يقام باسم الحكومة، وأما الخاص فهو إلزام الاعلياء من دونهم العمل في منافعهم الخاصة بغير أجر كالعمل في المباني والأراضي بجميع أنواعه - فكان جميع الوجهاء وجميع موظفي الحكومة يرهقون الأهالي بهذه السخرة، ويقرنونها بالضرب والاهانة، حتى أن بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة، (قال): كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به (أي هي منطقة نفوذه) يستخدم سكانها في أراضيهم بأشخاصهم وماشيئهم في جميع مواسم الزراعة على شرط أن يحمل العاملون أزوادهم وأقواتهم وأدوات العمل وغذاء ماشيئهم من ديارهم إذا كانت البلاد قريبة، فإن كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين ولكنه لا يسمح لهم أماكن تقي من المطر والبرد في أيام الشتاء ولا بمستظل يقيهم الحر في أيام الصيف، فكان القر يقتلهم شتاء والحر يذيبهم صيفا - وبين الاستاذ ضرر ذلك في الانفس وقته الشعور والاستقلال والارادة

شدد الوزير في إلغاء السخرة بنوعها وبالغ في ذلك « حتى إنه أخذ مدير القلوية مرة في ارسال بعض أشخاص من أهلها لحفر التربة التوفيقية التي تصل الى أراضي القبة لانها خاصة بالخديو، ووجع المدير توييخا شديدا وعرض الامر على الخديو فاستحسنه، ولكن لم يذهب بلا أثر في نفسه، فان مبالفته في العدالة الى هذا الحد مما لا يلتئم مع السلطة العليا في مصر مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال - فانظر ماذا يكون في نفوس أكبر رجال الحكومة السابقين بل والحاليين من رياض بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بغتة بلا تدرج »

ثم ان رياض باشا شرع في وضع نظام لتوزيع الاعانة على الاعمال العمومية يكون بدلا من السخرة كما أتارت لجنة التفتيش العليا من الاجانب، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل البدني ودفع بدل قدي، فخف الويل عن كثير من الفلاحين وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة. وكان من عدل رياض باشا في ذلك ان عنف فريد باشا مدير الشرقية لارساله مئتي رجل لاصلاح ماجرته السبل من سكة حديد السويس اذ طلبت مصلحة سكة الحديد العمومية منه ذلك.

حسب العادة ، هذا وان فريد باشا كان من رجال رياض الذين يحبهم ويحبونه وبينهما شبه قرابة . ولم يكتف بذلك حتى كتب منشورا عاما لجميع المديرين يحذرهم من مثل ذلك . وقد كتب صورة هذا المنشور كتاب الداخلية مرارا وكلما عرضوا عليه صورة مزقها لأنها لم تف بغرضه من التنويه بشأن الاهالي ، (قال الاستاذ) وآخر الامر دعاني لتحرير ذلك المنشور فكتبته وذكرت فيه الحادثة وأتذكر منه هذه الفقرة « ولعلم المديرين والاهالي (لعلماء والمأمورين) جميعا ان الاهالي ليسوا عبيدا لاحد ولا لأحد عليهم سلطان الا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة » وهذا تصریح من رئيس الحكومة النائب عن الجنب الخديوي باعتاق الاهالي من عبودية التسخير بل من العبودية للحاكم الأعلى على وجه الاطلاق ، وهذا مما لم يعمد له ، شيل من قبل العدل في توزيع مياه النيل

واهتم رياض باشا بأن توزع مياه النيل بالقسط وقد كان الفقراء لا يتالون من النيل أيام هبوطه الا فضلات ما يزيد عن حاجة الاغنياء . وشدد رياض باشا على نظارة الاشغال العمومية في تنفيذ ذلك على الكبير والصغير ، وذكر الاستاذ من الشواهد على ذلك تنفيذ عمل بحول دون ما كان يستفيد بولينو باشا من آلة بخارية له يبيع الماء الذي ترفعه للفلاحين حتى في أيام الفيضان التي يجدون فيها الماء بغير ثمن ، وأن بولينو باشا جاء برجاله مسلحين ليمنعوا فتح التربة التي يسقي منها الاهالي فأمر رياض باشا بفتح التربة ولو بقوة السلاح ففتحت تحت حماية العساكر المصرية إلغاء الضرائب وترك بقاياها

لم تمض على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى ألغى ثلاثون ضريبة ونيف من الضرائب الصغيرة كانت أضرت بالصنوعات والاعمال التجارية والصناعية الخاصة بالوطنيين وبخالد المزارعين . وزيد مئة وخمسون الف جنيه على ضريبة الاطيان المشورية تعويضا لما فات بإلغاء تلك الضرائب ، تخف بذلك عن الفقراء ما ثقل على الاغنياء ، وهو مما لا يمحى أثره من أنفس الفريقتين . وذهب الافواج من التجار والصناع ليعانوا شكرهم للجنب الخديوي على إلغاء تلك الرسوم ، ولكن الكبراء لم يحملوا بذلك ولا شاركوا الشاكرين (طبعا) ثم عفت الحكومة عما عجزت عن

تحصيله من الرسوم والضرائب المتأخرة الى سنة ١٨٧٦

وضع ميزانية الحكومة والتحصيل

« ثم نظم برنامج الإيراد والمنصرف من مال الحكومة (ميزانية) وشكلت لجنة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وانصافهم ووضع نظاماً لتحصيل في लाوत المعينة على حسب مواسم الزراعة وعرف الفلاح ماله وما عليه » وضع هذا ضيقاً لما أشارت به لجنة التفتيش العليا

ثم ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الاغنياء والفقراء والوطنيين والاجانب في التحصيل ، وكان الاغنياء والاجانب يماطلون عدة سنين ، وكثيراً ما يعفى عنهم بعد ذلك . وظهر عند التنفيذ ان بعض أغنياء الاجانب كان في ذمته ضرائب سبع سنين فحصلت منه بقوة الحكومة . وهذا مما لم يكن يسمع به من قبل

ابطال الكرياج

صدر الامر بابطال الضرب بالكرياج في تحصيل الاموال الامبرية فمجب كثير من الناس لذلك وقالوا: كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاح بدون ضرب؟ وأنكره كثير من المديرين وظنوا انه قد هدم ركن عظيم من سلطان الحكومة

ابطال الحبس في تحصيل الحقوق

صدرت الاوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء كانت اميرية أو شخصية، ولقي تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة تمكن الميل الى الظلم من انفس أكثر الحكام، ولكن لم تأت آخر مدة رياض باشا حتى كان قد محي الا ما ندر . قال : ومن غرائب آثار تعود الظلم ورؤيته ملازماً للسلطة بمصر ان الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس في سبيل اقتضاء الحقوق — سواء كانت للحكومة أو للأفراد — كانوا يعدون تلك الاوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به وأنه لا يفيد الا الكرياج ، كما لا يزال قوم منهم يقولون ذلك الى اليوم ، وكانوا يهزءون بتلك الرحمة ، اللهم الا الذين لمع في عقولهم روح الفهم ، ووصل الى ابصارهم شعاع الاحساس بما للانسان من حق التكرمة التي خصه الله بها

قانون التصفية

(قال) « بعد محاضرات طالت مدتها بين الحكومة المصرية والدول العادلة الفخيمة قبلت الدول تشكيل لجنة لتصفية الديون المصرية التي استدانها شخص اسماعيل باشا ولا يعرف في البلاد من آثارها في المنافع العامة الا القليل، قبلت الدول العادلة أن تؤلف لجنة من رجالها ليقضوا للدائنين من رعاياها على الحكومة المصرية ولم يكن في اللجنة من المصريين الاعضو واحد . قضت عدالة الدول المتمدنة أن تصادف المحاضرات في ذلك صعوبات حتى يكون القبول مقرونا بالتفويض التام وخضوع الحكومة المصرية لكل ما يطلبه وكلاء الدائنين ، وصدر الامر بتشكيلها تحت رئاسة السر ريفرس ولسون في ٢١ مارث سنة ١٨٨٠ وبعد مدة أصدرت اللجنة قانون التصفية الذي اشتهر أمره ولا يزال من أصول الحكومة المصرية الى الآن »

ثم ذكر الاستاذ أهم مسائل هذا القانون ، وكيفية توزيع دخل الحكومة ودخل بعض الاملاك على الديون ، ومنها أنه قدر لتفقات الحكومة أربعة ملايين و٨٩٠ و٨٩٧ الف جنيه وفيها ويركو الاستانة وفوائد قتال السويس وتكميل النقص الذي يحصل في الايرادات المخصصة وسنوية المقابلة ، وما بقي من مالبة القطر المصري فهو للدين وفوائده

وبعد أن أطال في مسائل هذا القانون ذكر أن تأثيره كان حسنا على ما فيه من غبن الدائنين الحكومة وجعلها تحت مراقبة الاجانب وتصرفهم فقال :

« كان يوم أمضي هذا القانون من الايام المعروفة في تاريخ مصر وقد احتفل له في الاسكندرية جماهير من أهالي القطر المصري ، وعد الناس ذلك اليوم من الاعياد الوطنية في ذلك الوقت ، وقالوا انه فاتحة الطمأنينة وضمان من الاضطراب الذي كان يخشى منه ، وفي الحقيقة كان هذا القانون فاصلا بين ماض قلق مشوش كان يتعسر السير فيه وبين مستقبل واضح معروف - كما تفي الجنب الخديو وصرح مرارا من أنه يريد فصلا بين الماضي والمستقبل - وأهم ما غنمته الحكومة منه رضا أوروبا عن الحالة التي قررها ، واطمئنان الاهالي والجنب العالي على مسند الخديوية ، واقطاع المخاوف التي كانت المشاكل المالية تثيرها في الاوهام عند ما

محط بالبال حادثة فصل اسماعيل باشا وبتلك الطمانينة كان الفرح لما كالاحتفال «

عمل المؤلف في المطبوعات (١)

قال « كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعمد البلاد توزيع الضرائب ،
 ترسل الى من ترسل اليه بغير طلبه ويجبر على دفع قيمتها بالوسائل التي كان يجبر بها
 الممولون على الدفع ، فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة في ذاتها تحمل
 الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ماتضمنته من الاوامر واللائح فيكونوا على بصيرة
 مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير اكراه من الحكومة لهم على ذلك ، وكان قد
 أحسن بتوجه الافكار الى طلب شي من طلاوة العساة ووفرة المني وحسن
 الانتقاد . أما أوامر الحكومة وحدها فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها في
 الجريدة الرسمية لان المأمورين يعرفونها من طريق أخرى ، والا هالي لم يكونوا قد
 تعودوا معاملة الحكومة بما تنشره ، ولا على أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما
 يكتب وينشر بوجه رسمي ، ولا على الثقة بأن الحكومة تقف عند ماتمعه في أوامرها .
 لهذا لم يكن لهم اهتمام في الاغلب الا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه . ولم
 يكن في الجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة الا مدائح للجناب الخديو وبعض كبار
 المأمورين على الطريقة القديمة وهذا ما كان ينفّر من رؤيتهاء فطلب رياض باشا
 وسيلة لتغيير طريقة التحرير ونحريها على وجه يستميل الناس للاطلاع عليها ،
 ورغب مع ذلك أن تكون يومية ، فدهاء بجته الى تعيين [الكاتب] في تحرير تلك
 الجريدة ، وكان الجناب الخديو في انحراف عنه لأسباب غير معروفة ، وانما قيل
 عنه انه كان موضع ثقة الشيخ جمال الدين ، فاجتهد رياض باشا في استرضائه فرضي
 بتعيينه فعين محررا ثانياً وبعد أشهر ذاكره في الطريقة التي يمكن بها اصلاح الجريدة

(١) كان ينبغي أن ينشر ما كتبه الاستاذ الامام عن نفسه في هذه المسألة في
 المقصد الثالث الذي قبل هذا ويشار اليه هنا باختصار مع الاحالة على ماسبق من
 التفصيل ، ولكنتا كتبنا ما تقدم قبل الاطلاع على ما هنا كما وعيناه مما سمعناه منه
 رحمه الله تعالى

فعرض له ما رآه في تقرير وافٍ فأمر بأن ينظر في التقرير لجنة تؤلف من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير ، ثم توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية ، فوضعت اللائحة في قليل من الزمن وأمضاه رياض باشا ، وعين صاحب التقرير رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية فانتخب محررين مجيدين تستميل الناس أقلامهم ، وتنبعث الرغبات الى النظر فيما يقولون ، فتحول حال الجريدة الرسمية الى ما حمده العامة والخاصة

« وقد يقول غير العارف بسير الحوادث » وما مكان الجريدة الرسمية من تاريخ مصر - سعادتها أو شقتها ، طمأنيتها أو قلقها ، تقدمها أو تأخرها ، فنجيبه بأن تاريخ مصر ان كان مجموع حوادث شعب له حياة سياسية وأدبية وعقلية فلنغير مصر الجريدة الرسمية وتحرير ادارتها مكان رفيع من تلك الحوادث ، ومقام سام من ذلك التاريخ كما سنبينه ، وان كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو وتتبدى وتموت ، فالبحت فيه من خصائص علم التاريخ الطبيعي ولا علاقة لما به الآن وربه . تبسم استخفافاً بالامر بعض الغفل الذين لم يتعودوا النظر في طبيعة ترقى الامر ، ولا يحرك احساسهم الا الصدمات الصاعدة ، والقواصف القارعة ، وهم من موضع التاريخ الطبيعي كما قلنا

« واضع لائحة ادارة الجريدة الرسمية لم يكن من ارباب المنازل السامية في مصر . ولكنه نبأ في تربتها واتصلت حياته بحياتها ، وأشرقت مداركه الاحساس بحاجاتها ، فكلمنا تناول عملا ما له علاقة بشؤونها العامة فتح له هذا الاحساس بها من المعرفة بطريق اصال منفعة من المنافع اليها ، فلما ادعى لوضع اللائحة أودعها في مكان غريبة في بابها يعجب لها الناظر فيها ، خصوصاً اذا كان من أبناء الشعوب المتمدة بأو من المقلدين للمتمدنين ، ولكن لكل بلاد طبيعة خاصة بها ، ولكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والازمان

« تضمنت اللائحة ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمحاكم (المجالس الملغاة) ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات بجميع ما لديها من الاعمال المهمة التي تمت أو شرع فيها على أن تتم ، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها وان لا ادارة

الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أي عمل من الاعمال عند ما ترى له وجهاً حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التي كانت الادارة جزءاً منها، وإذا رأت في الجرائد التي تنشر في مصر عربية أو أجنبية ذكراً لخلل في عمل أو سوء تصرف في أمر ما فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية الى النظارة أو الادارة التي يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة ، فان كان حقاً ما نشرته الجريدة أو خذ الخطيء بواسطة رؤسائها، وأشعرت ادارة المطبوعات بذلك ونشر في الجريدة الرسمية ، وإن كان باطلاً كلف صاحب الجريدة إثبات ما ذكره وإلا أنذر مرة بعد أخرى وبعد الثالثة يعطل لأجل أو دائماً على حسب الاحوال، وان من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان قسم غير رسمي ما يعن له أو ما يرد اليه من الفصول الادبية مما له مساس بالاحوال العامة ، وقد منح رياض باشا هذه السلطة لادارة الجريدة إما ثقة منه بالعامل فيها وهو واضع اللائحة ، وإما علماً منه بأن ذلك من مصلحة البلاد وحاجتها الحاضرة

« وأول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والادارات، فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعاني المطاوعة واقتضاها لطول المحابر في الاستفهامات التي لا طائل تحتها، ثم رسم الطريقة الفضلى التي يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوي الامام باللغة العربية من موظفي الحكومة، وخصهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية سراً لمحبوب الادارات واضطر الجاهلون باللغة والتعزير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديرين كاعم النظارات ، وذلك هو تاريخ اصلاح التحرير في مصالح الحكومة ولا زال يتقدم الى اليوم ، وهكذا كان شأن الجرائد ، كانت تتسابق الى اظهار مزاياها في التحرير حتي تعجب ادارة المطبوعات أو العامل فيها، وصلاح بذلك كثير من أساليب الجرائد التي لم تكن لها عناية بتهديب العبارات، وتسابقة الافلام في تنقيح الالفاظ وضبط المطالب، فتمت بذلك نهضة التحرير التي كانت بدأت من سنين قبل هذا ، وكان الضعف يقعدها ، والخوف يرعدها، فقضي لها أن تظفر على يد من كان له دخل في نشأتها

« سهات بذلك المواصلات بين النفس في الافكار، وخف عليها التعبير عما في الضمائر، كثر الكاتبون، وغزرت مادة المتكلمين، وتيسر التعارف بين المتباعدين، ونشأ في الناس نوع من الالفة، أحدثته الشعور بجامعة اللغة، وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصه، أصبح وهو يشرف على فضاء يسع بني أمته، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة الى المقصد العام، كما ان له حركة خاصة الى الغرض الخاص، وفي هذا من تواصل اللذائد والآلام مالا يخفى على عاقل، وله من الاثر في إنهاض النفوس الى طلب ما يصلحها مالا يذهب إلا على غبي جاهل

« كانت تبحث ادارة المطبوعات، أو دائرة التحرير فيها في جميع منشورات الحكومة ولوائحها. وأعمال المديرية وأحكام المحاكم وتبدي رأيها في جميع ذلك وتنشره في الجريدة الرسمية، وكان ما ينشر من الآراء يأخذ مكانا من الاهتمام عند رجال الحكومة، ويوضع موضع البحث، ويبنى عليه التعديل أو التغيير، ويبادر الى نشر ما تم من ذلك في الجريدة الرسمية

« كانت دائرة التحرير تبحث في الجرائد عامة، وما كان فيها متملقاً بانتقاد بعض عمال المصالح كتب عنه من إدارة المطبوعات الى المصلحة التي كانت موضوع القول، وسئل العامل عما نسب اليه، فما أؤخذ إن صحت النسبة أو أنذر صاحب الجريدة إن لم تصح. عملاً بنصوص لائحة إدارة الجريدة الرسمية كما سبق، فارتفع شأن الجرائد في أعين المأمورين والناس عموماً من جهة، واشتد حرصها على تحري الصدق من جهة أخرى، أما القدح الشخصي فكان ممنوعاً على وجه الإطلاق سواء اشتكى من ذلك المطعون فيه أو لم يشتك، لاخلاله بالأداب العامة، فكان ذلك من أسباب تأديب المأمورين وجثهم على السير في طريق الكمال، والمنافسة في محاسن الاعمال، ومن وسائل تهذيب الجرائد وإزائها الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب، مع اطلاق الحرية لها في تبين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب بدون خوف ولا تعتمة، لم يبق عامل ولا رئيس مصاحبة، بل ولا ناظر إلا كان يجب أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية ويخشى أن تكون له سواة فتبدو بنفثة من نفثاتها

« ومن فيكاهات ذلك التاريخ ان مدير بني سويف (إ. بك) بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية ومؤاخذه نظارة الداخلية له على بعض خطئه أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية في مديريته ، وكتب بذلك محرراً غير رسمي الى صديقه مدير المطبوعات، فوقع المحرر في يد رئيس التحرير لانه كان العامل وحده في الادارة، فنشرت تلك الفعلة في منشور عام له ولجميع المديرين، وأدرج المنشور في الجريدة الرسمية. فانظر الى أثر ذلك في أنفس العامة والخاصة. وهذا مما علم الناس طرق الانتقاد على اعمال الحكومة، وأفهمهم انها قد اقامت من نفسها مراقباً عليها يبين مواضع الضعف فيها ، ويرشد إلى طرق التدارك لما يقع من الخلل، وهو مما يرفع الهمم الى اعمال الفكر في معرفة الحق ويسوق العزائم الى طلبه

« لم يضع رئيس التحرير فرصة في انتقاد نظارة المعارف وسير التعليم وإظهار معائب التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الإصلاح، فغضب لذلك ناظرها (ع. إ. باشا) وكان بطيء الحركة خامد الفكر، بعيداً عن الاحساس بحاجة الوقت ، فاشتكى الى رياض باشا من اقتفاء الجريدة الرسمية له وتقييمها على مواضع الخلل من اعمال نظارته ، فلم يسمع منه بل اجيب الى ان الحق أولى بالتأييد ، فان كان ما ذكرته الجريدة الرسمية غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك وهي مستعدة لنشره ، فسكت لان ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد في سبيل انتقاده وبعد ان تكرر النقد ووجد رياض باشا ان السكرت عن الخلل ضرب من الاهمال الذي لا يغفر ، ذا كر يوماً رئيس التحرير في ذلك، وفي الوسيلة الى اصلاح نظارة المعارف، وقال أما تغيير الناظر فغير ممكن^(١) لان له مكانة في نفس الجناب الخديوي من جهة، ومن جهة أخرى فنحن كحزمة ضُمت اعوادها برباط واحد فلا يحسن البدء من لآن بلجل ماعقد بيننا، فلا بد من النظر في طريقة أخرى ، فعرض عليه أن يشكل مجلساً اعلى يكون هو القاضي في ادارة المعارف العمومية وما على الناظر

(١) انما قال هذا جواباً لا ابتداء فقد تقدم أن الاستاذ عرض عليه اولاً ان يستبدل بناظر المعارف غيره ، ويوشك أن يكون قد سقط من الاصل هنا ما هو بمعنى ما تقدم لاننا تلميناه عن الاستاذ نفسه

إلا التنفيذ، فلم يمحض على إبداء هذا الرأي بضعة أيام حتى صدر الأمر بتشكيل مجلس المعارف الأعلى، واعد في أعضائه كثير من اكابر الاجانب والوطنيين وكان رئيس تحرير الجريدة الرسمية عضواً فيه، ولم يخل تشكيل هذا المجلس من الانتقاد لكثرة عدد الاجانب من أعضائه، غير أن رياض باشا كان يريد بذلك ان تكون قراراته معروفة حتى عند رجال الدول الاجنبية ذات النفوذ في مصر فيسهل تنفيذها بدون معارضة من المراقبين ولا غيرهم فيها خصوصاً إذا قضت بصرف النقود وتوسيع النفقات. وقد كان لهذا المجلس أعمال مشكورة لا يذكر أثرها في حالة المعارف العمومية ولم تنصر به كثرة الاجانب فيه فان حمية بعض الوطنيين من أعضائه كانت تحبس بعض الاغراض السياسية في نفوس أربابها، فن بدت وجدت من المقاومة ما يبددها، وكانت اقرارات تصدر جميعاً في مصلحة البلاد وما يجب ان يتبع في سير اتعليم فيها « فلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية من فصل في انتقاد عمل من الاعمال العمومية، أو طاب إصلاح عادة من العادات الرديئة، أو الأخذ بفضيلة من الفضائل التي بني عليها العمران، وكانت مخاطب العامة بلسان الحكومة وتخطب الحكومة بلسان العامة، لهذا كان لكلامها من الاثر في الانفس ما لم يكن لكلام غيرها من الجرائد. ومن يطلع على أعداد تلك الجريدة يجد من نفسه هذا الاثر حتى اليوم، وما كان المقال لاظهار براعة أو الافتخار بمعرفة بل كان يكتب ما يكتب بانتظاراً لاثره في الانفس لا غير، وما كان الاثر يتخلف عنه

« بهذا وبما سبقه تنهت الافكار وبدأت الحياة الاجتماعية تدب في جسم أمة فرقها الظلم وأمانها الجور، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجتها، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية إسلامية وقبطية لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالترية، ولم يكن يسمع بمثل ذلك في مصر من قبل » اهـ ثم قال

دار الكتب العربية ودار العلوم

« اتجه عزم نظارة الاوقاف إلى الاخذ بوسيلة من أجل وسائل الاصلاح وهي تقريب الكتبخانة العربية ومدرسة دار العلوم من الجامع الازهر وتوسيع نطاق المدرسة إلى أن يمكن احتواؤها على خمسمائة تلميذ، وأن يرتب التدريس فيها على طريقة

تؤدي الى تكثير الاساندة المهنيين لكل نوع من أنواع المعارف اللازم تعميمها في الامة، ولكل طبقة من طبقات المدارس، بل الى إعداد عدد كبير من أهل الذكاء لادارة كثير من الاعمال الادارية والقضائية في البلاد، وقد قدرت فوائد هذا المشروع في عشرين سنين بما يعظم مقداره ويتجاوز حد ما يتصوره المهاترون في هذه الاوقات، وبهذا كان يتسنى لنظارة الاوقاف أن تقدم الامة المصرية خدمة لاحقة بذمتها بدلا من صرف نقودها بين الماء والطين، وبناء معابد قلما يوجد فيها أحد من المصلين، بل بهذا كانت تقيم الهياكل الالهية في قلوب المؤمنين، وتزيد في عدد المصلين الحقيقيين، فان ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفسهم الوسائل لتوسيعها. وإقامة ماتدعو اليه الحاجة منها، وكان توجه نظارة الاوقاف الى هذا المشروع وبناء على ما عرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضاً» سم قال

اصلاح نظام العسكرية

« وجهت الحكومة عزمها لاصلاح في نظام العسكرية فبعد أن قررت مدة الإقامة في الخدمة العسكرية بخمس سنين ورجوع العسكري الى أهله بعد ذلك تحت الاحتياط مدة ست سنين ثم محو اسمه بعدها من دفاتر العسكرية، رأت أن الضباط الكبار منهم لا يمكن أن يكونوا من المساكر المقترع عليهم لان المدة المقررة للخدمة لاتكفي في أن يصل العسكري الساذج الخالي من المعارف الجندية الى درجة تؤهله لان يكون ضابطا. فلابد أن يحصر تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل في المدارس الحربية لا غير. وهو رأي معقول في نفسه لا يخطيء مصلحة البلاد في شيء»

اصلاح الحاكم

وذكر الاستاذ هنا اهتمام الحكومة باصلاح الحاكم القضائية وإعداد الوسائل لذلك، ودعوة القضاة الى المداولة في أمر الحاكم المختلطة لثبات شيئاً من حق المساواة بين الوطنيين والاجانب

سيرة الحكومة بالاجمال

﴿والخديو توفيق باشا والوزير رياض باشا بشيء من التفصيل﴾

بعد هذا بين الاستاذ سيرة الحكومة بالاجمال، وانها كانت موجهة الى مافيه الخير لمصر وأهلها، ولم يكن بناؤها على أساس الاثرة وقاعدة الاستبداد بالسلطة لقضاء شهوة الحاكين وأعوانهم، وذكر من مناقب الخديو توفيق باشا: العفة واللين والتعجب الى الرعية، وتعرف أحوالها بالسياحة في المدن الشهيرة، وبعمده عن السرف، واكتفاءه من النساء بأميرة واحدة، وترفعه عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره . . . من الامور الفاضحة . وذكر نتيجة ذلك بقوله : فاجتمع له في أنفس الرعية : المحبة والمهابة، وهما أقوى سند للحاكم وأشد ركن يعتمد عليه، وهما البقية التي تحفز اليها الهمم، وتحتل نحوها العزائم، وتطهير دونها الرقاب، والسعيد كل السعادة من الحاكين من هيا له القدر أن ينالها

وذكر من سيرته في حكومته اتفاقه مع نظارها وسائر كبارها، على ما يخفف عن الرعية أثقالها، ويرقي عقولها وآدابها، ويفتح أبواب السعادة في المستقبل لها، مع شدة تمسكه بحفظ مسنده، وتقوية سلطته، وان هذا رفع قدره في نظر الاجانب أيضاً، وان الناس تناسوا بهذه السيرة ما أتاه في اول حكومته من النفي بغير محاكمة والمسارة الى تعيين المراقبين من الاجانب وإعطائهم الحقوق الواسعة، وكادت تندمل تلك الجراح بالقاء تبعة الخطأ فيها على غيره

ثم ذكر من سيرة النظار العمل فيما يعود على البلاد بالمنفعة أيضاً (قال) « ولم يكن لاحد منهم شهوة الاستبداد بالامر في عمله، لمحض إعلاء سلطته ووضع من دونه تحت قهره، واستعباد الرغائب والارادات لرغبته وإرادته، وجمع ما ينسر له أن يجمع مدة استعلائه على كرسي الوظيفة » وقد استثنى منهم واحداً قيل انه كان يمد يده الى بعض الحطام في بعض الاعمال الجزئية التي لا يظهر لها أثر في كلياتها، وآخر كان يطيع العصبية الجنسية، وسيأتي ذكره

ثم بين الأستاذ حسن تأثير هذه السيرة في الناس في نشاط العقول وتحفز الهمم والاحساس بالجاذب الى مطلب البلاد «وهو أن يكون فيها من قوة الارادة ونفاذ البصيرة ما يتمكنهم من حفظ ما بقي لهم، واسترداد ما ذهب منهم على مدى الزمان. وقد قنع العقلاء من طلاب الحرية العارفين بحاجات البلاد الناهضين بقدر استطاعتهم الى البلوغ بها اقصى أمانيتها، مع نفوذ البصيرة في شؤونها - رضي هؤلاء بما شهدوا من أعمال الحكومة وانضموا في العمل اليها، وقبلوا ما كان في جسم الحكومة من العال اختياراً لا خوف الضررين، وخضوعاً للحكم الضرورة مع قوة الامل في الشفاء» وذكر ان ضياء الآمال كان يسطع على وجه كل أحد حتى الساخطين على الوزارة إذ أحس هؤلاء الساخطون بشيء جديد من القوة وان مطالبهم على ما فيها من العايش سهلة المتناول.

(قل) «وكان أهل الاصابة في الرأي يمتنون لو استمر سير الحكومة في سبيلها ذلك عشر سنين على الأقل، فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانه، ويستوي سلطان الارادة السامية على عرشه، وترسخ الماسكات الحسنة في نفوس المستبدين بمقتضى (ميل) الفطرة لاقتنائها - وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعد لهم الكرم الالهي - وتعود الى النفوس سكينة بعد ذلك الاضطراب الشديد، وعند ذلك كان يتبين لاهالي البلاد أن يزعموا الى نظام أكل مما أعطي لهم، وأن يطلبوا سبيلاً الى تخفيف شيء مما كان لا يزال يشغل عاينهم

«ولكن وانفساهم حال دون بلوغ تلك الاماني أمور (منها) ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض النظار (ومنها) ماله علاقة بالجناب الخديو (ومنها) بأسببه امتداد السلطة الاجنبية الجديدة (ومنها) نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا في ذلك من الوسائل لاثارة الفتنة لقلب وزارة رياض باشا

شمال رياض ومعارفه وأخلاقه وأعماله

عند الاستاذ في رياض باشا فصلاً وذكّر فيه ماله وما عاينه، وقل انه استعمل غاية الرأفة في الحكم عليه، وأن الذي قد حمله عليه ضرورة بيان أسباب الفتنة القريبة، وقد بدأ هذا الفصل بقوله: «رياض باشا خير من طبقته من المصريين

بلا نزاع ، والنزاع في ذلك مكابر ، وفيه من محامد الصفات مالا ينكره العدو النصف ، ولكن يصحب هذه المزايا ما قد يؤاخذ عليه « ثم بين ذلك بما تختصره على ايجازه واختصاره ، قال :

رياض باشا ذكي بالفطرة وقد اكتسب بالتجربة في الاعمال الادارية ما لم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلي يرجع اليه ، ولم يكن لديه علوم كلية ترد اليها الجزئيات ، فقد كان يقيس الجزئي على مثله وربما لا يكون جامع الشبه بينهما تاما فيقع في الخطأ

فيه همة وقوة عزم لا تنكر ، ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر في العواقب ليتجنب ما يكره منها

صادق النية مخلاس السريرة في خدمة البلاد ، ولكن لا يبال في تأدية ما يراه واجبا عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن ان من الواجب على كل أحد ان يعلم حسن نيته وإن لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله وإن لم تظهر الغاية الصالحة منه

له نشاط في العمل ، لا يصعبه كلال ولا ملل ، ولكن تأخذ الجزئيات من زمنه بعض نصيب الكماليات

فيه مزية التفويض للعامل في عمله ، ومنحه كمال الحرية فيه اذا وثق به ، وامكن ليس عنده قاعدة يبني عليها ثقته . فتارة يثق بالاذكياء العارفين والصادقين وتارة باضدادهم

اذا غضب على أحد مزج في غضبه بين احساسه الخاص وما يتعلق بالعمل العام ، فيسقط من نظره وإن كان فيه من الفضيلة ما يعترف به العالم أجمع ، ويفوته الانتفاع منه ، ولهذا يحترم أحيانا من لا يستحق الاحترام ، ويحتقر من يستحق الاكرام ، ويندم المتعصبين الاوهام ويحل الكثير من أفرادهم

يحب المصريين جملة وليس في طبقة من يحبهم مثله ، ولكنه يحب أن يراهم في أعلى درجات الكمال المستظر فينادي عليهم بالويل ويرميهم بالنقيصة ، لانهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما ألصقته بهم الايام الظالمة ، وقد أعجزه هو نفسه التجرد

من ذلك والخروج منه — وشبهه بالاب الشديد الحرص على اعلاء منزلة أبنائه الذي لم يسلك مسلك اللين في تربيتهم وهو أهدي المسالك وأقربها
نظيف القلب بعيد عن الحيلة ، اذا مال الى شيء أو نفر منه ظهر ذلك في قوله وأسرة وجهه وحر كات أطرافه ، فتراه يميل الى اخفاء سره ، وطهارة نفسه تحاول اظهاره فتكون الغالبة

يهاب ذوي النفوذ من الاجانب ولكنه كان يجد السبيل لمقاومة بعضهم اذا وجد من آخر سنداً ، وهو أمثل طبقة في ذلك
جريء مقدم في الاعمال كأن لا شيء يخيفه فاذا عرض له ما لم يستطع تذليله رجع الى أقصى ما يمكن أن يبلغه الاحتراس فينقطع العمل . . .

لم يكن بخالج فكره ربيقة في سكون المصريين الى الطاعة في كل ما يؤمرون به حملاً لهم على سالف عهدهم فكان في غابة الطأنينة من ناحيتهم فلم ير انه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثرم من جهة المقابلة في تنفيذ السلطة و من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب ثم خص الاستاذ عثمان رفقي باشا الذي كان ناظراً للحرية من دون سائر نظار الوزارة الرياضية بذكر كلمة موجزة من صفاته لان سيرته من أعظم مقدمات الفتنة العراية فقال
عثمان رفقي باشا

« كان رجلاً ساذجاً محدود الادراك بعيداً عن التبصر في العواقب لم يكن يهيمه بعد قبض راتبه الشهري سوى أن يرضي ميله ويروي ظمأه الى حصر السلطة العسكرية في بني جلدته من الجراكسة وبحريد من ساء حظهم بالولادة في مصر منها مع معاملتهم بالاحتقار. كان يطبع في ذلك تلك العصبية المقنونة التي يبطنها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين في مصر كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مست آباءهم أو تمقت أديبارهم ، أو كأن أهل مصر سلبوهم شيئاً مما كانوا يملكونه ، أو منعوم حقاً كانوا أهلاً لان ينالوه »

❦ تأثير سيرة رياض باشا وشمائله في مقدمات الثورة ❦

قال: « بعد ماتيين من موجز سيرة رياض باشا وهذا البعض من نظاره يمكنك
(م ٢٤ ج ١ — تاريخ الاستاذ الامام)

أن تسمع بعض مآثرته تلك السيرة » ثم قال ماملخصه

١ — ان إبطال رياض باشا للسخرة كان عدالة لا تنكر ولكنها أحق عليه جميع الوجاه الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالها، ولم يكن ذلك ضاراً لولا ما صحبه من استعلائه عليهم وتعريضه بسوء ماضيهم ، حتى رأوا انه ينبغي لهم التخلص مما يس كرامتهم، فشكوا لمقاومته جمعية تسمى جمعية حلوان كان فيها م. ش باشا وش باشا وع. ل باشا وغيرهم فلما خاب سعيهم تربصوا به الدوائر. وكان قد اشتد على بعض الجرائد فألغاهوا بأسباب لم تكن بالقوية فمنح بذلك خصومه آلة تهيج الآراء لمقاومته فذهب [أديب إسحاق] أحد محرري تلك الجرائد للمغااة الى أوربة وأنشأ جريدة سماها القاهرة لم يكن لها موضوع سوى رمي رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد الى الاجانب حتى كانت تسميه [رياضستون] وكان ينفق على تلك الجريدة الحديد والاسبق (اسماعيل باشا) و ر. باشا و م. ش باشا وع. ل باشا وغيرهم ، وكان الكثير من الساخطين يتلذذون بتلاوتها كما يتلذذ المريض بحكاية عاتيه ووسائل شفائه

٢ — زاد حنق أكثر الاغنياء عليه بزيادة مئة وخمسين ألف جنيه في أموال الاطيان العشورية وهو لم يبين الضرورة الداعية اليها ليتضح عذره فانهز الفرصة توبار باشا وأب كثيراً من الاعيان المظاهرة بالشكوى من الظلم والفساد الذي يحل بهم — وكثير الاجتماع لذلك ونفي من كان واسطة في إثارة للتظلمين وهو حسن موسى العقاد ، وبرز توبار باشا مصر بتنبئه يقال انه صدر اليه ، ولكن جرح الاغنياء لم يبرأ الله بذلك

٣ — وثق بمن لم يكن أهلاً لثقمة من المديرين فأساءوا الى وجهاء البلاد ولم يكن يسمع الشكوى فيهم لاعتقاده أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد. وهذا صريح في الأساطير ولكن ليس من الحزم جعله علماً. ولهذا وفر في نفوس الاعيان ان رياض باشا عذرهم يريد استقامتهم وإقامة من دورهم مقامهم

٤ — ألغى بتقرير الامن كماداته في كل وزاراته كان البلاد في حرب دائم، وأعطى المديرين في ذلك سلطة أسوأ في اسمهم لما فأخذوا بالظن ونالوا من كثير

بالشبهة فأزعج ذلك نفوس الباقيين فخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم بغير حق ولا عدل « إذا صوبنا النظر الى مادون المرتبة العليا من مراتب الانسانية وهي المرتبة التي يصل فيها الى منازل الملائكة في كمال الصفات، وأخذنا الانسان من وجهته البشرية، رأينا أن المنافع العامة مهما عظم مقدارها وعم أثرها لا تصرف الشخص عن نفسه، ولا تنسيه منافعه ومضاره الخاصة به، فما الظن بقوم تنقصهم التربية وتعوزهم البصيرة، وقد شعروا بشيء من القوة لا يدركون كيف يستعملونه؟ فمن مسه ظلم المأمورين ولم تسمع شكواه — ومن يترب أن يؤخذ بما أخذ به غيره بغير محاكمة عادلة — ومن نكبته شبهة مخيلة لاحقيقة لها — ومن يخاف أن يتمثل في خيال حاكم جاهل بصورة لا تعجبه فينال ما نال صاحبه — كل أولئك وإن كانوا لا ينكرون فضل الحكومة فيما أتته من الإصلاح كانوا يطلبون تغيير هذه الحال بما هو أدعى للسكينة والاطمئنان وتوفير المنافع. وأنزه الناس غرضاً كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه الى ذلك من نفسه بما تكشفه التجربة في زمن قصير أو طويل . أما الضجرون ومن لا تباع المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة فضلاً عن أقصاها فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة الى أخرى ولا يكفون عن الطعن فيها والتنديد بها مهما استطاعوا

« تلك الرغبة التي كانت تلعب بالنفوس وتجيئ في القلوب آخر عهد اسماعيل باشا والايام الاولى من حكومة جناب الخديو السابق رحمه الله — تلك النزعة الى تأسيس الحكومة على قاعدة الشورى ومنح بعض مستخين من الاهلين حق المشاركة في كليات أعمال الحكومة — ذلك الغمأ وجد مسكناً من مبادئ الإصلاح فاطمأنت النفوس الى عدل الحكومة في القضايا العامة وقررت تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضاً عن اشتراك الرعية في الحكم. لكن تلك النزعة انبثت مرة أخرى بعد مدة من الزمان لهذه الاسباب التي سبق ذكرها ولا سبب سذكرها فرجع التحدث بين الناس الى ما كان عليه. وأخذ الناس يقولون لا صلاح في الاستبداد بالرأي وإن خالصت النيات. فرأي واحد عرضة للخطأ . وإن تحققت تراهته من الغرض »

رياض باشا لم يكن يعرف أن في البلاد من يطلب هذا الامر طلباً صحيحاً لانه لم يختبر الناس ولم يصنع حق الاصغاء الى ما كان يدور بينهم . وكان يعتقد أن في مجلس الشورى تعويقاً عن الاصلاح المطلوب لان أعضائه تعوزهم الخبرة بالاحوال السياسية والادارية فلا ينتظر منهم إلا المعارضات وإطالة البحث في أمور يجب فيها السرعة . وكان يوافق في هذا الرأي كثير من العقلاء ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بشفاء هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتشكيل المراقبة الثنائية وبث أهم المسائل السياسية ، إذ لم يبق بعد ذلك إلا الشؤون الداخلية والقضائية ، وكان يمكن تحويل المجلس بعض الحقوق التي منحها الامر العالي من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج ، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفضاً باناً فكان ذلك مما زاد الرغبة « ولو أنه أجاب بالرفق ووضع المسألة موضع البحث وطاول في بعضها سنين - لكان قد أرسل الآمال تسرح في فسحة من النظرة ، ولم يكن قد دعاها بالشدة الى الانضمام الى من يؤلب عليه ، ويشير الاحقاد حواله »

سيرة الخديو توفيق باشا

(المفضية الى الثورة)

قال « بعد امضاء قانون التصفية واطمئنان الحكومة من ناحية الاوربيين ومشاكلهم وجد الجنب العالي فراغا من الزمن يمكن أن يسمع فيه أو يلاحظ ماله مساس بسلطته التي كان ينبغي أن تكون له من جهة ماهو خديو وحام أعلى في مضر «لين عريكة الجنب الخديو أو رعايته لجانب والده أو حسن ظنه فيمن سبقت لهم أعمال في خدمة العائلة الخديوية - شيء من ذلك حسن لديه إبقاء الكثير ممن كانوا في خدمة حضرة الخديو الاسبق في معيته السنية وأغلبهم كانوا ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنا ولم تألف قلوبهم وجدان الرحمة والشقة على الاهالي، ولهم مطامع لا تهدأ بعد ماذاقوا من لذائذها الماضية ماذاقوا . هؤلاء يغث عايهم أن تروا السخرة الشخصية قد أبطلت ، والسلطة الادارية قد قيدت . وتحول مجراها عن رجال المعية الى ناحية النظارات ، ولم يبق لهم التصرف المطلق في الاعمال والمصالح

كما كان لهم من قبل، بل أحسوا بأن من الاحكام العمومية ما يجري عليهم كما يجري على أفراد الاهالي، وهذه غضاضة في نفوسهم لا يسهل عليهم الصبر عليها، فوجدوا من ذلك على رياض باشا ظناً منهم انه هو السالب لتلك الحقوق المكتسبة

« ميل الجناب الخديوي الى أن يكون محبوباً من رعيته كان يبعثه على إفاضة الاحسان بالرتب والنياشين على من يراهم اهلاً لولائه أو على الوعد باجابة بعض المطالب المعروضة عليه من ذوي وجاهة أو من متوشحين بوشاح ضرورة، وعهد جنابه بالسلطة الخديوية أن لاتعارض في مجراها خصوصاً إذا كانت متجهة الى المالا ضرر فيه بالرعية حسب اعتقاده ولا يمس مصالح الاجانب. لكن رياض باشا كان يجد في كثير من ذلك موضعاً للمعارضة وهو مع خلوص نيته في خدمة الخديويين لا يستطيع إخفاء ما في نفسه من غيظ أو ضجر مما لا يراه حسناً فكان يظهر في أقواله ما ربما يחדش نفس الجناب الخديو. وقد كان يأتي في بعض مقالة ما يشي الى التهديد

بالاجانب وو كلائهم كما أخبرني به الصادق في روايته. ورأى الرابضون حول الاريكة الخديوية لوائح الانفعال تظهر مرة بعد أخرى على وجه جنابه ففتح لهم بذلك باب يلجونه لشفاء ما في نفوسهم، فأخذوا يستزلون الجناب الخديوي الى بث ما في نفسه فيفيض بما كان يجده، وهم يفيضون في شرح الاقوال وتوضيح دائرة المقصود منها وتحميلها مالا تحتمله، كأنهم مشايخ محققون، يلقون دروساً على طلبة في الازهر مدققين، والجناب الخديو يسمع منهم ويسرح الى ما يقولون. وقد انتهى به الامر رحمه الله الى انه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا في كلامه وحر كاته أثناء خطابه وهياة جلوسه وما يرى في مشيته من دلائل الخيلاء في زعمهم، وما شابه ذلك. وكان رحمه الله يجد في ذلك نزعة لخطاه، ونوعاً من التسلية تسر بها نفسه، ويمضي بها وقته. وكان غيظه يزداد على رياض باشا كلما بليت منه معارضة في أمر صغير أو كبير بما كان يصوره أولئك المتعلقون. وكما رأى رياض باشا علامات الانفعال اشتد ضجره وكما اشتد ضجره وظهر في قوله أو فعله التهب غضب الجناب الخديوي عليه وان لم يكن يظهره له، فوصل الامر في اقل من سنة بعد إمضاء قانون التصفية الى ان الجناب الخديو لم تكن له أمانة إلا اعزل رياض باشا، لكنه كان يظن ان قناصل الدول خصوصاً

قنصلي فرنسا وانكلترا يعارضان في عزله لو أراداه. فأخذ ياتمس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدول على الرضاء به بدون معارضة، فاستأفت بعض من حوله نظر جنابه إلى الحادثة القريبة العهد التي كانت سبباً في عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديو السابق فرآها أنجح الوسائل «

إثارة الخديو الضباط على رياض

« أخذ الجاب الخديوي من ذلك العهد يستدني منه أمير الألاي الاول الذي كان يحرص السراي وهو علي بيك فهمي ويستدعيه إلى مجالسه الخاصة ويمارحه ويرج به في الحديث على اختلاف شؤونه ويظهر له أمانيه في الاحسان عليه وعدم وجود السبيل إلى ذلك حتى قال له مرة: اني أردت الانعام عليك بألف جنيه ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا . ومرة اني أردت الاحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا. وأمثال ذلك حتى اعتقد علي بيك فهمي ان الجناب الخديوي ساطط على رئيس نظاره وان رئيس نظاره عدو منفعة ومنفعة إخوانه، وعلى المؤلف عندنا لم يخف شيء من ذلك عن بقية الضباط الكبار بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجري حولهم

« كل هذا والمرحوم عثمان رفاقي باشا يشتد في معاملة لضباط الذين جنى عليهم آباؤهم بولادتهم في مصرويهيء المشروعات لراحة القوة العسكرية منهم، فإذا كان يدور من الحديث بين علي فهمي وبين اخوانه الضباط الفلاحين؟ وماذا يتصورونه في منزلة رياض باشا من الخديو؟ وماذا يتخيّلونه في ميل جنابه إلى فصله؟ وماذا جسمته أوهامهم من معاداة رياض باشا للضباط حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفاقي فائما هو من رئيس النظار؟ ولينظر ماذا بهجسون به من وسائل التخلص من رياض باشا ورفاقي باشا معاً على ظن انهم لو فعلوا شيئاً من ذلك ذنبا يفعلون ما يرضي خديويهم، ثم تأمل في الاعاليل التي يمكن أن يتخذوها حجة على ان ما يعملونه في هذا السبيل موافق للصواب آت على وفاق الشرع

سيرة الاجانب من أسباب الثورة

عقد الاستاذ ههنا فصلا في بيان كون نفوذ الاجانب كان من أسباب الثورة

يؤكد ببيان أن الضباط وغيرهم لما استرحوا من بعض المظالم انفسحت آمالهم في
 السكال الشفاء مما بقي من عللهم والتنبه لها وزيادة التألم منها كالمريض يشعر بالألم
 بقدر الأمل في الشفاء وبهذا انتبه ظهر لهم أن قانون التصفية وضعه الاجانب لمصلحة
 الاجانب وأنه حرم البلاد حريتها، وأن الاجانب يتقاضون رواتب فاحشة من الخزينة
 في إدارة المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدائرة السنية وسائر المصالح
 التي وظيفوا فيها مع ادعاء فقر الخزينة والبلاد . وانهم هم اصحاب الكلمة النافذة في
 الادارة والمالية وانما يعملون لمصالحهم لا لمصالح البلاد، فالحكومة الخديوية أصبحت
 تابعة لحكومات أخرى لانهم بسعادتها ولا شقائها إلا من وجه ما تبقى قدرة على
 تأدية ديون رعاياها وتقديم الرواتب الوافرة الى المندوبين من قبلها ففسوة الاجانب
 التريبيين وسيرة المحكمين منهم مما أوقع في خواطر المدين بذلك « ان حقيقة الظلم
 واحدة وانما طورها الجديد أرسخ أساساً وأضبط نظاماً وأظهر استعداداً للخلود
 فلا محيص عنه . فلو استقال سلطانه وامتد من دائرة الى أخرى آكل الامر الى وقوع
 البلاد في شدة منظمه وضيق محكم الحلقات »

وذكر في هذا الفصل أن ما كان يقوله الساخطون على رياض باشا وما ينشرونه
 في الجرائد التي تطبع في أوروبا وما ظهر من المنشورات والرسائل الدالة على أن
 الحزب الوطني يرى مقررته لجنة التصفية وما أشار به المراقبون لا ينطبق على
 رغبته وأمانيه للبلاد . كل ذلك كان يهيئ الفرص للناقين على رياض . وذكر
 أيضاً أن الاجانب لم يكونوا راضين عنه لان ربحهم من البلاد قل بحسن سيرته .
 وقد حصل نزاع بينه وبين البارون درنخ قنصل فرنسا الجنرال بشأن قانون المحاكم
 المحتلطة إذ كان الباشا يريد تخفيف امتيازات الاجانب فيه والبارون يأبى ذلك
 فأخذ يسعى في إيجاد العارق لفصل رياض باشا

(أ - باب تألب الضباط الذي أفضى الى الثورة)

تقدم أن بعض الضباط رفعوا عريضة الى وزارة شريف باشا التي سبقت
 وزارة رياض باشا يلتمسون بها عزل ناظر الجهادية تملاً لبرداء الطعام وعدم النظر في

أحوال المستودعين وأرباب المعاشات . فناظر الجهادية لم يهتم بالبحث في ذلك ولا في أسبابه ولم يسع لتفريق من جمعتهم تلك النزعة ، ولم يسلك مسلك رئيس النظار في المصالح التي تولاهما بأن يحمل العسكر على الأخذ بالأعمال العسكرية وتعاليمها ، ولم يلزم الضباط إحياء الآداب العسكرية وإعادة النظام السليم إليها ، بل اشتغل بتقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصري والجر كسي - وترك كبار الضباط هملاً بغير عمل

ولما جاء وقت وضع الميزانية وعزمت الحكومة على تنقيص الجيش في أواخر سنة ١٨٨٠ ميلادية وحصر ترقى الضباط في المتعلمين بالمدارس الحربية اضطربت أنفس الضباط المصريين واعتقدوا لسوء ظنهم بالوزارة أن هذا النظام إنما أحدث لقضاء شهوة ناظر الجهادية فاجتمعوا للتشاور في أمرهم

عبد المال بك وعلي فهمي بك

وبينما هم كذلك أحال عثمان رفقي باشا عبد المال على الاستيداع وأقام أحمد عرابي مقامه . واتفق أن انحرف الخديو عن علي فهمي أمير الأتالي الاول وأبدى رغبته في نزع سلطته عن تلك الموسيقى الخديوية وفرقة المراسلة - وهو يعلم من سخطه على رياض باشا ما يعلم ويعتقد أن سلطته لا تنهض بالتخلص منه - فخاف أن يحل به ماحل بعبد المال وأن يبدل بجر كسي فانضم الى من مسهم الظلم وكشف لهم حال الحاكم والحكومة كما سمع وعلم من الخديو نفسه

أحمد عرابي بك

قال «أحمد عرابي بك كان ينظر الى رؤسائه من الجرا كسة نظر العدو الى عدوه، وكان يحقرهم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئاً في الكثير منهم ، وكان أجراً اخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة ، فلما شرعت فظارة الجهادية في عملها الجديد وبدأت باستيداع عبد المال غلب على ظنه أن ما يصل الى عبد المال اليوم يصل اليه غداً فيحرم مما يرى نفسه أحق بالتمتع به ، ووجد هو وإخوانه فيما كشفه علي فهمي من النفرة بين الخديو ورياض باشا سبيلاً للجرأة

على مقاومة تلك المشروعات ففزع الى رئيس النظار وشكا اليه مامس عبدالعال
 قبلت شكواه بعد تردد استمر مدة أيام وأبقي كل في وظيفته »
 أحمد بك عبد الغفار

كان [قائم مقام سواري] وكان بينه وبين ناظر الجهادية منافرة لامور أهمها
 تقاربهما في درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة فكان كل يطلب الخلاص من
 الآخر ولا يجده . وعرف الخديو ما بينهما وشكا اليه عثمان رفقي تصرف أحمد
 عبد الغفار معه فكان من ثمرات ذلك أن الخديو كان يستدعي احمد عبد الغفار
 في طريق منزله الجزيرة ويستوقفه ويحادثه الزمن الطويل مظهرًا ميله اليه ويسمع
 شكواه من عثمان رفقي ويعدده باشكائه ورفع ظلامته . وهذا مما كان يشجعه على مناوأة
 رئيسه ويزيد في حقد رئيسه عليه (وذكر الاستاذ حادثة ضاعفت العداوة) .
 وبعد أيام كان عرابي وبمضى شركائه في الخوف من نظارة الجهادية في ولية
 بيت نجم الدين باشا دعاهم اليها اثر قدومه من الحج . وبينما هم على المائدة قال
 اسماعيل كامل باشا : ان ناظر الجهادية اتى اليوم عملا لا يحمد عليه . عزل أحمد
 عبد الغفار من قائم مقامية السواري وعين بدله محمد شاكر بك . فلم يتم أحمد عرابي
 عشاءه بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط الى بيته وكان فيهم علي فهمي
 وعبدالعال ودعوا احمد عبد الغفار وكتبوا تقريراً ضمنوه الشكوى من عزل احمد
 عبد الغفار بلا محاكمة على خلاف القانون . وذكروا أشخاصاً آخرين عزلوا واستبدل
 بهم شيوخ فانون أو جهلة دونهم في المعارف العسكرية ، وعددوا من سبق من
 الضباط الوطنيين الى السودان ونحو ذلك . وطلبوا إحالة القضية على مجلس عسكري
 ينظر في جميع أطرافها ، فان كان لهم حق منجوه ، وإن استحقوا عقوبة قبلوها .
 وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال اعماله وميله عن النظام طاعة لميل خاص
 رفعوا نسخة من هذا التقرير الى الخديو وأخرى الى رياض باشا بامضاء أحمد
 هرابي وعلي فهمي وعبدالعال حلبي بالنيابة عن جميع الضباط المصريين في التقرير
 ١٧ يوما تحت المداولة بين الخديو ورئيس نظاره وكان من رأي رياض باشا أن
 يجاب طلبهم في تشكيل المجلس العسكري ولكن الخديو لم يقبل ذلك
 (٢٥ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

مظاهرة الملا المصري للضباط

« شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد في مصر ، علم الكثير من الاعيان والعلماء والموظفين باصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره ، فهب عند ذلك جميع الراغبين في تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الجناح العالي واتحدت وجهتهم في الغاية وإن اختلفت الدواعي والبواعث ، فطلاب مجلس النواب يؤملون في التغيير أن ينالوا تشكيله ، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه يرجون بالتبديل كشفا لكربتهم وأمناً على أنفسهم ، والواجدون على السلطة الاجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم ، والذوات الكرام الطامعون في رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون في ارضاء شرهم ، والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية ، وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى في الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتي خلفه ليمكنه مجاراته في مطالبه ، والجناح الخديو لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظر بل تلك أمنية من أمانيه

« فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الالحاح في الطلب ، وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث اليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطالب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأتية ناظر الحربية لا يمكن الصبر عليه ، ثم كانت تأنيهم الاخبار بأن الجناح الخديوي لا يأتي إجابة طلبهم بل يحب أن يمكن لهم أمنيته وانما رياض باشا هو الذي لا يريد ذلك ، والله أعلم من أين كانت تأنيهم هذه الاخبار مع ان رياض باشا كان يريد تحقيق الأمر حسب ما طلبوا في تقريرهم كما قدمنا

« زاد هذا كله في جراءة الضباط وكما طالت مدة التردد في حسم المسألة كثرت الاشاعات وقويت عزائم المخرجين وغلب الظن بضعف الحكومة وقد حصلت عدة مقابلات بين رئيس النظار وبينهم قال دولته في إحداها لعرابي ومن كان معه إن ما أودعتموه في تقريركم من طلب عزل الناظر يعد خروجاً عما حدده لكم

القانون وتلك مهلكة سياسية فقد يخشى أن يمد الا جانب ذلك سبيلا لزيادة تداخلهم في الحكومة واشتداد وطأهم عليها

« وأحس بذلك البارون درنج فأرسل الى أحمد عرابي واخوانه يقول لهم انه يسره ما يراه من صلابتهم في عزيمتهم، واشتدادهم في المطالبة بالعدل فيهم ، فمليهم أن يثبتوا في مطالبهم ولا يضعهم مليم بدون به ، فهو بصوت حكومة فرنسا يسند الطالب العادلة وليس في الامكان ان حكومة متمدة تقيم الموانع في سبيل الناهضين بطلب حقوقهم ، الساعين في الانتصاف لأنفسهم ولا بناء بلادهم

بدء الثورة بمحاذة قصر النبل الشريفة

جعل الاستاذ لهذه الحادثة تمهيداً بين فيه ان الضباط كانوا يتوهمون ان رياض باشا مؤيد في منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ بمصر — وان الخديو نفسه كان يقطن ذلك — ونتيجة ذلك ان مقاومة وزارته مقاومة للدول فلا يتعرض لها الا بوسائل الرفق واللين ، فلما قال فنصل فرنسا الجبرال لعرابي ما قال « انكشف ذلك الوهم، ونحول السير من سؤال الخاضع، الى إلحاح المضارع » فآخذ أحمد عرابي وعبد العال وعلي فهمي يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ماتسنة نظارة الجهادية من نظام ضار بهم وطلب عزل ناظرها مثار تلك المخاوف

علا نداء الضباط بذلك وكثر الاضطراب فانمقد بمجلس النظار برئاسة الخديو للاسراع بحل هذا المشكل وحضره بعض رجال المعية « فكان من رأي رياض باشا أن يحال تحقيق مافي التقرير على مجلس عسكري . وكان من رأي ناظر الجهادية القبض على الضباط الثلاثة عوامل هذه الحركة والحكم عليهم بالعقوبة التي استحقوها بجرأتهم هذه . ووافق بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية، وكان الجناح الخديوي من هذا الرأي . واستمر الجدل ذلك اليوم الى أن جاء وقت الظهر ولم يتقرر شيء فقاموا الى المائدة ، وبعد الفراغ من الطعام وقبل الرجوع إلى المداولة جاء أحد رجال المعية (طلعت) باشا الى رياض باشا وأسرأ اليه ان بعض الناس يتهم دولته بمجاعة الضباط والاخذ بناصرهم طمعاً في ان يملك قلوبهم ثم يستخدمهم في

الاستيلاء على الخديوية المصرية ! فلما عادوا الى الجلسة لبث رياض باشا ساكتاً وصارت الاغلبية على رأي الجنب العالي وانما سأل رياض باشا ناظر الجهادية: هل تتحمل تبعه هذا الامر ؟ فقال نعم . وصدر الامر بالقبض عليهم وسجنهم في ٣١ يناير سنة ١٨٨١ . هذا ما حدثني به أحد النظاري في ذلك الوقت ولاأظنه إلا صادقا « لم ينفذ الامر الخديوي بقوة الحكومة وسطوتها كما جرت به العادة ولكن سلك في تنفيذه طريق الحيلة والغدر »

ثم بين الاستاذ ذلك بما حاصله ان ناظر الجهادية كتب الى الضباط الثلاثة يدعوهم الى ديوان الجهادية للمذاكرة في ترتيب حفلة زفاف الاميرة جميلة شقيقة الجنب الخديوي أول يوم من شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — وهو اليوم التالي ليوم صدور الامر العالي بحبسهم — فلما وصلت اليهم الدعوة دهشوا لان موضوعها لا يحتاج الى مداولة ثلاثة من أمراء الالايات ولا مثله بعمتاد ففطنوا للحيلة في تلك الدعوة في ذلك التاريخ فدعوا من يثقون به من الضباط وأطلعوهم على ورقة الدعوة فقتنع الجميع بان خطراً سيحل بالثلاثة ثم بكل من يشاءهم — أو بكل ضابط مصري على ما كان يخيل اليهم — « فحملهم الحرص على وظائفهم وأقدم بهم العلم بضعف الحكومة عن الانتقام منهم لمكان الاختلاف الواقع في أمهات عناصرها ، وماهاجم من وسوس ذوي الكلمة في مصر وما كانوا يتخيلونه من رضاء الكافة عما يفعلون — على أن يقاوموا الشر المنتظر بالقوة إذا اقتضت الحال ذلك غير مباينين بعاقبة وكان في الضباط الحاضرين كل من محمد عبيد بكباشي في الالاي الاول — ألاي الحرس — وخضر خضر بكباشي في ألاي السودان فأخذوا على عهدتهما إيقاظ الضباط الثلاثة إذا سقطوا »

بعد هذا التمهيد ذكر الاستاذ حادثة قصر النيل المشهورة وملخصها ان الضباط الثلاثة جاءوا قصر النيل يتبعهم على بعد بعض العيون من جند الالاي الاول فاذا الديوان غاص بالضباط وأمراء العسكرية فلما وصلوا الى حيث الناظر تلى عليهم الامر الصادر بسجنهم وجردوا من سيوفهم وألقوا في السجن « وتقاذفت عليهم الشتائم وكان أكثرها وأبغها في التحقير كلمة (فلاح) فعاد المقتبون لاثرم وبلغوا اضطباط الالاي

الاول مارأوا فتهض محمد عبيد بالعسكر الذى تحت قيادته لا نقاذهم فاعترضه القا بمقام [خورشيد بك بسمي] فلم يسمع له قولاً وشاهد الخديو حركتهم فأمر [بروجي الحرس] بأن يدعوا ضباط الحرس الى السراي فدعاهم فلم يستجب له أحد . وانطلق بهم محمد عبيد الى قصر النيل فهجموا على الديوان فيه فأطار الرعب قلوب الامراء فيه ومنهم الناظر والوكيل ووثب كل منهم من نافذة يطلب الخلاص لنفسه فنهزم من كسر ومن جرح وفتح الجند مستودع الضباط الثلاثة عنوة فخرجوا ظافرين . وأرسلوا الى ضباط الالاي السودان وكان في طره فغضراً حلاً وإلى ضباط الالاي العباسية وهو الالاي عراي وكانوا قد قبلوا أميرهم الجديد الذي خلفه بعد حبسه والتسوا العفو عنهم ثم بلغهم ما حصل فوقعوا في حيص بيص . وقد خطب عراي في العسكر والضباط المجتمعين وأثنى على اخلاصهم في حب أمرائهم ثم أمرهم بوضع السلاح وأخذ يكتب الى القناصل ويستمد تحاربة سراي عابدين

(قال الاستاذ) « كان رياض باشا قد بلغه الخبر وهو في نظارة الداخلية فجاء الى سراي عابدين — وعراي يرسل شكواه إلى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال ويلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل ان الضباط لم يأتوا أعمالاً إلا ما بقي أرواحهم ويضمن لهم إقامة العدل فيهم، وأرسل اليه ورقة الدعوة الى ترتيب الزفاف وبسط له الحيلة التي دبرها ناظر الجهادية للايقاع بهم . وشرح له ما حصل لهم من سلب السيوف والحبس على أنهم لم يأتوا جرعة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية وهو طلب عادل لسوء تصرفه . فورد له الجواب من [البارون درنج] بالثناء على عزيمته وثباته في مطالبه العادلة وبشره بأنه لا خوف عليه مادام الحق في جانبه . فسر عراي بذلك . أما باقي القناصل فلم يجيبوه بشيء »

ثم ذكر ان الخديو أرسل الى عراي يسأله عن سبب هذه الفتنة فاجابه بأنه لا يريد إلا عزل ناظر الجهادية فقبل منه وعرض عليه عدة أشخاص على أن يكون أحدهم خلفاً للناظر فلم يقبل أحداً الى أن عرض عليه محمود سامي باشا ناظر الاوقاف فقبله فعين في الحال ناظراً للجهادية . فأرسل عراي يشكر الخديو على ذلك وطلب العفو عن العساكر والضباط فيما فعلوا فعفا عنهم . وصدر اليه الامر بأن يصرف

العساكر في الحال فلم يمثل بل أجاب بأنها تنصرف في صباح الغد
وانتهت بذلك الحادثة التي تعرف بحادثة قصر النيل

(نتيجة ما تقدم وتبان أفكار عرابي ومشايبه ورياض باشا والخديو فيه)

« كان يمكن لعرابي أن يطلب فصل رياض باشا بل وأكبر من ذلك لاستكمال
الضعف في ذلك الوقت والمحصار القوي فيما بيده ولكن الامر كان غير مدبر فان
طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابي ومن معه حتى كانوا يفضلون اليه بما يريدون
بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع الى نيل مطلب ما بالعنف والوصول اليه
بالقوة يكفي في أن يقدم رياض باشا استعفاءه ولا حاجة الى التصريح به لعرابي
ومن معه خوف الاخفاق فيزداد عناؤهم اذا انكشف أمرهم فكانت الوساطة
منحصرة في تزوين مأمم به الضباط من طلب حقوقهم

« أما عرابي فلم يكن يخطر بباله ولا يهدف به في منامه أن يطلب اصلاح
حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذي
أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان
معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا ، فلم يكن له هم سوى الأمن
على مقامه والانتقام من ذلك العدو والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف
العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لانه هو وإخوانه
أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم

« وجميع المحركين له انما يأتونه من هذا الباب ولم يستلقتوه الى أمر آخر
فظن أن مقال الاعيان والذوات الفخام وما يأتية من الجانب الاعلى وما يسمعه من العامة
ممن بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له وتصويبهم للثبات عليه انما هو لعدالة الطلب
واعتدال الرغبة ، فخيّل له أنه بعمله هذا يرضي الجانب الخديو والسكافة وقصل
فرنسا أيضاً بتطهير الحربية من ظلم ناظر الجهادية والجراكسة فأنحصر طلبه في عزل
عثمان باشا ، وما بقي من سلطة الجراكسة تسهل إزالته بعد ذلك فانقضى أرب
عرابي ولم يستعف رياض باشا

«أجال رياض باشا فكر في أسباب هذه الجرأة التي أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة مع أنهم ليسوا إلا مصريين قد عرفوا بالاستكانة والسلطة وتمزيه الحاكم عن أن تتناول إليه لاوهام المقاومة فضلا عن اللسن والأيدي، فأنحصرت كل الأسباب عنده في البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال وأن صفته هذه وجهه بتعظيمه هو الذي نفخ فيهم هذا الروح ولولاه لم ينبض فيهم عرق، ولم ينطق لهم لسان، لهذا سعى لدى الجناب الخديوي في أن يطلب من رئيس الجمهورية استدعائه من مصر فورد الجواب بقبول الطلب وعين خلفاً له موسيو ستكوفيش

«لم يدر في خلد رياض باشا أن البارون درنج كان العلة المتممة وأن هناك أسباباً أخرى سبقت سعيه وهو ظهور الانحراف عنه من كل جانب، وأن الفتنة لا تسكن مادام في الوزارة غير مرضي للجناب الخديوي، مضايقا لمن يحفون به، آيماً البحث في تشكيل مجلس النواب، وإثاق بعض ضعفاء العقول من الحكم، مناصباً للذوات الفخام بلاجمالة، غير ناظر إلا إلى ما يراه حسناً، وما يعد خيراً للبلاد بدون التفات إلى ما يخفف مرارة الحق أن كان محضاً، ويجلو جمال النية أن كانت صالحة، ولهذا قد اكتفى بعد إبعاد البارون درنج بالتفويض لناظر الجهادية الجديد في إزالة أسباب الشقاق الخيم في المراكز العسكرية والاختذ بزمام هؤلاء الضباط وردهم إلى النظام وتسكين نفوسهم إلى الطاعة، وأما ما بقي من الأسباب الحقيقية للفتنة وهو ما في نفوس أهالي البلاد من الميل إلى تغيير شيء من السيرة الحاضرة وما تمكن في قلب الجناب الخديوي من النفرة منه فلم يلتفت إليه ليعتد ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفس رياض باشا

«لم يكن يحظر ببال الجناب الخديوي في ذلك الوقت أن الأمر يصل إلى هذا الحد، وإنما كان يظن أن بعض الضباط انحرافاً عن رياض باشا ويبلغ إلى أن رئيس النظام هو عدوهم وهو الساعي في تقليل القوة العسكرية وفي إيجاد النظامات التي تحرم كثيراً من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم في الجندية ونحو ذلك، ثم يميل في مجلس النظر إلى أخذ الضباط الثلاثة غيلة ويجريدهم من سيوفهم قبل محاکمتهم، كل ذلك

حتى يحدث شيء من الالزام يعز على رياض باشا قبوله فيستعفي . كان الجناب العالي ينتظر أن يستعفي رياض باشا بمجرد الاصرار على صدور الامر بحبس الضباط الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف ، كان يظن بعد ذلك أن غاية ما يؤدي اليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجهروا حول رئاسة النظار يطالبون بالافراج عن اخوانهم ويصروا على ذلك فيستعفي رياض باشا كما استعفى نوبار باشا في حادثة الخديو الاسبق ثم تنتهي بذلك الحادثة ويعود النظام الى مقره » وغاب عن الافكار أن آثار الحركة على وزارة نوبار باشا كانت لم تزل تشاهد في الجندية تخفى وتظهر على حسب اقتضاء الاحوال كما يعرف من العريضة التي قدمت في وزارة شريف باشا السابقة على وزارة رياض ، ثم لو كان الجناب العالي اظهر رغبته في عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط ودبر الامر معهم وقال لهم ان هذا الرئيس يرتكن على الاجانب وهم يسندونه فلا بد من إيجاد سبب يقنع الاجانب ظاهره ليكون ما اتاه الضباط صادراً عن امره ولبقيت هيئة المسند الرفيع في نفوسهم مع اطمئنانهم على ارواحهم ومراكمهم من ناحية جنايه ، ولما وجدت نفوسهم في الظفر بمطالبهم شيئاً جديداً سوى الامثال لاوامر الحاكم وان كانت سرية ، ولما استشعروا بتلك القوة التي اندفعت بهم إلى خرق ذلك السياج المنيع الذي يحول دائماً بين النظام والفوضى . نقول ان ذلك كان اقل خطراً فقط ، أما سوء عاقبة مثل هذه الافاعيل فما لا يحيد عنه غالباً

« ثاني يوم الحركة استشعر الجناب العالي أن في الحادثة ما قد يمس سلطته ، وأن الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح في همين عظيمين بعد أن كان في هم واحد — هم رياض باشا وهم الضباط — فبادر الى أخذ الاحتياطات لأهمها خطراً وأشدّها وهو الثاني ، فاستدعى علي فهمي أمير الالاي الاول وذكره بما كان له من الزاني عنده ، وأظهر له غاية الرضى عنه ، وأمره باستدعاء جميع ضباط الالاي الى سراي غابدين ليقسموا للجناب الخديوي يمين الطاعة والفداء ، ويقسم لهم جنابه يمين التأمين من كل عقوبة على ماضى

« أراد بذلك الجناب الخديوي أن يتخذ هذه الفرقة من الجيش قوة بخفيف

بها ما بقي منه ، فاذا أراد أن يرج نفسه من عبد العال مثلاً ، لم يستطع ألايه أن يفعل مثل ما فعل الألاي الاول مع الضباط الثلاثة ، لوجود من يقاومه ، وهكذا لو أراد أن يبعد عرابي . ثم إذا استراح من كليهما رجع على علي فهمي وضباطه ، وبذلك ينتهي القلق ، لكن عرابي أحسن بالامر ، فالتمس من الحضرة الخديوية أن يدخل فيما دخل فيه علي فهمي من يمين الامان ، فدخل برضاء الجنب الخديو - أو على غير رضاه - في رابع يوم الحادثة وتقامسا الايمان

« إلى ما قبل الحادثة بيوم كان عرابي يخاف على مركزه في العسكرية ويخشى شتماته أعدائه من الجرا كسة مضطهده فكان كل همه كإقدمنا ، أن يأمن على وظيفته ويتقي من عدوه ، ومع هذا فقد رفعه طلاب تغيير الحل إلى إعداد الضباط لفعل ما فعلوا يوم قصر النيل . أما وقد هتك حرمة القانون وقلب قوة الحكومة ، وحوها عن وجهتها ، وجعل الآلة فاعلاً ، والفاعل آلة ، وذلك مما يعد جرماً في نظر كل واحد حتى إن سربرته مهما عمت لا يمكن أن تغفل عنه ، ثم رأى من الجنب الخديوي تخصيصاً لعل فهمي بتقاسم اليمين معه - فقد ولت عنه السكره ، وآبت اليه الفكرة ، ومثل له جرمه ، وشعر بان حاكمه لا يسمح له بقوة تعلقوته ، والنظام يقضي بإهلاك هادمه ، وخيل له أن المخاطر تهدد روحه بعد وظيفته ، ولا ريب أن الروح عليه أعز ، وأن الشتمات بعدها أدهى وأمر ، وأن دخوله في يمين الخديو لا يكتفي في وقايته ، لانه لم يكن يجبل قيمة الايمان ، ولو كان اليمين (?) عنده يلزم الخالف بما حلف عليه لما جاء هو بما نقض الايمان العسكرية التي حلفها عند استلام علم الامرة على فرقته ، فاخذ يحتاط لنفسه ولمن شاركوه في الجرم ، ويلتمس المضد من كل طرف ، ويفر من الموت في كل سبيل

« ركب به العجين طريقاً عمية ، يخبط فيها خبط العشواء ، يسوقه الرعب ، ويقوده الوهم ، وضعف الحكومة يمدده ، والرغائب الخرقاء تساعد على أن أودت به وبالبلاد خطيته

« أول ما أخذ به من الاحتياط أن أقام الحرس على بيته وبيوت مشاركيه ليلا ليحموهم من الغيلة المبتذلة في أرض مصر ، علمته حادثة قصر النيل كيف يلاقي

ما قد يوجه اليه من سلطان الحكومة فلجأ الى ضم القوة العسكرية اليه واخلاء الوظائف الجندية من كل من حدثته نفسه بالريب فيه ، وسلك في ذلك مسالك علمت صفار الضباط بل العساكر أنفسهم كيف يخرجون عن النظام الضابط لهم ، وكيف يتدخلون فيما ليس من شأنهم ان يتدخلوا فيه كما ستراه فيما بعد .

ثم بين الاستاذ ما طلبه عرابي باشا لاستمالة الضباط والعسكر اليه ومنه زيادة روايتهم زيادة كبيرة وصدور أمر عال بتشكيل لجنة مؤلفة من عشرين اميراً من كبار الضباط هو احدثهم للبحث في انظمة العسكرية والمدارس الحربية وترقية الضباط وتسوية احوال المستودعين ، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق النظام بعمل ناظر الحربية هو الذي يعرض ذلك على الحكومة بل كانت العرائض تكتب في بيته او بيت احد شركائه « ثم ترسل الى الالايات ليختم عليها الضباط صفاراً وكباراً وبعض الصف ضباط ثم تقدم من قبل ضابط ألاي إلى نظارة الجهادية أو الى رئاسة مجلس النظار — فلينظر بم كان يشغل الضباط والعساكر وفيهم بصرفون أوقاتهم ؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم في الاعمال العسكرية ويتولد فيهم حب التناول الى ما هو خارج عن الحق المحول لهم بمقتضى القانون وعوائد النظام »

ثم ذكر أن محمود سامي باشا أراد أن يتخذ سرور الضباط باعلاء مرتباتهم وسائر مامنحوه وسيلة لازالة ما وقر في انفسهم من معاداة الحكومة لهم ، وما يحوك في صدر الحكومة من الريب في مساكنهم ، فاحتفل لتلك المنحة احتفالاً باهراً في نظارة الحربية بقصر النيل دعا اليه النظار والمراقبين وأمراء العسكرية وخطب على المائدة خطبة فيما ناله البلاد من الاصلاح ونسب ذلك إلى همة الخديو وإخلاصه ، وصدق عزيمة رياض باشا ووجدته ، وسائر النظار ورجال الحكومة ، وبين ان هذه النعمة لا تحفظ إلا بالشكر وهو الطاعة والخضوع للأوامر . ثم خطب رياض باشا فيين الفرق بين الحالة الحاضرة وما قبلها وخاطب الضباط فذكر لهم ما نالوه وذكرهم بوظائفهم من حيث هم قوة الحاكم وآله في تنفيذ أوامره ، وقام بعدهما عرابي فصدق ما قال وقال بلسان الجند والضباط انهم مقيمون على طاعة الحاكم الذي هو مصدر هذا التقدم وانهم آله

للنفذة في قبضة يده يديرها كيف شاء^١ — ثم قال الاستاذ
« كل مطلع على ما قيل في ذلك الاحتفال يجد منه ان الحكومة كانت تريد
أن تقنع الضباط بوجوب الطاعة ، وان عرابي كان يعدها بذلك بنفسه وبانباية عنهم
وهو دليل على أن القلق كان لم يزل مستمراً الى ذلك الوقت ، أي ما بعد حادثة
قصر النيل بنحو ثلاثة أشهر ، وقد كان يؤخذ من حالة عرابي عند ما كان يجب
رياض باشا ومحمود سامي باشا انه كان ينطق بخلاف ما يصر ، وان حجاب
الطمانينة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب

مسلك الخديو وحاشيته مع الضباط

« قلنا إن الجناب الخديو أصبح بعد حادثة قصر النيل يطلب الخلاص من
أولئك الضباط وسطوتهم النافذة في جيشه ، فشغله ذلك وأخذ يدبر الوسائل لكن
لا مع وزرائه والمسؤولين عن الأمن في حكومته ، بل مع حاشيته وببض رجال
معيته ومن كان يختصهم من خدمه — ذلك مهيب البلاء على كل حاكم ، ومنبع الشقاء لكل
أمير : أن يتخذ لنفسه عمالا في الخفية غير الذين أقامهم على الاعمال في الجهر . نعم
للحاكم بل نليه أن يستشير كل من يراه أدلا لان يشير متى وثق من عقله ، واتضح
له حسن السابقة في أعماله ، ولكن من المفروض عليه أن يكشف بذلك رجال
حكومته الذين اتقى عليهم مقاليد أموره وفوض اليهم تدبير شؤونهم في رعاياه ،
فاذا أقروه على العمل بما أشير به عليه ورآه حسنا مضوا فيه بالاتفاق وإلا نبذوه أو
ادخروه لوقت آخر ، أو عزل من لم يبر رأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ
أوامره المنطبقة على مصلحة البلاد ، بعد التروي في جميع ذلك والثقة بسلامة العاقبة
فن اختلاس نفسه شيئا من التدبير بانفراده مع بعض خاصته على غير علم ممن ملكهم
زمام الامر من الحكومة تباينت المسالك ، واختلفت الغاية ، وفسد بذلك نظام الاعمال ،
وسقطت البلاد في الفوضى وهجرتها العلمانية ، وتولوا القلق وظهر ضعف الحاكم ، وباد
سلطانها — عواقب قضت بها السنة الالهية على كل أمة تضاربت فيها القوى
وتخالفت النيات ، واستبد كل من الوازعين فيها برأيه ، ومضى على ما ترزنيه له نفسه ،

« لم يأخذ المرحوم الخديو السابق بذلك الاصل الذي وضعه الله نظاما لكل حكومة، بل أخذ يعمل مع بعض خاصته للوصول الى ماهمه من التخلص من سلطة الضباط في الجنود الذين تحت أمرتهم، فبدأ بعبدالعال ظنا منه انه كان أجراًهم وأشدهم نفوذاً في عساكره، وأفضى بسرّه في ذلك الوقت الى يوسف باشا كمال وكان ناظر دائرته الخاصة، فأخذ يوسف باشا على عهده موافاة إرادة مولاه

« استخلص يوسف باشا من صف ضباط ألاي السودان باشاجاويشاً شر كسيا ودعاه الى بيته في أوائل شهر مارس سنة ١٨٨١ وأكرمه وكلفه أن يلوي العساكر والصف ضباط عن طاعة ضباطهم فيما يأمر ونههم به اذا سيروهم الى حادثة مثل حادثة قصر النيل، وأن يقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيراً، فاذا صدر الأمر بنقل أمير ألايهم أو غيره من كبار الضباط الى ألاي آخر فعليهم أن لا يعارضوا في ذلك وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم . فذهب الاحق وكتب عريضة ضمنها ان العساكر والصف ضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم، واذا نقل أي واحد منهم الى أية جهة فلا يعارضون أمراً من الاوامر التي تصدر بذلك، وطلب من افراد الجند ان يجتمعوا عليها قاتلاً انها عريضة طلب فيها زيادة المرتبات لهم فحتم الكثير منهم عليها لانه لا علم لهم بالقراءة والكتابة، وقد ألفوا تلك العادة التي عودهم عليها رؤساؤهم من ان المطالب التي يطالبها الجند من الحكومة تكتب بها عرائض ويطلب من الضباط أو العساكر إيقاع الاختام عليها، غير أن أمين أحد البلوكات اطاع على العريضة فأخبر بها اليوزباشى سليم افندي الزيدي، وسلمها اليه وهو سلمها الى عبدالعال، فقدمها عبدالعال الى نظارة الجهادية. فأوصلها الناظر الى الجناب الخديوي فامر بالتحقيق لاظهار منشأ هذا الفساد فصرح الباشجاويش بأن يوسف باشا كمال هو الذي أمره فصدر أمر الجناب العالي بفصله من نظارة الدائرة الخاصة ظناً منه ان ذلك ينفي الشبهة في ان لجنايه يداً في الحادثة، ولكن الضباط كانوا على يقين تام من ان ناظر الدائرة الخاصة لم يعمل عملاً إلا بإرادة مولاه، ويقال ان عزل يوسف باشا كان بناء على طلب عبدالعال ومساعدة عرابي له « قال بعض كتاب الحوادث في تلك الاوقات ان العريضة كانت تحتوي على

التماس العساكر والصف ضباط أن يعفو الجناح العالي عنهم فيما أتوه من السير إلى ميدان عابدين يوم واقعة قصر النيل، وإن ما فعلوا من ذلك إنما كان باغراء ضباطهم لهم، ولكن ذلك تأويل للحادثة بما لا ينطبق على الحقيقة، على أنه ظاهر السخافة، نحن الجناح الخديو قد أصدر أمر عفوه عما وقع في تلك الحادثة عن جميع العساكر والضباط وانتهى الأمر فيها، ولم يكن يخطر بالبال أن أحداً سيؤاخذ على ما فعل ولم يحدث من جانب الحكومة ما يوجب الريب في ذلك حتى يلتمس العفو، بل كانت الظواهر جميعها متضافرة عن أن الرضاء من جانب الحكومة على الجند ورؤسائه تام عام « وفي أوائل شهر إبريل سنة ٨١ حدثت حادثة أخرى، وذلك أن رجلاً يسمى فرج بك الزين من أمراء الأليات المستودعين كان يسكن في طره بجوار مركز الآلي السودان، وكان من خدم جناب الخديو السابق رجل يسمى إبراهيم أغا التوتنجي فكان من رأي إبراهيم أغا أن يأتي الخلاف بين العساكر وبين أمير الآلي عبدالعال بواسطة فرج بك الزيني، فاتفق معه على الأمر، وكان لفرج بك صهر يسكنه في بيت واحد فاتخذ آلة لتنفيذ ما يريد، فتمرف إلى شاويش يسمى عبدالخير فدعاه إلى فرج بك فأكرمه وطلب منه أن يكثّر من التردد عليه هو وأخوانه فذهب عبدالخير وأخبر البكباشي خضر خضر بما وقع له فسمح له بالتردد وأمره أن يخبره بما يكون فعله، واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صفار ضباط السودان في ليلة من ليالي شهر إبريل سنة ٨١ فأبلغهم فرج بك سلام جناب الخديو وإن جنابه يريد أن يؤمر عليهم أميراً سودانياً منهم (وهو فرج بك) وأنه متى صار الأمير منهم رقى الباشجاويش إلى بكباشي، والجاويش إلى قول أغاسي، والاونباشي إلى ملازم، ولا يتم ذلك إلا أن تعملوا على ما أشير عليكم به وموعداً للكلام في ذلك الليلة الآتية بعد العشاء على شاطئ البحر، فلتقوا ذلك منه بالقبول وانصرف عبدالخير وأفضى بالأمر إلى خضر خضر فأذن له بموافاة الموعد، ومتى ظهر لهم من كلامه ما يشير إلى الفتنة فعليهم أن يحضروه إليه، ثم اجتمعوا في الموعد في مزرعة قح على مقربة من البحر فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضباطهم شكاية من تصرفهم إلى الحضرة الخديوية لينبئ عليها ذلك التمييز، فعند ما سمعوا ذلك قام

واحد منهم وقال هذا لا يريد بنا خيراً أو علينا أن نكرهه على الوقوف بين يدي ضباطنا في الحال، فاتبقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبى فاحتمله عبد الخير وساعده اخوانه حتى أخضروه عند خضر خضر، فكشبت الواقعة بالتفصيل إلى أمير الآلاي فحضر وطلب محاكمة فرج الزيني فوكم وظهرت معه رسائل من إبراهيم أغا تدل على أنه مصدر هذا الشغب، وحكم على فرج بيك بالنزاهة عن رتبة القائمقام إلى رتبة البكباشي وبنفيه إلى السودان، فعفا عنه الجناب الخديوي وأرسله إلى السودان موظفاً في وظيفة تليق به

تأثير دسائس الحاشية الخديوية في عراقي

« قدمنا أن سلطان الخوف ملك قلب عراقي بعد حادثة قصر النيل، ودخوله في يمين الأمان مع علي فهمي لم يخفف شيئاً من قلقه، وقد زاد في اضطرابه تكرر هذه الحوادث والوقوف على مصادرها وإن خاصة الجناب العالي هم العاملون فيها وهم لا يصدرون إلا عن رأيه السامي، فأيقن أن العفو الصادر والميمن السابقة لم يكونا إلا ألفاظاً قصد بها الهاؤه وإلواء اخوانه عما يراد بهم، وأن الانتقام على ماصدر منهم ضربة لازب، وأن جميع ما اتخذته من وسائل جاب الجند إليه، وجمع كلمتهم عليه، لا يحميه من القيلة، ولا يؤمنه من السقوط في فخاخ الحيلة

« لهذا أخذ ينتقي الجيش من كبار الضباط الذين لا يثق بهم ويخشى أن يكونوا عوناً على تدبير كيد يكاد به، فأوحى إلى ضباط الآلاي العباسية (الآلي عراقي) أن يخالفوا أوامر البكباشي (آلي أفندي يوسف) وأن يهينوه إذا عرضت الفرصة فتجاوزوا الحد في سوء المعاملة معه إلى أن كلفوه يوماً بتقديم استعفائه فأبى، ودافع عنه يوزباشي يسمى خليل أفندي علي، وانتهى الأمر إلى عراقي فالزم البكباشي بأن يستعفي وحوكم اليوزباشي فحكم عليه بالسجن مكبلاً بالحديد، ثم استودع مع اقضاء عليه بأن لا يعود إلى الخدمة العسكرية أبداً، وكذلك أشار إلى ضباط الآلي القلعة فطلبوا إلى النظارة عزل أميرهم حمد بك صدقي فعزل وعين بدله إبراهيم بك حيدر، وكذلك فعل ضباط الآلي الخوججية فعزل حاكم الآلاي حسين بك وعين بدله اسماعيل بك صبري، وحصل كثير مما يماثل ذلك ولا فائدة في الإطالة بذلك»

« أفراد الجند كثير، وعدد الضباط عديد، وقوة الجناب الحديوي أعلى من قوة عرابي، وليس في الامكان لضابط مثله أو لأعظم منه أن يملك مفاتيح القلوب ومغاليقها في جند مثل هذا مها قل عدده، خصوصاً بعد أن ألف أفراد وضباطه مناوأة أرباب الامرة فيهم، وعرفوا في انفسهم القدرة على رفع التقارير بالشكوى منهم بحق وبغير حق، وبعد أن ذاقوا لذة النجاح فيما يسعون اليه من ذلك، فمن الممكن القريب أن الحضرة الحديوية أو الحكومة نفسها توجي إلى بعض أرباب الكلمة النافذة من الضباط العظام بل الى بعض أفراد الجند أن يوقع بعرابي وصاحبيه وأن يأخذهم في مأمنهم على غرة منهم، فإن لم يكن ذلك بازهاق الارواح كان بافساد القلوب عليهم وهم لا يشعرون، ولو اتفق الجناب العالي مع حكومته على ذلك لتم لها ما أراداه ولكن كان القضاء وسوء التدبير يسوقان البلاد إلى ماصارت اليه

طلب عرابي مجلس نواب وسببه

« تلك المخاوف استلقت عرابي الى أن يخرج من خوله وقوته الشخصيتين وأن يلتمس قوة تعلو سلطته وسلطة الحكومة معاً ولها من الشأن في مراقبة أعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على ما يصدر منها خارجا عن الدستور أو مخالفاً للعدل مما تخشى عواقبه وتتقي مصايره، وكان يطالع في الجرائد وفي بعض الكتب المترجمة من اللغات الاوربية ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك اوربا أن مجالس النواب في تلك الممالك هي القائمة بحفظ اصول النظام، وهي القاضية على كل حاكم بالانزام حدوده، وبها محي الاستبداد في الارواح والاموال، وحفظت الحرية الشخصية في الاعمال، ولعب بعقله هذا الخيال، وظن انه لو كانت في البلاد تلك القوة النيابية، ولو أن حكومتها كانت حكومة شوروية، لكانت الشورى أو مجالس النواب عاصمات لحياته، حافظا لحقوقه في وظائفه، ومأمناً يلجأ اليه، إذا حوم طائر الانتقام عليه، ولم يعلم أنه لو كانت في مصر حكومة دستورية يقضي فيها القانون ولا يستبد فيها الرأي لا أخذ عرابي ومن معه أشد المؤاخذه، ولقضي عليهم مجزاء ما هتكوا من حرمة القانون، وما أدخلوا في الجند من الليل إلى الفوضى والاستهانة بالسلطة العليا»

وانما الذي استبقى حياتهم بعد ما فعلوا تلك الافاعيل هو ضعف سلطة القانون وعجزها عن إيقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه ، وميل صاحب الرأي الاعلى في الحكومة الى تلافي الامر بما ظنه أسد وأنجح مما حده النظام ، ولو كان ذلك الحاكم مقيداً بدستور أو بأراء نواب امته لامتنع عليه ان يذهب الى ماذهب اليه ، ولقامت الامة بلسان نوابها تطالبه أن يحل اشد العقوبة على من اعتدى على حدود ما شرعته لجندها ، ولكانت قوة الامة قد قضت على قوة الجيش وأبادتها لو خالفتها ، لكن تلك معارف تعلم أن يتناول اليها فكر كفكر عراقي ومن كان معه ، وغاية ماتوهم ان مجلس النواب هو من ابناء البلاد وهم لا يسمحون بأن يقتل واحد منهم او يعزل من وظيفته وإن تعدى حدود كل نظام ما دام يطلب طلباً يظنه هو عادلا . لهذا اراد أن يستعمل ما بيده من السلطة على الجيش في المطالبة بانشاء مجلس نواب يكون له من الحقوق ما للمجالس النيابات في اوربا ، ثم تخيل انه اذا أنشئ هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنبيوهم فضل من كان السبب في تشكيله فيهتمون بالمحافظة على حياته وعلى نفوذه بما يستطيعون ، بل وثق بانه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم الى الغاية التي يريدها منهم . ولم يخطر بباله انه اذا فعل ذلك فقد سقط بالقوة التي ياجأ اليها الى هاوية العدم ، فانه اذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بامرها ، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها ، واذا قهرها على أمر فقد مهد السبيل لمن هو أعلى منه سلطانا في نظر الامة أن يكرهها على عكسه فتقلب عليه بعد ان كانت له ، واذا كان المجلس تحت سيطرة الجند فما الفائدة من إنشائه مع وجود الجند ، فليستمن عنه بالقوة العسكرية ولتكن هي الملجأ دونه ، فكيف يتصور أن يطلب تشكيله ليكون واقياً لم يقو الجند على الوقاية منه ؟

« هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عراقي تمثلت له جنائته في صور أغوال فاعرة الافواه محددة الانياب ، ولزمه خيالها في يقظته ومنامه ، فهو في فرع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء يراه ، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى إلا سيوفا مسلولة ، أو حبالا منصوبة ، ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة : الخلاص الخلاص الهرب الهرب . ولم يتمثل في مخيلته مهرب اوفى له من

طلب تشكيل مجلس النواب على الصورة التي قدرها له في نفسه
 « وشد أمله في نيل أمنيته ان أغلب أهل الطبقة العليا من الناس ككثير من
 أهل الطبقة الوسطى هم مسنون بما يدل على القلق ويشعر بالملل من ادارة رياض باشا
 لأعمال البلاد وسياسته فيها لما رُب التي بينها ، فأخذ يتحسس مافي النفوس ،
 ويتسمع ما تنطق به الالسن ، فوجد ان أمنية تغيير الحال لم تنزل تجول في صدر كل
 واحد من كان يفتابه ، ولو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل اليه إلا باستدعاء جناب
 الخديوي السابق اسماعيل باشا أو استحياء اسماعيل باشا صديق لاستسهلوا طلب
 ذلك بعد مذاقوا على عهدهما ماذا قوا ، فقد نسي الماضي واحتمت الشهوة في
 التملص من الحاضر ، وككة [مجلس النواب] كانت لم تنزل دائرة على الالسن ، وفي
 وم الكثير ممن نظروا في سير الامم الاوربية ، أن علاج كل داء ينحصر في تحقيق
 معنى هذه الكلمة [تشكيل مجلس نيابي وحكومة شورية] فلما فطق عراقي وهو
 صاحب النفوذ في الجند بانه يريد انشاء مجلس النواب سمع دوي الاستحسان
 من كل جانب ، وصفت له الاحشاء بين الجوانح قبل أن تصفوله الايدي ، فاشتد
 بذلك عزمه وازداد طمعه ، وخيل له أن الامة ستكون سنده

« ولعله أن علاقة مصر بالدولة العثمانية قد لا تسح له أن يجاهر بايجاد شكل
 في الحكومة المصرية ليس معروفا عند السلطان العثماني بدأ بتحريض عريضة أمضاها
 هو وعدد كبير من الضباط ختمها بانشكوى من استبداد الحكم في الاقطار
 المصرية وأن ذلك الاستبداد قد أضىف الامل في الامن على الانفس والارواح
 كما عاد بالقوة على نفوذ الاجانب حتى أصبحت مصالح البلاد في أيديهم وتحت
 تصرفهم وكاد اسم [الدولة العثمانية] ينسى ، وأشرقت علاقتهم بمصر على الاندثار
 والانعفاء . فورد له الجواب من بعض رجال [المايين] يحمل اليه تحية الخليفة
 العثماني ويحكي له أقاصيص رضاه السامي عن كل ما يجري في مصر لمقاومة نفوذ
 الاجانب في ادارتها ومصلحتها

« أخذ عراقي بعد ذلك يجهز بطلبه هذا وخاطب رياض باشا في شأنه فأباه
 عليه ، فأخذ يخالط بعض العلماء ويكشفهم بمقصده من ثلم النفوذ الاجنبي وردمه
 (٢٧ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

سلبته أيدي الأجانب إلى أربابه ، وفي أثناء ذلك كان يصور لهم السلطة الأجنبية الحاضرة إذ ذلك كأنها نسر حوم في جوها لاختيار خير الفرائس لينقض عليها ، ثم اختار من بينها الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب مخالبه فيها ، وإنه لو دامت سياسة رياض باشا في منهجها لقضي على الدين وسننه ، وفي خلال هذا كان يزين لكل ذي شهوة منهم ما تميل إليه نفسه ويمنيه بنيله إذا تغيرت هيئة الحكومة الحاضرة ، فوجد من [حضرات المشايخ] وهم على ما نهض من السذاجة والبعد عن معتزك السياسات اصفاء لقوله وتأييداً لرأيه ، وكذلك كان يخاطب بعض الأعيان ومشايخ العربان ويقرر لكل من لاقاه أن لا سبيل لمبتغاه الا بتأييده في طلب مجلس النواب فيجد ذهاناً مقتنعة ، وارادات مستسمة ، وذلك لان القوة في يده ولان نفوسهم تظن متى راحتها في التغيير على أي صورة جاء

« استحثه الحرص على إدراك المطلب أن يفضي به الى ضباط الجيش وأن يثير في أحلامهم الضعيفة تماثيل الاماني من العزة والسلطان ، والصعود إلى أعلى مراقب الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لا ينال الا بمجلس النواب ، ولم يكفه أن يكون ذلك مطلباً لهم يشتهونه ويساعدون عليه عند القيام للالزام به ، ولكنه كان يطلب الى بعض الضباط أن يكتبوا به عرائض يبينون فيها ضرورة انشاء المجلس وانما يقام الدليل على تلك الضرورة بالظعن في حياة الحكومة وبيان عدم كفايتها في كفالة الامن على النفس والاموال والاعراض ، وبينما هو في ذلك إذ أحس الجنب الخديوي بسماعه وعرفه بعض حاشية جنابه الكريم ، وبعد قليل ظهرت مسألة تسمى [مسألة التسعة عشر ضابطا]

مسألة ١٩١ ضابطا

« كتب البكباشي عبد الله أفندي الكردي تقريراً أمضاه هو وضابط [قول أغاسي] وستة عشر من اليوزباشية وملازمان وقدمه الى ناظر الجهادية وحصل ما فيه الشكوى من تصرف عراقي ومحالفيه وتعليقهم حدود القانون واشتغالهم ببث الدسائس بين ضباط الجيش وحماهم على تقديم عرائض للجناب العالي يطلبون فيها فصل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس اللامة وزيادة عدد الجيش والتصديق

على القانون الجديد، وان عرابي قد صرح لهم بما معناه «ان القوة في يدنا، والقلما والاعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ولا مندوحة للخديو عن اجابة طلبنا، فان لم يفعل خلعناه واقنا حكومة جمهورية مستقلة» فلما وقف الناظر على ما في التقرير أمر بتشكيل مجلس عسكري لتحقيق ما زعمه الضباط فقالوا انهم لم يكتبوا الا مسموما وزادوا على ذلك ان في الجيش كثيراً من النظم والحيانات وطلبوا تحقيقها، ثم قدمت إلى المجلس العسكري تقارير من ضباط الالايات تنسب فيها تهم كثيرة إلى هؤلاء الضباط الواقفين موقف الخاصة مع عرابي وجماعته، وانهت المحكمة باثبات انهم كانوا مدفوعين من ابراهيم أغا التنجي على كتابة ذلك التقرير لحكم عليهم بمقوبات شديدة قابلاً الجناب الخديو بعفو الكريم غير أنهم فصلوا من الجند «وفي أثناء هذا الاضطراب كان محمد سامي ورياض باشا يخطبان فيما يجب على الجند ان يؤدوه للحكومة وعرابي يحییها بتسديق ما قالوا وينادي بان الجيش آلة الحكومة المنفذة : كلا العارفين خادع مخدوع :

« في حوالى تلك الايام كان قيام ضباط الألاي الرابع (الألي عرابي) لطلب انفصال (ألني بك) البكباشي لانه المانع للألاي من الالايين الآخرين يوم حادثة قصر النيل فعملوه على الاستمعاء فاستغنى وأحيل على الاستيداع وكذلك فعل ضباط الألي القلمة في طلب عزل أميرهم محمد بيك صدقي فعزل وعين بدله ابراهيم بيك حيدر، وتبعهم ضباط الألي (الطبيعية) في طلب فصل قائدهم حسين بك ففصل وعين بدله اسماعيل بيك صبري — كل ذلك ليستوثق عرابي لنفسه وليا من على ان القوة الجندية باسرها معه

« على ان ذلك لم يفر عزيمة المحصلين من حاشية الجناب العالي فقد قيل ان بقية مما ترك جناب الخديو السابق اسماعيل باشا من الجوارى السود كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم فاخذوا يزوجهن ببعض المساكر والضباط من الألي السودان، وكان أغوات سراي الاسماعيلية يدعون أولئك المساكر ويمنحون الواحد منهم نقوداً لاتعنى عادة لامثالهم بحجة ان ذلك مساعدة لهم على معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراي ولكن المساكر كانوا يقولون لضباطهم ان الاغوات يغرورهم

بقتل رؤسائهم فيهبج غضب الضباط وتضعف ثقتهم في الامن على أنفسهم ويشد الرعب في قلب عربي ومن معه وسواء صح قول العساكر أو لم يصح فآثره في ازدياد القلق والاضطراب لا رية فيه والاشاعات التي تتولد عنه لا تقل قيمتها عن الحقائق الثابتة ولما وقود الفتن ما يقال لا ما يفعل

« في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ حدث أن عجلة (عربة) لاحد تجار الاسكندرية يقودها قائد أوربي كانت تمر في الشارع المؤدي الى سراي رأس التين فصدمت جنديا من عساكر الطبية فقتلته فاجتمع رده على ان يحملوه الى السراي حيث يقيم الجناب الخديو ويلتمسوا منه الاهتمام بمقابلة الجاني فحاوله مخالفين في ذلك رؤساءهم وساروا به في ضجة وولولة، وصاحوا بطلب الانتقام من القاتل، فكبر الامر على الخديو ورآه تطاولا مخلفا لنا لاداب الجندية - وله الحق فيماراه - فامر العساكر بالانصراف فانصرفوا ظانين ان شكواهم قد قبلت، وبعد ايام صدر الامر بتشكيل مجلس حربي لمحاكمتهم وحوكموا وصدر الحكم على الجندي الذي بدأ بدعوة رفاقه الى الاشتراك في حمل الميت الى السراي بالاشتغال الشاقة لمدة الحياة وحكم على رفاقه وهم ثمانية بالاشتغال الشاقة مدة ثلاث سنوات، وبان يقضوا مدة العقوبة في السودان ثم يكونوا بعد ذلك من أفراد الجند في الاقطار السودانية. ثم قدم الحكم الى ناظر الجهادية فرفعه الى الجناب الخديو فامر بانفاذه وسيق المذنبون الى السويس ومنها الى سواكن ثم الى داخل البلاد السودانية

« بعد هذا كتب عبد المال حلمي أمير الفرقة السودانية تقريراً طويلاً يشكو فيه ما أصاب هؤلاء العساكر من قسوة الحكم ويبين قلقه من الحوادث التي تجري في ألابه والفتن التي لا تنقطع ولا تجف ينابيعها واطهر استغرابه لشدّة الحكم في حادثة مثل هذه مع مقابلة الجانين بالعفو فيما هو أعظم منها وإهم كحادثة فرج الزيني وغيرها)

« قدم التقرير الى ناظر الجهادية، رفعه الناظر الى الحضرة الخديوية، اشد كدر الخديو لذلك وعده جرمًا لا يقل عما اجترمه حاملوا القتل وملتسمو عقوبة القاتل، فاستدعى النظار من القاهرة بالتلغراف فاجتمعوا في حضرته وتداولوا في الامر

وقرر (أي جنابه) ووافقه الاغلب من رجال النظارة على أن بقاء محمود سامي في نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابي ومن معه هو منشأ هذه الفوضوية، وأن لا سبيل لايقاف سير هذا الداء ورد المتطاولين على السلطة العليا إلى الحد الذي رسمته لم وظائفهم الا عزل محمود سامي ، فقدم استعفاءه قبل في الحال ، وعين [داود باشا يكن] ناظرا للجهادية وأعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل [أحمد باشا الدره ملي] من ضبطية المحروسة وتعيين عبد القادر باشا مأمورا لها

« هنا أذكر ما أخبرني به بعض الثقات وهو أن من أسباب ميل الجناب الحديوي إلى استعفاء وزارة رياض باشا انه كان ينتهز فرصة تعيين داود باشا يكن ناظرا للجهادية لمكان المصاهرة الجديدة، وأنه لما لم يتمكن من ذلك في حادثة عابدين لم يزل يتخذ له الوسائل حتى تمها له أن يتفلسم عزم عليه من هذه الحادثة التي لا تمتاز في شيء عما سبقها من أمثالها ، ومع ذلك فقد أظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا وأشيع في الاسكندرية بل وفي القاهرة أنه قدم استعفاءه لتحقيقه من عدم رضى مولاه عنه ، وعلم رياض باشا بعد انصرافه من سراي رأس التين بضجر الحديوي من بقاءه على ما أخبره به بعض الاوربيين ، فرجع اليه وساله في ذلك فأكده له ان لا صحة لما سمعه ، وأنه في الحل الأعلى من رضاه ، فظهر رئيس النظار اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الأدلة على ما يخالفه

« من المبعث ان يقال ان رياض لم يكن يحس بوجود الحديوي عليه ورغبته في اعتزاله للسلطة ولكن لذة المنصب والشف بالرئاسة وثقة دولة الرئيس بنفسه وظنه أن لا صلاح للبلاد الا اذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شؤونها ، كل ذلك كان يقالط احساسه ويدافع وجدانه ، ويلتمس له العذر في البقاء ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه على قوتها، ويقبل به على موهبات الركون اليه على ضعفها، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلاده لانصرف عن مقام السلطة مختاراً قبل أن ينصرف عنها مكرهاً، فقد كان من المحتمل ان لا تبلغ الفوضى بالبلاد مبلغ ما وصلت اليه، أو لم يضطر الضباط الى حشد الجنود في ساحة عابدين لا كراهه على التنازل عن رئاسة النظار

« أراد داود باشا أن يقوم ما اعوج من النظام او يرمم ما تقوض منه فأخذ يصدر الاوامر الشديدة إلى الالايات يلزم بها أمراءها وضباطها كافة بأن لا يفارقوا مراكزهم العسكرية، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع في المنازل، والتردد على المحافل، ويطالبهم بابقاء الاعمال العسكرية حقها من الدقة، وأمر بإنشاء مكاتب في مراكز الالايات لتعليم القوانين العسكرية ظناً منه بأن ذلك يذكر الضباط والعساكر بأحكام النظام فيقبلوا على طاعته، وتأخذهم الرهبة من مخالفتها، وكان يذهب بنفسه إلى ثكنات العسكرية ليلاً ونهاراً ليراقب تنفيذ تلك الاوامر. واهتم سعادة مأمور الضبطية بمعرفة حركات ضباط الجيش خصوصاً الرؤساء منهم وهم عبد العال وعرابي واحمد عبدالغفار ليخبر ناظر الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة، فأرسل العيون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط ولم يخف شي من ذلك على عرابي ورفقائه

القوة التي اعتمد عليها ناظر الجهادية ومأمور الضبطية

« ما القوة التي كان يستند إليها ناظر الجهادية في إصدار اوامره ومأمور الضبطية في بث جواسيسه؟ هي القوة التي يشير إليها اسم الوظيفة (ناظر جهادية . مأمور ضبطية) وهي من القوى المعنوية التي لا يظهر أثرها إلا بعد اليقين بأن قوة الجند من ورائها عند التواء الامور عليها، كسائر الوظائف في الحكومة لا تخضع لأنفس القائمين عليها إلا ومثال القوة القاهرة منتصب أمامها، وماتلك القوة القاهرة إذا لم تكن سلاح الجند؟ فإن كان الجند وهو حفاظ الوظائف في كل حكومة خصماً لها أصيبت بالشلل كما يصاب به المخ تمزقت عنه عظام الجمجمة . غفل كل من ناظر الجهادية ومأمور الضبطية عن هذا الاصل المعروف عند الامم كافة، وظننا ان اسم الوظيفة له من السلطان في إنفاذ الاوامر ما يغلب قوة الجيش ويحمد نيران مدافعه وبنادقه، وربما صار هذا السهو منها مثلاً حذا حذوه كثير من السذج في مصر فيما تآخر من الزمان . نعم قد لا يبالى بقوة الجيش متى استعصى على النظام إذا قامت الامة بأسرها للمحاربة عن دستورها، وهمت بمعالجة جسمها بقطع ما فسد من أعضائها واستعاض الحاكم بقوة الرعية عن قوة بعض أفرادها (وهم الجند) وأخذ لذلك من

الوسائل ماهو أشد أثراً من كتابة المنشورات ، ونشر الوريقات ، ووسوسة الجواسيس ، وحشد الاخبار يترام كاذبها على صادقها ، ويقلب باطلها على صحيحها ، ليكافح بذلك حشد الجيوش وصلصلة السلاح

« لكن الامة كانت لاتزال في النقاها من مرض التفرق وشلل الارادة (وأرجو أن تكون اليوم قاربت الشفاء) فهي ان حكمت على متمرد فانما تحكم أفذاذاً ، كل يصدر حكمه لصديقه همسا يرجو أن لا يسمعه ثالث ، وقديماغ الاغلب فلا يقضي قضاء إلا في نفسه ، وإن جهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين إلا مجرد استحسان ، قد لا ينطق به لسان ، وإن نطق كان على طريقة القائل : فربما اجتمعت أصوات ، وعات ضوضاء ، ولكن كل في مكانه لاتتحرك قدماء ، ولا تمتد يداها ، وأول صحيحة من مدفع تخرس لها جميع الاسن وتخفت جميع الاصوات ، ويتبدل الزئير بالانين . ذلك شأن كل أمة لم تقوم نفوسها بالترية السليمة . ولم تثقف عقولها بالمعارف الصحيحة ، ولم يبلغ بها حب وحدتها الملية أو الشعبية الى حد أن يسهل عاينها بذل المال والروح في سبيل صيانتها . كل أمة تفرق المطامع بين أفرادها ، ويصرف كل منهم شأنه عن شأن مجموعها . ويلهبها العاجل عن الآجل . ويذهب بها الحاضر عن المستقبل . فلا سبيل الاعتماد عليها في دفع غائل ، ولا في مقاومة صائل ، وعلى ولي أمرها أن يبتدىء فيها قبل كل عمل بهذيمها واصلاح طباعها ، حتى تنشأ فيها الثقة بنفسها ، وتعلم منزلتها في نظرها ، ويقلب لديها أمر عامتها على أمر خاصتها ، عند ذلك تكون ينبوع سعادته في السلم ، وسياحه المنيع لصد عدوه في الحرب

« كان الجند طوع عرابي ورقائه لاتحت طاعة الناظر ولا المأمور ، وكانت الامة على حالها التي ذكرنا طالبة لتغيير الحال كما قدمنا ، فالجند والامة كلاهما كانا في جانب عرابي . أرقام المنشورات وأشباح الجواسيس قامت عند عرابي واخوانه مقام انذار لهم بسوء المصير ، فاشتد جزعهم ، فاستجمعوا كل قواهم لحفظ أرواحهم ومناصبهم . وكانت الليالي ليالي رمضان تكثر فيها الزيارات ، وتيسر الاجتماعات ، وتنتشر الاشاعات ، فازداد عرابي ومشايحوه من الحراس تحفظاً مما عساه يقع من الغيلة ، وواصل اجتماعه مع اخوانه ومع كثير من أعيان القاهرة ، وتابع

وسائله الى بعض من يظلمهم على ولائه في الاطراف، وهو في كل ذلك يدعو إلى تشكيل مجلس النواب، لتوهمه انه الوسيلة الباقية لانتقاء شر الحكومة، وكان يتردد في أغلب الاوقات على منزل سلطان باشا ويستمد منه المعونة بالقول والفعل « سلطان باشا لم يكن من أغنياء الاغنياء في هذه البلاد، بل كان فيه شيء من الفطنة يزينه الفنى وتعلي قيمته مظاهر الثروة، كان يفهم ما يقال، ويرضى السامع اذا قل. ولكن هبّات أن يكون له بصر بالعواقب أو علم بمصائر الانقلاب في الحكومات وتغير الاشكال عليها وما يصيب الأمم في مجاري الحوادث من تقدم وتقهقر — أفادته مناصبه السابقة أيام اسماعيل باشا شهرة وعلو صيت — حافظ على مكانته في النفوس ببسطة في الكرم امتاز بها على أمثاله، فكان ينتاب منزله الاعيان والعلماء وأرباب المناصب، وكان يجد في نفسه لهذا علواً على أقرانه. كان مثله مثل الكثير من الاعيان في استئصال يد رياض باشا فيما استأثر به من السلطة، وفي استنكار تلك البدع التي جاء بها في وزارته خصوصاً ابطال السلطة الشخصية، والأخذ على يد الاقوياء، أن تطاول الى استخدام الضعفاء رغم إرادتهم، ووضع حدود يلزم الاعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها في علاقتهم مع غيرهم فكان من يأنم لهذه القيود ويعدها من الضربات التي أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه. توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول الى مقام تعلق فيه كتمته على كلمة مثل رياض باشا، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصي فيمن دونه من عامة أهل بلاده، عند ما لاحته بوارق الثورة ولمع في عينه شرر الفتنة — عندما أحس ان عرابي يتلمس العيين على انشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه — ظن وصدق ظنه ان عرابي لا بد أن يصل الى ما يريد يوماً ما فمن الحزم أن يتفق معه في البداية، ليكون له النصيب الاشرف من الفائدة في النهاية، فكان أول من مدّ يده اليه وواتمه على التعاون في طلب مجلس الشورى، وأخذ سلطان باشا يستنزل بعض أعيان الوجه القبلي والبحري في رأيه ويحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب الى رياض باشا وباج غايه في الطلب أن يستصدر من الجناح الخديوي أمراً باستدعاء مجلس النواب ونحوه له حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في

حقوقه حتى يكون كمجالس النواب في أوروبا ، ثم يكون ذلك دستوراً للبلاد تمضي عليه حكومتها ، فانصاع له بعض وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ، ولم من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فاقبل إلى عرابي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحري والقبلي وعلماءه على تعضيد طلبه متى انفصل رياض باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة وتوجه إلى المنيا في أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨ وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى

« كنت معروفاً بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشعب العسكري وتسوئة رأي الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه وبذلك الوسائل الحق ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحياناً فأري من لدن الباب عرابي وبعض رفقائه جالسين معه وروسهم بادية من التوافد ، فإذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمي أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا . مررت بييت (طلبة) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ورأيت بعضاً من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت ، فدخلت للزيارة فوجدت عرابي وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية (ل بيكس) وكان من الناقين على الوزارة لأمر لا يستحق الذكر ، فجلست واستمر الحديث في وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وبقيد الحكومة بمجلس النواب ، وإن لا سبيل للأمن على الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة إلى مقيدة دستورية ، فأخذت طرفاً من البحث ، فأقننا على الجدال ثلاث ساعات كان عرابي والاستاذ من طرف ، والسكراب من طرف ، هما يقولان : إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شوروية ، والسكراب يقول : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وإن نحمل الحكومة على العدل بما تستطيع ، وإن نبدأ برغبتها في استشارة الأهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من اللائق أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناسي ، قبل بلوغ سن الرشد يفسد المال ويفضي إلى الهلكة ، وختمت قولي بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة لأن تشارك الحكومة في إدارة شؤونها

(٢٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع، فلو تم للجند ما يسعى إليه ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعي فلا يلبث أن يتهدم ويزول، وأرى أن هذا الشعب قد يجر إلى البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسببه إلى يوم القيامة، فتبسم (عرابي) ابتسام الساخط وقال: أبذل جهدي في أن لا أكون مورد هذه اللعنة، وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب وانما هو مؤيد لطلب الاعيان ووجوه البلاد. فسأله: وعلى من تعتمد؟ ومن أخذت الميثاق على ذلك؟ فهمس إلي بصوت لا يسمعه إلا ثالثاً: أن سلطان باشا قد عاهدني على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا، ثم انصرفنا «بعد أن استوثق عرابي لنفسه من سلطان باشا وأيقن بما وعده أن أهالي البلاد وأرباب الكلمة فيها سيكونون معه، وبذلك يتحول عمله من عصيان غير مشروع إلى طاعة للأمة غير ممنوعة. فقد تخيل أن يضع نفسه ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة، كأن الأمة هي التي استعملتهم، فالثورة ثورة الأمة لا ثورة الجند، وكل ما تأتي به الأمة في سبيل حريتها وتقويم ما اعوج من حكومتها لا يصادف منكراً ولا يستوجب عقاباً. هذا هو الحجاب المزعق الذي كان يسدله على أعين الناظرين إليه، والحجة الساقطة التي يقيمها للناقدين عليه، وبعد أن استحکم هذا الخيال من نفسه أخذ يترقب الفرصة لجمع رجاله لالزام رياض باشا بتقديم استعفائه، وكان يصل ليله بنهاره في التفكير والتدبير والمشاورة مع إخوانه، وكلما عقدوا عزماً على شيء عرض لهم ما ينقضه

«كل ذلك والجناب الخديوي بالاسكندرية وهم ينتظرون عودته، وكان يزيد قلقهم ما كان يبلغهم من أن الجناب الخديوي استمال ألي الحرس وأميره علي فهمي وعاهده على أن يكون قوة تقضي على من يخالف الأوامر من بقية الالايات، وقد كانت الاشاعات في ذلك لا تخلو من صحة، فقد أخبرني الرحوم علي باشا مبارك يوم مجيئه من الاسكندرية في مية الجناب العالي أن اقتراق ألي الحرس عن بقية الالايات واستعداده لتنفيذ ما يصدر إليه من الأوامر مما لا رية فيه، وأنه عما قليل سيؤخذ في تقرير أمر فاصل تنحسم به هذه الفتنة وتباد به جرائمها

« عاد الجناب الخديوي من الاسكندرية في أوائل شهر شوال وبعد عودته بأيام تجلى ذلك الامر الفاصل الذي سمعت خبره من علي باشا مبارك ، فاذا هو من غرائب التدابير ، بل من عجائب الالاعيب ، ذلك أن الحضرة الخديوية بعد ان استألت علي فهمي ورجاله وأعدتهم لمغالبة من يستعصي عليها من سواهم ، استألت أيضا أمير الالاي الخامس الذي كان مقبياً في الاسكندرية بجهة [باب شرقي] فأرادت أن ينقل الالاي الثالث الذي كان مقبياً بقلمنة المعز بالقاهرة الى الاسكندرية ، وان يؤتى بالالاي الخامس الى مصر بدلا عنه ، وبذلك يكون في مصر الالايين تحت طاعتها ، والله أعلم ما إذا أرادت الحضرة الفخيمة بعد ذلك ان تفعل بهذين الالايين بعد استقرارهما في مصر

« هل كان الخديوي يريد أن يصدر أمراً بالقبض على رؤساء الفتنة فاذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الأمر بالحرب والقتال بين الطائفتين والمعاصين ؟ ما أظن أن ذلك خطر بالبال ، ولو مر ذلك بذهن جنابه لسهل عليه حسم الفتنة ثاني يوم واقعة قصر النيل ، ولكنها هواجس كانت تجول في الازهان ، ثم تصدر عنها حرركات وأعمال لا يدري صاحبها نفسه ما الغاية التي يريد منها ؟

« ولما استحكم اليأس من نفس عرابي وظن ان الخطر حائق به كتب هو وجاعة من الضباط عريضة الى السلطان يشكون فيها من الظلم ويلتمسون ارسال مأمور خاص لتحقيق ما يشكون منه ، وكان ذلك قبل حادثه عابدين بثلاثة أيام

حادثة عابدين

« أصدر ناظر الجهادية أمرين في يوم واحد أحدهما الى ابراهيم بيك حيدر أمير الالاي الثالث الذي كان يقيم في القلمنة بالتوجه الى الاسكندرية ، والآخر الى حسين بيك مظهر أمير الالاي الخامس ان يبارح الاسكندرية الى القاهرة ليحل محل الالاي الثالث ، ثم أصدر أمراً الى أمير الالاي الثاني أن يرسل من الضباط من يستلم الخافر من ضباط الالاي القلمنة عند سفرهم ، فعند ما وصل الامر الى ابراهيم بيك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم الى عرابي وأخبروه به»

قفزع لذلك هو ومن معه وهالم الامر وتمثل لهم سوء العقبى ، وأيقنوا ان في ذلك القضاء عليهم . فأمر عرابي أولئك الرسل أن ينادوا في ضباط ألاي القلعة بعدم التسليم وبالإقامة في مواقعهم وان يسكوا من يأتي اليهم من الألاي الثاني للاستلام ففعلوا واجتمعت كلمتهم على ذلك . وعند ما حضر ضباط الألاي الثاني كتب محمد أفندي الرملاوي ومحمد أفندي السيد الى عرابي بما حصله ان اربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع الألاي . وأمتعة ابنائكم قد ربعت فاحضروا بنصف الأيكم والأفئتن قائمون . أما النصف الآخر فيبقى تحت قيادة محمد أفندي الزمر الى العصر ثم يحضر عند ذلك كتب عرابي « إلى نظارة الجهادية ينبئها بان جميع الألايات ستكون في ميدان عابدين في نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم وهو يوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٢٩٩ بعد ان كتب الى جميع الألايات ان توافيه في الموعد وكتب إلى الجناب الحديوي يحيطه بذلك علما . وإلى فواصل الدول يؤكدهم ان الغاية من جبهة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة فليكونوا مطمئنين على أرواح رعايهم وأموالهم وأعراضهم

« أرسل الجناب الحديوي رضا باشا يسأل عرابي عن السبب في اجتماع العساكر بساحة عابدين فأجاب عرابي أن للجند مطالب يريد انفاذها . فجاء رضا باشا وعرض الأمر على الحديوي فأرسل طه باشا ليطلب إلى عرابي أن يسكن ويرجع عما عزم عليه ويحذره العاقبة . فكان الوقت قد حضر فقام الألاي بحضرة طه باشا وقام معه ألاي الطنجية . أما الجناب الحديوي فقد توجه بنفسه إلى ألاي الحرس (الألاي الاول) واخذ ينصح الضباط ويذكرهم بأنهم أبناءه وحرسه الخاص وينذرهم بمواقب مثل هذه العصية عصبية . الجاهلية فصاحوا جميعاً : نحن جميعاً فداء لولي نعمتنا . فمضى ذلك امر جنابه أمير الألاي أن يوزع العساكر داخل السراي وأن يقيمهم على نوافذها ليقوها من المهاجرين عليها . ثم استصحب رياض باشا وذهب الى القاعة . وعند وصوله طلب الضباط وسالمهم عن الحامل لهم على مخالفة الأمر الصادر اليهم فأنكروا المخالفة فالتفت إلى أمير الألاي إبراهيم بك

حيدر يستفهم منه فأجابه أن [فوده ييك حسن] هو الذي أغرى الضباط بالخالفة ومنعهم من التسليم وكان فوده ييك على القرب من رياض باشا ليجذبه من طوقه وقاتل له : مثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها ؟ وبينما هم في الكلام اذ ضرب أحد البروجية نوبة [سنكي ديك] فأسرعت العساكر الى تركيب الحراب على البنادق وأحاطوا بالخدियो ورئيس النظار وصاحوا « أطلق البكباشي » فأمر الخديو بتركه وأخذ يخطبهم : ألسن خديويكم ؟ ألسن ولي أمركم ؟ هل تأخر لاحد منكم راتب ؟ أو نقصت له مؤنة ؟ أو حرم من حقه في ملابس أو نحوه ؟ فلم جهرتم بالعصيان وخالقتم أوامري ؟

« فأجابه بقولهم نحن جميعاً مطيعون لأوامر ولي نعمتنا ولكن قيل لنا ان الغاية من الامر بسفرنا هو اغراقنا في البحر عند مرورنا فوق كوبري كفر الزيات فأسف الخديو لذلك وانصرف على ان يذهب الى العباسية لمنع عرابي من المجيء الى ميدان عابدين فبلغه وهو في الطريق ان الالاي قد سبق إلى ساحة السراي فرجع هو ورياض باشا فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلوا من الباب الشرقي

« واول من حضر من الالايات الالاي السواري تحت قيادة أحمد عبدالغفار ثم الالاي عرابي والالاي الطوبجية تحت قيادة اسماعيل بك خبري ثم الالاي الثاني تحت قيادة البكباشي لان أميره محمد ييك شوقي أبى أن يحضر معه ، ثم الالاي عبدالعال ، وهو الالاي السودان تحت قيادة أمير الالاي ، وفرقة المستحفظين يقودها ابراهيم ييك فوزي واجتمعوا جميعاً في مبتدأ الساعة التاسعة حسبما كتب عرابي « وصل عرابي يقود أليه ومعه الالاي الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو متمط جواده شاهر سيفه ويحيط به عشرة من ضباطه شاهري السيوف كحرس له . أنباء بعض الضباط أن علي فهمي قد أدخل عساكره في السراي للدفاع عنها إذا دعت الحال وقد ادخر كمية وافرة مما يحتاج اليه لذلك فاستدعى علي فهمي واشتد في توبيخه ورماه بالخيانة فاعتذر بأنه فعل ما فعل إدارة

منه للخديو وتديراً لحيلة سياسية، ثم أمر بالتداعى فى الاي بالانزول فنزلت العساكر جميعاً واصطفت فى الساحة مع بقية الجنود

« كانت قناصل الدول ومستشاروا الحكومة ونظارها قد حضروا الى سراي عابدين وعند ما رأى عرابي أن الجيش قد اجتمع بأكله ماعدا ألي القاعة فإنه بقي فى مقره بأمره — أمر باقامة الخفر على أبواب السراي لمنع من يدخل اليها ومن يخرج منها

« أشرف الجناب الخديوي على العساكر وأمر باحضار عرابي فحضر اكباً جوارده سالاسيفه محفوفاً بضباط السوارى بحرسونه فأمره باغداد سيفه والنزول الى الارض وابعاد الضباط عنه ففعل ثم أخذ يخاطبه « ألم أك سيدك ومولاك ؟ أأست الذى رقيتاك الى رتبة أمير ألي ؟ »، فيجيبه عرابي « نعم، » ثم سأله « لم حضرت بالجند الى هنا ؟ فقال لطلبات عادلة ، وهى عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام (الشيخ الصامى) فقال الخديو كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها فسكت عرابي ولم يجب بشي »

« ثم أشار القناصل على الخديو بالرجوع الى داخل السراي خوفاً مما عساه يعقب هذه المخاطبة مالا يحمد ، ثم تولى [المستر كونى] المستشار الانكليزي فى المراقبة الثانية وقنصلاً انكلترا والنمسا أمر المخابرة مع عرابي فى مطالبه ومطالب الجند فقال المستر مالت قنصل انكلترا لعرابي ان عزل الوزارة من خصائص الخديو وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الامة لا الجند ، ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش فإن البلاد آمنة مطمئنة وليس فى الامم من يريد لها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية فسيكون بعد اطلاع الوزراء عليه ، وأما عزل شيخ الاسلام فقد يحصل بعد بيان أسبابه »

« أجاب عرابي يا حضرة القنصل ان ما يتعلق بالاهالي من هذه المطالب لم أنهض اليه الا بالنيابة عنهم فقد أقاموني نائباً عنهم فى طلبه وتنفيذه بواسطة هذه

العساكر الذين هم أبناؤهم وأخوتهم، واعلم أننا لا نفارق هذا المكان ما لم ننفذ جميع تلك الرغائب التي أبديتها

« قل القنصل تصرح بانك تريد الوصول الى ما تطلب بالقوة وهذه هي الحمجية التي تجر الخطر إلى بلادك وربما تفضي إلى ضياعها . فقال عرابي وكيف ذلك ومن الذي يمارضنا في شؤون داخلينا ؟ ولئن تمحش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة ولو أدى ذلك الى فئائنا عن آخرنا . فقال مالت وأين تلك القوة التي تكفح بها وتناضل عن بلادك ؟ فقال أستطيع أن احشد في زمن قصير مليوناً من العساكر كلهم يسمعون قولي ويتبعون إشارتي، فإن كانت دولة انكسرت هي التي تستعد لخصامنا فلتكن على حذر من ثورة عامة في الهند تقتضي على حياتها فيه، فقال القنصل وماذا تفعل لو لم يجب على طلبك ؟ فقال كلمة واحدة أقولها ، فأجاب مالت: ماهي ؟ فقال عرابي أقولها عند اليأس والقنوط

« ثم انقطعت المحادثات بين الجانب الخديوي وعرابي مدة ثلاث ساعات استولى فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراي من نظار وقناصل وغيرهم وظنوا ان من وراء هذا الاجتماع نيرانا تلتهب ، وحرباً تنتشب ، ولذلك أفضت مداولاتهم الى التسليم والرضى باجابة عرابي إلى ما يطلب لكن على شريطة التدريب في التنفيذ، وأرسلوا اليه يخبرونه بذلك فقبل ما عرض عليه واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر لجأه الخبر في الحال بقبول استعفائها فطلب أن يعين شريف باشا رئيساً للنظار ومحمود سامي باشا ناظرًا للجهادية فقبل شرطه وانصرف العساكر

« استدعي شريف باشا لقبول رئاسة النظار فتردد في ذلك أياماً لاجساسه بالضعف عن القيام بأعباء الوظيفة اذا استمر الجند على مناوأة الحكومة واستبداده بالسلطة فيما يطلب واستعداده عند الابطال في موافاة مطلبه الى إحاطة كرسي الحكم بالسلاح ، وتهديده بالوثبة عليه، اذا لم يسارع في سوق رغائبه اليه، ولظنه ان دولتي

فرنسا وانكلترا ربما كانتا معضدتين لرياض باشا وبهما أن يبقى في مسند الوزارة، فاذتولاها غيره خشي أن تنصبه اليه الكيد وتقيم له العبرات في سيره، ولما سبق علمه بالخبرات التي كانت بين الضباط وبين الأستانة وبما في بعضها من الشناء عليه وأنه ورياض باشا على طرفي نقيض فرياض باشا هو ممثل النفوذ الاجنبي في مصر وشريف باشا هو الامام المنتظر لتخليص مصر من ذلك النفوذ واعلاء الكلمة العثمانية فيها ويخشى أن تظهر الحوادث مجزؤه عما يؤمل فيه

« كان شريف باشا رحمه الله من أقوى عوامل هذه النهضة التي انقلبت إلى فتنة ، كان من القائلين بأن النفوذ الاجنبي قد بلغ حداً لم يكن يمكن أن يباغته لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للاجانب في كل ما يطلبون . كان شريف باشا يتنعم جلساءه بأنه اذا ملك فيها أو قف الاجانب عند حدودهم وسار بالوطن شوطاً عظيماً في مجده ، كان هو ورؤساء الفتنة يتراسلون ويتواعدون ، ولهذا طابوه رئيساً للنظار ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه . كان وجه الرئاسة يهش له على بعد ، وجمالها يخدعه وهو منها على موعد حتى اذا دنا منها ألغاه شكسة شرسة

انتهى ما لخصناه مما كتبه الاستاذ الامام من كتاب (الثورة العراقية) الذي لم يتمه وها نحن نثبت ما كتبه المحامي الانكليزي الشهير (المستر برودلي B . M . volder) في كتابه (كيف كان دفاعنا عن عرابي How we defended Orabi) في ترجمة الاستاذ وهو نفسه الذي تولى الدفاع عن الاستاذ الامام ، وفيما كتبه ترجمة الملاحمة التي كتبها الاستاذ الامام دفاعاً عن نفسه (أنظر ص ١٤٩) قل — :

الشيخ محمد عبده

ان العالم الصحفي - المحرر - *

ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين وقد أثر في الطبقة المهيمنة من أهل وطنه تأثيراً ظاهراً لانه كان كاتباً لطيفاً، وعالمًا بالعربية ضليعاً، وخطيباً فصيحاً يعمل في القلوب . ولا شك أنه ساعد من قبل كثيراً على جعل الرأي العام عاملاً حقيقياً في الترقى المصري . ولم يكن متعصباً ذا خطر أو متعصباً في الدين ، بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد . وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأي الجمهوري الحر، وكان رئيساً نشيطاً من رؤساء الراية ووطنيته التي لا شائبة للانانية فيها هي التي منعت بعض رفقاءه المتحمسين من استيائهم من خطته الدينية الشاذة استياءً علنياً ، حتى ان عرابي باشا صديقه قال مرة « ان رأس الشيخ عبده أصلح للقبعة منه للامامة »

وتعد أخلاق الشيخ محمد عبده كلها مثلاً للقوة العقلية العظيمة التي تلبدت عليها سحب من ضعف البنية والاخلاق مدة من الزمن . والظاهر أن عقله وجسمانه معاً سحقا سحقاً لا أمل بشفاؤه بعد انفعاله الشديد اثاثي عن الآمال الضائعة وغصص القنوط ^(١) . وقد سب وأهين في السجن مثل رفقاءه لكنه يختلف عنهم بحيث أن أخباره عما أصابه من المحن ضعيفة مبهمه اذا قيست بأخبارهم . والظاهر أنه

(* هذا الفصل ترجمة ما كتبه مستر برودلي تحت هذا العنوان

(١) أخطأ هذا المحامي الانكليزي في قوله : ان الشيخ قد سحق جسمه وعقله من غصص القنوط . فقد دلت قصيدته التي نظمها في السجن (ص ١٥٠ من هذا الجزء) وكتابه المطول الذي نشرته في جزء منشأته من هذا التاريخ (ص ٥٢١ ج ٢) على ضد ما زعمه هذا المحامي وهو أن المصائب لم تذهب بأمله ولم تزد أخلاقه إلا كمالاً . ثم ثبت هذا بسيرته بعد السجن في منفاه وبعد عودته الى وطنه أى في سائر عمره . ولكن أكثر الافرنج لا يستطيعون أن يقدروا الشرقي الكامل حق قدره

(م ٢٩ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه إلا في أواخر أيامه في السجن — حينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التي سعينا لاستحقاقها . . . وكاد يتعذر علينا في بعض الأحيان أن نصدق أن الشيخ محمد عبده هو كاتب تلك الايضاحات البراقة الدالة على غايات الوطنيين المصريين التي كان قد أرسلها إليّ المستر بلنت قبل ذلك بستة أشهر فقط . وكذلك يتعذر على البريطانيين وهم في بلادهم أن يفقهوا الانحطاط الاخلاقي التام الذي يفعله الفشل مع التهديد والتعذيب في نفوس المصريين حتى في أقوام عقلاء وأجرتهم أدبا^(١) . ولا شك في أن مرتب الزيارات الليلية المنزلية للمعتقلين السياسيين بعد نقلهم للسجن المصري كان شاعراً بمقامها وشأنها في نظر الشرقيين وعارفاً قدرها من حيث النجاح في المرافعة القادمة . إلا أن هذه الزيارات أدت الى نتيجة مضادة كل المضادة للغاية التي وضعت لها

كتب الشيخ محمد عبده مذكرة في الدفاع عن نفسه باغة عربية فصحة كانت باعتبارها عملاً أدبياً ايضاحاً عظيماً نور أفكار ترجماننا (المستر سنكلانا) لكنني أراها وبالأأسف قربة جداً من نوع الاعتذار^(٢) والنقطة التي يستند عليها استناد النبهاء الحكماء هي من حيث الشريعة والصناعة تكاد تكل دونها الابصار . وكان سلوكه في رواية الثورة المصرية من أولها الى آخرها سلوك التاج الطائع الخالص^(٣) وأصبح قبل أن يرفع الستار محرراً للجريدة الرسمية وأظهر في هذه الوظيفة من أولها الى آخرها الطاعة لا وأمر من تقدموا عليه بالحقوق الواحد تلو الآخر^(٤) ولا نصير اخباره لذينة إلا حينما تتصل بآرائه وتجاربه الخاصة . أما ما يختص بقيامه بواجباته العامة فإن المسوغ الذي استند عليه هو طاعته التامة للعمدة من ذوي الاقتدار، ويتحول

(١) يقول مؤلف هذا التاريخ : ان هذا الحامي قد تمذر عليه وهو في مصر مازعم انه تمذر على قومه في بلادهم . بل كان أحمل منهم فيما ادعاه من فقه ما أنزه التهديد والتعذيب في نفس صاحب الترجمة . فكان جهله مركباً لانه يحسبه علماً وفقهاً . وكذلك شأنه في كثير من القضايا التي استبسطها من تقريره كما يعلم من مقابلاتها بما في هذا الجزء من تاريخه (٢) قضايا باطلة ، وقد علم مما تقدم انه كان مسيطراً على الحكومة كلها حتى رؤسائه فيها

محور دفاعه عن سلوكه الوطني الى قضية منطقية مبتكرة مقنعة كما يأتي :-
 « ان وطنيتي ووطنية سلطان باشا واحدة وكلانا عمل وفكر تفكير الرجل الواحد ، وقد أصبح سلطان باشا ذا لقب «سير» وحصل أيضاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ، لذلك وجب أن تكون وطنيته حسنة وأهلاً للشئاء عليها . إذن يكون سلوكنا كلينا أهلاً للشئاء عليه . فلماذا ياترى أزج في السجن منتظراً محاكمتي على وطنيتي بينما يصبح سلطان باشا حائزاً رتبة الشرف الانكليزية وحاصلاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ؟ »^(١)

« ان ما ذكره الشيخ من شدة الارتباط بين سلطان باشا وعرايين باشا فصل مهم في تاريخ الحركة الوطنية . وقد كانت آراؤه الى يوم عصيان عابدين مخالفة كل المخالفة لآراء عرايين المعتبرة عنده مثلاً لآراء عسكرية صرفة ، ويقول ان الاجتماعات العامة المتنوعة التي عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور برئاسة سلطان باشا حولت في الحال مقام عرايين من قائد جيش الى قائد مضر . وإليك ما قاله الشيخ :-

« وحينئذ أصبحت و سلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرايين الى آخره » وهاك ما كتبه الشيخ عبده في حوادث الحرب :-

« هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الاجناس والاديان فكان يتألب المسلمون والاقباط والاسرائيليون لنجدة بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حول وقوة لا اعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانكليز ؟
 « اني لم أعلم أنه قيل إن الخديو كان يحارب جيشه بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره — وقد رسخ هذا الاعتقاد عند ما علم الناس أنه أقل عرايين من منصبه لانه لم يمثل امره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز اتقاءً للنزول غزاة من البحر

« وفي أثناء ذلك طفق العلماء يقرءون البخاري في الازهر ومسجد سيدنا الحسين

(١) في مذكرات الأستاذ الخاصة بحوادث الثورة بيان اسباب ماناه سلطان باشا من اللقب والمكافأة وهو خيائته لوطنه وخدمته السرية الانكليز كسيأتي . ولا ندرى أكان في مذكرته التي قدمها للمحامي شيء من ذلك كتبه المحامي أم لا ؟

ويدعون بالنصر لعاكر عرابي والهزيمة للانكليز - وكان إمام الخديو الشيخ الصالح العالم الإياري في طليعة الملتهمين غيرة ووطنية، فنشر قصيدة إبراهيم دريد في غارة التتار على بغداد في أيام الخليفة العباسي المعتصم، وهي عبارة عن دعاء وابتهاال، وقد أضاف إليها أبياتاً من نظمه فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة البخاري. وقد طلب إليّ أن أنشرها في الجريدة (الوقائع) حتى يطلع عليها الجيش أيضاً - وقد كان عمله هذا مشروعا إذ أن المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب إسلامية ضد الكفار - وعند رجوع الخديو إلى مصر بعد انتهاء الحرب خطب هذا الشيخ حاثا الناس على طاعته -

« وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية - حتى النساء - بالخليل والحبوب والنفود والميرة اللازمة للجيش - وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحمية في جمع الميرة المطلوبة وحشر المتطوعة للجيش ولسائر الأعمال العسكرية -

« وقد أرسل عثمان باشا غالب مدير اسبوط في ذلك الزمن ورئيس شرطة (بوليس) العاصمة الآن بضعة ألوف من ارباب الحبوب من مديريته ماعدا الخيول وغيرها من الحيوانات، وقام بأمر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء وزارة الحربية - وهاهوذا كما قلنا آنفا (رئيس بوليس العاصمة) بأمر الخديو « وهذا شأن خليل بك عفت الذي تعين مديراً بأمر وزير الحربية فأظهر غيرة ونشاطا استحق عليهما الشكر الجزيل في الجريدة الرسمية - وهاهوذا نراه الآن مدير المنيا بأمر الخديو

« وقد بذل من اذكر اسماءهم فيما يلي امواهم بسخاء في سبيل الحرب إما مباشرة وإما بواسطة دوائرهم وهم :

البرنس جميلة	أخت الخديوي وحرّم المرحوم سعيد باشا
خيرى باشا	الامين الاول
علي باشا مبارك	وزير الاشغال العمومية الآن
يوسف باشا جددي	احد اعضاء لجنة التموين

محمود بك

علي حيدر باشا

كاتب (أو أمين) أسرار الخديو

وزير المالية (الفعلي)

« وأسماء هؤلاء وردت في أعداد الجريدة الرسمية . وإذا كانت سجلات الدبريات لا تزال موجودة فيمكن استقراء ما تبرع به كل واحد منهم بالتحديد » وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الانكليز وقد شمل هذا الحماس الاقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤسائهم . وكان شبان القاهرة يمرحون في المدينة ليلا يتغنون بمدح عرابي وفي قبي اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالين النصر لجيوشنا »

[قال المحامي]

وكتب الشيخ محمد عبده بعد حين مذكرة في حوادث الاسكندرية التي حدثت في الحادي عشر من يونيو كانت هي وعبارتان أو ثلاث على نمطها سبباً لامتناع شديد ، ربما لا يرجح تحقيق الحق وبراظه ، لكن ثمة مسألة في البحث ناصعة لا ريب فيها ، وهي أن مثل هذه المصيبة التي نزلت كانت مخالفة كل المخالفة لمصالح عرابي للهمة ، وتكاد تكون بالنسبة اليه فشلاً سياسياً وخذلاً ناقوياً تاماً ، وإذا كانت قد تمت بإشارته فانها تعد حينئذ انتحاراً أدبياً حدث عمداً ، على أن نتائج هذه الحادثة من الجهة الأخرى تكون ربما عظيماً لاعدائه ، ويتخذ هذا الموضوع شكلاً مختلفاً جداً باختلاف النظر اليه من الوجهتين السياسيتين المتباينتين - السياسة الغريبة والسياسة الشرقية - فالاولى تعتبر العمل السائق الى المذابح بل المحرك على تجمهر الغوغاء جنائية لا تغتفر ، على حين تعتبره الثانية جائزاً ، أو ربما حسنة « نقلة » في الشطرنج السياسي حاذقة ، وبعد ما أصبح عرابي الحارس المسؤول عن الأمن العام لا باختيار مصر وحدها بل برضا أوربا كلها رأى الشيخ عبده بصورة واضحة ان سياسة الخديو ورجال قصره في سلب الثقة به هي سياسة موت أو حياة لهم ، واعتقد انهم لم يحجموا عن التوسل بهذه الوسيلة المشتبه فيها كثيراً للقضاء على خصمهم المفرط في النجاح

والقوة . ويوجد رجال آخرون ذهبوا هذا المذهب أيضاً وصرحوا به . وإلى القراء ما قاله الشيخ محمد عبده

« لما وقع الخلاف بين الخديو ووزارة محمود سامي باشا شاع في القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغباً في نفس القاهرة الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة وبالغت في ذلك طول مدة قيامها بأعباء الامر ، واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب اليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم اليه - ففعل - وبالفعل الخديو في حسن استقبالهم وأكثر لهم من المواعيد ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم بحشد ٣٠٠٠ بدوي وباحضارهم الى العاصمة بطريق الجيزة ليحدثوا فتنة في البلد لعدم وجود النظام بينهم ولكنه تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو فحذف هؤلاء من العسكر - ولما فشل مساهم هذا أرسل تلغرافاً رمزياً (شفره) الى محافظ الاسكندرية هذا نصه :

« قد ضمن عرابي أمن الامن العام ونشر ذلك في الصحف وجعل نفسه مسؤولاً لدى القناصل واذا نجح في ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا - لما الآن وأساطيل الدول في مياه الاسكندرية وعقول الناس متهيجة فوقوع الخلاف بين الاوربيين وغيرهم أمر محتمل فاختر لنفسك إما خدمة عرابي في ضمانه أو خدمتنا » « وفي يوم هذه الحادثة توجهت الى السراي فرأيت موظفيها في جدل عظيم مما حدث و كانوا يبالغون في رواية الاخبار ويضحكون من عهد عرابي بالمحافظة على الامن العام - ومن المعلوم ان موظفي السراي لا يقولون إلا ما يسر الخديو ، فذا كانت الاخبار سارة تكلموا وضحكوا وإلا تظاهروا بالحزن والسكابة جهدهم - » « وبعد ١٢ يوماً من هذا التاريخ كنت في الاسكندرية فسمعت الناس أجمع يقولون ان المحافظ (عمر لطفي) سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقبلاً في البلد ولم يصدر أمراً بتوقيفها ولم يذهب الى مكان الفتنة إلا بعد مضي وقت - ولم يطلب مساعدة العسكر النظامي مع انهم كانوا على مقربة منه - وأجمع الناس على ان عمله هذا موعز به من الخديو - وعلمنا أيضاً انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ يتمشى من مكان الى آخر واذا بأوربي في شباك وفي يده

مسدس فقال أحد البدو : أأرعي هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له « ارمه » فأطلق
البدوي عليه الرصاص فقتله — وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه
في ذلك اليوم الاسود —

وقد سمعت أيضاً أنه حرص بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على
ذلك ، وأنه أشار الى البوليس [المستحفظين] أن لا يتدخلوا قائلًا « دعوا
أبناء الكلاب يموتون »

« ولم تسأل اللجنة التي تألفت للظفر في أسباب هذه الفتنة عمر لطفي عن شيء
مما حدث مطلقاً ، بل كان الخديو أوعز اليه بأن يستعفي بدعوى المرض
« كان عمر لطفي محافظ الاسكندرية زمن الفتنة وقد أهمل امر القيام بحفظ

الأمم العام على أنه هو الشخص الوحيد المسؤول عنه . هذا إذا لم تقل أنه هو
المحرص عليها — فإذا كان فعل ما فعل ! أاعة لامر عرابي كما ادعى مع أن وظيفته
تابعة رأساً إلى الخديو — لان الخديو أصدر أمراً مخصوصاً صرح فيه أنه بعد
استعفاء وزارة سامي أفضت أمور الداخلية وشؤونها الى السراي — فكيف فعل تعيينه
(أي عمر لطفي باشا) وزيراً للحرية جزاء لنعائه لمرابي وعصيانه لسيد الخديو ؟ وإذا
كان الامر اهمالاً منه فكيف يصح مع اهماله وعدم كفاءته تعيينه وزيراً للحرية ؟ ولماذا
! يسئل سؤالاً واحداً عما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسئل ؟

« لا ريب في أن استقرار سير هذه الحوادث يظهر ثم الظهور أن الخديو
بالاشتراك مع عمر لطفي كانا سبب هذه الفتنة — أي مذبحة الاسكندرية اه

هذا وان الحذر والاحجام الباديين على الشيخ دانا ي زيدان في قيمة نصر بجه
وهي قيمة لا أكاد أضدها على تصريح يقوله اي رجل من درجته . وما لم يحدث
انقلاب جوهرى في الحالة الاجتماعية المصرية فان حل لغز الحادي عشر من يونيو
يقتضى مستحيلاً ، وكل التهورات التي تقوم حوالها تبقى أديان باب التخمين والترحيل
على أنه يصعب علينا ان نقول ان رجلاً كالشيخ عبده وضع لكتابته التي شكها فيها
من البصق عليه في الحبس مقدمة معتبرة أهداها لسمو الخديو . يذهب هذا المذهب
النظري ما لم يكن مطاماً أشد الاطلاع على المعانيات في دسيسة « السراي المصرية »

وانني أشهد شهادة عرفتها بنفسي ان جماعة آخرين : أثبتوا هذه الرواية ولم يكن لهم اتصال ممكن بالشيخ

وفي مساء اليوم الاول من يونيو سنة ١٨٨١ ودعت في الظلام محمد عبده الذي ذهب أخيراً منفياً عن القطر المصري مدة ثلاث سنوات . وعلمت منذ ذلك الحين انه يعيش عيش الفقر والشقاء في بيروت [هذا غير صحيح كما يعلم مما يأتي في هذا التاريخ]

واذا جاز لمصر ان تسيّر منفردة أو يكون لها بداءة خير يوماً من الايام فانها لا يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم المحرر

[المؤلف] هذا ما كتبه محامي العراقيين الانكليزي في كتابه وكنا نود أن نقف على تقرير الاستاذ الامام الذي ذكره المحامي بنصه العربي الاصلي ، ولكننا نفهم من هذه الترجمة عين ما فهمه المحامي الانكليزي لدقة ترجمته ، وبممكننا أن نجزم بأنه أخطأ فيما فهمه من التقرير من انه أريد به الاعتذار لما اعترى كتابه من ضعف النفس وشدة اليأس ، ليس الكلام اعتذاراً عن نفسه ولا تنصلاً من عمل عمله وندم عليه ، وانما هو إقامة حجج وبراهين على ان مؤاخذته وحبسه مع زعماء الثورة ومحاوله الانتقام منه انما هي اغراء من الخديو توفيق باشا به لانه يكرهه كراهة شخصية من حيث هو خليفة السيد جمال الدين في نشر الافكار الحرة ودعوة ترقى الامة في مصر . وكان الخديو يعلم انه كان خصماً لمرابي وحزبه العسكري إلى ان أصبح عراقي صاحب الامر والنهي وقائد الجيش الوطني المدافع للاجانب عن البلاد . وفي هذه الحال لم يكن له أن يقاوم عراقي إن استطاع وأنى يستطيع ؟

اذا كان هذا الرجل قد لزم مع زعماء الثورة لانه منهم فلماذا ترك سلطان باشا بل لماذا كان أقرب المقربين الى الخديو والانكليز جميعاً وهو الزعيم الاكبر للثورة بعد عراقي أومعه أو قبله؟ هذه حجة بالغة أراد الاستاذ أن يلقيها للمحامي البارع فليبه

مقلوبة كما يلبس الفرو ، وكأنه توهم عن فهم أو عن غير فهم ان الشيخ اعترى بها عن نفسه، وأحب أن يكون من الخديو والانكليز في مكان سلطان باشا ، ولو انه كاشف المحامي بكل ما يعلمه من خيانة سلطان باشا لما كان لذلك التوهم الى عقله من سبيل

خيانة سلطان باشا لمصر

كان الاستاذ الامام يعتقد ان أكبر المصريين خيانة لوطنهم سلطان باشا ويليه في الخيانة عمر لطفي باشا محافظ الاسكندرية في ذلك العهد ، سلطان باشا كان موقد نار الفتنة ومحض نارها ، حتى إذا ما اشتعلت نار الحرب بين أهل وطنه بتحريضه وبين الانكليز نكص على عقبيه ، وكان أكبر مساعد للانكليز على قومه بالرشوة مع أنه من أكبر الاغنياء ، وأما عمر باشا فهو الذي مهد السبيل لمذبحة الاسكندرية ونهبها ليقم الاجانب الحجة على عجز عرابي عن حفظ الأمن كما جاء في آخر ما نقله المحامي الانكليزي عن الاستاذ آنفا وأقره عليه وعلى سببه ، وهو انه تنفيذ لارادة السراي وسيأتي بيان ذلك نقلا عن مذكرات الاستاذ اليومية المحفوظة عندنا بخطه وفيه النصوص الصريحة بتعمده لذلك ، وبأنه كان يمكنه أن يمنع الشر ، ويحفظ الأمن ، وبأنه طوب بذلك فامتنع بل كان هو الذي طالب من قائد الاسطول الانكليزي التدخل بقوته العسكرية . وهو انما كان عبداً مأموراً ، لذلك كان سلطان باشا شراً منه لانه كان مناقفاً مذنباً

والذي زاد في استياء الاستاذ من أعمال سلطان باشا غير الخيانة انها كانت على عكس أعماله هو ، فلاستاذ كان ينهى عن الثورة ويسعى لمنعها الى أن نزل الجيش الاجنبي في البلاد محارباً لأهلها حينئذ صار عوناً لهم على قتال عدوهم ، وسultan كان داعية الثورة وزعيمها ، وعدو أمير البلاد المحرض على قتله وأتباعه يبيع البلاد الاجانب — الى أن جاء الاحتلال الاجنبي فصار نصيراً له وعدواً لوطنه وخائناً له يشتري به ثمنا قليلا

وهذا يأسرها

سلطان باشا

فهذا الهام الوطني الذي أوقد نار الفتنة في البلاد، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهبها وعم جميع الأنحاء، ثم هرب من طريقها عند ما خاف أن يلذعه لسان لهبها جاء في آخر الامر نائباً عن الحضرة الخديوية في حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم. نال المكافأة " من الجناب العالي بالاحسان جزاء إيقاد الفتنة ثم الهرب منها، ليتعلم كل مصري هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الاحسان أولاً وآخراً

إلا أن العدل الالهي سيقوم بمجازاته حق المجازاة على ما صدر منه أول الامر وآخره (يوم يعرض الظالم " على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً) وكما ان العدل (الالهي) سيأخذه بما قدم من عمله، أظن أن محاكم العدل والانسانية تبين له خطاه في زعزعة راحة البلاد المصرية في أول الامر في رمضان سنة ١٢٩٨ دعا شريفي (باشا) للتوجه معه الى الخديو لطلب مجلس النواب، فامتنع ونصحه بأن لا يسعى في ذلك (حاكي الحكاية سايمان أباطه وكان فيمن دعاهم لذلك)

قال سلطان في بيت علي باشا مبارك بحضوري : ان مصر يمكنها أن تجمع ثلاثمائة ألف عسكري فتحارب أي دولة كانت . وأجابه علي (باشا) بعدم كفاية المالية ، وانتهى الامر بقوله « نسمع المغني أحسن » علي باشا رأى الضباط يهربون من أودة (أي حجرة) إلى أودة في بيت سلطان ، وحكى لي الحكاية ثلاث مرات

(١) أنعم الخديو توفيق باشا على سلطان باشا بعد الاحتلال بعشرة آلاف جنيه من المالية جزاء إخلاصه كما في كتاب (مصر للمصريين) وهل هذه هي المكافأة التي عنها الاستاذ أم غيرها؟ فهناك مكافآت (٢) الاستاذ لم يكتب تمة الآيات هنا الخ

جاء شواربي (باشا) عند محمود سامي (باشا) وهو ناظر الداخلية وقال ان جميع النواب متكدرون من تعيين فريد باشا مأموراً للدائرة البلدية تكدرت النواب جداً لاني أشرت بانتخاب سليمان باشا أباطه وكيلا للداخلية وذكر لي ذلك أحمد محمود فتبت على يديه الخ

تعدى مجلس النواب ماضرب له من الحد، وتذاكر في إبطال مصاريف الابراهيمية، مع انها داخلة في إيراد مديرية اسبوط المرهونة للدين الموحد، وردت المالية القرار، ثم حكم المجلس بتوقيف الاطباء الذين كانوا في الكورنتينة بناء على عرض حالات قدمت اليه، وظن سلطان أنني الذي أئين هذا الخطأ للنظار مع انه كان بحيث يفهمه الصبيان، فاشتكى سلطان باشا الى ناظر الداخلية مني، وقال له قل للشيخ محمد عبده لا ييدي ملحوظات على محاضر النواب

كتب سلطان وهو رئيس النواب كناية رسمية يطلب فيها من إدارة المطبوعات أن تعترف أن جريدة الطائف هي لسان النواب المعبر عن أفكارهم، فاعترفت الإدارة بذلك تنفيذاً لامره، ونشر ذلك رسمياً بامر ناظر الداخلية (وزارة سامي) ثم إنني عطلت الطائف^(٢) شهراً لنهيجه، ومع ذلك لم يكتب الباشا ما ينقض ما كتبه أولاً، وهو الذي حمل النواب على الاشتراك في ذلك الجرنال، واكتبوا له بمبلغ كبير إشارتي بعدم الاهتمام بمسألة الجراكسة — تقرير راغب باشا بطلب العفو عن جميع من اشترك في الحوادث ماعدا الجانين في مذبح الاسكندرية — وقبول الخديو وصدور العفو —

(١) يمني في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية)

(٢) جريدة الطائف كان يصدرها السيد عبد الله نديم الميهج الشهير بمقالاته وخطبه، حدثنا أحمد فتحي باشا زغلول قال كنت في عهد الثورة تليذا في مدرسة رأس العين الاسكندرية قبلنا ان السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور في مكان كذا، فحضرت خطبته مع كثير من الطلبة وغيرهم فكان مما قاله ما خلاصته: إن طوابي الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها على البحر يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ومدافع الاسكندرية اذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر — فكيفما جالت الاساطيل الانكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا — فعلا هتاف الناس وتصفيقهم له !!

يوم الحرب ذهبت للتكلم مع ناظر الداخلية في طريقة نشر جريدة المونتيور
الفرنساوية الرسمية لسفر محررها . اهـ

(هذا كل ما في الورقة المفردة وهو عناوين كان الغرض منها تفصيل
الكلام فيها في فصول تفيد العبرة بها وإليها مذكرات الدفتر أسردها
بنصها الا انني أضع لها أرقاما تضبطها بالعدد)

(١) الدائنون يريدون أن تدفع لهم الفوائد على فداحتها فعدل سير الادارة
على أن يؤدي الى هذا الغرض . ورسوم على المصري أن يخضع لاستبداد
إداري مختلط ، بل هو في الحقيقة أوربي لا شائبة للعدل فيه ، وهو الاستبداد
الذي اقتحمه الخديو المعزول

(٢) كل الامم من كل الاديان تغني من عمله (أي الفلاح المصري المشار اليه
في الجملة الاولى) وعلى نفقاته وهو في ذلة الفقر والفاقة
(٣) ما يقصر من أداء الديون من اللومين والدائرة السنية يوفى من
الخزينة (تدبير ولسون)

سنة ١٨٨١

(٤) في أواخر سنة ١٨٨١ قصد غمبتا إرسال ٢٥ ألف عسكري لتقرير النظام
في مصر مع انه لم يكن حصل فيها شيء وكان ذلك في وقت المحاربة بين فرنسا
وانجلترا في عقد معاهدة تجارية

(٥) البارون درنج رأى الفرصة مناسبة لتقرير نفوذ فرنسا في وادي النيل
لكنه لم ينجح في إعداد المراقبة الثنائية لقبول خلع الخديو وإيجاد نظام جديد
وكان قد عرض على حكومته خطر استقلال المراقبة الثنائية وخطر مركز الخديوية
(لعل غمبتا قنع بما قاله درنج أخيرا)

(٦) في ٤ فبراير سنة ١٨٧٩ نشر منشور ضد رياض باشا طبع منه عشرون
ألف نسخة وفيه مطالب وطنية ، ولم يعثر على ناشره وكتابه . ونسب الى الجمعية
التي تألفت لمعارضة رياض باشا (جمعية حلوان) شريف . شاهين . عمر لطفي .

راغب . ويقال ان سلطان باشا كان فيها

(٧) يقول شريف باشا بعد حادثة عابدين انه لا يقبل الوزارة حتى تكون لديه ضمانات تكفل انه لا يعتدي الضباط أو الجند على النظام مرة أخرى — كأنه لم يعلم بسير الفتنة مع انه كان من مدبريها

(٨) حصل سلطان باشا على عرائض ممضاة من الاعيان والعلماء قبل حادثة عابدين وأطلع عليها عراي وأبي عراي إلا أن تكون تحت يده ، فهرب سلطان الى المنيا ، وبعد الحادثة ظهرت العرائض والمحاضر

(٩) لم يبق داع لبقاء أديب (إسحق) في أوروبا ، فألقيت (جريدة) القاهرة وأعيدت على هيئة جديدة وفي موضوع جديد ، وكوفي محررها بتعيينه رئيس قلم ترجمة أولاً ثم سكرتيراً لمجلس النواب بعد ذلك وصاح الخديو عند إمضاء الأمر بتعيينه من شدة الفرح : « الحمد لله الذي خلصني من رق شخص كنت أبغضه »

خلاصة خطاب سياسي لعراي

(١٠) لم يذهب عراي الى رأس الوادي إلا بعد أن صدر الامر بتشكيل مجلس النواب على طريقة جديدة . وقد كان الخديو حاول أن يستدعي أعضائه على مقتضى النظام القديم فأبى إلا نظاماً جديداً ، وعند سفره ألقى على مودعيه خطاباً طويلاً شكاه فيه من العقبات التي تصادفها مطالب الشعب من وضع دستور يكفل له الحرية ويؤمنه من الاستبداد . وصرح فيه بأن الخديو والنظار ومن على ساكتهم كلهم لا يميلون إلى مساعدة الأمة على ما تطلب ، وبأن أعداء الأمة هم الدائنون ومعاونوهم من الأجانب ، يدفعهم الطمع الى الاستيلاء على جميع موارد الرزق في مصر ، وان من الافتراء أن يقال ان البلاد تريد سلب الأموال والاستثمار بالمنافع وسلب حقوق الدائنين . وانما الحق ان هناك شعباً يطالب بأن يكون على اثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على الاشخاص والاموال

تواطؤ فرنسا وانكلترا على المصريين

(١١) قال غمبتا في محادثته مع اللورد ليون فيما يتعلق باستدعاء مجلس النواب « قايي ممتلى ، رعبا ، ليس من الممكن الحزر والتخمين على ما عساه يقرره ما يسمى بالحزب الوطني، من الجائز أن يعتمد الى تقرير طريقة مختلفة تخالف مصالح الاوربيين، لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين ان انكلترا وفرنسا لا يمكنهما أن تحتكما شيئا من هذه المطالب ولا تلك التزعات »^{١)}

اتفاق غمبتا واللورد ليون من التعصب إذ لم يعرف مثل هذا الاتفاق على اسبانيا وانيونان مع كثرة ديونهما وانهما أحط شر ، (؟) في الوفاء من مصر

سنة ١٨٨٢

(١٢) في ١٢ يناير سنة ١٩٨٢ سأل اللورد غرانفيل مالت: اخبرني بالتلغراف ماهي حدود سلطة مجلس النواب في المالية المصرية على حسب ماقدرته الجمعية العمومية والشروط التي تطالبها ؟

فاجابه في ١٣ منه

مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم بعقود مع الحكومة تكون تحت مراقبة المجلس وعلى ذلك يمكنه أن يلغي مصلحة المساحة مثلا لانها لم يكفل تشكيلها باتفاق دولي، ويمكنه الاستغناء عن عدد كبير من موظفي الاوربيين في الادارة المصرية (١٣) قال مالت (في ديسمبر سنة ٨١) اذا حاز مجلس النواب حق تقرير

الليزانية فقدت المراقبة سطوتها في الامور المالية

(١٤) في ١١ يناير سنة ١٨٨٢ قال مالت. انه قد تقرر عنده ان المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق في طريقة الدستور وان اللائحة التي يريد المصريون تقريرها لمجلس شورا هم تمثل في الحقيقة شرائط حريتهم وحيث قد تقرر هذا المجلس بحالة نهائية فلا شيء يمكن أن يبطله ولا أن يلغيه إلا أن يكون تداخل وهو آخر ما ينتهي اليه العمل

(١) ليعتبر المصريون والشرقيون عامة بهذه الاثارة التاريخية

مقاومة فرنسة وانكثرة لمجلس النواب في تقرير الميزانية

(١٥) سلطان اكد لقنصل انكثرة أن النواب لم يوافقوا الا آمال الشعب وليس من ضغط عسكري ، ولا يمكنهم أن يعدلوا عما يوافق في رغبة الاهالي فاجابه : لا انتظار لأدنى مساعدة بما يختص بهذه المسألة (تقرير الميزانية) لما في ذلك من الخطر وما قولونه وما يطلبه النواب لا طريق لنيله الا القوة واستعمالها اعلان للحرب . وقد علمت ارادة انكثرة وفرنسا فيما يتعلق بذلك

(١٦) في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ في مجموعة اعمال البرلمان نمرة ٣٠٢٣٠ تلفراف من مالت في ٢٠ يناير سنة ٨٢ اذا تمسكنا بابائنا على مجلس النواب ان ينظر في الميزانية كانت المداخلة العسكرية امرا اضطراريا فان اصرار مجلس النواب على رأيه في ذلك جزء من مشروع تام أعد لثورة

(١٧) في ١٧ سنة ٨٢ يناير قدم المراقبون طلبهم فيما يتعلق بمجلس النواب ومطالبه قائلين : إن الاوامر الخديوية السابقة قد ربطت الادارة المالية بدولتي فرنسا وانكثرة فاليهما يرجع السماح للمجلس بحق إعطاء رأيه في الميزانية وعدمه وهما لا تسمحان بذلك لما ظهر من مقصد المجلس في تقيص عدد الموظفين الاوربيين وفي ٢٧ منه امضوا المذكرة بذلك باسم الدولتين "

(١٨) في ٢ فبراير سنة ٨٢ استعفى شريف وعين محمود سامي

(١٩) مجلس النواب قرر تعيين لجننتين لتخفيف بعض الشكاوى التي رفعت على مصلحة المساحة وعلى ادارة الجمارك وظهرت وجوه الخلل في أعمال الموظفين الاوربيين ، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس ، وقد رفض موسيو كاليار مدير الجمارك ان يحضر جلسات التحقيق وعارض في أعماله

(٢٠) وقف المجلس على تقرير قدم المراقبين من أحد موظفي الدومين المسمى

(١) ليسبر بهذا كله من يمكنون أي أوربي من الدول الاستعمارية من أي منصب أو عمل في بلادهم وخلاصته أن هؤلاء الموظفين يعملون لسلب استقلال البلاد بطريقة ادارية سلمية حتى اذا ما عاقهم عائق برزت القوة العسكرية من ورائهم تؤيدهم

(روفسل) يطالب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالاً في أن يصلوا بالظفرة الى مايقال من حريتهم ، واشتكى من ان المدير لا يحبس في الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن ان كل شخص يحبس بغير أمر قضائي يرسل بالتلغراف الى نائبه ، وعلى ذلك يُسأل المدير عن السبب في الحبس. وهذا تظاهر من الاهالي بالاحوال الجديدة التي يبنون عليها حريتهم وخلصهم

(٢١) غوردون باشا يكتب الى التيمس في يناير سنة ١٨٨٢ :

يقال ان مصر تسرع في الغنى والسعادة وانه (كذا) فرحة مسرورة . ولا أظن أن شيئاً قد تغير عما كان الا ما كان من ضمانه الدين فانها اليوم أوثق اما الحبوس (السجون) فخاصة بأولئك المساكين من الفلاحين
مسألة الشراكسة وغش القنصلين للخديو

(٢٢) في مسألة الجراكسة قدم عرابي الحكم وطلب العفو بتخفيف العقوبة فأرسل الخديو (الحكم) الى الآستانة فطلب السلطان الاوراق. وكان مافعل الخديو بناء على نصيحة القنصلين. ساء الوزارة ذلك وبدأ ائتلاف ، وطلب من الخديو تسوية المسألة فأشار عليه القنصلان بالاصرار وطلب استعفاء الوزارة

(٢٣) في ٢٠ مايو — أرسل موسيو سنكوينس (?) احد موظفي القونسلاتو موسيو مونج عند عرابي لينداكره في المسائل الحاضرة فكان من قول عرابي ان المجلس الآن هو الحاكم وهو أول خاضع له ، ونقل هذا مسيو مونج الى رئيسه . وعند ذلك ابتدأ القنصلان في المخاطبة مع سلطان باشا

وفي ٢٥ مايو قدموا المذكرة التي ذكر فيها ان المجلس بلسان رئيسه نصح عرابي بالابتعاد عن الاقطار المصرية حيناً من الزمن
سأت النظرارة سلطانا فأنكر

ولكن الخديو قبل المذكرة فاستعفت الوزارة بعد إقامة الحجة على كل ما جاء فيها . لم يقبل أحد النظارة فرجع عرابي ناظراً للجهادية وأحيلت أعمال بقية النظارات على وكلائها

﴿ ما يتعلق بالمذكرة التي استعفت الوزارة عقبها ﴾

(٢٤) جاء في الكتاب الازرق الانكليزي ان مستر ماليت كتب أولاً أن رئيس المجلس لا يمكنه بعد الآن أن يعتمد على أعضائه فان كراهمهم لكل تداخل أجنبي تزداد كل يوم عما قبله

ثم يقول في رسالة أخرى ان المذكرة التي قدمها لم يطلب فيها إلا تنفيذ ماأراده أعضاء مجلس النواب، وقد صرح المجلس بأرادته على لسان رئيسه سلطان باشا (٢٥) يقال ان قنصل روسيا موسيو ليكس نصح مراراً ان أحسن طريقة

لمعاقبة الشره الاوربي كان امتناع الاهالي كافة عن إعطاء الضريبة الخ لكن كان عرابي ورفاقه يثقون بالدول غروراً ولا يعلمون ما كان يجري حولهم (كذا يقول القنصل) فقد كتب موسيو مالت في ٧ مايو سنة ١٨٨٢ قبل وصول المراكب يقول لحكومته : « ليس من الممكن الوصول الى أي حل كان للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة في البلاد »

(٢٦) حصلت مذاكرة في المذكرة التي قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع سؤال: هل يمكن لنا ان نجمع المجلس؟ فأجاب ساطان أظن أن ذلك لا يكون الا بأمر الخديو فنسأله في ذلك ولا ريب انه يوافق عليه . فقال له أحد النظار : الخديو الذي كنت تطلب خلعه إن لم يمكن قتله قبل أيام؟

(قبل هذا) جاء كلام في الخديو في جلسة فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابي وكان سلطان يقول اقتلوا الثعبان سلاله الجناة الناهيين الذين باعونا للأجانب)

هذا هو ساطان الذي كان رئيس الحزب الوطني وهو لا يريد الآن إلا (١) هذه الجملة كتبها النقيدي في حاشية المذكرة لانه تذكرها بعد كتابها فوضعناها بين هلالين لذلك

معاملة الخديو — ذلك الخديو الذي لا ينبغي إلا بيع البلاد للأجانب^{١)}
اجتماع مجالس النواب حق للشعب ونحن نوايه ولا بد لنا أن نطلب النواب
إلى القاهرة حتى لو أراد عرابي أن يوافي ما طلب من إبعاده إرضاء للسياسة
الأجنبية فافعل، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى إليه الخلاف
سلطان رجع عن رأيه إلى رأي الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو
والتصليين وفيما اضطر إليه من موافقة الثأرين

(٢٧) يؤكدون أن ضرب الاسكندرية لم يكن خطر يبال الوزارة الانكليزية
ولا وضع في مداولها إلى الرابع من شهر يوليو سنة ٨٠ وانما وضع بعد ذلك انتقاما
من مؤتمر الاستانة وليس من البعيد أن يكون السبب صلات عرابي مع الاستانة

(المشير درویش باشا مندوب السلطان)

(٢٨) مقاصد الاستانة من إرسال درویش باشا (١) إطلاعة من المخبرات (٢) أن
يعاد من قلب المراقبة وتوفيق من جهة تأكيد سلطة الخديو (٣) أن يستمال قلب
عرابي وأخوانه بطريقة أبوية إلى زيارة الاستانة قصد التنزه على شواطئ البوسفور
(٤) تقرير ساحة الباب العالي بمصر . وكان من السهل إدراك ذلك كله لو أرسلت
من هو أقوم من درویش الخ

(٢٩) درویش يذكر بسلطة السلطان ويثني على الخديو وينصح بالخضوع
لأنظام . وإذا جاء الكلام في النهضة المصرية يقتصد في القول ويقتصر على قوله أن
السلطان مولانا وأبونا وهو الذي سينظر في ذلك

(٣٠) أرسل الخديو لاستقباله ذو المقار باشا ، وأرسل عرابي من قبله يعقوب
سامي ، وقد حصل خلاف بين الرسلتين في المركب (الباخرة) عند المقابلة لتكدر
ذو المقار . لكن درویش استقبل كليهما بالبشاشة

(١) أي بحسب رأيه . فيقابل هذا وأمثاله بما ذكره مستر برودي المحامي عن
التقييد في سلطان باشا ليعلم أنه رحمه الله تعالى لم يكن حاسداً لسلطان باشا بل كان
محتجاً عليهم باتباع الهوى السياسي في ترك محاكمته وهو أساس الثقتن كلها

جاء الاسكندرية في ٦ يونيو وسافر إلى القاهرة في ٨ منه
(٣١) أقوال بعض العلماء في إظهار مطالب في رأيهم وتصريحهم لدرويش
بما يجب أن يفعل أغضبه ، ومن ذلك الوقت مال الى توفيق فلما أحس بذلك
(أي الخديو) أرسل اليه ما يزيد إقبالا (*)

(المحاوره المهمة بين درویش باشا التركي وعرابي باشا ومحمود سامي باشا)

(٣٢) في يوم السبت ١٠ يونيو قابل درویش باشا عرابي ومحمود سامي لأول
مرة فخرى الحديث بينهما على ما سنذكره

(قال درویش) نحن جميعاً رجال جنود يحترم بعضنا بعضاً وأنتم اولادي
لمكاني من السن . وقد أرسلني مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته
المصرية العزیزة ، وستسهلون علي هذا العمل ، انا اعلم شكواكم ستشكون
صبراً قليلاً ، سيكون هذا العمل بعد رحيل هاتين الدولتين (٢) اللتين تضايقنا
جداً ، فقبل كل شيء يلزمنا إبعادهما ، هذا ما تكفل به لو عضدتموني فيه ، انا ارى جيداً
من جهة وقع الخطأ ليس الخطأ من قبلكم ، يجب التوسل الى المطلوب مع الحزم والبصيرة
ثم التفت الى عرابي وقال له : أنت أنت وحدك الأمر الناهي في مصر .
أنت مع كونك لست الانظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها . هذا ما أغضب
الدول المتحدة ، يلزم أن يرين المساهلة معهن . وما بقي بعد هذا علمنا فيه بيننا
وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضوري حيث إني مشير مرسل
من قبل السلطان ، وكن نائباً عني مأموراً تحت قيادتي ، لكي تسهل علي التجارة
مع الاجانب عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك الى الآستانه
حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير في مفاوضته معكم

(*) أي أرسل اليه رشوة قدرها خمسون ألف جنيه وحليا قدر ثمنه بخمسة
وعشرين ألف جنيه

(١) تشكون بضم التاء وفتح الكاف أي ستقبل شكواكم ويزال ماتشكون منه
(٢) العاريتين من الاساطيل الانكليزية والفرنسية اللتين في الاسكندرية

فأخذ محمود سامي يترجم المقال وعراقي يسمعه ، ثم قال
 (عراقي) مشروءكم هذا في غاية الحسن ، وانا مختاره مع الشكر ، لست
 حريصا على السلطة التي تريد ان تنسبها الي . هي سلطة غير مقتضية ، الامة هي
 انني أفضت الي بها ، فالواجب ان ينظر الى الامة ويفكر في شكواها
 أعترف بأن يديك ابرع من يدي في العمل لتذليل المصاعب التي أمامنا
 الآن . سبني ووظيفتي تحت تصرفك . انا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك
 انما اشترط شرطا واحدا : أعطني باسم السلطان واسم الخديو واسمك كتابا
 تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعا في كل ما جرى الى الآن ، كائنا ما كان ، سواء
 كان ذلك مني أو من اخواني ، وحيث اني تعهدت للقناصل بحفظ الامن في الديار المصرية
 وتحملت ثقل ذلك على كاهلي فأرجو ان تعفيني من ذلك بطريقة رسمية معروفة
 أطلب ذلك لان الاحوال ان جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها صنيع
 وان جرت على العكس من ذلك كننا الجانين

مالت وكولفني وسندويش عاملونا معاملة الخارجين على النظام وذلك في
 بلادنا وهم الاجانب الذين لا يحترمون لثايننا ونحن نحترم لهم كل شيء
 فوعده درويش بانائه مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو وهو اليوم المحدد للجلسة
 يحضرها درويش باشا تحت رئاسة الخديو . وانما طلب أن يعلن هذا القول الذي
 جرى بينها من قبلها جميعاً وطلب من عراقي أن يكتب إلى الاسكندرية ذلك
 بالتلغراف فأبى عراقي أن يعلن شيئاً إلا بعد أن ينال ذلك الامر الخاص له من كل تبعه

(استعداد الاوربيين وتسليحهم استعداداً للمذابح)

(٢٣) مسألة تسليح الاوربيين وإيهام موسيو كوكسن ان حوادث ستحدث (*)
 (٣٤) مالت أخبر حكومته نقلا عن سكرتير الخديو الاوربي (كودار بك)
 ان محمود سامي وعراقي دخلا ثاني يوم استعفاء وزارة سامي والسيف في يد كل
 يهدد الخديو بفقد حياته

(*) كوكسون هو قنصل الانكليز في الاسكندرية

(٣٥) سمع مكاتب التيمس من عرابي قبل ضرب الاسكندرية انه يحترم القتال مالم يخرق العدو حرمة البلاد وإلا هدمه ، ولكنه ضعف عن ذلك وقت الحرب (٣٦) أكثر الجرائد والتلفرافات من الاشاعات التي أفزعت الاوربيين وأخافتهم من المصريين وطلبوا من مديريهم في الاعمال أن يأذنوا لهم بالتسلح فمنهم من أبى ومنهم من أذن (٣٧) خدمة (لاسترن تلفراف) طلبوا التسليح فأبى رئيسهم فكتبوا له عريضة فعرضها على رئيس (الكبانية) في لندرا فاذن بذلك وسمح بثنائية وثلاثين (لوففير) وعائلات الموظفين أرسلت إلى قبرص على نفقة الكبانية (٣٨) الاوربيون أصبحوا متأكدين من عداوة الشعب لهم لاحتسابهم من ضارم بسوء أعمالهم اليه

بدء المذبحة في الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

(٣٩) ١١ يونيو سنة ٨٢ كان يوم الاحد والقهاوي كانت غاصة بطالبي الراحة من الاشغال الطالبين للهو باللعب والسكر . فحدثت مشاجرة على قرب من قهوة القزاز في آخر شارع البنات نحو الساعة واحدة بعد الظهر حيث يوجد ازدحام كثير من الكراسي والطرايبزات وأشخاص منهم القائم والقاعد :مالطي يقال انه خادم مستر كوكسن أخذ (ركب) عربية وطاف بها من محل الى محل يشرب ويتنزه إلى أن وصل الى خمارة أحد مواطنيه وهو سكران فطلب منه العربي الوطني أجرته فأعطاه المالطي قرشا واحداً ودخل القهوة (الخمارة) فنبعه العربي وبتبادلت الكلمات بينهما فتناول المالطي سكيما كانت معانة في مائدة الدكان معدة لقطع الجبن وطعن بها العربي فسقط لاحراك به ، فاجتمع بعض الوطنيين وحمار من أقارب العربي وأرادوا القبض على القاتل فجاء يوناني خباز مجاور للخمارة ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين والطبنجات وأخذوا يضربون يمينا وشمالا ، ومضى نصف ساعة قبل أن تصل عساكر المستحفظين من قراقول اللبان أول من جاء منهم مع المعاون قتل ، فجاء آخرون وصارت معركة عمومية

ولكن لم يتداخل العساكر في القبض على الجناة فتمكنوا من الفرار (الاروام والمالطية) وكان يكفي لحسم المعركة تدخل المحافظ لو اهتم بذلك لغيبه الضابط لمرضه وبعد نصف ساعة حصل نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين فتفاقم الخطب لان كلا منهما كان يريد ان يقتل الآخر (وذلك لعدم القبض على الجانين) لكن مسألة الجانين لم يبق لها ذكر في أذهان المتنازعين وانما بقي النزاع

(٤٠) والمسلمون والمسيحيون دخلوا في خصام حقيقي بين أهل الدينين وأخذ الاروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت مع انهم كانوا في مأمن من وصول الشر اليهم . وعند ذلك أخذ المسلمون يفدون من كل جانب مسلحين بعضهم بالهسي والبعض بأرجل الطرايزات أو هشيم الكراسي وبعضهم بالنايت اشتروها من الخازن القريبة خصوصا من السوق الجديد

في هذه الحالة رؤي موسيو كوكسون نازلا من بيت أحد المالطين بلباس ملكي ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عند ما أراد أن يركب

العربة ففر ونجا منهم - وصحبه (عمر لطفي) في أثناء الطريق

(٤١) لم يكن المسيحيون مدافعين بل كانوا يهاجمون أيضا . وقد طارت الفوضى ، ورؤيت عربة تمر حاملة قتلى من عساكر المستحفظين . وعلى القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الاروام المسلحين على حسب الاوامر المعطاة لهم وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بدون تمييز

ولم يأت أحد من العساكر ولا من البوليس (ولا المحافظ) لاطفاء النار

(٤٢) على القرب من تمثال محمد علي حيث لم توجد مقتلة وجد نحو اثني عشر

قتيلا ليس فيهم أوربي إلا واحد

(٤٣) وعلى القرب من زبزينيا رؤي (عمر لطفي) فسأله سائل كيف

تكون هنا والمذابح على خطوات منك؟ فقال لست بقائد وهذا لا يعنيني . فسأله

لم لم تحضر بلباسك الرسمي على حصانك شاهراً سيفك في خمسين من عساكر

المحافظين وبذلك كان الامر ينتهي؟ فاجابه انصرف ليس هذا من شانك ،

وهل أنت محافظ البلد ؟

وبعد ذلك مر أحد موظفي المحافظة فسئل ماذا يفعل الضابط ؟ فقال انه

مريض وقد طلب من المحافظ مراراً أن يرسل العساكر فلم يفعل (١)

(٤٤) سليمان سامي كان مستعداً لارسال العساكر إذا ورد له الامر من

نظاره الجهادية ولكن لم يكتب أحد بذلك إلى النظارة لان الامر بيد المحافظ

وقد بدأ في المخابرة التلغرافية مع القاهرة من بدء الحركة ولا جواب على ما يظهر

(٤٥) ذهب نينه عند قنصل الروسية وحدثه بما رآه من المحافظ فعجب

وقام للمخابرة مع اخوانه القناصل وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعرابي

و كانت الساعة ٤ بعد الظهر

(٤٦) نحو الساعة ٥ بعد الظهر قابله من اخبره ان عرابي ارسل الاوامر

لاعادة النظام ، كانت الشوارع غاصة بالرعاة والاباش يحملون الاسلاب ويصيحون

ويسبون وبعد نصف ساعة عاد النظام الى ما كان

(٤٧) لم تقتصر المذبحة على شارع البنات بل وقع ذلك جهة الجمرک وشارع

رأس التين وأبو العباس (أيضاً) . واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين في هذه الحالة

خاصوا نساء أورييات وأوصلوهن إلى بيوتهن

(٤٨) يقال ان أخوين انكليزيين كانا مسلحين بلوفر فير (مسدس) ولم

يكونا يحسنان استعماله قتل أحدهما بضربة عصا أطارت سلاحه من يده

(٤٩) ظهر في اليوم الثاني أن عدد القتلى الوطنيين كان ١٦٣ غير من أخفام

المتشاجرون اذ حملهم سرّاً من وسط المعركة

ومجموع ما وجد من جثث المسيحيين أوريبيين وغيرهم ٧٥ كثير منهم مصاب

برصاص في قعر رأسه * فمجموع القتلى ٢٣٨

(*) لهذا كان عمر لطفي باشا و ساطان باشا أبغض البشر الي صاحب الترجمة رحمه الله

(*) هذا يدل على ان هؤلاء قتلوا بالرصاص الذي كان يلقيه الاروام والمالطيون

من أعلى بيوتهم بغير حساب

(٥٠) لم يصل الخبر عرابي الا الساعة أربع وربع بعد الظهر مع أن القليل من موظفي التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا في تلغرافات المحافظ حتى ان رسالتين مهمتين من أحد الميرالايات في اسكندرية لم تقبلا لاشتغال العدة بتلغرافات المحافظ

(٥١) عمر باشا لطفي طلب إنزال عسكر انكليزي لعجز عرابي عن الامن (١٢ يونيو سنة ٨١)

(٥٢) موسيو كليكن كويسكي القائم بأعمال قونسلاتو فرنسا رجع الى عتله وأخذ في طلب تحقيق عن أسباب الحادثة فصدر الامر في الحال بذلك وبعد هذا امتنع الاعضاء الاوربيون من العمل : وألح الوطنيون على التحقيق مع حبس من تظهر الشبهة عليه من الاوربيين ، فعارض في ذلك مندوبو اليونان والانكليز وأبي مندوب فرنسا الحضور " وطلب بعض وكلاء الدول شق عشرين شخصاً من المذنبين وبهذا تنتهي المسألة في رأيه (١١ يونيو)

(٥٣) جيش صادق بك وكيل الضابط (سيد قنديل) لم يمكنه أن ينفذ شيئاً من تعليمات الضبطية لأن عمر لطفي كان يعمل بعكس تلك التعليمات وبعد ذلك عين وكيل حكمة ادارة السودان بناء على توصية عمر لطفي فهل لا يعاديه حتى لا يشهد أو مكافأة له على المشاركة في الخيانة ؟

(٥٤) بعد الحادثة نبه القناصل على الرعايا بالهجرة مع الطلب من كل ان يكتب ما عنده فكتبوا دفاتر وزادوا فيها ماشاؤا . ذلك أن القناصل كانوا يعتقدون أن البلد ستضرب و زادوا أن يرجح رعاياهم ما يشاءون "

(١) ليعتبر الشرقيون بهذه الذمم وبهذه التصرفات ولاسيا الذين يعرفون ما يمدح به هؤلاء الافرنج انفسهم وما يذمون به المصريين وسائر الشرقيين وما يصفونهم به من التعدي والعصب

(٥٥) في الاسبوع التالي للحادثة اشيع خبر ان سيمور لا يعتقدان للحزب الوطني دخلا في الواقعة فاتهم الخديو وأمر عمر لطفي ان يخبر سيمور ان تعهد عرابي بالأمن أصبح لا يعتمد عليه ويخشى من مذبة أخرى - ففعل ولكن لم ينل جوابا شافيا (أخبر الكاتب نفيه عرابي بذلك وطلب منه عزل ~~عمر لطفي~~ ولم يتيسر)

(٥٦) ثم عينت وزارة راغب واصدرت عفوا عن الجرائم السياسية غير ان القناصل لم يعترفوا بها تبعا لقنصلي فرنسا وانكلترا
(٥٧) بمد ضباط سيمور خبر الطوابي (١) وانها ليست بشيء (هذا الباعث له على الضرب)

(٥٨) عساكر الطبجية كانوا في بلادهم بتعلة الاقتصاد ، كان في الطوابي مائة مدفع وواحد منها ٦٩ كانت في مواضعها الحربية والباقي كان مرميا بعضه بجانب بعض وذلك من نحو اثنتين وثلاثين سنة قبل الواقعة
وأما البمب (أي القذائف أو القنابل) فلم يفارق مخازن الترسانة، قبل الضرب بيوم واحد لم يكن جهاز مدفع من المدافع بما يلزمه من بارود وبمب
غيرة الاهالي يوم الضرب

(٥٩) تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالي الاسكندرية هم الذين يتقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الاميرال ومن أرسله
(٦٠) لورد نورثبروك أرسل البروفسور بلير (بالمر) ليفوي قبائل عربان غزة من شهر يونيو وقابله نفيه وكان لا يذكر اسمه لتكره . وقال له يوما قبل الضرب بمدة : ليهاجر فان المدينة ستضرب

(١) المؤلف : هذه الجملة ليست واضحة في مسودة المذكرات وتدل القرينة على سقوط شيء منها ، والمراد منها أن سيمور قائد الاسطول الانكليزي عرف حقيقة حال طوابي الاسكندرية بالاختبار وانها غير مستعدة لضرب بوارج الاسطول ولكن لا يعلم من أخبره بذلك . وكلمة بمد في أول الجملة لا يعلم متعلقها ، ويحتمل أن يكون أراد بها « بعض » أي ان بعضهم اختبر الطوابي . ولكن كيف كان ذلك

(٦١) قبل الضرب بمدة صدر أمر من مدير شركة التأمينات الانكليزية بتعديل في بعض الخطوط وطلب وكيلها في مصر مد خطوط إلى بورسعيد والسويس تحت الماء ، وأذن له عرابي ولكن لم يتم
مدير الشركة في لوندرا طلب من وكيله بمصر في شهر مايو أن يتغيب بالاجازة إلى أن تنتهي الحوادث فإن ميله إلى الوطنيين قد يضر به عند الغالين إذا حدث حرب
(٦٢) قنصل الروسية أكد لنيته ان الاسكندرية ستضرب وسأله أن يسعى على الأقل في عزل عمر لطفي . عزل عمر لطفي وعين ذو الفقار وهو لا يريد إلا ما أراد الخديو

﴿ شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ﴾

تحرش الاسطول لضرب الاسكندرية

(٦٣) في ٩ يولييه : كتب سيمور لطلبة (باشا) في شأن وضع المدافع وتجهيز الدفاع وتوعد بالضرب
(٦٤) في ١٠ منه : كرر ذلك الاشتكاه وقال انه سينفذ تهديده ان لم يسلمه طابية رأس التين لتجربتها من السلاح (لم يكن شيء من التجهيزات قد وصل في ذلك اليوم) فارسل اليه قرار من مجلس النظار تحت رئاسة الخديو حضره أيضا كثير من الاعيان محصله ان مصر لا يمكنها تسليم موقع من مواقعها إلا قهراً ، وان شيئاً مما يدعيه لم يحصل من يوم صدور أمر السلطان بمنع ذلك . وما كان قد حصل (فهو) من الترميمات السنوية . وان المدافع لم تزل على حالها من سنين وصل الجواب اليه ضابط قال له ان شاء فليرز بنفسه الطوابي وليتحقق مما يدعيه . فأجاب بانه مصر على وعيده ، وان عرابي لم يزل يحول بينه وبين مصر الخ
﴿ رأي الخديو توفيق باشا في ضرب الاسكندرية واحراقها ﴾
(٦٥) ١١ يولييه : أحد الميرالايات الذين في معية الخديو قال له : مامصير الاسكندرية لو ضربها الانكليز؟

فأجاب (أي الخديو) ستين سنة !! وهز كتفه

فقال الضابط . لكن السكان سيحرقونها فأرجو أن تتوسط لدى الاميرال

٢٥٢ من أحرق الاسكندرية؟ ضرب الاسطول لها والمهاجرة منها

والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية

فأجاب (اي الخديو) فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبه على طوبه
حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رموس أولاد الكلب
الفلاحين ، وسيدوق الاوريون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب
(٦٦) الخديو ذهب من رأس التين إلى الرمل والمحافظ وموظفو المحافظة
انسحبوا واختفوا

﴿ حرق الاسكندرية وضربها والمهاجرة منها ﴾

(٦٧) بين من حرقوا الاسكندرية أروام بلباس عرب رؤيت جثثهم بتلك الثياب
أثناء الحريق ، ومنهم عرابان من أولاد علي ممن كانوا على صلة بالخديو - ومنهم من
أهالي الاسكندرية - ومنهم أوريون بقصد النبالغة في التعويضات . وذلك بعد
ما أخلت الاسكندرية ممن يخشى عليهم

(٦٨) في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ الساعة ٧ صباحا ضربت الاسكندرية ،
وكان قد أوصى عرابي ضباطه ، ألا يضربوا الا بعد خامس طلقة من المراكب
(٦٩) قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن على ايديهن ومات
الاطفال أيضا ، وحمل النساء والاطفال وهن على هذه الحالة .

(٧٠) هدم المسجد الذي في طابية قائد بك عمداً وجهت اليه النار على قصد

المهاجرون من الاسكندرية

(٧١) نحو مائة وخمسين الفا من السكان مجردين من كل شيء أخذوا في
الحركة لغير قصد ولا لماوى . الموت والفرع ملء نفوسهم . على شطوط المحمودية .
الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة ،

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ، متحركة
في كل جهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ،
لا وقاية ولا عيش ، على طرفي تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة

عود الضرب ثاني يوم .

(٧٢) في ثاني يوم الساعة ٨ صباحا عاد الضرب إلى الساعة الحادية عشرة وأصاب الاستيائية وهجرها كثير من المرضى والجرحى وكان عليها العلم الابيض بالهلل الاحمر .
 (٧٣) طلبة (باشا) بعد ان رفع العلم الابيض على نظارة البحرية ذهب الى الاميرال يسأله عن سبب عودة الضرب فاجابه أحد الضباط عن لسان الاميرال أنه يطلب تسليم الطوابي والقشلاقات أيضاً . طلبة اراد المخاطبة مع مجلس النظار ، انتشر الخبر في المدينة ، أخذ العساكر في إخلائها ، هلع الناس وأخذوا ثانياً في الهرب
 (٧٤) دخل اولاد علي للنهب . سليمان سامي سلم محافظة محلة الاوربيين إلى عساكر الرديف الذين لم يكونوا أفضل من العربان فانضموا اليهم في النهب آخر النهار .
 * عود الى وصف المهاجرين من الاسكندرية *

(٧٥) اما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو كماء انكسر سده فاندلق ، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين ، في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين امامهم أو حاميين على ظهورهم ماخف حمله من امتعتهم : حيوان ، اثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التي لا قيمة لها .

في هذه الحالة - حالة شعب طرد من بيته - كان الحر شديد او غيم من الغبار سد الافق ، وأظلم الجو ، نساء يبحن عن أولادهن ، يتساجرن بعضهن مع بعض ، يتضاربن ، في أخلاط لا يمكن التعبير عنه - عربات بلا عجل استعملت مساكين - عربات من كل نوع بعضها ساقط في المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بنجيل ، بعضها بغير خيل - روائح شي اللحم - صياح على اللارة : الخبز الخبز

(٧٦) ابتداء الحريق في المدينة الساعة ١١ مساء من ثاني يوم الضرب

(٧٧) في ١٣ يوليو توجه الخديو من الرمل الى رأس التين ، وعسكر

عرايبي في كفر الدوار

(٧٨) في ١٤ يوليو عندما وصل عرايبي لكفر الدوار اجتمع عليه النساء والرجال ياعنون العالم ويطلبون الخبز ، فوعدهم بالقوت وبما يحملهم مجانا الى داخل البلاد وقد أرسلوا مع تواصي المديرين ليقبضوهم ويضعوهم في أعمال بقدر الطاقة

﴿ كتاب تاريخي من الخديو إلى عراي ورد عراي عليه ﴾

(٧٩) في مساء ذلك اليوم (١٤ يوليو) ورد لعراي كتاب من الخديو

محصله بعد العنوان .

سمادلو عراي باشا ناظر الحربية في معسكر كفر الدوار —

« إنك تعلم ان الاميرال الانكليزي لم يرد حرب مصر وانما اطلق المدافع على الطواي بسبب ما كان جاريا من التجهيزات كما انذره ، وقد اعلنا أنه يجب اعادة العلاقات معنا ، وانه مستعد لتسليم الاسكندرية لجيش منظم مطيع ، فان لم يكن فالى جيش عثماني ، وقد قرر مؤتمر الاستانة ان للسلطان وحده حق المداخلة بقوة السلاح في المسألة المصرية . فعليك ان تحضر مع رفاقك الى رأس التين للمداولة في ذلك ، وأمرنا بالكف عن التجهيزات التي لا فائدة منها بعد الآن »

فاجاب عراي بعد التعظيمات

« ان الاميرال انما اطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم بانه لا تجهيز ولا تحضير ، وقد عددنا جميعا (وسموكم معنا) ان انذاره بالضرب اهانة لمصر وعلان بحربها بلا سبب ، ومع ذلك فلم يقتصر الضرب على الطواي كما قال بل قذف قنابل مفرقة على الاملاك حتى قتلت ودمرت كثيرا ، وان عسكركم النظم مستعد لان يأتي المدينة عند الاقتضاء ، وانا لا ارفض أي مخابرة في الصلح ، لكن يلزم ان يتذكر ان التمدي وخرق سياج السلم وتدمير المدينة انما جاء من المراكب الانكليزية ، وان الطواي لم تجاوب إلا بعد خمس ضربة من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرءوس بسموكم وحضور درويش باشا » ومن المعلوم ان انكلترة أصبحت بذلك محاربة لمصر ، اذ بعد اطلاق

النيران اثنتي عشرة ساعة واضطرار العساكر المصرية لاخلاء المدينة وإشغالها بعساكر انكليزية لا يمكن ان يقال ان البلد في غير حرب

« سموكم يعلم أنه في هذه الحالة لا يمكن ان تكون مداولة حرة ما دامت المراكب الأجنبية في مياه الاسكندرية بل يجب ان تبعد عنها ، فاذا حصل ذلك فاني مستعد لاجابة الدعوة حالا . اما التجهيزات فيجب ان تستمر الى ان تبعد

المراكب عن الاسكندرية. تلك التجهيزات التي يشير اليها سموكم وهي جمع ٢٥ ألف مقاتل هي التي امرتم بها وما انا الا منفذ لامركم

﴿ عزل الخديو لعراقي باشا ﴾

(واتفاق الناس على مخالفته واستمرار الاستعداد للحرب)
(٨٠) بعد أيام صدر الامر بعزله ووزعت بذلك منشورات لهذا السبب وصرح فيها بأنه كان ناظر الحربية إلى تاريخ الدعوة إلى رأس التين
(٨١) طبعت نسخ من تلك المحاطبات ووزعت في البلاد فجاء الناس لعراقي طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوارد عليه من كل جانب ثم شرع في بناء الاستحكامات ، وأغرق الجانبان من جهة الملاحات ، وانتهت القلاع في قليل من الزمن ، وساعد على ذلك ان العدو لم يكن يعمل شيئاً

﴿ الجيش المصري والمتطوعون فيه والجيش الانكليزي ﴾

(٨٢) كان الجيش مؤلفاً من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفعاً من كروب. وكان يوجد في أبي قير ثلاثة الاف وخمسمائة ، والقان وخمسمائة في رشيد ، وخمسة آلاف في دمياط ، المجموع أحد عشر ألفاً^(١) اما الخيالة فلم يكن لهم وجود إلا قليلاً
(٨٣) كان من عمل المراكب ان تهدد في حركاتها النقط المذكورة لتمنع عراقي ان يرسل جيشاً إلى الوادي

(٨٤) أدخل العربان في الجيش على علم من عراقي بمضرة دخولهم. شرع في جمع عساكر الرديف ولم يكونوا يصلحون لشيء . شرع في جمع غيرهم. ودخل كثير من المتطوعين ولكن لم يكن يكفي لجعلهم جيشاً صالحاً للدفاع وراء الجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد ، واما في الفلا فلا أقل من سنة لعسكري ألماني ومن سنتين لعسكري انكليزي

١ أى مجموع العساكر التي في الثغور المذكورة فتكون مع الجيش المنظم الذي يقوده عراقي ١٩ ألفاً

(٨٥) قالت التيمس : أرسلت الحكومة الانكليزية ٣٥ ألفاً وستبلغها ثلاثين ألفاً لمقاتلة الجيش المصري

﴿ طلاب التطوع في الجيش المصري من الاوربيين ﴾

(٨٦) كثير من ضباط التليان والالمان والسويس عرضوا انفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين والبعض كان يطلب وسيلة النقل والبعض لم يكن يطلب (كالالمان) إلا تعيين الضابط الاكبر باسم رفيع في الجيش . أما الفرنسيون فجاء من بعض المفلسين منهم شيء لا يلتفت اليه غير أن البحر كان مأخوذاً تحت مراقبة المراكب الانكليزية، والمواصلات كانت مقطعة تقريباً بين مصر وأوروبا

﴿ آراء عرابي في حالته وفي عدم الثقة بالفرنساويين ﴾

(٨٧) لم يكن بهم عرابي عندما رأى في بعض الجرائد الفرنسية والانكليزية تلقيه بعاص - الإخفاة أن يصدر بذلك أمر، وكانت له ثقة بالسلطان إلا إذا أكره. وتذكر البارون درنچ وكان يلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع أنه كان موظفاً في خارجيتها. ثم بعد ذلك أخذ كرمصائب الاحتيال الفرنسي في مصر أيام نابليون وما احتال به هذا ومنو* على المصريين من الاكاذيب ، وما حصل من الفرنسيين في تونس ، واستنتج أنه لا يمكن الاعتماد على فرنساوي في شيء (١)

(٨٨) عندما ضبط الاسير الانكليزي واستنطقه عرابي وسأله (٢) عما كان مكتوباً على بعض الكلال (٣) من اسم «اسكندريا» فأجابه حصل تحريف والحقيقة «اسكندرا» اسم المركب ، فاعتذر عرابي بعدم معرفته الانكليزية . ثم قال له

(* هذه كلمة مبهمه لم نستطع قراءتها قد تدل القرينة عليها

(١) المؤلف : ولكن عرابي الفر اعتمد بهد هذا على داسيس الفرنسي في حماية القتال من الانكليز كآرامه في عدد ٨٩ (٢) وقوله واستنطقه عرابي وسأله الخ لا بد أن يكون أحد الفعلين بغير واو العطف (٣) الكلال تنطق بالكاف المفخمة واصلمها قاف ولها هم كتبوها بالكاف حتى لا تشبهه بقلة الماء واصلمها واحد

لهلاك رأيت ما يخالف عما قرأت عن المصريين ؟ فأجابه نعم ولكنني عسكري .
ما علي إلا أن أطيع

(انخداع عرابي بنفس دلسبس في تركة القتال)

(٨٩) عرابي اعتمد على دلسبس في حماية القتال وكان يظن أن مس القتال .
يهيج عليه جميع الامم لهذا ترك تلك الناحية عوراء ، وعند ما أحس دلسبس بأن
الجيش المصري قد يتحرك ناحية القتال كتب تاعرافا لعرابي يقول له من المستحيل
ان عساكر الانكليز تمر من القتال

وبعد واقعة مهمة في ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقيها بأن اثنين وثلاثين
مركبا توجهت إلى القتال فورد تلغراف من دلسبس يقول : لا تشرع في شيء
مس القتال ! لا يمر عسكري انكليزي الا ومعه جندي فرنساوي ! أنا مسئول
عن كل ما يحصل . فأجيب بأن هذا غير كف وتقرر ارسال جيش ثم أرسل
الجواب ببطء وقبل أن يتحرك عسكري إلى ناحية القتال كان الجيش الانكليزي
قد احتله وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة في مخابة دلسبس ، ويظهر أنه كان في
الحاضرين خونة حملوا الاخبار وأبطأوا في المخابة

(٩٠) قال ولسلي لو قطع عرابي القتال كما قرر لم يكن لنا إلا حصر مصر ،
والضرب في البحر أربعة وعشرين ساعة خلصتنا وأنجتنا

(أخبار القتال بين المصريين والانكليز وضعف عرابي وجيشه)

(٩١) في ٢٣ و ٢٤ أغسطس كانت واقعة نفيسة وأسر محمود فهمي (باشا)
فجاء سامي (باشا) بنفسه وطالب من عرابي أن يذهب الى ناحية الوادي
(٩٢) جيش الجهة الشرقية كان أغلبه من العساكر المجموعة حديثا التي
لا تساوي شيئا . خسارة محمود فهمي كانت جسيمة لا تعوض وليس من السهل
تعويضه . عرابي وجميع الضباط ومحمود سامي شعروا بالضعف والوهن عند ذلك .
(٩٣) قررت مشورة حرية اغراق المنطقة الشرقية مما وراء الزقازيق .

ذلك أخاف عرابي وأرهبه فلم ينفذ . وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط . ورشيد وارسال مثل عبد العال إلى جهة الوادي ، فنفذ شيء وأوقف شيء ولم يحضر عبد العال وكان حضوره مفيدا

(٩٤) ذهب عرابي الى الوادي في حزن وانكسار قلب . وقد اعترف أنه في مدة الستة أسابيع لم يأت اجتهاده بتنظيم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها . أرسلت عساكر الى الوادي وجاء الى كفر الدوار من عساكر الرديف الهرمون والمؤفون (١) (٩٥) مع حركات الجيش المتوالية ، وتلك الدهشة المستولية ، كان النظام والخضوع مستوليا على الجميع

﴿ عود الى خيانة سلطان باشا ﴾

(٩٦) في ٢٧ أغسطس جاء خبر بأن فارسين خرجا من الاسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد علي من عائلة شهيرة بالفيوم فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار . ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه الى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعومهم إلى ترك عرابي والاتحاق بالجيش العثماني الذي جاء لاختضاع العصاة استنطقوا فاعترفوا بكل شيء : وذكروا أن جنديا بحريا انكليزيا يسمى

(جيل) حمل ثلاثين الف جنيه من سيمور ليأحق بالاستاذ (بالمر) يستميل معه

عربان غزة ، وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا إلى رؤساء العربان في الشرقية - وان مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الانكليزي إلى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إلى القائد ذهب إلى السويس لمقابلة (بالمر) وقد قطع سلك التلغراف الذي يصل بين مصر والآستانة . وكان

(١) أي الذين ادركتهم الهرم والمصابون بأفات العاهات فلا يستطيعون عملا . مؤفون جمع مؤف وأصله مؤوف اسم مفعول من أوف الشيء والشخص أي أصابته آفة أو عاهة

كل ذلك حقا فان قائد الفرقة البحرية في القتال أخذ المبلغ من (جبل) وسلم منه أربعة آلاف جنيه إلى (بالر) وحجز الباقي على حسابه وأرسل معه جبل وضابطا آخر قتلوا جميعاً بين العربان

(٩٧) مركز الدسائس والمخابرات كان في اسكندرية في مكتب يسمى (قسم المخابرات العسكرية) اجتمع فيه كثير من الانكليز من موظفي الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر

وكان روح الجميع سلطان باشا

(٩٨) عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الانكليز لا يفيد، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح، فأخذ في التوزيع باسم الخديو والسلطان، واختار لبث الافكار الحاوي الطحاوي أحد ثقة عرابي، فكان الحاوي يظن اخوانه العربان بمصيان عرابي وقوة الجيش المحارب ونحو ذلك، وكانت القيم التي تدفع إلى الافراد تتفاوت من جنهين إلى ثلاثة. ولم يكن عرابي يقتنع بخيانة العربان وكان الحاوي مع ذلك يخبر عرابي ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابي كان يفضي اليه بجميع ما عنده

(٩٩) في واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغي وكانت المساكر المصرية يجب أن تزحف في الساعة الثانية بعد نصف الليل على الجيش الانكليزي، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانكليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق في الساعة واحدة. وجرح علي فهمي وراشد باشا وانهمزم الجيش، وما ذاك إلا من الجواسيس العربان. وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت إلى قلب

الجيش وإلى كثير من الضباط بسعي سلطان باشا ومراسلة العربان (١٠٠) في ١١ سبتمبر جاء عرابي مراسله ينبئته بخيانة العربان. فأبى قبولها هاتلاً أنهم مسلمون (!!!) (١٠١) في ١٢ سبتمبر أنبىء عرابي من المنبع نفسه (بعض رؤساء العربان

أيضا) بأن الانكليز سيفرضون التل الكبير ويرمون إلى بليس (جبة حصنها
الفرنساويون من قبل) ليأخذوا هذا الموضع ويفتحوا طريق القاهرة . اقتنع
عراي بصحة الخبر فأرسل إلى طلبة يطلب منه ارسال فرقة من الجنود لتكون
في التل الكبير صباح الثالث عشر من شهر سبتمبر . جاءت الفرقة ماشية ، وصلت
الزقازيق في صباح اليوم المذكور بعد الهزيمة

(١٠٢) يقول أحد الضباط إنه في الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا
إلا بصياح العربان ، وبضرب النيران ، ولم يعرف من كان لهم ممن عليهم ،
ووقع الاضطراب العام ، والجيش الجديدة انهزمت فكان الانكليز يقتلونهم
كانهم في الصيد ، وقاوم ثلاثة آلاف فني نحو نصفهم . وبعض الضباط كان في
عجز عن المشي عن الفرار (اعلمها عند الفرار) لتقل النقود التي كان يحملها فتهب
من بعض السودانيين

(١٠٣) يقال ان عراي كان يحب اطالة زمن الحرب (أي رجاء أن تتدخل
الدول في المسألة كما قاله الاستاذ في موضع آخر — المؤلف)

[يقول المؤلف محمد رشيد رضا] هذا ما عندنا من المذكرات الخاصة بالفتنة
العرايية أثبتتها بحروفها كما كتبها رحمه الله في تلك الايام الحالكه الظلام ، المشتبهة
الاعلام ، المثيرة للاوهام ، حتى إنني لم أصحح ما أقطع به من عنرات القلم وان كتب
في بعض المواضع على الاصل الصحيح ، وفي بعضها على المشهور الدائر على السنة الناس
كلفظ الاسكندرية واسكندرية وسكندرية . وأما وضعت قليلا من العناوين
لبعض المسائل المهمة في سطر مستقل للتنبيه والترويح فيها وبعض الخطوط على
بعض الاعلام أو الجمل من فوقها وقائلا من الكلمات المفسرة والموضحة بين
علامتي الادراج هكذا () وأما الجمل التي وضعت بين هاتين العلامتين فهي
له رحمه الله تعالى الا الاخيرة منها التي ختمنا بها كلمة المؤلف وفي هذه المذكرات
عظات وعبر لو اتبع لاستاذنا رحمه الله تعالى أمام تاريخ الفتنة العرايية وشرحها
لاستفاد قراؤه منها مالا يوجده نظير الا في كلام حكماء المؤرخين الاعلام الذين
يقل عددهم حتى في الامم الحية العزيرة ، وكان لدى الاستاذ ملخصات مترجمة من

الجراند الاجنبية فيما كانت تكتبه من الاخبار الآراء في المسألة المصرية في أثناء تلك الفتنة، كانت تترجم بأمره لادارة المطبوعات التي هو رئيسها ولدينا بعضها ولكن لا حاجة لنا بنشره لاننا نكتب تاريخ الرجل لا تاريخ الثورة العراقية، وقد جئنا بما علم به رأينا في اسبابها ونتائجها وسيرته في اولها وآخرها .

ولما كان غرضنا من كتابة تاريخه استفادة الامة مما فيه من العبرة حسن منا أن نذكر القارىء ببعض الفوائد التي تؤخذ مما كتبه في هذه المسألة كتابة للمؤرخ الصادق الحكيم والوطني الصميم .

﴿ بعض فوائد ما كتبه في المسألة العراقية ﴾

(الفائدة الاولى) ان الاوربيين كانوا يتصرفون في الدولة المصرية و البلاد المصرية أسوأ التصرف وأشده إفسادا للنظام ، وكذا في جمع الحطام بموسوقون للحكام والرعية كما تساق الانعام ،

(الفائدة الثانية) ان أمراء البلاد لم يكن عندهم من العلم بطبائع الامة وحقوق الدول وأخلاق البشر وتاريخهم وسنن الاجتماع مله يديهم الى السياسة المعقولة والادارة القويمة في حفظ ملكهم الاستبدادي ، لذلك كان اسما عيل باشا هو المحتاح لثروة الامة والدولة ، الممكن اننفوذ الا جانب فيها ، والممهّد للثورة التي هي موضوع بحثنا ، وهو يظن أنه سيجعل مملكته كمالك أوربة . وكان توفيق باشا هو الموقد لئارها ، والداعي للانكسار الى احتلالها ، من حيث يظن أنه يحفظ سلطته من عبث الرعية بها .

(الفائدة الثالثة) إنه لم يكن في رجال هذه الدولة وأصحاب النفوذ فيها أوفي الشعب رجل كبير العقل بعيد الرأي قوي الاخلاص والعزم يتلافى الثورة على علم وبصيرة ، بان يحقق ما حققه الشيخ محمد عبده من أسبابها ، ويقنع الخديو توفيقا بما يجب فعله في امرها ، وقد كان هذا ممكنا مع توفيق لما كان عليه من الدماثة وضعف الارادة ، مع حب الخير والتدين ، ولو كان لهذا الشاب الازهري محمد عبده مدير المطبوعات ورئيس تحرير الجريدة الرسمية ما كان لرياض باشا وشريف باشا من المسكنة في الدولة أو ما كان لسلطان باشا من الجاه والثروة في الامة ، لقام بهذا

الواجب. كان سلطان باشا يعلم ان عرابي وأخوانه الضباط المصري العرق مافكروا قبل تفاقم خطب هذه الحوادث بالخروج على الخديو ولا في تقييد سلطته الاستبدادية بمجلس نواب ولا بغيره ، وكان يعلم ان غرضهم الاول من طلب المجلس الامن على أنفسهم ثم على وظائفهم العسكرية ، وان غرضه هو من المجلس الذي اتخذهم وسيلة له ان يكون وزيراً أو رئيساً له ، فكان يمكنه بهد استئصال الخطب وقرب وقوع الخطر على البلاد بالاحتلال الاجنبي — وقد رست بوارج الاسطول أمام مدينة الاسكندرية — ان يقنع الخديو توفيقاً بحقيقة أمر العرايين وان اخضاعهم ممكن ، وأنه خير له وللبلاد من الاستعانة عليهم بالانكليز ، فان هؤلاء اذا احتلوا البلاد احتلالاً عسكرياً بظهورهم على قواتها العسكرية فان سلطانه الحقيقي يزول ، وانما يبقيه الانكليز كالشبح الماثل ليستعينوا باسمه على حكم البلاد كما يريدون ، كما فعلوا في بعض الممالك الهندية أو دون ذلك ، ولكن سلطان باشا كان أصغر نفساً وأقل علماً وأضعف وطنية من ذلك ، بل كان خائناً خان اميره أولاً بشبهة خدمة الامة وجل حكومتها مقيدة بالشورى النيابية ، ثم خان أمته بشبهة خدمة أميرها والمحافظة على امارته ، وانما خدم الانكليز وحدهم

فان هو من الشيخ محمد عبده الذي كان ساخطاً على عرابي وجماعته منكرًا عليهم افتيائهم على حكومتهم وأميرهم ، محذراً إياه من سوء العاقبة بانهاء فتحه باحتلال عسكري يوجب لمسيه لعنة التاريخ الى يوم القيامة ، ومنكرًا عليه وعليهم التعميل بطلب الحكومة النيابية قبل اعداد الامة لها ، على أنه كان هو واستاذ السيد جمال الدين أول من نبه الافكار ووجه القلوب اليها ، ثم لما آل الامر الى تدخل الاجانب في أمر البلاد بطلب الخديو اضطر إلى ان يكون مع الامة عليه ويساعد الامة ما استطاع من رأي ، وقد تقدم ما ثبت ذلك بالتفصيل

(الفائدة الرابعة) ان من أهم أسباب هذه الفتنة ، وما آلت اليه من المحنة اختصار الخديو ورجال بلاطه وكذا وزرائه وكبار ضباط جيشه من الترك والجرس للمصريين الخالص ، والتعمير عنهم بالفلاحين للتحقير والتعير . وعدم غير أهل المناصب الدولة ، ولذلك عظم على توفيق باشا ان يطلب منه هؤلاء الفلاحون حقوقاً ، وقد

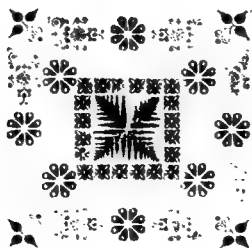
خلقوا على رأيه ورأي البيئة التي تربى فيها ليكونوا عبيدا ، حتى آل به الامر الى الاحتفال بانتصار الانكاز على جيشه وقبوله التهانى من الوجهاء على احتلالهم لبلاده .
 وسلبهم للملكة ! كما يراه المطلع على كتاب (مصر للمصريين) وعلى جرائد تلك الايام والواقع أن البلاء وقع على رأسه هو لانه سلب منه ملكه الاستبدادي ، وان الفلاحين كانوا في عهد الاحتلال آمن على أموالهم من السلب ، وعلى أنفسهم من الاهانة والضرب ، مما كانوا عليه من قبل ، وهذا من أكبر ما أصاب الشعوب الاسلامية بعد زوال ملك العرب العادل ، الذين كانوا يعدون جميع المسلمين أخوة لهم في الاسلام ، وكانوا يساوون في العدل بين جميع رعاياهم على اختلاف ملاتهم ونحلهم واجناسهم ، وملاحدة الترك يعدون هذا من عيوبهم ، جاهلين انهم لولاه لما تم لهم إخضاع تلك الشعوب الكثيرة لسلطانهم ، وإدخال تلك الملايين في الاسلام باختيارهم .
 (الفائدة الخامسة) ان الشعب المصري في جملته قد قام بكل ما يجب عليه من الحقوق المالية والوطنية ، فقد بذل كل ما استطاع من المال والرجال في سبيل الدفاع عن بلاده ، وانما خانه بعض كبار رجاله كسلطان باشا وبعض الضباط وهمج البدو ، لارجال الحكومة والقصر (السراي) من الاعاجم الاصل وحدهم .
 وقد استفاد الشعب المصري من هذه الفتنة أن شعوره بوجوده وبحقوقه قد انتشر في المدائن والقرى ، وضمف به ما كان مستحوذا على القلوب من هيئة الأمراء والحكام ، بعدما كان من جراء العرايين عليهم فان الاسباب الخفية الخاصة التي جرأت ضباطه على المطالبة بحقوقهم التي هي حقوق لشعبهم لم تكن معروفة للجمهور ، على انها كانت أسبا با شخصية ، دخلت في طور الحقوق العامة ، فكانت كما قال بعض أئمة العلم : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا الله واستفاد عقلاء الشعب من الحكم وغيرهم أنه لا قوة في هذا العصر للدولة الابالامة ، وان الحكومة الشخصية الاستبدادية اذا لم تسقط بقوة الامة فانها لا بد ان تسقط بقوة الاجانب ، وتكون آلة لهم يذلونها ويذلون الامة بها ، وأنه لا يرجى استقلال لهذه البلاد الا بعد تمكن هذه العقيدة فيها ، وعملها بمقتضاها .

(الفائدة السادسة) ان الدولة العثمانية العريقة في الحكم وممارسة السياسة

الدولية لم تحسن التصرف في المسألة المصرية ، وكان يسهل على مندوبها المشير
 درويش باشا درء الخطر ، وحل الاشكال ، ولكنه كان خائفا أيضا فاخذ
 الرشوة من توفيق باشا وواقفه على هواه ، فابى هو من فؤاد باشا في حل مشكلة
 سورية ولبنان سنة ١٨٦٠ واخرجه للجيش الفرنسي منها بدهائه وحكمته
 (الفائدة السابعة) أن الاستاذ كان مؤيداً لوزارة رياض باشا الاصلاحية ويرى
 أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذي يرجى أن ينهض بالامة في مدة خمس عشرة
 سنة كما بين ذلك في مقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارىء في الجزء الثاني من
 هذا التاريخ ، وكان يفضاها على إنشاء حكومة نيابية قبل استعداد الامة لها . وإن
 كان اول من نبه الامة لها هو وأستاذه السيد جمال الدين ودعواها اليها كما تقدم .
 ولكنه كان يرى ان رياضاً قد افراط في المدل والاصلاح بعدم مراعاة
 استعداد الخديو ورجاله وأركان حكومته الذين استمروا مرعى الاستبداد وطبعوا
 على الاسراف في استعباد الرعية الضعيفة الجاهلة ، وأنه كان ينبغي له مداراتهم
 والرفق بهم ، وأنه لما علم بسخط اميره عليه وكرهته له كان ينبغي له ان يستقيل
 من منصبه أو يرضيه ان أمكن ، لأن طاعة الأمير واجبة عقلاً وشرعاً مادام أميراً
 فان ظلم وفسد وتعذر اصلاحه جاز السعي لاسقاط إمارته بالوسائل التي سنّها الخالق
 الحكيم للاجتماع البشري ، ولكن لا يجوز الاستبداد عليه والعصيان له مادام أميراً ،
 (الفائدة الثامنة) أنه كان يعتقد أن عمل عرابي خطأ وخطر على البلاد ، لأن
 • تصدي رجال الجيش لادارة الحكم وإرغام ممثل السلطة العليا ومن دونه على
 ما يريدون ، قلب للنظام ، وافساد للحكم ، وافضاء بالدولة الى الفوضى ، ولأن الثورة
 العسكرية في مصر قد تفضي الى احتلال أجنبي يذهب باستقلالها ، وكان يعلم
 تلقاه عن السيد جمال الدين ما كان من سيرة الانكليزية في الاستيلاء على الممالك الهندية ،
 ويعلم أنه ليس في البلاد من القوة العسكرية المنظمة ومن الثروة ما يمكنها من
 الظفر بدولة قوية غنية كالدولة الانكليزية — وقد تقدم عنه التصريح بهذا
 وكان مع هذا كله يعتقد أن عرابي باشا غر ساذج ينخدع للاجانب
 لا يصح أن يخفى على رجل متعلم في الدرجة الوسطى ، وذكر عنه أنه انخدع

تجنصل فرسة الجنرال أولا وبموسيو دلسيس آخرآ ، وإتمامهم بعد خراب البصرة
أنه لا ينبغي لاحد ان يثق بفرسة ولا باحد من رجالها — وأنه انخدع لأغراب
تولاد علي وكان يطاع الحاوي جاسوس الانكليز على أسراره العسكرية ولا يتصور
وقوع الخيانة منه ولا من احد منهم «لأنهم مسلمون» فيالله العجب من فهمه لا سلامهم
ومن ارتقائه بانفسهم فيه الى مقام الصحابة من المهاجرين والانصار ، والى درجة
الاولياء والابرار ، بل عرج بهم الى أفق الانبياء المعصومين عليهم السلام . وأكثرهم
لم يعرف من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، كما يقول خطباء
الجمعة في مسلمي هذا الزمان من أهل الحضارة ، بل همج البداوة . فهل يرجي
لجيش ان ينتصر على مثله أو ما دونه في العدد والعدد اذا كان قائده يبني
أحكامه وأعماله الحربية على هذه الاوهام ؟ كلا ، فكيف يرجي ان ينتصر على
جيش يفوقه في كل شيء من الاسباب كالعدد والعدد والسلاح والنظام ؟

وانما كان الاستاذ مع هذا كله يشد أزرهم بما استطاع بمدد وقوع العداء بينهم
وبين الانكليز لان هذا واجب شرعا ووطنية ، ولو استطاع درء هذه الفتنة بمنع
الثورة قبل استفحالها . وبصالح شريف بمدد وصولها الى آخر حدها ، لفعل . والله
في خلقه سنن مطردة ، والموفق من الافراد والشعوب من اعتبر بها وراعاها في عمله ،
(ولن تجد اسنة الله تبديلا * ولن تجد لسنة الله تحويلا)



خاتمة هذا المقصد

(في اتهامه وسجنه ، وما كان من تأثير السجن والوشاية في نفسه ، والحكم عليه بالنفي من بلاده)

لا تكمل تربية الرجال ، إلا بمكافحة الاهوال ، فعاد ان النفس لا تصفو من شوائب الضعف في الحق ، ولا تتمكن من مقعد الصدق ، إلا بعد ان تعرض على نيران الحن ، وتذاب في بواتق القن (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) ولذلك يبني الله سبحانه وتعالى عباده المصلحين بفتن المفسدين ، ليعلم الصابرين والصادقين (وليحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) فالفتن والكوارث تمحص أنفس المؤمنين بالله السائرين على سننه فتزكيا وتعليها ، وتمحق الكافرين بنعمه ، والتتكمين لسننه ، فتدسيها أو تفتنيها . وقد اتهم الاستاذ الامام في الثورة بما هو بريء منه ، وتفنن المناقون يومئذ باخبار سوء عنه ، وتقديم تقارير السعاية فيه ، فسجن وأهين كزعماء الثورة الذين كان يعارضهم ، ويحذرهم وينذرهم عاقبه جهلهم ، وحكم كحاكموا بالجريمة العصيان ، ولكن ظهر بعض حقه في الحاكمة فحكم عليه بعد سجن ثلاثة أشهر وأيام ، بالنفي من القطر المصري مدة ثلاثة أعوام ، وقد زعم مستر برودلي محامي العراقيين الانكليزي ما تقدم عنه من سوء تأثير السجن في نفسه ، وحكمنا عليه بالخطأ في زعمه ، وقد نشرنا قصيدته التي نظمها في السجن ، وبين فيها رأيه في الثورة ورجالها ، واننا ننشر هنا ما كتبه رحمه الله لبعض أصدقائه وهو في السجن لا يدري ما الله صانع به ؟ ففيها الحجة البالغة على خطأ برودلي بما كشف من الحجاب عن كبر نفسه ، وعلو همته ، وصفاء سريرته ، وحسن نيته ، وبعد آماله ، وثقته بمواهبه ونعم ربه . لانه كتب ونظم تحت سلطان تأثير السجن واحتمال القتل .

﴿ الكتاب الذي أرسله من السجن الى احد اصدقائه او مردييه ﴾

وفيه من وصف حاله فيه وما بانته من الوشايات فيه ممن كان يعدهم من اصدقائه أو مردييه ويحسن اليهم، وتأثير ذلك في نفسه - ومن وصف شعوره وآماله ونيتته -
ما هو أصدق تعبير عنها . قال :

في ٩ المحرم سنة ١٣٠٠

عزري

تقلدني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم
هذه حالتي : اشتد ظلام الفتن حتى نجسم بل نحجر ، فأخذت صغوره
من مركز الارض إلى المحيط الأعلى ، واعتضت ما بين المشرق والمغرب ،
وامتدت إلى القطبين ، فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس ، اذ تقلبت طبيعتها على
الواد الحيوانية أو الانسانية ، فاصبحت قلوب الثقلين كاللحجارة أو أشد قسوة ،
فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتشرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشمس والاقمار ، وتغييت الثوابت النيرة .
وفر كل مضي ، منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الافلاك دورة العكس ، ذاهبة
بنيراتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت
السلطة لآلهة الشر ، فقلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا
على ذلك قادرين * (١)

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر - يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما
ويخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين ، كما يقال اغتاثهم الفيلان - فيمن هلكوا
بأسباب مادية تجوزاً مبني على المعروف من خرافات العرب . ويعد بعض المفسرين
من هذا القيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » - كما في انيضوي وغيره
وتوهم بعض أدعياء العلم بالآلة وقنونها وبالشريعة ان ذكر الالهة ولو بأسلوب
الحكاية انبات لها ، كأنه لم يقرأ في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية عن العرب واستغفلاً ،
ومن الثاني قوله تعالى (فما أغت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ، غطي فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركما ، لا أرى إنساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أتوم مجيئاً ، أسمع ذئاباً تعوي ، وسباعاً تزأر ، وكلاباً تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل ، ونحلم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو بلا ريب من الها لकिन *
تقطع جبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجا ، وانحلت الثقة بالاولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحققت على أهل الارض لعنه الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغىظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة القدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين *
ذهب ارباب السلطة في محور الحوادث الماضية ، يعوضون نطلب أصداف من الشبه ، ومقدوفات من التهم ، وسواقط من اللعم ، ليموهوها بمياه السفسة ، ويفشوها بأغشية من معادن القوة ، ليرزوها في معرض السطوة ، ويفشوا بها أعين الناظرين *
لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقمونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلابل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين *

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدي الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لانفسهم قول الزور ، واقتراء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الاباطيل ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالماً بان كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه ، لان الله يعلم — كما

أنت تعلم — أنني بريء من كل ما رموني به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً
أو كنت من الضاحكين *

نعم خفني الغم ، وأصمى فؤادي الهم ، وفارقني النوم ليلة كاملة ، عند
مارأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم
أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمأن
قلي ، وسكن جاشي ، عند مارأيت توارىخ التقارير متقدمة ، ومع ذلك لم يصلكم
شر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح باباً لا يذر الأحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان ^(١) تقريرين جلا فيها تبعات الحوادث الماضية على عنقي ، ولم
يترك شيئاً من التخريف إلا قلاه ، وذكر أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعاد الناس
عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أعدهما من المجانين *

ولم أتعجب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان
هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب ، غاية العجب ، بالغ ماشئت
في عجبني ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان (٢) الذي أرسلت اليه
السلام ، وابلغته سروري عند ماسمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *
إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ولكن سيصل إلي ، أما فيما بلغني أنه
شهادة باقبح شيء ، لا يشهد به الأعدوميين *

هذا اللائم الذي كنت أظن أنه يالم لائي ، ويأخذ الأسفل لي ، ويبدل وسعه إن
أمكنه في المدافعة عني ، فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة
في قلوب الحاكمين *

كم سمعني أقول هيجان (٣) الجراؤد ، وأوسع محرريه ألوما وتقريباً ، وأهزأ بتلك
الحركات الجنونية ، وكان علي في بعض أفكاري هذه من اللاعن *
كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم

لم أنقض له عهداً ، ولم أنجس له ودّاً ، وحقيقة كنت بمسروراً لوجوده ، وظناً ، فأبأله أصبح من الناكثين ؟

آه ما أطيب هذا القلب الذي يملئ هذه الاحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغيره على حقوق الاولياء ، ما أثبتته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الاصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وان كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب من الایذاء ، ولو للاعداء ، ما أشده رعاية للود ، ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ما توخى عليه الذم الطاهرة ، ما أقواه إقداماً على العمل الحق ، والقول الحق ، لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم وكونوا عنها غافلين * هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سر قلوبهم - بالترقية ، وملاها فرحاً بالتقدم ، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطف المجاملة ، ودافع عنهم أزماناً - خصوصاً هذا اللثيم - أفد شرح " صدورهم وهم يخرجون ! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحهم وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذب معظمه من الاسف على ما يلزم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يجعل العموم في قلق مستديم ، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فان تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المظرة ، وجعلوه ترساً يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يديسون به أغراضهم ، فينلون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسبين *

آه ، ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الاحبة ، وان جادوا في تصرفهم ، ان طبيعة هذا اقلب لطبيعة ناعم الخبز ، إذا اتصل بذی الود ، وان كان خشناً فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وان هذا القلب في علاقته مع الوداء ، كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما

كباوي يدقق، لا يجد للتحليل بينهما سيلا ، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الآن وصلي تقرير اللثيم ، ققراته بأول نظرة ووجدته كما بلغني ، وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنسانا ، ولكن تصادف فراغ الخبر من الدواة ، فسنظر بالرد عليه وتتم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المتظرين *

* *

وددت على التقرير ، وكان كل ما فيه الغش والتعريف ، وذكر فيه فلانا ... باشنع ما يؤاخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخيثن قبله ، ولكن دفعت ما قاله في جانبه أيضاً . وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم ، فعا عليكم ان سئلتهم الا أن تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث ، فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكاري وأقوال التي كانت تهزأ بالحكومة العالانية ، ومن كانوا لها من الطالبين * إلى هذا الحد فقوا ، فان سئلتهم فقولوا ما نحن بتأويل الاحلام بعالمين * في هذا الوقت وصلي الرقيم مبشراً بيقائكم في مركزكم ، فقامت ورفعت يدي ورجلي وناديت : الحمد لله رب العالمين * وأخذني الاسف على حبس فلان لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقيين *

يا عزيزي ، أعود إلى ذكر ما لا أول لك القوم ، كأنا قذف بهم من شاحق جبل فسقطوا على رؤوسهم ، فغشيهم من شدة الصدمة ما غشيهم ، فقاموا ينطقون بما لا يعون ، ويتكلمون ولا يفهمون ، ما بالهم يقذفون من أفواههم أخلاطاً أقدر من البلغم . وأمر من الصفراء ، وكأنا جرعو جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيهم أخبث ما يحملون *

ما بال دناس قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر برهوت ، تقذف بسائلات

بشمة الطعم، خبيثة المنظر، كرمية الرائحة، تضطر معانيها للفرار منها؛ لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لا يشمون ولا يذوقون، ومن ظلماتها لا يبصرون * هل بطل يا عزيزي ماجاء على لسان النبوت: الانسان أسير الاحسان؟ هل نقض ماجاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يغرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزمام، والانسان يقاد بالصنيعة؟ هل كان خرافا ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث؟ هل كان خرافا ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟ *

هل أتأسف أن كنتُ سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنتُ مقدما في السكرات؟ هل أتأسف أن كنتُ شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف أن كنتُ أيبأ أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولي صلتي؟ هل استحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون؟ *

كلا والله لن يكون ذلك ولم أزد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزد في الما فظة عليها الا ثباتا، ولئن عشت لا أضمن المعروف، ولا أغش الماهوف، ولا أقتن الهاوي في حفرة الغدر، ولا أخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولا أجاوزن عن السيئات، ولا تناسين جميع المضرات، ولا بينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون *

ولا أظهرن الصديق في أجمل صورته، ولا أجلونه للناس في أبهج حلاله، ولا نبتن لهم بدهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا غسق دجى المموم، تستضيء به في حل ما تعتقد، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر، وتذهب به الى أوج العالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إنني اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل، ومن المفلس عن حرية التصرف. وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن. فينحف الجسم، ويغير اللون، ويقلص الشفاه، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويبعد عن نيل المطلوب. ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض. ويسثمهم ان طال زمن

معاناة العلاج ، فيصبح المريض منهم في أدنى المنزل ، وقد كان رباهم وهم له ساجدون *
 يذهب عنه البهاء ، وينكسف من وجه الضياء ، وتنكره عند الرؤية
 عين العشاق ، وتمجج طباع ذوي الاذواق ، وتمجج من جبينه تلك الاسطر
 الجليلة العبارة ، الصادقة النسبة ، الناطقة بالحق ، القائلة : ههنا كنز الرغبات ،
 ههنا منزل الحاجات ، ههنا ما يروح الروح ، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس ،
 ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة ، فينحرف عنه السالكون اليه ، وقد
 كانوا قبل على آثار غباره يتدافون * وقيسوا على مرض الجليل مرض صاحب
 جاه ، ولا أظنكم بالقياس تجهلون *

لكن أقول لكم : ان الحوادث الربعة سوف ننسى ، وإن هذا الشرف
 سوف يرد ، واثن أبت طبيعة هذه الارض بخستها ان يكون لها من عوده نصيب
 فليعودن في بلاد خير منها ، ولا جذبن الى المجد أحبتي ، ومن الى المجد ينجدون *
 كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم ، ولا أطلب شيئاً فوق هذين
 سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس ، وبعضهم له منكرون *

أطلت عليك الكلام فلا تسأم ، وظنه آخر كتاب مني اليك في السجن إلا ان
 يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى . فان تلاقينا بعد اليوم كنت المشافهة أركى ،
 والا كانت الرسالة أجل وأعلى . ولا تنزع ، فليس في الامر ما يفزع ، وهو
 أهون مما يتوهمون * وأسأل الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين ، ويحفظكم من
 نكايه الخائنين ، ويسرقني بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين * اه
 | يقول محمد رشيد | لو لم يكن لنا من فئدة سجن الامام الذي كان نعمة
 في صورة نعمة ، ومنحة في جلباب محنة ، إلا كتابة هذا الكتاب البليغ الذي
 وصف به نفسه الزكية ، وسريره الصديقية ، أصدق الوصف وأبلغه وأجمله -
 لكني بها فئدة . وما كان لولا تلك الشدة العاتية ليكتب هذا أو يقوله وقد عهد ناد
 ينأى عن الفخر بجانبه . ولمع الحق لقد صدق فيما قل عن نفسه وصدق فيه الزمان ، وكل
 من عرفه من الناس ، حتى أسوأ الناس ظناً بالناس وأنشدهم انتقاداً لهم . ومن كلام
 ابراهيم بك المويلحي الكاتب النقاد الشهير فيه : « باطنه خير من ظاهره »

الفصل الخامس

في الظهور الثاني من حياته العملية

وهو ما عمله في اثناء النفي

وفي مقدمة في بيان تلقى سورية له بالشكر ، وأثر ذلك في مرديته وأصدقائه مصر - ومقصدان (أحدهما) في عمله السياسي في أوربة مع السيد جمال الدين و (ثانيهما) في عمله العلمي الأدبي في سورية

المقدمة :

حكم على الاستاذ الامام بالنفي من القطر المصري وملحقته مدة ثلاث سنين وكان ذلك في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وحكم كذلك على كثيرين من الذين ألهموا في تلك الحوادث الممر عنها بحجة العصيان بالنفي إلى خارج القطر إلى مدد مختلفة من سنة إلى ٢٠ سنة وكان من حكم عليهم مثل الحكم على الاستاذ ابراهيم بك اللقاني وكان من أصدقائه وأخوانه الجماليين بل كان يعد المرید الثاني للسيد جمال الدين ، ومنهم الشيخ امين أبو يوسف من أصدقائه أيضا. وقد سافر هؤلاء مع كثير من رفاقهم من ازهرين وغيرهم إلى سورية فطاب لهم المقام فيها لما قابلهم به كرام أهلها من العلماء والادباء والوجهاء من الخفاة والاکرام ، فكأنهم استقبلوا اهلا باهلا وجيرانا بجزيران ، وخلائنا بخلائنا ، وأقام الشيخ محمد عبده واللقاني وكثيرون من أصدقائهم في بيروت ، ثم سافر الشيخ إلى أوربة وكان سبقه اليها السيد جمال الدين ، وكان من عملهما فيها مانينته في المقصد الاول من هذا الفصل ، ثم عاد الى سورية وأقام في بيروت وكان من عمله فيها مانينته في المقصد الثاني منه .

مقدمة الفصل

قلنا ان أهل سورية الا كرام قد تلقوا الاستاذ الامام ، بما يليق بمقامه العلمي والأدبي والعقلي من الاجلال والاکرام . حتى كان فيهم وهو منفي من بلاده ، بعيد عن صنائعه ومريديه وتلاميذه ، اعزما كان في وطنه ، على ما كان

له في عهد الوزارة الرياضية من النفوذ الذي شرحناه في المقصد الثالث من الفصل السابق، كما كتب بذلك لتلميذه النجيب، ومريده الصادق، وصديقه الوفي (سعد زغلول) وتأثير ذلك في أنفس خلانهم بمصر كما يعلم مما كتبه إليه هذا جواباً عن ذلك. وهاك الجواب الأول من أجوبته، ومنه يعلم بالأجمال ما كتبه الإمام له :

﴿ بعض مکتوبات سعد زغلول النذب المهام إلى الاستاذ الامام ﴾

(الكتاب الاول وهو مرجوع اول كتاب كتبه اليه من بيروت عقب وصوله اليها)

من مصر ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠ إلى بيروت

مولاي الافضل، ووالدي الاكل، أحسن الله معاده

بعد تقبيل الايدي الكريمة : قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا اليه، قتلناه ووعيناه في القواد، وحمدنا الله تعالى على أن شرقت تلك الديار سالمين، مبالغاً في اكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد نبائها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصري يعرف مقداركم خير الجزاء ولم منا معشر أتباعك ومريدك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الاجلال، السنة مرطبة بالثناء عليهم، وضائر مطوية على مزيد اجترامهم وفائق تعظيمهم

صحتي البدنية معتدلة، أما فكري فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالعباد، وتمثلت فيه بعد تلك الحقائق التي كنت تجلو مطالعها معان، نرفها أوهاما يضيق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان، مخافة فوات مرغوب أو لحاق مكروه مما تعلمون

توجهت إلى البليك صاحب تاريخ العرب وسألته بإعارته فأجاب بأن محمود سامي أخذه منه وسافر ولم يردده اليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام، ويقول إنه مستمد لخدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسيماً كان أو معنوياً. وسأتحري هذا الكتاب في كتب سامي عندي بما فاذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته في الحال إلى حضرتمكم أو أحضرته معي إن وافق ذلك استجماعي لوسائل السفر

الحال العمومية على ما تركتها ، غير أن الناس أخذوا في نسيان ما فات من
الحوادث وأهوالها ، وقلت قائلهم فيها ، وخفت شامة الشامتين منهم ، وأصبح
المادحون للانكليز من القادحين فيهم ، وبالعكس . والكثير يتوقع انقلاباً أصلياً
والله أعلم بما يكون

رفعت تحتكم لجميع من ذكرتم في الكتاب تصريحاً وتلويحاً فتقبلوها بمزيد
المسرة والانتسراح . سلم على جنابكم الصادق في صداقته ومودته حسين أفندي
وهو في غاية من الصحة والعافية وقد عاد من الريف فراراً من شروره ، آسفاً
على ما وقع لجنابكم أكثر من أسفه على نفسه . الشيخ محمد خليل والشيخ عامر اسماعيل
والشيخ حماده الخولي والسيد عثمان شبيب والشيخ حسن الغويل ووالدي عبد الله
وأخوأي شناوي وفتح الله (هو أحمد فتحي) وكثير غيرهم يقبلون بديكم ، ويسلمون
عليكم ، ويقدمون مزيد تشكرهم لحضرات أولئك الكرام الاماخذ الذين أحسنوا
وقادتكم وأكرموا مثواكم ، زادهم الله بكم ماو كلاً

مولاي : ذكرت لحضرتك أن الضعف لم يفكري فبالله إلا ما قويت به بتواصل
المراسلة ، غير تارك فيها ما عودتنا على سماعه من النصائح والحكم التي نهتدي بها
إلى سواء الـ بيل ، ونتمكن بها من السير في العالم المصري الذي اختبرت حقايقه ،
وعرفت خلايقه ، وما يناسبها من ضروب المعاملة . وقتنا الله لمناجعتك ، ولا
أطال على بلادك مدة غيبتك ، انك إمامها وإن اقتدت بغيرك ، ومحبتها الصادق
وإن لم تعرف بقدرك ، والسلام
ولكم

سعد زغلول

﴿ كتاب آخر جوابي منه اليه في ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ ﴾

مولاي الافضل ، ووالدي الاكل ، أحسن الله ما به
أكتب إلى السيد الاستاذ بعد تقبيل يده الشريفة عن شكر مزيد لمكارمه
التي لم يمنع من تواترها على صنائه تباعد الديار ، ولا تنائي البلدان ، معترفاً بالعجز
عن وء ، واجب الحمد ، مع الاعتقاد بأن هذا لا يثنيه عن المكرامات يوابها ، والمبرات

يسديها ، فما يفعل الخير التماس الثناء ، ولا يصدر البر ابتغاء الجزاء ، إنما يحسن محبة في الاحسان ، ويبر شفقة بالانسان

تفضل أدام الله فضله على خريج حكمه ، الناشيء في نعمه ، بكتاب هو المحكم آياته ، المعجز دلالته ، الشافي لما في «صدر» ، الكاشف لحقائق الامور ، الهادي إلى سبيل الرشاد وإلى صراط مستقيم ، فسر لمرآه ، مرور الليل بالشفاء وافاه ، وتلاه متديراً دقيق معناه ، مكرراً رقيق مبناه ، فازداد إيماناً بفضل مولاه ، ويقيناً بمحبة من أوحاه ، وشكر الله على صحة من أهداه ، دامت نامية وارفة الظلال . وتكرم أبقي الله كرمه ببيان بعض أساء الكرامة الكرام الذين دارسوه فصولاً من المروءة ، وأبواباً من النجدة ، وما لهم من كمال الفضل ، وما فيهم من تمام العقل فرسمنا أساءهم على صفحات القلوب ، وحفظنا أمثلة فضائلهم في الصدور ، وتشوقنا لأن نتشرف أبصارنا برؤياهم ، كما تحلت بصائرنا بمعرفة أعلامهم ومزاياهم ، وما يحتاج في اقناع النفوس بضعف تلك الحجة وإن كانت تمكنت في الاذهان ، إلى قوة البيان ، فمعرفتهم بمقام فضله ، ومقدار حكمته ، ونبله ، كافية بذاتها في الدلالة على نزاهة نفوسهم ، وطهارة قلوبهم ، وغزارة فضيلهم ، وسمو عقولهم ، ودرجاة همهم ، وسجاجة شيمهم ، وفي توجهه ما ثبت من الفساد في أخلاق غيرهم ، إلى أسباب أخرى نود أن يبينها الأستاذ الجليل في كتاب مخصوص اذا وجد من الوقت مساعداً ، إنما يحتاج إلى قوة «بيان» في هذا الموضوع لتبين كيف يكون تدارس المروءة بين الافاضل ، وتداول النجدة بين الكرام الامثال فما رايتنا^(١) من قبل لدينا إلا فاضلاً كرم بما يدرس الفضائل بين من لا يعرفون للفضل مقداراً ، ولا يفقهون للكرامة اعتباراً

ولقد زادني ميلاً في السفر ، وبقصاً في الحضر ، ماجاء في وصف أولئك الاماجد ذوي النفوس الزكية ، والحمد العلمية ، وما تلاه من بيان حقيقة غوازي

(١) الكلمة في الاصل هكذا «رايتنا» ولعل المراد فما رأيتك الخ والخطاب الأستاذ الذي بث الفضيلة بالعلم والعمل في جماعة نكثوا عهدهم وخانوا ودهم، ووشوا

الاعمى، ساقطي الهمم ، ساقلي القيم ، جاهلي مقادير النعم ، غير أني عدلت عن داعية هذا الليل امتثالا للأمر، وفي النفس حسرات لا يقاومها صبر ، وبها الى السفر أشواق لا يتناولها حصر

وأحسن خلد الله احسانه على صنيع آدابه ، اليتم في اترا به ، بحكم من مثل التي تعودها غذاء للعقل ، ونوراً للفكر، فتلقاها بقلب شاكر ، وتقبلها بفؤاد حامد، وحفظها في الوجدان ، راجياً من الله التوفيق الى الاخذ بمآنها ، والهداية الى اتباع مآفيها ، آملاً من مكارم موليا ، دوام تواليها

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل ^{١١} ثابتاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين ، ولولا التحقق من سعة بال الاستاذ الكريم ، ومن وثوقه بي فيما أرويه لكان الاسف مضاعفاً

إني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ وما سمعت منه ما يقصد به مس مقامكم الكريم ، ولم يتكلم أمني يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين المعروف إلا بما معناه الاسف والاشفاق من عاقبة هذا الاعتراف ، فلعل ما بلغ السامع الشريفة من هذا القبيل ، والسامعون لشدة حرقتهم وبلوغ الاسف من فؤادهم مبالغه ، انصرف خاطرهم عن رعاية القول فتوجه ذهنهم الى مفهوم الكلام الحقيقي وطبقوا المقام على ما فهموه، ولم العذر ، فهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في جانب حضر تكلم ولو مراداً به غير حقيقة معناه ، ولم يألوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها ، ولم يعرفوا عادة ذلك الشيخ في كيفية تأدية مراده ، والعبارة في حد ذاتها يصعب تأويلها إلى غير المتبادر للافهام منها كل الصعوبة على من لم يكن أزهرياً متعوداً من الشيخ سماع أفطع منها مفهومها وأشنع تركيها

(١) ذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله أيام غضب الشيخ عبد الكريم سلمان علي أنه كان بلغه في أثر الفتنة العراية أنه طمن فيه بقبراً من كونه من حزبه فكتب في ذلك كلمة في كتاب لا آخر - قال فيه : أكنته كني وأدنته مني ، وجعلته في مكان النحو من ان جنبي ، ثم هو يصرح بسبي ولا يبكي اه فظهر أنه كتب بهذا الى سعد وان سعداً دافع عنه بهذا الكتاب

وكيف يتأتى له إرادة الظاهر مع علمه بكون ذلك لا يصدر إلا عن لزوم طبيعة
وخراب ذمة وسفاهة عقل ؟

أنسى مأوليته من كرائم النعم ، وجلال الامم (؟) التي لا يزال متمتعاً بها
متفنياً ظلّالها ، وانك المؤرق أسقاء المحترق حزناً ، المشفق عليه يوم وجدت اسمه
مكتوباً في تقارير اللثام ، حتى شغلك همه عن همك ، وسعيت وأنت مسجون في
تنجيته من التهمة بواسطة المحامين

مانسي كل هذا وما قدم العهد عليه حتى ينقض ولائك ، ويبتكر هجاءك ،
ويعس مقامك . في بيت أواه . ومنزل طالما رتع في بمجوحة نعام

فهذه العبارة إن صح النقل لا يمكن أن يكون المراد بها شيء وراء إعلان
الاسف والاشفاق ، أما كونه لم يرسل خطاباً فلولاي يرى انه من الادلة الصادقة
على كون ذلك للشيخ الفاضل صادقا في ولائه ، حريصاً على دوام تذكروا ليائه ، إذ لم
يدعه الى ذلك إلا تمام رغبته في المحافظة على النعمة التي غرستم أصولها ، وأنتميم فروعها ،
ليكون على الدوام متذكراً لحقيقة مبدئها ، متصوراً صورة مذنتها

أما كتاب الشيخ محمد خليل ، فقد علمت ما في إرسال صورته من حسن التعليل
وكمال التلطف في التأديب ، على ما جرت به عادتك التمرينة . وقد طالعت هذه
الصورة فرأيت انها من أقوى الادلة على شدة ميل صاحب الاصل الى الصدق ،
ورغبته عن التمويه ، حيث أوضح حاله صادراً في الايضاح عن الحق برهانا على شدة
إخلاصه باثبات العبارة التي نفيها بين يدي حضرتكم في الدائرة

فإن إثباتها لا يصدر إلا عن تمام إخلاص لا يشوبه تمويه ، ومن هنا يتبين
لحضرتكم سلامة نيته ، وحسن طويته

أما عنوان الجواب فما أداه الى نسجه على ذلك الاسلوب الا اعتماده على
معرفتكم بكونه من الصادقين المعظمين لجناياكم الكريم . وعلى كل حال فنحن لا نستغني
عن كريم عفوك ، وجميل صفحك ، فإن لم تعف عنا وتصفح كنا من الخاسرين
إن ظننكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، ويحق

لحضر تكم السرور بما نال ولدكم (١) فهو المتربي في نعمتكم ، المعترف من بحار
حكمتكم ، المحفوف بعنايتكم ، المشمول بعين رعايتكم . البالغ ما بلغ ويبلغ من
مراتب الكمال بحسن توجهاتكم ، وكریم تعطفاتكم ، أدامكم الله اكل خير مبدأ
رفعت تحيتكم إلى حضرات من ذكروا أسماءهم وأشرفتم اليهم فتقبلوها
بالاحترام وهم جميعاً يقبلون ידיكم . ويسلمون عليكم ، وأخص بالذكر منهم منبع
الصفاء ، ومصدر الوفاء ، الذاكر لفضائلكم في كل حين ، والذي حسين أفندي .
وحضرة ولدكم الصادق في متابعتكم الشيخ عامر اساميل الذي امتن غاية الامتنان
بما اختصاصتموه به في كتابكم الشريف ، وحضرة الشيخ سليمان العبد ، والسيد أمين
أفندي . ونحن جميعاً نرفع أحسن التحيات وأزكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا
بمعركة أسماهم من الذين دارسوك فصول الكرامات وتقدم لهم واجبات الاحترام
أدامهم الله مثالا للفضل وعنوانا للكمال . ونسلم على حضرات أخينا الفاضل ابراهيم
أفندي اللقاني وابراهيم أفندي جاد ونجلكم الكريم وجميع من بمعيتكم حفظهم الله
أحوالنا العمومية أنتم أعلم بها منا فلا حاجة إلى بيانها . نرجو تفصيل أحوالكم
وما تشغلون به من قراءة وتأليف إذا حسن لديكم ذلك

كتب سامي لم تشهر إلى الآن في المزاد ولا زلت مراقباً لاشهاره

حضرة البك صاحب الكتاب توجه قبل ورود كتابكم الى البلد ولم يحضر
الى الآن . وعند العلم بحضوره أتوجه اليه وأرفع لحضرته مزيد تشكراتكم دامت
معاليكم . أقدم مك ٨ جاسنة ١٣٠٠ صنيعكم — سعد زغلول

أرجو عدم انقطاع المراسلات وآتمنى أن لا أحرم كل أسبوع من كتاب تطميناً
للخاطر وترويحاً للنفود . ولمولاي في إجابة هذا الرجاء النظر العالي (سعد)

(١) يعني سعد نفسه ، والخبر المشار اليه هو اشتغاله بالمحاماة

المقصد الاول من الفصل الخامس *

عمد في أوربة مع السيد جمال الدين

تقدم في ترجمة الحكيم الاكبر ، والموقف الاعظم للعالم الاسلامي ولسان شعوب الشرق الادنى والاوسط ، (السيد جمال الدين الحسيني الافغاني) أن حكومة الهند البريانية حجرت عليه في كلكته (عاصمة الهند) مدة الفتنة العراية ، وأنها أطلقت له الحرية بعد انتهاء الفتنة واحتلال الجيش الاكليري لمصر وأنه ذهب بعد ذلك إلى أوربة ، وأن الاستاذ الامام سافر اليه ، وانهما أنشأ هنالك جريدة العروة الوثقى وقاما بعمل عظيم

وهذا العمل هو الذي نسبته في هذا النقصد ونبدأ القول بسفر السيد الهند واستئناف اتصاله بالشيخ فنقول :

كان سفره من الهند بحراً من طريق البحر الاحمر ، ولما وصل إلى بورسعيد كتب إلى الاستاذ الامام كتاباً أخبره فيه بسفره وأين يقصد وفتح باب الرسالة معه ، وترتب على ذلك سفر الاستاذ إلى أوربة بدعوته ، وانا ننشر هنا نص كتاب السيد لانه أثر تاريخي من موضوع هذا الكتاب ، وهذه صورته بخطه منقولاً بعكس الشعاع الشمسي مع بيانها بحروف الطبع

(*) قد كتبت الفصول الاربعة السابقة عقب وفاة الاستاذ رحمه الله تعالى وطبعت كلها ماعدا مذكرات الثورة العراية ، ولما كان يتمذر نشر الكتاب في تلك السنين أمسكت عن اتمام تأليفه وطبعه ولم يتج لي ذلك إلا في أواخر سنة ١٣٤٨ م (٣٦ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

كتاب السير بمجال الربيع الى الشيخ محمد طهر

يرط سعيد

٢٣ سبتمبر

إلى الشيخ الفاضل الكامل الشيخ محمد عبده أطال الله بقاءه

الابتهاج بمجمل الصنع جزاء تفيض به جامعة الكون على النفوس، كما قامت بوظائف الوجود، والحمدة شهادة تبعث ملكوت وحدانية الهيئته على شهادت شخصات الطبيعة في مشهد العالم، تخليداً للجزء وتغظيماً للأجر، فلك بمجمل صنعك مع (العارف) (١) الجزء الاوفى. وأنا أحمدك على البر والمعروف أداء للشهادة، وأشكر صنوك الفاضل الكامل الشيخ عبد الكريم، وأثني على الشابين الأديبين السيد ابراهيم اللقاني والشيخ سعد الزغلول (٢) والافندي الكريم الذي أنساني اسمه الزمان، وأذكر كلا بالخبر في مشهد العالم قياماً بفرصة الشكر على الصنع الجليل والعمل الصالح وأنا الآن في (برط السعيد) أذهب إلى لندره - ترسل جواب هذا الكتاب إلى إدارة جريدة (الشرق والغرب) أو إلى (مستر بانث) ان أخبار العالم وحوادثه كانت انقطعت عني مدة سبعة أشهر، ولذا لأدري مستر (العارف) الآن. أخبره بسفري. واتفضل في مكتوب آخر يصلك من لندره إن شاء الله

سلم على كل من عرفنا وعرفناه، واعترف بنا وسلمنا له. والسلام

(خاشيتان) جمال الدين الحسيني الافقاني

تسلم على صاحب النفس الزكية، والهمة العالية، دوانلو رياض باشا أيده الله تعالى أرسات مضمونا (٣) الى صديقنا الحاج المرزا علي اكبر والغرض درجه في الجرائد المصرية بعبارة فصيحة. وأرجو الاهتمام في هذا الامر لانه ضروري جداً البدار البدار

(١) هو عارف أبو تراب خادم السيد الذي جاء معه من بلاد الافناز وكان

بقي في مصر بعد تقيده منها وكان السيد يحبه حباً جما ولقبه بالفيلسوف الامي

(٢) كان السيد كثيراً ما يعلّي الاعلام بالالف واللام كما ذكر في علماء الاعاجم

(٣) أي كتاباً أو مقالا مضمونا يعني مسجلاً

جمعية العروة الوثقى السياسية

السرية

كان الاستاذ في تلك الاثناء في سورية ولا أدري ما دار بينها من المكاتبة بعد وصول السيد إلى لندن ولا تاريخ سفره اليه بالضبط، وأما (جمعية العروة الوثقى) فهي جمعية سياسية سرية قدينا مقصدها في مقدمة العدد الاول من الجريدة، ولكن لم يطلع أحد على قانون الجمعية الاساسي ولا على الميثاق الذي كان يقسمه الأعضاء إلا خواص رجال الجمعية وكلهم من خواص المسلمين

أعلم أن الجريدة كانت ترسل الى كبار العلماء والامراء والزعماء في جميع الاقطار الاسلامية وقد كان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري ومن اختار من انجاله ورجاله، وقد وجدت بعض اعدادها في محفوظات والذي ووجدتها كلها عند استاذنا الشيخ حسين الجسر في طرابلس

وانني أذكر هنا ما لم ينشر من تعاليمها وبميينها، ولم يذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى شيئاً عن القانون الاساسي لها، وقد فاني أن أسأله عنه، وأظن أنه لم يكن مكتوباً لئلا يقع في يد غير أهله

وانما كان الغرض البعيد منها إعادة الحكم الاسلامي وهداية الدين إلى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال في العصر الاول، بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام في أمور الدنيا، ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم. وأما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال

وكانت الجمعية مؤلفة من عقود وهذا ما كتبه نائب الرئيس وهو الاستاذ الامام نفسه من الاصول العملية الداخلية للمقد الرابع ونص الميثاق الذي كان يحلفه كل من انتظم في عقد من عقودها

﴿ بعض الاصول العملية ، لاعضاء جمعية العروة الوثقى ﴾

العقد الرابع للعروة الوثقى

- (١) ينعقد بثلاثة يسمون اليمين المعهود
- (٢) مذاكرة المجتَمعين عند الالتئام المعتاد تكون في أمور: التذكير بآيات الله - النظر في حالة الاسلام عند بدنه وما كان عليه النبي وخلفاؤه فقط - البحث في السبب الذي امتدت به سطوة الاسلام حتى صال على جميع الاديان وكاد يتلهمها في زمن قصير - كيف اقلب الحال وآل إلى ما نراه ؟
- (٣) يلاحظ كل باحث أن ذاته في موضوع البحث فيطلب العلة من نفسه قبل أن يطالب في غيره، ويقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة والانصاف
- (٤) مدارس أحكام الجهاد وحموق السلم وما هو مكاف به في معاملة غيره وما يفرض غايه اذا زحف الاعداء لخصد شوكة الاسلام
- (٥) النظر في حال المسامين لهذا الوقت أخذاً من أقوالهم وأعمالهم الوقوف على احساسهم الديني ومقدار الداعية الاعتقادية ليعلم الداء ويالج بالدواء اللائق به .
- (٦) كتب كل فكر وتدوينه مفضلاً ثم مجعلاً مع ما تستقر عليه الآراء
- (٧) العمل في الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المسال في مساعدة من يقوم بنصر الدين وحمل السلاح المعقالتة بين يديه عند المسكنة
- (٨) كل واحد من أهل العقد مكاف بالعمل واعداد أسبابه وما لا يتم إلا به ، وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به مع الاحتراس التام من كل ما يفيد أن هناك عقداً . وثقة بمريد الانضمام انما تتحقق عند اتفاق آراء أهل العقد غايها
- (٩) يكون معظم الاهتمام بضم الصالحين الأئمة من ذوي المسكنة على اختلاف طبقاتهم من علماء وأمرأء ورؤساء عشائر وغيرهم . وفريضة

- كل منهم أن يعمل للاسلام فيما خوله الله
(١٠) في كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط حتى يكون عند كل واحد ان مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساويا . العمل بذل المال والروح ، والاول أقرب الدليلين .
- (١١) على أهل العقدة أن يرسلوا رسلا إلى نواحي الوطن الحالين به وإلى المواطن المستعدة من غيره متى أمكنهم ذلك
- (١٢) لا يكون الشخص رسولا حتى يكون سير العقدة مألوفة راسخة فيه ، ويكون على قدرة كاملة في تصريف القول ، وتوفيق النصح مع طباع النصوحين وحالة السلطة المعارضة عليهم ، فيكون حكما في عمله لا يحتاج لوصية من غيره ، ولا تقيم بالاحظ عمله
- (١٣) يسمح للعقد أن يبعث رسلا من الخارجين عنه على انهم وعاظ يعلمون المعروف من الدين ويؤيدون منطبق القرآن ، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحة بدون أن يعرفوا أن هناك عقداً .
- (١٤) على لرسول إن كان من أهل العقدة أن يكشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس ، وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته ، وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقد .
- (١٥) من استحق باستعداده الدخول في العقدة فعليه أن يقدم رسما مالياً أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ولا يستثنى من ذلك إلا عالم أو معتقد عند الناس لا يستطيع أداء على شريطة أن يبذل العالم وسعه في تبين الحق وبثه ، والمعتقد جهده في حمل معتقديه على العمل في مقاعد العقدة ، فإن استطاع هذان الصنفان تأدية النقد فهم أولى الناس بها
- (١٦) يجتمع أهل العقدة في كل أسبوع مرتين للمذاكرة فيما سبق بيانه في الفصل الاول وما بعده .

- (١٧) يجب على كل واحد أن يؤدي في آخر كل جلسة مقداراً من النقد على حسب استطاعته قليلاً أو كثيراً يدور على الحاضرين من أصغرهم سنّاً بصندوق صغير له فوهة ضيقة يضع فيها كل واحد ما تيسر خفية حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . لا يستثنى من ذلك أحد ويسمى هذا الصندوق صندوق التبرع
- (١٨) يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عندهم ينتخبه العقد أميناً
- (١٩) يودع في ظرف تكتب عليه هذه العبارة : هذا مال حق التصرف فيه لعقد الاخلاص تحت رئاسة فلان (يذكر اسم الرئيس)
- (٢٠) يستعمل هذا المال في النفقة على محل الاجتماع ولوازمه ، وفي سبيل نشر المشرب وارسال الرسل الداعين إلى الحق ، وفي إغاثة المقصرين مما ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية ، وما يفضل عن ذلك فالنظر فيه للجمعية العليا (جمعية العروة الوثقى) اما مباشرة أو على يد أحد نوابها
- (٢١) يكون للعقد أربعة دفاتر (أحدها) لخصر أسماء رجاله (ثانياً) لأسماء رسله (ثالثاً) لخصر نقد المجتمع (رابعاً) لأحصاء النفقات
- (٢٢) إذا توفر في الصندوق مبلغ من النقد وافر وأمكن تنميته على وجه شرعي مأمون الخسارة فعلى أهل العقد أن يديروا أمر نموه
- (٢٣) على القائم بضبط الحساب في الإيراد والصرف أن ينهج الطريقة المعبودة في مركز العقد أن يضموا لها نظاماً حسب المعروف في بلادهم
- (٢٤) لا يصرف شيء إلا بقرار من أهل العقد يتفق عليه جميعهم أو أكثرهم
- (٢٥) إذا قصت لحواثر بعمل عاجل يقرب من مقصد الجمعية وخيف فوات الفرصة بفوات الوقت واجتبيح إلى نفقة تقتضي زياداً عن الموجود وجب على أهل العقد أن يبذلوا ما في وسعهم لاتمام العمل .
- (٢٦) لا يباح لأحد من رجال العقد أن يذكر شيئاً من أحوالهم ومقاصدهم ومذاكراتهم عند من ليس من مقصده في شيء ، بل لا يباح التصريح باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحاله عند رجال العقد

- (٢٧) على رجال العقد أن يحمي بعضهم بعضاً ويعين كل منهم باقيةم بقدر الاستطاعة
- (٢٨) الاستطاعة لا تفسر بالاھواء حتى بعد كل وهم عجزاً وانما هي المعروفة عند المخلصين التي لا يعدمها الانسان مادام حياً قادراً على الحركة
- (٢٩) اذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئاً فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم فعليهم مخابرة من يتولى مواصاتهم فيما يريدون
- (٣٠) القانون الداخلي للاجتماع يضمه أهل العقد

اليمين الذي بمحلف المرتبطون به بالعقد

أقسم بالله العالم بالكلية والجزئي ، والجلي والخفي ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارية بما اجترحت ، لا أحكم كتاب الله تعالى في أعمالي وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل

ولا أجيب دأعيه فيما دعا اليه ولا أنقاعه عن تلييته في أمر ولا في نهي ، ولا أدعون لنصرته ، ولا أقوم بها مادمت حياً ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا

أقسم بالله مالك روعي ، ومالي ، القابض على ناصيتي ، المصرف لاحتاسي ووجداني ، الناصر لمن نصره ، الخاضع لمن خذله ، لا أبذل ما في وسعي لآحياء الأخوة الاسلامية ، ولا نزلنها منزلة الآبوة والبنوة الصحيحتين ، ولا أعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم في عقد من عقودها ، ولا أراعيها في غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الاسلام ، فاني أبذل جهدي في إبطال عمله المضر بالدين ، وأخذ على نفسي في أثره مثل ما أخذ عليها في المدافعة عن شخصي

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدماً واحدة أتوم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين في شيء ، يتفق رأيي أكثرهم عليه ، وعلي عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الاسلام والمسلمين عقلاً وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه

من العارفين، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسهل إمكاني الوجودي. وأسأل الله نجاح العمل، وتقريب الأمل، وتأيد القائم بأمره، والناشر لواء دينه، آمين.
النائب

محمد عبده

[المؤلف] من تأمل هذه الأصول وهذه الميّن حق التأمل تجلّى له أن كاتبها الداعي إليها المجاهد في سبيل غايتها من أقوى المؤمنين بالله وبما جاء به محمد رسول الله وخاتم النبيين إيماناً، وأشدّهم في إيمانهم إيقاناً، وأرسخهم وجداناً، وأنهم بمقاصد هذا الدين وتاريخه وأصلحه لأمور البشر، وأعظمهم غيرته عليه وجهاداً في سبيل الله لإعادة مجده، وتجديد ملكه، وإحياء شرعه، وإنقاذ أهله من الذل... ومن قرأ مكتوباته قدس الله روحه لبعض العلماء والكبراء من المنتظمين في سلك العقد في الفصل الأول من الباب الخامس من منشأته المصدر أكرها بكلمة شامره « لا إله إلاّ وحده لا شريك له وبه الحول والقوة » رأى فيها شرحاً جلياً لهذه الأصول الجلية - وعلم من هذا وذاك إن خدمة الجعم الغفير من كبار علماء الأزهر وغيرهم من المصنفين في العلوم الإسلامية المختلفة منذ عدة قرون للإسلام لتصغر وتتضاءل في جانب خدمة هذا الرجل وأستاذه فإن علومهم ومصنفاتهم كانت في العهد الذي تهدم فيه ملك الإسلام وضعفت هدايته ولم يكن لها أقل تأثير في العلم والعمل - لأنها كلها مباحث لفظية، ومناقشات في عبارات بعض كتب المقلدين، وليس لأحد منهم فيها كلمة تدل على الشعور بذلك، فضلاً عن الدعوة إلى تداركه، والجهاد في سبيله. ولو شئتنا شرح هذه الأصول وما أدمج فيها من الحكم والعبر لزدنا القاريء إعجاباً بأمر هذين الحكيمين وجهادهما، ولا تظن أن بين ما في الأصل الثاني من التذكير بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه فقط، وما في الأصل الثالث من الاعتبار بسيرة السلف، وما في الأصل الرابع من الإشارة إلى أحكام الفقه - لا تظن أن بين ما ذكر شيئاً من التعارض فإن لكل نوع منها غرضاً خافئاً فالأول الاعتبار بنشأة الإسلام وتأسيسه، وما بعده ظاهر لا يحتاج إلى بيان وقد كان هو ومرشده الحكيم على هذه الخدمة الإسلامية الخاصة يعطيان

الجامعة الشرقية حقها، والرابطة الوطنية حقها، حتى ان الاستاذ دافع عن بطرس باشا علي حين طعن في بعض الجرائد المصرية ونسبته الى التعصب للقبض في بعض أعماله وكان الاستاذ يومئذ منفياً في سورية (راجع الجزء الثاني ص ٣٦١ من الطبعة الثانية) وقد كان: السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السياسية والجامعة الإسلامية وتولية العاملين لكل منهما وجهته من غير تعارض وكل من ترجمه من المسلمين والنصارى يعترف له بذلك وكذلك الشيخ محمد عبده معه ومن بعده وقد اشتهر على بعض الناس أمر الهجرة الإسلامية في جريدة العروة الوثقى وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فازالوا هذه اشبهة بعبارة نشرت في العدد الثامن الذي صدر في باريس في ١٨ رجب سنة ١٣٠١ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤) وهذا نصها: (العروة الوثقى) لا يظهروه أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحيانا ومدافعهم عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم، ويتفق معهم في مصالح الادم، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نتميل اليه، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا. والمكن اغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تناول الأجانب عليهم، والافساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم المعنصر الغالب في الاقطار التي غدر بها الاجبيون وأذلوا أهلها أجمعين، واستاثروا بجميع خيراتها. وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب ان شاء الله تعالى اه

أنشأت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الافغاني ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى). ونبأني الامير شبيب أرسلان أنه سمع الاستاذ يقول ان الافكار في العروة الوثقى كلها للسيد ليس لي منها فكرة واحدة، و"مبارة كلها ليس للسيد منها كلمة واحدة. وإني أنشر هنا فاتحتها وما يليها من بيان منهاجها، ثم أذكر بعده ما كان من تأثيرها ومقاومة الانكياز لها، ثم أبين تلخيص ذلك المنهج وحضر مقاصده وتطبيق القول والعمل عليه الاسلام والشرق عامة، ومصر والسودان خاصة.

فاتحة العدد الاول من جريدة العروة الوثقى

وبالله بيان منهج الجريدة وخطتها

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل ، في نجاح العمل خفيت مذاهب الطامعين أزماً ثم ظهرت ، بدت على طرق ربما لا تنكرها الأتقى ثم التوت ، أوغل الأقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا يدها الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحتمله النفوس البشرية

ذهب أقوام إلى ما يسهوله الوهم ، وبغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عملها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجمل الصغير ، في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فإن تقابلات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قايضة العدد فزيت في سواد أمة عظيمة ونسبت تلك العشيرة اسمها ونسبتها . فلم يحز في زمن من الأزمان أمحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثل الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ، ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه إلى اليوم ، أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لا تقراق في الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون إلى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها

قوة أجنبية ، أزعجتها ونهتها بعض التنبيه ، فإذا توالى عليها وخزات الحوادث رافقتها آلامها ، فزعت إلى استبقاء الموجود . ورد المنفقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أي سبيل ، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالشام أفرادها ، والتحام آحادها ، وإن الإلهام الإلهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ، ترشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها^(١)

إن النفوس الإنسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت إذا كثرت عديدها تحت جامعة معروفة لا تحمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان ، فإذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها ، واستأسد ذنبها ، وتنمر عليها ، وانتمت خلاصتها ، وإن تعدد عند الطلب رشاداً .

ربما تخطئ مرة فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراز من الوقوع في مثله ، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغابة . وإن الحركة التي تبث لدفع مالا يطابق إذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر سيرها ، لا يكتفي في توقيف سيراتها أو محو آثارها فهدم ذلك القيم وإهلاك ذلك المدير ، فإن العلة مادامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها ، فإن ذهب قيم خلفه آخر وسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالته بإزالة علته ورفع أسبابه جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق والعادات والمشارب ، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدبر به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به ، لا ريب أنها تستنكره ، وإن كانت تستكبره ، وكما أنكرته بعدت عن الليل اليه ، وكما ابتعدت منه بجملة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستغفره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغير

إن مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في

(١) أن هذا العلاج لا كبر الاوهام انني أدلت الأمم الكبيرة لعدد القليل من أصحاب القوة الآلية قد كانت تجهله هذه ثلاثة الأمم وقد بدأت تعتمد عليه في هذه الأيام ، وإن ما بعده من القواعد الاجتماعية وإن لوسائله وشدة الحاجة اليه ، وإزالة الموانع من طريقه

الجنسية والمشرّب، قمرى الاتحاد لدفع مايعمها من الخطأ، ألزم من انتحزب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أبعد هذا بأخذنا العجب إذا أحسننا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام ؟ كل يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن، وان العقلاء في كثير من أصغاه يتفكرون في جمل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها اقيام بمحقو السكل^(١)

بلى، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وإن عمي عنه الطامع، وليس في الامكن اقباع الطامعين بالبرهان، ولكن ما ياتي به الزمان من عاداته في أبنائه مل مجري به القضاء الالهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون

*

بانح الاجحاف بالشقين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتقلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم من أنزلوا عن عروشهم جوراء وذوو حقوق في الامرة حرروا حقوقهم ظلاماً، وأعزاء باتوا أذلاء، واجللاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، ونحساء أصبحوا سقاماً، واسود تحولت انعاماً، ولم تبق طابقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من افراط الطامعين في اطاعتهم، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بايدي ذوي المطامع فيها

حملوا إلى البلاد ما تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، والزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخصدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليبيثوا بكل ذلك وسيلة لتبيل المطعم، فكانت الحركة العراية المشيوء، فأنخذوها ذريعة لما كانوا له طامعين، فأنذفع بهم سبل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد، وظنوا بلوغ الأرب، ولكن اخذاً الظن وهو ما لم ينالوا

(١) هذا تشبيه لوجوب تأييد جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يكن

يفكر فيه أحد قبله

لم تذكر تخدم تلك الحركة في بادي النظر حتى خلمتها حركة أخرى ، وفتح باب كان مسدوداً ، وقم قائم بدعوة لها المكانة الأولى في نفوس المسلمين ، بل هي بقية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة ، وربما يوجد من يدري ان مسيبيها في حيرة من تلافيها ، نعم انهم غرسوا غرساً إلا انهم سيجنون او هم الآن يجنون منه حظلاً ، وبطعمون منه زقوما . لاجرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ، ويغفل في حرصه ، ولو انهم تركوا الامر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعتة ، او اقتناء فائدته ، لحفظوا بذلك مصالحهم ، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تنزل لهم قدم ، أو ينكس لهم علم

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتششت الالهواء وهو أنفذ عوامهم وأقتلسها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب . وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد قلوب المعتدين ، فإن بلاء الجور اذا حل بشر من الامة وعوفي منه باقيها ، كانت سلامة البعض تعزية المصابين ، وحجاب غفلة السالمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم الضرر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون إلى مافيهِ خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

*

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظراً لوقوعها من الممالك الإسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين . فإن كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان لديانة الإسلامية . إن الخطر الذي ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، وإن نزال آلامه . تستفزهم مادام الجرح نفاقاً ، وما هذا بغريب على المسلمين ،

فإن رابطتهم المالية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذهبهم .

إن الفجعية بمصر حركت أشجانا كانت كلمنة ، وجددت أحزاننا لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم من تذاكر الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيراً ، بل نفيراً عاماً ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصم الطمع

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتاب له في فتوحاته إلا المداواة ، ولا فيا لقي يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها ماعتمد اليه يده إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان ، متقاربة الاشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقى مصالح المغلوبين ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجح البصر ، وكر النظر . وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا خنقت خنقت ، وليس له أن يفتقر بعدم مكتبتهم ، وهو يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لاتعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شديداً البأس يساعدهم بما يلزمهم اتروج سياسته ، وأن المغيظ لا يبالي في الايقاع بمناوئته أسلم أو عطاب ، فهو يضر ليضر ، وإن مسه الضر

إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهممات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكثير^(١) الممتد من مصر الى مكة ، ومن مكة الى الهند ، وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

(١) الكريو صوت في الصدر كصوت الخنثى أو الجهود وقد استعارها هذا المراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط العدواني الاجنبي . ولا يوجد في لغات العالم كلمة أليق بهذا المقام وأحسن موقفاً وأشد تأثيراً فيه من هذه الكلمة وهي من الدلائل على ان البلاغة تكون في المفردات كالكلمات لكن عند وقوعها في التركيب

إن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الاقطار المتباعدة بمحودوها، المتصلة بمجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم الى ما هم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وغال الضعف ، راجين أن يترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وان في الحاضر منها انهزة تغتنم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ، واثن فانت على فكهم في الغيب من مثلها ، والى الله عاقبة الامور

تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية، ووظفوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه، ويوحدون كامة الحق في كل صقع، لا ينون في السعي، ولا يقصرون في الجهد، ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حي على حياته

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يصارعهم في مثل حالهم، رأوا أن يعقدوا الروابط الاكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوروبا، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين، ومناطق اليقين، وفيها موسم الحجيج العام في كل عام، يجتمع اليه الشرقي والغربي، ويتآخى في مواقفها الظاهرة الجليل والحقير، والغني والفقير، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات، والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل

✽

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر، وأقرب الى الظفر، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق، ودعوة صدق، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم، بين من خفي عنه شأنهم من اخوانهم، واختاروا أن يكون لهم في هذه الايام جريدة بأشرف لسان عندهم، وهو اللسان العربي، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، وتوصيل أصواتهم

الى الاقطار القاصية ، تنبيهاً للعافل ، وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا الى السيد جل
الذين الحسيني الافغاني أن يذشىء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب
مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ
محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ماحمل الاول على الاجابة حمل الثاني
على الامثال ، وعلى الله الاتكال في جميع الاحوال .

الجريدة ومنهجها

ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان
التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سبوكها لتدارك
ما فات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت

ويستتبع ذلك البحث في أصول الاسباب ومناشئ العمل التي قصرت بهم
الى جانب التفريط ، والبواغث التي دفعت بهم الى مهامه حيرة عميت فيها السبل ،
واشتبهت بها المضارب ، وتاه فيها الخريت^(١) وضل الرشداً ، حتى لا يدري
السالكون من أين تفجهم الطوارق المفزعة ، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القملة
وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام العرفين ، ولبست
عليهم مسالك الرشداً ، وتزيخ الوسوس التي أخذت بعقول النعمين ، حتى
تورثتهم اليأس من مداواة علائهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد
فات ، وأن العلة بلغت حدها

وتحاول إشراب الافهام أن لا حاجة في الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة
الى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم . وأن تخيل
تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الادبار عن المفلوب وهو نجت الجناح .
يكفي في الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة .
وأن الظهور في مظهر القوة لدفع البكوارث انما يلزم له التمسك ببعض

(١) الخريت بكسر الحاء المعجمة وتشديد الزاء الدليل الحاذق بخرت الارض

وهو معرفة طرقها ومضايقتها

الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها^(١) ولا ضرورة في إيجاد النعمة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجئ للترقي في بدايته ، أن يقف موقف الأوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما حضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوفر نفسه وأتمه وقرأ أعجزها وأعوزها وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فن قد التكاثر لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لا ابتلاع الضعيف . وتجميل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاحظة ، المدبج بأشكال الجمالة ، شفافاً ينم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة ، التي يسري بها الطامعون في دياجير الغفلات وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً المسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لا خبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ماداموا على أصولهم التي فازبها آياؤهم الأولون ولا تنه في تبليغ الشرقيين ما يحسبهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، واتقاء الثابت

وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القوية التي لا تميل الى الحيف والاجحاف بمحقوق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها ، والحااملين عليها ، لا تظهر إذا ألدجوا ، ولا تتجد إذا أغوروا . وتذهب مذاهب الرشد . وتصيب بحول الله مواقعهم عند من سبق في أزلي علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وترسل الى الذين نعرف أممناهم مجتانبين مقابلي ليتداولها الأمير والحقير ، والغني والفقير . ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب الى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذي يريده والله الموفق اهـ

(١) يريد الدولة الروسية التي جرت كلمة شموها وغنيت بمعلمهم أمة حرية مسالمة بأحدث آلات القتال وأخذة بأحدث نظمه كما هو مبين في مقالة أخرى (م ٣٨ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

دعاب الانكليز من العروة الوثقى ومقاومتهم لها

لما استقرت قدم السيد جمال الدين في مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) وأنشأ برني التلاميذ والمريدين لاعدادهم للعمل السياسي الذي هو غرضه من الحياة كان من أول ما نشره في جريدة مصر التي أنشأها بعض مريديه من السوريين مقالات عنونها البيان، في الانكليز والافغان، ووصف فيها قومه الافغانيين بقوله : « هذه الامة المعروفة بعزة النفس ، وشدة البأس ، التي لم ترض الدخول تحت حماية الحضجر (١) المبتلى بجوع البقر والاستسقاء الذي لم يشعه ابتلاع ماتي مايون من النفوس (٢) ولم تروه مياه الكنج والتمس ، بل ففر فدالمتهم بقية العالم . ويجرع مياه النيل ونهر جيحون اهـ

وكان من تأثير هذه المقالات أن ترجمتها بعض الجرائد الانكليزية وأظهرت الاعجاب به وبها وردت عليها كما تقدم تفصيله في ترجمته من هذا الكتاب ولكن أول كاتب شرقي اهتمت الجرائد الانكليزية بكلامه

ولما عزم على نشر جريدة العروة الوثقى في باريس كان قد اشتهر أمره عند ساسة الانكليز بما كان له من الاثر الفعال في السياسة المصرية في آخر مدة اسماعيل باشا حتى كان قضايتهم الجنرال هو الذي أغرى توفيق باشا باخراجه من مصر بعد أن كان من مريديه - وحتى ان حكومة الهند حجرت عليه في كلكته مدة اثرة العربية وحجبت عنه اخبارها كما تقدم ايضا

لهذا كله حسب الانكليز لجريدته كل حساب وجهه بعض ساستهم بتحريض حكومتهم عليها قبل صدور شيء منها كما بينته في العدد الخامس الذي صدر في ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ (١٠ ابريل سنة ١٧٨٤) وهذا نصه :

- (١) الحضجر بكسر ففتح الواح البطن وهو من اسماء الضع
- (٢) يعني اهل الهند وكان هذا إحصاءهم في ذلك الوقت واما الآن فهم ٣٢٠ مليوناً او يزيدون

الجراند الانكليزية والعروة الوثقى

لونا دينا الغافلين أن انتبهوا . والنائمون أن استيقظوا . واللاهين بحظوظهم
أو ثمانيتهم أو أو هامهم ان التفتوا . ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانكليز لو ثبتت
أقدامهم في ديارهم ، لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم .
بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم . لقال الناس اننا نبالغ في الانذار
ونفرق في التحذير . ولوبينا لهم أن الانكليز يؤخذون الالباء . بذنوب الآباء ،
والاحفاد بجرائم الاجداد ، ويطالبون الذراري بدفائن اسلافهم . وان لم يكن
الخلف علم بما ترك السلف - اعدوا هذا البيان مناشطاً في المقال ، وميلاعن الاعتدال .
ولو روينا لهم أن في قلوب الانكليز حقداً وضغينة على كل إيراني
سواء كان من الافراد او الوجوه ، ويسيثون معاملتهم حينما وجدوا من بلاد
الهند ، ويمقتونهم مقتاً شديداً لأن نادر شاه من ملوك العجم جاء إلى الهند فاتحاً
على عهد السلطنة التيمورية ، واستولى على خزائن الاموال في دهلي ، وأخذها
إلى بلاده قبل استيلاء الانكليز على تلك المملكة بما ينيف عن قرن . وبعضون
الانامل من الغيظ ويمحقون الأرم من الاسف على ما أخذه نادر من أموال
دهلي ، وحرمانهم من تلك الاموال ، ويحملون هذا الوزر على عاتق كل إيراني -
لحسبوا ذلك منا تغاليا .

واو قصصنا عليهم ما يامل به الانكليز رعاياهم في الهند عموماً
والسليين خصوصاً ، وأنه يكفي لنفي عالم من علماء المسلمين إلى جزائر (اندومان)
أن يعترف بأنه معتقد ببعض آيات من القرآن - لانكروا علينا ما نقول ،
لبدهم عن تلك الاقطار وعدم وقوفهم على أحوالها . ولسنا الآن بصدد اقناع
المصريين بما نعلم من أحوال الانكليز ولا نريد إقامة الدليل على ما نعرفه من
أحكام ساحتهم ، فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقص . ولاكن نعرض عليهم
نموذجاً من المعاملة لعله يكون المتعبرين مرآة تحكي ما يغيب عنهم من لوازم
السلطة الانكليزية

عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنسية. فكتبوا عنها قبل صدورها، غير مبدين لمشربها، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها. فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، واندروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الانكليز ونفوذها في البلاد الشرقية. ولجوا في إغرائها بها، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية. بل تطرفوا فنصحوها ان تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها. كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسي. مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لأثارة الخواطر، ولا لايقاد الفتن، وإنما أنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموما، والمسلمين خصوصا. وتنبيه أفكار بعض الغافلين منهم. لا فيه خير لهم. ولقد صدرت سالككة جادة الاعتدال، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل، كما يظهر لكل من اطلع عليها.

فليعتبر المعتبرون بهذا الاجحاف. والاعتداء والقصاص قبل الجزاية، ومن كان سمندلي الطبع فليهنأ له العيش (في ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب *). ولكن فلنعلم الحكومة الانكليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة او بوسيلة أخرى إذا دعا الحل. فإن أنصار الحق كثيرون. اهـ [المؤلف] قوله سمندلي الطبع في الأصل سمندري بالراء وهو محرف، والسمندلي نسبة الى السمندل (كسمفرجل) وهو كما قال في القاموس : طائر في الهند لا يحترق بالنار . وهذه استعارة والمراد ان من كان لا يشعر بألم نار الذل والامتهان بان كانت طبيعته النفسية كالطبيعة السمندل الجسدية الذي لا يألم من مس النار فليهنأ له العيش في ظل الاجنبي الذي يشبه ظل يجموم جهنم الذي وصفه الله تعالى بقوله للمجرمين (انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب) الخ

فإذا كان هذا شأن خوف الانكليز منها قبل صدورها فهل يستغرب من الحكومة البريطانية بعده أن تمنع دخولها في مصر والهند ؟ وهذا ماورد في مع الحكومة المصرية لها في العدد التاسع الذي صدر في ٢٥ رجب ١٣٠٢ (٢٢ مايو *)

العروة الوثقى

انتم قد مجالس النظار المصري في اتمامه واهتم بالبحث في شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاصياً عليها بان تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الاقطار المصرية ، وتراقب جولانها في تلك الديار ، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة في ذلك ، ولما أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الاوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهي غرامة جسيمة ربما دعا اليها عصر المالية المصرية ببركة تصرف الانكليز في مصر) أما نحن فلا نغان أحداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار ، بل لا نتوهم في المستوي على كرسي الخديوية ميلاً إلى مثل هذا الخدع ، ولا يحتاج في صدورنا أن مصر يا من أي مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم بل ولا شرقياً من سكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل

هذه جريدة قمت بالدفع عن المصريين والاستنجاد لهم ، ولما سعي بل كل الهيحية آمل أعدائهم ، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا نقدح في عمرو ، فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وإنما عملها سكب مياه النصيح على لخب الضفان لتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد ، فلتتمس من أبناء الامم الشرقية أن يلتقوا سلاح التنازع بينهم ، يأخذوا أحدهم وأسلحتهم يدفعوا ضواري التي فطرت أفواها لالتهامهم ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الامن من طروق الناهب هذا من هاج العروة الوثقى عليه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره . ولكننا نعلم أن حركات الآمرين في القطار المصري هذه الايام قهرية لا يتخاطبها شيء من الاختيار ، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الانكليز

ولا نريد أن نقول للانكليز إنهم ظلموا في هذا الحكم فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والاجنبية من كشف مساوئهم ، وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم . لانهم الانكليز الذين إذا

أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار أمرعوا
بجلبه الى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله اليها يفتح له الضابط مصحف
قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير الى آية من آيات الجهاد أو
حديث مما يدعو اليه، ويسأله هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث؟ فإذا قال
نعم.. قال له فيناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا. فإذا أجابه بأنني
درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادي بهذا إلا لانه كتاب ديني، ضرب
له الضابط أجل أربعة ايام أو أقل يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث، فان مضى
الأجل ولم يحرف العالم دينه، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر بارسال تحريظه وتبديله
وخروجه عن دينه الى مطبعة من المطابع ليطلع وينشر.. بعثت به الحكومة الى جزيرة
(أندومان) نفيًا مؤبدًا. ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأشكال هؤلاء المظلومين
فدولة الاسكندر التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم، وما
يمكن أن يجس في حديث نفوسهم، لا ريب اننا نعد وجود لفظ الاسلام في جريدة
كافية لمنعها عن الدخول الى بلادها فيه قدم ثابت، أو تسعى في تبييته، بل تحسب
أن من ألد أعدائها شخصًا علق عليه هذا الاسم من أي جنس كان. فلا غرابة
في صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلم لها أن هم الرجال لا قطعها أمثل
هذه المظالم، وليس يعجزنا ادخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها الساحة
الانجليزية الظالمة، ذلك بمزائم أولى العزم الذين قاموا بانشاء العروة الوثقى
بأننا أن بعضاً من الناس يسل سيفه ويشحذ سناناه لمناضلة الولي الحميم، ويقابل ثوبه
بالدم، ومدحه بالقدح، واحسانه بالاسلحة، ويبرأجه نصيحته بالظنة. ولا نظن أن هذا
عن عمد ولا اغراء، عدو، وانما هو كسبية حجت نظره عن ذك الحقيقة فذا كشفت له الايام
عن الواقع رجع الى الندم على ما صدر منه، وكانت له مثابة الى الحق وركون الى الصواب
لا يحزن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من
منع العروة الوثقى عن دخول القطر المصري وإيعاموا أن الحكومة المصرية لا تدخل في
هذا المنع، فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غير أن تمنع جريدة لاشي، فيها سوى الدفع عن
الشرقيين، وانما أمشوه حكومة الخنجر وشبههم معلوم عند كل عارف بأحوالها. إيه

تأثير العروة الوثقى في العالم الاسلامي

انني لا أنزال أتمذكر أنه كان بدارنا في القلمون بجوار طرابلس الشام (في سنة ١٣٠٢) ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العربية فجاءت جريدة العروة الوثقى مساءً فأخذها الاستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي المشهور، وقد وضع بين يديه مصباح من مصابيح زيت التبرول، وأنشأ يقرؤها بصوت جهوري كأنه خطيب، وإنما كان يقف عند بعض الجمل، يعبر عما يخجله من شعور المعجب، ولم يتركها حتى أتى على آخرها، ولم أكن في ذلك الوقت أعنى بشيء مثل هذا بل كانت تلك السنة هي السنة الثانية لاشتغالي بطلب العلم.

ثم انني رأيت في محفوظات والذي بعض نسخ الجريدة فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال، والحرارة بالاشتغال، ما قدف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال، وقد سبق لي وصف تأثير الجريدة في نفسي بوجه الاجمال (١) وإنما كان الاثر الاعظم لتلك المقالات الاصلاحية الإسلامية، ويليها تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية، والذي علمته من نفسي بالخبر ومن غيري بالخبر ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا في قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب، والافئاد من العقل، ولا حد للبلاغة إلا هذا

وكان هذا التأثير هو الذي أوحى إلى صديقنا الامير شكيب أرسلان قوله في مدح السيد جل الدين الذي أفاض الله تعالى حكمها على جنانه

ومعان لو أوحيت لجاد هزه الشوق نحوها والغرام

حيرت كل ذي حصة إلى أن قيل لاشك انها إلهام

وقوله في كلام الشيخ محمد عبده الذي أبرزها باجمل الحلي والخلل من بيانه

كلام إذا ألقىته في جماعة غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب يذوق
عليه من النور الالهي مسحة تكاد على أرجائه تتألق
كذلك كان تأثيرها في نفس كل من كان يطلع عليها ، وناهيك بالمطالعين
عليها في زمن صدورها ،

ذلك بأنها قد تجلّت فيها تلك الأفكار الجالية السامية ، بتلك العبارات العبدية العالية ،
وجمعت بين الحكمة وفصل الخطاب ، والاخلاص في محرمي الحق ، ومخاطبة القلب
للقلب ، فلا غرو أن يكون لها ما علمنا من عجب التأثير ، الذي لم يعد له بعد ما كان من
تأثير اقرآن في العصر الاول نظير ، وانما كان تأثيرها مستمداً من تأثير القرآن ،
فهي قد أحيت تدبره والجهاد به ، والدعوة اليه والدعوة به ، والمعاني الاجتماعية
والسياسية من تفسيره ، فكان قارئها يشعر بالروح العلوي الذي كان يفيض من نور
على ذينك القمرين النيرين ، وينعكس من فلكهما على العالم الاسلامي فيحدث فيه من
قوة التأثير ما كان يحزم أهل الرأي في الاقطار المختلفة بأنه سيحدث ثورة اسلامية
قريبة في العالم يقبها انقلاب عظيم في الشرق

سمعت أستاذنا الشيخ حسينا الجسر عالم سوربة الوحيد في الجمع بين العلوم
الاسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية يقول : ما كان أحد يشك في أن جريدة
العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيماً في العالم الاسلامي لو طال عليها الزمان

وسمعت محمد بك علي المؤيد يقول كنت في بغداد في عهد صدور العروة الوثقى
وكانت ترسل إلى الزعيم العربي الاكبر في العراق السيد سلمان الكيلاني نقيب الاداة
الاشراف وكان يقول كلما جاء عدد منها يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه
الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا . وكان السيد سلمان من زعماء المسلمين
أصحاب النفوذ الكبير في قبائل العراق المساحة التي لم تكن تخضع للدولة العثمانية -
وأما نفوذه الروحي في الملايين من مسلمي الهند فهو يشبه العباداة أو هو ضرب منها .

وانما أعد القلوب لذلك التأثير سوء وقع احتلال الانكليز لمصر والامل
بانقاذها منه بسعي هذين الزعيمين الحكيمين ، فلا غرو أن يكون لذلك الزمان
ولاختيار ذلك المكان ، وتلك الآمال والآلام ، من السلطان الروحاني على ذينك

العقابين المالكين ، والقلبين الخالصين ، مانجلي نوره في مرآة العروة الوثقى وانعكس عنها على الشرق ، فأضاء ما فيه من ظلمات بعضها فوق بعض ، وظلمة الجهل بالقرآن ، والجهل بتاريخ الاسلام ، وظلمة استبداد الحكم ، وظلمة فساد الاخلاق العام ، ولقد عاد المسلمون بعدها يتسكعون في تلك الظلمات الحالكه ، وتلك المصاييح بين أيديهم ينظرون اليها ولا يبصرونها ، فاني لم استضاء بنورها ؟^١

وقد رأينا السكل من هذين الحكيمين مقالات كتبها بعد ذلك فلم تر لها من الروعة والدهشة والسלטان على الارواح والمقالات العروة الوثقى ، بل قال لي الاستاذ الامام نفسه : انني لا أستطيع الآن أن أكتب مثلاً ، وعلل ذلك بما أشرت اليه من تأثير الزمان والمكن والحل والانفعال والآمل ولو عادت تلك المؤثرات لكتب ما هو ابغ منها ، لانه قد ازداد علماً وإيماناً وبياناً ، ألم تر كيف كن ما كتبه من انفصول في آخر رسالة التوحيد من ذلك الطراز المبقرى ، والالهام الالهى ، ولان موضوعه اعتقادي لاعلى ، وسبب ذلك أنه كتبها في حالة وجدانية استوت على النفس ، فجذبته من عالم الحس الى عالم القدس . زرتة رحمه الله تعالى في ضحوة يوم من أيام رمضان سنة ١٣١٥ بداره التي كانت بحى الناصرية فقيل لي انه موعوك لم ينزل من سريره . قلت أخبروه بمجئى فأخبروه فذن لي فسأله عن شكاته فقل انني أطلت الفكر ليلا في حال المسامين وما أصابهم من الشقاء بترك دينهم فدورتني آلام عصبية يعتادني مثلها كلما أطلت الفكر في هذا الامر ، حتى خطر في بالي أن أنزل من الدار وأذهب إلى مجامع لهم وفسقهم العامة في حي الازبكية وأصبح بهم : أيها الناس ما ذار أيتهم في دينكم .. حتى تركتموه ؟ ثم انني لم أجد لنفسي إسعافا يسكن الالم إلا الكتابة فكتبت هذا الفصل الملحق برسالة التوحيد ، « انتشار الاسلام بسرعة لم يعد لها نظير في التاريخ » وما يليه من الابرار والجواب عنه

(١) اني لا أعجب لغفلة معلمي الانشاء في مدرسة دارالعلوم وغيرها من المدارس العالية ، كيف لا يلتفتون الطلاب هذه المقالات ، ولا يرشدونهم إلى مطالعة غيرها مما ودعناه جزء المنشآت ، ثم يزول عجبى بهذا كراهة هذه الظلمات وكان بعض من أنار الله بصيرتهم من أساتذة مدرسة المعلمين العليا قد طالبوا من وزارة المعارف تقرير هذا الجزء لمطالعة الطلبة فيها فقررت ، ثم طلب غيرهم أن تستبدل به كتاب مقامات الحريري فاستبدلته !!! وانما استبدلوا الذي هو أدنى والذي هو خير .

مقاصد العروة الوثقى

الموضوعات التي تنحصر فيها مقاصد العروة الوثقى أربعة : الجامعة الإسلامية ،
 الرباطة الشرقية ، المسألة المصرية ، المسألة السودانية ، والرابطة الشرقية مرتبطة
 بالجامعة الإسلامية في مذهبها ، فليس فيها فصول خاصة ، بها وقلة ، تخلو مقالة في الجامعة
 الإسلامية من ذكرها ، ووجوب الجمع بينهما . وكذلك المسألة السودانية مع المسألة
 المصرية إذ السودان جزء من الممارة المصرية . ولكن كان للحكيم سياسة خاصة
 بالسودان سيأتي بيانها وانني ألخص مذهبها في هذه المسائل اثلاث

الجامعة الإسلامية

كان الغرض منها إرشاد المسلمين بالقرآن ونشأة الإسلام الأولى إلى
 وحدته ، وسيرة النبي ﷺ وخلقائه الراشدين في إقامته وتأسيس حكومته ،
 وسيرة السلف الصالحين في هدايته . وسيرة القواد الفاتحين في تشييد صروح سيادته ،
 ومذاهب الأئمة المجتهدين أي طرقهم العلمية الاستقلالية في تدوين شريعته ، ومناهج
 الحكماء والفنانيين في تكوين حضارته ، وتوجيه جميع شعوبهم إلى استقلال بلادهم وأحدها
 وتعاونها على إحياء مجده ، بترك تصنيفات المذاهب والجنسيات المفرقة لكافة أهله

وأما ما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الإسلامية أن
 يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم أره في شيء من العروة الوثقى ولا في غيره
 مما كان يرويه عنه الأستاذ الامام وهو أعلم الناس بمقاصده وأعماله ، بل قال في
 المقالة التي وضعنا لها عنوان (الوحدة الإسلامية) التي نشرت في العدد التاسع
 من العروة الوثقى « لا أتمس بقولي هذا أن يكون مالك الامر في الجميع شخص
 واحداً فإن هذا ربما كان عسيراً . ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم
 القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ما سلكه يسمى بجهد لحفظ
 الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه ، ألا إن هذا بعد كونه

أساساً لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات « اهـ (راجع
المقالة في ص ٢٧٦ من الجزء الثاني - الطبعة الثانية)

وضرب لهم في المقالة التي أنشأها لدعوة الايرانيين والافغان للاتفاق
والاتحاد مثلاً الشعوب الجرمانية الذين كانوا مختلفين في النصرانية على نحو
من اختلافهما وقال : فما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية
ظهر الضعف في الامة الالمانية وكثرت نايها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة
في سياسة أوربة . وعند ما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية ،
وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة ، رجع اليهم من القوة والشوكة ما صاروا
به حكام اوربا ويبدعهم ميزان سياستها اهـ (راجع ص ٣١٦ ج ٢ طبعة ثانية)

والظاهر أنه كان يكتفي بالوحدة الدينية وتجديد الاصلاح الاسلامي المدني
والحربي في كل شعب له دولة او تصير له دولة ، وعقد المحالفات بين هذه الدول
(كالترك والفرس والافغان في ذلك الوقت) ثم الاعتراف لاقواهن برباسة
الحلف بتمثيله للخلافة الاسلامية ، كجمل الدول الالمانية ملك بروسية امبراطورا
للمملكة وعاصمتهم مركز الوحدة العامة ، مع بقاء كل دولة مستقلة بنفسها في بلادها
أنشأ لهذا الغرض بضع عشرة مقالة صدر أ كثرها آيات من اقرآن وأذلها
بمحدث أو عنوان يناسب موضوعها ، ولم يضع لا كثرها عناوين غير هذه الآيات
وقد نشرناها ومقالات أخرى أدبية واجتماعية في الفصل الثالث من الجزء الثاني
(منشآت الاستاذ الامام) وجعلناها عناوين تليق بها

وأرى أنه لا يتم لقاريء هذا التاريخ ما كان الحكميان يريدان من فكرة الجامعة
الاسلامية والاصلاح الديني إلا بقراءة تلك المقالات ، التي نشرناها في الفصل الثالث
من جزء المنشآت ، وحسبي هنا أن أصف بعضها ، وأذكر بعض الشواهد منها .

مقالة (١)

الجنسية والربانة الإسلامية

بدئت هذه المقالة ببيان ضاف في عصبية الجنس ونعوته ومكانتها في الأمم والحاجة اليها في الاجتماع ، ونجوز الناس حد الحاجة فيها إلى الانفة من سلطان المخالف في الجنس وان كان عادلا مصلحا ، لان في قبول حكمه مهانة وذلا ، واستثنى من هذه الضرورة للمصيبة الجنسية ما تزول به فائدتها ، بوجود عصبية أعلى وأنفع وأعم وأشمل منها ، وهي العصبية الدينية ، ووصف سلطانها على النفس ، وأثرها في الوجدان والحس ، وضرب لها عصبية الدين الاسلامي مثالا وبين حال المسلمين فيها ، وعللها بما ينقض دعوى بعض ملاحدة هذا الوقت أن الاسلام رابطة روحية ، ليس له تشريع ولا سياسة مدنية اجتماعية ، وفيه بيان قاعدته في السطة العليا وهي الخلافة فقال :

« لان الدين الاسلامي لم تكن أصوله قصيرة على دعوة الخلق إلى الحق ، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مغلوقة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كليا وجزئيا ، وتحديد السلطة الوازنة التي تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعا لها ، ولن ينالها بوراة ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية ، أو ثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والمقدرة على تنفيذها ، ورضاء الأمة ، فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم الالهية المقدسة التي لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عليهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها »

ثم استدلل على ما ذكره بشيء من الكتاب والسنة ، وذكر جريان المسلمين على ذلك في القرون الخالية ، واستقامة أمورهم باستقامة الوازعين فيهم على ما ذكره واحة لا اله الا الله ، ومنه قوله :

« وكما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في ابهته ورفاهة مدينته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد، رجعت الاجناس إلى تمصبها، ووقع الاختلاف، وانقبضت سلطة ذلك الوازع »

(نم انتقل من هذه المقدمات إلى المقصد الاسمي، وهو تأسيس حكومة اسلامية تكون مركز الجاذبية العامة للوحدة قتل):

« ان المسلمين اختصوا من بين سائر ارباب الاديان بالتأثر والاسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها، ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الاوامر الالهية واثابر على رعايتها، وأخذ الدهاء بمحدودها، وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها، وتجننى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة انباطلة، لا يمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة السلطان، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار العمورة بارباب هذا الدين، ولا يتجشم في ذلك أتعاباً، ولا يحتاج إلى بذل النفقات، ولا تكثير الجيوش، ولا مظاهرة الدول العظيمة، ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية، ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية. ومن سيره هذا تنبعث القوة، وتتجدد الوازم المنعة » ثم ختم المقالة ببيان ما يخاف هذا المقصد فقال

« ابيضت عين الدهر وامتع لون الزمان حتى أصاب ان بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكاهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية، فيلجئون للدخول تحت سلطة أجنبية، على ان الندم يأخذ بأرواحهم عند اول خطوة يخطونها في هذا الطريق، فتألم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالآلم رجع واسترجع. وان بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الانتقام والتفريق انما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القوية التي بنيت عليها الديانة الاسلامية، وانحرافهم عن منهاج اسلافهم الاقدمين، فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا

« فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض إلا قليل من الزمان الا وقد أتاها الله بسطة في الملك وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين، وفقنا الله للسداد وهدانا لطريق الرشاد » اهـ

مقالة

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها (١)

مقالة طويلة تزيد مطورها على ٢٣٠ سطراً ، تزيد ٩ ص ونيفاً ، افتتاحها بآية (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن نجد لسنة الله تبديلاً) ثم قال « رأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم ، فإذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تحمد في ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنجل بأيدي مدبريها عقد المشاكل ، تمت فيها افنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكرامة ، وكلت القوة ، فاستملت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الامم بان لا مساعدة لها إلا بانتهاج منهجها ، وورود شريعته ، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساعات ، كأنها للعالم روح مدبر ، وهو لها بدن عامل

« وبعد هذا كله وهي بناؤها ، وانتثر منظومها ، وتفرقت فيها الاهواء ، وانشقت العصا ، وتبدد ما كان مجتمعاً ، وانحل ما كان منمقداً ، وانفصمت عرى التعاون ، وانقطع روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها . ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه ، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية »

وأخذ بعد هذا في وصف حال هؤلاء الافراد الذين فقدوا السلك الذي به كانوا أمة في حياتهم الفردية وما فعلت بهم قناعة البهم ، وما حشا أدمقتههم من جهالة الوهم ، حتى حاق بهم انقنوط واليأس ، فسللك أعناقهم في سلاسل الجبن وحبس أرجلهم في مقاطر العجز ، وغل أيديهم عن العمل ، وأقداهم عن السعي ، ثم قل « نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت ، وعزت ثم ذات ، وصحت ثم مرضت ، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى واأسفاه ! ماصعب الداء ! وما أعز الدواء ! وما أقل العارفين بطرق العلاج ! » ثم طفق يتسأل عن الدواء وطرق العلاج :

« كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفرق إلا لأن كلا عكف على شأنه ؟ أستغفر الله ! لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أرضائه اتصالاً به ، ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظنهما من شؤون نفسه ... »
« كيف تبعث الهمم بعد موتها - وما ماتت إلا بعد ما سكنت زماناً غير قصير إلى ما ليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه إلى العرصات المستقيم - وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه ؟ خصوصاً بعد ما استدير المقصد ، وفي كل خطوة ، يظن أنه على مقربة من الخطوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، البتةج باحلامه ، وفي أذنيه وقر ، وفي ملامسه خدر ؟ هل من صيحة تفرع قلوب الأحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحواؤها ، وتتناهى أطرافها وتباین عاداتها وطبائعها ؟

« هل من نبأ تجمع أهواها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل وران غين وخيل لاعتقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعز ؟ أيم الله انه لشيء عسير يعيا في علاجه النظامي ويحار فيه الحكيم البصير

(وههنا أخذ يبحث في حقيقة الدواء ومرض الأمة والفرق بينه وبين معالجة مرض الافراد الجسدي ويستعرض الآراء في ذلك ، ومنها ذهاب بعض الناس إلى فائدة الجرائد ، وآخرين إلى الاعتماد على إنشاء المدارس على نحو ما في أوروبا ويبحث في كل منها من حيث الامكان والانقار ومسالمة الزمان ووضع تلك العلوم الغربية في مواضعها على الوجه الموصول إلى مقاصدها مع مراعاة استعداد الأمة وطبائعها)

- وضرب المثل لقلّة غنائها في ذلك بما في مصر والدولة العثمانية منها وما كان من سوء تأثيرها في توسيع مسافة الفرق والانقسام وتبديد بقايا الائتلاف وجعل النوافذ والخصائص في بنيان الامة أبواباً « لتدخل الاجانب تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين وينهبون بأمّتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير » (وانتقل من ذلك إلى وصف المتخرجين في هذه المدارس المصرية والعثمانية الذين أضعفوا الامة بدلا من أن تنال بهم من المنعة والقوة ما يرد عنها الطامعين فيها خاسئين ، وتهمكم بما يتفقهون به من ألفاظ الحرية والوطنية ، وسخر بما يفخرون به من الاسراف في الافاق والزينة محاكاة للاجانب في بداية تقليديهم لهم بما هو ثمرة ونهاية لعلومهم وفنونهم لا وسيلة لها ، وأشار إلى مانسفوا بذلك من ثروة بلادهم إلى غيرها وما أمتوا من الصناعات الوطنية وأبادوا من أهلها ورنعت هذا التقليد السيئ ، التأثير بانه « جدع لأنف الامة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هكذا إلا لان تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وخطاتهم قبل أولائها » ومما قاله في هؤلاء المتفرنجين المقلدين :

وصف المتفرنجين المقلدين

« علمتنا التجارب ، ونطقنا مواضي الحوادث ، بأن المقلدين من كل أمة المستحلين أطوار غيرها ، يكرنون فيها منافذ وكرى لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوسوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واعتقاد من ليس على مثلم ، شؤما على أبناء أمّتهم - يذلونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهبون بجميع أعمالهم ، وإن جات - إلى أن قال - وبصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات ، يهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم »

(وههنا ذكر أنه لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ما تغلب الانكليز على بعض أاضيها (حتى عاصمتها) لما بارحوها إلى أبعد

«لا بد من ، لأن الاجانب ما طرقوا أرضاً لأية أمة إلا أقبل هؤلاء المتعلمون عليهم
يعرضون أنفسهم لخدمتهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم ويعدون الغلبة
الاجنبية مباركة عليهم وعلى أعقابهم»

(ثم أجمل ما فصله من تنفيذ ما قيل من علاج هذه الامة وانتقل منه إلى العلاج
الصحيح الذي قال فيه إنه سبب يجمع كل الاسباب ووسيلة تحيط بجميع الوسائل
وحصر ذلك فيما أشار اليه في أول المقالة من حياة هذه الامة وقوتها وعزتها في
نشأتها الاولى فكان ذلك شرحاً لقول الامام مالك : لا يصلح آخر هذه الامة
إلا بما صلح به أولها .

مقالة

النصرانية والاسلام والمقابلة بينهما في طلب السيادة والسلطان

والقوة العسكرية والتنظيم (١)

عنوان هذه المقالة (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)
ويبلغها مقدمة فلسفية في « خلق الله الانسان عالماً صناعاً » في أطواره المعاشية والعلمية
والادبية والاجتماعية ، ليس فيه من تأثير الطبيعة في شخصه ولا فيما يحيط به إلا ما يكون في
الاستعداد والاقابلية فكل ما يناله من علم وعمل « فهو ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو
مصنوع يتبع مصنوعاً - فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي » ثم انتقل إلى
مكان الدين من نوع الانسان وما له من الكسب فيه فقال

« هذا ما لا يرتاب فيه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا أن
الاعمال البدنية انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ؟ وأن الروح هي
السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير لانه مما لا يعزب عن

(١) نشرت في العدد الرابع بتاريخ ٧ جبادي الآخرة

الاذهان ، انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن أن منكراً يجحدها :

« إن الدين وضع إلهي ومعلمه والداعي إليه البشر تتلقاه العقول عن المبشرين النذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الافئدة وتصطبغ النفوس بمقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين ثم ينبعث إلى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات حتى تبقى طبيعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال » بعد هذا شرع في الموضوع « وهو الملة النصرانية والملة الاسلامية » فثبت ان الاولى بنيت على المساومة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت باطراح الملك والسلطة ونبتذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية وكذا الدينية الخ وأشار إلى بعض الشواهد على ذلك من الإنجيل وانتقل منه إلى التعجب أو التعجيب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي في المفاخرة بزيته هذه الحياة واستيفاء لذاتها والمصارعة إلى افتتاح الممالك والمساومة إلى اختراع آلات الحرب والتوسع في فنونها والمبالغة في تنظيم الجيوش وسوقها الى ميادين القتال « حتى صار الفن العسكري من اوسع الفنون وأصعبها ، وان أصول دينهم صارقة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى غيرها » (وقفي على ذلك بالكلام في طبيعة الديانة الاسلامية فقال)

« الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب القلب والشوكة ، والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعته ، ونبتذ كل سلطة لا يكون قائم بها صاحب

الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكماً لاربية فيه بأن المعتدين بها لابد أن يكونوا اول امة حرية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القتالة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجرا الاثقال والهندسة وغيرها « ومن تأمل في آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أيقن ان من صيغ بهذا الدين فقد صيغ بحسب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه. » (ثم انتقل من بيان هذه الاصول الى بيان حال المتتمين إلى هذه الديانة في هذا العصر من مهاونهم بالقوة وعدم عنايتهم بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع آلاته، ودهشته من اضطرارهم إلى تقليد اولى الديانة السلمية فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وبني على ذلك أسئلة كثيرة نذكر بعضها)

« لم لا يحار الحكيم وان كان نطاسيا ؟ لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الاخذ بشريعة مومى واقفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، او التي شيء منها في أمانى معلمهم وناشري شريعتهم، عند ما يتربعون في محافل دروسهم ؟

« هل تبدت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الارواح ؟ او وجد الارواح دبير سوى الفكر والخيال ؟ او انفاتت الافكار من سلطة الدين ؟ او تعاصت النفوس على الانتقاش بنفسته وهو اول حاكم عليها واقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف الملل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ؟ »

(وهنا فنحن ننبه هذا التباين الى اختلاف الاجناس او طبائع البلدان ، واحتج

عليه بما حفظه التاريخ للعرب والفرس والترک عند ما كانوا في شبيبة دينهم من الاعمال العسكرية التي ادهشت الالباب) ثم قال

« كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها ، وذكر ملكهم سرجم (انكايزي) في تاريخ فارس ان محمودا الفزنوي كان يحارب وثنبي الهند بالمدافع وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئا منها

« فأيقن من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى ما لم يكن من قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرجتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام الحيرة وموضع العجب ، ويظن أنه لا بد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكننا نجمل على مشرطنا »
أجاب عن الاول بما نلخصه في القضايا الأربع الآتية

(١) ان الدين المسيحي انما نشره في أوروبا أبناء الرومانين الذين ورثوا ملكات الحرب والقتال عن آباؤهم فجاء مسالماً لعاداتهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقتناع ومسارقه الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم شيئا مما ورثوه عن أسلافهم

(٢) ان صحف الانجيل الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن مما يتناوله الناس كافة ، بل كانت مذخورة عن الرؤساء الروحانيين

(٣) ان الاحبار الرومانين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا لقومهم حرب الصليب ، ودعوا اليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالاعتقاد الدينية وجزت منها مجرى الاصول

(٤) ان هذه الحرب أعقبهم زعزعة في العقائد المسيحية [فافترقوا شيعة ، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلاطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جرائم وجودهم ضراما] الخ

وأجاب عن الثاني بأربع قضايا يجمعها أمر عام هو الاحداث في الدين (الاولى) عقيدة الجبر التي اخترقت الاذهان وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن

الاعمال (الثانية) ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع — وشهرهم فرقة الباطنية — من البدع في الاسلام (الثالثة) شبهات السفسطائية (الرابعة) الاحاديث الموضوعية وفيها السم القاتل لروح الغيرة وان ما ياصق منها بالعتول يوجب ضعفا في الهمم، وفتورا في العزائم]

وعزز هذه الأربع بخمسة لولاها لم يكن لمن ذلك التأثير في تشويه الاسلام وإضعاف المسلمين وهي : النقص في التعليم وانتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحق ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه ، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم ، بل الواجب لتقهرهم ، وهو الذي نعاني من غنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه]

وهذا نص صريح من نصوص كثيرة في إثبات أن الإصلاح الديني الذي كان يدعو إليه الحكماء كلاهما هو الرجوع بالاسلام إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه (رض) قبل حدوث البدع والمذاهب

ثم ختم المقالة بموضوع الدعاية فقال « الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته — وان كان حجابها كثيفا — لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بارة تدافع دائم ، وتغالب لا ينقطع، والمنازعة بين الحق والباطل كالدافعة بين المرض وقوة المزاج ، وحيث إن الدين الحق هو أول صفة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك العيومات المارضة فلا بد يوما أن يسطع ضياؤها ويقشع سحب الاغيان » وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومقابلة المعتدين وطلب المنة من كل سبيل لا يدين لها وجهها ولا يخص لها طريقا ، فاننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ماسب منهم، فيتقدمون على سواهم في فنون الملاحة والمنازلة والمصاولة، حفظاً لحقوقهم وضناً بانفسهم عن الذل. وملتهم عن الضياع، والى الله تصير الامور » اهـ

مقالته

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك *

جمل عنوانها آية (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهي تفصيل او كالتفصيل لخاتمة المقالة التي قبلها. وبدأ القول فيها ببيان ما امتاز به المسلمون من الشدة في دينهم والقوة في ايمانهم وابطاط بعضهم ببعض عتقتهم وغيرة القريب منهم على البعيد بحيث لو سمع أي مسلم في أي بقعة من الارض أن مسلماً ارتد عن دينه لعد ذلك من أعظم المصائب وان طال عليه العهد وانطوت عليه القرون، — وذكر ما يوجب الدين عليهم من حفظ ملكهم وبذل المال والروح في سبيله ومن الهجرة من دار الحرب التي يكون فيها السلطان لغيرهم

وانتقل من هذا إلى بيان حال مسلمي هذا العصر في التقصير بهذه الواجبات وضرب المثل له بما كان من اعتداء الانكليز على أفغانستان ورؤية جيرانهم من أهل بلوچستان ذلك — ومن اعتدائهم على بلاد فارس ورؤية جيرانهم الافغانين لذلك — وعدم تحرك النعرة الدينية من هؤلاء ولا أولئك . ثم ضرب مثلاً آخر ما جرى في مصر في ذلك العهد فقال

« ان جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً وإياباً تقتل وتفتك ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم ، بل السامعين لخبرها من حلاقيمهم ، الذين احترت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وشمائلهم »

وقفي على هذه المقدمة بالتعجب من الجمع بين هذه الحال وما يناقياها ولا يتفق معها من عقائد المسلمين . وأشار إلى القاعدة التي يدنها في المقالة التي قبل هذه من سلطان العقائد الدينية على النفس الباعثة لها على أعمالها ، وقيدتها بقوله

في شرط تأثيرها « لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس وتطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التي تلائمها »

وشرح هذا الموضوع شرحاً علمياً فلسفياً بين فيه أن شأن جميع الروابط الطبيعية والجنسية كشأن الرابطة الدينية والافكار العقلية في تأثير كل منها في النفس بما شأنه أن يبعث على العمل، وأن ذلك لا يتم إلا بالتربية والعمل بمقتضى تلك الشؤون النفسية، فإذا لم تدع الضرورة الاجتماعية إلى العمل بها ضعف أثر الرابطة « ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحذوقات من الروايات والمنقولات » ثم قال « بعد تدبر هذه الأصول البيئة، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك سبب سكون المسلمين الى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصره إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين إلا في العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الاعمال، وانقطع التعارف بينهم، وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل .

« فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركي في غيبة عن العالم الحجازي فضلاً عن يبعد عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا . بل العلماء في قطر واحد لا ارتباط بينهم (الى أن قال)

« كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من الموارد ما أضعف الالتئام بين أجزائه فداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة، وتضمحل هيئة الجسم

« بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقما اقتنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين، والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم « كثر بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان . ثم أثلت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام : خلافة عباسية في بغداد وفاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الاندلس . تفرقت بهذا كلمة الامة وانشتت عصاها، وانحطت رتبة

الخلافة الى وظيفة الملك ، فستطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ، ولا يرعون جانب الخلافة ثم ذكر ما كان من ظهور جنكيز خان وأولاده ، وتيمورلنك وأحفاده ، وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا ، وما كان من انفصال عرى الائتلاف بين الملوك والعلماء جميعا ، وافتراق المسلمين فرقا كل فرقة تدعو الى ملك أو مذهب ، « فضعفت آثار العقائد التي تدعو الى الوحدة ، وصارت صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلحظها الذاكرة عند عرض مافي النفس من خزائن المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل بعض المصائب بالمسلمين بعد أن ينفذ القضاء ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت لا يدعوا الى تدارك النازلة . ثم عطف على العلماء فذكرهم بما يجب من العمل لتأسيس الوحدة الذي هو موضوع جمعية العروة الوثقى وسيلة ومقصدا فقال :

« وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع فيه الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين . ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهيطة لروح حياة الوحدة ، ويصير كل منها كسلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر . » ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع أنحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم . ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدتهم التنزيل وصحيح الأثر — ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أوزار الدين وحفظه من قوارع المدوان والقيام بمحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتدخل فيها بما يحيط من شأنها ، ويكون ذلك أدعى الى نشر العلوم وتوزيع الافهام وصيانة الدين من البدع ... فلو أبدع مبدع امكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة الخ

مقالة التعصب *

جعل عنوانها آية (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)، وكانت الحاجة إليها شديدة لأن الجريدة قامت بدعوة قوية إلى عصبية اسلامية عامة لم يعهد لها في الاسلام نظير بعد العصر الاول ، وكانت سبقتها في التاريخ دعاية صليبية في أوربة استنفرت جميع شعوبها لقتال المسلمين وابدانهم من البلاد المقدسة بل من الشرق كله ، فنفروا خفافا وثقالا ، واستمرت نيران تلك الحروب قروناً وأحرقت أجيالا ، كما أن التعصب المذهبي في النصرانية نفسها أثار حروبها أخرى لم يحمد سعيها إلا بتوازن القوى بين الدول التي تدبر بالكاثوليكية والدول التي تدبر بالبروتستانتية ، وما تلا ذلك وأعقبه من الحرية والاحاد في الدين ومناهضة عصبية واللهمج بدمها والتحذير من ضررها

ثم ظهر السيد جمال الدين بسياسة جديدة في الشرق كان الغرض منها احياء جميع شعوبه وتعاونهم لدفع استعباد الغرب لهم ، واستقلال بلادهم بنفسها ، وعمرانها بأهلها ، ولما كان دين الاسلام هو الغالب في ممالك الشرق الاذن كبلاد الترك والفرس والافغان والعرب وشطر أفريقية الشمالي كله وكان أعظم أسباب ضعف شعوبها التفرق والتعادي باختلاف المذاهب والاجناس المحظور في دين الاسلام ، وكان سبب هذا الاختلاف والتفرق الجهل بمحقيقة الاسلام نفسه والابتداع فيه ، وكان السعي لتلافي ذلك فرضا دينيا — لما كان ماذكر كما ذكر — كان من مقاصد السيد جمال الدين الاساسية ، بل أهمها تجديد الاسلام واصلاح ما فسدت فيه البدع والمصنعات المذهبية والجنسية باحياء الرابطة الاسلامية الاولى التي عنوانها قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) كما تقدم بيانه في أصول جمعية العروة الوثقى وفيما لخصناه من المقالات الخمس من جريدتها

وكان من حكيمته البالغة التي جري عليها بالقول والعمل الجمع بين الرابطة الاسلامية والرابطة الوطنية في البلاد التي تتمدد فيها الملل بحيث لا تجدد (* نشرت هذه المقالة في العدد السادس الذي صدر في ٢٨ جمادي الآخرة.

الاقليات غير المسلمة أدنى امتعاض ولا شكوى من الاصلاح الاسلامي الذي جرى عليه كما كان شأنه وعمله في مصر بل أجمع أرباب الاقلام على تلقيه بفيلسوف الشرق ، ولما كانت ضيحة الدعاية الاسلامية في هذه الجريدة شديدة كالصاعقة وكانت تشبه بما عرف عنه وتعارض ما ذكره في بيان منهاجها من الجامعة الشرقية العامة ، والرابطة الوطنية الخاصة ، أجاب المشتبهين بما تقدم بيانه بعد بيان أصول جمعية العروة الوثقى وبقي عليه أن يبين بطلان ما شتهر بين الناس من معنى التعصب ومن تخصيص الديني منه بالذم والمقت وبجلي حقيقته ويشرح فائدته وهو ما عُد له هذه المقالة في العدد السادس من الجريدة فكانت هي الحكمة وفصل الخطاب ، وقوبات بالخطوة والقبول من أولي الالباب . ولم يعترض عليها أحد من أهل الاهواء ، وتلخص في بضع مسائل :

(١) تجهيل الذين يتفقهون بدم التعصب والتهمك بهم

(٢) بيان معنى التعصب في اللغة وفي الاجتماع البشري

(٣) بيان كونه من الصفات والروابط البشرية النافعة التي لها وسط هو الكمال الذي لا يقوم أمر اجتماعي عام في تكوين الامة وحياتها بدونها — ولها طرفة افراط وتفريط كلاهما نقص ضار ، فالافراط فيه ما يحمل أصحابه على الدفاع عن الملتزمين معهم بلحمة العصبيّة بحق وبغير حق ، وعلى هضم حقوق غيرهم . والتفريط هو اهمال ما تدعو اليه من التعاون والتناصر على حفظ حقوقهم والدفاع عنهم الذي يفضي إلى اضمحلال الامة لعدوان غيرها عليها .

(٤) الرد على الذين يخصون التعصب الديني بالمقت والذم من الافرنج ومقلدتهم ، وبيان عدم الفرق بينه وبين التعصب للجنس في حقيقته وفائدته في حالة الاعتدال ، وفي ضرره في حالتي الافراط والتفريط

(٥) في سيرة المسلمين وتاريخهم في هذا التعصب واثبات كونهم أدنى الامم إلى الاعتدال والانصاف مع المخالفين لهم وشهادة التاريخ لهم بذلك

(٦) عناية الافرنج الطامعين في بلاد المسلمين ببيت الدعاية لتنفيرهم من العصبيّة الدينية لعلمهم أنها لا تكون إلا بالعقيدة فهم يزينون لهم « هجر هذه

أصله المقدسة وفصم حباها لينتصروا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً» — إلى أن قال « وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً ، فساعدتهم على التنفير من العصية الدينية بعد ما فقدوها ، ولم يستيدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبالغون في تعظيمها حقاً منهم وسفاهة . فقتلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيبء لنفسه مسكناً سواء فاضطر إلى الإقامة بالعراء معرضاً نفوا على الجو وما تصول به على حياته »

(٧) نصب الدول الاوربية الحباثل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها لاصطياد من يساعدها على سياستها هذه (قول) « ولم تعد صيداً من الامراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة استعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم » وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الالهواء الباطلة ، ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في ايمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويمجرون ^(١) في رمي المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصامهم ، ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم ويدي المارقين « الخ

(٨) بيان عصية الافرنج الدينية ومنها أن من قواعدهم الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، «واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد من على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صباحا وعويلا ، وهيمات ونبآت ، تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية ، وينادى جميعهم : ألا قد ألتلمة ، وحدثت حادثة مهمة ، فأجمعوا الامر ، وخذوا الالهة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثاها ، حتى لا تنتخذش الجامعة الدينية (وذكر أن دولهم تتفق على هذا مع اختلافهم فاعداه وتحاقدهم ثم قال)

« أما لو فاض طوفان الفتن وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في

الدين والمذهب فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتعافلون عنه ويذرونه وما يجرف ، حتى يأخذ مده الغاية من حده ، وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني الخ (أي لان الدين رابطة اجتماعية وسياسية فهو لا يتعصبون له من هذه الجهة) وضرب للمتدينين منهم مثلاً الوزير غلادستون رئيس أحرار الانكليز الذي لا تخلو خطبة من خطبه من نفثة من نفثات بطرس الناسك مضمرة نيران الحروب الصليبية وختم المقالة بوصية المسلمين بالاعتصام بالرابطة الدينية التي يجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي فتحفظ بها حياة الجميع المليئة مع العدل ورعاية الرابطة الوطنية والتزام أوامر الله « في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لأربابها وحسن المعاملة وإحكام في المنافع الوطنية بينهم وبين جيرانهم من أرباب الاديان المختلفة الذين لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحهم الخ » وبمباراة الامم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية »

مقالة القضاء والقدر^(١)

كانت الحاجة داعية الى هذه المقالة كما كانت داعية الى مقالة التعصب أو أشد . ذلك بأن الافرنج والمتفرنجين يزعمون ان عقيدة القضاء والقدر من العقائد الضارة التي كانت أهم الاسباب لضعف المسلمين وتخلفهم عنهم في الكسب والعلوم والفنون والملك والغلب ، لأنها تعطل المدارك وتقوى بجعل صاحبها ينتظر نيل كل مطالبه وحاجاته الشخصية والقومية من الله تعالى فيقدمه ذلك عن علو الهمة في العمل . والامر بضد ذلك فن هذه العقيدة تعلي الهمة ، وتنفخ في الانفس روح الشجاعة ، وتصفر عندها العظام ، وتهون عليها مصارعة الشدائد ، وانما

(١) نشرت في العدد السابع بتاريخ ٤ رجب ١٣٠١ اول مايو سنة ٨٨٤ «

العقيدة التي لها ذلك الأثر الرديء عقيدة الجبر وهي بدعة حدثت في الاسلام كما بين هذا في مقالة المقاتلة والموازنة بين الديانتين الاسلامية والمسيحية في طلب السيادة والاخذ باسباب المنعة والقوة الحرية .

فالغرض من هذه المقالة بيان حقيقة عقيدة القضاء والقدر والاستدلال على حقيقتها بالبرهان ، والفرق بينها وبين عقيدة الجبر ، ودحض شبهة من سوى بينهما ، وبيان ما كان للايمان بالقضاء والقدر من التأثير العظيم في رفعة المسلمين وعلو مكانتهم ، والدعوة الى سلوك سبيل الله فيها ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقامة الحجة على المسلمين الحاضرين المستضعفين ، بما كان من عظمة سلفهم الأعزة الغالبيين ليحيوا سنتهم ، ويبنوا بناءهم ، وقد وفيت هذه المقالة هذه المباحث حقها من البيان والتحقيق بما عجز عن مثله جميع العلماء المتقدمين والتأخرين ومما قاله في هذا :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر بقبه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام الممالك التي ترجف لها قلوب الاسود ، وتتشق منها صرائر النور ، هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكار والمقارعة الاحوال ، ويحلبها بحلي الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نصرة الحياة ، كل ذلك في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة

« الذي يعتقد ان الاجل محدود ، والرزق مكفول ، والاشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته . والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشديد المجد على حسب الأوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية » (وذكر ههنا بعض آيات القرآن في بعض الغزوات النبوية وقرنها وصف الفتوحات الاسلامية بمبارات خطائية شعرية ولكنها حقيقية ، ثم قال)

« بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهباء على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة

«هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسرون إلى الحدائق والرياض، وكانهم أخذوا لانفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما يحتاج إليه، لا يفترق النساء والاولاد عن الرجال والكحول إلا بجمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة، ولا تغشى الاولاد مهابة

«هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الاكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم، فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيخوا بروق سيوفهم ولحمان أسنهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم»

وختم المقالة بما ظهر من بوادر الرجاء في عودة المسلمين إلى ما كانوا عليها عند ما كانت تلك العقائد الاسلامية سليمة من مخالطة البدع لها، وطروء الوهن والزوال عليها: واستدل على ذلك بازدياد أنصار جمعية العروة الوثقى يوماً بعد يوم (وقال بعد الدعاء لها) ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقين عموماً، والمسلمين خصوصاً اهـ

مقالة الفضائل والرزائل

وأثرهما في الافراد والأمة (*)

عنوان هذه المقالة آية (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) والكلام فيها منتظم في سلك الدعاية بالحكمة، لاسلاك القضايا العلمية الفلسفية المحضة، فهو يصور للقاري تأثير الاخلاق في الافراد ويجعلها مع الشاعر مثلاً لتأثيرها في الأمم، وينتقل من الكلي الى الجزئي فيشرح ما كان من تأثير الفضائل الاسلامية في المسلمين، وما نالوا بها من الملك والعظمة العلمية والعملية، وما آل اليه أمرهم بـ

طراً على أخلاقهم ويصف الملاج له ، ومما ابتكره في تشبيه مكانة الفضائل من الأمة قوله بعد ذكر حياة الانسان الفردية والنوعية والقومية وتشبيه الفضائل في الأمة بقوى الحياة في الفرد المخصصة لكل حاسة وجارحة بوظيفة تؤديها لحياة البنية كلها قوله « وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير ، فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكواكب الاخرى ، وانتظم بها سيره بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الاكوان وبقائها - كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي الى الاجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي الى أن يأتي أمر الله » (ومما قاله في سوء تأثير الرذائل في إفساد الأمة بعد بيان سوء تأثيرها في إفساد الافراد قوله) :

« هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ، ونثرت أعضائها ، وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الامة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها في الاعمال بالقسر ، فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الارصاف (أي الرذائل التي ذكرها) ومنها الجبن والمهانة والفحش والبذاء الفاشية الآن) ولا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة

هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض أدلة للاجنبي عنهم ، يهدون السبيل للغالبيين الى النكالية بهم ، ويمكنون محالب المقاتلين من احشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً ، وكل جليل حقيراً » الخ وختم المقالة بالرجاء في هم العلماء الراسخين وغيرتهم أن يتداركوا ما عرض للمسلمين من الضعف في أخلاق دينهم واهمال فضائله ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلتهم ، ويوحد وجهتهم ... ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعد الحق — في قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

مقالة الوحدة الإسلامية (*)

عنوان هذه المقالة في العروة قوله تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا
 في شئ منه) وتذهب ربحكم (ويليه وصف لما بلغت دولة الاسلام وفتوحه في نشأته
 الاولى وبيان حدودها في خريته الارض ، وما كان فيها من العمران والعلوم
 و"علماء ، وما كان لها من الجيوش والاساطيل ، ويليه وصف لحلم في هذا
 العصر على كثرة عددهم وبيان سبب هذا الهبوط والسقوط والوهن ووصف علاجه
 وقد نوهنا بها في أول هذا البحث عند الكلام على بيان المراد من الجامعة
 الإسلامية وقلنا شاهداً منها

ومما قاله في هذا

« نعم يوجد للتقصير في انماء العلوم والضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف
 طلاب الملك فيهم ، لانا بينا أن لاجنسية المسلمين إلا في دينهم ، فتمدد الملكة عليهم
 كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلطين في جنس واحد ، مع تباين الاغراض
 وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وأهوا
 العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه
 شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصناعات فضلا عن
 التقصير في طلب مالم ينالوا منها ، والاعسار (١) دون الترقى في عوالياها ونشأ من هذا
 ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام وجلب تنازع
 الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فاهوا بأنفسهم عن تعرض
 الاجانب بالعدوان عليهم

« هذا كان من أسراء المسلمين مع ما فيه من الضرر والفادح عندما كانوا منفردين
 في ميادين الوغى لا يحاربهم فيها سواهم من الملل ، ولكن ضرب الفساد في نفوس
 أولئك الامراء بمرور الزمان ، ويمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فاقبلوا مع

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب

(١) الاعسار جمع عسر ككتف وهي الامور المتبسة المشككة

الهلوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بلقاب الامارة وأسماء السلطنة، وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفة وأطوار النفخة ونعمة العيش مدة من ازمان، واختاروا موالاة الاجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل « هذا الذي آباد مسلمي الاندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا اطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية، ودهورتها أمانيتهم الكاذبة في مهاوى الضعف والوهن، قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، هم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها، وأوقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفقرة في الاعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيها » ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهاكك على الخسائس، ما أشد ضررها، وما أسوأ أثرها، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الابعاد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم . ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السقاسف ؟ أفادتهم حمرة دائمة في الحياة، وشقاء أبدى بعد المات، وسوء ذكر لا تمحوه الايام

« أما وئزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بمأثم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العالمين منهم، تتعارفت أرواحهم، واثقلت آحاديهم، ولكن وأسفاً نخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير او ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي، هؤلاء هم الذين حوّلوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب . » الخ
(م ٤٢ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

مقالة الوحدة والسيادة ، أو الوفاق والقلب

عنوان هذه المقالة حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »
 قكلم فيها عن الوحدة والسيادة والطريق الموصل اليهما ، وما يرجي من علماء
 المسلمين من السير بهم في هذا الطريق ، أثبت فيها أن هذين الامرين هما السببان
 لنشأة الدول ، وبقاء الامم ، وانها يحصلان باحدى ثلاث علل : الضرورة
 أو الدين أو التربية والتعليم ، وأثبت أنها ركنان من أركان السياسة والاجتماع
 للملة الاسلامية فرضها الدين ، وجعل العقاب على إهمال هذه الفريضة خزي
 الدنيا وعذاب الآخرة . وأورد بعض النصوص على ذلك مع شرح كل ذلك
 بما لا يستغني مسلم عن تدبره

مقالة استعانة القامحين على الامم بأمرائها

وهي أخصر المقالات لما تقدم من بيان هذه الرزية في المقالات السابقة ،
 وينبغي لقاريء هذا الجزء اذا بلغ هذا الموضوع أن يرجع إلى الجزء الثاني فيقرأها
 فيه . وهي المقالة الحادية عشرة من مقالات العروة الوثقى (ص ٢٨٨ ج ٢ طبعة
 ثانية) وحسبنا ماخصناه وما أشرنا إلى موضوعه من تلك المقالات ، وانني أنصح
 لشبان المسلمين أن يطالعوها كلها ، ويكرروا ذلك حتى يتمكن من قلوبهم كل
 ما فيها ، فزادوا إيماناً وحكمة ، وعلماً وبلاغة ، وعلوا في الهمة ، وغيره على الامة ،
 واعتصاماً بحبل الملة .

ونعلموا أن كل ربح يربحه الانسان في الدنيا فهو دون ربح نفسه ، وكل
 خسارة يرهقه فهو دون خسران نفسه ، وانه انما يربح نفسه بتزكيتها وجعلها أهلاً
 لجلائل الاعمال ، التي تنال بها الامم معالي الآمال ، ويبلغ بها الافراد مقام السكالك



المسألة المصرية

بنيت سياسة جريدة العروة الوثقى في المسألة المصرية على ثلاثة أمور (أحدها) ان الدولة صاحبة الحق الرسمي في مصر هي الدولة العثمانية صاحبة السيادة المعترف بها من جميع الدول على هذا القطر (ثانيها) ان هذه المسألة من الامور الدولية التي تهتم جميع دول أوربة لما لها من المصالح المالية فيها ولان مصر الطريق البحري الاعظم الاقرب بين الشرق والغرب (ثالثها) ان في الدول العظمى دوايتين تنتين ترجى مساعدتهما لمصر وللدولة العثمانية على حمل الانكليز على الجلاء عن القطر المصري (أولاهما) فرنسة ذات المصالح المالية الكبرى فيه وذات النفوذ الادبي والسياسي الذي يبرز عليها زواله (والثانية) الروسية التي تعد الدولة البريطانية أقوى خصم لها في سياستها الشرقية ومقاصدها البحرية ،

فكانت مقالات العروة الوثقى في الدفاع عن مصر والسعي لانقاذها من الاحتلال الانكليزي تنحصر في خمس وسائل (١) تهيج مصر والهند والرأي الاسلامي العام عليها - (٢) حث الدولة العثمانية على السعي لاجراجها من طريق السياسة والقوة معا - (٣) محاولة إقناع فرنسة بمساعدة مصر والدولة على ذلك حفظا لمصالحها الاقتصادية ونفوذها السياسي والادبي - (٤) إغراء روسية بالزحف على الهند والاعتماد في ذلك على نفوذ الدولة العثمانية الديني هنالك باستمالتها اليها ، وعلى مساعدة دولتي الافغان و إيران على ذلك باتفاق يعقد بينها وبينهما إذا أمكن وإلا انفردت بالعمل . وهنالك أمر آخر عظيم الشأن ، وهو (٥) تعظيم خطر ادعاء محمد احمد السوداني للهدوية ، وما يتوقع من تأثيره في العالم الاسلامي كله وكان الغرض الاول من هذه الوسائل كلها إقناع الدولة الانكليزية نفسها بالجلاء عن مصر وتسليم حكومتها الى « اولي العزم من المصريين » والاعتماد على صداقتهم في حفظ طريق الهند (قنال السويس) وقد جاء في بعض مقالات العروة وصف الانكليز بانهم على طمعهم الشديد وصلابتهم براعون طبيعة العمران وتطور

الزمان . وأما إيقاد نيران الثورة عليهم في مصر وبلاد العرب والهند فهو الذي يلجأ اليه اذا تعذر الغرض الاول

وانني أذكر هنا بعض الشواهد في المسائل الاربع على إدماج بعضها في بعض ثم أذكر لدعوى المهدوية شواهد أخرى عتد الكلام على مسألة السودان التي هي فرع المسألة المصرية ، إذ كان للحكيم سياسة خاصة كما كان للانكليز سياسة خاصة فيها ، وأبدأ القول في المسألة الاولى بتلخيص مقالة في وصف حال مصر نشرت في العدد الاول من العروة في (سياسة انكلترة في الشرق) لما فيها من بيان مكانة مصر وما يرجى لها من الاستقبال المجيد وسبب طمع الدولة الانكليزية فيها ،

الوسيلة الاولى اثاره العالم الاسلامي

﴿مقدمة في ملخص وصف حالة مصر وسبب طمع الانكليز فيها﴾

مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الاول من القرن الماضي (الهجري) تعد من نوع حكومة الاشراف ويحسبها المؤرخون في تلك الاوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ، ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها ، وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طرز قديم كان معروفا في أغلب أنحاء المسكونة .

ثم أعجب الدهر فيها بغرائبه بعد ما فوضت أمورها لمحمد علي باشا فلم يمض قليل من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار الدنية ، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، تقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء ، وعد هذا التقدم السريع من عجائب الامور

هل كان في حسابان أحد أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجل من بعض قري الرومالي لم يتربع في دروس العلم ولم يجبل في مصانع السياسة إلا أن طبيعته

القطرية كانت فائضة بحب الحضارة ، وبث العلوم ، وتأسيس قواعد العمران ، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل اليه ؟

بلى ، كان هذا في الغيب وابرزه القدر الالهي ، ونالت مصر في عهد ذاك الرجل العظيم ، وعهد خلفائه من بعده ، ما كانت تقف دونه أفكار الناظرين : طرقت أبواب السعادة من كل وجه ، فتقدمت فيها الزراعة تقدماً غربياً ، واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة ، وتقاربت أنحاضها ، واتصلت أطرافها ، بما أنشئ فيها من سكك الحديد ، وخطوط التلغراف ، وتعارفت أهاليها ، وانتاف الجنوبي بالشمال ، والشرقي بالغربي ، وقوى فيهم معنى الاخوة الوطنية ، بعد أن كانوا لبعدا الشقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة ، وتواصلوا في المعاملات ، وتشاركوا في المنافع ، واعتدلت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، وارتفعت بذلك أصواتهم ، بعد ما جات فيه أفكارهم .

تفجرت من أرض مصر ينابيع العروة وعت بقاءها ، وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الاقطار الشرقية ، بل وصل مد نيلها إلى اقاصي البلاد الغربية ، وتوارد اليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان ، وما خاب لها قاصد ، ولا اخفق فيها سعي ساع ، فأثرى في مغانيبها الفقراء ، وعز بها الأذلاء ، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ، ومحط رجال الراجين من الشرقيين ، وكل وافد اليها يجد اهلاً خيراً من اهله ، وسكناً خيراً من سكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغربية ، حتى كان الداخل اليها يخجل له انه تحت برج بابل يوم تبلبلت اللسان

وساد بها الامن وعت الراحة ، وضارعت في كل أحوالها نوع ماعليه الممالك الاوربية العظيمة ، وكان التأمل في سيرها هذا يحكم حكماً بما لم يكن بعيداً من الواقع ، ان عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب او بعيد كرسي مدينة لاعظم الممالك الشرقية ، بل كان ذلك أمراً مقررّاً في أنفس جيقاتها من سكان

البلدان المتاخمة لها^(١) وهو أمالهم الفرد ، كلما ألم خطب أو عرض خطر ، غير ان الايام كانت حسرتها على ما منحتها ، فعثر العاقل ، وفرط ائناك ، واغتر المعجب ، وتهور الغبي ، وخار الافين ، فتقرب البعيد ، وبعد القريب ، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا في حواشي طوامير الاوهام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألمحت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها ، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف ، ففتحت للدسائس ابواب ، وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات ، فتفرق اتصال ، وتقطعت أوصال ، فضعفت السلطة الوازنة ، ونبتت الطاعة ، والتهبت نيران الفن

قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت في إعادة شأنها الاول إلى رأي قوم وعزم ثابت ، ووازع قوي تدين لسطوته النفوس . وان من ذوي الحقوق فيها من يجمع هذه الاوصاف وله من القلوب المسكنة العليا ، وكان يسهل عليه القيام بما يهداليه ، لكن تحكم طمع واخطأ ظن ، فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة

أسفقت دولة الانكليز على طريق الهند كما يقال او ظنت ان آن التقدم بعض خطوات قد آن ، فرأت ان اءدة الامن وثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتفريم وما شاكل ذلك ما لا حاجة لبيانها ، وعم بعض انواع الهون ، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد الا مسه ضربه ، ما خلا أشخاصا قلائل ، وهذه المهربات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لاشرافه على الخطر من وجه آخر ، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد .

السياسة المالية هي مرمى أنظار دول اوربا وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من

(١) يعني البلاد العربية ولم يصرح بذلك لانه يسوء الدولة العثمانية ، ومن الثابت انه لولا الاحتلال الانكليزي لانتهد النهضة المصرية بتأسيس دولة عربية كبرى تعيد الحضارة العربية سيرتها الاولى وما عرض لها من العناد باسراف اسماعيل وافن توفيق كان من المرجو تلافيه

الحقوق الاوربية؟ اليوم رزئت بالنقص في الايراد، وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات، ورميت بنفقات جيش الحلول وحرب السودان ومصاريف اخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات، وأي مصيبة على المالية أعظم من نوازها الحاضرة؟

عقد العزم على إلغاء الجيش الوطني وهو قوة البلاد وبه فخارها، وكأنه لم يوجد وسيلة لتنظيم عسكر مصري، وقصر الجهد عن مجارة محمد علي باشا، وأبراهيم باشا، اللذين دوا كثيراً من الاقطار بجود مصرية

(وبعد أن أطل في وصف حالة الحكومة وموظفيها ومالياتها والاهالي وقمرهم ومخاوفهم وارهاقهم بالضرائب وطرق تحصيلها بالقوة قال)

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية، والاخذ بالشبه وإن ضعفت، واتباع بواطل التهم وإن بعدت، او استحات، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه، وبلغ منها مبلغه، فلا ترى ماراً بطريق الا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعاق باثوابه شرطي يقوده إلى السجن، او يقتضي منه فداء، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة، وفي كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لبابه غشية، أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا؟

هذا ماتنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصري. هذا بعض ما يضيق به الصدر، وتنقبض له الانفس، مما رزثوا به بعد ماتكفل أحباؤهم الاولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضوية السابقة، هذه طلائع الاصلاح المبشر به من زمان بعيد على السنة رسله، أصبح الاهالي حيارى في أمورهم، تائهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحمل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الاوربية تسميه ضيقاً وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون اليه ويودون لو رجعوا اليه، ويحسبون غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التي هم فيها. الخ الخ

الشاهد الاول

في تحريض المصريين على الانكليز

(بعد اثبات ما يريدون من الاستيلاء على مصر)

ذهب الاستاذ محرر العروة الوثقى الى لندرة ولقي فيها كثيراً من رجال السياسة الرسميين كالوزراء وغير الرسميين كمحرري الصحف بمساعدة صديق مصر وصديقهم (مستر بلنت) وقد نشرت الجرائد الاوربية من انكليزية وغيرها بعض ما دار بينه وبين أولئك السياسيين من المناظرات ونشر في العدد الرابع عشر من العروة مقالة في ذلك ذكر فيها ما دار بينه وبين وزير الحربية البريطانية وما في ذلك من العبرة ولكن بلسان السيد مدير العروة وهذا نصها

هؤلاء رجال الانكليز وهذه أفكارهم

تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة مامسنا من ضعف في المزاج مع مصادقة رداء الهواء في البلاد الفرنسية في هذه الايام والحمد لله على زوال المانع . إلا أننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذي قننا به في المدافعة عن حقوق المسلمين فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ورجو من ديان السموات والارض أن نموت في هذه السبيل وأن نبعث في زمرة السالكين فيها رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الاول لهذه الجريدة) إلى لندرة اجابة لدعوة من يرجى منهم الخير المتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الانكليزية — وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي مامرت عليها قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه — وليسبر أغوار المطامع الانكليزية التي لا يدرك منتهاها — تلك المطامع التي بعد ما التهمت ثلث المسكونة ، وطوقت كرة الارض بالفتح والاستيلاء .

لم تنزل في مد لا جزر معه ، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في قمر شديد لا بتلاع ممالك العالم ، وكلما أساغوا قطراً طلبوا اليه آخر - ويستطلع خفايا المقاصد من أثناء الافكار وغضوض الاقوال - وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلوين ويتبين كيف يتمكنون من إبراز محاسن الاعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر اليها واطهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين ، حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص ، كي لا يقتدر الجاهل ولا يزل العالم .

لأق (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الانكليزية وأنفذ الناس رأياً فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الاحوال المصرية ، ومن محادثاته الابتدائية مانشر في بعض الجرائد الانكليزية كجريدة «البال مال غازيت» وجريدة «التروث» التي يحررها النائب الشهير (مستر لا بوشير) وجريدة «التيمس» وسيدكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الاكابر من رجال الحكومة الانكليزية مما يستفيد منه الشرقيون عموماً والمصريون خصوصاً . وستأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من غفوى أقوالهم وأدركه من مراحي أفكارهم .

أما الآن فنأتي على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنتون) وزير الحرية الانكليزية ليأخذ كل مصري منها حظه ، ويصيب كل شرقي سهمه ، ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار رجال الحكومة الانكليزية . سأل اللورد هرتنتون وزير الحرية الانكليزية : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية ؟ أو لا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الاتراك وفلان باشا وفلان باشا^(١) ؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) : كلا ان المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلاً ، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الانكليزي ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطباع الأمم أن يتصور هذا الميل في المصريين .

فقال الوزير: هل تذكر ان الجهالة عامة في اقطار مصر وان الكافة لا تفرق بين الحاكم الاجنبي والحاكم الوطني ، وان ما ذكرته من النفرة من سلطة الاجانب انما يكون في الأمم المهذبة ؟

فأخذت الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في أداء ما فرض الدين وأوجبه حقوق الملة وقال (أولاً) ان النفرة من ولاية الاجنبي ونبد الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر ، وليس بمحتاج الى الدرس والمطالعة ، وهو شعور انساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشا (كالزولوس) الذين لم تنسوا ما كابدهوه منهم في الدفاع عن أوطانهم .

(وثانياً) ان المسلمين مهما كانوا وعلى أي درجة وجدوا لا يصلون من الجهل الى الدرجة التي يتصورها الوزير ، فان الأميين منهم ومن لا يقرءون ولا يكتبون لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها وأظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفتهم فيه ، وان لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ في مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وان جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذره من الخضوع لمن لا يوافقهم ، ويحدث فيهم من الاحساسات الشريفة الانسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ما أودع في ذلك اللسان وهو لسان دينهم

(وثالثاً) ان أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد أوروبا ، وأخذ كل مصري نصيباً منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون . والاختبار العمومية توصلها اليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبيء الاخبار من القارئين ، فهذا أضافوا الى الشعور الطبيعي والتقليد الديني ، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي ، قوي بها الميلاق الاولان ولا أظنهم يخالفون في ذلك سائر الامم

أين العلماء الاذكياء ، أين الجملة الاغبياء ، أين الأتابة الاعلياء ، أين السفلة الادنياء ، يرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانجليزية؟

كل ذي شكل انساني وصورة بشرية يدرك ما وراء هذه الاسئلة وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة .

هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية يظن ان الجهل يبلغ من المسلمين عموما والمصريين خصوصا الى حد سلب عنهم كل احساس انساني ، وانهم في حضيض من الجهل لا يميزون فيه بين الغريب والقريب ، ولا بين العدو والحبيب هذا دليل على ان الانكليز (إلا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب) يعتقدون ان الأمم الشرقية والأمة المصرية في درجة الحيوانات السائمة ، والدواب الراحية ، لا تتألم إلا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية ، وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية ، ولا تعرف من شؤونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية ، فتألف راكبها والعامل عليها ومستخدمها في اي عمل من الاعمال الشاقة مادام يقدم لها طعاما وشرابا ، وانها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غذاءها وعشاءها ، وإن كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الاعمال ، فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها :

* ألا فاعجبوا *

ان كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية في الامم التي يتسلطون عليها فأني معاملة تكون لهم ؟ ألا يعاملونهم معاملة المجاوات والحيوانات الرتع ؟ بلى ، وهكذا يعاملون وهكذا تصرفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على ما يعملون ، فالمصريون الآن بين امرين أفضلهما أيسرهما : إما ان يتكاتفوا ويتضافروا ويبدلوا أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الانساني ومكانتهم العربية ، واداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون اليهم إلا كما ينظرون الى البغال والحمر ، وإن هموا بذلك وجدوا لهم من اخوانهم المسلمين أنصارا ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الامرين وإما ان ينسلخوا عن جميع الخصائص الانسانية ، ويخلعوا حلية الايمان ،

ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليجعلوا ناف العبودية على أعناقهم ، وإيقاسمو
الحيوانات في حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر
الامرين وأدناهما ، وما أظن مصريا يختاره لنفسه ، واثن اختاره (معاذ الله)
فسيذهب الله بهم ويورث الارض قوما آخرين ، فان الله غيور على دينه ، غيور
على العدل ، منتقم من الضالين ، وانا لله وانا اليه راجعون اه

الشاهد الثاني

(في تحريض العثمانيين والمصريين والهنود)

*)

الوهم

﴿ اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الاوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا
نضل ونشقى ﴾

ألا قاتل اللهم الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ،
وطوراً يكون ممثلاً للسرّات ، حاكياً للتمنّشات ، وهو في جميع أطواره حجاب
الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الارادة ، وحكم على
العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنقاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمّن مخافة ، والموئل مهاكاً ،
الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الوجود معدوماً ،
والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه
خبط المصروع ، لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلبس
النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهام ،
وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهمين إلى بقاء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل ،
لا يهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق

(*) مقالة نشرت في العدد ١٧ المؤرخ في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر

سنة ١٨٨٤)

كان الانكليز أمة مجتمعة القوى ، مستكلمة العدد ، مستعدة للفتوحات ، وذلك في زمان بليت فيه الامم الشرقية بتفرق الكلمة ، واختلاف الاهواء ، ورجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائهم وعواندهم ، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحراً أو كرامة ، فانتهر الانكليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه ، ومادهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الاوربية التي أثارت فيهم خواطر الاوهام ، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الانكليز من حبال الحيلة والمكر ، حتى خلّبوا قلوب المساكين وأذهلهم عما في أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم ؟ فسلّبو أموالهم ، وانتزعوا منهم اراضيهم ، وأجلّوهم عن أملاكهم ، فاستغنت الامة الانكليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفت بما ملكت ، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسمة على تلك الاقطار متوزعة فيها ، فلا ترى في كل إيلة من إيلائها الشرقية إلا نزرّاً من العدد والعدد ، وهي في جميعها ضعيفة واهنة ، لا تستطيع ذوداً ولا دفاعاً ، وإن أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالمرة ، وقد ظهر هذا الامر على أنفاس الامة الانكليزية ، فهي دائماً في رجفة على أملاكها ، في خيفة من تمزقها وضياعها ، تتوجس من كل حادثة في العالم ، وتقلق لاية حركة تحدث في الوجود ، وكل ملّة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة في قوى الانكليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الارحاء . ومع هذا كله نرى الامر لم يزل خفياً على الشرقيين ، محجوباً عنهم بمحجبات الوهم ، يمثل الوهم لكل شرقي أن الانكليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم مثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سباعاً ضارياً ومفترساً قوياً فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً ، أو يضل بعد ذلك عن العجادة وتشبه عليه مسالك الوصول إلى غايته ، ربما صادف مهلكة في ضلاله ومثلفة في غيه ،

بل لا نخطيء ان قلنا ان هذا الوهم كان متسائلا على الغربيين كما هو متسائلا على الشرقيين ، فالاوربيون كانوا ينظرون إلى انكلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة انكلترا متحصنة متمتعة في هذه القبة الوهمية ، مترتبة على عرش هذه العظمة الخيالية

بحسب الانكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما في ستره ولاستارها ككشف من الوهم ، ولهذا تراهم في كل حادثة يجلبون ويصبحون ويزأرون ليشيروا بالضوضاء هواجس الاوهام ، فتحول أنظار الناظرين ، وتعمش بصائر المستبصرين فتحول دون استطلاع الحقيقة ، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فيقوم قيامة الخراب على الانكليز

ذهب الانكليز إلى الهند في قوى مجتمعة وتسابقوا مع الفرنسيين وهولاندة والبرتغال في ميدان الاراضي الهندية الواسعة ، فجازوا في هذه المباراة قصب السبق ، بما امتازوا به من الدهاء والمكر ، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد او طيب قلوبهم ، فالت النفوس إلى الانكليز اغتراراً ، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئا فشيئا ، وما أبقوا غيرهم من الدول إلا مضايق من الارض لا تذكر ، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة ، قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندة وبرتغال) فانها تريد التسلط على ممالككم ، أما نحن (الانكليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم . ثم انا ترى للانكليز الآن في الهند الاصلية والهند الصينية والبرمان سلطة على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الانكليزية ، طالب للتخلص منها ، يفضل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم انه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلها مبلغ الانكليز ، ولا تصل إلى ما وصل اليه الانكليز في الكبرياء والجبروت ، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها ، وشدة ميالهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لا يوجد فيهم قوة تهرم على الخضوع لتلك الحكومة المفوضة إلا خمسون ألف جندي انكليزي ، مع انه

يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال ونخشي زوال ما بقي لها مالو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندي ، هديا فضلا عما يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الانكليزية وزال استقلالها بالمرّة ، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها بل عما هو موجود فيها ، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفاتكة القوة في قبضة قوم ضعاف ، يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمح اعتبار ، وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا إلى ضعف الانكليز في الحالة الحاضرة ، لرأوا موئلا الخلاص بين أيديهم ، وملجأ النجاة تحت أرجلهم ، وعلموا أن استنقاذهم لأنفسهم وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة . يوجد في الدول الاوربية من يهاب دولة الانكليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والامم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول وديس شأنها وقوتها في تلك الاطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها ولم يلتفت إلى أن جسم الانكليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم في بسط الارض حتى لم يبق لهم في موضع قوة ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه ، يترقبون في كل آن زحفا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين . لو التفتت تلك الدولة التي تهاب انكلترا إلى حقيقة الامر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الامر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر ، لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم .

ان العثمانيين ينظرون الى دولة الانكليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع ملاحظة ان دولة انكلترا تحكم على مائتين وخمسين مليوناً من النفوس فيظنون لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدبراً أنظارهم إلى ما وراء ذلك لينبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى

ميادين القتال ، ويتضح لهم ان هذه الملايين الكثيرة لا اعتداء بها في قوة دولة انكلترا ، فانما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها ، وهي في ارتكاب الفرص لخلع طاعتها ، فتمت ارتبكت دولة انكلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقاتل عساكر الانكليز ، خصوصاً خمسين مليوناً من المسلمين في حكومة انكلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذاً يلجئون اليه ، وهم أول قوم حربيين في البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون أن دولة انكلترا انما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها . أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الانكليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء لما حرموا مرارة الصبر على تحركات الانكليز وحيفهم في أعمالهم ، وتعدبهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية ، التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو اسلامية .

ان سكنت مصر كانوا أيام عرابي على قسمين : قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل باحد جانبيه إلى عرابي ، ويهاب بالجنب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ولا عزيمة مع الريب . والقسم الاول مخلص إلى الفشل ، فدخل الانكليز بلا حرب حقيقية ، نوع من الترهيب ، وقليل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس صادف قلوباً مستعدة فأخذ منها مقاما فأنحلت الرابطة وتفرق الناس عن عرابي بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانكليز يبتغون من البلاد شيئاً سوى أنهم يؤيدون توفيق باشا وينقذونه من التأثيرين عليه ، فتساهل المصريون في الامر بحسن ظنهم في حكومة الانكليز مع ما جاءتهم به من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية في أرضهم عن تصرفها ، بهذا فاز الانكليز واستقرت أقدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكفى لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم ، فلا يوجد من الاهالي المصريين من يميل إليهم بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عملاً لئلا لهم بولكن الوهم يحسم الخاف ويكبح العزيمة

انت أهالي مصر ذهلوا عن الاسباب التي مكنت الانكليز من بلادهم كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كفة واحدة في مدافعة الانكليز ثم تغلبت عليهم القوة الانكليزية وقهرتهم جميعاً . كأن المصريين نسوا ما كان بينهم، وان الانكليز مادخلوا بلادهم إلا بمعونتهم . هذا هو الوهم العجيب ان الذين كانوا من مدة سنتين سببا في تغلب العساكر الانكليزية وحلولها في وادي النيل ولولاهم ما استقر لها قدم فيه - يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الاهالي عموماً وإخضاعهم لحكومة بريطانيا، وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهاً، ويخارونهم في أهوائهم نفاقاً، هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانكليزية ليعلموا أن ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين ألف جندي ، ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الانكليزي بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانكليز وخارت عزائمهم والتجؤا الى ترك البلاد لاهلها ، ألا قاتل الله الوهم

ان للانكليز قوة بحرية لا تذكر ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن ، لا يمكن أن تعمل عملاً فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين ، فلو فرضنا أن الانكليز أطلقوا قنابرهم على السواحل فهل في استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابر إلى أبد الآبدين إذا كان الاهالي في داخل البلاد يناوؤونهم، وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة ؟ ليس في الامر شيء سوى الوهم ، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا ماهو الانكليز ؟ ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء ، صوت عال ، وشبح بال ، قامت الدول على معارضتهم لعلمها ان الانكليز صاروا للامم كالمدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية . لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بامورهم، ولا ينتقلوا من عبودية الى أخرى ، ولا يستبدلوا سيداً أجنبياً بسيد آخر ، اللهم ارفع عنا حجب الاوهام ، وهيء لنا الرشدين في أمورنا ، واحفظنا من الغواية ، واهدنا إلى خير نهاية اه

الشاهد الثالث

(في تحريرى مشترك بين الروس والعثمانين)

المسألة المصرية دولية*)

انا أنذرنا الانكليز خطراً قريباً على الهند ، ونبها في أول عدد صدر من جريدتنا على أن تفيؤ التركان في مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم وبما يحمل تركان سرخس على الاقتداء بهم ، وأشرنا الى مايتبع ذلك مما عاقبه نكال على الانكليز ، واليوم وقع ماتوقعناه فاستولت الروسية على سرخس وتاخنت بمجدودها حكومة الافغان ، وارتعدت فرائض الانكليز وغشيم الفزع والقلق ، واعولت جرائدهم نحياء ، ورددت نشيجا ، وأحست بقرب الاجل ، ولم يسكن روعهم ما ذكرته جريدة بطرسبرج الشبيهة بالرسمية من أن سرخس اسم مشترك بين مدينتين قديمة وحديثة وانما دخل في حوزة الروس أولاها ، فن الانكليز يعلمون أن المدينتين متصلتان لايفصلهما إلا ترعة صغيرة « نهر تجند » عرضها عشرة أذرع بالتقريب ، على أن سرخس - التي حكم مهندسو حرب الانكليز انها باب الهند من طرف الشمال ، وانها مرفأ بحيرة من زمان قديم ، ومن طريقها طرق الهند اسكندر الاكبر ونادر شاه الايراني ، وان وصول الروسية اليها مما يخرق سياج الهند - انما هي سرخس القديمة . ومما زاد الانكليز فزعاً واضطراباً أن التركان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعاً واختياراً ، وبعثوا وفداً منهم لينوب عنهم في عرض خضوعهم على البرنس دوندوكوف حاكم ماوراء بحر الخزر من الولايات الروسية ، ووصل الوفد الى عشق آباد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس اليها

وقع الانكليز الآن بين شرين عظيمين ، خطر عاجل ، وحتم آجل ، أما الثاني فهو أن الروسية اما أن تتحد مع الافغانين وتحالفهم على مطاردة الانكليز وهو

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤)

الأقرب المتوقع فتصير معهم يداً واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الانكليزية، وليس بخاف ما يضره كل أفغاني لكل انكليزي من الحق والضعف، والافغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيرهم، فكيف ان وجدوا مساعداً قويا . وإما أن تميل حكومة الافغان إلى الانكليز - وهو من فرض الحال - فما أسرع أن تنشب مقاتلات بين القبائل المختلفة ممن تحت حكومة الافغان مثل جمشيدي وفيروزكوهي وبين قبائل التركان المتاخمين لهم ويعقبها حرب بين الروسية والانكليز، لان كلا من الدولتين مضطر المدافعة عن حليفه، بل للروسية حق المناضلة عن رعاياها التركان، فاذا زحف الروس إلى الاراضي الافغانية تقطعت حبال حيل الانكليز، وامتنعت عليهم وسائل الدفاع، وهذا آخر حياتهم في الهند

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروسية على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة ياتمسون في أضواؤها طريقاً للخلاص من الضيق والضغط الذي شابههم، وسبباً للنجاة من الويل الذي جالته عليهم مظالم الانكليز . هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عند ما وصل الهنديين خبر استيلاء ناصر الدين شاه الابراقي على هرات، بل انتفاض الهند على الانكليز في هذه الايام اقرب، فان خواطر المسلمين من سكانه في هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد احمد السوداني، بل بما مكن في احوالهم من الميل إلى تصديقه، وان لهذه الدعوة حملة على الهند لا يقاومها تدبير دولة بريطانيا

تريد دولة انكلترا ان تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام في هذا العام وربما فيما بعده حتى لاتصل أخبار محمد احمد وتورط الانكليز في مقاومته الى مسامع الهنديين، ولكن سيحمل هذه الاخبار الى تلك الاقطار حجاج الافغانيين والبلوجيين الذين يسلكون الى الحج طريق البصرة والكويت بل يبلغونها الى اخوانهم، على وجه ابلغ مما لو سمعوها باذانهم .

هذا تأييد إلهي للدولة العثمانية فعلينا ان تنهض بعزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها في القلوب، وعلى السلطان العثماني ان يتذكر انه خاف لاولئك الاسلاف العظام الذين ما أضاعوا حقاً ولا أهملوا فرضاً، ويقتضي من الانكليز

حقه ويسترد مصر من ايديهم ويظهرها من جرائم الفساد، ولا يقنع بما دون الحق، ولا يدع لهم فيها شأنا إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول، ولا تفوتن العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذي سقط فيه الانكليز كمقاتلات الايرانيين الانتفاع بثورة الهند في الايام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم، والالكانوا أوقعوا بالانكليز ونالوا الغاية من ضرهم. على العثمانيين ان يتلافوا الامر قبل ان يشب الانكليز حربا صليبية بين الحبش والمسلمين على نفقة الحكومة المصرية. ليس للدولة العثمانية ان تنهاون في مطالبها او تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة، ولا ان تخشى في ذلك تهويل الانكليز وجلبتهم، فان كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالف الانكليز كما دلت عليه منشورات الجرائد ورواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة. بل الذي يفهم من جملة مقالاتهم انه لا توجد دولة من الدول ترضى بان يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الانكليز على مصر او وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس الخ

الشاهد الرابع

في دولية المسألة المصرية

وعقد المؤتمر الاوربي للبحث فيها

(أرادت انكثرة إلهاء أوربة عن مسألة احتلالها لمصر من الوجهتين السياسية والعسكرية فرغبت الى الدول الكبرى أن تمدد المؤتمر للنظر في المسألة المصرية وأمرت رجاءها المالي الكبير (المر بارنج) الذي صار لقبه بعد ذلك (لورد كرومر) أن يعد لها تقريراً عن مالية مصر تجعله شغل المؤتمر الشاغل عن غيره لما للدول من الهم الاكبر في مصالحهم المالية بمصر، ففعل - ولكن المؤتمر لم يشغله ذلك بل أراد طرق المسألة من سائر أبوابها ففشل

(وقد خاضت العروة الوثقى عباب هذه المسألة وكأخت جميع أمواجه، وسبحت في مختلف خالجاته، وأنشأت فيه عدت مقالات رئيسية تأتي على نبذ من بعضها، لئيل من كان من سياسها، وتصوير بلاغة محررها فيها

(جاء في فاتحة المقالة الرئيسية للعدد العاشر نمذة في تهويل امر المؤتمر وسياسة الانكليز وبسمارك ومطامح الدول الكبرى ومكاييد رجالها فيه هذا نصها :
 هذا ما سافت اليه الحوادث المصرية وهي مفتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلاقتها . العظام من الدول في يقظة لاسنة معها ، وحركة لاقتور فيها ، مفاوضات متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر ، ومجادلات متلاحقة ، يدأب فيها السياسيون من كل أمة ، بعضها بالمراسلة وشيء منها بالمشافهة ، كثرت خلوات السفراء من كل دولة مع نظار الخارجية من سواها ، يتهامون ويتغاضون ، ويسرون خلاف ما يعلنون ، ويذهبون إلى مالا يقصدون ، وقد حملق كل بصره للآخر لعله يلح من غضون وجهه ما ينبئ عن مضمرات سره ، ويصوب كل فكره إلى ما يريد الآخر من قوله ، عسى أن لا يفوته شيء مما ربما يعتل به ، وجل ما انصرفت اليه قواهم تمثيل الرغائب ، وتخيل المطامع ، في صور أبعدها عن الحقيقة أقربها إلى الخيال . يعظمون الحقير ، ويحقرون العظيم ، ويحسدون الوهوم ، ويضلون عن المعلوم ، ويقرّبون البعيد ، ويبعدون اقريب ، يذهب كل بصاحبه إلى رياض من الاماني باهرة الانوار بزهور الآمال ، وما نبت بهارها إلا على جبال من المكر ، وفخاخ من الخديعة ، حتى إذا راقه المنظر وخطأ خطوة سقط من حيث لا يشمر .
 هذا سهل صعباً ، والآخريو عر سهلاً ، وكل يتبع لحاظ رصيفه ، إذا أحس منه لحا لمقصده أبرز له الواناً من الفوائد الموهومة ليستلفته عن مرامه ، وإذا شعر منه بفكر بوصله الى ما يسمه ، فتح عليه أبواباً من الفزع ليزعجه عما يطلبه ، ويشوش عليه سيره ، ويقطع سبيل فكره ، منهم من يكسب الاصدقاء بمال غيره ، ومنهم من يستفيد الرقاء بكف شره

ومن الناس أقوام آخرون ، على غوارب أمواج الحوادث نائمون ، تقذفهم كريمة وتلقفهم أخرى وهم عنها غافلون ، زلزلت بهم الارض زلزالها ، ودهمتهم الخطوب بارزائها ، وتوالت عليهم المزعجات ، وتناولتهم عواصف المفزعات ، وهم في سكتة تخيل لناظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون ، والمقبل على الفوز من هؤلاء ، وأوائك انما هو أحزمهم رأياً وأثبتهم عزيمته ، وأشدم بشؤونه بصيرة .

يقول الانكليز انا عدونا على الهند من زمان طويل فاغتصبناه وحقت لنا الملكية عليه بما هو مقرر في شرائع القوة وقوانين التغلب . وأن ديارنا في بريطانيا من هذا الملك العظيم في شرقي آسيا ؟ المسافات طويلة ، والشقة بعيدة ، فلا بد أن يكون لنا في كل مكان موطن . لاقدامنا ، لنحتفظ باملا كنا ، فلنا حق في اغتصاب جل العالم لاجل الهند ، خصوصاً القطر المصري ، فان به السبيل التي لا يماثلها سبيل ، وليس لنا عنها غنى ، وكنا في تطلع اليها من زمن قديم ، وكثيراً ماتمسكنا بجمال من الوسائل اليها فرثت في ايدينا بقوة حكام تلك البلاد ، حتى هيأت لنا حوادث السفين الاخيرة ما أحلنا دارهم ، وأقرنا في قرارهم

انا ذهبنا لتقرير توفيق باشا وتثبيتته على كرسي الخديوية المصرية إلا أنه بقتال ونزال فلا تختلف صورته عن صورة الفتح فلنا حق التملك في تلك الاقطار وقد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية إقرار الراحة وإزالة الاختلال ، وكنا صرحنا بذلك عند عزمننا عليه ، لكن الغرض الحقيقي انما هو تأمين طريق الهند ، فتسنى لنا ما قصدنا بحلول عساكرنا في وادي النيل فثبتنا فيما أصبنا وليس لنا ان نتركه بعد الوصول . وحيث إننا عقدنا العزم على البقاء في مصر وأضربنا عن أختلافنا مناضمان الدينون المصرية وحملنا ثقل على كواهلنا ، فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة ، وتكون لنا عوناً على تنقيص الفوائد ، ولا نحب ان تكون مذكراتها معنا إلا في المالية خاصة فانه لا نرجو من مفاوضاتها فائدة الا فيها ، وأما سائر الشؤون فعليها تدبيرها ، والينا مصيرها . - هذه أقوال تصدر عن آمال يمدون أسبابها الى برلين ويرجون أن تكون مواصلها و . ما قدما في تلك المدينة عاصمة الالمان .

وأما البرنس بسمارك وهو مدير السياسة في أوروبا ويده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقاً وينبئ عدواً ، وليست له علائق سياسية تحمله على المدافعة عن مصر ، ولا منافسه له مع الانكليز تبعته على ما كسبهم ، بل له اليهم حاجة في ضمهم اليه وابعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لالحليف لها ، وقد تكون له من صلة الانكليز ما رُب أخرى سوى قطع فرنسا عن الحلفاء ينالها يوم الحاجة اليها وما هو عنه ببعيد ، فماذا يضره إذا أذخر عونا وأساء عدواً ، والنقطة على

تخزينه غيره؟ نعم ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا وإيطاليا لما لهم من المصالح في البحر الأبيض، ويصعب عليه أن يصيب بسياسته الجمع بين مرضاة أنكارتا لنيل مصافاتها وبين التمسك بعهوده مع ذوي حلفه، إلا أنه قد يسهل عليه التخص من هذا المضييق بالإشارة إلى طرابلس الغرب وبلاد الأرنؤوط (١) والأيما إلى الأراضي البلقانية وسلافيك (٢) ويجلوها لانظار معاهديه، فيسكن جأشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاته الدولتين، ويقلم أظفار الروسية من أوربا الشرقية، ويضع مصالح فرنسافي بلاد المشرق عموما ومصر خصوصا، وفي كل ذلك الربح له والخسارة على غيره، وليست هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها، فهي شرعته التي يرد إليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت .

وفرنسا واقعة بين مراوغات الانكليز ومكايد بسمارك . لها حقوق سابقة في البلاد المصرية كاد يمحى أثرها بمدخلة الانكليز، وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشأتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومداغسكرك . لهذا تبذل الجهد لاجلاء العساكر الانكليزية عن مصر وتخفيض سيطرة الانكليز فيها، ويوجد لها عون من دولة الروسية، ولها من المنفعة ما لو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوي العزيمة من رجالهم وميل افنديتهم لمسكنها من تخليص مصر وانزعاعها من ايدي الانكليز سعيًا في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها

وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الانكليز ومطاردتهم من بلادها ، فللدولة العثمانية أن تظهر عزمها في هذه الاوقات لتستنتذ ممالكها من طمع الطامعين، وتعيد ولايتها على الاقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين ، وان جميع المسلمين ينتظرون منها الخدق في هذه المسئلة ولهم فيها الامل القوي والثقة الكاملة ، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون ان ينالوا بها حظهم من الغنيمة ، وليس على الدولة من بأس اذا طالبت الانكليز ببرد حقوقها كافة ، فانهم بالنسبة اليها أضعف من ان يجاهروها بالعدوان

(١) كان هذان القطران مطامح مطامع ايطاليا (٢) كانت هذه امنية التمسك

وانا نكرر ما قلناه سابقا من ان الانكليز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانية حربا خصوصا في هذه الاوقات التي أصبحت فيها دولة الروسية متاخمة لمملكة الافغان، فان أول إشاعة لهذه الحرب توفد لهيب الثورة في عموم الممالك الهندية، وهذا جلي عند كل انكليزي

ان التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسئلة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب وليس للمصريين في طورهم هذا ان يركنوا إلى من ليس من ابناء جلدتهم، فان النعرة التي تحمل على الحمية تكاد ان تكون منحصرة بحكم الطبيعة في أبناء الوطن فلا ترجى من غيرهم، فعلى العقلاء من أهالي مصر أن يسارعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخليص بلادهم مستعنيين بأفكار الدول التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في انقاذها واعادة شأنها الاول وتحقيق ما يقال من أن (مصر للمصريين)

وبالجملة فالاطماع ففرت أفواهما، والافكار في اضطراب شديد، وظنون الناس شتى، فمن قائل ان المؤتمر لا ينعقد لتعسر الاتفاق بين فرنسا وانكلترا على القواعد الاساسية للمداولة فيه، ومن قائل انه ينعقد على ان يضع مصر تحت حماية عموم الدول، ويقرر انشاء مراقبة عمومية مع بقاء العساكر الانكليزية مدة سنتين، وعلى اي حال فلرزية انما تصيب الغافل، والسوء انما يحقق بالمنساهل، والجبان محروم من حقوقه، والعامل بيد غيره خاسر، فعلى المصريين والدولة العثمانية أن يظهرُوا الشهامة والاقدام، ويرفعوا علم الهمة ابقاء لحياهم، وصونا لشرفهم، والا سر الله يفعل ما يشاء اه

الحقيقة الناصعة في حلك الخيال الرائعة

(نبذة أخرى في تنمية أمر المؤتمر وحل مهامه بخدمة انكارة لفرنسة)

جاء في المقالة الرئيسية للعدد الثاني عشر ما نصه :

أصفت آذان الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية، لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الأوروبية، من يوم دعت انكلترا جميع الدول العظام للاجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية، إلا أنها منعت دون حجاب انكلتمان، وإنما كانت تصل إليها دندنة أو جلبة، أو غمغمة أو جمجمة، وكل حس يصلها يشير روا كدالواهام، فتبهج فيها غرائب الصور والاشكال، والمذاعون (١) من أرباب الجرائد في أوروبا وهم أشبه الداعين إلى الالاعيب والكوديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة، ويتنافسون في التمثيل والتصوير، للتغريب والتحويل، حتى أبرزوا الأرض في صورة السماء والسماء في صورة الأرض، خصوصاً فيما يتعلق بالمفاوضات التي كانت جارية بين وزارتي فرنسا وانكلترا، فكان يخيل للمتصفح جرائدهم أن البحار غاصت بالمرابك والدرعات يصادم بعضها بعضاً، وأن فضاء البر أعزل بالجيوش المتلاحمة لا يجد السالك من بينها سبيلاً، وتجسم الخيال لأرباب الاذهان الحادة فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع المساكين وطرق المصاولة، وجموع المتلاحمين تجول في أذهانهم ميمناً وشمالاً، ويموج بعضها في بعض، وكأنما كانت مخيلاتهم معرضاً لجيوش العالمين، وكأن في كل فوج داعياً، وفي كل قبيل منادياً، يقول حق هذا حق، فبيعات تتعالى، وزفرات تتصاعد، وإرغاء وإزباد، وتقطب في الوجوه وشرر في المناظر، وفي كل ذلك هول يأخذ بالالباب. والعارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حق قدرها كانوا يعتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحني الظهر،

(١) جمع مذاع بالتشديد وهو صيغة مباينة من مزرع (من باب نفع) اذا خبر بعض الامر ثم كتبه وقيل قطعه. ورجل مذاع متماق كذاب لا وفاء له والذي لا يكتم سرا

قد هوى بهامته إلى ركبته، يتوارى من الناس خجلاً بما ظهر من ضعفه وعجزه، وإن حكومة انكلترا ستعود بالحيلة (وإن أعدت فيالق من التهديد وجحافل من الارعاد) وتقوت هذه الاوهام بما يطنطن أرباب الجرائد، وولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة، وانبعثت رسل الافكار تجوس خلال الشؤون والاطوار، لتصل إلى شيء من هذه الاسرار، واجتمعت الارواح في الآذان، لعلها تسترق سمعاً عن تلك المداولات، وكنت كل نفس في مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الحجاب ما ينبئ عن الحقيقة أو يقربها من الفهم. والجميع واقفون وراء حجاب هذا الملعب الشائق، وبعد طول الانتظار، كشف الستار.

فاذا عائدة الانكليز جالسة في هيكل آمون ويدها تاج يحكي رأس الثور (تاج الفراعنة) متهيئة أن تضعه على رأسها، والموك العظام وقوف بين يديها مستعدون لتهنئتها، كأنما كانت هذه المفاوضات والمحادثات اعداداً وتجهيزاً لاجلاسها على كرسي ميناس الاول ورمسيس الأكبر « لاحول ولا قوة إلا بالله » قام رئيس النظار الفرنسي في مجلس النواب خطيباً لبيان الاتفاق الذي عقده مع وزارة انكلترا ليرى النواب فيه رايهم، وقبل ذكره أنفق ماله من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لاقناعهم بقبول ما اجراه، تلطف في الكلام وابدع، وصوب وصعد، واتى على ترغيب يشوبه ترهيب، وبأس يحوطه امل، وادرج في طي خطابه ان فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء، وبه نالت اشياء، واوماً إلى ان وزارته لو طلبت ازيد مما حصلت لادى الامر الى ممانعة الوزارة الانكليزية، وافضى الخلاف إلى انقلابها، وربما بخلفها وزارة تطمح إلى الاستيلاء على مصر.

وجاء في نطقه بما حرك الطباع ومال بالاسماع حيث قال : ينبغي للسياسي قبل ابرام حكم ان يلاحظ جميع أطرافه ولواحقه . فهذه الكلمة الرفيعة بددت في السامعين آمالاً، وظنوا ان المراقبة اشثائية قد اعيدت، أو تقرر اشتراك فرنسا مع انكلترا في الحلول العسكري، أو ابرم الحكم بخروج الانكليز من مصر. وبالجملة انهم فازوا فوزاً عظيماً، وبعد مقدمات طويلات بين الاتفاق قذا

هو بعد امعان النظر على هذا النحو ! ان الانكليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون ، وليس لنا ان نعارضهم ، فلا المراقبة الشائنة عادت ، ولا الاشتراك في التدخل العسكري أو النظر الاداري حصل ، ولا قررت حرية القتال على أصل ثابت ، ولا تحقق جلاء الانكليز على صورة قطعية ، ولا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين ، بل كما كان يلجأ اليه الانكليز عند نهاية العجز على حاشا اليه كثير من سياسيتهم . فانهبضت صدور النواب ، فلما رأى شدة تأثيرهم دفعة واحدة ، واحس منهم القنوط ، حاول احياء آمالهم بقوله انا سلكنا في اتفاقنا هذا مسلك سائر الدول ، ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الاتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف ، حتى يتقاربوا ويتعادلوا فيسهل اتفاقهم . الخ

[يقول مؤلف هذا التاريخ]

(هذا ما بينه الكاتب من عاقبة المؤتمر وخيبة فرنسة فيه ، ومحاولة رئيس وزارتها اقناع مجلس نوابها بتصويب ما فعلته وزارته ، وقد تقي على هذا بتخطئه وذكر دواته بما سبق من خداع الانكليز اياها في مسألة احتلال الهند واخراجها منها بخفي خنين ، أي كما خدعوها في أصل مسألة احتلال مصر ، ثم قال « والمستقبل أشبه بالماضي من الماء بالماء » فذكرنا بهذا كلمة قالها أستاذ التاريخ العام في المدرسة الحديوية في أواخر القرن الماضي وقد ذكر مثل هذا الخداع الذي عبث به انكلترة بفرنسة مرة بعد أخرى سنة بعد سنة ، فقال له أحد التلاميذ انك كنت قلت لنا في العام الماضي مثل ما نقول اليوم فكيف تتخذ فرنسة هكذا لها وتلدغ من الجحر الواحد مرتين ؟ قال الأستاذ الفرنسي : وهل انتهى هذا الخداع والانخداع مرتين ؟ كلا انها ستخذعنا في المستقبل أيضاً فتخذع !!

فلا تدر الحكيم الافغاني ، والامام المصري ، ما أبعد نظرهما ، وأدق علمهما بامور العالم ، وسنن الاجتماع في البشر ، وحقائق السياسة في الدول !!

وقد تقي على هذه المقالة بمقالة أخرى في بيان (الاتفاق) الذي عقد بين وزارتي خرنسة وانكلترة وتواطأنا على أن يكون موضوع البحث في المؤتمر وأشار إليه رئيس الوزارة الفرنسية وهذه خلاصته :

(المادة الاولى) أن يستمر الجيش الانكليزي في الاراضي المصرية الى أول يناير سنة ١٨٨٨ . (أي ثلاث سنين ونصف) ثم لا ينبغي عنها الا بعد انعقاد مؤتمر جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الاخلاء لا يضر بالنظام الداخلي بمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول . فان خالفت في ذلك دولة واحدة كان لانكلترا الخيار بين الجلاء والبقاء ؟

(المادة الثانية) إلغاء المراقبة الثابتة على أن يعرض عنها بتوسيع الساطة لصندوق الدين العمومي فيمنح مجلسه حق الاطلاع على نفقات الحكومة المصرية ويكون له حق الاعتراض على ما يزيد منه على المقرر في الميزانية من أول سنة ١٨٨٥ الخ

(المادة الثالثة) حياد مصر وحرية القنال

وقد بين في المقالة دخائل كل مادة من هذه المواد وعواقبها ، وسوء سياسة الوزارة الفرنسية فيها ، وكون هذا الأود والاعوجاج فيها لا يقيمه الاحمية الدولة العثمانية ، وحرص مجلس النواب الفرنسي على المصالح الفرنسية .

وقد صدق بذلك رأي العروة في الانكليز من أنهم يبلغون ما ربههم دائماً بالخداع والكيد ، لا بالقوة والايدي . فهي قد خدعت فرنسا وغيرها بالاجل القريب الذي ضربته لانهاء الاحتلال - وهو ثلاث سنين - من حيث وضعت للجلاء بعده شرطاً لا يمكن وقوعه الى يوم الدين ، وهو اتفاق الدول واجماعهن على أن الجلاء عن مصر لا يضر بالنظام الداخلي لها ، ولا بمصالح الدول المشتركة فيها ، ومتى اتفقت هذه الدول على رأي من الآراء وعمل من الاعمال ، في أمثال هذه المسألة التي تختلف فيها المصالح والاهواء ؟

ثم متى تكون هذه الدولة الداهية عاجزة عن استمالة دولة أو أكثر الى الخلاف في هذا ؟

الشاهد الخامس

في تحريض الدولة العثمانية (*)

الباب العالى والانكليز

يهم المسلمين في كل أرض أمر ما يجري في مصر بل تذهب نفوسهم حشرات كما رأوا أو سمعوا أن جندياً أجنبياً يجول في نواحيها مقاتلاً أو حامياً ، وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فإنها بهرة الاسلام وباب الحرمين الشريفين ، فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه ، والمسلمون في قلقهم هذا ينظرون الى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم في سماء سلطتها الحسية والمعنوية ، يرجون منها عزيمة ثابتة تنقذ بها الاراضي المصرية من تبويء الاعداء ، ويحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الامم ، وتصان بها ولاية الاسلام من السقوط في حبال هذه الدولة الداهية « دولة الانكليز » التي أخذت على نفسها أن تبديد ولاية هذا الدين وتحول حبله على نابله * هذا فضلاً عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ماسكتها على مصر ، فإن قضى فيها الامر لغيرها « والعياذ بالله » أصبحت حقوق العثمانيين في جميع ممالكهم معرضة للخطر * فهذه دولة الانكليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفاً لا يحس به عند بدنه ، ثم يذهب في البدن فيفسده ويبيله بدون أن يشعر المصاب بالالم ، هكذا شأن الانكليز في ايهم وتلفهم ، وحلاوة وعودهم ، وتملقهم وخضوعهم ، يسلبون المالك ما له بل الحي حياته ، وهو مأخوذ بما يشعوزون له . ولا ريب في أن الالهة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق والغرب ، فإن كل مسلم وله الحق يعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الاقطار .

إن الهنديين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون بها ، ويحسبون أنفسهم في عداد الامم التي لم تذهب سلطتها ، ويعتقدون أن لهم سلطاناً قوياً في الدولة العثمانية ، بل يرون أن خلاصهم

من قيد الرق الانكليزي لا بد أن يكون يوماً ما بسعيها ، وقد أظهرت أيام الحرب
 الاخيرة آثار لختهم معها بالاحمة المليية بما لم يبق ريبة لمرتاب في شدة صلتهم بها .
 لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية في هذه الازمان الاخيرة عند
 ما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة ، وتصارعوا في لمفاوضات والمجادلات
 محاماة عمالمهم في المصالح في مصر ، مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول
 بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة ارضاء لخواطر المسلمين عموماً ،
 واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها ، وحماية عن ممالكها أو أهم مملكة منهم ، إلى أن
 اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالي إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق
 بالاتفاق المتعقد بين فرنسا وانكلترا في المسألة المصرية أتى فيه على بيان العواقب
 السيئة التي تنشأ من طول مدة الحلل الانكليزي في مصر وأظهر أن مجرد تحديد
 المدة لا يكف الانكليز عن حرصهم ، ورغاية ما فيه أنه يستتبع مداعاة الدول والدولة
 العثمانية مع الانكليز ، وبرهن على أن بقاء العساكر الانكليزية في مصر ليس
 بضروري في حل المسئلة فان كانت الدول لا ترى في العساكر الاهلية كفاية
 لصيانة البلاد من الخلل فالباب العالي مستعد لارسال العساكر اليها على ما تقتضيه
 حقوقه فيها ، كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه ولكن حال دون
 الاجراء موانع سياسية . فان لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا
 المشكل فانه يعرض عليها أن يحل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين
 وفرنساويين وانكليز وايطاليين واسبانيين وإلى الدول تعيين الاجل في الوجهين
 وزاد الباب العالي في إعلانه هذا خدشا لخواطر الانكليز حيث قال ان الانكليز
 قد أنهوا أعمالهم في محو العصيان وثبتت سلطة الخديو الا أنهم لم يأتوا في تحسين
 حال مصر وتقوم نظامها الا بما فيه اجراء بعض مقاصدهم السابقة
 وانا نقول كما يهتف به كل مسلم إن من فروض الدولة العثمانية أن لاتدع
 وسيلة للذود عن مصر وكف يد الانكليز عنها ، وأن تكون همتها في ذلك كهمتها
 في الذود عن نفس الآستانة ، وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التي
 لاتعقب مطراً * ومن الحق أن نقول إن في مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا

ليت البلوري « بيت العظمة الانكليزية » بحجر واحد، فاذا اشتدت الازمة تيسر لهم السعي في الوثام بين الايرانيين والافغانين والبلوجيين ولا يكلفهم هذا إلا كبتين يستندان إلى أصل ديني قويم، وعندها يعرف الانكليز مقام أنفسهم في الاقطار الهندية ، والممالك المشرقية .

هل تسلط الانكليز في الاراضي الهندية الواسعة إلا بسبب المحاصمات المذهبية التي كانت بين الافغانين والاييرانيين ؟ ولو نظرنا اليها نظر التحقيق لما رأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق الكلمة ، ولا رية عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الامم أيسر شيء على الدولة العثمانية لما لها من المكانة العليا في نفوس المسلمين قاطبة . ولا يظن أن اعتصام الانكليز في جزائر بريطانيا والهند يقتصر بالعثمانيين عن النكاية بهم لانتقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك وانسداد مسالك بين الممالك العثمانية والانكليزية ، فإن الظن يخلف عند وجود الاتفاق بين الافغان والاييرانيين ، واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين

هذه طريق محجرة وبندر عباس إلى بلوستان مفتوحة للسالك، مطروقة السبل ، وهي الطريق التي سلكها أول جيش إسلامي بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند . ان هذه لجولة لو كانت لاثارت في وجوه الانكليز غيرة يضلون فيها عن رشادهم . ومعلوم أن الحي لا يسلم نفسه لموت بلا مدافعة مادام قادراً عليها . يكفي لقيام مليون من المقاتلة الافغانيين والبلوجيين تحرك خمسة آلاف عثماني الى أحيائهم .

لست أبالي أن أقول الحق : اذا حصل التساهل في أمر مصر افتتح باب المعامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة ، وعزت بعد هذا وسائل التلافي، فلتأت الدولة العثمانية على مافي الوسع ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم اه

الشاهد السادس

خاص بتنبيه الخديو توفيق باشا ورجاله دولته

(ان العروة الوثقى لم تكن ترجو من الخديو توفيق باشا أدنى عمل ولا أدنى مساعدة لمن يعمل ويسعى لجلاء الانكليز عن مصر وانما كانت تطالب بتسليم أمر البلاد الى أولي العزم فيها، ولكن وصلت اليها اخبار من مصر بأن الانكليز استولوا على قلبه، فصار يعتقد أن بيدهم أمر بقائه في منصبه، ومما أخافوه به إمكان ارجاع والده، وانهم استولوا بعض المصريين من المسيحيين وغيرهم الى مساعدتهم على تثبيت اقدامهم في مصر فكان هذا سببا لكتابة عدة تنبيهات منها مقالة عنوانها

(عمى بعض الناس في مصر او تعاميه عن مقاصد الانكليز فيها) (١)

قال في آخرها بعد شرح طويل في تصرف الانكليز في مصر وما يعملونه به :
هذه كلها تعاليت يزعمها الانكليز حجبا لما يسعون اليه من الاستعلاء على عرش السيادة في مصر وخط الرحال في حزونها وسهولها .

فلم يبق بعد هذا سوى ان ينتبه الغافل ويلتفت صاحب الامر الى ما يحف به ليحترس من هذا الكيد العظيم . ولا يعين الانكليز على مقاعدهم جهلهم او اغترارا بما يخيلون له من نفع يعود على شخصه او بلاده . سبحانه الله هل كان مثل هذا الامر يحتاج الى تنبيه ؟ هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق ، لانقيدهم التجارب ، ولا تربيتهم الحن ولا تعلمهم الحوادث ، ولا تدربهم النوازل . وتناوب الرزايا والمصائب . من له أدنى خبرة بسير الانكليز في ماضيهم . نو حاضرهم يعلم انهم يملكون البلاد بأيدي سكانها ، ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم .

يرى الامير الشرقي هذاني أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره، فيقع في نفس الشرك الذي صيد به جاره، مثل الاغنام يسوق الجزار منها واحداً بعد واحد الى المجزرة وسائر القطيع في غفلة عما يجري على آحاده يرعى ويرتع آمنًا مطمئناً حتى يفنى (١)

لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة اذا تغلبت عليها امة اشد منها قوة واكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح . وانما العار الذي لا يحويه كره الدهور ولا ينسيه تطاول الازمان ، هو ان تسعى الامة او احد رجالها او طائفة منهم لتمكين ايدي العدو من نواصبيهم ، اما غفلة عن شؤونهم ، او رغبة في نفع وقتي وجزاء تقدي على خيانتهم ، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية ، ونحمل عوامل الشهامة الاسلامية، ونوقد نيران الغيرة الجنسية ، لنخيب آمال الانكليز ونرد كيدهم في نحورهم ، وتقذف باولئك المغفلين الذين يميلون اليهم خارج تخوم هذه الحياة (٢) ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم ويدوقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون ، هذا اذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم الى الحق والصدق في محبة الاوطان ورعاية مصالحها ، فان تابوا وأصلحوا وتائبوا كان الحق ظهيرهم ، وكان الله وليهم ونصيرهم ، وهو نعم المولى ونعم النصير

(١) نظم هذا المعنى ابن دريد فقال في مقصورته الشهيرة :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلي فارتمى

اذا احس نأاة ربع وان تظلمت عنه نمدادى ولها

وهكذا شان البشر في حال الادبار والانحطاط الاجتماعي . روى المؤرخون ان رجلاً من التتار الحريين صادف مائة رجل في احد أزقة بغداد فذبحهم واحداً بعد آخر وهم ينظرون ! فم كانوا يخافون ؟ وهل بعد وراء هذا الذبح شيء يخاف منه ؟ انما مثال هؤلاء احقر واصل من الغنى لان الغنى لا تدري ما يدرون

(٢) هذا رأي السيد جمال الدين في الخائنين لاوطانهم بمساعدة الاجنبي عليها

لا علاج له عندم إلا القتل

الشاهد السابع

في سياسة دول أوربة في المسألة المصرية ومكان العثمانية والحكومة المصرية منها

سقوط المؤتمر وسياسة بسمارك فيه *)

حركات العقلاء على حسب المقاصد ومقدرة بقدرها ، وأولها بالاعتبار ما يصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شؤون الممالك على قواعد العقل وأصول الفكر . على رعاة الامم في كل مملكة أن يكونوا بمركز لكل حركة سياسية ، ويمرّق للنظر في غاياتها والتنقيح عما يبعث عليها . رب نهضة من سياسي عظيم تميدها الراسيات في كل دولة ، وتضطرب لها الروابط العامة بين أمة وأمة . فليس لحملك في السياسة أن يقصر نظره على ما عنده ، ويرد كل حادث سياسي إلى مارسم في مخيلته ، واعتقده موافقا لمصلحته ، فيضل عن الرشد بالقصور ، ويغيب عنه الصواب بالغرور ، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين في لوح الامكان ، ويتلوها في صفحات المنافع والمضار التي يحمل على جانبها أو يدعو إلى دفعها طابع الامم ، ولو ازم ملتهم ، ومواقع بلدانهم ، وعلائقهم مع من سواهم ، حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجواذب والدوافع حافظا لمداره ، واقيا لنظام سيره . يكون على غواضب أمواج الحوادث كالملاح الماهر ، يضرب بسفينته عروض البحار ، في أمن من الاخطار ، يستفيد حتى من العواصف ، وينجو حتى من القواصف .

كانت حكومة فرانسا أشد الدول في دفع انكسارها عن مطالبها المالية وهذه الشدة سقط المؤتمر ، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده في اجتماع القياصرة الثلاثة فاجتمعوا في (اسكيارنيا فيس) . ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول التحايرة ومعهم وزراؤهم ، رجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأي وبعد الغاية . هل كان هذا التلاقي لاطفاء لوعة الشوق وإجابة داعي المحبة الشخصية ؟ لا . هل كان كما

قاله بمض الجرائد للتداول في الوسائل التي يجب استكمالها لقهر الفوضويين ؟ كيف يكون هذا وليس أعوان الفوضى إلا كصوص تقمعهم السطوة الداخلية، ويكفي لسد أبواب الفرار في وجوههم مخبرات خفيفة بين أولئك الملوك كما هو الشأن في أمثالها من المسائل الجزئية . ماتقوله الجرائد من هذا القبيل انما يقصد به التعمية وصرف الاذهان عن النظر في الحقيقة

أي غرض عظيم دعاهم للاجتماع ؟ لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فان حكم المنافسة محافضة الايثار . قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك والبارون دو كورسيل سفير فرنسا في برلين . هل يريد البرنس بسمارك بهذا الاتفاق الامبراطوري أن يجعل فرنسا ركنا شديداً في معارضة انكلترا حتى يستحكم الشقاق وينفضي إلى حرب توهي القوة الفرنسية ويصيب منها ما يجب ؟ هذه قائدة خاصة بدولة الالمان لو قدرت على نيلها فاذا ينال الدولتين المنافستين لها من الاتفاق معها ؟ ويريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وتقطيب جراحها بتأييدها في رغباتها فتكون المصافاة بينهما وبين المانيا وتندى الاحقاد بينهما ؟ غاية لا تطالب والشأن فيها كسابقتها . هل يقصد البرنس بمجرد الانتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الالهانة التي لحقته في المؤتمر . ان كان هذا فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصي لا يمس المصلحة المشتركة . هل هذه الحركة الشديدة موجهة إلى ما يقصده بسمارك من التملك والفتوح في الشرق وإلى هذا القصد تنتهي ؟ أيصح أن يكون ذلك الامر الكبير وسيلة لهذا الغرض الخثير ؟ على أن انكلترا كانت أقرب إلى ألمانيا في هذه الوجهة وأجدر بأن يميل اليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية . هل أراد البرنس أن يخلل الروسية ويلهي فرنسا بالمسألة المصرية لتنام الاعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك ويوسنه إلى ماشاء الله ووسمت القوة ؟ شفقة في غير موضع، وصنعة في محل القطيعة . هل أحب البرنس أن يتمتع نظره بشهود الفتوحات فبعد ما فتح للنمسا بابا في الشرق من جهة هرسك رسم للروسية طريق هراة وقندهار، ومد لفرنسا خطا في حدود تونس وهو قرير العين بما يرى ويسمع من توسع هذه الدول في فتوحاتها وان لم تعد من ذلك

فائدة على الامة الالمانية ؟ شيء لا يأتي عليه الفكر ولا يصيبه النظر .

هذا ولا يصح لنا أن نقول إن الحلف العظيم بين القياصرة واهتمامهم بتأكيد الروابط بينهم لمجرد كفيد الانجليز عن مصر وابقاء فائدة الدين ومبلغ الاستهلاك على ما كانا عليه، وحفظ قانون المالية المصرية كما ظن مكاتب التان البرليني، قال ان في عزم البرنس بسمارك أن يؤيد الحجة الفرنسية بثبات شديد واردة صحيحة، وسيكون مع فرنسا بدأ واحدة في ابقاء الحالة المالية في مصر على ما كانت عليه، وفي زعم المكاتب أن هذا كان باعثا لسياسي انكسارا على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين المانيا والنمسا وبين فرنسا . فان المسئلة المصرية بمجرد ما ليست مما يدعو الى حملة عمومية اني أرى تحت هذا النقع جحافل أهوال ، ووراء هذا الغيم وابلات أرزاء ، أرى تنقلا قريبا في حدود الجغرافية السياسية ، وتغيراً عظيماً في الخطط الدولية ، واتقلا با في هيئة الروابط العمومية ، نعم قد يكون من المبادي، الاولى لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرنسا فانه لم يجد خيراً في مناوئتها زمنا طويلا ، وكما رام الوضع منها زادت علواً وارتفاعاً، فيريد أن يجرب صداقتها، كما جرب عداوتها ، وأن يدفع البرنس دولة الروسية الى آسيا فهو اسلم للدولتين الالمانيتين ، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولي وجهها وفيما تخلفه ورائها فائدة البرنس النقدية

(ثم قال بعد تقليب الآراء ما يأتي وهو ما أردناه من المقالة)

قضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التي هي جزء من أجزاء الدولة في مهب رياح مختلفة فعلها التيقظ التام والاحتراس الشديد كيلا يكون خسارها في استفاة غيرهما . اذا قامت الدولة بممل كما يليق بها حفظت حقوقها وصانت بقية ممالكها . الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة، والاخرق الغافل عرضة لكل خطر . الدول تطلب نكابة الانكليز من كل وجه فالذي يمنع الدولة العثمانية من مجارة الدول العظام وهي أفقرهن على الاضرار بهم، فانهم في بلادها يعيشون فيها مفسدين، وسكان البلاد لا ينتظرون الا خطوة من دولتهم اليهم، فيقيمون القيامة عليهم؟

الشاهد الثامن

(في تحريض المسلمين عامة والسلاطان والمصريين خاصة على الانكليز)

زلزال الانكليز في السودان^(*)

قلت الجرائد الانكليزية تلغرافاً ورد إلى جريدة الستندارد من دونقلا ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أياماً متواليات ومحصله : ان الالسن تلهج في مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الانكليزية بقدم جيش محمد أحمد والحديث مستفيض في جميع المعسكرات بأنه زاحف اليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء والآخر على شطوط النيل وأنهم لابد أن يلاقوا منه صدمة شديدة لا قبل لهم باحتمالها ، وقد استولى بذلك الاضطراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصاً عساكر مدير دونقلا لا خوفاً وفزعاً فقط ، ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا اليه من أن السلطان راض عن أعمال محمد أحمد بل صدرت منه التنبيهات إلى جميع المؤمنين في تلك الاطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الانكليز في منزلة العدو اللد وبقاوموم مقاومة الآيسين اهـ

كنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي في معاكسة سير الانكليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والامكان قياماً بما يوجب الدين والوطن ، ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطاني ، فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الارض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه ، بل توجهه في مدافعة الباغين عليه ، وتدعو كل ذي عقل لاخذ الحذر من حيل المحتالين ، والتوقي من الارواح الشريرة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور منها ما يخطف برونقه الظاهر لب الالباب ، ويذهب بهاؤه الصوري بنور الابصار ، وهي منابع الشر ومصادر الفساد ، ومهب رياح التلوث والاختلال .

(*) مقالة انتمرت في العدد ١٨ بتاريخ ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ - ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤

تلك أرواح الاجانب ونفوس الاباعد الذين يهتكون حرم البلاد، ويخفون شئون العباد، ويفسدون الحقوق، ويفسدون الاخلاق ويدلون النفوس المدافعة عن الوطن أمر طبيعي وفرض معاشي يكاف في دعوة الطبيعة اليه الميل إلى الطعام والشراب ، فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه . نعم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مرايا التواريخ عند ما يمر الناظر اليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تحوم الطبيعة ، وصيغت لهم هياكل من اللعن الابدئي، مسرلة بالخزي والعار السرمدي ، هكذا يعرف الشيء بضده

لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بضمن بخس أو بفير بخس (وكل من تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدما للعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر، وعلى أي وجه انقلب . القادر على فكر يبدية ، او تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الاعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن . من لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان . من سوف عمل اليوم إلى غد ، وتواني في تضليل كيد الاعداء بقول او فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة ، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الانبياء والمرسلين . وممقوت في نظر العالم أجمعين

ما أعظم جريمة الخيانة « المساهلة في شؤون الاوطان » يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه ، إلا وصمة الخيانة ، فلا تطوبها الادهار ، ولا يخفيها تطاول الاعصار ، محيت أسماء العظماء والملوك والساطين ولسكن لم تمح أسماء الخائنين . لوث على وجه الزمان ، ودرن في صفحة الامكان ، مكنته باللعنة محفوفة بالملت إلى أبد الآبدين ، لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مهمات دانت في الادراك تشعر بعظم جرمه فلترجع إلى موضوع كلامنا كسنا على يقين ولا نزال عليه ان الذات الشاهانية وهي الأب الاكبر لعموم المسلمين ، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين ، هي أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الاعداء في البلاد الاسلامية ، وهي لاثالو جهداً في تعويق سيرهم واحباط

أعمالهم ، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص
الامم في الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الاجنبية ، وانه لخرج
الصدر من أعمال الحكومة الانكليزية ، وعدوانها على الحقوق العثمانية والاسلامية
والمصرية ، بلغت غشمة الانكليز إلى حد لا يحتمل فليس من الغريب أن تضيق بها
للصدر ، وتفيض بالغيظ منها القلوب ، وتبلى منها دروع الصبر ، وتذوب سابقات الجلد
فيا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم
وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا : زحف العدو اليكم تحت راية
الحبة ثم قاب لكم ظهر الحن ، وتناول بيده الظالمه شؤونكم العامة من عسكرية ومالية
وإدارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئا إلا الحرمان من خدمة أوطانكم وأنتم أحق بها ،
وطالما دافعتم عنها في الايام السابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ،
ولم يمح القوى الداخلية ، يطلب استماله القلوب اليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف
به اذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعلامه ، وخلاله الجو من المعارضين ؟

ماذا ترجون من مطاولته ، وماذا تؤملون في إرخاء المنان له ، وماذا تهابون في
معارضته والاخذ على يده ؟ أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل ، فقد رأيتم انه
أفسد شؤونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرّم رجالكم من الخدم ، وأقر آلافا مؤلفة
من العائلات ، ووهب من بلادكم لاعدائكم ، وأضر بمنافعكم العامة من زراعة
وتجارة وصناعة ، فأغلق أبواب الكسب في وجوهكم ، وقصد إلى التدخل فيما يختص
بأمور دينكم (كالأوقاف) وعمد إلى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم ،
وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها ؟ فإذا نخشون منه ؟

هل نخشون ان تنقص أموالكم ونفقات كسبكم اذا أدبتم حقوق وطنكم ،

ودافعتم عدوكم ؟ ربما يحتاج هذا بخاطر بعضكم ، وهو من عجيب الخواطر ، أنتم واقعون
بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الاموال والثمرات ، وفاضت اللعبرات ، وزادت
الحسرات ، وإن زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خساراً ، وأوسعكم خراباً ودماراً ، ان
رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غني الا افتقر ، ولا عظيم الا احتقر ، وإن
شتم فأنظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم ، واقرأوا حالكم في توارخ من سبقكم .

هل تخشون اذا قتم بفروضكم أن يأتي الخطر على حياتكم؟ يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة. الدول متألبة عليه يترب منها في كل آن مطالبة بنتائج أعماله، ومحاسبته على عواقب تصرفه، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية. انه مسرع في سيره منطلق الى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قراراً مكيناً، ومقرراً أميناً، ولا يخفاكم ان المسرع في جريه يكبه على وجهه عثرة في مدره، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخذه طفيفة، أو تظاهرتهم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم وجهتم بذلك، لرأيتم أن ماء سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقفتم سيره، واستعلتكم بقوتكم على ضعفه، وأقمتم للدول حجة قوية في كبجه ورد جماحه، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، وتحويلها لسلطة تحفظها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوربا كافة، أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهي لمقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط بجيشه أعالي البلاد المصرية «لأناله الله ذلك» صعب بعد هذا تعريفه بقدره، وإيقافه عند حده، وضعفت حجة الدول في معارضته إن أقوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة واصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر، فلو تمكن عدوكم بسكونكم من اظهار قدرته، وإقامة الدليل على كفايته للولاية عليكم، فقد فاز بالسيادة فيكم، وأصبحت دماؤكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم في قبضة جورره في امكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في امكانه أن يضر بكم، فاذا مضى زمن انعكست القضية، وأصبحتم في عجز عن مقاوامة، وأصبح وفي يده عصى الجبروت لا ذلالكم، ان كنتم تخفون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بعد منكم؟ أليس يؤخذ منكم الا برأء بالشبه الباطلة وبهانون ويدالون، وكثير منهم يقولون؟ ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم، وحرركات دمائكم في أبدانكم، كأقل ويفعل باخوانكم في ديار غير دياركم، ثم لا يبقى على أحد منكم. فأنتم اليوم أصحاب أمركم، وهذا قصده اليكم، وفي امكانكم أن تستعينوا الله في اتحصن من خطر آجل،

بدون ضرر عاجل ، فان شئتم فارحموا أنفسكم ، والا فانتم ساقطون فيأمنه تخافون .
يا قوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محب حتى لعدوه ، والجبان
مبغض حتى لأبيه وأمه ؟ تعلمون انه ما عز قوم بالخضوع ، ولا استهين شعب بالاباء ،
لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عن سواكم ؟ أستم تتشابهون في الخلق مع
أعدائكم ؟ أستم يمتازون عنهم بالآيمان الصادق ؟ والعقائد الصحيحة ؟ أستم
تنسبون الى أولئك الابطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ؟ أستم تدعون
انكم أشرف عنصر ؟ وأكرم جوهر ؟ فان قتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر
مما يصيب أعداءكم ؟ ان كان الموت فهم يخشونه ، ان كان الخسار فهم يرهبونه ،
(انهم يألون كما تألمون . وترجون من الله مالا يرجون)

لأي شيء يخاطر عدوكم بحاله ودمه لا تغلب على ما ليس له ؛ ولأي سبب
لا تقدمون بشيء من شهادتكم في حفظ ما هو لكم ؟ ان هذا شيء سجاب . هل
نذكركم بقول شاعركم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يرق على جوانبه الدم
ليس هذا مقام التذكير ، وليس المكان مكان المباراة في المجد والمسابقة الى
معالي الامور . انما الكلام الآن في الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة ،
فان لم يستفزكم طلب العلاء وسمو الهمم ، فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر ، الذي
رايتم بوادره ، ونعوذ بالله ان تدرككم أواخره .

استغفر الله لا تزال ترجى فيكم النجدة والشمع والرفعة . لا يزال دينكم
يترقب منكم حمية عليه وغيره لدفع الغائلة عنه . ان صاحب الدين ﷺ ينتظر
فيما يعرض عليه ، من أعمالكم نهضة لاعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالف أعدائه ،
وان الله في عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم .
ويعلم الصابرين (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله * ولا تتبعوا خطوات الشيطان
انه لكم عدو مبين * ولا تمنوا ولا تمنحوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) اهـ

[المؤلف] هذه آخر ما نشر في العروة الوثقى ونشر قبلها مقالة كأنها نار
جهنم سميرا ، وتغيظا وزفيرا ، وحسبنا هذا النموذج التمثيلي ، لذلك العمل التاريخي .

مسألة السودان

وسياسة الحكيمين فيها

تقدم في ترجمة السيد جمال (ص ٢٨) إشارة إلى ما كان يقصده من العمل في السودان هذا نصها

« وأما مقصدي من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندرة أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال، فقد عظم أمر محمد احمد القائم بدعوى المهديّة بالسودان في نفوس الانكليز، وكان لها يدان فيما يرسل من مصر والسودان إلى انكلترة من الاخبار، حتى أقنما الحكومة الانكليزية باخلاء السودان وكتبت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حال دون امضائها إلا بحجيء البرق بذا وفاة محمد احمد » وقد كان لهما من المساعي في مسألة السودان ومهيّد السبل إلى العمل فيه بعد ترك

الدولة الانكليزية له مالا فائدة في بيانه . ومجدقاري . كتب الاستاذ الامام إلى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى اشارات في بعضها إلى بعض ذلك كما ترى في الرقيم ٦ من كتبه الاصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني) * اه
هذا ما كتبت في هذه المسألة عند البدء بتدوين هذا التاريخ عقب وفاة

الامام وكنت عازما على الاقتصار عليه لعدم الحرية التي كانت تسمح بالتوسع فيه، ثم بدا لي أن أزيد الآن فأقول : يرى القاري في فاتحة العروة الوثقى ان مسألة دعوى المهديّة في السودان كانت ركنا من الاركان التي يعتمد عليها الحكيمان في حل الانكليز على ترك السودان والخروج منه بما عظم من أمر هذه الدعوة وما كانا يتوقعان من استغلالها إذا استفحل أمرها، وقد تكرر في العروة الوثقى ذكر هذا الموضوع، واني أذكر هنا بعض الشواهد منها في ذلك لما فيها من الفوائد التاريخية والادبية وآيات البلاغة، ثم أوضح ما كنت أشرت اليه من ذلك السعي

(* هذا الرقيم للطبعة الاولى وقد نفذت نسخها وطبع طبعة ثانية يقع الرقيم

المذكور في ص ٥٥٥ منها

الشاهد الاول

في مقالة نشرت في العدد الاول الذي صدر في ٥١ جمادى الاولى سنة ١٣٠٩ (١٣ مارس سنة ١٨٨٤)

سياسة انكلترة في الشرق

هلع على مافي البيت فهرع لاجلاق الباب فاخلع المصراع وانتقض الجدار من ورائه هذا شأن دولة بريطانية في الهند وقبال السويس . قصارى بغيثها أن تكون حي آمن على هذا الباب ، وكان سهلا عليها أن تخلص النية في مسألة أرباب الولاية عليه فيقونه بارواحهم وأموالهم ، ثم هي تفوز بفوائده إلى الابد الا أن جيشان الاوهام ، وموحشات الاحلام ، دفعته المباشرة حمايته بنفسها ، فحذا الامر أصعب من أن ينال ، وأساس البيت أوهى من أن يدوم أرادت انكلترة بعد تبوئها أرض مصر أن تدخلها تحت حمايتها ، وأن تبدل العساكر الوطنية بانكليزية ، (١) وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة ، وحاولت في ذلك إرضاء المصريين بأنه صار من الضروريات لتنظيم أحوالهم ، وإقرار الراحة بينهم - وتسكين دوع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر ، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة ان تمت لولا بالدولة انكلترة من تقسيم الممالك التيمورية في الهند ، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها ، وكان هذا أكبر الاسباب وأصغرها لاستيلائها على الاقطار الهندية وانا للأسف على التفاوت بين الزمانين ، والتباين بين المكانين ، فلا الاحسان الانكليزي يسهل تسميمه ، ولا العثمانيون يستبشرون بنيهله ، وخطر الامرين غير يسير

(١) الفصيح في مثل هذا التركيب المشهور ان يقال : وأن تبدل العساكر الانكليزية بوطنية ، لأن الباء تدخل على المبدل منه لا على البديل كقوله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) ولكن جرى الاستاذ على تلميز المشتهر بين الناس وفي الجرائد

ظهرت دعوى المهدوية في السودان ، واشتد أزر القائمين بها بمسارعة الانكليز الى التدخل في مصر بحجة حفظ باب الهند ، وعظم خطب الداعي بعد ما أراق دماء غزيرة ، ودبت روح دعوته الى سواحل البحر الاحمر وحدود مصر الطبيعية ، وأمات القلوب اليه نفرتهم من الساطة الانكليزية

يقرب من الظن أن نفثاته مازجت أفئدة العرب في فيافي طرابلس أوقاربت وان هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتيانه لاتلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء . وعند ذلك يسمي باب الهند بين أسنة النيران من ثلاث جهات . أيبعد عند العقل وبريطانية لاهية بانقاذ الباب أن تتقد النيران في البيت ؟ الخ [المؤلف] ذكر بعد هذا في المقالة شيء من عمل غوردون في السودان وبقيتها إنذار بزحف الجيوش الروسية على الهند ، ورسم طريق الزحف من الشمال وذكر اقباله التي في هذا الطريق ومذاهبها وأساليب استمالتها وقد تقدم بيان هذا في محله

الشاهد الثاني

انتصار السودانين على الجيوش الانكليزية *)

وتأثيره في ضعف هيبتهم الوهمية

أشدها كانت هيبة لانكليز وملكتهما على قلوب الشرقيين قبل تكتيب الكتاب وعقد الالوية وسوق المسكر لمقاتلة عثمان دجه على أميال من سواحل البحر الاحمر كان يخيل للسودانيين بل يلبس اعتقادهم أن القوة الانكليزية مما فوق الطبيعة ، وعن مثلها تصدر خوارق العادات ، وكان من ظنون الشرقيين في أقطار آخر ان غرائب القدرة البريطانية بلغت مبالغ السحر ، تدهش الالباب وتحير العقول ، واذا خلع في صدر أمة صغيرة او كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغالبها على حق ، او تناوئها في مرغوب ، انشقت الارض وانفطرت السماء.

(*) ماخص المقالة الافتاحية لامدد الرابع والعنوان لنا

عن كآة من الانكليز يصبون عليها أسواط العذاب ، ويذيقونها ألم الوبال ، ويخلمون الارواح من الابدان ، خصوصاً اذا كان مغالبوهم لا يحملون من السلاح إلا نوعاً من الصنع القديم مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مدافعة بعض إلا ان هذه الدولة العظيمة ألجأتها حوادث السودان ان تسوق جيشاً للايقاع ببعض العرب في نواحي سواكن فتحركت الجيوش المنظمة لملاقاة عثمان ورجاله ، وبنى القواد في الزحف قلاعاً (مربعات) من المسكر الباسلة مدرعة بلؤام^(١) من حراب البنادق (السنج) مسيجة بالآلات الجديدة من صنع رمنتون وهنري مارتين على اجود طراز يكون منه ، وحصنها ببراج من المدافع لاندانيها من سكان تلك القفار قوة ، ولا تسمو اليها منهم قدرة

لكن قوة اليقين أو تحكم الجمل دفع على الصنوف الانكليزية جماعة من عراة العرب وحفاتهم ، فهدموا قلاعها ، ونقضوا بنيانها ، وقوضوا أبراجها ، وبعد تدافع وتصادم ، وتقدم وتأخر في موقعتين عظيمتين كره الانكليز إلى سواكن (ساحل البحر) وأخلوا ساحات القتال ، وتقهقر العرب إلى الجبال ، وعج الانكليز « غلبنا وانتقمنا » !

ماذا أثرت هذه الغلبة المعجية في نفوس السودانيين ؟ ثبتت أقدامهم ، وقوت جاشهم ، وجمت كلمتهم ، وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب ، فجمعوا قوام واستعدوا للقتال مرة ثالثة ، فحرموا لسوء البخت أو حسن الحظ من ملاقاته خصومهم ، لان شدة الحركات من أعدائهم — إلى أن قال —

وما حل بقور دون قد أسقط من شأن الانكليز وقوتها في أقطار السودان عموماً وجعل كلمتها هي السفلى وبعث على الاعتقاد بأنه إحدى كرامات محمد احمد ولا حول ولا قوة إلا بالله

خطب يعقوب خطباً ، وكرب يحدث كرباً ، هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار ، وشف بها الحجاب ، وأحدثت هزة في قلوب الهنديين ، فكشروا

(١) اللؤام كغراب هي التي يلائم بعضها بعضاً من قولهم سهم لأم : لا ريش لؤام أي متلعة بطن كل قذة منها إلى ظهر الأخرى. استعمله في الحراب بدل السهام

النوابون والرجوات^(١) عن أنبياهم ، ومدوا سواعدهم ينظرون إلام تطول ، ويراجع كل واحد نفسه ويمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد ، ويملح الفرص من خلال هذه الحوادث

انتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيش الانكليزية من مصيبة (هكس) إلى مابعدھا في جميع ارجاء الهند ، وترى الناس زرافات وفرادی يتناجون في هذه المسألة ، ويرجعون على أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل ، وهم على رغبة من الامل ، يستطلعون سوانح الفرص ، خصوصاً المسلمين منهم - كما أنبأنا به الرسائل الواردة الينا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية ، ونظن ان الدولة الانكليزية وعماد قوتها الايهام والتغريز يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الاولى في نفوس الشرقيين

(وهنا حرض الدولة العثمانية على الاخذ بالحزم وقوة العزم في مسألة مصر والسودان ودين لها ان هؤلاء الانكليز الذين لا يعاملونها إلا بالتهديد والارهاب لنيل أغراضهم لا يمكن أن يشهروا عليها حربالما يعلمون من محبة مسلمي الهند لصاحب السطة الاسلامية ويوقنون بان ذلك مقوض لسلطتهم في الهند لأول وهلة ثم قال) الاعتقاد بمحمد احمد أخذ سييلا الى قلوب الهنديين حتى كتب الينا أحد أصدقائنا في لاهور : ان محمد احمد لو كان دجالاً لا وجبت علينا الضرورة ان نعتقه مهدياً ، وأن لانفرط في شيء مما يؤيده (ثم ختم المقالة بالنصيحة المرادة منها فقال) فما آخر الحيل ؟ أيكتمنى بحفظ القتال مع ترك الفتنة يسري لھيها إلى مصر العليا بل إلى السفلى ؟ اني أخشى كما يخشى العقلاء من شيع هذه الدعوى وكثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضرر بدولة انكلترة وبكل من له حق في مصر ، فعلى الانكليز كما نصحنس مراراً أن يصونوا بلادهم ويحفظوا طريق الهند بتفويض الامر إلى العثمانيين وأولي العزم من المصريين قبل فوات الوقت - وإلى الله ترجع الامور اه

الشاهد الثالث

*) أمانى انكسرة في حركات محمد احمد

صرح اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات بان المقاومة الشديدة التي لاقوها من قبائل العرب ورئيسهم عثمان في سواحل البحر الاحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة في تمكين سلطة محمد احمد في البلاد السودانية يريد من هذا انه لم يحملهم على الثبات والتمسك على الموت عدوانهم للاتكثير ولا طمعهم في توسيع الفتح وانما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد احمد في السودان خاصة . وهذا من اللورد إما غفلة أو تغافل عن لواحق دعوى المهذوية بل لوازمها التي لا تنفك عنها ، فان القائم بهذه الدعوى لا يقف في سبيله عند غاية ، ولا يقنع بملك ، وانما يريد بسط دعوته في أقطار العالم ، وأخياء الاوامر الالهية التي جاء بها صاحب شريعته الذي يدعي النياية عنه في تبليغها وصيانتها في نفوس الناس كافة ، وسواء كان صادقا في دعواه أو كاذبا . فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة في بقعة من بقاع الارض سودانا كان أو مصر أو غيرها من البلدان إلا يتقدمه الى ما وراءها ، حتى يعلي كلمة دينه ، ويرد الى الحق من انحرف عنه ، ويكون له التصرف التام في قلوب المسلمين ، يأخذ منها مكانا عليا يشرف منه على مطامح دعواه في غيرهم من الامم ، وسواء يسر الله له النجاح في ذلك أو باء بضده ، هذا لا كلام لنا فيه الآن . ولكننا نتكلم في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة ، وبعد الوقوف على ما ينشأ من النظر قول اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات ان حكومته لم يرد لها خبر بحملها على الظن باستعداد محمد احمد لقبول إمارة كوردان والاكتفاء بها ولا يعلم هل قبول محمد احمد لتلك الولاية يكون حجابا بينه وبين التقدم الى سواها ، فقد علمت أن محمد احمد لم يتم بدعوى الملك ، ولا طالب حقا له في الامارة كان

(*) مقالة وجيزة نشرت في الممد الرابع أيضاً

يرثه عن آبائه وانما قام بدعوى لانهاية لاطرافها إلا عند حدود السطوة الاسلامية فليس يكافي. قوة دعوة اسلامية إلا عزم اسلامي . ولن يكافح هذا المدعي ويرده الى قدره إلا رجال مسلمون . يدافعون الدعوى بما يقوى على اضعافها أو محوها . فان لم يرد لحكومة اللورد خبر الى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده في المستقبل ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنقيض ماتوهمه نسأل الله حسن العاقبة بعد تحرير هذه الاحرف جاءت الاخبار مصدقة لما قلنا ففي تلغراف من مكاتب التيمس في خرطوم أن ثلاثة دراويش جاؤا مرسلين من قبل محمد احمد الى الجنرال كوردون وأرجعوا اليه علامات الشرف التي كان يبعث بها الى مرسلهم . وبلغوه أن محمد احمد يرفض لقب أمير كوردفان وينصح الجنرال أن يدخل في دين الاسلام فهو خير له

الشاهد الرابع

(في مقالة عنوانها (السودان) نشرت في آخر العدد السابع الذي صدر في ٤

رجب (أول مايو)

(بنيت هذه المقالة على أخبار تواترت ونشرتها الجرائد الانكليزية والفرنسية بقرب سقوط مدينة بربر في يد محمد احمد وشروع حاكمها المصري في اخلائها، وانضمام بعض المساكر المصرية المنظمة الى محمد احمد - وسريان الثورة في جميع القبائل وأهالي البلاد فيما وراء بربر، وعدم امكان الانكليز من ارسال جيش انكليزي الى السودان إلا بعد أربعة أشهر مع عدم رضام بارسال جيش مصري ... ووصول مكاتبات إلى ضباط الحامية المصرية في أسوان من زعماء الثورة ينذرونهم بها اخلاء المدينة . . . وقول جريدة الطان : اذا اجتمعت قوة محمد احمد عند الشلالة الاولى فلا بد حينئذ أن ينظر في كيفية الدفاع عن القاهرة ثم ختم هذه المقالة بما أودع مثله في غصونها فقال)

هذا الذي كنا نتوقه ونخشاه من قبل وأشرنا اليه مراراً جلته الحوادث

ونظقت به الجرائد الفرنسية والانكليزية ، ولم يبق إلا التفات تلك الجرائد الى دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذي كاد يكون عضالاً ، وتنبه حكوماتها للنظر في ذلك بعين الدقة والتبصر ، وترشدها الى أن العلاج الذي ليس وراءه علاج ، إنما هو تسليم الامر لدوي الحق فيه والعارفين بطريقه من المسلمين ، وسنراها بعد أيام تتبع السبيل المستقيم اه

الشاهد الخامس

(في مقالة نشرت في العدد العاشر الذي صدر في ١٠ شعبان (٥ يونيه) بعد استيلاء السودانين على بربر تختصرها بما يلي) :

السودان ومصر

نشرت جريدة (البوسفور اجبسيان) التي تطبع في القاهرة خبراً ذكره توفيق باشا نفسه وهو ان الجنرال (غوردون) توعد حكومته الانكليزية بانها إن لم تحده بجيش يتقدم من الضيق الملم به فانه يرفض الدين المسيحي ويدخل في دين الاسلام ، وضمنت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالعجيب)

وغرابة الخبر إن كانت من جهة انه تهديد بما لا يهم الحكومة فنحن نعلم أن الانكليز يفرغهم خروج أحد منهم عن دينهم ، وإن كانوا يرشدون الناس الى ترك الدين ويعيرون على المستمسكين به ، ولكنهم أشد الناس تعصبا فيه فلا محل للغرابة — وإن كانت من جهة ان غوردون وهو من أشد قومه تمسكا بدينه كيف ينجح "الاسلام" فهو انكليزي الطبيعة كما هو انكليزي الجنس ، يتلون ظاهره بأبي لون ويرز في أي ثوب لاصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع الله على قلبه فلا عجب ان قال وفعل ^(١)

(١) ليعتبر الفارسي بانقلاب الحال فان الانكليز يدعون في هذه السنين الى تغيير السودانين احياء لذكرى غوردون ويتخذون جميع الوسائل له

(نم قال) جاء الخبر ان أهالي جرجا في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة وورد الى تلك المدينة رجل من أشياخ محمد احمد قادما من القاهرة ودعا الاهالي للأخذ بطريقته فاذا بينهم جم غفير يحيب داعيه ، ويذهب مذهبه، وهو مما يدل على ان القائم السوداني مهم بنشر دعوته ، محتاط لنفسه حاذق في عمله ، وله دعاة في ارجاء الديار المصرية حتى في عاصمتها (القاهرة) فان ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشدد الخطب ، ولربما صار له بقوة ميل الاهالي اليه منعة يصعب على حكومة غير اسلامية أن تقارعها أما ما ذيل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها وبين المسيحيين فهو مالا نصدقه ولا ينطبق على الواقع ، لان الايام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين ذمام الآخر في جميع الاحوال التي عرضت على بلاد مصر . المسلمون والمسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها . والمقاتل التي وقعت أيام الحرب النقصية انما كان منشؤها افساد الفسدين ، على انه لم يمس فيها قبلي بسوء . والاخبار الصحيحة تؤيد ما نقول

الشاهد السادس

(من مقالة افتتاحية نشرت في العدد الثالث عشر)

(موضوع هذه المقالة الطويلة اثبات عزم الانكليز على امتلاك مصر وتحرير الدولة العثمانية على القيام بما يجب عليها من العمل لاجراجهم منها . ومما جاء فيها بشأن مهدي السودان مانصه)

وليس من المبالغة أن نقول إن حلول الجيش الانكليزي كان وسيكون من أعظم الاسباب لقوة محمد احمد ، ولولا وجود العساكر الانكليزية في مصر لما تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة ، ولقد كان يتبرأ من نسبتها اليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين ، بل ما كان يجد أحداً يباي دعوته ، أو يدخل تحت رايته

هذه تواريخ الامم وهذا سير طيعة الكائنات ترشد المستبصرين الى ان مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة إلا عند اشتداد الخطوب عليها ، وزحف الغرباء اليها أي حجة لمحمد احمد في دعوة الناس اليه ؟ وأي نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول ان الانكليز من نيتهم الاستيلاء على أرض مصر وهي في عداد الاراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ، ودعامة القوة الاسلامية ، فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعي الله في مدافعتهم . واقاذ البلاد من رجسهم ؟ وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء

هل يتوهم بعد سقوط خرطوم وجيش الانكليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد احمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم انه منقذ المسلمين ؟ هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق^(١) شعنته إلى أقطار اسلامية يخشى الانكليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند ؟

قد نرى الحالة أقرب الى المخافة منها الى الامن ، وسيعلم الانكليز انهم أحوج الناس الى السلم ، وأفقرهم الى اقتناعه أي قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار ، بل تردها على قائلها وتذهب بها كأن لم ينطق بها لسان ، أو يذعن لها جنان ؟ ليس لقوة أن تأتي بهذا الاثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين ، وأولي العزم من المصريين اه المراد منه

﴿يضاح غرض الحكيمين من سياستهما في مسألة السودان﴾

بيننا أنه كان للحكيمين غرضان من سياستهما في المسألة المصرية والمسألة السودانية كما أنه كان للانكليز غرضان فيهما . أما غرض الانكليز الاكبر فهو امتلاك مصر والسودان معا والتوسل بذلك إلى امتلاك شطر افريقية الشرقي من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح ، فان تعذر ذلك واضطروا إلى ترك مصر اكتفوا باخذ

السودان وحده وهو الغرض الآخر ، وانتظروا الفرص لجعله وسيلة لاخذ مصر
وأما غرض الحكيمين الاول فهو اخراجهم من مصر والسودان معا بما شرحتاه
من الوسائل لذلك ، والسعي أخيرا الى اقناعهم بترك السودان بتكبير شأن
دعوى محمد احمد للهدوية ، حتى اذا تعذر ذلك وتم لها هذا ذهابا إلى السودان خفية
ونظما فيه قوة محمد احمد توسلا إلى انقاذ مصر بها ، وتأسيس دولة قوية يعتز بها
الاسلام والشرق ، وتتحرر شعوبهما من الرق

وقد قلنا انهما كانا قد وقتلا لاقتناع الدولة البريطانية بسحب جيوشها من
السودان وتركه لاهله ، وانه ماحال دون تنفيذ ذلك الاموت محمد احمد ، وأشرنا
الى ترك الاستاذ لأوربة بعد الاضطرار الى ترك إصدار العروة الوثقى بالتشديد
في منعها من مصر والهند ، وانه دخل مصر مستخفيا بعد أن ألم بسورية وتونس ،
وكان غرضه الاول التمهيد فيها للذهاب الى السودان على أن يتبعه السيد جمال الدين
اليه اذا نجح في سعيه له

كان آخر عدد صدر من العروة الوثقى وهو الثامن عشر مؤرخا في ٢٦
ذي الحجة سنة ١٣٠١ (الموافق ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤) وبعد تركها انفراد
السيد جمال الدين بالسعي المراد من مسألة السودان واننا نوضح هنا ما أشرنا اليه
قبل من دخول الشيخ محمد عبده في مصر وهو ما في بعض مکتوباته السرية إلى
بعض أعضاء جمعيتهما (العروة الوثقى)

قال في المکتوب الاول من الباب الخامس من مشأته^(١) بتاريخ ٧ جمادى
الاولى من هذه سنة ١٣٠٢ ما نصه بعد كلام :

« فتأملت من الامر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من
النداء ، ولعل الله ينهض بالقول هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس
ما اذخر لها من العمل ، وتلاحظ أضرار مادنا من الامل ، وتنبعث عزائم لتناول
ما حضر لديها ، وابرار ما كمن فيها ، فعناية الله بأسطة أ كنفها اليهم ، رافعة صوتها
عابهم ، وهم في غشية من الجهل لا يصالحونها ، وغطيظ من الغفلة لا يسهونها .

هذا ما اندفع بي الى بلاد أستعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف عند حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وما توفيقي إلا بالله ، وما اعتمادى إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، واني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عى الشباب تمانى وأول أرض مس جلدي ترابها
غير انه لا يراني فيها إلا المحصلون ، ولا يعرفني فيها إلا العارفون ، وإن لك بينهم ذكرا يلبق بهمتك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، وقد أبلغت (السيد) من خبر صنيعك ما وفر لك شكره ، وأخلص لك سعيه . الخ

(وكتب الى آخر من الاعضاء في هذا التاريخ نفسه من مصر وهو المكتوب السادس من هذا الفصل مانصه :)

قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك ، وحاشا ان يكون تساهلا في الحق ، أو ثقاقلا عن فريضة الود ، وإنه هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فزقها ، وغول السكوارث انبسط فيها فضيقها من يوم فارقتك الى الآن . « ذهبت الى باريس فاعدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن الوجهة المشرق ، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الذاريات ، فررت على بلاد كثيرة منها مدينة (تونس)

عملت في جميعها على إحكام العروة وتمكين عمودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى بلد خلعت به عذار شيبتي وطرحت في كف الخطوب عناني وأنا فيه أتعرف الوجوه ، وأتذكر للعيون ، وأسأل الله نجاح العمل ، وإقبال الأمل . — الى أن قال —

« واذا رأيت فنبهه ان قوة الاتحاد في الجنوب ، أفرغت قوة النيران في الشمال ، وان نيران القلوب ، أذابت مدافع السكروب (وما النصر إلا من عند الله) يؤتاه الصادقين ، ويؤليه المحنصين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة الخ (يقول المؤلف) وحسي بهذين التصريحين شاهدين على ما قلت

هذا وان محمد أحمد توفي في رمضان من تلك السنة (١٢٨٢) وكان الجيش المصري والانكليزي المساعد له في أسوأ الاحوال، وقد عقد الجنرال غرانفيل بعد موته هدنة مع السودانين مدة ثلاثة أشهر في كسلا وفي ٢٠ ذي الحجة منها أعلن تسليم حامية كسلا بعد حصار أكلوا فيه لحم الخبز، ولسنا في حاجة الى بسط حال السودان في ذلك الوقت لاننا لانكتب تاريخ السودان وانما نشير اليها من بعد لئلا يستغرب بعض قراء تاريخنا تمكن السيد جمال الدين من اقناع الحكومة البريطانية في عاصمتها بترك السودان بعد ما أذاعه في الهند وسائر المشرق من تعليق الآمال بدعوة محمد احمد والتهديد به لثورة اسلامية عامة

العبرة في هذه السياسة

العبرة التي يجب أن تمثل لقراء هذا التاريخ ان السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده قد جاهدا في سبيل انقاذ مصر والسودان من الاحتلال البريطاني جهاداً لم تسم الى مثله همة أحد من أمراء هذه البلاد وعلمائها وكبرائها ولا همة غيرهم من العثمانيين وسائر المسلمين والشرقيين، ولم يكن في قدرة غيرهما أن يعمل مثل عملهما. ولكن كان في قدرة كثيرين ممن ذكرنا أن يساعدوهم بالمال وغير المال في هذه السبيل. ويعلم الواقفون على تاريخ مصر في هذا الطور الاخير أن كل ما كتب في جرائد مصر وغيرها في المسألة المصرية الى هذا اليوم لا يمد شيئاً مذكوراً في جانب ما كتبه الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى بارشاد أستاذه السيد جمال الدين الافغاني، وان كل سعي عملي لذلك كان وما زال دون سعيهم. فليحفظ القاري ما أوردنا من الشواهد في هذا المقصد الى أن يجيء الكلام في خطة الاستاذ الامام الاصلاحية في مصر وعلاقته بأميرها واصحاب جرائده

خاتمة هذا المقصد

آفة الشرق أمراؤه والمستبدون

وزعماءه المرشدين

و مرشدوه الجاهلون

نختم الكلام في خدمة الامامين الحكيمين للاسلام والشرق فيما فاضت به حكمة الأول على بلاغة الثاني في جريدة العروة الوثقى بهذه الحقيقة التي وضعناها هذا العنوان ، فلقد كان الناس غافلين عنها فييناها لم يبلغ البيان ، وشر مقاسد هؤلاء الامراء والزعماء في هذا العصر غرورهم بالاجانب الطامعين في بلادهم ، ولو عقولها لتمكنت حقيقتها من عقولهم ، وولوفقهوها لرست عبرتها في قلوبهم ، ولما تكررت في مشرق العالم الاسلامي ومغربه تلك الرزايا التي انتزعت مما لكهم من أيديهم ، ومن المجانب انها لاتزال تتجدد ، ولا يزال مدعو الايمان يلدغون من الحجر الواحد مرارا كثيرة ، وقد قال رسولهم فيما صح عنه « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » رواه البخاري ومسلم

فلا عجب اذا فيما يصدر عن ملاحدة للمسلمين الذين لاحظ لهم من حكمة الاسلام وهدايته الصادتين عن هذا الفساد ، ورضاهم بأن يكونوا أعوانا للاجانب على استثمار البلاد ، وهذا مالا تزال نشاهده في كل عام (أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) ؟

طرقت العروة كل باب من أبواب هذا الموضوع ففتح لها ودخلت منه فلم تدعني زواياه خبيثة الا واستخرجتها

انشأت له مقالات خاصة ، وجعلته مضرب الامثال في المقالات العامة. وقد ورد فيما أثبتنا من الشواهد بعض هذه الامثال والاشارة الى بعض تلك المقالات ونأتي في هذه الخاتمة بشواهد وأمثال أخرى وهي

المثال الأول

﴿ استيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها ﴾

(قال من مقالة افتتح بها العدد الثامن موضوعها طرد الانكليز للجيش المصري وتأليف جنس صغير تولوا قيادته)

دمر الانكليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم ، وانبثو بينهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الامراء ، واغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال . والانفصال عن السلطة التيمورية ، فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة . ثم أغرو كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه ، فصارت الاراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال ، واضطر كل نواب أوراجا الى التقود والجنود ليدافع بها عن حقه . او يتغلب بها على عدوه ، فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ، ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين ، وبسطوا لهم إحدى الراحتين بيد الزهبة . وقبضوا بالآخرى على سيف الغلب . بدؤا قبل كل عمل بتنفيذ أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الاهلية ، ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية وقوادها ، وما هم عليه من القوة والبسطة والنظام ، حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الانكليزية ، فأقبل الانكليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه ، وفوزه بالتغلب على غيره ، بجنود مستظمة تحت قيادة قواد من الانكليز ، ويكون بعض الجنود من الهنديين ، وبعضها من البريطانيين ، وما على الحاكم الا أن يؤدي نفقتها ثم خلبوا عقول أولئك الامراء بدعائهم ومهرجة وعودهم ولين مقالهم ، حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض ، وصار الانكليز بذلك أولياء المتباغضين ، وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم بلاتهم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها فرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) ارضاء لاهل السنة والشيعة والوثنيين

كيف خدع الانكليز أمراء الهند حتى استولوا على بلادهم بمساعدتهم ٣٨٥

ولما فرغت خزائن الحكام وقصر بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائهم وتساھلوا مع أولئك الحكام في القرض، وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة، وبعضهم بدون فائدة، وينتظرون به الميسرة، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء. وبعد مضي زمان كانوا يومئذون الى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الأمير عن الاداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل في قطعة كذا من الارض نستقلها ونستوفي منها ديوننا، وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم، ثم الارض أرضكم ردھا اليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وانما نحن خادمون لكم، فيضعون أيديهم على غضروات الاراضي وفيحاشا، وفي أثناء استقلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة، وحصونا منيعة، كما يفعلون ذلك في شكن [أما كن إقامة العساكر] عساكرهم على أبواب العواصم الهندية. (١)

وفي خلال هذا يفتحون للامراء أبواباً من الاسراف والتبذير، ويقرضونهم بالقيام على أراض أخرى يضعونها الى الاولى، ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتتشب بينهم حروب فيتدخلون في أمر الصلح، فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين، لكل من التغالبيين، وبعد هذا فلهم شؤون لا يهتمون بها في إيقاع الشقاق بين سائر الالهاليات تضعف قوة الوحدة الداخلية، ويخرب بعضهم بيوت بعض، حتى إذا بلغ السير نهايته، واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم، وغلت الأيدي فلا يستطيع أحد حراكا، ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له وواقية لبلاده، وكانت تشحذ لجزعته من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله، ثم خلفوه على ملكه

وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعون

(١) وكذلك يفعلون الآن في البلاد العربية التي يريدون أن تكون هندا ثانية

الملك ويولون الطالب، على شريطة ان يقطعهم ارضا او يمنحهم امتيازاً ، فيحولون الملك من الاب لابن ومن الاخ لاخته، ومن العم لابن أخيه، وفي النكل هم الراجحون. هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوربا . ما فاجؤا أحداً بحرب، وما اختطفوا ملكاً بقوة مغالبة، بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهلها ، ولا بما تطرف به أجناسهم أولئك الانكليز باقعة العالم ، وأحبال الحيل، يريدون اليوم طرد المساكين المصريين، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة، فلا تستغنى عن حامية، فان تم لهم ما أرادوا زينوا لبعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً انكليزيا يكون خادماً له وحافظاً للملك، فان لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد، يرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحتهم أو غشهم ذهباً عن حقيقة القصد، فيقيمونه حاكماً خلفاً لمن لم تسمح ذمته بالقبول، وتكون رغبة الممرور حجة لهم عند أوربا . هذا سر انقلاب الانكليز على الجند الوطني وقد حسم في سيرته بعد الشاء على حسن استعداده ، وسعيهم إلى طرده بالادلة الواهية ، والعمل الواهنة

المثال الثاني

(استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها)

(مقالة نشرت في العدد العاشر وهي التي أشرنا اليها في ص ٢٣٠ ثم حدث من الحوادث العامة ما اقتضى نشرها في هذه الحاتمة)

ان في ذلك لعة لاولى الابصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الامم ان تسود عليها وتستعبد لها وتذلها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والافكار ووجود المقاومة الطبيعية ، فضلاً عن الارادية ؟ ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الامة ، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله اذا غلبه الغالبون، تجعله على

للمدافعة عن أمته، كما يدافع عن بيته وحرمة، فلا يتسنى للقوة المغيرة أن تذلل الأمة إلا بأفائها عن آخرها، أو افناء الأغلب حتى لا يبقى إلا المعجزة والزمنى، هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الأمة

نعم يسهل للقوة الاجنبية ان تغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الأمة حاكم او رئيس روحاني تجتمع عليه قلوبها وتدين له رقابها، لمنزلة له في افئدة ابنائها، ولمكان آبائه من الكرامة في نفوسهم. فلا تحتاج القوة الغالبة الا الى إيقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ما تحكم به. او نصب حباله الحيل له فتخدعه بالاماني والآمال فيذعن لما تقضي به. فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له. ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الامراء وأرباب السيادة في الأمة التي يريدون التغلب عليها، فيخلعونها بالتهديد والتخويف، او يملكونها بالخدعة وتزيين الاماني، فينالون بغيتهم ويأخذون اراضي الامم

وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري في الهند، ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيموري وقبض الانكليز اول الامر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين ان يخضعوا الامم الهندية في احقاب طويلة. هذه قبائل الافغان عند ما انحلت ثقتها بأمرها وصار الامر الى الأمة قامت كل عشيرة بل كل فرد للدفاع عن نفسه بعد ما تمكنت عساكر الانكليز في قلاعهم وحصونهم، واستولت على قاعدة ملكهم، وفتكوا بالمساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم، وهى ستون الفا من الجيوش المنتظمة مسلحة بالاسلحة الجديدة، واضطر الانكليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها

لا ريب انه يسهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحداً او اشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد، ويتيسر له ان يقف على طباعهم، ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم، ويأتيهم من أبواب رغائبهم، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عايد، ونفوسها في وحشة منه، اللهم إلا بالابادة والتدمير

من هذا تجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع أقاتهم^(١) بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون^(٢) بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الأمة عنهم ، وما هذا إلا لان قوة المغالين داخلية تحت الضبط ، وأما آحاد الأمم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاومتها ، إذا تعاصت وشحت بنفسها عن الذل لسواها ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لهموها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها ، كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها وهبوطها وانحلالها ، وإنا نخاف ولا حول ولا قوة إلا بالله أن يكون أمراؤنا والأعلون منا آلة في اضمحلالنا وفنائنا لما غلب عليهم من العرف والانهك في اللذائذ والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على طباعهم ، فانا لله وإنا اليه راجعون اهـ

المثال الثالث

رأي العروة الوثقى في معاقبة الامم الامراء والرؤساء الذين يكونون أعوانا للاجنبي عليهم (قال في آخر مقالة وجيزة موضوعها الأمة وسلطة الحاكم المستبد ووصف فيها حال الأمة مع الحاكم المستبد المصلح الحكيم وحالها مع المستبد الجاهل الاحق المتبع للهوى — مانصه)

عند ذلك ان كان في الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً ، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها ، قبل أن تنتشر الرياح بزورها وأجزاء السامة القاتلة بين جميع الأمة فتميتها ، وينقطع الامل من العلاج . وبادروا إلى قطع هذا العضو المجدم قبل أن يسري فسادُه إلى جميع البدن فيمزقه . وغرسوا لهم شجرة طيبة . أصلها ثابت وفرعها في السماء . وجددوا لهم بنية صحيحة — من الآفات (استبدلوا الخبيث بالغيب) وان انحطت الأمة عن هذه الدرجة

(١) أي أمثالهم (٢) يفرقون يخافون فهو كبيرهون وزنا ومعنى

وتركت شؤونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصرفها كيف يشاء . فانذرنا بمضض
"العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الامم . جزاء على ما فرطوا في أمورهم .
(وما ربك بظالم للعبيد) اه

[المؤلف] خلاصة هذا الارشاد ان الامم لا ترجى لها سيادة ولا سعادة ولا
حرية ولا استقلال إلا اذا عرفت نفسها ، وجمعت كلمتها ، وكان أمرها بيدها ،
وكان حكامها خدامها ، فمن أحسن خدمة أمته بالنصيحة والاخلاص كفافته ،
ومن خانها أو أساء اليها عاقبته ، ويجب عليها ألا تولي شيئا من أعمالها لأحد من
"المفتونين بحب الرياسة على قاعدة الاسلام : طالب الولاية لا يولي . وقال الخليفة
"الاول (رض) في أول خطبة خطبها بعد مبايعته : ولت عليكم ولست بخيركم
عازا اذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوموني »

كانت هذه الحقائق مجهولة عند قراء العربية قبل بيان العروة الوثقى لها
تفصح العبارات وأقواها تأنيرا ، ثم رأوا مصداقها في مصر وتونس ثم في المغرب
"الاقصى ، ثم في البلاد العربية الاسيوية ، فأفة الشعوب الجاهلة المتفرقة أمراؤها
ورؤساؤها وزعمائها ، ويليههم من دونهم من المتفرجين الذين يتخذ منهم الاجنبي
"السالب لاستقلالها صفار العمال لكل ما يحتاج اليه من عمل في إدارة حكومتها ،
"لا يتيق بالاجنبي أو لا يوجد في أفراد من يكفي للقيام به ، ومن قواعد سياسة
"الاجانب انهم لا يستخدمون في حكومة البلاد التي ترزأ بسيطرتهم عليها إلا من
يعمون بالاخبار الدقيق أنه مخلص لهم ولو في خيانة بلاده ، وقد سبق في العروة
"الوثقى ان الانكاز لو وجدوا في بلاد الافغان عند ما دخلوها محاربين واحتلوا
عصمتها (كابل) أمثال هؤلاء الرجال الذين يعرفون لغتهم ، وقد فتوا بهرج مدينتهم ،
"خرجوا أو يخرجوا من الهند ، ولكنهم وجدواهم وغيرهم في بلاد أخرى من
"بلاد البلاد ولا يزالون يجدون من لولاهم لم يستقر لهم قدم ، ولم يرفع لهم علم ،
ومن من يعقل ويفهم ؟



المقصد الثاني من الفصل الخامس

عمد في سورية

لما عاد الاستاذ الامام الى بيروت وألقى فيها عصا التسيار ، وتصدى للتعليم والارشاد ، كنت طالب علم بطرابلس الشام ، وكنت قد عرفت شيئا من قيمته ، بل كنت داعية له وللسيد الافغاني ، ولكن لم أتمكن من الرحلة اليه والتلقي عنه في المدرسة السلطانية ، وقد زار طرابلس في تلك الايام واتفق لي فيها معه مجلس واحد في المدرسة الخاتونية اذ جاءها لرد السلام على الاستاذ الشيخ عبدالله البركة أحد العلماء المتخرجين في الازهر وكان عرفه من قبل ولم يكن الاستاذ موجودا بل كنت فيها مع أحد الطلبة نذا كر دروسنا ، فتلقينا الامام بالحفاوة والاحلال ، وقدمنا له شرابا مثلوجا فشرب ، وطفق يسألنا عن طلب العلم وأساليب التدريس للعلوم التي تدرس عندنا ، وتوليت إجابته دون رفقي . ومما سألنا عنه تفسير القرآن هل يدرس للطلبة ؟ قلت لا وإنما يقرأه رجل واحد العوام ويعنى فيه بالتقصص الاسرائيلية والخرافات الصوفية اذ يقرأ تفسير روح البيان لاسماعيل حقي الصوفي وسألته أي التفاسير أنفع لطلبة العلم ؟ قال الكشاف . قلت ولكن فيه كثير من نزغات الاعتزال . قل تلك مسائل معروفة لا تخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة فيها وإنما فضله لدقته في تحديد المعاني ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة ثم قلت له أما علم الاخلاق فقد اندرس فليس له طالب ولا مدرس . قال نعم واندرس معه الدين ، فأكبرت هذا الجواب وكبر شأن الرجل في نفسي لانني كنت شديد العناية بكتب الاخلاق ولا سيما احياء العلوم وانني أذكر هنا ما وصل اليه علمي ولخصته في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار إثر وفاته (١) وأقفي عليها بفضل كتبه لي تلميذه النجيب السيد عبد الباسط

(١) قد استفتدت بعض ذلك أولا من تلميذه محمود افندي الكجيل الطرابلسي ثم من غيره ولا سيما من كلفتهما ان يكتبنا لي ما يعلمان فيما يلي

فتح الله رحمه الله وفصل آخر كتبه تليذه الامير شكيب حفظه الله .
 نص ما كتبه في المنار (ص ٤٦٢) من المجلد الثامن معطوفا على الكلام في عمله في أوربة
 وبعد الاخفاق في ذلك العمل السري ، دون ذلك الهدي النبوي ، ألفى
 عصا السير في بيروت أعظم ثغور سورية وأقربها من العمران ، فأقبل عليه أهل
 العقل والفضل ، وأرباب الذكاء والنبيل ، يستفيضون منه غيث سماء الحكمة ، ويتلقون
 هدي الحكماء والأئمة ، فكانت داره مدرسة عامة يؤمها الأذكياء وعشاق المعارف ،
 من جميع الملل والطوائف ، ومما كان يقرأ عليه فيها السيرة النبوية ، على صاحبها
 أفضل الصلاة والتحية ، و كان يقرأ التفسير في الجامع الكبير وفي جامع الباشورة .
 لا يلتزم فيه كتابا ، وإنما يقرأ في المصحف ، ويلقي ما يفيض الله على قلبه وكان الناس
 يقبلون على درسه إقبالا لم يعرف في تلك البلاد لاحد من قبله ، حتى حسد النصارى
 عليه المسلمين ، فكانوا ينسلون اليه زرافات ووحدانا ، ويقفون بباب المسجـ يمدون
 أعناقهم ، ويشخصون بأبصارهم ، ويصيخون بأذانهم ، لعلهم يلتقطون شيئا من تلك
 الدرر . ثم إنهم استأذنه في دخول المسجد والجلوس في ناحية من حلقه الدرس
 فؤذن لهم « فأجره حتى يسمع كلام الله »

وفي أول سنة ١٣٠٣ دعي إلى التدريس في المدرسة السلطانية لآخياء اللغة
 والدين فيها . فلم يكن في المدرسة من العلوم العربية الامبادى والنحو والصرف
 وما تسميه الترك « علم حال » وهو ما يلقن للولدان من أحكام العبادات . فلما
 دخل المدرسة أدخلها في طور جديد كما كان شأنه في عامة أعماله : يدخل في العمل
 مرؤسا فيكون في الواقع رئيسا . ذئث انه أصلح إدارتها بالاتفاق مع مديرها ،
 ووضع قانونا جديدا (بروجرام) للدروس وزاد في العلوم التوحيد ومعاملات
 الفقه والتاريخ الاسلامي والمنطق والمعاني والانشاء ، زادها لنفسه فكان هو الذي
 يدرسها حتي كانت دروسه تستغرق عامة النهار . وكانت دروسه كلها للتلاميذ
 على نحو ما ذكر في رسالة التوحيد « أمالي مختلفة تتغير بتغير طبقاتهم ... في
 أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله » الا معاملات الفقه فكان يقرأ
 فيه مجلة الاحكام العدلية ، التي يحكم بها في المحاكم العثمانية . وكان يكلف تلاميذ الانشاء

حفظ شيء من نهج البلاغة وديوان الحماسة والالفاظ الكتابية ويشرحه لهم. وكان له هم عظيم وعناية تامة بملاحظة آداب التلاميذ في المدرسة (١) حتى انه كان يزور هالدا لأجل ذلك وقد تخرج على يديه نابتة هي الآن تخدم البلاد بغيرها واستقامتها، وعرفانها ونباها، ثم انه في سيرته كان مرياً للجباير الذين يترددون عليه، فقد كان يجلس اليه السني والشيعي والدرزي والنصراني واليهودي فيوسع صدره للجميع، ويعامل كل واحد بالأدب الذي يليق به، لا يؤذي جليسا، ولا يعضط فضل مذاكر ولا منظر، على أنه لم يكن يقول غير ما يعتقد سواء كان القول في الدين أو في العلم أو في العادات والامور الاجتماعية، فكان رضي الله عنه نسخة كاملة من رجال سلفنا في التسامح والتساهل وجمع الكلمة واحترام العلم وأهله كما وصف في كتاب (الاسلام والنصرانية) وقد أدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته لاسيما في الخطابة الارتجالية التي لم يكونوا يعمدون بها

وكان هناك يشتغل بالتأليف فقد نقل إلى العربية رسالة الرد على الدهريين أو المقاتلة بين الايمان والكفر في العمران التي كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية. وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بدیع الزمان الهمداني. وقد أقبل الناس على هذه الكتب وانتفعوا بها حتى انها طبعت مرارا. وكان يكتب المقالات النافعة في الجرائد وسنشر ما عثرنا عليه منها في تاريخه (٢) ولم يكتب بهذا الاصلاح المعنوي بل كان يسعى لدى الحكومة في اصلاح البلاد الاداري فوضع في ذلك لائحة قدمها للوالي وسنشرها في تاريخه أيضا (٣) وكتب لائحة أخرى في الاصلاح الديني وقع عليها بعض الوجناء وقدمت بواسطة الوالي الى السلطان (٤) وكان قد جال في أرجاء الولاية واختبرها ثم الاختبار اها ما نشرناه في المنار

(١) اخبرني محمود اقندي الكجيل انه لما طبع ديوان المينائي الطراباسي في تلك الاثناء أرسلت اليه نسخة منه فرآه الاستاذ يده فآخذه منه فوقع نظره على بيت يصف فيه الردف بقوله لا يرتقي الا لتصب سلا * فامتم وجهه وألقاه بعيدا قولا : أملاك ينظر في هذا

(٢) راجع الفصل الرابع ص ٣٤٢ من الطبعة الثانية للجزء الثاني (المشآت)

(٣) راجع ص ٥٢٦ منه (٤) ص ٥٠٥ منه وهذه هي الاولى



سيرة الاستاذ الامام في بيروت

بقلم تلميذه وخريجيه النابغة المصلح السيد عبد الباسط فتح الله رحمه الله تعالى

لما غلقت أبواب الهند دون « العروة الوثقى » وفات بذلك جل الغرض من تحريرها ونشرها عاد الاستاذ الامام الى بيروت التي كان اختارها داراً لاقامته مدة بعهده عن الوطن، واتخذ له بيتاً في ضاحيتها طلباً لنقي الهواء، واجتناباً للمجامع التي قد تذهب بسلامة الوحدة وراحتها من غير جدوى. إلا ان بعد المقر لم يمنع نور العلم من الانتشار، كما ان العزلة لم تحبس نشر الفضل عن التفتيح في ارجاء الاقطار، بل كان منزله في بعهده عن مدار الحركة، وارتفاعه عن مجالات القوم، أشبه بالنائر تنصب في أعالي الاطراف، فيهندي بشعاعها الساري ويطمئن اليها الوافد الحيران.

أتى رحمه الله بيروت وهي تتمخض بمجھيض النهضة العلمية الاسلامية التي كان ألقاها اليها مدحت باشا إذ أسس فيها جمعية المقاصد الخيرية بيدي مريده النبيه رائف باشا (متصرف بيروت لتلك العهد) فأنشأت الجمعية مدارس للذكور والانات في كل حي من أحياء المدينة، ثم سمت بها المهمة بدافع الحاجة الى انشاء مدرسة عالية داخلية، فافتحت « المدرسة السلطانية »، وكان ذلك بعد نوبة مدحت باشا وأيام ولاية حمدي باشا — وحمدي باشا هو الذي مديده لمساعدة الحامل على الوضع فعجل لها الاجهاض.

ودرى بمقدم الاستاذ الامام نفر من أعضاء تلك الجمعية النبهاء فأقبلوا عليه ففهم عبق فضله، وبهرهم نور علمه وعقله. واذ كانوا في حاجة الى أستاذ يدرس في المدرسة «السلطانية» بعض العلوم الدينية والعربية على طريقة تلامذ روح العصر الذي يفيض على الطالب باستيعاب معلومات جمة في أوقات وجيزة، ذكروا له حاجتهم ورغبوا اليه أن يتسلى عن غربته بخدمة مليه هو أعرف الناس بجليل فائدتها. فلبى دعوتهم ودخل المدرسة في مبتدأ سنتها الثالثة عام ١٣٠٣ هـ. ولم يكن يدرس

فيها من تلك العلوم الالمباديء النحو والصرف مع شيء من فقه العبادات وقوانين الدولة، فوضع جدولاً جديداً للتدريس أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي، وذلك للصف الاول والثاني حتى لقد كانت تستغرق دروسه في بعض الايام ساعات النهار بتمامه . ومن الغريب ان نشاطه في آخر درس لم يكن يقل عن نشاطه في الدرس الاول، بل كان يرى في تزايد ما تناقص النهار، وكانت دروسه كلها على نحو ما ذكره في مقدمة رسالة التوحيد وأماله يلقها على الصفوف كل بحسب حاله واستعداده «في أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يعهد تداوله» ماعدا فقه المعاملات فانه كان يقرأ فيه كتاب (مجلة الاحكام العدلية)

ولما تفتت أذهان التلامذة وارتقت مداركهم قرأ لهم في علم الكلام قسمًا من اشارات ابن سينا وفي المنطق «كتاب التهذيب» واستمر على الاملاء في التاريخ والمعاني . وجرى في الانشاء على شرح ما يستظهره التلامذة من كتاب الالفاظ الكتابية «ونهج البلاغة» و «ديوان الحماسة»

لم تمض على هذا الذوال الشهور الاولى من السنة حتى دخلت للمدرسة في طور جديد لم تك تعرفه من قبل، وما كان إدراكه في تلك البرهة اليسيرة لأحد من عمدتها بالحسبان : كان يجد التلامذة المدرسة حبساً يقضون عامهم في توقع الانفراج وتمني الانطلاق، وكانت لا تمضي الايام الاولى من السنة المدرسية التي تستغرق عادة في تنظيم الصفوف وترتيب المضامع واعداد اللوازم وتأتي أيام العمل، إلا رافقتها السآمة تبدو على النواصي والمثل يتولى النفوس . وما كان يحظر لأحد أن ينظر في أسباب ذلك أو يبحث له عن دواء ، بل كان يظن أن هذه الحال هي من لوازم المدارس الداخلية ومن مقتضى طبيعتها .

دخل الاستاذ الامام رحمه الله المدرسة معلماً ولكن نفعه لم ينحصر في التعليم كاشمس تطلع مضئنة ولكن نفعها الخفي في العوالم الحية وتأثيرها في انتظام السكون باسره لو دريت أجل وأعظم — جال جولة في مناحي الادارة المدرسية وطرق التلامي، فوقف على نواقصها وصعابها فاشتملها بنظر حكيمته فاكمل الاولى وذلل

الثانية، وصارت المدرسة وكأنها غير المدرسة، وأصبح علمها وكأنه غير علمها في مدة من الزمن لم يأنف التصور حصول مثل ذلك في مثلها .

خالف مدير المدرسة ومعلميها وكانت همهم تقف عند القيام بالوظيفة قياما آليا ، وأنظارهم تنقطع لدى الغاية القريبة من ضبط هيئة التلامذة وتحفيظهم أشياء من قواعد العلم الخاففة . فسا بهمهم الى أفق أعلى من التربية الاخلاقية ، ورعى بانظارهم الى غرض أنبل من مآثر العلم في ترويض النفس البشرية ، فأعظموا إذ ذاك شرف مهنتهم، وجدوا في إدراك مآلهم من كمالاتها، وما لبثوا أن حمدوا صراهم، وقد تبدلت سامة تلامذتهم بهجة بدت علي وجوههم ، وقام فيهم النشاط والرغبة في العمل ، مقام الملل منه والكسل ، وغدا الاستاذ وهو لا يخرج من درس ، إلا ليدخل في مذاكرة أو بحث . والعلمون والتلامذة حافون من حوله يلتقطون منشور درره ، ويحنون طيب نمره . وهو يتلقاهم بمحياطلق ، وصدر رحب ، متنزلا في محادثتهم الى متناول عقولهم ، متلفا في ارشادهم وتفهمهم ، حتى تغفل حبه في خلايا قلوبهم ، وصاروا يتلذذون برؤيته في غدوه ورواحه وخطراته فيما بينهم . اللهم إلا كسلان او شرس . فان برق لحظاته كان يخطف ابصارهم ، ورعد زواجره يرعد فرائصهم ويخلم افئدتهم ، وبدا لتلك الفراس انفضة ازاهر دونها نور الربيع ، وتفتحت اكمامها عن نثر يزري بينات الحار ، وشعر دون منظومه فلاند العقيان ، مع صحة في المبادي ، ونباله في المقاصد ، وتبيو لخدمة الملة ، ورغبة في عمل الخير ، مما اعظم العقلاء الفضل فيه لصاحبه ، وان تميز اكفاف البصائر من الغيظ .

ولما انقضت السنة الدراسية وجرى الاحتفال بختامها قام احد الادباء وسأله على مسمع من المحتفلين وكانوا زهاء الالف أن يخاطبهم في موضوع يختاره ، فدهش الناس لهذه الجرأة ولم يسبق لهم عهد بسماع الارتجال ، في مقام لا يقف فيه واقف إلا بعد المبالغة في الاستحضار والاستعداد ، ولكن وقفة الاستاذ الامام على ما حفه الله به من السكينة وجلالة الهيئة ، أزالا وحدها تلك الدهشة ، واندفع تخوض في موضوع جليل يمكن أن يبر عنه بمثل هذه الكلمات « علة تأخر الشرق مع وجود بعض الاسباب لتقدمه في الظاهر »

فاستغرق كلامه من الوقت ساعة ونيفا حتى اختتمته مخافة الاملال بالاطالة
وسامعوه يودون لو لم يسكت ذلك النهار .

ومما يذكره بعض تلامذته من صفات نفسه العظيمة انه لما توفيت زوجه
الاولى وتركته له بنت نفاس وليس في بيته أنثى تقوم باعبائه، وهو في دار غربة ،
رعي محنة ، ووضعي نكبة ، أصابه غم قطعه عن التدريس أياما ، وأكبر الاصحاب مصابه
واضطربت له المدرسة ، فلما استأنف الحضور تحير التلامذة كيف يقابلونه ، وبأي
لسان يعزونه ويخاطبونه ، فما هو إلا وقد دخل عليهم فسلم وجلس والكل مطرقون
منصتون ، لا يدرون ماذا يقولون ولا ما يصنعون ؟ فبادرهم بقوله أظن ان النوبة نوبة
الانشاء ، فتلججت الالسة ولم تب ، فخل عقدها بقوله اكتبوا وأملئ عليهم :
تَمَزَّ قَاتِ الصَّبْرَ بِالْجُرْ أَجْمَلِ - وليس على ريب الزمان معول

حتى أتى على آخر القصيدة ثم أنشأ بشرحها على عادته في مثل ذلك الدرس ،
فأدرك التلامذة انه يلقي عليهم في صورة الدرس المعتاد ، درساً أبعد مرعى وأسمى
غاية في الحكمة العملية والاخلاق .

هذا وكانت له غيرة على المدرسة لا يعرف قدرها إلا الخالصون ، فكان اذا اتفق له
أن مر بها ليلا لا يقادرها دون أن يدخلها ويتفقد شؤونها ، حتى لم يطق البعد عنها ،
فتترك منزلها في « برج أبي حيدر » وتزل منزلا يقرب منها في « زقاق البلاط » يسهل
عليه اتيانها المرة بعد المرة وفي الاوقات المختلفة ، حسبما تقتضيه ساعات الدروس
غير ان ارادة الله الانتقامية في هذه الامة لم تثن أن ينمق عمله الثمرة
المرجوة ، إذ ان إزهار المدرسة وفلاحها أشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال
« العسكرية » على مديرها (١) الذي صار له بفضل الاستاذ وحكمة تديره من النبالة
ولسان الصدق في الناس ، مالم يرضه له أولئك الاوغاد ، فسموا به فبدلوه بآخر
تباً يل اللطافة بالحشونة ، والخصافة بالرعونة ، وجاء خلفه فغير وبدل واضطرب نظام
المدرسة فضلت نهجها القويم وغايتها المثلى ، وغلت يد الجمعية عن العمل ، وفارق
(١) هو الاستاذ المرحوم الشيخ أحمد عباس رحمهما الله ، والظاهر أن أولئك
الرجال من مبغضي العرب من الترك . . .

المدرسة معناها الرسوم فيما تقدم ، فاستقال الاستاذ وقد أصبح العمل ضرباً من العبث ، وفي غضون ذلك جاء نياً تبدل الوزارة النوبارية بالرياضية ، وتلاه بعد قليل صدور الاذن الخديوي له بالعود الى دياره المصرية .

هذا ما يتعلق من سيرته في بيروت بالمدرسة السلطانية ، وأما بقية اوقاته فلم تكن تذهب سدى :

لما ظهر من فضله مظهر ، واشتهر من علمه وعمله ما اشتهر ، تسابق الناس الى معرفته ، وتنافس العقلاء من اهل العلم والوجاهة والادب والنباهة في خطبة مودته ، وسأله الكيسون ان يجعل لهم حظاً من الفائدة فاجاب مؤلماً ، وخصص ثلاث ليال من الاسبوع يفسر لهم فيها آيات القرآن الكريم في جامع الباشورة على مثل منهاجه (الخير في الازهر ، هذا عدا عصر يات رمضان من كل سنة ، فنسل الناس الى استماع درسه من كل حذب ، ولم يرض النباه من المسيحين أن يفوتهم ذلك الحظ العظيم ، فكان يقف فريق منهم في باب الجامع الدمري على مقربة من حلقة الاستاذ ، ولكن ازدحام الحاق في الداخل وضوضاء السوق في الخارج كانت تحول دون مشتاهم من الاستماع ، فشكوا اليه ضيق صدورهم من ذلك واستأذنوا أن يقفوا لدى الباب من داخل المسجد فأذن لهم . وكذلك تقطروا أفواجا لاستماع درس المجلة (١) وفيهم الشاب عن طوق التلذذ ، وصاحب الاشغال التي لا تسمح له بالانتظام في سلك المدرسة ، ولا تسمح قوائنها بقبوله ، ولكنهم ألحوا حتى رخص لهم في حضور الدرس في الايام المعينة فقط ، ومنهم من حضر درس التوحيد أيضاً . وأما بيته فكان كمدرسة مطلقة تأوى اليه الفئة المتنورة من كل ملة ، فكثيرا ما كنت ترى طلاب الفوائد وفيهم من نعت بالعلامة يقيدون في دفاترهم شوارد الحقائق ، ويدونون في صحفهم أو ابد الدقائق ، التي كانت تأتي على لسان الاستاذ في غضون الحديث ، وفي ليالي رمضان كان يستقرى ، خصيصاً له من تلاميذه (٢) السيرة النبوية على مسعس الزائر من مدة ساعة من بعد العشاء ، ابتعاداً عن الافو الذي يقضي فيه المتسحرون ساعات الليل حتى السحور ، وقرأ في بعض الايام لطائفة

من طلبة العلم درساً في النطق: وقرأ أيضاً لتلميذ له (١) بعضاً من « قسم الكلام » من كتاب التهذيب

وما خلا من أوقاته عن شغل في تدريس، أو حديث في مؤانسة جليس، كان يملؤه إما بكتابة الفصول المتنوعة التي كانت تدعو إليها المناسبات الزمنية، أو ملاحظاته الحكمية، ومن تلك الفصول ما تربو قيمته في النفع على كثير من المجلدات، وفي ثمرات الفنون غير واحد منها (٢) وإما بتأليف تمس إليه حاجة طلاب العلم وروام الادب، أو يرى فيه فائدة للدين

فترجم أثناء إقامته في بيروت « رسالة الرد على مذهب الدهريين » لوليه الحليم الحكيم السيد جمال الدين الافغاني وصدرها بمجمل من سيرته، وشرح « نهج البلاغة » لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومقامات بدیع الزمان الهمذاني، وكتب رسالة مسهية في اصلاح التعليم الديني وجه بها الى المشيخة الاسلامية عند ما بلغه عزم الدولة على شيء من ذلك (٣) هذا عدا عن الاجوبة والرسائل الخصوصية التي ما كانت تخلو من فائدة عمومية أو شخصية

وقد رحل خلال تلك المدة الى بيت المقدس ودمشق الشام وبعلبك وطرابلس وتيجول في انحاء لبنان وهو كيفاً رحل وأينما حل ينتهز الفرصة لنفع الخلق عامة، مولياً وجهه شطر غرضه السامي النبيل من نشر العلم الصحيح ونصرة الدين المبين، ورفعة المسلمين.

وهو وان لم ينج في بيروت من أذى المشاغين إلا أنه كان يحبها، ويتوسم الخير في ناس من أهلها. وان أثر فضله فيها لا ينمحي ما تواصلت عقول تدرك الحق، وتعاظمت قلوب تحس بحسن الصنيع.

جزاه الله أحسن ما عمل بمنه وكرمه اه

(١) هذا التلميذ هو الكاتب لهذا الفصل نفسه أيضاً رحمه الله

(٢) ينظر في حاشية سابقة مكان هذه المقالات في الجزء الثاني من هذا التاريخ

(٣) ينظر في حاشية سابقة مكانها في فصل اللاوائح من مذكراته في الجزء الثاني أيضاً

نبذة ثانية من سيرته في بيروت

بقلم تلميذه ومريده أمير البيان الأمير شكيب ارسلان

منذ حادثة سني كنت أقرأ الجرائد . ولما حدثت الحادثة العرابية سنة ١٨٨٢ بمصر كنت ابن اثنتي عشرة سنة فكنت أتبع وقائعها، وأحرق عند ضرب الانكليز للاسكندرية ونزولهم وتقدمهم في القطر المصري ، وأحسب حساب بقائهم فيه . وعند ما انتهت الفتنة وشرعوا في محاكمة الذين حاكومهم ونفوم الى خارج القطر ، قرأت في أخبار المحاكمات نص بمن قيل انها من انشاء الشيخ محمد عبده . وكانت هذه أول مرة سمعت فيها هذا الاسم ، أما نص اليمين فرأيت فيه أسلوبا عاليا غير الذي كنت أعده ، ولم أكن يومئذ بالذي يقدر أن يعرف مزايا الانشاء ولكني كنت أميز منها العالي من النازل بمحض الشعور ، فوقع في نفسي شيء من هذه اليمين ، ورأيت ان منشئها الشيخ محمد عبده ليس كغيره من المنشئين الذين نعرفهم . ثم نفي العرابيون الى خارج القطر سنة ١٨٨٣ فورد منهم بيروت الشيخ محمد عبده و ابراهيم افندي اللقاني وعدد من ضباط الجيش المصري أحفظ من أسمائهم مصطفى بك عبد الرحيم وأحمد بك عبدالغفار وحسن بك جاد ومحمد بك الزمر وخضر بك وغابت عني أسماء الباقين وكلهم بين أميرالاي وقائمقام وقائد ألف . وكنت في ذلك الوقت أحصل العلم في مدرسة الحكمة . ولما دخلت سنة ١٨٨٥ قرأت في مجلة الطبيب التي كان ينشئها الشيخ ابراهيم اليازجي والدكتوران بشاره زلزل و خليل سعادة خبر صدور جريدة في باريس اسمها « العروة الوثقى » من قلم السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده . وكنت بدأت أسمع باسم الافغاني وكانوا يقولون ان أديب اسحاق هو من أخذوا عنه ، وفي هاتيك السنة توفي أديب اسحاق واهتز عالم الادب لموته ، وكنا أصبحنا يومئذ في المدرسة مفرمين بأخبار الكتاب والشعراء والادباء لايهمنا شيء أكثر من هذا ، فكنا نرى الدنيا كلها نظما ونثرا ، وكان كل ما يخرج عن الانشاء

والشعر والادب لانكاد نقيم له وزنا . فلما سمعنا ان اديب اسحاق كان يغترف من بحر الافغاني صرنا في شوق زائد الى معرفة الافغاني نفسه والى معرفة تلميذه ورفيقه الشيخ محمد عبده .

ولم تمض أشهر حتى سمعنا ان الشيخ محمد عبده عاد من باريس الى بيروت . وكان أهل الفضل في سورية بدأوا يعرفون قدره ، وكثر تردد الناس عليه ولهمجهم بذكره ، ومرة زارنا في المدرسة الاستاذ الشيخ سعيد الشرتوني صاحب أقرب الموارد فسأله عنه فقال لي : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فيه . فازداد تشوقنا الى معرفته . وفي أواخر سنة ١٨٨٦ جرت حفلة بمدرسة الحكمة كان الاستاذ الشيخ محمد عبده من جملة المدعوين اليها . فهذه أول مرة شاهدته فيها ، وبعد ذلك شاهدته في احتفال آخر السنة بالمدرسة الكلية الامريكانية ، وكان معه الشيخ عبد القادر افندي القباني صاحب جريدة « نمرات القنون » وأحد أعيان بيروت المشار اليهم بالبنان ، وكان صديقا للاستاذ الامام . وكنت أعرفه قدمني الى الاستاذ وطلعت عليه فظهر لي انه كان يعرف اسمي لاني أنا لذلك العهد كنت أنظم وأنتر ، وصارت لي قصائد منشورة في الجرائد ، فأذكر انه قال لي : « أنت ستكون من أحسن الشعراء » فأخذنا من ذلك الوقت نزور الشيخ الى منزله . وكان يسكن في حي زقاق البلاط قريبا من منازل آل حماده وآل القباني ، ويسمر كل ليلة في دار الحاج محي الدين حماده رئيس البلدية وعميد بيروت في وقته ، فكنا نحن وكثيرون نقصد السمر هناك لسماع أحاديث الاستاذ . وقد انطوى أكثر من كانوا يفتابون ذلك المجلس من الاعيان والفضلاء ، ولم يبق منهم الى اليوم فيما أعلم سوى الوجه الكبير الفاضل الجليل الشيخ عبد القادر افندي القباني والفاضل الاديب الشيخ محمد البابي . وزارنا المرحوم الاستاذ في منزلنا بالجليل وأعرف الى والدي رحمه الله وسروالدي كثيرا بمعرفته ، وقدره وقدره ، وصار لا ينزل مرة الى بيروت الا يزوره . وكان الشيخ أيضا يجلس والدي كثيرا وقال للاستاذ الشرتوني عنه : انه أعقل من رأيت من أمراء الجبل . ولما توفي والدي الى رحمة ربه في أواخر سنة ١٨٨٧ كان الشيخ من أشد الناس عليه حزنا ولنا مؤاساة ومؤازرة

وكان الشيخ رحمه الله يقرأ التوحيد والفقہ في المدرسة السلطانية في بيروت . فحضرت عليه أنا والمرحوم أخي نسيب درس مجلة الاحكام العدلية ، وأما تلاميذه في التوحيد فأذكر منهم أخاه حموده عبده الذي كان نبياً وكان الشيخ يتوسم فيه الخير والسيد عبد الباسط فتح الله الذي هو من انبغ خريجي الاستاذ الامام . وأجل من أخرجته بيروت في هذا العصر وكل منهما قد لقي ربه .

وكانت فائدة مقام الشيخ ببيروت عظيمة لأهل سوربة فانه ماضت مدة إلا وقد أصبح منزله بصورة دائمة تقريباً غاصاً بالزائرین الذين كانوا يقصدون إلى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضراته ، والالتقاط من درره ، وصار للناس ولوع به ، فكنت تراه يحفظون من كلامه ويقلدونه في لفظه ، ويتابعونه في رأيه ، وان كثيراً من الافكار والمبادئ ، والالفاظ والجل السائدة الآن في بر الشام هي من بقايا آثار مجالس الشيخ محمد عبده ، لاشك في ذلك وان كان الآن قد خفي أصابها ، وانطوت نسبتها (١)

وانجم السوريون على إجلاله والولوع به إجماعاً لم يقع مثله لأحد ، فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء يزدحم حول ذلك التهل العذب ، وكان هو بسعة عقله وعلو إدراكه وإحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم ، كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم ، ونظراً لكثرة ترددي عليه أقول اني أعلم من

(١) ما يدل على قول الأمير شكيب هذا ما حدثني به الاستاذ الامام قال : ألقيت مرة خطاباً في حفلة عامة جمعت موضوعه (العلم الاسماء كلمة الله للإيجاد) فجاءني بعد زمن فبيس سوري من المعلمين في إحدى المدارس بمقالة لحس فيها ذلك الخطاب وقال أرجو ان تصح لي هذه المقالة فاني أريد نشرها فصحتها له وحذفت منها عنوانها الذي هو (العلم الاسماء كلمة الله للإيجاد) وقالت له اختر لنفسك عنواناً غير هذا ، قال هذا عنوان عظيم لا يمكن تغييره ، قالت اذاً لا آذن لك بنشر المقالة فاقبلها كلها من كلامي وقد صححت لك ما أخطأت فيه من نقله ، واستبقيت لنفسى هذه الكلمة فلم تطب نفسي بالسماح لك بها فان لم ترض بذلك فانا بالذي يسمح لك بشيء من المقالة قال رضيت

هذا الامر ما لا يعلمه غيري، فطالما لقيت بمجلس الاستاذ اصناف الملل والنحل وهي تفهم منه وهو يفهم منها ، وتجلت لي هذه المسئلة (عظمة الفلسفة) بين العلوم وكيف انها تسهل فهم كل شيء، ومزية الادمغة التي حشوها الحكمة وطرأها التصوف، وظهرت لي محاسن الانظار الشاملة التي أفقها اوسم وأعلى من سائر الآفاق . فقد كان يجتمع بحضرته علماء السنة ومجهدو الشيعة وعقال الدرور ، والى جانبهم اساقفة النصارى وأخبارهم من كل فريق منهم ، وكانوا يرون التردد عليه أمراً طبيعياً ، ويجدون فيه مرجعاً عاماً

ثم انه لم تكن تلك المجالس تخلو من المباحثات الدينية ، ومن الخوض في أمور كل هؤلاء الناس مختلفون فيها ، وكان الشيخ يجول فيها، ويأخذ ويعطي ويشرح ويوضح على عادته ، وينتهي الامر بأن الجميع يكونون على وفاق، وان كل فئة منهم ترى أن الشيخ قد فهم ما أرادت وانها هي قد فهمت ما أراد

وأغرب من هذا ان ذلك المجلس لم يكن يخلو من الملاحدة والمنعطة الذين كانوا يقصدون إلى مجلس الاستاذ ليسمعوا اقواله في الالهيات والاديان ، ويروا ماعنده في الخالق والخلق وأشياء هذه المباحث، فكان الاستاذ يناظرهم بكل توددة ويحل لهم المشكلات التي كانوا اذا سألوا عنها غيره من العلماء اعجزهم الجواب عنها ، فكنت تراهم منصتين اليه حيارى امامه، لا يدرون ماذا يقولون، مع أنهم يكونون قبل حضورهم في مجلسه قد آلوا أنهم يعجزونه كما اعجزوا غيره . وبالاختصار لم اعلم احداً تمكن من ان يبدي امامه في باب الجحود أكثر من اعتراض او اعتراضين، ثم لم يابث ان وقف حاره في العقبة ، وخرج من حضرة الشيخ إما راجعاً الى الايمان بالغيب، او باقياً على جحوده مع الاعتراف بالمعجز عن الاخذ والرد مع هذا الرباني المنقطع النظر

ومن اسرار عبقرية الشيخ في العلم والادب انه كان يتجنب كل التجنب انتقاص مذهب من المذاهب او عقيدة من العقائد التي اصحابها من عمار مجلسه وان كانوا مخالفين له في العقيدة ، وكان من الكياسة وحسن الخالقة بحيث لا يسمع منه احد من هؤلاء كجة واحدة تسوء او تشير الى نخطئة مذهبه ، او اظهار ما في

الاسلام أو مافي مذهب اهل السنة والجماعة من الفضل عليه . ولكنه من المحقق ان جميع عمار ذلك المجلس كانوا لا يخرجون منه الا وفي انفسهم إما ميل اكيد للاسلام ، وإما تقدير عظيم لمزايا الدين الاسلامي — برغم الاعتقاد بغيره

وقد طال عجبني من هذا الامر حتى لم املك نفسي ان كاشفت الاستاذ حرمة بما لحظته من هذا التأثير، فضحك رحمه الله كثيراً الى ان بدت نواجزه، وعلم اني ادركت هذا السر وقال لي : نعم وأنا ايضا اشعر بما تشعربه ، فقد قلت له «مالي ارى كثيرين من المسيحيين الذين اعرفهم معجبين اشد العجب بملتهم، محقرين للاسلام في انفسهم، قد عادوا بعد ان عاشروك يذكرون الاسلام باجلال لم يكونوا يذكرونه به من قبل ، ومنهم من إخاله قد تحول مسلماً في ضميره ولو لم يعلن ذلك؟» (١)

فالشيخ قدس الله روحه لم يكن يعتمد لا تصريحاً ولا تلويحاً ان يظهر لغير المسلمين من زواره وسامره شيئاً من فضائل الاسلام او من خصائص القرآن (٢) بل كان يتنكب طريق الجدل معهم ، والتعرض لأي شيء يؤخذه الرد عليهم ، وانما كان يقول ما يعلم من القضايا التي يستل عنها ، ويفيض في شرح القوامض وحل المشكلات بالطريقة التي لم يهدوا مثلها والتي عمدتها الفلسفة الاسلامية ، فكان مجموع كلامه يؤثر فيهم ، ويعلي مقام الاسلام في نظرهم ، ويربهم انهم لم يكونوا يعرفون عن الاسلام شيئاً تقريباً ، والحقيقة انهم كانوا يتصورون الاسلام بالصورة التي تركتها في اذهانهم كتب الافرنج من تأليف الفئة التعصبة وهي الكتب التي لم يكونوا يقرءون غيرها في مدارسهم في هذا الموضوع ، وكانوا اذا اختلطوا مع المسلمين لم يجدوا منهم الا عامياً جاهلاً، او شيخاً جامداً لا يعرف من الاسلام الا قصوره ، فكانوا يظنون ان الاسلام هو هذا ، ويقيسونه على الذين تمثل فيهم ممن لم يعرفوا سواهم ولم يحتكوا بغيرهم .

وربما وجد في البلاد فقهاء وعلماء اجلة من المسلمين ولكنه كان يغلب عليهم الجود احياناً، وكان منهم من يخشى العامة فلا يتجرأ على تخطئة خرافات

(١) اظن اننا ان من هؤلاء الشيخ سعيد الشرتوني وسأثر من مכתوباته ما يشعر بذلك ولا سيما تقريره لرسالة التوحيد (٢) بل كان يعتمد ألا يظهره وهو يقصده

الحشوية علاناً ، وأكثرهم لم يكن له اختلاط بالمسيحيين ولا وقوف على احوالهم ،
واذا راجعه احد من هؤلاء في شيء لم يكن إلا لاستفتائه في مسألة من مسائل
الحقوق أو المعاملات الدنيوية . فالعشرة بين الفريقين كانت محدودة جداً ، ودائرة
الاختلاط كانت ضيقة ، والجمود كان غالباً على علماء الاسلام هؤلاء ، والمباذيء
الحشوية كانت مستفيضة فيهم

على مثل هذه الحالة قدم الشيخ محمد عبده الى بيروت وظهر فضله وسمته
شمسه ، فاختلط به اديباء المسيحيين وعلمائهم ورؤساؤهم فرأوا منه غير من عرفوا
الى ذلك العهد ، وبعد أن كانوا يرون في الاسلام شيخاً معماً قصير أمد الفكر ، او
بالكثير فقيها جامداً متورعاً ، صاروا يرون فيه بحسب تمثيل الاستاذ الامام اياه
فقيهاً نيراً وفيلسوفاً كبيراً واجتماعياً محنكاً ، وهناك شاهدوا الاسلام كما كان
عليه مثل الغزالي او كما كان عليه ابن رشد وكما كانت عليه تلك الطبقة العليا

وكما أن المسيحيين في سورية شاهدوا من الشيخ علماً مسلماً لم يعبدهوا وانظيره ،
كذلك المسلمون أنفسهم على اختلاف طبقاتهم كانوا مقربين بفضله ، موفزين لقدره ،
وكان ناشئتهم معترفين بان هذا الاسلوب أسلوب لم يعرفوه من قبل . وقد كان
الاستاذ يجلب من علماء سورية بنوع خاص الاستاذ الشيخ حسين الجسر الطرابلسي
رحمه الله لانه كان علماً مفكراً واسع النظر مهتماً بالجمع بين الشريعة والادب
العصرية ، وطالما سمعت من فقهائه على الاستاذ الجسر كما ان الاستاذ الجسر كان
معجباً جداً بالشيخ محمد عبده معترفاً بعبقريته . وقد ذكر لي ذلك إحدى المرات ، ولم
يأخذ عليه إلا شيئاً من حدة المزاج . فقد كان الشيخ يومئذ لم يتجاوز الثامنة
والثلاثين من العمر ، وكان من أصله عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، مرهف
الاحساس ، فربما جرى لسانه بسائق التأثير بما لم يكن يجري به لو لم يكن متأثراً

وفي سنة ١٨٨٩ ذهبت الى دمشق وكنت في السنة التاسعة عشرة من العمر
فحضرت مجلس مفتي الشام العلامة الشيخ محمد الزيني في أثناء الكلام جرى
ذكر الشيخ محمد عبده وكان المفتي يعرفه فأثنى عليه كثيراً وقال مامعناه انه مع

«علم الوافر متصف بالكياسة والرقّة» جامع بين أدب النفس وأدب الدرّس ، يشبه في هذا أكابر علماء الشام واستانبول

وقد زار الشيخ إذ هو في بيروت كثيراً من حواضر سورية ومدنها كدمشق وطرابلس وبعبك وصيدا والقدس وغيرها وكان أينما حل معزّزاً مبجلاً محفوداً محفوفاً بالمستفيدين . وكانت أخلاقه تسير جنباً إلى جنب مع معارفه ، فكان مثلاً تعلم مع العمل ، ولم يقدر أحد مع كثرة اختلاطه بالناس أن يجد في شيء من أعماله مظهراً أو مغمزاً ، أو يلحظ منه ما يخل بالوقار أو الكرامة أو الحشمة ، بل كان له من الهيبة والجلالة ما لم يكن إلا للكبار الشيوخ من المعمرين مع أنه كان شاباً . ولم تكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة عن سعة علمه فقط ، بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة من العلم المقرون بالطهارة ، ومن الذكاء الزدان بالعفة ، ومن الفصاحة فتحيّة بالاحشام والورع ، فكان التناسب في خصاله تاماً ، وكان عظيماً من كل جهة . ولقد كان المختلطون به بصورة دائمة عدداً لا يكاد لا يحصى من كل نوايف ، ولم أعلم أحداً من جميعهم قدر أن يقول فيه كلمة سوء ، أو أن ينتقد منه نقولاً أو عملاً يخل بالكمال ، وهو لا يكاد يوجد وحده إلا في وقت النوم . فأما في سائر أوقاته فقد كان محاطاً بالزائرين . فالذين طعنوا فيه إن كانوا طعنوا عن جهالة دون عمد أو عن نبأ لم يتبينوه فسأحبهم الله ، وإن كانوا طعنوا عن حسد أو شتان حبهم على القول بغير علم أو بما لا يعتقدون فحسبهم الله .

وقد سمعت في تلك الأيام بعض أناس يجهرون بعداوتهم للشيخ لكنهم لم يكونوا يضمنون في أخلاقه ولا في دينه ولا في أدبه ، وغاية ما كان ينسب إلى الشيخ من العيوب وجل من لا عيب فيه هو الحدة فقط ، وهو عيب أستاذ السيد جمال الدين فقط . وقد كان تأهل من بيروت وأهله هي كريمة الحاج سعد حامده أخي الحاج محي الدين حامده فكانت صانته بهذا البيت تحمل في المنافسات والمخاصات السياسية المحلية على الذب عنه بفصاحته وقوة حجته ، مع اعتقاده التام بنزاهة مقصده ، فكان يتحمل بسبب هذه النصرة لهم شطراً من إصرر العداوة وتوابعها . وكان بعض الساخطين من أجل ذلك يقولون مالم الشيخ والتدخل في هذه الأمور التي لا تعنيننا إلا نحن أهل

بيروت فكان الاولى به أن يبقى فوق هذه الاحزاب ؟ ولم يكن أحد يزيد في انتقاده على كلمة انه جاد المزاج ، وكان والذي يقول لي انه لم يجد فيه إلا عيباً واحداً وهو ان لسانه حريف اذا غلب عليه الانفعال .

ومن غرائب مزاياه انه كان مع تلك المهابة التي فيه، وذلك الشمم الذي يتجلى من جميع نواحيه، من أرق خلق الله طبعاً ، وأعظمهم وداعة وتواضعاً ، وأحلامهم عشرة ، وأحبهم للفكاهة ، وأطربهم للنكتة ، وكان للنكات والنوادر من مجلسه نصيب وافر . وكان للطرائف واللطائف من محاضرته حظ سافر، ولكنه لم يكن يشوب تلك الفكاهات كامة بذئثة ولا لفظة ينبو عنها المجلس ، ولا قصة يشتمز ذوتريية حسنة من سماعها . فقد كان جلال الاستاذ لا يفارق مجلسه أبداً ، وكان وقاره يرفرف على أحاديثه دائماً فهو نادٍ زاهر إن عرف النكتة او النادرة فلم يعرف قط اللغو ولا اللهو . وكان أحد أصدقائه الاجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسوءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقزز من سماع ذلك ومراراً صرح أمامي باشتمزازه من هذه العادة السيئة، التي تغلب على بعض الاسنة. فكان في هذا الامر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فاندريك الامر بكاني الكبير يقول عنهم : تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة . وكان المرحوم الاستاذ يستحسن جداً هذه المزية فيهم، ويعجب بأدبهم في مجالسهم حتى آداب العوام منهم (١)

وكان الشيخ بسيط نوع المعيشة يكره السرف والترف إلا انه كان سخي النفس كثير البر ، يتفق ما بيده ولا يعرف للمال قيمة . وكان بعد سباط الاكل في محل الاستقبال ويدعو أي من حضر اليه، وكان يحب السخاء الدائم والسماحة الفطرية بدون تأنيق ولا تصنع . وكان والده يرسل اليه ما يلزم لمعيشته فلم يحتاج

(١) ذكرت في حاشية قريية انه غاظ في الانكار على محمود كحيل من تلاميذ المدرسة أن رأى معه ديوان شعر فيه بيت في وصف الردف وألذاه بسيدا كالقنور

في أثناء وجوده في بيروت إلى شيء ولا ضاقت ذات يده ولا مرة ، وكان يوازن موازنة تامة بين الراتب الذي يأتيه من أبيه وبين نفقاته فلا يجد بودجة أحسن انتظاماً من بودجته ، ولذلك لم تكن تجده عائلاً أبداً (١) وكان يصدق على الفقراء ولا يرد سائلاً ، ومن مزاياه أنه كان لا يقبل من أحد شيئاً من شدة انفته ، إلا الهدايا التافهة من خالص أصحابه لا غير

وكان من السياسة والكياسة بالمقام الأعلى فلا تجده زائره ولا عشيره إلا راضياً ، ولم تكن تحمله شدة اللفة على أطراح التكلف فقد كان يقوم حتى لتلاميذه ومريديه ، ودخلت عليه مرة وكان عنده المرحوم منح بك الصلاح فتمثل واقفاً لي فقال منح بك : ما ظننت الشيخ يقف لك . فقال له : أنا لست ممن يقول إذا وقعت اللفة ، ارتفعت الكلفة

ولم يكن يطرأ على بيروت أحد من معارفه أو من الاعيان المشهورين إلا وقام بسنة السلام عليه . وقد يحمله ويحتفي به ولو كان مخالفاً له في العقيدة ، ولم يجده احتفل بأحد أكثر من احتفاله بعباس افندي البهاء رئيس البابية مع ان الطريقة البابية هي غير ما يعتقد الشيخ وهي الطريقة التي رد عليها استاذ السيد جمال الدين رداً شديداً ، ولكنه كان يكرم في عباس افندي العلم والفضل والنبل والاخلاق العالية (٢) وكان عباس افندي يقابله بالمثل ، وكان ينصف الناس كثيراً ولا يبخس أحداً شيئاً من اشيائه ، حتى انه ذكر لي مرة ما يجده في نفسه من انصاف غيره حتى من أعدائه وقال لي : اني لأحسد نفسي على هذا الانصاف

(١) ذكر لي رحمه الله ان أحد أصحابه المصريين توفي والده في بيروت فجاءه . يقول انه ليس معه ما يجهزه به بما يليق بكرامته وكان مع الاستاذ راتبه الشهري كله فبذله كله . ولكنه ما علم أن جاءته حوالة برقية بمبلغ من المال أكثر منه كان ديناً له على بعض أصحابه قبل توفي وكان يخطئ به ويسوف

(٢) قد علمت من الاستاذ الامام انه يعتقد ان عباس افندي مسلم محب للإصلاح كما كان يظهر له عملاً بقاعدة النقية ولا سيما عند أمثاله الباطنية . وكان عباس افندي يحلي مع الاستاذ الجمعة والجماعة وسأفصل هذا في موضعه من هذا التاريخ

ومن بعد ان صرت من مريديه لم اسمع منه كلمة تقرّظ لشيء من اعماله او اقوالي، بل كان اذا استحسّن يسكت، واذا استهجن ينه ويوقظ. وكان الواحد منا يتجنب اقل التسامح مع نفسه خوفاً من توبيخه لشدة ما كنا نوقره ونهابه، وكان من اصدقائه الدكتور ابراهيم صافي وهذا لم يكن طبيباً شهيراً فحسب بل كان فاضلاً صدوقاً حسن العشرة، فكان الاستاذ يزوره في الاحايين وكنت اصحبه في هذه الزيارات، ففي إحدى المراسل له صافي عن ادباء العصر ومن الجملة عن أديب اسحاق. فقال له عن اديب: هو كاتب لا بأس به، فقال له صافي: والشيخ ابراهيم اليازجي؟ فقال الشيخ: هو اكتب من اديب بكثير بل هو اكتب المعاصرين فيما ارى، ثم التفت صافي نحوي مبتسماً وقال للشيخ: والامير شكيب؟ فقال له: سيصير في المستقبل، فقال له صافي: اتراه سيكون مثل الشيخ ابراهيم اليازجي؟ قال له الشيخ: لا، قال له صافي: الا يقدر ان يكون مثل ابراهيم اليازجي؟ فتبسم الشيخ وقال: مرادي انه سيصير احسن احسن. وهذه هي المرة الوحيدة التي صرح امامي بتفاؤله بحقي

وقد نقلت هذه الجملة لانها من كاتبة لا ادعاء بانني جئت مصداقها، وكان في غالب الاحيان يبصرني عيوني وينهني الى تلافي قصوري شأن الاب مع ابنائه ولم يكن يرغبني في الشعر، وقد مدحته بقصائده في ديواني الاول المسمى «بالباكورة» وقدمت الباكورة نفسها له وصدرتها بقصيدة مقدمة له (١) ولم يظهر لي الاهتمام بشيء من ذلك ولم يستمطر عارضي في الشعر إلا مرة واحدة وهي انه كان صديقاً للمرحوم عبد الله باشا فكري وكان عبد الله شاعراً ناثراً فشار إليّ بأن اهديه الباكورة واصحبها بأبيات بمدح عبد الله باشا، فنظمت ابياتاً رائية بعثت بها اليه مع الديوان، فاجابني عليها من البحر والقافية بقصيدة رنانة مثبتة في ديوانه

وكان يقول: لا اقول الشعر، وانما كان يعترف بالقصيدة الهائية التي قد وهو في السجن على اثر الحادثة العراقية وأنا احفظ منها:

(١) سأشر بعض هذه النصائدا وكأها في الجزء الرابع المتعم لهذا التاريخ ان شاء الله

مجدى بمجد بلادي كت أطلبه وشيمة الحر تابى خفض اهليه
ومنها :

احاول الصعب في رأي فادركه ولا حسام ولا ربح ارويه
وانما الفكر يغني نفس صاحبه عن الجيوش اذا صحت مباديه
ولم تكن رغبته عن نظم الشعر بالتي تمنعه من الاهتزاز لجيد الشعر والافتتان
بغرر القريض . فقد كان يكاد يسكر من قراءة هذه الطبقة العالية من الشعر
لا سيما الشعر الجاهلي ، وقرأ ديوان الحماسة في اثناء مقامه ببيروت فحفظ منه
الكثير ، وكان يبلغ من شغف حسه ورقة شعوره انه يعيد البيت الواحد مراراً
متعددة وهو يترنم به ولا يرتوي منه ، وأحسبه قد فعل في نفسه سحر البيان
ماتفعله الالحان في السامع ، او بنت الحان في الكارع (١) ولشدهما كان يعجبه :
اذا هزه في عظم قرن تهلت نواجد أفواه المنايا الضواحك
وقوله :

خالط ملس الصخر لم يكدح الصفا به كدحة والموت خزيان ينظر
وكان يعجبه في التشبيب قوله

(١) أما دقة فهمه وذوقه للشعر فهو من دقة فهمه للعربية واثقانه لآدابها .
وأما تأثيره في نفسه فهو من رقة شعورها وصحة وجدانها . وكنت في بعض المناسبات
أذكر له بعض الشعر المؤثر في النفس فلم أره اهتز لشيء هزته لقول بئنة اذ نعى
اليها جميل . ذلك ان جميل لما حضره الموت أعطى رجلاً حلة له وأمره بأن
يسافر الى ربيع بئنة ويقف عند بيتها وينشد :

صرح النعي وما كنى بجميل وثوى بمصر نواء غير قفول
فلما سمعته بئنة لم تلك نفسها أن خرجت حاسرة وقالت له : يا هذا إن كنت
كاذباً فقد فضحتني ، وإن كنت صادقاً فقد قتلتني . فأخرج لما الحلة فانصرفت وهي تقول
وان سلوي عن جميل لساعة من الدهر لا حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر اذا مات بأساء الحياة ولينا
فاهتز الاستاذ لسباع هذا التز والنظم وتغير وجهه ثم صار يردد البيت الثاني
مراراً وفاقاً لما روى الامير عنه

وقربن اسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعاً كلما قسن أصبعها

وقوله :

أحقاً عباد الله أن لست ذاهباً ولا جائياً إلا على رقيب

وكان يفضل محمود سامي على جميع الشعراء المعاصرين ويقرنه الى كبار المتقدمين . وهو الذي دلننا على شعره وعرفنا بمقامه واطلعنا على « الوسيلة الادبية » للمرصفي فحفظنا ما فيها من قصائد محمود سامي باشا البارودي . وأما مراسلاتي الشعرية مع محمود سامي فيما بعد أيام كان منفياً بسيلان ثم بعد العفو عنه وإيابه الى مصر فقد كانت بعد أن برح الاستاذ بيروت وعاد الى مصر . وكان محمود سامي من أحب الناس الى قلب الشيخ فلم أعلم أنه كان يذكر أحداً من أقرانه بعاطفة حب كما كان يذكر محمود سامي رحمه الله وكان يتأوه على غربته ونكبته مالا يتأوهه على أحد . ومرة كنا راجعين من إحدى السهرات في القاهرة وذلك سنة ١٨٩٠ عند مازرته إلى مصر فررنا امام دار فيحاء فوقف ونظر اليها وقال لي : هذا بيت صاحبنا، وتنهد عند هذه الكلمة تنهداً عميقاً فسألته : دار من هي ؟ فقال : محمود سامي . وكأنه تنهد لاعلى غربة محمود سامي فقط بل على غربة مصر كلها واحتلال الاجنبي لها

وكان أيضاً شديد الحب لعبد الله باشا فكري لا يفتأ يذكر محامده ومقائمه دينه ورقة أخلاقه ويحفظ من شعره ويمجبه منه قوله خطاباً للخديو توفيق ولو شئت كانت لي زروع وأنعم ومال به الآمال أقتادها قسراً ولكنها نفس فدتك أبيعة تعاف الدنيا ان تمر بها مرا

وكان يروي ان محمود سامي وعبد الله فكري كانا يتساجلان في إحدى السهرات فكان أحدهما يقول شطراً والآخر يقول الثاني فقال أحدهما

وترى الحجرة في السماء كأنها

فقال الآخر رز تبغر في طريق الحجر

وطريق الحجر طريق واسعة معروفة بمصر . وكان يروي لنا نوادر كثيرة عن مصر وأدبائها وعلمائها ورجالها حتى صرنا كأننا في مصر ونحن بعد !

نُفِرَ مِصْرَ . وَمِنْ كَانَ الشَّيْخُ يَجْلِسُ كَثِيرًا الْأَسْتَاذَ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ الْمُهْدِي الْعَبَّاسِي شَيْخَ الْأَزْهَرِ فَقَدْ كَانَ يَنْوِيهِ بِاسْتِقَامَتِهِ وَعَدَمِ مَحَابَاتِهِ فِي الدِّينِ . وَكَانَ يَجْلِسُ الشَّيْخَ حَسُونَةَ النَّوَاوِي وَالشَّيْخَ حَسَنَ الطَّوِيلَ وَلَكِنَّهُ بِالْأَجْمَالِ كَانَ يَكْرَهُ طَرِيقَةَ التَّعْلِيمِ بِالْأَزْهَرِ وَيَذْكُرُ مَسَاوِيَهَا وَيَتَأَوَّهُ مِنْ اسْتِغْثَالِ الطَّلَبَةِ هُنَاكَ بِمَا يَسْمُونَهُ « بَعْلَمُ الْكَرَّاسِ » وَمَا أَكْثَرُهُ فِي وَجْهِهِ الْإِحْتِمَالَاتِ ، وَفِي تَأْوِيلِ الْعِبَارَاتِ ، مِمَّا أَضَاعَ أَوْقَاتَ الدَّارِسِينَ فِيهَا لِإِفَادَةِ فِيهِ . وَبَقِيَ يَنْوَحُ دَلَى حَالَةِ التَّعْلِيمِ فِي الْأَزْهَرِ وَيَنْدُبُ جُمُودَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ فِيهِ وَعَقْمَ طَرِيقَتِهِمْ إِلَى أَنْ صَارَ هُوَ صَاحِبُ نَفْوذٍ فِي مَشِيخَةِ الْجَامِعِ فَأَصْلَحَ مِنْ ذَلِكَ بِقَدْرِ اسْتَطَاعَتِهِ .

وَلَمَّا زَرَّتْهُ فِي مِصْرَ سَنَةَ ١٨٩٠ قَالَ لِرَفِيقِهِ وَخَلِيلِهِ الْأَسْتَاذَ الشَّيْخَ عَبْدِ الْكَرِيمِ سَلْمَانَ بَانَ يَذْهَبُ مَعِيَ إِلَى كِبَارِ مَشَايِخِ الْأَزْهَرِ كَالشَّيْخِ الْعَبَّاسِي وَالشَّيْخِ الْإِنْبَائِي وَالشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الرَّافِعِيِّ حَتَّى أَعْرِفَ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا زَرَّنَا الشَّيْخَ الْإِنْبَائِي وَجَدْنَا عِنْدَهُ عَالِمًا اسْمُهُ الشَّيْخُ الظَّوَاهِرِيُّ . فَلَمَّا ذَكَرَ الشَّيْخَ عَبْدِ الْكَرِيمِ اسْمِي وَقَالَ أَنِي مِنْ جَبَلِ لُبْنَانَ قَالَ هَذَا الشَّيْخُ الْمُسَمَّى بِالظَّوَاهِرِيِّ : وَأَيْنَ جَبَلِ لُبْنَانَ هَذَا ؟ أَنِي مِنَ الْغَرْبِ ؟ فَأُجَابَهُ الشَّيْخُ عَبْدِ الْكَرِيمِ : بَلْ فِي سُورِيَةِ . فَأَمَّا أَنَا فَكِدْتُ أَصْعُقُ مِنَ الدَّهْشَةِ لَجَبَلِ هَذَا الشَّيْخِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ مَعْرِفَةِ الْبُلْدَانِ . وَلَمَّا رَجَعْنَا إِلَى الْبَيْتِ أَخْبَرْنَا الْأَسْتَاذَ بِمَا وَقَعَ فَقَالَ لَنَا : نَعَمْ وَهَذَا الشَّيْخُ الظَّوَاهِرِيُّ الَّذِي يَجْهَلُ أَنْ جَبَلِ لُبْنَانَ هُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الطَّبَقَةِ الْأُولَى

وَهَذَا وَأَشْبَاهُهُ كَانَ مِنْ أَسْبَابِ نَعْيِ الشَّيْخِ عَلَى جُمُودِ الْعُلَمَاءِ الْأَزْهَرِيِّينَ وَنُفُورِهِمْ مِنَ الْعُلُومِ الْعَصْرِيَّةِ وَحَصْرِهِمْ جَمِيعَ قَوَائِمِ الْعَقْلِيَّةِ فِي دُرُوسٍ مَعْلُومَةٍ يَجْهَلُونَ كُلَّ شَيْءٍ سِوَاهَا حَتَّى أَصْبَحُوا كَأَنَّهُمْ لَا يَسَوْنَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ بَلْ لَا يَسَوْنَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَمِمَّا جَعَلَهُ يَتَأَوَّهُ عَلَى فِرَاشِ مَوْتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَيَقُولُ

وَلَسْتُ أَبَالِي أَنْ يَقَالَ مُحَمَّدٌ أَبُلْ أَمْ أَكْتَظَّتْ عَلَيْهِ الْمَآخِمْ

وَلَكِنَّهُ دِينَ أَرَدْتُ صِلَاحَهُ أَحَاذِرُ أَنْ تَقْضِيَ عَلَيْهِ الْعَامَمُ

وَكَانَ جَاءَ إِلَى بِيْرُوتِ الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ التَّادِلِي مِنْ أَكْبَرِ عُلَمَاءِ الْمَغْرِبِ أَدَّى فَرِيضَةَ الْحَجِّ أَوَّلًا وَمِنْ الْحِجَازِ جَاءَ إِلَى الْقُدْسِ ثُمَّ إِلَى بِيْرُوتِ حِينَ كَانَ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامَ فِيهَا ، فَذَهَبَ الْأَسْتَاذُ لِلْسَّلَامِ عَلَيْهِ وَذَهَبْنَا مَعَهُ أَنَا وَالْأَسْتَاذُ الشَّرْتُونِي . وَلَمْ تَكُنْ

لي ألفة يومئذ بلهجة إخواننا المغاربة فقلنا فهمت شيئاً مما كان الشيخ التادلي يقوله .
وانما روى لنا الشيخ بعد انصرافه مآل حديثه ، فقال لنا انه عالم على الطريقة
المهودة بالازهر والتي ابتلي بها العالم الاسلامي كله فالازهر والاموي والزيتونة
وجامع القرويين كلها واحد ، ولم يفهم منه شيئاً جديداً الا انه أعجبه من كلامه شيء
واحد وهو ان الشيخ سأله : هل في المغرب اليوم مؤلفون في أصناف العلوم
المختلفة ؟ فأجابه التادلي : نعم يوجد مؤلفون في المغرب إلا أن العلم لا ينتشر بقوة
التأليف وانما ينتشر بقوة التدريس وكثرة المذاكر الشفوية . فاستاذنا وجد
هذا المعنى صحيحاً وقال لنا : هذا أحسن ما سمعته من كلامه . وثاني يوم قيل
لنا ان الشيخ التادلي يريد أن يقرأ درساً في الجامع العمري الكبير فأقبلت الناس
لسماع درس هذا الشيخ المغربي الكبير وذهبنا نحن مع الاستاذ ونحن نرجو أن
نسمع شيئاً جديداً أو بحثاً عائداً إلى أمراض العالم الاسلامي الحاضر وطرق علاجها مما هو
مقدم على كل شيء . فاذا بدرس الشيخ التادلي في البسملة وما تضمنته من العلوم والمعارف
والفنون مما هو مستفيض في كتب علماء انارحهم الله وما لا شك في ان الاستاذ التادلي أتقنه
اتقاناً تاماً ولكنه دل بهذا على انه غير مطلع على أحوال زمانه ولا مكانه ولا عارف
بما يوجبه الدين والعلم على العالم المسلم في مثل هذه الاحوال

وكان الشيخ محمد عبده يسمي هذا النوع حفظاً لاعلماء ويقول ان العلم الذي
لا يمتزج بالنفس ولا يصير جزءاً من أجزائها لا ينبغي أن يسمى علماً

وقد روى عنه الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » مجلساً جرى بينه وبين
جمال الدين أفندي شيخ الاسلام في الآستانة من جملة مآذكر الشيخ فيه ان
أمثال هؤلاء لا يقال لهم علماء وانما يقال لهم حفاظ لانهم يحفظون عن ظهر القلب
أصولاً وقواعد لا يطبقون منها شيئاً على فروعها وقال أيضاً : انه جاء في تعريف بعض
السادة المالكية للعالم انه الخبير بامور قومه المطلع على أحوال زمنه . اهـ

[المؤلف] أرسل إلى الامير بعد هذا فصلاً آخر في شؤون الاستاذ الامام وآرائه
وأصدقائه وتلاميذه ولا سيما سعد زغلول باشا قد استفاد أكثره من زيارته لمصر
التي أشار إليها آنفاً وسندكره في موضعه اللائق به من هذا التاريخ . وموضوعنا
في هذا المقصد بيان سيرة الامام وعمله في سورية .

خاتمة هذا المقصد

(في سعيه لاقناع الدولة العثمانية بالاصلاح وتعميم التعليم الديني مع التربية) ذكرنا في أول هذا المقصد ما كنا نشرناه في النار - ثم ما أشار اليه أخونا المرحوم السيد عبد الباسط في فصله الذي نشرناه بعده - من ان الاستاذ الامام كتب الى شيخ الاسلام في الاستانة لائحة في الاصلاح والتعليم الديني ، وأشرنا في الحاشية الى نشرنا لهذه اللائحة في الجزء الثاني وهو (جزء المنشآت) ومن قرأ هذه اللائحة علم منها أن الاستاذ الامام قد تجدد له أمل كبير في اصلاح الدولة العثمانية من طريق التربية والتعليم الذي لا يمكن الاصلاح إلا بسلوكة ، ورأى انه وصف لها ماهي مستهدفة له من الخطر على مقام الخلافة ، ووحدته الأمة ، وقوة الدولة ، بفشو الجهل في المسلمين وفساد الاخلاق ، وسريان شبهات الحساد ، ثم بنفوذ الاجانب وتأثير المدارس التبشيرية في البلاد ، حتى انه خص المدارس العسكرية بالذكر فقال (ص ٥٠٨ طبعة ثانية) ولهذا رأينا كثيرا ممن قرأوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهالاً بعبقائه ، منكبين على الشهوات ، وسفاسف المذات ، لا يخشون الله في سر ولا في جهر ، ولا يراعون له حكماً في خير ولا في شر ، وانحط بهم ذلك الى الكلب في الكسب . الخ

ان الأستاذ لم يكتب لائحة واحدة في ذلك بل لأثنين ، كان سبب الاولى منها صدور ارادة سلطانية لشيخ الاسلام بأن يؤلف لجنة تحت رياسته لاصلاح جداول الدروس في المدارس الاسلامية وتقويتها حتى تكون كافلة لجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقيهم ضروريات الدين الاسلامي وتربيتهم بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب ، فقررص أحسن الله جزاءه هذه السانحة لتعليم الدولة ماهي في أشد الحاجة اليه من هذا الاصلاح ، التي لا يرجى لها بدونه بقاء ، فبين لشيخ الاسلام ولجسته سوء حال المسلمين في هذا العصر ، وما استحوذ عليهم من الفساد والجهل ، ووصف سوء حال المكاتب والمدارس الاسلامية في بلاد الدولة ، وسوء حال رجال العلم والدين فيها ،

وطبقات الناس الثلاثة ، وما ينبغي من اصلاح التعليم الديني لكل طبقة منها — وهو التعليم الابتدائي لطبقة العامة ، والتعليم الوسيط للطبقة المرشحة للوظائف ، والتعليم العالي لطبقة المعلمين والمرشدين . وبين العلوم الدينية التي تدرس لهذه الطبقة ووسائلها وتاريخ الاسلام والتاريخ العام وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى — وهو علم واحد . ومنها فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل — وأولها تفسير القرآن . وقال فيه مانصه :

« وهو أهم ما يحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا ارجاعهم اليه . وما لم تفرغ صيخته أعماق قلوبهم ، وتزلزل هزته رواسي طباعهم ، فالامل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقاة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم . والقرآن قريب لطالبيه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي . فلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه . فان احتاج الى وسيلة أخرى فأولها مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف وتفسير الفمى النيسابوري ومن أخذ طريقهما^(١) »

وبعد الكلام في التعليم والعلوم وأسلوب التدريس وغرضه عقد فصلا للاصلاح الديني والدعاة والمرشدين الذين يناط بهم وما يشترط فيهم . وخص بالذكر خطب المساجد . ثم بحث في الكتب التي يجب أن توضع للطبقتين الاولى والثانية . وفي الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية فين كل ذلك بمباراة مقننة وأما اللائحة الثانية فقد قدمها الى والي بيروت بعد تقديم الاولى الى شيخ الاسلام وموضوعها (اصلاح القطر السوري) وقد بين فيها وجه الحاجة اليه بالاجمال ثم بالتفصيل . فبدأ ببيان حالة أهالي جبل لبنان وطوائفه من الموارنة وهم الاكثرون ثم الدروز ثم المسلمون السنيون والشيعة . وفقى على ذلك بفصل (١) راجع ما قاله لنا في تفسير الكشاف وما أجاب به عن اعتراضا عليه في ص ٣٩٠

آخر في بيان حال أهالي ولايتي بيروت وسورية . فتكلم عن الطوائف النصرانية وميولهم الى الدول الاوربية ، وعن طائفة النصيرية فالشيعة الامامية خدروز حوران فالمسلمين من أهل السنة ، فأهل البادية من الاعراب المتنقلة . وبين علاقة كل منهم بالدولة وما يجب من الاصلاح والتعليم في الجميع الذي تستقر به سلطتها في البلاد وتتي غوائل التعليم الاجنبي وما يتبعه من النفوذ السياسي ولو ان الدولة العثمانية عقلت تلك النصح واتبعتها لصلحت البلاد، وارتقى العباد ، وثبت سلطانها فيها ، وانتقل نفوذها الديني والسياسي الى غيرها . ولكن رجال الدين فيها كغيرها لم يكونوا يعقلون معنى لاصلاح مدني يستمد من القرآن ومن السنة الصحيحة ومن مراعاة سنن الله تعالى في الاجتماع البشري وأما رجال السياسة والادارة فكانوا مفتونين بتقليد الافرنج في معيشتهم وحربتهم وظواهر نظمهم ، وانما كانوا يقلدونها فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال ، وتقليد الاصاغر ، لمن فوقهم من الاكابر ، كالازياء والعادات وشكل المدارس والدواوين ، وقد ترجوا أكثر القوانين ولم يقيموا شيئا منها ، وأما العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يتقنوا منها شيئا . وقد آل الامر بحمل الفريقين الى زوال هذه الدولة من الوجود ، واخصار دولة الترك المغرورين في اماره صغيرة فقيرة ضعيفة

وكان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يخاف على الدولة هذه العاقبة السوء ويخاف سوء تأثير زوالها في البلاد الاسلامية ، وقد صرح في بعض مقالات المروءة الوثقى بأن خروج القطر المصري من حظيرة سيادتها يفضي الى ذهاب غيره ، وأشار في هذه اللائحة الى الخطر عليها من جهة فساد التربية وإهمال التعليم الديني وحلول التعليم التبشيري محله والنفوذ الاجنبي ، وقد سأله سنة ١٣١٥ عن رأيه فيها فقال انها سياج المسلمين في الجملة فيجب عليهم أن يعملوا لانفسهم قبل زوال هذا السياج الضعيف وإلا صاروا أسوأ حالا من اليهود ، فان اليهود قد تموضوا من فقد الملك والدولة بما أوتوا من الثروة العظيمة الخ وسأعود الى بيان هذا في الموضع

اللائق به من هذا التاريخ

الفصل السادس

في الطور الثالث من حياته العمالية (وهو ما عمله بعد عودته من منفاه الى وطنه)

(وفيه مقدمة ونمانية مقاصد وخاتمة ، أما المقدمة ففي عودته الى وطنه وسعيه للعمل الاصلاحى فيه : وأما المقاصد فهي (١) عمله في القضاء الاهلي (٢) عمله في اصلاح الازهر (٣) عمله في افتاء الديار المصرية (٤) عمله في اصلاح المحاكم الشرعية (٥) عمله في الاوقاف (٦) عمله في مجلس شورى القوانين (٧) عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية (٨) عمله في جمعية احياء العلوم العربية — وأما الخاتمة ففي دفاعه عن الاسلام وتدريسه في الازهر ولا سيما تفسيره للقرآن ،)

المقدمة :

ذكرنا في مقدمة الفصل الخامس انه حكم عليه بالنفي من القطر المصري وملحقاته مدة ثلاث سنين وأن ذلك كان في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ (الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٢٨٢) ومقتضى هذا ان مدة نفيه قد انتهت في أوائل سنة ١٣٠٣ هـ — آخر سنة ١٨٨٥ م وكان في أثناء ذلك في بيروت مجدداً في عمله ، طائراً في جو أمله ، وكن أول أمله تربية نشء جديد في المدرسة السلطانية ، يوجه المستعدين منه الى ما كان ينويه من اصلاح الامة الاسلامية ، وقد كان في آخر عهده مع السيد جمال الدين في أوربة قد ضعف أمله في نجاح سياسة السيد ولا سيما بعد الاضطراب الى تعطيل جريدة العروة الوثقى وتخاذل المسلمين دون مساعدتهما الواجبة ، فقال للسيد أرى أن نترك السياسة ونذهب الى مجهل من مجاهل الارض ، لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الاذكاء السليمي الفطرة فتربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم الى مقصدنا ، فاذا أتبع لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمنعي بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح ، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح ، — فقال له السيد إنما أنت مشبوط ، نحن قد شرعنا في العمل

ولا بد من المضي فيه مادامنا نرى له منفذا . أو ماهذه خلاصته من قولها .
ثم انه كان يرجو من وجوده في بلاد الدولة العثمانية أن يتمكن من اقناع
أولي الامر فيها بما يجب عليها من اصلاح التربية والتعليم في المدارس بحسب
رأيه ، وأن يكون له عمل في ذلك اذا هم اقتنعوا بما بسطه لهم من وسائله ، وهو
ماأشرنا آنفا في خاتمة المقصد الثاني من الفصل السابق (الخامس) ولما طال الأمد ،
ولم يستجب لدعوته أحد ، واقتنع بأن الدولة العثمانية غارقة في بحار جهلها ، عاد الى وطنه
وهو يعلم ان الخديو توفيق باشا غضبان عليه كاره له ، وان الانكليز اصحاب النفوذ
الاعلى في البلاد قد ذاقوا من مرارة قلمه ، وصلوا من نار عصبية المليية والوطنية مالم
يعهدوا له نظيرا في الطعن فيهم ، واثارة العالم الاسلامي والشرقي عليهم . ولكنه
هو الشجاع الذي لا يعرف الخوف إلا من الله عز وجل :

عاد الى مصر في سنة ١٣٠٦ ولا أذكر الشهر الذي عاد فيه ، فتلقاء أصدقاؤه
ومريدوه بالاجلال ، والسرور والاستبشار ، إلا الجبنة منهم فانهم تجاهلوا
وجوده ، وأذكر مما سمعته منه مثلا للصدیق الشجاع ، ومثلا للصاحب الجبان ،
أما الاول فقد أخبرني رحمه الله تعالى انه كان في محطة مصر مع المحتفلين بلقاء
الخديو في عودته من الاسكندرية ، وكان معه صديقه التليد سليمان باشا أباطه ،
فرايا ان بعض الوجوه تنكره ، والشخص تستدبره ، فجعل سليمان باشا يمشي بجانبه
متأخرا عنه قليلا ليكون منه كالتابع مع المتبوع ، فجاءه أحد أولئك الجبنة وأسر
اليه : من هذا الذي يمشي معه متأدبا ؟ ألت تعلم ان أفندينا غضبان عليه ؟
فأجابه رافعا صوته : ان هذا صديقنا واننا نجله لعلمه وفضله ووفائه ، ولم تكن
صداقتنا له لاجل أفندينا فنتركها لفضبه عليه .

وأما المثل الثاني فقد أخبرني أنه دخل على مختار باشا الغازي يوم العيد
لتهنئته فوجد عنده رجلين من الوجهاء الذين كانوا يعدون أنفسهم من الاصدقاء له ،
فلما رآياه داخلا تغيرت وجوههما ، وامتنعت الواثمة ، واتخذوا قيام الغازي له
سببا لتوديعه والخروج من حضرته بسرعة كأنهما لم يريا الاستاذ
وقد اتخذ دارا له في شارع الشيخ ربحان بالقرب من سراي عابدين فزاره

فيها صديقه عبدالعزيز افندي سلطان الطرابلسي وسأله عن سبب اختيار هذا المكان ؟ فقال : نناطح عابدين مناطحة !

هذا وانه لم يلبث أن تسابق العظماء إلى توفيق باشا يسألونه العفو عنه ، وكان في مقدمتهم بعض أفراد الاسرة الخديوية كما قلت في ترجمته من النار ، وأخص بالذكر هنا الاميرة نازلي هانم البرزة السياسية المشهورة ، وصاحب الدولة احمد مختار باشا الغازي مندوب الدولة العثمانية السامي في مصر ، وكذا اللورد كرومر ، ولم يكن أحد من هؤلاء يعرفه قبل ذلك معرفة شخصية ، ولكنهم سمعوا بفضله ، فشكر لكل منهم جميله ، وكان لتلميذه ومريده الوطني سعد زغلول سعي حميد في ذلك عفا الخديو عنه بشفاعه هؤلاء التي لا ترد ، وهو يعلم أنه كان خصما قويا للثورة العسكرية ، وانما ذنبه عنده أنه كان الروح المدبرة لنهضة الاصلاح السياسي والحركة الفكرية ، وان الحكم العسكري عليه بالنفي لم يكن عادلا . ولذلك قال : ما عفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار منه بالعفو الا هذا . ذكرت في النار أن الثقة أخبر الاستاذ الامام بهذا ، وأقول الآن ان هذا الثقة هو الشيخ البسيوني مفتي القلية الخديوية في ذلك العهد - رحمه الله تعالى

فعم ان توفيق باشا كان يعرف رأي الشيخ في التربية المالية والوطنية ، وفيما يجب أن يكون عليه شكل الحكومة ، لان السيد جمال الدين هو الواضع له لذلك ، وكان الخديو توفيق قد انتظم في سلك حزبه الوطني الذي أسسه لقلب نظام الحكومة في مصر ، وعاهده على تنفيذ النظام الجديد الذي أرشدا اليه متى صار الامر بيده ، ولكنه لم يلبث بعد توليته ان نفاه من القطر المصري ونفى خليفته الشيخ محمد عبده من القاهرة الى قريته لملمه بانه هو الذي يتم ما بدأ به أستاذه كما تقدم في ترجمة السيد من هذا الجزء . ليس من الغريب غير المؤلف أن يكره الامير المستبد تقييد سلطانه ، بل هو اليهود من المستبدين في جميع الامم ، وانما الغريب أن يسلب الاجانب سلطة أمير من الامراء ويجعلون امارته صورية يسخرونها في سياستهم ومقاصدهم حتى الضارة بها كما يشاؤون ، ثم يكون مع هذا راضيا بهذه الامارة الصورية تحت ظلمهم مفضلا ايها على تكوين بها قوة في أمته لارجاء في رفع السلطة عنها وعنه الاجنبية بدونها

الشيخ محمد عبده كان يريد تربية الامة المصرية وتكوينها حتى تكون مصدر الادارة والسياسة في بلادها ، ويكون أميرها ورئيسها ممثلا لها أشرف تمثيل ، والخديو توفيق باشا كان يكره هذا ويحول دون تمكين الشيخ منه

كان الاستاذ الامام يحب أن يكون أستاذاً لمدرسة دار العلوم - ان لم يمكن أن يكون ناظراً لها - فلما رأى ان الوصول إلى ذلك من طريق الخديو متعذراً أراد أن يحتال لنيل ذلك من طريق العميد الانكليزي ، فكتب اللائحة الثالثة من اللوائح التي نشرناها في ضمن منشأته من الجزء الثاني (١) وقدمها إلى العميد الانكليزي (السرافن بارنج) الذي أعطى بعد ذلك لقب « لورد كرومر » وفيها من الخلابة والكياسة ما كان يمكن عقلا أن يقتنع به العميد لولم يكن كاتبه والمتصدى لتنفيذه هو الشيخ محمد محرر جريدة العروة الوثقى ، وخبر هذه اللائحة سر لم يكن يعرفه أحد ، ولم أصرح به في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في النار ، ولكن التاريخ الصحيح يجب أن ينطق بجميع الحقائق التي لا ضرر فيها على أحد ، وما أشرت نشر هذا الجزء منه إلا لا تمكن من هذه الحرية

ولم يكن الاستاذ الامام مع هذا السعي الخفي لتنفيذ مقاصده الاصلاحية من طريق رسمي مضيقا لوقاته في السعي له بل كان أول ماوجه اليه هم هو السعي لاصلاح الازهر من طريق مشيخته كإسائي . ثم إنه كان يقرأ درسا في تفسير القرآن ، أخبرني بهذا الدرس في حديث داريني وبينه (في يوم الجمعة ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٣١٥) بداره إذا اقترحت عليه أن يكتب في التفسير فاعتذر بعدم عناية المسلمين بالعلم وتأويلهم للكتب كما أولوا نصوص الشرع ، وأطال في ذلك بما دونته في فاتحة الجزء الاول من تفسير القرآن ومنه قوله كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الأميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج إليها حالة العصر فما أهتم خذ أحد فيما أعلم ، مع انها كان حقها أن تكتب ، وما علمت أحداً كتب منها شيئاً خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق وكانا يراجعاني في بعض ما يكتبان ، أما المسلمون فلا ! ! ! والآن أبين أعماله في مصر مبتدئا بعمله في القضاء الاهلي

المقصد الاول

عمله في القضاء الاهلي

كنت ان الخديو توفيق باشا كان يخاف من الشيخ محمد عبده أن ينشر أفكاره الاستقلالية في الامة بالتعليم وبالمعاشرة ، فأراد أن يشغله عن ذلك فأمر بأن يعين قاضيا في المحاكم الاهلية ، وان يكون في خارج القاهرة ، فلما بلغ الخبر الاستاذ امتعض وقال انني لم أخلق لأكون قاضيا أقول حكمت على فلان بكذا ، وعلى فلان بكذا ، واما خلقت لأكون معلما ، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت . ثم رغب الى ناظر الداخلية أن يشفع له عند الامير باستبدال التدريس في مدرسة دار العلوم بالقضاء ، وقال له انني اعلم انه لا ارتقاء في التدريس وانني أرتقي في القضاء إلى أعلى درجة فيه ولكنني لأحبه ، فلم يقبل الامير هذه الشفاعة وصرح بالسبب فقال انني لأحب أن يربي لي التلاميذ على أفكاره السياسية ، فرضي بالقضاء ، وما زال يرتقى فيه الى أن بلغ أعلى درجة منه كما قال ، وهي درجة المستشار في محكمة الاستئناف

عين قاضيا في محكمة بنها ثم في محكمة الزقازيق ثم في محكمة عابدين بالقاهرة ثم عين مستشاراً في محكمة الاستئناف

وقد كان قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم ، وإن شئت قلت القاضي المجتهد لا المقلد ، ذلك أنه لم يكن يحكم بظاهر عبارة القانون وتطبيق الواقع عليها بادي الرأي ، بل كان يتحرى اظهار الحق واصابة العدل في القضايا ، فن انطبقت على القانون والإعتماد إلى وسيلة أخرى ولا سيما الصلح . ومما كان يحكم فيه باجتهاده واعتقاده مسائل الربا فانه كان اذا تمذرع عليه الصلح يحكم برأس المال دون الربا ، وكأين من قضية خالف فيها القانون عمداً ، حتى وشى به بعض حساده الواقفين على ذلك وذكر شيئاً من مخالفاته هذه في تقرير طويل قدمه الى وزارة الحقانية . فانه المستشار القضائي السابق (مستر سكوت) عن حقيقة ذلك سؤالا عاديا غير رسمي

يعد أن أطلعه على التقرير، فقال الاستاذ: هل العدل وضع لاجل القانون أم القانون وضع لاجل العدل؟ قال المستشار بل القانون وضع لاجل العدل والعدل هو المقصود بالذات. فأنشأ حينئذ يشرح له تلك القضية ويبين أنه لم يحكم فيها إلا بالعدل، فاقنع المستر سكوت وسر منه سروراً عظيماً لأنه كان منصفاً عارفاً بقيمة الرجال، على أن هؤلاء الانكليز أبعد الشعوب الأوروبية عن الرسوم في القضاء وأقربهم إلى اعتبار الانصاف ووجدان القاضي فيه

وقد أساء الادب بعض الاجانب مرة في الجلسة فأمر بحبس خبثه، فاضطرب قنصله الجنرال واحتج وكلم وزير الخارجية ولما وصلت الشكوى إلى نظارة الحقانية كلم المستشار القضائي الاستاذ في ذلك قائلاً إن هؤلاء القناصل ليس لهم عمل يشغاهم في مصر فهم يفترضون شيئاً مثل هذا يماحكون به الحكومة، ونحن نحب أن لانجعل لهم سيلاً إلى القيل والقال، فذكر له الامام ما كان من ذلك الاجنبي في الجلسة من رفع الصوت وعدم التزام الادب المعروف، وقال انني مادمت جالساً على هذا الكرسي لتقرير العدل فانا لا أقصر في احترامه — أوقال — لا أقبل أن يهينه أحد إذ لا يمكن احترام القضاء إلا بذلك الخ ما قال وكان مستحسنًا عند المستشار

وقد كان لا يعتد بمعارضة الاجانب عند تنفيذ ما يصدر من الاحكام. من ذلك أن كثيراً من الفلاحين كانوا اذا حكم على أحدهم بنزع أرض من يده يلجأ إلى رجل أجنبي أو رجل يتمتع بحماية أجنبية فيعطيه الارض بعقد كاذب نكابة في خصمه فيمنع الاجنبي الحكومة من تنفيذ الحكم، أو ترفع الدعوى إلى المحكمة المختلطة فتحكم فيها. وكان من المحكوم لهم من يترك الارض للاجنبي لاعتقاده بعجزه عن انتزاعها منه في المحاكم المختلطة، ومنهم من كان يلقي بنفسه في مهاوي الدعاوي ويخسر فيها ماشاء الجهل أن يخسر، فعلى أمثال هؤلاء الاجانب كان ينفذ أحكامه بالقوة متجماً تبعاً للتنفيذ، لعله بان ذلك الاجنبي المحتال لا يتجرأ على مقاضاة الحكومة في دعوى هو فيها مبطل يعجز عن اثبات دعواه

من ذلك أنه حكم مرة بنزع أرض من واطي ووردها الى صاحب

الحق الذي ثبت له في المحكمة - فليل له ان فيها رجلا انكليزي التابعية رفع عليها علم دولته وهو يعارض في تسليمها . . فأعطى محضر المحكمة أمراً بأن ينزع العلم ويخرج الرجل المدعي للملكية بالقوة ، فلما رأى ذلك الرجل المستأجر لمنع تنفيذ الحكم ان الامر جد، وأنه اذا لم يخرج ممثلاً أخرج مهاناً لم ير له مندوحة من الخروج . وكان في الشريعة رجل سوري محصن بحماية الدولة الفرنسية قد جعل نفسه ملتصداً للمحكوم عليهم بأمثال هذه الاحكام في مقابلة جعل يكبر بقدر كبر القضية، وكان يدخل في المحاكمات مع خصوم المتجنيء اليه حتى صار ذا ثروة عظيمة، فلما رأى أحكام هذا القاضي الذي شرف القضاء بعلمته، التي كانت عنوان علمه وعدله وقوة إرادته، ترك هذه الوسيلة الدنيئة لكسب السحت إذ صارت مدعاة خيبة وخسارة وإهانة ذلك شأنه في القضاء وقد كان فيه نسيج وحده، ولم يكن مشغولاً فيه عما خلق لاجله من تربية الامة، فقد كان يعاقب المزورين وشهداء الزور حتى ظهر كثيراً من البلاد من شرهم بعد أن استفحل وطمع سيله ، كان يستطشاهد الزور حتى يقر فيحكم عليه ويخرجه من الجلسة الى الحبس . ثم ان الحكومة أقرت عمله هذا وأدخلته في القانون بالتعديل له بعده . وكان يجتهد في الاصلاح بين أهل البيوت وذوي القربى ، ويبالغ في حفظ حقوق اليتامى فكمن من أسرة كبيرة قطعت العداوة أرحامها ، واغتالت الخصومات ثروتها ، أصالح بحكمته وأحكامه ذات بينها ، ولكن مما ثبت عنده باحصاء الدعاوى السنوية ان أكثرها كان بين الاقربين ، وقد عمل في خطبة له في الجمعية الخيرية وكان مستشاراً : إن العداوة بين الناس صارت على أشدها للأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد ! أي على خلاف ما تقتضيه الفطرة السليمة ووشيجة الرحم وهداية الدين

وكان يطارد الفحش والفجور حتى كادت الزقاقير تطهر من رجس الباطل أيام كان قاضياً فيها كما ظهرت من التزوير ، ذلك أنه كان يحكم بأشد العقوبة التي يسمح له القانون بها على كل بغي تبرجت في الشوارع وعلى أعين الناس حتى كاد يجعلهن من ذوات الحجاب . وقد نقل اليه عن بعض المجان هناك أنه قال مرة لبني يعرفها كيف الحال ؟ قالت زي الزفت ، واذا بقي القاضي ابو عمة

(أي ذو العمامة) هنا فإنه يقطع رزقنا من هذه البلد، عايز يرجع الدنيا لزمان سيدتنا النبي، وقالت أخرى مامعناه ان النبي ظهر ثانية

أخبرني أنه كان إذا رأى أو علم بأن واحدة منهم خرجت الى الشارع متهتكة أو جلست أمام ماخورها متبرجة تفازل المارين أو تعني — أمر بعض الشرطة بسوقها الى المحكمة بذهب إغراء الناس بالفسق المخطور في القانون وحكم عليها بالفرامة أو الحبس في الحال، فكان يقلن يا ويلتنا بل «يادهوتنا» كيف يعرف الناس بنا إذا التزمنا ما يريد هذا القاضي منا من ستر وصيانة وأدب؟

وقال لي كانت الفاجرة منهم تأتي المحكمة أولاً قبل أن يعلن مايراد بهن متبرجة بهيئتها المنكرة فإذا سألتها ما صنعتك؟ — على سنة التحقيق — صرحت بفجورها بملء فيها، فلما عرفني صرن يجمعن الجواب مرتعدات الفرائص، فان أفصحت احداهن لم تزد على قولها: أنت عارف.

وأخبرني انه لما عين لمحكمة الزقاق الكلية كانت قضايا العدوان والتزوير كثيرة ألجأته الى أن يعقد الجلسات في المساء حتى أنه كان في بعض أيام رمضان يستحضر طعام الفطور الى المحكمة فيأكل ويصلي فيها ثم يشتغل بعد العشاء بكتابة بعض الاحكام. ولما اشتهرت سيرته وأحكامه في المديرية كلها قات القضايا واستراح من العمل، على ان صحته حسنت في المدة التي كان يكثر فيها العمل. وقد عرف الذين يختلفون الى جلساته من الخصوم والحامين وغيرهم عادة من عاداته لم يكن هو يشعر بها وهي انه اذا ثبت عنده إجرام مجرم وأراد الحكم عليه بالعقاب كالقتل وما دونه: أمل عمامته على جبهته، فاتفق انه فعل ذلك مرة فصاح المجرم الذي علم أن سينطق بالحكم عليه «بعضك اعدل العمة حتى أقول لك الصحيح» فضحك جميع الحاضرين ضحكة الدهشة، واشتهرت هذه الحكاية في القطر المصري كله.

وأما براعته في تحقيق القضايا وفراسته في تمييز البريء من ذي الريبة فحدث عنها ولا حرج، وقد كان مؤيداً بالوجدان الصحيح والالهام الصادق، فان كان كغيره من البشر عرضة للخطأ في رأيه فقد كاد لا يخطيء في وجدانه أو إلهامه،

٤٢٤ كلمة عالية في الارادة والاختيار ، والتقدير والابداع ، والنشوء والارتقاء

وسمعه يقول في بحث الكسب والاختيار انني كثيراً ما أنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالادانة مثلاً حتى اذا ما تمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوض كل ذلك البناء الذي كنت بنيت في ذهني من وجوه ترجيح الادانة، وظهر لي بغتة أن المتهم بريء حتماً فأحكم بالبراءة ، وهذا يشبه قول بعض العارفين : عرفت الله بنقض العزائم ، والمراد منه ان الانسان غير مستقل الارادة التي هي مناط الاختيار ، فهو مجلي لتجليات من الابداع الرباني غير منتظم في سلسلة الاسباب . وههنا بحث دقيق في إثبات القدر الموافق لمذهب التطور التدريجي في الجملة ، وهو مذهب أهل السنة . وما يعارضه من القول بالأمر الأنف (بضمين) المراد به ان كل مخلوق مبدع مستأنف وهو مذهب القدريه ، والحق أن القدر هو المطرد في البشر ، وان الأمر الأنف كالأستثناء في القانون ، وهو واقع في نفس الانسان ، وفي آيات الله للأنبياء ، وحجة على ان سنن النشوء والارتقاء انما تطرد في سلاسل الانواع بعد وجودها ، لا في أصل ايجادها كلها ، وقد تتعارض مع سنن غيرها مما وراء المادة الجارية فيها ، وواضع السنن ومقدرها باقدارها ، قادر على التصرف فيها ، وترجيح غيرها من السنن عليها . ولا يخلو شيء من ذلك من حكمة بالغة ، وهذا استطراد لا محل هنا لتفصيل القول فيه .



المقصد الثاني

عمله في الازهر

كان أول حديث دار بيني وبين الاستاذ الامام (قدس الله روحه) في مصر الحديث في إصلاح الازهر . زرته في اليوم الثاني من وصولي إلى القاهرة بداره (في أواخر رجب سنة ١٣١٥) وبعد التحية والسلام، وما يتصل بذلك من كلام، كاشفته باعتقادي واعتقاد من أعرف من العقلاء فيه وانه بقية رجاء المسلمين في السعي للإصلاح والاضطلاع به، وأنه بلغني انه يعمل لذلك في الازهر. فأفاض في كلام خلصته بعد مغادرة المجلس في عشر مسائل . قال (١) إن إصلاح الازهر أعظم خدمة للإسلام فإن إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم ، و (٢) ان أمامه عقبات وصعوبات من غفلة المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم ، و (٣) ان هذا الإصلاح لا يتم إلا في زمن طويل ، وانه إذا رأى حال الازهر قد صلحت قبل موته فانه يموت قريح العيين ، ويرى نفسه سعيداً بل يرى نفسه ملكاً . و (٤) انه لا يرى لدخوله في الحكومة قائدة الا الاستعانة على إصلاح الازهر ، فانه لولا مكانته عند الخديو والحكومة لما كان يسمع له في الازهر كلام ولا يقبل له رأي ، و (٥) انه لم يحصل شيء من الإصلاح يذكر حتي الآن ، و (٦) انه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة في الإصلاح اغتناماً للفرصة فأشير عليه بوجوب التدريج (!!) وانه لا بد له من المسابرة وإن كان يخشى أن تضعف الفرصة بما يسمونه التدريج ... هذه ست مسائل في موضوع الازهر أطال القول فيها وانتقل منها الى المسائل الأخرى وأهمها تخطيط أذكاء المسلمين الذين يريدون خدمة الإسلام من طريق السياسة ، أي دون التربية التي توحد قوى الأمة، وإلى يأس من يعرفه من كبراء المسلمين من نهوضهم وتخطئهم في ذلك .

وقال لي في حديث آخر ان نفسي توجهت إلى إصلاح الازهر منذ كنت مجاوراً فيه بعد التلقي عن السيد جمال الدين ، وقد شرعت في ذلك فخيّل

يني وبينه ، ثم كنت أترقب الفرص فما سنحت إلا واستشرفت لها وأقبلت عليها ، حتي إذا باصدف الموانع لويت وصبرت مترقبا فرصة أخرى . وبعد ان عدت من النفي حاولت اقناع الشيخ محمد الانبأبي (شيخ الازهر) بشيء فلم يصادف قبولا . قلت له مرة هل لك أيها الاستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الازهر ؟ ووصفت له من فوائد ما شاء الله أن أصف ، فقال ان العادة لم تجر بذلك . فانتقلت به في شجون الحديث الى ذكر الشيوخ وسألته منذ كم مات الاشموني والصبان ؟ قال منذ كذا ، قلت انهما حديثا عهد بوفاة وهذه كتبهما تقرأ بعد ان لم تجر العادة بذلك . فسكت ولم يدخل في الحديث

وقال لي مرة أخرى ان بقاء الازهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه . وانني أبذل جهد المستطیع في عمرانه فان دفعتني الصوادر الى اليأس من اصلاحه فاني لا أياأس من الاصلاح الاسلامي بل أترك الحكومة وأختار افرادا من المستعدين فأريهم على طريقة التصوف التي ربيت عليها ليكونوا خلفائي في خدمة الاسلام ثم أولف كتابا في بيان حقيقة الازهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم في الوجود وأنشره باللغة العربية ولغة إفرنجية حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التي يجهاها الناس حتى من أهله

ثم انه لما اضطر الى الاستقالة من ادارة الازهر على الوجه الذي سمينه عزم على بناء محل بجانب داره بعين شمس والسعي لاختيار نفر من الاذكياء السليمي الفطرة وتربيتهم فيه بمساعدة مؤلف هذا الكتاب وهو ما كان اقترحه على السيد جمال الدين كما تقدم

وأما بدء عمله في الازهر فقد أتيج له بعد وفاة توفيق باشا فانه لما جلس عباس باشا حلمي على كرسي الخديوية تجددت للبلاد المصرية آمال ، وتوجهت إلى أعمال ، كان الغرض منها إزالة الاحتلال ، ولو كان هذا الغرض مما ترجى إصابته يومئذ بسهام المصريين ، لكان الفقيديكون في طليعة العاميين ، لانه كما نعلم أنفذهم رأيا ، وأقواهم عزما ، وأخلصهم قلبا ، ولكنه كان يعتقد بعد ذلك السعي الذي

شرحناه في الفصل السابق أن المسألة لا يمكن أن تحل بواسطة السياسة إلا باتفاق الدول العظام وأن الرجاء في اتفاقهم بعيد كاتين. فأراد أن يكون حظه من حب الامير الجديد للعمل السعي في إصلاح الازهر بنفسه واقناع الامير بالسعي في إصلاح المحاكم الشرعية والاوقاف لأن هذه المصالح الثلاث إسلامية محضة تشمل إصلاح التربية والتعليم وإصلاح المساجد والارشاد ، وإصلاح البيوت (العائلات) فاتصل بالامير وحظي عنده وكشفه برأيه فيها بأن قل له وقد رآه متبرما ضجراً من استيلاء الانكليز على جميع أعمال الحكومة : ان لدى أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة فيمكنه أن يصلح الأمة كلها بإصلاحها ، وقد تركها الانكليز له لأنها ديفية فهم لا ينازعونه فيها الآن ، ولا يؤمن تدخلهم في شأنها إذا طال العهد وساعدت الفرص فيجب المبادرة لإصلاحها ، وذكر له كليات هذا الإصلاح . وكشف الحكومة بأمله في إصلاح الازهر بأسلوب آخر ، وجاء بما جاء به من آيات الاقناع حتى توصل الى إنشاء قانون تمهيدي للإصلاح يديره مجلس مؤلف من أكابر علماء المذاهب في الازهر ينتخبون انتخاباً وقد جعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه على انهما من قبل الحكومة لا رأي لشيخ الازهر ولا له مجلس في انتخابهما ، ولا في استبدال غيرهما بهما. وكان الشيخ محمد الانبائي الذي هو شيخ الازهر لذلك العهد مريضاً وقد كثرت شكوى الشيوخ من إدارته فعين الشيخ حسونة وكيله بعد أن أخذ عليه العهد بإقامة النظام والاتفاق مع الاستاذ الامام على الإصلاح وقد أجمعت القول في الإصلاح الرسمي في ترجمته من المنار فقات

عين الشيخ حسونة وكيلاً لمشيخة الازهر مآذونا بإدارة شؤونه لسمع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ وصدر الامر العالي بتشكيل مجلس إدارة الازهر لست خلون من رجب من تلك السنة أي في الشهر الثاني ثم حصل السعي في اقناع الشيخ الانبائي بالاستقالة فاستقال وصدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخاً للازهر في ٢ المحرم سنة ١٣١٣

كان الاستاذ الامام ، روح الله روحه في دار السلام ، يحب أن يجري الإصلاح في الازهر باقناع كبار مشايخه ورضى أهله فبدأ باستمالتهم بتكثير رواتبهم

فسعى لدى المستشار المالي الاسبق لتعيين مبلغ من خزانة المالية لمساعدة الازهر الذي يخرج للحكومة كذا رجلا من القضاة الشرعيين والمفتين والمأذونين فأجيب الطلب وعين في ميزانية سنة ١٨٩٥ م مبلغ ألفي جنيه للازهر على أن تصرف بنظام معلوم لا رأي شيخ الازهر وميله على ما كان يعهد في الازهر، مع الوعد بالزيادة على هذا المبلغ في فرصة أخرى اذا جاء بفائدة، فكان هذا حاجة للفقيد على وجوب وضع قانون للترتبات في الازهر ليكون لكل عالم حق معلوم يتناول له في وقته من غير تزلف إلى شيخ الجامع او غيره. وتلا هذا القانون قانون كساوي التشریف ومرتباتها وكان الرأي فيها من قبل لشيخ الجامع يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، فصارت تعطى لمستحقها من غير سعي ولا تزلف، فسر الشيوخ بذلك سروراً عظيماً

بعد هذا وجه الفقيد عنايته في المجلس الى نظام التدريس والامتحان وبيان وسائل العلوم ومقاصدها وجعل التدريس فيها على طريق توصل الى الغاية منها. وبعد اجتماع ومذاكرات طويلة وضع القانون لذلك واحتيج في تنفيذه الى المال فلجأ الفقيد الى أربحية الامير فصدر الامر لديوان الاوقاف بصرف ٣٣٧٤ جنيها للازهر بينت مصارفها ومنها ٤٦٤ جنيها لانشاء دار الكتب الازهرية، ثم وضع نظام آخر لتوزيع الجرايات بالعدل

وأما نظام التدريس واختيار كتب العلوم فهو الذي أحب الاستاذ الامام رحمه الله تعالى أن يجعله برأي كبار الشيوخ ليسهل تنفيذه بالرغبة، ولا يثقل عليهم إلزامهم به من جانب القوة، وليتعود أهل هذا المكان على البحث في الامور المهمة، والتعاون على ما ينفع الامة، فوضع مشروع نظام التدريس واختيار الكتب واقترح أن تؤلف لجنة من كبار الشيوخ للبحث فيها وإقرار ما يرونه نافعا، فألفت اللجنة من أكثر من ثلاثين عالماً وجعل الشيخ سليم البشري أحد أعضاء مجلس الادارة رئيساً لها. ثم انتخب منها لجنة للبحث في كل فرع من المشروع وإبداء رأيها فيه للجنة الكبرى، وكانت هذه اللجنة مؤلفة من بضعة نفر، هم أكابر شيوخ الازهر وضم اليهم الاستاذ الامام من قبل مجلس الادارة، وبعد أن اتمت هذه اللجنة عملها قدمته إلى اللجنة الكبرى فأقرته هذه بعد تحوير

قليل لا يذكر وكانت مشيخة الازهر قد اسندت يومئذ الى الشيخ سليم البشري الذي أوقف كل ما كان المجلس شرع فيه فأوقف أيضاً مشروع اصلاح التدريس بل كان المجلس يقرر الشيء بالاتفاق مع رئيسه الشيخ سليم ثم انه لا ينفذه ولم يكن القصد من ذلك إلا إجباط سعي الاستاذ لامام وإبقاء القديم على حاله ، واقد كان قادراً على الالتزام بالتنفيذ بطابه رسمياً من الحكومة ولكنه لم يكن يجب أن يكون للحكومة تصرف في الازهر بل أن يبقى مستقلاً يصلح أهله يرضى واقتناع وهل يبقى كذلك بعده ؟ الله اعلم والايام تظهر ما يعمل

وكان من الاصلاح الذي تم في الازهر بسعيه رحمه الله تعيين طبيب الازهر وصيدلية (أجزخانة) خاصة به في نفس الجامع وإنارة المسجد بالغاز البخاري ، وإنشاء الميضة على الاصول الصحية وتجديد مبان صحية في الاروقة وغير ذلك مما انفصله في التاريخ ، ومن شاء أن يطالع على ذلك بالتفصيل التام ، فليرجع الى كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر) (١)

وقد انتقل الازهر بهذا الاصلاح من خلل عام ، إلى شيء من النظام ، ومن حالك الديجور ، إلى بصيص من النور ، ولم يتم عمل من الاعمال على ما كان يجب رحمه الله تعالى . ولكن الاصلاح الحقيقي الذي كان روحاً محيياً ونوراً مبصراً فهو ما كان يليق به من دروس التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق فهذه الدروس هي التي حوت نفوساً كثيرة عن السبل المتفرقة الى سبيل الله وصراطه وهي محل الرجاء في هذا المكان اهـ

هذا ما أجملناه في ترجمة الامام عقب وفاته وقد وعدنا بتفصيله في هذا الكتاب ، واننا نتجز وعدنا بتلخيص المهم من كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر - من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ الى غاية سنة ١٣٢٢) وهي مدة اشتغال الاستاذ الامام المصلح في المجلس فهو قد استقال في شهر المحرم سنة ١٣٢٣ وتوفي في شهر جمادى الاولى منها ، وان كان في هذا التفصيل تكرار لما في ذلك الاجمال

(١) هو تاريخ يبين ما كان عليه الازهر قبل الاصلاح وما صار اليه بعده صورة ومعنى وصفحاته ١٢٤ وعن النسخة منه ٤ قروش واجرة البريد قرش وبطلب من مكتبة المنار تبصر

كتاب أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين

طبعت هذا الكتاب ونشرته في سنة ١٣٢٣ ولم أكتب عليه اسم مؤلفه . وأقول الآن ان الذي كتبه هو الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان صديق الاستاذ الامام وزميله في هذا العمل ، كتبه في أثناء مرض الامام بامر ، وقد قرأته كله عليه قبل طبعه فأقره ، وأكثرت مايسنده فيه الى « أحد أعضاء مجلس الادارة او بعض الاعضاء » يراد بالعضو فيه الاستاد الامام ومنه وهو أقله مايريد به نفسه وانني أسكت عن الاكثر وايبين الأقل في الحاشية ، ولم يكن أحد منهما يريد إظهار اسمه لان عملهما كان خالصا لوجه الله عز وجل جزاهما الله أفضل الجزاء . قال الكاتب رحمه الله

﴿ تشكيل مجلس ادارة الازهر وأسبابه ﴾

(رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) في اوائل المحرم من سنة ١٣١٢ هجرية قامت قيادة أهل الفضل من العلماء على المرحوم الشيخ محمد الانبائي شيخ الجامع الازهر اذ ذاك فرفعوا العرائض الى الجناب العالي مفعمة بان شيخهم عاجز عن ادارة شؤونهم وانه خص أهل مذهبه الشافعية بخيرات الازهر وانه قصر عليهم كساوي التشريف على غير إنصاف بين أهل مذهبه وبين بقية اهل المذاهب ، وما زالوا كذلك حتى أوقف الجناب العالي صدور الاوامر العالية بالانعام على من اختارهم الشيخ وخصهم بتلك الكساوي التشريفية وبقيت المساوي موقوفة الى أن تغيرت الحال

وفي اثنامن من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ صدر الامر العالي بتعيين الشيخ حسونة النواوي وكيلاً لمشيخة الازهر مأذونا بأن يدير شؤونه حتى يتقرر أمر جديد . ثم لم يمض الا أقل من شهر حتى صدر أمر عال بتشكيل مجلس ادارة الازهر وذلك في ٧ رجب سنة ١٣١٢ وبلغ الى رئاسة مجلس النظار ، وسميت أعضاء المجلس في ذلك الامر الكريم ، فكان منهم اثنان من

موظفي الحكومة وهما الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وثلاثة من اكابر العلماء الازهريين غير الموظفين أحدهم شافعي وهو الشيخ حسن الرصافي والثاني مالكي وهو الشيخ سليم البشري والثالث حنبلي وهو الشيخ يوسف النابلسي شيخ مذهب الحنابلة اذذاك . ومجلس النظر أبلغ هذا الامر الى وكيل المشيخة وهو أعلنه للأعضاء ودعاهم الى الاجتماع أول مرة في الازهر للنظر فيما لديه فيه من الشؤون وكان أول اجتماع لهم في السادس عشر من شهر رجب المذكور وبعد هذا رؤي ان وجود شيخ للازهر بمنزل عنه لا يعلم شيئا من شؤونه ووجود وكيل هو رئيس مجلس الادارة واليه ينتهي كل شيء مما يدعو إلى توقيف سير الاعمال ، ويوجب بقاء القيل والقال ، فأوعز الى مأمور رسمي عظيم بان يحسن للشيخ الانبائي الاستقالة من منصبه ، فتردد الشيخ طويلا ثم انصاع بعد الى تلك النصائح التي اعتبرها أمراً ، وقدم استقالته الى المقام الرفيع - وكان حينئذ في الاسكندرية المصيف - وصادف ان رأس السنة الهجرية كان قد قرب فتوجه الكثير من العلماء لتأدية التهنئة بذلك الموسم وبالطبع كان فيهم الشيخ حسونة النواوي وكيل المشيخة ، فدار الكلام بصفة غير رسمية في قبول الاستقالة الانبائية وفيمن يعين شيخا للازهر بدله وبات في حكم المقرر أن يكون الشيخ الاصيل هو ذلك الوكيل

وبينا الحال كذلك في سراي رأس التين واذا بعريضة وقع عليها فوق الثلاثين وتلغراف وقع عليه عشرة ونيف كلهم من اكابر العلماء شافعيين وغير شافعيين طلبوا فيهما من الجنب العالي أن لا يقبل استقالة الشيخ الانبائي وان يقيه شيخا لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت من العلم والقدرة على ادارة الشؤون، وان لا يعين الشيخ حسونة شيخا للازهر لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت ... وقد كاد هذا الامر يقضي الى بقاء القديم على قدمه والى توقيف تعيين الشيخ حسونة لولا ان بعض العارفين بحال الازهر واهليه كانت موجوداً في الاسكندرية وأشار بمراجعة هذه التوقيعات التي على العريضة والتلغراف ومقابلتها بالتوقيعات التي على عرائض الشكوى من الشيخ الانبائي فروجعت فاذا بعضها

موقع به على النوعين ، وهنالك تحقق الجنب العالي انه لاقيمة لمثل هذه التواقع التي توقع على الامرين المتضادين، وان المصلحة هي المقدمة بقطع النظر عن يضادها وان كبروا وكبروا، فصدر الامر الكريم بقبول استقالة الشيخ الانبائي رحمه الله ولم يعبا بطلب ابقائه من أولئك الطالبين وفي اليوم الثاني من شهر الحرام سنة ١٣١٣ صدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخا أصيلا على الازهر ورئيسا لمجلس ادارته، ثم ذهب الى السراي العامة واستلم الامر وشكر ولي النعمة على ماتفضل به عليه ، ثم استفاض الامر بين علماء الازهر الموجودين في الاسكندرية فارسل بعض أصدقائه تلغرافا الى مصر أخبر فيه بأنه قد عين شيخا للازهر وانه عائد الى مصر في الغد، فلا وربك لم يبق ولا واحد تقريرا ممن طعنوا على تعيينه في تلك العريضة وذلك التلغراف الا وقد استقبله على محطة مصر او انتظره في بيته بقنطرة عمر شاه قبل أن يصل اليه ليهنئوه بالمنصب الجديد الذي هو أحق به ممن سواه وصدقوا فيهم حدس من قال في ذلك اليوم (يوم ورود العريضة والتلغراف) ان اوائك الطاعنين سيكونون السابقين الى تهنئة الشيخ الجديد في المحطة ليعرفهم بانهم كانوا أول المهنيين^١

قانونه المرتبات

قلنا فيما مضى ان أول اجتماع لمجلس الادارة الذي شكل على الوجه السابق كان في السادس عشر من شهر رجب سنة ١٣١٢ ونقول انه في هذا الاجتماع الاول قرر أعضاءه خطة سيرهم وما يلزم البدء به من الاعمال وما يقدم من القوانين المحتاج اليها في الوضع، فظهر لهم ان أول ما يهم أهل العلم هو ضبط المرتبات وتوزيعها عليهم، وقد صادف ان نظارة المالية كانت قد وضعت في ميزانية سنة ١٨٩٥ مبلغ ألفي جنيه مصري في السنة معونة للعلماء فوق ما كان لهم فيها من قبل وذلك بسمي بعض أهل الخير^٢ الذين يحبون أن يتسع رزق أهل الازهر وأهله يعرفونهم بهذه

(١) ان الشيخ عبد الكريم هو الذي قال هذا لاخذ بوابه ازا الاستاذ الامام

(٢) هو الاستاذ الامام الذي أقنع المستشار المالي بذلك كما أخبرني وقال انه تعب تعباً عظيماً في اخذ وفدهم لمقابلة المستشار ليتكلم بلسانهم وانما يشتهلانه لم يعبر عنه بمضو مجلس الادارة

الصفات وإن أنكروها عليهم أحياناً ، واشترطت المالية أن لا تصرف هذه المعونة إلا بعد أن يوضع لصرفها نظام فإن وضع فيها ، وإلا أبقى معونها عندها ، وحرّم منها أهل هذا المكان الضعفاء — كل هذا جعل البدء بوضع قانون المراتب أمراً لازماً لا يسوغ معه تقديم غيره عليه ، فكلف المجلس بعض أعضائه بوضع مشروع لهذا القانون فوضعه ، ثم نوات الجلسات لتلاوته والتعديل والتنقيح فيه ، حتى كمل وضعه وجاء وافياً بالحاجة من معظم وجوهه ، وقدم الى هيئة الحكومة ودارت المحابر بين الهيئة الحاكمة وبين بعض أعضاء المجلس في تفهم مواد هذا النظام الذي لم يعهد له عند الحكومة مثيل حتى اقتنعت نظارة المالية بما فيه وتبين لها ان ما كان منه مخالفاً للمألوف في قوانينها المالية انما جاء طبقاً للمألوف في الازهر ومراعى فيه احكام الضرورات وهي تبيح المحظورات ، فقبلته المالية وقرره مجلس النظار وصدر الامر العالي به في اليوم السادس من احرّم سنة ١٣١٣ و ٢٩ يونية سنة ١٨٩٥

ولقد ترتب على ايجاد هذا النظام ان طلبت نظارة المالية من الازهر أن يقرر درجات العلماء ويحدد الرتب لكل درجة منها ويبيث اليها بمجداول هذا الترتيب ، فاشتغل المجلس بذلك وآتمه على الوجه الاكل فيما رآه وأرسل الجداول الى نظارة المالية فلم يسهبها بعد إلا أن اقوت الامر وأمرت بصرف الالفى جنيه ، وبقي هذا المبلغ في ميزانية المالية يصرف معونة للازهر مشاهرة الى الآن ولا تظهر فائدة هذا العمل (وضع قانون المراتب) إلا بذكر طرف مما كانت عليه الحال فيها قبل وجود هذا القانون وطرف آخر مما صارت اليه حالاً بعد وضعه فلنذكر منها شيئاً وان كان إجمالياً وقليلاً لتجلى الفائدة واضحة التبيان

﴿ حال الازهر ومراتب الشيوخ قبل النظام الجديد ﴾

تنقسم مراتب الازهر الى قسمين : سنوية وهو ما يسمونه بدل الكساوي شهرية ، ومصرفها معاً العلماء للدرسون وأولاد من يموت من العلماء . وقد كان الامر فيها بنوعيهاموكولاً الى شيخ الجامع الازهر يعطي من يشاء ويمنع من

يشاء . وكانت المراتب السنوية تجزأ اجزاء صغيرة بحيث يمكن لشيخ الجامع أن يعطي منها نحو مائة قرش في العام او اقل، وكانت المراتب الشهرية تمنح لأناس دون آخرين، فكان لبعضهم منها نحو ستة عشر قرشا في الشهر ولكثير منهم الحرمان بالمرة، وللقليل منهم ما فوق ستائة قرش شهرياً . واذا انحل بموت احد العلماء شيء من هذين القسمين رأيت بيت شيخ الجامع غاصاً بالمتزلفين ، مزدحماً بالراجين، مملوءاً بالشاكين البائسين ، ورأيت مباشر الازهر ^(١) وهو كاتب بسيط تتماوج بين يديه الفرجيات ، ذاهبات آتبات ، كل يرجوه، وهو يعد او يصد، او يؤمل او يقنط ، وربما انتهى الامر بعد الجري والعدو بين البغالة والفجالة ^(٢) لتجزئة ذلك المنحل وضم اجزائه الى مراتب بعض الاكابر ، وحرمان الخالين منها بالمرة. فيتربص الراجون والشاكون ينتظرون موت واحد منهم لعله ينالهم من مرتبه شيء يسير

واني لأعلم ان مجالس الادارة جاء وفي العلماء من ليس له مرتب اصلاً وهم كثيرون، وفيهم من له ستة عشر قرشا في الشهر لاغير، وفيهم من يمني نفسه، وفيهم من ينس ورضي بالخبز القليل ، أعرف منهم واحداً مات رحمه الله وقد عرضت عليه لفقره وعلمي بحاله بعض الشيء ، من مالي كل شهر فأبى علي ذلك، وطلب مني ان ارجو شيخ الجامع حينئذ في أن يعطيه شيئاً ولو من مراتب صدقات الاوقاف ففعلت ورضي بما توسطت له به عند الشيخ وهو نزر قليل

هذا طرف من تلك الحل القديمة وقد تغيرت والحمد لله بالمرة بعد وضع

(١) المباشر في اصطلاحات بعض الفقهاء هو الكاتب اذ كان يوقع بالتنفيذ ويأمره وهو هنا كاتب الازهر ولما صار للازهر عدة كتاب صار رئيسهم فهو فيه بمعنى (باشكاتب) في الدواوين اه من حاشية الاصل

(٢) البغالة موضع في مصر يقيم فيه بعض العلماء منهم الشيخ سليم الشرنوب شيخ الازهر السابق والفجالة محلة كان يقيم فيها المرحوم الشيخ الانبأى اه من الاصل

ذلك القانون اذ تقرر فيه ان المرتبات السنوية (بدل الكساوي)^(١) لا يمكن ان ينقص عن اثني عشر جنيها في العام ولا ان يزيد عن ثلاثين جنيها وثلثي جنيه ، وينههما درجات ترتفع الواحدة عما تحتها ثلاثة جنيها (٢) وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه بانحلاله عن يموت من العلماء ضوابط مقرر لا يتعداها أحد ، وان المرتبات الشهرية لا يمكن ان تنقص عن خمسة وسبعين قرشاً ولا ان تزيد عن ثلاثمائة قرش الا اذا تجدد شيء في المقرر، وينهها درجات. وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه ضوابط كذلك. وبذلك اخذ كل واحد من لم يكن ياخذ مرتب درجته التي وضعه فيها مجلس الادارة أو كمل لمن كان بيده اقل من المقرر لدرجته. وامان كان منهم فوق هذه الدرجات فقد أبقى على ما كان بحكم الضرورة لانهم ليسوا بالكثير، ولأنه كانت لبعضهم مكانة بالسن والشهرة بالعلم، ولأنه شيء ما اكتسب بالفعل قلا وجه لا أخذه ، فاضطر القانون لاستبقائهم على ما كانوا عليه وقرر أن توزع مرتباتهم بعد موتهم طبق القانون، فاستقر كل واحد في مكانه وانفع بالمرتب على مقدار ما قسم بدون ان يجهد نفسه في الرجاء او الاستجداء.

واني لأعرف واحداً منهم هو حي يرزق الى الآن قال لما علم بأن ما كان بيده من المرتب قد زاد (اني غير مصدق بانني اخذت شيئاً وكيف اصدق وانالم

(١) كان الممتازون من العلماء يزورون والي مصر في أول ليلة من رمضان فيخلع عليهم الخلع وهي الكساوي . وقد انقضت هذه المادة مدة من الزمان ثم رأى الولاة بعد ذلك ان يستبدلوا بها نقوداً وصارت من مرتبات الازهر التي تصرف لاربائها من خزينة المالية في أول رمضان والفصل في استرجاعها المرحوم الشيخ العباسي ولكنها صارت في ايدي مشايخ الازهر يعطون منها من شاؤوا اي مقدار شاؤوا فردها النظام الي أصحابها من حاشية الاصل

(٣) درجات بدل الكساوي سبع (الاولي) ٣٠ جنيها و ٨٦٧ ملما وهي لاثنتين من العلماء أحدهما شيخ الجامع (الثانية) ٢٧ جنيها وهي لثلاثة (الثالثة) ٢٤ جنيها وهي لمانية (الرابعة) ٢١ جنيها وهي لستة (الخامسة) ١٨ جنيها وهي لاربعة (السادسة) ١٥ جنيها وهي لخمس (السابعة) ١٢ جنيها وهي لعشرة اه من حاشية الاصل

الكلم احداً ولم ارج كبيراً ان هذا من المحال) ولم يصدق الا بعد ان قبض الزيادة بيده في آخر الشهر وتكرر صرفها بتكرار الشهور وهناك عرف ان الحق يصل الى صاحبه بدون ذلك الطريق المعروف

وأما اولاد العلماء فقد جعل لهم القانون حداً لاستيلائهم على تلك المرتبات المنحلة عن آباءهم وقيد ترتيبها لهم بقيود مراعياء معونتهم على طلب العلم واستدامة اشتغالهم ليخافوا آباءهم الارلين وقدر لهم سنين يأخذون فيها ذلك المرتب مع مراقبتهم في عمامهم من مجلس الادارة

هذه حال المرتبات بعد القانون وهي وان كرهها الاقلون قد أفرحت الاكثرين، وجعلتهم في مأمن من استقلال الشيخ بالامر وصرف ما يشاء ان يشاء، واني لا أعرف واحداً من اكابر المالكية قل لبعض اعضاء مجلس الادارة والمجلس يشتغل بترتيب الدرجات « كيف يأخذ هؤلاء العلماء الصغار من المرتبات ونحن العلماء الكبار على قيد الحياة؟ » فأجابه العضو « يا مولانا ان الصغير يشتغل بالتعليم كما تشتغل وان اخلفنا في النفع فيحسن أن يكون له في مقابلة عمله راتب قابل، ومثلك يا مولانا يأخذ على مقدار عمله الراتب العظيم » فلم يقتنع الشيخ ورأى ان هذا من الاجحاف بمكان، فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

بعد أن وضع هذا القانون وجداول الدرجات قامى مجلس الادارة الاهوال في تطبيق كل حادثة وقعت على نصوصه لان اهل هذا المكان لم يتعودوا على شيء من النظام، ولاحظ المجلس انه ربما كان للمالية بعض المراقبة على تطبيق نصوصه فجاء هذا الحساب مضبوطا وأرسلت المالية آخر السنة مندوبا من أمهر عمالها لمراجعة أعمال المجلس ففتش كل صغيرة وكل كبيرة فلم يجد ما يلاحظ عليه ورجع مسروراً، ثم عاد آخر السنة الثانية وفعل كما فعل في الاولى فكان الامر فيها أيضاً على ما رآه

(الحاق التعليم في الجامع الاحمدي بالآزهر^(١))

في ١٦ شوال من سنة ١٣١٢ أي بين زمن توكيل الشيخ حسونة وبين زمن مشيخته صدرت ارادة سنية بالحاق الجامع الاحمدي بالجامع الازهر في التدريس والامتحان وادارة الشؤون العلمية، فأجهد المجلس نفسه (في الفترة التي كان فيها قانون المرتبات بين يدي الحكومة) في وضع القوانين والنظم لهذا المسجد وقامى كذلك في تنفيذ تلك القوانين خصوصاً مايتعلق منها بالامتحان مشاق لا تحتمل عادة، وآخر الامر انصاع أهله للحق وقر قرار شيخه الجديد الذي عينه مجلس الادارة وقبل الامتحان من أهله أكثر من عشرين وهم الذين كان دسهم شيخه السابق قبل فصله بأيام في العلماء بلا امتحان، وسار التدريس فيه سيراً حسناً بقدر الامكان، وتخرج فيه كل سنة كثير من العلماء بالامتحان

(الحاق التعليم في المسجد الدسوقي ودمياط بالآزهر)

وفي يوم صدور قانون المرتبات السابق ذكره (٦ المحرم سنة ١٣١٣) أي عقب تعيين الشيخ حسونة شيخاً بأربعة ايام صدرت ارادة سنية اخرى بالحاق التدريس والامتحان في المسجد الدسوقي وفي دمياط بالجامع الازهر فوجه مجلس الادارة عنايته اليهما، ووضع لكل منهما نظاماً خاصاً به وكلف نفسه أوصاباً كبيرة في تنفيذهما، ولم يعبأ بما لاقاه من أهل العلم في دمياط، وكثر شغبهم ولعبهم في أمر تقرير درجاتهم وعلت شكواهم فوجه اليهم المجلس من أعضائه من عمل بالحق، حتى انحسم الامر فيها بالعدل، وتقررت لهم الدرجات وفرضت عليهم الاعمال، وتكفل نظامهم بما يوزمهم من العمل فسكتوا راضين وأما الجامع الدسوقي فقد عمر بالعلم ونيط التدريس فيه ببعض علماء من الازهر

(١) غرض الاستاذ الامام من هذا الحاق ظاهر وهو توحيد التعليم وقائده في ازالة التصادم وتعميم الاصلاح لا تخفى ومن العجيب ألا يشير السكاك الى سعي الاستاذ الامام او احد اعضاء مجلس الادارة الى ذلك

ارسلوا اليه، وتوارد اليه الطلاب من أقاصي البلدان بعد أن كان لا يتلقى فيه غير لفيف من اهل البلد لا يهمهم الا الاخذ من صندوق النذور^(١) ودروسه الآن حافلة والراضون فيها كثيرون، وقد جاء منهم الى الازهر طلاب واختبروا فوجدوا أهلا لأن يتلقوا الكتب العالية فيه، وحسبت لهم مدة الطلب في دسوق

كساوي التشریف

لما كان من عادة اهل الازهر الاهتمام بالماديات قبل كل شيء، وقد فرغ المجلس من أمر قانون المراتب توجهت الفكرة الى كساوي التشریف التي كانت اوقفت في زمن الشكوى من المرحوم الشيخ الانبائي وكانت نحو اثنتي عشرة كسوة فوزعها المجلس على بعض المشايخ توزيعا روعيا فيه جانب الاستحقاق والعدل من جهة وجانب ما كانت قد جرت العادة بملاحظته من قبل. وصدر الامر العالي بالاحسان بها طبق ماقرره مجلس الادارة، فكان هذا مع ماسبقه من اعطاء المراتب موجبا للفرح والسرور، ثم التفت المجلس بعد ذلك الى انه يجب أن يكون لصرف هذه الكساوي قانون يراعى فيه تقرير صفات الاستحقاق لكل درجة من درجاتها حتى تندفع الآفة ويكون الحكم هو القانون، وتكون الاهلية بالصفات وبالاعمال، لا بالمحابة والالاحاح. فوضع المجلس هذا القانون ثم عرضه على الحكومة وهي بعد أخذ ورد وطول مناقشة وكثرة اجتماع ببعض الاعضاء أقرته وصدر الامر العالي بالعمل به في ١٧ شعبان من سنة ١٣١٣

والذي قيل في بيان الفائدة من وضع قانون المراتب يقال أيضا في وضع قانون كساوي التشریف فقد كان الامر فيها فوضى تابعا للهوى وكان لا يمنع الكسوة من علم وعلم أو عمل بما تعلم ولكن ينالها من كثر سعيه أو ظهرت ثروته أو التجأ الى ذي جاه، حتى تعدت الى غير العلماء فأخذها بعض من لا يقدر أن

(١) يعني صندوق النذور التي تنذر للشيخ ابراهيم الدسوقي لاجل قضاء الحاجات

وشفاء المرضى. وهي من سحت الوثنية

بقراً فضلاً عن أن يفهم، وتحملي بها بعض التابعين للمشايخ من القضاة وقد كانوا في صف كتاب الحاكم، ووصل اليها من مشايخ الطرق والـ "جديد" أناس لا يعرف كيف وصلت اليهم، وترقى في درجاتها من لا مكانة له في الوجود لا بتلك المظاهر. أعرف منهم كثيرين ويعرفهم غيري بما أعرفهم به من الصفات وقد وصل الامر في هذه الكساوي الى ان مجلس الادارة كان يصل اليه الخبر بموت أحد أصحابها اتفاقاً فيحتاج في الوقوف على حاله وموته أو حياته الى استعلامات رسمية من بعض جهات الحكومة في الارياض وبعد التتبع والتي يعرف اسم الشخص وتاريخ موته فيصرف الكسوة التي كانت معه الى مستحق جديد.

اما وقد وضع النظام فقد تقرر الصفات وحددت الدرجات وخص المدرسون من العلماء بانواعها الثلاثة، وجعل لغيرهم ممن ليسوا منهم نوع مخصوص سمي بكسوة المظهرية، وبين المظهرية والعلمية مميزات. وقد تساهل القانون في العلماء الموظفين نوعاً من التساهل فقرر لهم الكسوة العلمية بقطع النظر عن الدرجات. وأما من وصلتهم هذه الكساوي العلمية قبل صدور القانون وهم ليسوا من أهلها فقد اقيمت الحال فيهم على ما كانت الى أن يموتوا لانهم صاثرون الى النقص بالضرورة، وقد كادوا يفرغون فلم يبق منهم الا عدد قليل.

ثم ان المجلس أراد أن يوفق بين القانون وبين ما كان جارياً من قبل نوعاً من التوفيق فراعى في بعض الاحيان الاقدمية في العالمية بعد مراعاة صفة الانفع في التعليم، وبذلك انتقل الحال في أمر الكساوي كما انتقل في أمر المرتبات وسارا في طريق بحمد العاقل وبرضاء كل محب للنظام (١)

«١» نعم ولكن محبي النظام كانوا هم الاقلين، وأعداءه كانوا هم الاكثرين وقد كان الشيوخ المعمون في سورية يتألمون لدخول النظام في الازهر حتى قال بعضهم أمامي في طرابلس الشام عقب حادثة الازهر التي أثارها بعض مجاوري السوريين فأوجبت تدخل البوايس والجند لازالتها - قال - ان الازهر أدخل فيه النظام، فذكر فيه النظام، وكان قبل ذلك فوق النظام والحكام. أي ما هذا حاصله

نظام التدريس والامتحان

بعد صدور قانون الكساوي توجهت فكرة المجلس الى مافوق الماديات وهو التدريس والتعليم والامتحان فوضع لذلك مشروع قانون عام ضمنه خصائص الادارة العمومية وما لمجلس الادارة ولشيخ الجامع من الاعمال وشروط الانتظام في مسلك طلبة الازهر ومدة طلب العلم والمساحات والعلوم التي تدرس في الازهر وبيان المقاصد منها والوسائل وما يجب لعلوم المقاصد من العناية توسيم زمن الدرس فيها ، ثم الامتحان بقسميه وهما الامتحان لنيل شهادة الالهية والامتحان لنيل الشهادة العالمية ، ثم أحكام الضبط والربط والعقوبات . وفي كل باب من هذه أحكام فسيحة تتوجه كلها الى مقصد واحد هو تحصيل جواهر العلوم الدينية في زمن محدود بطريقة سهلة التناول ، والتحلي بشجرة تلك العلوم وهي محاسن الاخلاق والاعمال .

وقد قسمت فيه العلوم الى مقاصد ووسائل كما قلنا وبينت المقاصد بأنها علوم التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصوله والاخلاق الدينية وبينت الوسائل بأنها المنطق والنحو والعرف وعلوم البلاغة الثلاثة وه مصطلح الحديث وضم إليها الحساب والجبر ، وهذه العلوم بقسميها هي التي يلزم طالب الامتحان لشهادة العالمية بالامتحان فيها ، ثم ان هناك علوماً آخر تستوجب لمحصلها التفضيل على من في درجته في التوظف والمرتبات ، وهي تاريخ الاسلام ، وصناعة الانشاء ، ومتن الفقه وآدابها ، وتقويم البلدان ومبادئ الهندسة . وهذه لا يلزم الطالب بالامتحان فيها الا اذا رغبه وأراده

ثم ان القانون قضى على معلمي البلاغة ونحوها بما يقصد من تعلمه العمل به أن يمرنوا الطلبة على تطبيق العلم فيها على العمل (راجع المادة ١٩) وان ينحصر لعلوم المقاصد وهي العلوم الدينية المحضة أوسع أزمان التدريس بحيث يكون ما يصرف من الزمن في تعليم الوسائل اقل من الزمن الذي يصرف في تعليم المقاصد (راجع المادة ٢٠) وان يقتصر في السنين الاربع الاول من سني طلب

العلم على التتبع والشروح الواضحة العبارة فتمنع فيها قراءة الحواشي والتقارير (راجع المادة ٢٢) وأنه يجب على الطالب أن يحصل من علوم الوسائل أولاً ما يكفيه ويؤهله إلى طلب المقاصد (راجع المادة ٢٣) وقد جئنا بهذه النماذج من هذا القانون ليظهر مقصده وتعرف مقاصد المجلس (١) التي رامها العلماء والطلاب في هذا المكان الديني المحض وأنه لم يطلب سواها فيه .

وقد كابد المجلس عظيم المشاق واستغرق بحثه النافع طويل الاوقات حتى أكمل المشروع على ما رآه مفيداً في هذا المقصد الديني المحض ، وأرسله إلى الحكومة فشككت للنظر فيه لجنة من خيار رجالها ، ومن أشهر الصالحين وكبار العارفين فيها بحاجات هذا الزمان ، وانضم اليهم بعض أعضاء المجلس ، فوالوا الجلسات حتى فرغوا من تنقيحه وزادوا فيه مازادوا وحذفوا منه ما علموا صعوبة تنفيذه ، ثم رفعوه إلى الجنب العالي الخديوي فأصدر أمره بالعمل به في ٢٠ المحرم سنة ١٣١٤ وبه صارت مشيخة الازهر مشيخة نظامية ، ولم يبق عليها إلا الجد في العمل بهذه القوانين والمحافظة على أن تكون كل أعمالها مطابقة لها ، ومراقبة تنفيذها على الوجه الأكمل وتمتع العلماء والطلاب بشمراتها ، وأن ذلك لم يكن بالامر السهل القريب المنال ، ولهذا كان التعب والعمل للتنفيذ فوق ما يحتمل في العادة ، ولكنها المقاصد القويمة تسهل الصعب وتخفف ثقل العناء ، وتصحح العزيمة للدأب على الاعمال

ولا داعية لتبيان الحال في التعليم والامتحان قبل صدور هذا القانون وما تغيرت اليه فيها بعده ، فان ذلك يضطرنا إلى تطويل القول مع كونه معروفاً بالبدية فلا ينكر أن الازهر سار من فوضى في التدريس إلى نوع من النظام ، وأن كان لم يصل إلى الحد المطلوب فيه . وأما في الامتحان فالامر أجلى من أن يبرهن عليه لانه ما من شيخ من الذين تولوا مشيخة الازهر زاد في عدد من يمنحون في كل عام على ستة نفر ، وفي بعض السنين كانوا لا يتجاوزون أربعة ، والذين كان يساعدهم

« ١ » ما المجلس الا الاستاذ الامام رحمه الله فهو الذي وضع القانون وبين هذه المقاصد له وهو الذي كان سبب مساعدة الامير لها أولاً ثم كانت مقامتها لسخطه عليه

الحظ ويؤخذون للامتحان كانوا لا يصلون الا بعناية الراجين ، وإلحاق الملحين ، ولم يكن للدور ولا للاقدمية ولا للذكاء ولا للشهرة بالتحصيل مدخل في نيل الحق ، بل السلطان القوي هو شفاعة أولئك الشفعاء الذين لا يشفعون إلا للفقي وان كان غيباً ، ويضعون حق الفقير وان كان ذكياً ، وبذلك تراكم في قلم كتاب الازهر عرائض طلب الامتحان حتى صارت لا يدرى أولها من آخرها ، ولا عاجلها من آجلها ، ويشس مقدموها من إجابتهم ، ففترت عزائمهم عن التحصيل ، وانقطع معظمهم عن المجيء الى الازهر الا في القليل من السنة الدراسية ، وتعدى هذا اليأس إلى من يليهم في الزمن ، فجفت آمالهم ، وعلموا ان الدور إن وصل اليهم قائما يصل بعد الهرم ، وكان ذلك ظاهراً للعيان

وتد تدارك مجلس الادارة هذا الامر وأحب أن يعيد الى الناس آمالهم ، فقرر تصفية هذه التلال لتراكمه من العرائض ليتحقق وجود أصحابها ، فأعان الجميع بأن الامتحان سيكون على غير تلك القاعدة السادسة أو الرابعة ، ولكن جاء الامر في سنة ١٣١٤ على غير ما في الحساب إذ طرأت فيها حادثة رواق الشوام المشورة المشورة ، ثم اضطر الازهر بحكم قرارات الصحة العمومية إلى المسامحة معظم السنة أو كلها تقريباً فلم يتمتحن في سنة ١٣١٤ غير شخص واحد ونجح

وهاك بيان عدد من امتحنوا في السنين التي بعدها — سنة ١٣١٥ امتحن فيها ٢٩ نجح منهم ١٨ وسقط ١١ وسنة ١٣١٦ امتحن فيها ٢٨ نجح منهم ١٣ وسقط ١٥ وسنة ١٣١٧ امتحن فيها ٢٠ نجح منهم ١١ وسقط ٩ وسنة ١٣١٨ امتحن فيها ٢٥ نجح ١٦ وسقط ٩ وسنة ١٣١٩ امتحن فيها ٣٧ نجح منهم ٢٣ وسقط ١٤ وسنة ١٣٢٠ امتحن فيها ٣٩ نجح منهم ١٧ وسقط ٢٢ وسنة ١٣٢١ امتحن فيها ٩٥ نجح منهم ٣٤ وسقط ٦١ وفي سنة ١٣٢٢ امتحن فيها ٦٨ نجح ٣٤ وسقط ٣٤ ومن هذا البيان يتضح الفرق بين ما بعد القانون وما قبله وأما كثرة السقوط في بعض السنين فسببها انقطاع أولئك الذين كانوا قدموا عن التحصيل . فتجددت الآمال ، واجتهد العمال ، وانتظم تقديم طلب الامتحان ، وهذه بعض المزايا للقانون في هذا الباب ، وهي فاتحة الخير عند أولئك الغلاب

﴿ المساحة أو عطلة الدراسة ﴾

ترتب على صدور ذلك القانون تقليل عدد المساحات وتقصير أزمان العطلة الدراسية ، فقد كانت الحال فيها قبله لا يكاد يعترف لها ضابط ، وكان الطالب يمكنه أن يتغيب قبل المساحة الرسمية بأسابيع ولا يحضر إلا بعد انقضاءها بأسابيع ، وكان المشايخ المدرسون يذهبون الى بلادهم قبل الطلبة ولا يحضرون منها إلا بعدهم ، وكانت السنة الدراسية تبتدي من أواخر شوال وتنتهي في أوائل جمادى الآخرة وبين البدء وانهاية مساحة العيد الأكبر ، وكانت تقرب من عشرين يوما ، ثم مساحة مولد السيد ، ثم مولد الدسوقي ، وربما تداخلتا فلانقص مدتهما عن خمسة وأربعين يوما ، ثم مساحات صغيرة كما شوراء والمولد النبوي والمولد الحسيني ومولد الشافعي ومولد العيني ومولد الشرقاوي ، وكل واحدة من هذه لاتنقص عن ثلاثة أيام فمدة الدراسة بعد كل هذه المساحات لاتزيد عن ثلاثة أشهر ونصف متقطعة في السنة ، يخرج منها أيضا يوما الخميس والجمعة من كل أسبوع ويضاف الى ذلك ما يتساهل فيه المشايخ والطلبة وهو كثير

ولما صدر اثنان من حددت فيه أيام العطلة تحديدا تاما واشتغل المجلس بشدة المراقبة على الطلاب وعلى بعض المشايخ وتقدمت الحال نحو الإصلاح عاما فعاما ، ومع ذلك لم تخل هذه المراقبة من تقصير في بعض الاحايين ، والشدة كل الشدة كانت في تعويد الطلاب على العمل ، وانتهاز فرصة الوقت وعدم ضياعه فيما لا يفيد ، وأشد من ذلك ما يلافيه المراقبون في تعويد الدارسين أنفسهم على احترام النظام والاستمرار في العمل الى آخر أيامه ، وإلى الآن لم تصل الحال الى الدرجة المطلوبة ، لأن الكثير من الطلاب تعودوا البطالة بلاسبب ، فصاروا يخلقون المعاذير ويقدمونها الى المشيخة والى المتولين أمر الجرايات ، كوت الآباء وهم أحياء ، أو مرضهم وهم أصحاء ، وككونهم مطلوبين للقرعة وقد أخذوا شهادة العاقلة ، أو أن عليهم أو لهم قضايا في المحاكم الأهلية والاعلان بيدهم ، وربما ادعوا لانفسهم

المرض والواحد منهم يأكل خمسة الارغفة في اليوم ، وهذه الاشياء وإن كانت تقل يوما عن يوم إلا أن الباقي منها كثير وهو ما كانت الهمة موجهة الى قطعه بالمرة وجعل الطالب طالبا حقيقيا يرغب بذاته في التعليم وجملة القول ان المساحات قد ضببت ضبطا تاما، وصارت السنة الدراسية سنة كاملة ، بتسديء من العاشر من شوال وتنتهي بالخامس والعشرين من شعبان ، ويتخللها اثنان وستون يوما للمساححة الصيفية « منها شهر يولييه وبعض شهر أغسطس » وهي الايام التي اذا اشتغل فيها المشايخ والطلاب كان شغلهم كلا شغل لشدة الحر ووقوف الازهان ، ومنها أيام في عيد الاضحى وغيره ولا يمكن أن يضيع غير ذلك ولا يوم واحد بمثل تلك المماذير ، ومن أضعافها من الطلاب عوقب عليها بما هو مبين في القانون ، وهذا فيما أرى من أجل المزايا لهذا القانون . وغيرها كثير نصرب عن ذكره صفحا مخافة التطويل

﴿ مساعدة الجنب العالي على تنفيذ القانون بالمال من الاوقاف ﴾

وقد توجهت فكرة المجلس بعد صدور هذا القانون الى أمر تنفيذه فرأى انه لا بد في ذلك من معونة الجنب العالي للازهر بالمال ، فاستقر الرأي على قرع باب المكارم الخديوية توصلا الى هذا الغرض ، لانه بدون المال لا تنجح كبر الاعمال، فكان كذلك واجتمع المجلس مرات لتحديد أقل ما يمكن به السير من النقود وترتيب البدء في العمل بعد أن يسمح بها جنابه الكريم . ثم انخط الامر بعد اقدام وإحجام على أن ترفع مذكرة الى ولي النعم ببيان المبالغ المحتاج اليها، فرفعت مبينا فيها ما يلزم من المبالغ وطريق صرفها والمنفعة منها، فتقبلها جنابه الكريم بالمسرة والارتياح ، وصدر أمره السامي الى ديوان الاوقاف بتقريره في ميزانية سنة ١٨٩٧ وسبق ذلك عدة مذكرات في كثير من الاجتماعات مع بعض العارفين ممن وثق بهم الجنب الخديوي، تقرر فيها خطة السير في علوم الحساب وتقوم البلدان والتاريخ والخط ، وعرضت كلها على الجنب العالي فاستحسنها غاية الاستحسان، ووافق عليها، وأظهر غاية المسرة من تقريرها وادخلها في الازهر

المنيف ، ولم يخطر على باله حفظه الله في ذلك الوقت ولا على بال أحد من رؤساء العلماء وكبرائهم مالكيين وغير مالكيين ان ذلك مما يعطل دروس العلوم المتداولة في الآزهر ، أو انه مما ينهى عنه الدين ، أو انه مما يعود على العقيدة الاسلامية بالضعف أو غير ذلك مما لا كتبه الالسن في هذه الايام (١)

وانتهى الأمر بأن قررت المبالغ في تلك السنة وورد الاعلام بها من ديوان الاوقاف الى الآزهر في أواخر ديسمبر سنة ١٨٩٦ وصادف ان السنة الدراسية كانت قد انتهت أو كادت تنتهي فلم تستعمل هذه المبالغ إلا في شوال سنة ١٣١٤ الموافق لشهر مارس سنة ١٨٩٧ وهذا فيما عدا المبالغ التي قررت لدار الكتب الآزهرية فانها استعملت من أول يناير سنة ١٨٩٧ ، لان دار الكتب (الكتبخانة) يمكن العمل فيها في أي وقت بخلاف الآزهر فان سنته الدراسية تبديء في شهر شوال من كل عام وهذا بيان تلك المبالغ التي قررت لتنفيذ القانون مع بيان مصارفها

جنيه مصري

٦٠٠	لاربعة وعشرين عالما
٦٠٠	مكافأة للطلبة
٦٠٠	لشايخ الأروقة والحرار والملاحظين
٦٠٠	لعلوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي
٣٦٠	للخط
١٥٠	مصارييف الإدارة العمومية للآزهر
٤٦٤	لدار الكتب الآزهرية

٣٢٧٤

استعمل المجلس هذه المبالغ على الكيفية الآتية فأما المبلغ الذي قرر لاربعة وعشرين عالما فقد انتخب المجلس هذا العدد من بين كبار العلماء على اختلاف

(١) سبب هذا ان الحدبو غضب على الشيخ محمد عبده الواضع منهاج الآزهر لهذه العلوم بعد ان كان راضيا عنه فلما غضب صارت تلك العلوم والنظام في التدريس خطراً على العقيدة الاسلامية عند أولئك المنافقين

مذاهبهم ووزع عليهم ستمائة جنيه لكل منهم مبلغ يختلف بين الجنين والثلاثة ونصف زيادة على مرتباتهم الشهرية الازهرية وكلفوا في مقابله بأن يكون تدريسهم للعلوم الدينية المحضة على الطريقة التي قضى بها القانون من ترك الحواشي والتقارير والاقتصار على الشروح والمتون الواسعة العبارة وتوسيع زمن الدرس في علوم المقاصد وتمرين الطلاب على تطبيق العلم على العمل في العلوم التي غايتها العمل بها وغير ذلك مما يفيد في جودة التحصيل ، وقد وضع المجلس لهذا النوع قرارا مخصوصا بين فيه مايجب على كل أستاذ في إلقاء هذه الدروس وخصص لكل واحد من الاربعة والعشرين عالما علوما معينة من العلوم الدينية المحضة وكتبها معينة من الكتب المعروفة ، لانه لاحظ ان ليس في امكان كل شيخ أن يحسن تدريس كل علم او كل كتاب ، وقرر أيضا ان هذا المبلغ يصح انتقاله عن أخذه اذا لم يؤد العمل على ما فرض عليه . وقد جرى المجلس على أن يجمع هؤلاء العلماء في أول كل سنة دراسية ويبين لكل منهم ما اختاره له من العلوم والكتب والطريقة التي يتبعها في التدريس والتمرين ، ثم يوجه نظرهم الى قراءة السيرة النبوية من كتب السنة الصحيحة لانها كانت معدومة تقريبا من الازهر مع أنها من أهم العلوم الاسلامية المحضة ، وكذلك وجه نظرهم الى علم مصطلح الحديث وقد كاد هذا العلم ينقرض من الازهر الا ما كان منه في مقدمات كتب الحديث ، وكانت النتيجة مفيدة اذ ندرج الطلاب في الارتقاء من عام إلى عام ، ولولا هذا المبلغ لما أمكن تكليف أحد من اولئك العلماء بعمل ما لم يتعوده من قديم

مكافأة امتحان الطلبة

وأما المبلغ الذي قرر لمكافآت الطلبة فقد كان الغرض منه بث روح الفجرة فيهم وترغيبهم في تحصيل العلوم المتداولة في الازهر ، وان يكون تحصيلهم لها على وجه يبقى معه ما حصلوه منها راسخا في الذهن لا أن يكون قاصراً على مجرد فهم العبارات والمناقشات اللفظية ، ولهذا وضع المجلس قراراً لأصرف هذا المبلغ على الطلاب قرر فيه أن يعمل لهم امتحان اختياري في آخر كل سنة دراسية في نتيجته

علم من العلوم التي تقرأ في الازهر ، وحدد أوقات الامتحان وكيفيته وان يكون محررياً وان توزيع المكافآت على الناجحين يكون بنسبة ماحصلوه ونجحوا فيه ، وان توزيع المكافآت يكون في اول العام الدراسي بمحض من شيخ الجامع وأعضاء مجلس الادارة وكل أفاضل العلماء الازهريين

واقصد جاء هذا الامر بالفائدة المقصودة منه فلم يحسن موعد تقديم الطلبات في اول سنة لتقرير هذا المبلغ حتى اجتمع منها لدى قلم الكتاب شيء كثير ، ثم امتحن الراغبون فيما تقدموا الى الامتحان فيه من العلوم على يد لجان شكلت له من خيار العلماء مع مراقبة أعضاء المجلس ونخبة من العارفين بأساليب الامتحانات وتقرر ان تعتبر نمرة النجاح في العلوم الدينية المتداولة في الازهر هي نمرة ١٥ فما فوق ، وان تكون نمرة النجاح في العلوم الحديثة هي نمرة ١٨ فما فوق ، تسهيلاً للنجاح في الاولى وتشديداً في الثانية ، مراعاة لموضوعات العلوم وملاحظة لمنع الظنون. وهذا بيان من تقدموا للامتحان في كل سنة من السنين وبيان الناجحين فيه

ناجحون	ساقطون	مقدمون للامتحان	سنة (لم تحقق منها بالضبط) (ولذلك لم نذكرها)
عدد	عدد	عدد	
٢٩٠٩	٢٧٢٠	٥٦٢٩	١٣١٥
١٨٥٦	١٥١٩	٣٣٧٥	١٣١٦
١٩٤١	١٢٩٩	٣٢٤٠	١٣١٧
٢١٨٤	١٧٢٤	٤٩٠٨	١٣١٨

وليلاحظ ان عدد المتقدمين والناجحين والساقطين المبين هنا كان منظوراً فيه الى العلوم التي يقدم فيها الطالب لا الى كل طالب بخصوصه . مثلاً اذا قدم الطالب الواحد في خمسة علوم ونجح منها في اثنين او ثلاثة عد التقدمون خمسة والناجحون اثنان او ثلاثة، وليلاحظ أيضاً ان سبب الكثرة في عدد المتقدمين في سنة ١٣١٥ كان لان المجلس أطلق لكل واحد أن يقدم في كل علم شاء التقديم فيه حتى لو قدم في عشرة علوم قبل طلبه ، ثم رأى ان هذا الاطلاق مضر بالطلبة فحدد لهم ان لا يقدم الطالب في أكثر من أربعة علوم من العلوم الدينية مجتمعة واذا

أراد أن يضم إليها شيئاً من العلوم الجديدة فليضم علماً واحداً وهذا قل عدد المقدمين وما كان أبهج الاجتماع الذي توزع فيه تلك المكافآت على أولئك الناجحين فقد كان يجتمع إليه كل المشايخ تقريباً وكان شيخ الأزهر يعطي بيده لكل طالب من العشرة الأوائل مكافأتهم، والمشايخ يشاهدون فرح الطلبة فيخرجون وكلهم السنة تشكر مجلس الإدارة على هذا العمل الخيري ويبالغون في نتيجته وما يأتي به من الفائدة للطلاب في المستقبل، وكان يختم كل مجلس بالدعاء للجناب الخديوي الذي كان مصدر تلك النعمة. وقد وجدت في الطلاب روح التسابق وذاقوا طعم العلم وأقبلوا عليه

مشايخ الاروقة والحارات والملاحظون

وأما المبلغ الذي قرر لمشايخ الاروقة والملاحظين ومشايخ الحارات فقد كان الغرض منه أن ينساقوا إلى نظام الضبط والربط في الجامع الأزهر ويتعودوا عليه، فانهم كانوا من قبل في غاية الإهمال. ولما جاءت النقود وعرف مشايخ الاروقة أنهم ينتفعون منها وتحقق المجلس أنهم يقبلون كل شيء ويعملون ما لم يتعودوه متى كان من ورائه المال، وضع المجلس نظاماً لإدارة شؤون الضبط والربط وكلف به مشايخ الاروقة (وسياقي الكلام عليه) وقرر لهم مرتبات شهرية تختلف بين مائتي قرش وخمسة وستين قرشاً بحسب درجة الأهمية وكثرة العدد في كل رواق. ثم زاد عدد الملاحظين فبعد أن كانوا أربعة في كل الجامع صاروا ستة عشر وترقت مرتباتهم حتى صار يمكن تكليفهم المبيت في الأزهر بالدور

وأما ذلك النظام الذي وضع للاروقة فانه صدر في ٢٤ يناير سنة ١٨٩٧ وقضى بأن يكون شيخ الرواق من العلماء المستحقين فيه فإن لم يكن من علماء الرواق فمن علماء اقرب الاروقة اليه، وبأن يراقب الشيخ من في رواقه في سفرهم وحضورهم ويقيد أسماءهم في دفاتر مخصوصة، وأن يكون مسؤولاً عن آداب الطلبة ماداموا في الرواق، وفيصلاً فيما يقع بينهم من المنازعات الخفيفة، ويلاحظهم في أداء الوظائف التي شرطها الواقفون، ويحصل إيرادات الوقف ويوزعها على المستحقين بعد أن يقدم عنها حساباً لمشيخة الأزهر، وأن يبيت بنفسه أو يستئيب من يبيت

في الرواق للملاحظة الضبط والصيانة في الليل . وبذلك خفت وطأة المشاجرات الليلية والنهارية ، وما اجل ماتفعله النقود

❦ العلوم الحديثة ❦

وأما المبلغ الذي قرر للحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي فقد استجلب به المجلس في أول الامر اساتذة من معلمي هذه الفنون في المدارس الاميرية وانتخبهم ممن سبق لهم تلقي العلوم الدينية في الازهر حتى لا يكونوا بميدن عن أهله، وليلاحظوا في تعليمهم عوائد المكان وأهله . وقد وضمت قبل تعيينهم القواعد التي يسير عليها التدريس في هذه العلوم وحددت السنين لكل علم منها ، وأرسل هذا إلى العمدة السنية فوافق عليه الجنب العالي مع إظهار غاية الاستحسان، وأبلفت العمدة ذلك إلى الازهر ، وهو شرع في العمل من أول السنة الدراسية الداخلة في سنة ١٣١٥ وسار هذا التعليم في طريق قويم

(مملو الخط) وأما مبلغ الثلاثمائة والستين جنيها المقرر لتعليم الخط فقد انتخب المجلس عشرة من المعلمين للخط على اختلاف أصنافه وطاق بهم تعليمه وجعل لهم أوقاتا معينة في أماكن مخصوصة فأقبل عليهم الطلاب في الاوقات الخالية من الدروس

فائدة الامتحان والعلوم الحديثة

وأما الفائدة التي نجمت عن استعمال هذه المبالغ الثلاثة (مبلغ مكافآت الطلبة ، ومبلغ العلوم الحديثة ، ومبلغ الخط) فتعرف مما يأتي
قد كان طلبة الجامع الازهر لا نصيب لهم في صناعة الكتابة والانشاء وكان الواحد منهم إذا كتب لا يهتد به يستمنحه إرسال الزاد والنقطة قصرت صحيفته عن بيان المطلوب له ولم ينفعه ما حصله من قواعد العربية بشيء ، وجاء خطه في مكتوبه نقشاً مكسر الخطوط ناقص الحروف ، وإذا أراد أن يبين ما صرفه وما يلزمه عبر عن ذلك باللفظ لا بالرقم لعدم معرفته به

هذه حالة كادت تكون عمومية بين الطلبة والعلماء وهي باقية في الكثير من
 الاكابر الى اليوم ، واني لا أعرف واحداً منهم كان ممن دعاهم المرحوم الشيخ
 الانبائي الى الافطار عنده في رمضان فاعتذر اليه بالكتابة ، فكان كتاب اعتذاره
 على حال لم ير مثلها الرءون ، إذ كتبه اليه في ورق من اوراق العطار والكتابة فيها
 غير منتظمة الشكل ، والخط لا يقرأ الا ان تعود قراءة هذه الخطوط ، والاربعة
 الأسطر التي كتبها اعتذاراً للشيخ كان فيها أكثر من عشر لحقات نحوية لا يمكن
 تطبيقها على قواعد العربية ولو مع التأويل الذي تعودوه ، وهذه الرقعة من عالم كبير
 الى عالم أكبر ، فلا يقال ان الاستاذ كتب ما يفهمه المكتوب اليه . وأعرف غيره
 وغيره وغيره من أمثاله ، وهؤلاء الاغيار كثيرون وتطويل القول فيهم مما لا حاجة اليه
 وقد أصبح الفرق بين تلك الحال وما نحن عليه الآن في الازهر واسع
 المدى وان لم يبلغ الغاية المطلوبة ، ذلك أن امتحان المكافأة قد عود الطلاب على
 التعبير عما في الضمير ، وعلمهم استبقاء المعلومات في ذاكرتهم حتى يكتبوها في
 الامتحان ، وعلمهم ملاحظة القواعد في الكتابة وانتقاد أنفسهم في ذلك لتوقع
 الانتقاد عليهم — وان تعلم الخط والاملاء جعل خطوطهم مما يقرأ عادة ، وصير
 الاملاء صحيحاً مضبوطاً ، وهم الآن في الحساب وتقويم البلدان والتاريخ على
 حالة لم تكن تنتظر منهم ، فقد أصبح الازهر وفيه خمسة عشر عالماً يدرسون
 الحساب على أحسن ما يكون من تدريسه في المدارس ، وعالمان يدرسان علم تقويم
 البلدان كذلك ومن الطلبة من لا يكادون يحصون عدداً من العارفين بالعامين ،
 والكثير منهم قد أدى الامتحان في الحساب والجبر العالي وأخذ الشهادة بكلال
 دروسها ، ومن بينهم عدد كثير قد دخلوا في امتحانات الاساتذة في المدارس
 الأميرية ومدارس الاوقاف والمدارس الالهية وحازوا فصب السبق فيه على
 المتخرجين في المدارس وأحرزوا وظائف الاساتذة في تلك المدارس باستحقاق ،
 وهذه احدى النتائج الحسان التي ربما كانت لا يحلم بها ولا تنخطر على البال
 ثم ان المجلس تعود ارسال تقرير عمومي يشتمل على نتيجة هذه الامتحانات
 في كل سنة الى العية السنية ليعرض على الجنب العالي ومعه الرسوم الجغرافية

هو الخطوط وبعض الرسائل التي يؤلفها الطلبة، وفي كل سنة كانت تجيء الى الازهر مكتبة الديوان العالي الخديوي معلنة عرض تلك النتيجة على جنابه العالي وانها حازت الرضا والقبول، وان جنابه الفخيم مسرور منها مستحسن لها، ومشجعة على استمرار العمل مع الجد والاجتهاد، وفيها اثناء الجليل على المجلس لقيامه بهذه المهمة خير قيام، وفي بعض السنين لاحظ المجلس أن يعرف تأثير هذه الطريقة الجديدة ويستطاع قوة المشتغلين بالعلوم الحديثة مع العلوم القديمة وحال المقتصرين على القديم، فقرر انه لا يقبل طلب امتحان المكافآت في علم من العلوم الحديثة وحده بل لابد أن يصحب بثلاثة علوم على الاقل من العلوم المتداولة، وان من يطلبه في العلوم القديمة وحدها فله ذلك بدون حجر عليه، فكان كذلك في سنة ١٣١٨ وبعد قراءة اوراق الامتحانات تبين منها جليا ان الناجحين في العلوم القديمة وهم مشغولون بالعلوم الحديثة أكثر من الناجحين فيها وهم غير مشغولين بتلك العلوم الحديثة، وهنالك ظهر للمجلس ظهوراً لاربية فيه ان هذه العلوم مما يساعد على فهم العلوم الدينية، وكتب المجلس هذا في تقريره السنوي وأوضحه بأدلته المبينة بالارقام

فهذا هو الفرق بين حالي الازهر قبل استعمال هذه المبالغ وبعده وهو فرق ظاهر عرفه الخاصة والعامة واعترفت به الحكومة أيضاً، لانه كان يرفع اليها تقرير كل سنة بنتائج الامتحان بعد أن يرفع الى الجناب العالي ويتقبله الجناب الخديوي بالمسرة والانشراح كما هو مثبت في دفاتر الازهر من مكاتبات رؤساء الديوان الخديوي، وتلقاه الطلبة أنفسهم مع ما فيه من المشقة عليهم بالاقبال عليه، ولم ينازع فيه أحد من مشهوري العلماء ولا من أكبر صالحيههم الى آخر سنة ١٣١٨ هجرية لامنازعة ظاهرة ولا خفية، بدليل حضورهم جميعا في حفلة توزيع المكافأة واعطائها من يد شيخ الجامع نفسه للعشرة الاولى من الطلبة تنشيظا لم وحثا لغيرهم على مساواتهم، وما منهم الا من أظهر الاستحسان وبشر بحسن الاستقبال ودعا لمن كان السبب في هذا الخير العميم (١)

(١) راجع حاشيتي ص ٤٤١ و ٤٤٥ وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام على معارضة الاصلاح

دار الكتب في الازهر

المبلغ الذي قرر للمكتبة الازهرية وهو ٤٦٤ جنيهها قد خصص لمرتبات الامين والمغير والكاتب والخادم (الفراش) ولأربعة من العمال المؤقتين انتخبوا من العلماء ليعملوا جميعا في جمع الكتب وترتيبها تحت ملاحظة الامين ومنه مبلغ ١٥٠ جنيها لشراء كتب جديدة ولتكيل بعض النواقص من الكتب الموجودة ولتجليد ما يوجد منها بلا جلود. ثم زيدت هذه المرتبات سنة بعد سنة بحسب مقتضيات الاحوال كما زيد في عدد العمال ووضع مجلس الادارة لهذه المكتبة قانونا عاما سار العمل فيها عليه الى الآن سيرا حسنا

ولاجل أن يعرف ماهي هذه المكتبة وأين كانت كتبها وكيف كان حالها وما هو شأنها اليوم نذكر طرفا من خبرها ليعلم مقدار العناية في جمع تلك الكتب وترتيبها على هذا النظام التي هي عليه الآن

كان في الازهر خزائن كتب وضعت في بعض الاروقة والحارات وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفاكهاني وجامع العيني، ونيط حفظها جميعا بأشخاص يقال لهم المغيرون، فتصرفوا فيها تصرفا سيئا للغاية صح معه اطلاق اسم المغيرين عليهم، لانهم غيروا وضعها، وشتتوا جمعها، ومزقوا جلودها وأوراقها، وتركوا مالا عناية لهم به منها في التراب، يأكله العث ويبلية التراب. وهذا غير ماتصرفوا فيه تصرف الملاك وصار بأيدي باعة الكتب يباع على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد المتصرف الاول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبه العلم والعلماء وبالجملة فلم(?) يكن ليعرف للكتب قيمة ولا لينتفع بها لعدم امكان الانتفاع

ولما جاءت للمجلس فكرة جمع هذه الكتب في مكان واحد واصلاح ما فسدته منها هذه الأيدي، وتسهيل الانتفاع بها، اختار المكان المعروف في الازهر برواق الابتغاوية وكتب لديوان الاوقاف في سنة ١٣١٤ فأرسل من أخذ القايصة لاصلاحه وانشاء ما يلزم له من الخزائن التي توضع فيها الكتب. ثم

عرض الأمر على الجنب العالي فأقره مستحسن له وأخرج هذا العمل من القوة إلى الفعل، ونهياً المكان لما وجد لأجله من وضع الكتب وحفظها فيه من الانتفاع بها تحت ضوابط ونظامات، وشرع عملها في انفاذ ما عهد اليهم من أول سنة ١٨٩٧ أفرنكية الموافق شعبان سنة ١٣١٤ وهناك ظهر العجب العجيب

حملت تلك الكتب من خزائنها السابق ذكرها إلى ذلك المكان الجديد فكان يأتي بها أولئك المنيرون محشوة في الزكائب والمقاطف، ثم يفرغونها تلالاً وأكواماً عليها خيوط العناكب، وبينها الاتربة، ويتخللها الجلود البالية، وليس بينها من كتاب سليم مستقيم الوضع إلا مالا يكاد يذكري، وجلس بجانبها أولئك الموظفون المكلفون بجمعها وترتيبها، وأعضاء المجلس والأمين يراقبون عملهم ويرشدونهم إلى الطريق الاقوم، فعملوا وكدوا واستخلصوا من بين هذه الدثوث والاوراق المتفرقة كتباً معتبرة في كل الفنون وكان معهم مندوب من ديوان الاوقاف وموظف آخر نيط به تقويم كل كتاب وجد أو جمع بالثمن اللائق به، وقيدت في دفاتر بأعداد متسلسلة، واستلمها الأمين بأمانتها المقدرة لها

ثم اشتغلوا بعد ذلك في توحيد الفنون وقرروا لكل فن موضعاً مخصوصاً من المكان وقد استغرق عملهم هذا زمناً طويلاً كانت كلها أتعاباً ومشاق، وإني لأعرف كتباً كثيرة مما تجده الآن كاملاً كان الكتاب الواحد منها بعضه في خزانة فلان وبعضه الآخر في خزانة فلان وباقيه في خزانة فلان ولم تجتمع أجزاءه بعضها على بعض إلا بطريق المصادفة الحسنة، وأعرف كذلك ان بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود وجد في دشت كان في خزائن الجامع العيني ولم يعبأ به أحد ممن تولوا تغييرها للطلاب، ولم يعن بفرز الدشت لتوجد تلك النفائس بين أوراقه إلا بعد أن كان صدر أمر أحد مشايخ الجامع بإحراقه، وتدارك الأمر من يعرف قيمة العلم ولا يبالي بالنعب في المحافظة عليه، وقد رأيت بعيني كثيراً من المصاحف الشريفة وهي بين الاتربة مع انها من أجود المصاحف خطأ وورقاً، وفيها من الفوائد وعلوم التجويد مالا يوجد في سواها وغير ذلك كثير، فنكتفي بما ذكرناه فما الغرض إلا بيان حالها قبل جمعها وفي هذا القدر ما يكفي لذلك

بعد أن عرف ان في الازهر دار كتب أقبل عليها أهل البر فأعانوها بهداية من الكتب النفيسة، وأهم هدية قدمت اليها هي هدية كتب المرحوم سليمان باشا أباطه فان ورثته حياهم لله لثقتهم ببعض أعضاء المجلس (١) سمعوا قوله وقبلوا اشارته وقدموا كتب أبيهم الى دار الكتب الازهرية مشترطين أن يجعل لها خزائن مخصوصة في مكان مخصوص فكان كذلك وجاءت تلك الكتب كالعروس تجلى لصاحبها ليلة الزفاف لأن الباشا رحمه الله كان ممن يتعشق الكتب ويحب فنون الآداب العربية والتاريخ وهي في كتبه شيء كثير ، فكان ورثته قدوة لغيرهم من الناس وبذلك كله تكونت مكتبة جميلة منتظمة لا ينقصها الآن سوى الفهرس العام والعمل فيه سائر سيرا حسنا وإن كان بطيئا ولعله يتم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولم يكتف المجلس بهذا القدر بل رجع الى الاروقة الشهيرة في الازهر وهي أروقة الترك والشوام والصمايدة والمغاربة وجعل الكتب التي بقيت فيها تحت مراقبة أمين المكتبة الازهرية ، وطلب من ديوان الاوقاف مبالغ أخرى لترتيب كتبها وتنسيقها ، فأجيب الطلب وتعينت العمال، ورتبوا الكتب في تلك الأروقة على الطريقة التي رتب عليها المكتبة، ثم وضع الكثير منها بعد جمعها وترتيبها في خزائن جديدة صنعها ديوان الاوقاف على نفقته بالاروقة المذكورة تحت مراقبة هذا الأمين، ولا تزال العناية موجهة الى تجديد خزائن لباقيها

ولقد تفضل الجنب العالي بزيارة دار الكتب الازهرية عدة مرات وما من مرة إلا وأظهو سروره مما رآه فيها من حسن الوضع والنظام، وهي الآن مطرحة أنظار السامعين، ومحط رحال المطامنين ، ومكان النفع العام للعلماء والطلابين

وقد زيد في مبلغ المائة والخمسين جنبها المخصصة لشراء الكتب واصلاحها وتجليدها مائة جنبه في كل عام فأصلح وجلد كثير مما كان من الكتب بلا جلوده واشترت كتب كثيرة من كثير من التركات حتى ضاق بها المكان على سعته

(١) تقدم في أول هذا الفصل أن سليمان باشا أباطه كان من اوفي اصداقه الاستاذ الامام وكان أنجاله يعدونه كوالدهم في العطف عليهم فلذلك قبلوا رأيه

فاضطر المجلس الى أخذ مكان آخر من الازهر أصلحه ديوان الاوقاف وعمل فيه ماعمل في الأول، وامتلات خزائنه أيضا بمعتبرات الكتب ونفائسها مما يتجدد شرائؤه كل عام.

ولم يصل المجلس الى هذا الحد من صيانة تلك الكتب وجعلها بئامن من الضياع والتلف إلا بعد عناء شديد وجهد جهيد في مقاومة تلك الافكار العتيقة، ومطاردة تلك الاطماع التي كان يقصد منها بيع تلك البقية بذلك الثمن البخس، واني أعرف كثيراً من أهل الفضل والدين أرجعوا الكتب التي كانوا اشتروها من أولئك الباعة الادنياء الى مكتبة الازهر لعلهم انها صارت دار الحفظ والصيانة لهذه الكتب الموقوفة على المتعلمين، وأما بعض أهل الشهرة من كبار العلماء وصالحهم فقد جيء من بيوتهم بالكتب في الزنايل والغرائر، لا يعرف الكتاب منها أول ولا آخر.

اصلاح التعليم

وفي أول السنة المدرسية من سنة ٣١٤ الداخلة في سنة ٣١٥ شرع المجلس في تنفيذ بعض مواد القانون فبدأ بالمادة الثانية والعشرين لانها أساس ترقى التعليم، وهي اتماضية على الحواشي والتقارير في الأربع السنين الأولى من سني التعليم، فحدد الكتب التي تقرأ فيها بدون تلك الحواشي وتلك التقارير التي تحول بين الطالب وبين الفهم وتشوش عليه موضوعات العلوم، فأصدر قراراً في ٦ شوال سنة ٣١٤ بأن الكتب التي تقرأ في السنين الأربع الممنوع فيها الحواشي والتقارير تكون في علم النحو من الاجرومية الى ابن عقيل، وفي فقه الحنفية من مراقي الفلاح الى العيني، وفي فقه المالكية من ابن ترمي الى الشرح الصغير وفي فقه الشافعية من ابن قاسم الى التحرير بدخول الغاية في الجمع، وحم في القرار منع قراءة شرح الكفراوي على الاجرومية لانه أضر الشروح بالطلبة المبتدئين، ثم ألزم الاساتذة أن يبدؤوا دروس الفقه في كل سنة من السنين الأربع برسالة في علم التوحيد قاصرة على سرد العقائد ومجردة عن البراهين الكلامية وأن يحشوا

دروس الفقه في كل سنة منها برسالة صغيرة في علم الاخلاق حتى يشب الطالب متحلياً بالآداب الشرعية وكذلك حتم على الاساتذة أن تكون قراءة الكتب المعتاد قراءتها في أيام العطلة الدراسية مجردة عن الحواشي والتقارير

وقد لاحظ المجلس أثناء تلك السنة الدراسية أن بعض الطلبة وكثيراً من المشايخ قد تعودوا أن يطيلوا مدة البطالة الرسمية فأصدر قراراً في آخرها ليكون عليه العمل من أول السنة التالية الدراسية (١٣١٥ الداخلة في سنة ١٣١٦) أبان فيه مدد المساحات القانونية وحددها تحديداً في غاية الوضوح حتى لا يحتاج طالب ولا يتأول عالم . وحتم على كل استاذ وكل طالب أن لا يخلي من أيام العمل القانوني يوماً واحداً من إلقاء الدروس أو تلقيها وقرر العقوبات على كل من يخالف بقطع الجرايات فيما ليس فيه شرط واقف وبقطع المرتبات النظامية التي رتب بمقتضى القانون فيما لا يسمح شرطهم بقطع الجراية فيه

وكذلك لاحظ المجلس في أثناء إلقاء الدروس في تلك السنة الدراسية أن في الازهر عادة مستحكمة وهي إهمال الاستاذ للطالب في آدابه وفي مواظبته على الحضور في الدروس، وإهمال الطالب لانه لم يتعود من مشايخه المراقبة عليه فأهمل في احترامه لهم، وتباطأ في أعماله، ولم يبال بمحقوق اخوانه الطلبة، ففسدت أخلاق الطلاب، وضاعت آدابهم الدينية، وتلاشت عوائد حسن المعاشرة بينهم، فأصدر المجلس قراراً في ٢٩ شعبان سنة ٣١٤ ليكون دواءاً لتلك الادواء . بين فيه ما على الطالب من الحقوق ، وما على الاستاذ من الواجبات ، فحتم على الطالب أن لا يتلقى أقل من ثلاثة دروس في اليوم، وأن لا يشتغل أثناء الدرس بغيره ، ولا يكلم فيه غير أستاذه، وأن لا يسأل الطالب أستاذه في الدرس أكثر من ثلاث مرات في الموضوع الواحد. فإن بقيت لديه شبهة كله فيها بعد الفراغ من الدرس، وأن تكون سيرته الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين ، وأن يحترم أستاذه في الدرس فلا يرفع صوته عاياه، ولا يجلس بين يديه بهيئة تنافي الآداب وأن يعامل جليسه في الدرس بالحسنى ، فلا يؤذيه بالقول ولا بالفعل ، وأن يستمر في تلقي الكتاب الذي ابتداء فيه على الاستاذ الذي شرع في تلقيه عنه حتى يتمه ،

فإذا بداله الانتقال الى شيخ غيره وجب عليه أن يخبر شيخ جهته المنتسب هو اليها ، وإذا شرع الطالب في تلقي كتاب وجب عليه اكمله فلا ينتقل الى كتاب أرقى منه قبل أن يتمه ، وكل هذه الآداب التي قررت للطالب كانت العادة جارية بين الطلبة بمخالفتها ، وضررها بالتعلم والاخلاق لامية فيه

وأما الاستاذ فقد حتم عليه في ذلك القرار أن يكون القدوة الحسنة للطلبة في حسن الاخلاق والسيرة الشخصية ، وأن يتعهد الطلبة الذين يحضرون درسه بنفسه ان كان مبصراً او بمن يستتبه ان كان ضريراً ، ليعرف من يتغيب منهم عن الدرس فيخبر عنه شيخ جهته المنتسب هو اليها ، ليخبر شيخ الجامع بانقطاعه عن الدروس ، وأن يراقب حال الطلبة اثناء الدرس حتى لا يأتي احدهم بما نهى عنه ، فإذا خاف نبيه الشيخ اول مرة ، فإذا عاد زجره ، فإذا عاد أبعدته عن الدرس ، وأخبر شيخ جهته ليخبر شيخ الجامع ليعاقبه بما يراه ، وأن يجنب الاستاذ حتما تلك العادة القبيحة : عادة سب الطلبة وشتيمهم الشتم القبيح بسب الآباء والامهات ، وضررهم بالعصي والنعال . وأن يوجه ذهن الطالب الى تعقل المسائل وفهم المعاني من أقرب الوجوه ، متجنباً الاحتمالات البعيدة وتكلف التعاسيف ، وأن يحضر الاستاذ درسه قبل إقامته فيراجع ما يحتاج لمراجعته من الكتب لتصحيح الفاظ الشعر التي تذكر في الشواهد ، حتى لا يضيع وقته في التفاهم مع الطلاب ، وإن كان ذلك لا يمنعه من قبول رأي التلميذ ان كان صواباً ، وإن لا يأتي الاستاذ للتألمين في أثناء الدرس بما يشوش عليهم الفهم ، فلا يغرب بالاكتثار من الاعتراضات اللفظية والجواب عنها بتلك الاحتمالات المضطربة للوقت ، وأن لا يخطئ مسائل علم بمسائل علم آخر الامسالة جاءت عرضاً وتوقف عليها فهم المقام ، فيتكلم عنها الاستاذ بعبارة قصيرة على قدر ما يدعو اليه الضرورة في الافهام ، وجعلت مدة الدرس بحيث لا تنقص عن ساعة ولا تزيد عن ساعتين وكل هذه التكاليف التي نيطت بالاستاذ كانت العادة جارية بعدم ملاحظتها ، ولكن هم معظم الشيخ الكبير هو التشدد بالاحتمالات البعيدة وتضييع الازهان

تفتيقا لها كما يزعمون ، ولا يبالون أفهم الطالب أم أشكل عليه الامر ؟ أصحت القاعدة ام ضاعت هباء ؟

أعرف شيخا من كبار المالكية (١) قد شهر بالتقدم في السن كان يقرأ درسا في علم المنطق أيام المسامحات من كتاب الخيصي ويحضر درسه هذا كل الباقي من المجاورين في الازهر تقريبا ، وعرض في درسه ان حاشيته اعترضت على الشرح فأخذ الشيخ يدفع الاعتراض بالتمحلات والاحتمالات النحوية ، حتى استقر رأيه على تصحيح كلام الشرح ، فقال له بعض الطالبة وأنا أعرفه أيضا (٢) « يامولانا انه يترتب على هذا التصحيح تغيير حكم القاعدة المنطقية فبعد أن تكون السالبة الكلية تنعكس جزئية مثلا يصير عكسها كلية ولم يقل بهذا المنطقيون » فأجابه الاستاذ : ليس في هذا من ضرر يا كيت وكيت اذا صح الاعراب اندفع الاعتراض ، فما علينا من القاعدة الاصلية وما يطرأ عليها من البقاء او الانقلاب . وأعرف شيخا آخر من كبار الشافعية قرأ في درسه لعدم مراجعة الكتب قبل القاء الدرس البيت المشهور * كادت نفوس القوم عند الغلصمة * بالفاء بدل الغين ، فقال له أحد الطلاب وأنا أعرفه أيضا انها الغلصمة بالغين لا بالفاء ، فسبه وشتمه وأهانته كثيرا وأصر على انها بالفاء . كل هذا قد لاحظته المجلس ووضع له ذلك القرار ، تخفيفا لتلك الاضرار ، ومراعاة لمصلحة المعلمين والمتعلمين بما يقضي به الشرع الشريف ، ويطالبنا به الدين القويم

نظام الجرايات

وفي ١١ ذي القعدة سنة ١٣١٤ دار في خلد المجلس ان يضع نظاما للجرايات بما تخوله له المادة التاسعة من ائقانون لتقطع الفوضى في هذا النوع من الماديات ، كما قطعت في مادة المرتبات ، وأمر الجرايات في الازهر لا يخطر مافيه من الهمجية (١) هو الشيخ احمد الرفاعي المشهور (٢) هو سعد زغلول الشهير وقد سمحت هذا منه وذكرته في المنار عنه

على بال ، ولا يمكن أن يتصور كيف وجدت على ماهي عليه ولا كيف سارت ولا كيف رضي بسيرها القوم ، وهي التي كانت منبع الثروة للنقباء ومشايخ الاروقه والحارات ، وسبب التخاصم بين المجاورين بل بين العلماء اسكبار ، اذ كانت تعطى في الغالب لغير المستحق وهو يعرف أنه غير مستحق ، فيبيعها للنقيب طول السنة الدراسية او مدة المساحات . ولم يكن الاخذ للجرايات او الحرمان منها مبنيا على طول زمن المجاورة أو على اختيار تبين به حال الطالبين فيقدم المجتهد ويحرم من سواء ، وانما كان مبنيا على حسن الحظ والاهواء ، فكتبت مشيخة الازهر الى مشايخ الاروقه تمهيداً لوضع هذا النظام منشوراً مضمونه ان مجلس ادارة الازهر سيشرع في سن النظام لكل الاروقه والحارات وذلك يستدعي أن يكون لديه كل المعلومات المناسبة لذلك وطابت منهم أن يرسلوا الى المشيخة في ظرف ثلاثة أسابيع بيان ما عندهم من الجرايات والرتبات ومن هو مصرفها من العلماء والطلاب ، وما هو الأصل في ترتيبها على الوجه الذي هي عليه سواء كان قاعدة عمل قديم أو شرط واقف ، مع ارسال صور من كتب الوقف أو من قواعد العمل اقديم ، وصور ما في كل رواق من قانون قديم وضع لضبط المجاورين أو لتوزيع الجرايات والمرتبات ، أو لتعيين المستحقين بالعدد أو بالصفات ، وما يكون موجوداً عندهم من شروط الانتظام في سلاك الطلبة والمتظارين ، أو طرد من يخرج عنها من المجاورين ، وما يوجد من الوقفيات القديمة الدالة على ان لارواق ريعاً سواء كان متحصلاً أو غير ممكن التحصيل بسبب من الاسباب وبناء على ذلك وعلى كثرة الاحاح من المشيخة تكلمات المعلومات وقدمت الى مجلس الادارة ، فقرر تشكيل لجنة للنظر في تلك المعلومات ، واستخلاص مشروع نظام واحد يجمع الاروقه والحارات ، على اختلاف مقادير الجرايات في كل منها وجهات ورودها ، مراعى في كل واحد منها شروط الواقين عليه ان كان له أوقف معلومة بشروط معينة ، وأما ان كان أصلاً الارصادات أو شروطها غير معلومة فيراعى فيها قواعد الشرع المنيف ، فشكلت اللجنة تحت رئاسة الشيخ عبدالقادر الرفعي وانضم اليها أحد أعضاء مجلس الادارة ليضع المشروع في القالب المعتاد للنظامات

وقد اشتغلت اللجنة بمجد واجتهاد، وبمحث طويل في تلك المعلومات التي وردت من الاروقة والحرارات في سجلات الازهر وفي الوقفيات المقيدة بها، ورجعت في معظم أعمالها الى الكتب الفقهية والنصوص الشرعية في الاحوال التي كانت تستدعي ذلك حتى أكملت المشروع وقدمته الى المشيخة في أواخر سنة ١٣١٦ تضمن هذا المشروع فصل معظم الاروقة بعضها عن بعض في الحكم لان شروط بعض الواقفين مخالف لشروط البعض الآخر، وضم بعض الاروقة والحرارات الى مماثله في الحكم، وجعلت فيه الجراية العمومية التي تصرف الآن من الاوقاف لغالب الاروقة تحت حكم واحد لانها من قبيل الارصادات أو من قبيل ماهو مجهول الشروط، وجعل للغرباء أحكام خاصة بهم من جهة تقدير الكفاية لكل شخص من الجراية في كل يوم لانهم منتطعون وليس لهم أهل في البلد ينفقون عليهم، ثم بين فيه مدد المساحات والمدد التي يسمح للطالب بالتغيب عن الازهر فيها أيام العمل والتحصيل محافظة على شروط الواقفين. وحددت فيه العقوبات بقطع الجرايات بما ينطبق على شرط الواقف وغير ذلك من الاحكام وبعد الفراغ من وضع هذا المشروع قدمته اللجنة الى مشيخة الازهر ليعرض على مجلس الادارة ويقرره بعد تعديل ما يحتاج منه الى التعديل وقد طرأ على المجلس أمور كثيرة عاقته عن النظر فيه وأقلها انه يحتاج الى مراجعة الاصول التي أخذت عنها اللجنة التي وضعتها وأكبرها ما يؤخذ من الكلام فيما يأتي عن مدة مشيخة الشيخ سليم البشري والعوائق التي كانت تعترض سير المجلس في مدة هذا الاستاذ

امتحان التدريس وشهادة العالمية

وفي ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٦ قرر مجلس الادارة النظر في شؤون امتحان طالبي التدريس، فأول اصلاح بدأ فيه أن أعلمت مشيخة الازهر طالب هذا الامتحان بأن (المادة الثانية والعشرين) من القانون تقتضي بأن الطالب والاستاذ مخيران بعد الأربع السنين الأولى في النظر في الحواشي وعدمه، ومع هذا التخيير لا يصح أن يلزم الطالب بأن يؤدي الامتحان في الحواشي المعتد

تأديته فيها ، وما عليه إلا أن يكون على علم تام من الفن الذي يمتحن فيه ، وإن (المادة الثالثة والعشرين) من القانون تقضي بأن كل طالب علم في فقه مذهبه يتلقى أصول مذهبه ولا يصح من هذا إلزام طائبي الامتحان بأن يؤدوا امتحان الاصول في كتاب جمع الجوامع اذا كان الطالب مالكيًا أو حنفياً، فإن ذلك الالتزام يفضي الى ترك العمل بمادة (٢٣) السابق ذكرها ، فما على طالب الامتحان إلا أن يمتحن في علم الاصول غير مقيد بكتاب جمع الجوامع المذكور

وبعد هذا تحتمل المجلس من أن كيفية امتحان التدريس جارية على غير قاعدة معينة وإن كل عضو من أعضائه يسأل الطالب كما يشاء في أي وقت أراد على غير نظام ، وهذا يؤدي الى تشويش ذهن الطالب ، فأصدر قراراً في ٢٨ شوال سنة ١٣١٦ كان هو النظام الداخلي لامتحان طائبي التدريس ، ومتنضاه ان السنة الدراسية كإخالف للامتحان ، وأن يعقد مجلسه في كل أسبوع مرة على الأقل ، ولا يمتحن في المجلس الواحد أقل من اثنين ، وأن لا يسأل الطالب في أول قراءته بل بمهل حتى يسكن روعه ويتفلق لسانه ، وأن لا توجه اليه الاسئلة إلا بعد أن يقرر المسئلة على حسب فهمه ، ولا يكون السؤال في العبارات ، إلا بعد الاسئلة في الموضوعات ، وأن لا يتعدد السائل في سؤال واحد ، وأن لا يتداخل سائل آخر في سؤال السائل الاول حتى يتمه ، وأن لا يناقش أعضاء المجلس بعضهم بعضاً بل تكون المناقشة قصيرة على العضو السائل والطالب المستول ، فاذا وقعت المناقشة بين الاعضاء بمحضرة الطالب فلا يعد عجزه عن الجواب فيها طمناً على اقتداره ، وإن لرئيس اللجنة أن يخصص كل واحد من أعضائها للسؤال في علم من العلوم ، وإن الاستغراد ممنوع لما يترتب عليه من الخلط في موضوعات العلوم ، فلا يسأل الطالب وهو يقرأ الفقه مثلاً في علم النحو والبيان ، وغير ذلك من اختصاص رئيس اللجنة ببعض الاحكام ووجوب العمل بهذا القرار في انعام الدراسي الذي صدر فيه (وهو عام سنة ١٣١٦ الداخل في سنة ١٣١٧)

وكل ما أوجبه هذا النظام كان لمعنى مخصوص مشاهد في الامتحان ، سبب الشكوى منه في كل زمان ، ومع شدة مراقبة رؤساء الاعيان والمحافظة على تنفيذ

ماقضى به هذا القرار فقد كان يغلب على بعض الاعضاء ما تعودوه قديما فيحتاج الى التنبيه في كل مرة ، وما رسخ من أزمان ماضية لا يزول إلا بالتكرار

العلوم والكتب ونظام التدريس

وفي ٩ رجب سنة ١٣١٦ صدر قرار من مجلس الادارة تنفيذاً للمواد ١١ و١٢ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ من القانون وهي متعلقات بتوزيع العلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة المدرسين فيه، وبتعيين المكتب لجميع العلوم التي تدرس في الازهر خصوصاً غير المتداولة فيه، وبتحديد نوعي العلوم من المقاصد والوسائل وبتمرين الطلاب في العلوم الآلية على تطبيق العلم على العمل، وبتخصيص الزمن لكل نوع من النوعين وبمنع قراءة الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى. وبالزام الطالب بأن يبدأ اشتغاله بعلوم الوسائل حتى اذا جاء الى المقاصد كان لديه ما يجعله أهلاً لتلقيها ولقد كان في وسع المجلس أن يصدر قراره بذلك كله ويصير بمجرد صدوره واجب التنفيذ كما قضى به القانون ، لكنه أراد أن يشرك معه كبار العلماء ليشاورهم في الامر ويقف على آرائهم في كل باب من هذه الابواب ^(١) فلذلك قرر تشكيل لجنة من اكثر من ثلاثين من أفاضل العلماء من كل مذهب تحت رئاسة الشيخ سليم البشري ، وكان إذ ذاك من أعضاء المجلس ، وضم إلى أعضائها بعض أعضاء الآخرين ، وكتب شيخ الازهر إلى رئيس هذه اللجنة كتاباً بذلك ودعا العلماء إلى الاجتماع في إدارة الازهر فاجتمعوا جميعاً ، وافتتح شيخ الجامع الجلسة بعد الحمد لله والثناء عليه بأننا قد دعوناكم لابلأغكم ان لجنة تشكلت منكم للنظر في أمر الكتب وطريقة التعليم ، ولا يخفى عليكم أن تلك علم غاية ، واكل غاية وسيلة ، ومن وسائل العلوم الكتب والتعليم ، ومن الكتب

(١) كان غرض الاستاذ الامام من هذه المشاورة ان يكون كبار علماء الازهر مقتنعين بهذا الاصلاح ليرجى دوامه وعدم رجوعهم عنه اذا زالت السلطة الفاوية التي كان هو القائم بها ولم يكن وانفا بدوامها

ما هو سهل الايصال إلى الغاية أو واف بما يؤدي إليها ، ومنها ما ليس كذلك ، ومن طرائق التعليم ما يوصل إلى فهم ما يلقى على الطلبة ومنها ما ليس كذلك ، ولا يخفى عليكم أيضاً أن من الاساتذة من يتصدى إلى تدريس علم والافضل له أن يقتصر على غيره ، ولقد رأينا في امتحانات طالبي التدريس أن بعض طلبة العلم بعد إقامتهم الزمن الطويل في الازهر يوجد فيه قصور ظاهر ، وأغلبهم لا يكون عنده من المعلومات أكثر مما يعرفه بعض طلبة العلم المتوسطين ، ولأجل هذا شككنا هذه اللجنة وكتبنا لحضرة رئيسها هذا الكتاب وتلاه بنصه وهذا ملخصه :

من المعلوم أن الكتب المتداول قراءتها في كل العلوم التي تدرس في الازهر محتاجة للنظر فيها من حيث هي موصلة للمطلوب منها من تعليم الطالب ما فيها من العلوم لان نظام التعلم والتعظيم مفقود الى معرفة الوسائل من المقاصد والغاية المطلوبة من كل علم ، وبمراعاة ذلك يصلح ما هو معلوم لنا ولكم من نقص محصول الطلبة في كثير من العلوم ، وفضلا عن ذلك فإن ما نشاهده وتشاهدونه من عدم وقوف كل استاذ عند حده في قراءة الكتب والفنون محتاج كذلك إلى الإصلاح ، وفي علمكم أن القانون يقضي بإصلاح ذلك كله وجعله على نظام مقرر مضبوط ، ولهذا شكلت لجنة من اكابر العلماء تحت رئاسة فضيلتكم للنظر في امر العلوم التي تدرس في الازهر ، وتحديد الغاية المطلوبة من كل علم ، وفي امر الكتب المتداولة قراءتها وتقدير ما يلزم إدخاله عليها سواء كان بتغيير بعضها أو الزيادة على الموجود أو تنقيصه ، والنظر في قراءة حواشي الكتب التي يستقر الرأي عليها والزمن الذي يخصص لقراءة كتب المقاصد والذي يخصص لكتب الوسائل ، والنظر في توزيع العلوم على حضرات الأساتذة المدرسين ، حتى يحصل بذلك طلاب العلم بالازهر على المقصود منه ، وتستقيم طريق التعلم والتعليم ، مع تطبيق عملكم في سائر الامور كلها على قانون الجامع الازهر ، وتقيد جميع الآراء التي تبدى في جلساتكم ومحاورها واضحة في محضر يعد لذلك

وبعد الفراغ من تلاوته اجتمعت كلمة كل الاعضاء على استحسان هذا المشروع ، وعلى وجوب النظر في الموضوع ، ورأوا ان الاسهل لا كمال الامر أنه

تنتخب لجنة فرعية من هذه اللجنة العمومية للنظر في كل جزء مما حواه هذا المشروع وتقرير ما تراه فيه ، فكان كذلك ، وصادفت أغلبية الاصوات لأعضاء اللجنة الفرعية كلا من الشيخ عبد القادر الرفاعي والشيخ عبد الرحمن البحراني من الحنفية والشيخ احمد الرفاعي والشيخ محمد أبي الفضل من المالكية والشيخ محمد البحيري والشيخ محمد النجدي من الشافعية ، وضم اليهم الشيخ محمد عبده على أن يكون عضو مجلس الادارة ، والشيخ يوسف الحنبلي عند الكلام على كتب فقهاء الحنابلة ، وتقرر أن تعرض هذه اللجنة الفرعية أعمالها على اللجنة العمومية لتقرر فيها ما تراه

ولقد ابتدأت اللجنة الفرعية جلساتها يوم الاحد ١٣ رجب سنة ١٣١٦ واستمرت على الاجتماع والبحث والعمل الى يوم الاحد ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣١٧ وكان أعظم همها وما دار عليه بحثها هو تعيين كتب الدراسة وبدأت عملاً بتلاوة الفصل الاول من الباب الثالث من القانون وهو ما يحتوي على مشكلات لأجله اللجنة ، وما زالت تنظر في كل جزء جزء حتى أكملت مأموريتها وقدمت تقريرها الى اللجنة العمومية في ذلك اليوم ، واللجنة العمومية لم تعدل في تقرير اللجنة الفرعية إلا بعض الشيء ، وذكرت في بعضه انه مستحسن وان كان غير لازم ، إلا انه في مواد نافذة لا يذكر ، ثم رفعته الى مشيخة الازهر - وقد كانت أرسلت الى الشيخ سليم البشري - فرقد هذا التقرير المسكين مع ما رقد من الاعمال الجامعة تسبح المشيخة بتقديمه الى مجلس الادارة ولا أظن الا ان نومه سيطول إن شاء الله " وأما تقرير اللجنة الفرعية الذي أقرته اللجنة العمومية فاني ذاكر ملخصه فيما للفائدة وتبيننا لتلك المقاصد التي كان يقصدها مجلس الادارة وليعرف الناس انه كان لا يقصد بالعلم وأهليه غير الخير

[لأولئك] وهما تفصيل لما اتفقوا عليه في تدريس كل علم لا ينطيل بدشره ، ومن ثم الاطلاع عليه فليرجع الى ذلك الكتاب ، واكتفي أذكر انه بين في التقرير

(١) كان سبب توقيف الشيخ سليم لاعمال المجلس العلم بأخفاف الحديو عن الشيخ محمد عبده وارتياحه أو ابعاده بمقاومة عمله كما سنفضله في الكلام على مقاومة الامم

يكون الغرض من درس كل علم ما وضع العلم لأجله والتأهيل للعمل به ومن ذلك وهو فهمه، أن يكون درس التفسير « لبيان ما أودع في القرآن من الاسرار والحكم والمفاسد التي يرمي إليها في القصص والأوامر والنواهي ووجوه العظة بأخبار الماضين وأحوال الحاضرين ، والمعاربة بين ما جاء فيه وما عليه الناس الآن . وبيان ما فيه من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز » وكان مما قررته اللجنة درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز من كتب البلاغة ، وكذا درس رسالة التوحيد للاستاذ الإمام في العقائد ، ولكن لم يقرأ هذه الكتب فيها غيره . وفي هذه السنين يقرأ رسالة التوحيد بعض اخواننا الذين نشأوا على مشربه رحمه الله (ثم قال الكاتب)

ثم اتفقت الآراء على عدة من العلوم التي لم تكن تدرس في الجامع الازهر ومنها (التاريخ الاسلامي) واختاروا له كتاب الخيس والمواهب اللدنية في تاريخ السيرة النبوية . وكان من رأي الجميع وجوب قراءة التاريخ وأن يكون المقصود منه بيان الحوادث وتعليلها لا مجرد ذكر القصص والحكايات وكذلك اتفقت الآراء على تقرير علم (تقويم البلدان) وأن تكون كتبه ما يختار مدرسه ثم اتفقوا أيضا أن يقرأ في الازهر (علم المحاضرات) وأن يكون الكتاب الذي يقرأ فيه هو العقد الفريد لابن عبد ربه ثم تقرر أيضا بالاتفاق أن تدرس فنون (روايات القرآن) ولكن لا يكون ذلك إلزامياً بل لمن يختار

مسألة زاوية العميان

فصل الشيخ عبد الكريم رحمه الله هذه المسألة في خمس صفحات وقال انها أهم عمل إداري لمجلس الادارة . وملخصها أن زاوية العميان هي أحد أروقة الازهر خاصة بالعميان ، كان للمجاورين فيها استحقاق في وقف (المرحوم عبد الرحمن بك كستخداي) الذي يديره ديوان الاوقاف وقد مضت عدة سنين والديوان لا يعطيهم استحقاقهم في الوقف فوكل شيخ الزاوية أحد كبار

المحاميين بارشاده في رفع قضية على الديوان في المحكمة فحكمت المحكمة على الديوان بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه وأيدت الحكم محكمة الاستئناف فتوقف الديوان في الدفع فاضطر المحامي الى حمل المحكمة على التنفيذ القهري ففتش محضرها خزينة الاوقاف بالقوة القاهرة (في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٧ الموافق ربيع الاول سنة ١٣١٥) وأعطى المبلغ للمحامي فأخذه ووضع في صندوقه ولم يعطه لشيخ الرواق الذي هو وكيله ، فكان هم مجلس الادارة حفظ المبلغ من الضياع وإيصاله الى مستحقيه بالعدل والانصاف . فكلّف شيخ الزاوية أن ينذر المحامي بدفع المبلغ من قبل المحكمة . فلما بلغه الانذار اتفق مع بعض الاجانب على بيع حصص العميان اليه لاجل منع التنفيذ في مقابلة مبلغ معين يدفعه له ، فأنذر الاجنبي شيخ الزاوية وشيخ الازهر والمحامي طالبا دفع المبلغ له بما اشتراه به من المحامي الوكيل الشرعي عن المستحقين . وبلغ المحامي أصحاب السلطة والنفوذ الفعلي في الحكومة من الانكليز ان مجلس ادارة الازهر يريد أخذ مال العميان الفقراء المساكين ليرده الى ديوان الاوقاف ارضاء للخديو فعزموا على عدم تمكين الازهر من أخذ المبلغ وأما سمو الخديو فكان قد اعتقد أن الازهر استعمل سلطته القانونية بما يعد إهانة واساءة الى ديوان الاوقاف التابع لسموه وهو صاحب الفضل والنعمة على الازهر فيما دخل فيه من النظام وبما أفوض عليه من الاموال ، فوقع مجلس الادارة في مشكلة ذات ثلاث شعب: الخدويسيء الظن فيه بأنه خارج عليه مبهين لديوانه والانكليز يسيئون الظن فيه بأنه آلة للخديو يريد ارضاء باموال العميان المساكين ، وهو بريء من هذا وذاك وإنما هو القيام بالواجب عليه من حفظ حق العميان ان يضع وايصاله اليهم بالعدل والانصاف

فذهب أحد أعضاء مجلس الادارة الى الاسكندرية لشرح المسألة لسمو الخديو . وهذا العضو هو الكاتب الشيخ عبد الكريم رحمه الله إذ كان الاستاذ الامام مسافراً بالاجازة ولو كان موجوداً بمصر لما وصلت المسألة الى هذا الحد المشكل . فقابل الخديو وشرح له الحقيقة وان القضية رفعت على الديوان قبل تشكيل مجلس الادارة وان المجلس وجد نفسه أمام حكم نهائي لا مرد له فكان الواجب

عليه حفظ هذا الحق لاهله وهو عرضة للضياع ، ثم قابل رئيس مجلس النظار وكان عنده ناظر الخارجية فشرح لها المسألة ، فاقنع كل من الجانبين بعض الاقتناع ، وظلت المسألة معلقة حتى عاد الاستاذ الامام من إجازته وعاد في تلك الاثناء المستشار القضائي الانكليزي وكان يجلس الاستاذ الامام كل الاجلال كما تقدم في الكلام على عمله في القضاء ، فبين له حقيقة المسألة ثم بينها للعميد المسيطر على الجميع (لورد كرومر) ففوض هذا البت فيها الى المستشار ، فجمعه الاستاذ الامام بشيخ الجامع الازهر وكان المحامي قاتر دد عليه ائتمين به على ما يريد فقضى بأن يوزع المبلغ كله على مستحقه في الحال وأن يضرب باندراجات ذلك الاجني الذي ادعى شراؤه عرض الحائط ، وألزم المحامي رده كله ، وان يكون توزيعه بمقتضى كشف يحررها مجلس ادارة الازهر باسماء المستحقين ومقدار حصصهم ، وأن يتولى التوزيع عثمان بك مرتضي مدير الاقلام العربية في نظارة الحفازية . وكذلك كان ، ولما وصلت الدنانير الى أولئك العميان الذين كادوا يرضون بعشرها انطلقت أسننتهم بالدعاء لمن كان سبب ذلك . . .

الحاق الاسكندرية في التعليم والنظام بالازهر

في ٢٩ المحرم سنة ١٣٢١ و ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٣ صدرت الارادة السنية بالحاق التدريس والامتحان في ثغر الاسكندرية بالجامع الازهر ، ومضمونها (ان الجنب العالي وافقت ارادته العلية أن تكون الاسكندرية ملحقة بالازهر في التدريس والعلوم والامتحان وان مجلس ادارته يضع لها القوانين والنظامات ويرتب درجات العلماء الموجودين فيها وقت صدور هذه الارادة ويحصر الاماكن التي تدرس فيها العلوم هناك وان يكون ترتيب درجات علمائها بحضور ثلاثة من مشهورهم الأقدمين) فبلغت نظارة الداخلية الازهر هذه الارادة ، ولم يكن إلا ان سافر شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى الاسكندرية وشكلا لجنة تحت رئاسة شيخ الازهر من أكابر علماء الاسكندرية ودعوا اليها الشيخ احمد باشا ليعلم هل يقبل ان يكون الجامع الانور الموقوف للتدريس من قبل جدم الاعلى

خاضعا لهذه النظامات الجديدة في الاسكندرية أم لا ؟ فتردد في الامر أولا ثم عاد اليهما وأمضى على المحضر بأنه قابل هذه التنظيمات ، وان مسجد جده تسري عليه الاحكام التي توضع لها ، ثم اشتغلت اللجنة بعد ذلك في حصر العلماء الموجودين وجعلت عمدتها في عملها قائمة وقف الغزي الذي اشترط واقفه ان يصرف جزء من ريعه الى العلماء ، ودققر الجامع الانور التابع لوقف أولاد الشيخ ، لانه لم يكن ليدرج في قائمة وقف الغزي مستحق على أنه من العلماء الا بعد امتحان واذن بالتدريس ممن له الولاية في ذلك ، ولان دققر الجامع الانور يقيد فيه من يؤذن له بالتدريس على ما وضعه واقفه من القواعد ، سواء كان بالامتحان أو الاختيار المصحح لصدور إذن شيخه للطالب بالتدريس فيه ، فكل من اندرج في أحد هذين النوعين فقد حاز صفة العالمية في ذلك انقهر ، فله حق اطلاق هذا الاسم عليه فيه ، أما ترتيب درجاتهم (أولى وثانية وثالثة) فكانت عمدة اللجنة قد طلبت التثبت من حالة العالم في العلم والاشتغال به ومقدار عمله بالسؤال من أعضاء اللجنة الاسكندريين لانهم أعرف بأنفسهم ، ودرجة الاشتغال لا تعرف إلا منهم ، فلا يعول في تقدير الدرجة للعالم إلا على أقوالهم ، خصوصا وانهم من المشهورين ولهم على معظم علماء النفر المشيخة في العلوم

أمضى الشيخان في الاسكندرية ثلاثة أيام ، ثم عادا ومعهما محضر عملهم فاشتغل بمجلس الادارة بتقرير العلماء في الاسكندرية وحصرهم في عدد مخصوص ، وترتيب درجاتهم العالمية ، فصدر قراره بتاريخ ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٢١ (أو آخر يونيه سنة ١٩٠٣) قاضيا بحصر عدد العلماء الاسكندريين في سبعة وأربعين علما وان منهم أحد عشر في الدرجة الاولى وتسعة عشر في الدرجة الثانية وسبعة عشر في الدرجة الثالثة ، وتضمن هذا القرار أيضا أن لا يدرج في سلك علماء الاسكندرية بعد أولئك المحصورين إلا من ينجح في امتحان التدريس على القاعدة الجديدة التي يوضع لها النظام الجديد ، وان هؤلاء العلماء المحصورين يدرسون في الاسكندرية وغيرها من أماكن التدريس في قطر المصري (عدا الجامع الازهر) وان من أراد منهم أن يدرس في الازهر فعليه الدخول في امتحان التدريس

فيه، وان من يتقدم لهذا الامتحان من علماء الاسكندرية يقدم على غيره من كل طائفيه ، وحدد في هذا القرار ما يدرسه أهل كل درجة في الاسكندرية من العلوم المتداول تدريسها فيها

ولما كان تنفيذ هذه الاحكام يتوقف على وجود شيخ للعلماء هناك وكان لاولاد الشيخ ابراهيم باشا المنزلة الرفيعة بين أولئك العلماء لما لهم من الاوقاف ولمكانتهم من الثروة وقدم بيتهم في العلم رأى مجلس الادارة أن يعهد بتنفيذ هذه الاحكام إلى أكبر أولاد الشيخ الثلاثة ، فقرر تعيين الشيخ محمود باشا شيخا لآلء الاسكندرية وتعين الشيخ احمد باشا وكيله لانه كان في حالة شيخوخة لا يتمكن معها من ضبط الاعمال ، وأرسلت مشيخة الازهر هذه القرارات إلى الشيخ ووكيله وعهدت اليهما بتنفيذها وانتظرت الجواب بأهماسي معالان بما تضمنته هذه القرارات من الاحكام

ثم اشتغل مجلس الادارة بوضع قانون لسير التدريس والامتحان في الاسكندرية كما وضع لغيرها من الاماكن الملحقة به ، وبعد الفراغ من وضعه رأى شيخ الجامع تعيين أحد اعضاء الادارة الازهرية^١ ليذهب إلى الاسكندرية ومعه هذا النظام الجديد فيتذاكر فيه مع شيخ العلماء ووكيله هناك حتى اذا كان لهما عليه ملاحظات اصاح الحال فيها قبل التصديق الانتها في عليه ، فكان كذلك وذهب هذا العضو في شهر اغسطس او سبتمبر من سنة ١٩٠٣ واشترك مع الشيخ احمد باشا في تلاوة ذلك النظام فلم يجد من ملاحظته عليه الا ما يضمن المحافظة على كيان اوقاف اولاد الشيخ والتوقي من أن تمس بحطاسة أو مراقبة من قبل المشيخة الازهرية ، ثم لاحظوا على قرار حصر العلماء انه ترك فيه ستة ممن يصح ادراجهم في اوائك العلماء وان ترتيب درجات العلماء يحتاج الى التعديل لان بعضهم أعطي الثانية وهو يستحق الثانية مثالا

عده كل ماحوزات اولاد الشيخ على النظام والقرارات وكلها امور نفسية في اشياء شخصية كما هي القاعدة عند أهل العلم الشريف الآن . فبحث معهم

مندوب المشيخة فيما طلبوه فتبين له بمراجعة دفاتر مسجد دم والتحقق من حالها ان اولئك الستة الذين تركوا في حصر العلماء لهم الحق حقيقة في أن يدرجوا في سلكهم فوعدهم بأدراجهم بمجرد رجوعه الى مصر . وأما تغيير الدرجات لبعض اولئك المحصورين سابقاً فلم يوافقهم عليه لان التغيير في البعض بلا سبب يستلزم إجابة من يطلب تغيير درجته في المستقبل والا كان ترجيحاً بلا مرجح ، ثم عاد مندوب المشيخة الى مصر وعرض الامر على الشيخ فقدمه الى مجلس الادارة وهو اصدر قراره بجعل هؤلاء الستة من العلماء وأن يكون واحد منهم في الدرجة الثانية والخمسة في الدرجة الثالثة كما اتفق عليه المندوب مع اولاد الشيخ ابراهيم باشا فصار عدد علماء الاسكندرية الذين يسرى عليهم حكم القرار السابق ثلاثة وخمسين أحد عشر درجتهم اولى وعشرون درجتهم ثانية واثنان وعشرون درجتهم ثالثة ، وتاريخ هذا القرار ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٢١ و ٨ مارس سنة ١٩٠٤ (وهنا ذكر الكاتب ان اولاد الشيخ ابراهيم باشا بدا لهم رفض ماقدره مجلس ادارة الازهر من جعلهم تابعين له في ادارته ونظامه وترك استقلالهم وانفرادهم بالرياسة العامة في الاسكندرية وان المجلس جاما لهم بكساوي التشريف وغيرها الى أن ينس منهم فقرر تعيين شيخ امهد الاسكندرية غير الشيخ محمود الباشا (نم قال)

الشيخ محمد شاكر

ان الله تعالى قد اطف بعباده العلماء وأراد أن لا يبقى حالة الاسكندرية على ماهي عليه من الخلف وتعطيل الاعمال ، فساق الشيخ محمد شاكر قاضي قضاة السودان الى مصر بالاجازة فجاء اليها وايس في نفسه إلا الاستراحة من حر السودان ومن العمل فيه أيام شدة القيظ، ولم يكن يخاطر على فكر أحد من شيخ الازهر ولا أعضاء مجلس ادارته انه بمقدمه ينحل هذا المشكل لانه في وظيفة عالية بالسودان مرتبط فيها برأي غير رأي مصر والمصريين، واما الحاجة فتفق الحيلة كما يقال ، ولا جالبها فكر فيه بعض أعضاء المجلس وجس نبضه فوجد منه

ارتياحا للقبول فأشار عليه أن يعمل ليصل الى هذه الغاية^١ فقام بالأمر خير قيام ومهد لذلك باسترضاء الجهتين: جهة السودان اتوافق على نقله منها، وجهة مصر لترضى بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية، وكل سعيه فيهما بالنجاح، فقرر مجلس الادارة في ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ انتخابه لهذه الوظيفة الجليلة وأن يكتب الى نظارة الداخلية لتستصدر الامر العالي بذلك فكان ماطله المجلس وصدر الأمر العالي بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية في يوم ١٠ صفر سنة ١٣٢٢ و ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٤ وأنحل ذلك الشكل العظيم

عض أولاد الشيخ باشا بعد ذلك بنان الندم فانه لم يكن لبر على خاطرهم ماساقه الله من حل هذه العقدة وعادوا على الشيطان بالسخط وعلى أنفسهم باللائمة لقبولها وسأوسه، ولكن هذا لم يكن بالنافع فقد فات وقته وماضى لا يعود قام شيخ علماء الاسكندرية الجديد بعهده أحسن قيام، لما فيه من الفطنة وشدة الذكاء، واعلمه بما يجب لهذا الزمان الحاضر وعنده مجلس الادارة الازهرية وشيخ الازهر أكبر التعضيد، وسهل له الطريق في استعمال فكرته، ولم يقيد بنظام سوى نظام الازهر نفسه ونسخ له صور القوانين والقرارات التي يجري عليها العمل المستمر، وقرر له كل ماطلبه في سير الاعمال وضبط نظامها وتكليف العمال بما يطلبه منهم. فأمضى بقية سنته في ترتيب وتنظيم وفي تعويد العلماء على العمل وضبط النواعيد والمواظبة على إلقاء الدروس. واستصدر أخيراً من مجلس الادارة قراراً بمحصر المساجد التي يكون فيها التدريس في ثمانية مساجد ليس مسجداً وأولاد الشيخ ابراهيم باشا منها. والحكمة في ذلك ظاهرة جداً لانه يجب أن لا يوجد

(١) ان العضو الذي أشار عليه بذلك هو الاستاذ الامام، وما أشار عليه به ان يظهر السخط عليه لاسمالة سمو الخديو حتي انه رضي ان يطمئن عليه بهذا القصد، اذ كان من المعروف لدى سموه ان الشيخ محمد شاكر من حزب الشيخ محمد عبده ومن رجاله وانه هو الذي اخاره للسودان وسعى لجملة قاضي القضاة فيه. وهذا حق وان لدي أكثر مکتوباته وتقاريره المهمة التي كان يرسلها الى الاستاذ الامام ليستنير فيها برأيه

معه من يشغله عن الجد في العمل، وأن تزول عوائق المعارضات من بين يديه، فأصدر المجلس هذا القرار المطلوب وبه استراح خاطر شيخ العلماء الجديد والمقصد الأكبر والساعد القوي للآزهر والاسكندرية هو صاحب الفضل والنعم المتوالي على الجهتين أئمة الجنب العالي الخديو، فإنه قد أظهر ارتياحه واستحسانه لما بذله شيخ علماء الاسكندرية من الجهد في تغيير وجهة التعليم فيها من القديم الى الحديث وأظهر رضاه العالي عن الأزهر لتعصيده هذا الشيخ في مقاصده ونقل التعليم من حالة الهمجية الى حالة النظام والدخول بالعلم والعلماء والطلاب في باب العلوم التي يقتضيها هذا الزمان (١)

وفي آخر السنة الدراسية الموافق تقريباً لأخريات سنة ١٩٠٤ قدم شيخ علماء الاسكندرية تقريراً الى مشيخة الجامع الأزهر (نشرته جريدة المؤيد في حينه) فصل فيه أعماله في تلك المدة القصيرة وهي نحو ستة أشهر تفصيلاً تضمن بيان أحوال العلماء والطلبة وما كانوا عليه وما صاروا اليه وما قريء في تلك المدة من العلوم وكيفيات التدريس ومواعيده وأمكته وأنواع العلوم التي قرئت هناك ومن اختارهم من العلماء لتدريس كل علم منهم، وختمه بأن لا بد من إيجاد تقود كافية لكي يكمل الغرض المطلوب ويتمكن من إلزام العلماء والمتعلمين بالنظام، لأنه يستحيل تقدم الأعمال بغير تقود. فوقع تقريره هذا عند مجلس الإدارة أحسن الوقع وتحقق ان العمل في الاسكندرية سيوصل الى ما يرجو من نفع المتعلمين، وكلف شيخ العلماء بأن يبين حاجته من النقود ويضع لخصرها ميزانية مضبوطة فيعاونونه في تحقيق أمله بطلبها من لدن الجنب الكريم، ففعل ما كلف به في أقرب زمن، وقدم منه نسخة الى الجنب العالي ثم قدم نسخة أخرى الى مشيخة الأزهر، فلم يكن غير قليل من الزمن حتى وردت النسخة المرفوعة من الجنب

(١) لا شك في ان سموه كان يحب هذا النظام الذي وضعه الشيخ محمد عبده للآزهر ونفذه بمساعدة سموه وأمكنه سخط أخيراً على النظام بما للسخط على الشيخ. ولما ظن ان النظام في الاسكندرية لا فضل فيه للشيخ وان الشيخ محمد شاكر ليس من رجاله وجد مقتضى امروره وتعصيده غير ممرض بالمانم منها

العالي على الازهر مع كتاب من رئيس الديوان الخديوي مطلوب فيه نظرها بمجلس الادارة وتصديقه عليها بعد البحث وتحققه من الحاجة الى ما فيها، فبحث فيها المجلس ورآها كلها موافقة للصواب فأقرها على ما وضعت وصدر قراره الرسمي بذلك في يوم ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٢ و ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤ وأبلغ هذا القرار في يوم صدوره الى ديوان الاوقاف ليقرر المبالغ المطلوبة في ميزانية سنة ١٩٠٥ المقبلة ، أما مقدار المبالغ الذي طلبه الشيخ محمد شاكر وأقره مجلس الادارة فهو ٤٣٧٤ جنيهاً مصرياً في العام وقد أقر عليه المجلس الأعلى بديوان الاوقاف المنعقد تحت رئاسة الجنب العالي حسب العادة، وأدرج في ميزانية سنة ١٩٠٥ ، وجاء بذلك كتاب الى الازهر وهو بأبلغ الخبر الى شيخ العلماء في أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٤ وكلفه أن يضع لصرف هذا المبلغ قاعدة منتظمة حسبما يراه مفيداً للعالم والتعليم وضع شيخ علماء الاسكندرية ميزانيته وجعل فيها موضعاً لاربعة من علماء الازهر ليكونوا عوناً له على ادخال العلوم الحديثة التي تعلموها في الازهر بالاسكندرية، فضلاً عن تعليم العلوم الدينية المتداولة في الازهر على الطريقة التي تضمنها قانون الجامع الازهر وقرارات مجلس ادارته فيكون تعليمها مفيداً للطلاب، وخصص قسماً من المبلغ المقرر له ليصرف في جريات للعلماء والطلاب، وقسماً منه لاسكان المجاورين، وقسماً بعنوان مرتب شهري للعلماء على اختلافهم في الدرجات، وقسماً بعنوان معونة لبعض العلماء الفقراء غير المشتغلين حق الاشتغال، فجعل مرتب العالم الازهري من الاربعة الذين طلبهم منه ثمانية جنيهاً في الشهر، ومرتب العالم من الدرجة الاولى الاسكندرانية خمسة جنيهاً ، ومرتب العالم من الدرجة الثانية منهم أربعة جنيهاً، ومرتب العالم من الدرجة الثالثة منهم ثلاثة جنيهاً، ومرتب العالم من ذوي المعونة منهم جنيهاً واحداً — وهذا عدا الجريات — وأرسل ترتيبه هذا مع جدول ببيان الدروس التي تاتي في العام الدراسي المقبل (الذي نحن فيه الآن) وأمكتتها ومدرسيها وأوقات تدريسها هناك الى الازهر، فبحث فيه مجلس الادارة بحثاً مدققاً وأصدر قراره مصدقاً عليه بتاريخه في ٨ ذي القعدة سنة

١٣٢٢ و ١٤ يناير ١٩٠٥ تم انتخاب له العلماء الازهرين من أفضل علمائه الذين تخرجوا منه حديثاً بعد دخول العلوم الحديثة فيه، وقرر أن تبقى مرتباتهم الازهرية معهم مضمومة الى الرتب الاسكندري، وسافروا الى اشقر الاسكندري قبيل مساحمة عيد الاضحى، وهام اولاء مع شيخ العلماء هناك يداً واحدة يشتغلون ليل نهار فيما يعود على العلم بالترقي والتقدم، وفيما يعود على المعلمين بالنجاح إن شاء الله تعالى

﴿ مرتبات أولاد العلماء وما تنفقه الحكومة على الازهر ﴾

بعد نحو شهر من تقليد السيد البيلاوي مشيخة الازهر اتفق هو وأعضاء المجلس على تنفيذ قانون المرتبات فيما يتعلق بأولاد العلماء، وتوضيح المقام تقدم مقدمة مختصرة نين فيها ماهو الرتب للازهر في المالية شهريا وما يصرف منه للعلماء وما يصرف لأولاد التوفين منهم وما يقضي به قانون المرتبات في شأن أولاد العلماء فتقول :
كان الرتب الشهري الازهرين سواء كانوا علماء أو اولاد علماء قبل صدور قانون المرتبات نحو ٣١٠ جنيهات ثم انضم اليه مبلغ الألفي جنيه في السنة الذي أعطته الحكومة إلى الازهر ووزعه مجلس إدارته بعد صدور القانون فخص الشهر ١٦٦ جنياً وكسوراً وبضمه إلى مبلغ ٣١٠ السابق ذكره يكون مجموع ما يخص الشهر ٤٧٦ جنياً وكسوراً (وهذا عدداً نحو ٦٢٧ جنياً سنوية تصرف في بدل كساوي التتريف لكبار العلماء وهو لا دخل له في المرتبات الشورية) والذي يصرف من مبلغ ٤٧٦ جنياً الشهري للعلماء نحو ١٤٩ جنياً في الشهر : و كان عدد أولاد العلماء الذين يأخذون هذا المبلغ ١٧٣ شخصا . ف هذه جلة ما تصرفه الحكومة المصرية السنية لهذا الجامع الذي هو أكبر مدرسة دينية في البلاد الاسلاسية ، وخلاصة ذلك ان أولاد العلماء كانوا ١٧٣ نفساً ومرتبتهم الشهري ١٤٧ جنياً (١)
(١) ليت الشيخان محمد عبده وعبد الكريم يلعلان في برزخهما ان ميزانية الازهر زادت في عهد جلالة الملك فؤاد على ٣٠٠ ألف جنيه في السنة وان الإصلاح الذي كاشه بشهادته لم يتقدم ٣٠٠ خطوة ولا ٣٠ ولا ثلاثاً إلا ما بينه بعض المدرسين القليلين المهددين

أما الأحكام المتعلقة بأولاد العلماء في قانون المراتب فهي كما يأتي :

(مادة ٢٠) إذا توفي أحد العلماء عن شيء من هذه المراتب الشهرية وكان له ابن أو أكثر صرف لهم ما يكفيهم من مرتب أبيهم فإن لم يكف البعض صرف لهم الكل ، والرجع في تقدير الكفاية إلى مجلس الإدارة

(مادة ٢١) إذا كان أولاد العالم المتوفى قسراً عند وفاته اشترط فيهم أن يشتغلوا بحفظ القرآن إلى أن يبلغوا خمس عشرة سنة ، فإذا بلغوها اشترط أن يشتغلوا بطلب العلم وأن يواظبوا عليه ، وأن كانوا عند وفاة والدهم قد بلغوا السن المذكورة اشترط في صرف المرتب اليهم أن يكونوا مشتغلين بطلب العلم مواظبين عليه

(مادة ٢٣) إذا امتحن ابن العالم ولم ينجح على مقرر في أصول الامتحان أو احترف بحرفة غير طلب العلم في الأزهر قطع مرتبه وصرف إلى مستحقه

(مادة ٣١) مجلس الإدارة ينظر في شؤون من يأخذون الآن مراتب عن آبائهم ، فمن ثبت له منهم أنه مشغل بطلب العلم حق الاشتغال أباه على مرتبه إلى أن يؤدي الامتحان بنجاح وعند ذلك ينقل إلى درجة العلماء ويمضي على حكم المادة (٢١) ومن ثبت له منهم أنه غير مشغل أو مشغل غير مواظب أمره رئيس المجلس بالاشتغال أو المواظبة فإن استمر على ترك الاشتغال أو ترك المواظبة أربعة أشهر في السنة متوالية أو متفرقة لتغير عذر كالتفريط في الاشتغال أو يقطع مرتبه ويصرفه لغيره من المستحقين ، فإن عاد إلى الاشتغال بعد ذلك لم يكن له حق في أخذ المرتب إلا إذا امتحن وصار من العلماء وعند ذلك يأخذ مرتب عالم ويجري عليه أحكام الدرجات

(٣٢) تضمنت المواعيد التي يتصحبها ابن العالم في الاشتغال بطلب العلم وهذه الأحكام كما تراها روحها اشتغال ابن العالم ومعونته على طلب العلم وإلزامه بدوامه ولكن هؤلاء الأبناء قد عكسوا قصداً قانون وصارت النقود معونة لهم على البطالة ، وعلى إتيان ما يحل بشرف العلم وأهله كما ثبت بالتجربة ، فإن من لا مرتب له منهم أو من له مرتب قليل يشتغل لينال مركزاً في الوجود ويكون خلفاً لأبيه في الأزهر ، ومن له منهم مرتب يفتنيه نوعاً ما اكتفى به عن العمل أو استعمله في غير ما وضع لاجله أو استعان به على ما لا يرضي الله وكان ماساً بالعلم والعلماء والمتعلمين .

لأجل هذا كله ولتحري النفع لاولاد العلماء نظر مجلس الادارة في شأنهم فقرر في جلسته المنعقدة في ٢ المحرم سنة ١٣٢١ و ٣١ مارس سنة ١٩٠٣ ان يدعى جميع اولاد العلماء الذين يأخذون هذه المرتبات لاختبار بسيط يتبين به حال المشتغلين منهم وغير المشتغلين والمواظبين والمهملين مع مراعاة التساهل الى الحد الممكن بحيث لا يراعى النسبة بين الزمن الذي أمضوه في الطلب وبين ما حصلوه من العلوم، لان الغرض انما هو الاشتغال. وان يكون اختبارهم أمام اللجنة تحت رئاسة أحد أعضاء مجلس الادارة، وان تقدم اللجنة جدولاً باسماء من يجتبرون منهم وملاحظاتها على كل واحد مبينا فيه حاله بفاية الضبط، وان يملهم قلم الكتاب إعلاناً صحيحاً يصل الى كل واحد منهم بنفسه ويحجب عنه كتابة إجابات الحضور أو ابداء العذرة أو عدم الانقياد. كل هذا بعد ان ثبت ان رئيس مجلس الادارة السابق كان أعلنهم بنص المادتين (٣١ و ٣٢ من القانون) ونبه عليهم بدوام الاشتغال والمواظبة

اشتغل قلم الكتاب بإعلان هذا العدد (١٧٣) وبعضهم مقيم بمصر والبعض مقيم بالبنادر أو الارياف، وقد كانت العادة من قبل ان تصرف للمعينين خارج مدينة القاهرة رواتبهم اذا أدت فيهم شهادة من القاضي أو نحو ذلك بانه مواظب على الاشتغال، وكثيراً ما جاءت هذه الشهادات عن اناس تركوا القرآن أو العلم واشتغلوا بالمدارس أو بحرفة أخرى أو لم يشتغلوا بالمرءة واستمروا يأخذون مرتب الازهر وهم على تلك الحال وصلت الاعلانات اليهم وحدد فيها لكل فريق منهم يوم مخصوص بحضور فيه أمام اللجنة بإدارة الازهر، وعلى اثر ذلك وصل الى الازهر بلاغات من ثلاثة عشر منهم يقول البعض انه تنازل عن مرتبه في الازهر والبعض انهم اشتغلوا بحرفة غير طالب العلم، والباقيون انهم لا يقبلون الاختبار مهما كان سهلاً، والادارة وشأنها في المرتب، فان شاءت ابتغته وان شاءت قطعت. ولا معارضة لنا فيما نجره. فقرر المجلس الطبع قطع المرتبات عن هؤلاء الذين اظهروا الاستغناء عنها وماوا الى عصيان أو امر المشيخة ومقدارها ١٣ جنبها وكسوراً. ووزعها على من لا مرتب له من العلماء الذين كانوا يشتغلون بلا مرتب وهم اولي وأحق من أولئك الذين كانوا يأخذونها وهم لاهون ناثون، أو متمعون آثمون، ثم تتابع حضور معظم

الباقين الى اللجنة فكانت تختبر من يقول انه يتلقى العلم مدوحي تلم انه كاذب - في اعراب مثال خفيف بحله من يتلقى كتاب (الازهرية) فاقرت قوما وهم على هذا النحو من التحصيل لعلهم ينجحون فيعملون، ووجدت بين الباقين من هو مشتغل حق الاشتغال فأنثت عليه بما يزيد في نشاطه، ووجدت من هو مشتغل بحفظ القرآن لان سنة لم يبلغ الخامسة عشرة، ومن هو مقدم لامتحان اتدريس فلم تختبره ووجدت من بينهم من لا يكاد يقرأ ولا يكتب بعد أن مضى عليه زمان طويل يختلف بين ست عشرة سنة وخمس وثلاثين سنة وهو يأخذ هذا المرتب على انه من المشتغلين

أذكر من هؤلاء واحداً قدم من (جرجا) بعد كثرة الاعتذار وطول التغيب وقد مضى عليه أكثر من عشرين سنة يأخذ المرتب بما يتوالى على الازهر من تلك الشهادات القاطعة بانه مشتغل بطلب العلم في جرجا حق الاشتغال، وقد اتفق كل القضاة والمفتين الذين عينوا في جرجا في ذلك لزم على الشهادة انه بانه طالب علم مشتغل بطالبه مواظب عليه، ولم يخطر ببال أحدهم أن يستدعيه مرة ليعلم من حاله ما يصحح الشهادة له بالاشتغال، وكأنهم فهموا ان أخذه لهذا المرتب خير ولا يجوز لهم أن يمنعوا الخير. وأني لا اعتقد انه لو اتفت أحدهم إلى ذلك واستدعاه مرة وسأله عن أسهل شيء لانتبه هذا الطالب من غفلته وعمل بعض العمل ليحلل أخذ هذا المرتب، ولكنه جزم بأن لا رقيب عليه فاهمل نفسه غاية الاهمال، واشتغل يدل العلم بسفاسف الاعمال. ولو فعل حضرات القضاة والمفتين ذلك لخرجوا من عهدة الشهادة بما لا يعلمون (١)

(١) يقول محمد رشيد: ألم يقرأ أو لم يسمع هؤلاء القضاة والمفتون قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا كونوا قوايين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا قاله اولى بهما) الآية؟ بلى كلهم قرأها وسموها مراراً لا عصي وحفظوا لفظها ايضاً ولكن لم يخطر ببال احد منهم انه مخاطب من ربه بالمباغة في القيام بالقسط والشهادة بالحق. هما تكن حال المذهود عليه، لانهم لم يتعلموا في الازهر ولا في غيره وجوب تدبر القرآن والاهتداء به، ولما قام الشيخ محمد عبده بإصلاحهم بهذا ومحاوّل اصلاح فسادهم وابطال تزويرهم حتى في طلب العلم عادوه وطعنوا في دينه كما سيأتي

وبالاختصار قد حضر هذا الشخص إلى إدارة الأزهر وجلس لامتحانه بعض من يشفقون عليه من أهل جلدته بل سكان بلدته بل ذوي قرابته وهم أخوف الناس عليه فلم يسعهم إلا الإقرار بأنه لم يشتغل زمناً ما بأي علم من العلوم ولما انتهى المجلس وعلم هو منهم أو أعلموه بما سيؤول إليه حاله طلب من شيخ الجامع أن يعاد امتحانه لأنه تهيّب ذلك المجلس، وهو عذر لم يكن مقبولاً لأن الامتحان أمام شيخ الجامع أهيب منه أمام عضو من الإدارة، خصوصاً وقد كان في الأولى قوي الظاهر بمن حضره، ولكن الشيخ قبل طلبه قطعاً للمعاذير فلم يلبث أن خرج من المجلس الثاني وهو جازم بأنه غير مغبون وبأنه هو انقصر في نفسه وعاد على من كانوا يشهدون له باللوم والتعنيف ورجع إلى بلده يائساً من لقاء الرتب بيده استخلصت اللجنة أولئك المختبرين فظهر أنهم منقسمون أربعة أقسام: الأول يبقى مرتبه، والثاني يكلف تقديم طلب الامتحان لنيل شهادة العالمية ويبقى مرتبه إلى أن يخرج من الامتحان فإن نجح نقل إلى مرتب العلماء وإن سقط قطع مرتبه بمقتضى القانون، والثالث أمر بمداومة الاشتغال والمواظبة، وأعلن بأنه مرّقب في عمله، فاما أن يجد ويجتهد وإما أن يقطع مرتبه، والرابع وهو أمثل ذلك الجرجاوي يقطع مرتبه من الآن

وقد استغرق هذا العمل من أول أبريل سنة ١٩٠٣ إلى ١٦ يولييه سنة ١٩٠٤ أي خمسة عشر شهراً ونصف شهر، وفي ١٦ يولييه سنة ١٩٠٤ صدق قرار المجلس بقطع مرتب القسم الرابع وعددهم ثلاثون وهم الذين تبين للمجلس أنهم لا يصلحون للشيء مطلقاً، وأنه يحرم أخذهم المرتب المشروط بالاشتغال والمواظبة. وتقرر أن يكون القطع من أول أغسطس سنة ١٩٠٤، أما مقدار ما قطع من الثلاثين فهو ٢١ جنيهاً وكسوراً في الشهر. ثم اتبع المجلس هذا القرار بقرار آخر في ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤ بقطع مرتب ثمانية من أضراب أولئك الثلاثين كان ينبغيهم إلى الاشتغال وتحقق أنهم لم يشتغلوا وإن يشتغلوا، ومقدار مرتبهم تسعة جنيهات وكسور، فيكون جملة من قطعوا ٥١ نفساً ١٣ تنازلوا و ٣٨ لم يفلحوا وجملة مرتباً ٤٤ جنيهاً وكسوراً فالباقي من أولاد العلماء الذين يأخذون المرتب من أول يناير

سنة ١٩٠٥ - ١٢٢٠ ومرتبتهم الباقي لهم مائة جنيه وجنيهان ويضم المقطوع من اولاد العلماء إلى مرتب العلماء يصير ما يأخذونه ٣٧٣ جنيه في الشهر وكسور الجنيه ، وعلى هذا تم الامر في مرتب اولاد العلماء وهو عمل قد طبق القانون والحق من كل الوجوه

سعي الاستاذ الامام لاعانة اولاد العلماء بعد قطع رواتبهم

في زمن الشيخ حسونه قطع مجلس الادارة مرتب بعض اولاد العلماء وهم نحو ثلاثة عشر على ما ظن لم يتحقق فيهم الاشتغال المشروط في القانون، ولكن كان معظمهم من الاغنياء الذين لا يؤثر فيهم قطع هذه المرتبات، وأما هؤلاء فكثير منهم ممن كانوا قد استغنوا بهذا المرتب القليل وقعدوا عن العمل بأقل من الكفاف فصاروا كلاً على الازهر والازهرين . ولما رأى بعض أعضاء المجلس - وهو من يعرفه الناس بالسعي الى الخير والعمل للمصلحة العامة - ان في الواحد والحسين المقطوعين بمقتضى القانون من قعده به الدهر عن السعي، وتعود أن يأكل بلا كد ولا تعب ولا عمل، حتى شاخ وهرم، وصار لا يقدر على انتحصيل من جديد وله زوجة واولاد وقد أخذ القانون بالعدل المر فأخرجه من عداد المستحقين - لما رأى ذلك العضو هذا استعطف بعض أهل الخير والمروءة والثروة فأخذ منهم جانباً من النقود وأودعها في خزينه الازهر لتنفق على أولئك المعوزين باعتبار ما كان مرتباً لهم من قبل، فن جبهة قد روعي القساؤون وتفيذه ، ومن جهة لم يفت أولئك المحتاجين شيء من حاجتهم التي كانوا يقضونها بمثل هذا المرتب الزهيد، وسعى بعضهم سعيه المحمود فقيده في بعض الاوقف الخيرية ورتب له مبلغ مستديم، ولا يزال يجمع لهم النقود ويرسلها الي الازهر ليصرف عليهم منها الى الآن ، ولقد فعل هذا حتى بعد استقالة من عضوية مجلس الادارة بل بعد مفارقه الازهر فبعث الى خزينه الازهر بمبلغ كبير يكفي أولئك المستحقين سنتين ان شاء الله . وقد سعى لترتيب مبلغ غير قليل في وقف خيرى واسع لا علاقة له بالاوقف العمومية لبعض هؤلاء المساكين، الذين أفسدهم إهمال المشايخ السابقين، ولو كان ممن يعملون كما يعمل الناس لغرض مخصوص لما اهتم بعد بهذا الجمع، واكتفى رجل المصلحة ورجل الخدمة العامة، ورجل الشفقة على البائسين في أي مكان وجد وفي أي زمان. فجزاها الله أحسن الجزاء.

حالة الازهر الصحية وتعين طبيب له

فتنا ان نذكر شيئين مهمين : تعيين طبيب للازهر واستدراار المسكارم الخديوية لعلماء دمياط والجامعين الاحمدي والدسوقي. فأما تعيين الطبيب فقد كان في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ أي قبل فصل الشيخ حسونة بنحو سبعة أشهر وعشرين يوماً ، والحامل على طلب تعيينه والفائدة منه يتبينان بذكر ما كان عليه الجامع والطابة في الامور الصحية قبل مجيء الحكيم وما صار اليه بعده ، ولانذكر منهما غير القليل ، فهو يكفي عن التطويل

كانت أمكنة الجامع الازهر من صحنه الى مقاصيره الى أروقته الى مغاطسه وميضاته وكنفه مجتمع أوساخ ، ومهب روائح عفنة ، ومنبع وخامة ، وبؤرة أمراض معدية ، فاذا دخل الداخل الى الصحن وجد فيه بقايا الكراث والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات الكندس من مواضع النوم أكواما والى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج وما تحمله النعال من وحل الطريق حيث يتأبط المجاور مداسه بلا نفص ولا تنظيف. وبين هذا وذاك كثير من البصاق والنخامة والنخاعة

ثم اذا ذهب الى جهة الميضأة وجد حوالها أمثال ذلك ورأى قطع الخبز المبلول تعوم في مائها وهي تندفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات (١) واذا قصد المغاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الادران ، وشم منها مالا تحمل الانوف والابدان ،

(١) بل كان بعضهم يستنجي بمائها وقد اخبرني الاستاذ الامام انه لم يكن قط يتوضأ من ميضأة الازهر بل كان يأخذ الماء من حصبه فيها المسمى بالسلسوله على قائنه ويتوضأ منه . وكانت ميضأة الجامع الاحمدي اقذر من ميضأة الازهر ولا سيما ايام الموالد الثلاثة فقد كان النساء يفسان اولادهن من العذرة فيها حتى ترى ساجحة وراسبة فيها ومع هذا كله كان الحرافيون يعدون ابطال الميضأة المكشوفة واستبدال الاناييب بها (الحفقيات) من سيئات الاصلاح الذي ذهب ببركات الازهر

واذا وصل الى غرف السكنى في الاروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويهريق الماء بين يديه فيمنعه الكسل أن يمضي بها الى البالوعات، وذاك يطبخ والدخان يسود وجهه الخاطئ وداخل المسكن، وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيت ، وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الاسبوع والاسبوعين بلا كنس فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات - هذا الى ازدحام السكان في الغرفة الواحدة ، ونومهم مزدحمين رأس الواحد عند رجل أخيه، ومعهم فيها على ضيقها متاعهم وفرام وخبزهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود .

واذا طاف الطائف في جوانب الجامع وحرل الاساطين وفي الاماكن التي يسمونها بالحارات وجدها كلها مشحونة بخزائن الخشب انقائم بعضها فوق بعض صفوفا بلا نظام ، تجري بينها تقذارتها الفيران، حتى يخطأ الراثي قدم عهدها من آثار الاقدمين ، واذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح اللش وعفن الخبز فلا يملك راثيها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوبا الى حيث ينتهي به الفرار

هذا حال المسكن ، وأما حال الدكان فقد كانوا لا يختصون من الامراض المعدية وأنهم الجرب والرمم الصيدي وفيهم السلول والمجدوم والمصاب بالزهري وإن كان هؤلاء قايماين ، وهم ما كانوا يستعملونه الجرب هو كبريت العامود ، ولا تسل عن الدرس اذا كان بين طالبته جربان قد طلى جلده بالكبريت والقطران ، فقد يختلط هذا بسواه ويزدحمون ، والله أكبر اذا كان الفصل فصل القيظ ، فهناك تنتشر تلك الروائح الكريهة وتسري المدوى الى معظم المجاورين ، ورحم الله من لا أنف له أو من كان ذوق حاسة الشم فإنه هو السعيد فيهم

وقد ذاق كل مناذلك الألم ونحن في الطالب ، ولكن كان يخففه عنا ما يلقى علينا من المتقدمين منا والسابقين في طلب العلم من أن الجرب علامة الفتوح وان الذي لا يلحقه الجرب من المجاورين يعد بينهم مرفها ولا يؤمل فيه النجاح .

ولقد فشت الامراض الوبائية في الازهر كثيراً ولم يشعر بها أحد وبقيت في المجاورين تحصدهم ، ولا يوجد من يخبر عنهم لجهل الحكام بحالهم ، ولجهل أهل المحل بما يلزم للصحة من الاحتياط

وإن من يكون مسكنه ومبنيته ومقيله ومحل عمله ودرسه ومعيشته على ما قدمناه فلا بد أن تلزمه المعدادات من الامراض ، اللهم إلا من كان منهم قوي البنية بأصل الخلقة وكان بدنه غير قابل للتأثر بالعدوى ، وهو لا في وسط مثل هذا الجو قليلون . هذا قليل من كثير من حالهم الماضية ، أما وقد جاءهم الطبيب فقد خفت جداً وطأة هذه الامراض لا تقطاع معظم أسبابها وزوال بعضها بالمرّة ، فالميضة استبدلت بحفريات (١) والكنس مستديم ليل نهار ، والمغاطس أبدات بمجمات تقريباً ، والغرف قد اتسعت على السكان بحيث لا يسكن في الغرفة الواحدة إلا عدد يراه الطبيب غير مزدحم فيها ، ووجدت المراقبة على الغسيل ، وأعدت مطابخ في الاروقة بعيدة عن غرف السكن ، وأقيمت تلك الصهاريج وأدخلت المياه النظيفة من مياه الشركة ، واستعملت المرشحات ، وتعود الطلبة على التدأوي من الامراض ، فقد أعدت للطبيب بينهم غرفة في الرواق العباسي يجلس فيها وقتاً معيناً من النهار فيفد عليه فيها مرضى الطلبة فيبحث في أمراضهم ويعطيهم الدواء من صيدلية (أجزخانة) الازهر التي ينفق عليها ديوان الاوقاف ، ويصف لهم كيفية استعماله ، ولا يتكلمون في العلاج نقوداً ، وإذا كان بعضهم في حال لا تمكنه من الحجيء الى موضع الطبيب ذهب هو اليه بنفسه في محل سكنه داخل الازهر أو خارجه وقد أعقب هذا ان المظافة في الجسم والسكان والثوب والأكل والشرب قد وجدت على الجلفة في غلب المجاورين بنصائح الطبيب وهي مناط الصحة كما هو معروف ، ثم ان النور الذي كان يمرض العيون قد ذهب بالمرّة واستميض بأنوار الغراز ، وهي تستعمل الآن في المطالعة والتدريس الليلي ولونها أبيض وضوءها عظيم ، وأما النور الذي كان يستعمل قبل ذلك في النطلة فكان على سرج الزيت توقد بجانب العمود ولونها أحمر كدر ودخانها يعمي السليم ، وإذا رأي الطبيب بعض المصابين بالزهري أو السل أو الجذام كتب إلى الشيخة بأعطائه رخصة طويلة جداً بحيث ينقضي الاجل قبل انقضائها ، ولا ترى الشيخة إلا فاعلة ما يشير به ، وفي هذا من شدة الاحتياط ما لا يخفى وهي الدواء الحتبي لمثل هذه الامراض

هذه جزئيات من حال الازهر بعد وجود الطيب يستبدل منها على الكليات والفضل في ابتكار هذه الفكرة - فكرة إيجاد الطيب - لمجلس الإدارة، والفضل كل الفضل لمن ساعد على تحقيقها واستحسنها وأمدّها بالمال وهو الجناح العالي حفظه الله، فإنه لما عرضت عليه هذه الفكرة فرح بها وأيدها، وأمر بأن ينتخب للازهر طيب مسلم عارف بأحوال هذه البلاد وأمراضها، فانتخبه المجلس وكتبت عنه الشيخة إلى الاوقاف وهو عرض الامر على وليه، فصدر الامر على الفور بتعيين الطيب وما يلزم من الادوية، وورد مكتوب الديوان بذلك إلى الازهر بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٨ بمرة ٧٤ ولم يكن إلا يوم حتى جاء الطيب وأخذ في عمله بفاية الجهد والاجتهاد، وهو إلى الآن يعمل بكل نشاط

واند زاد المجلس في هذا النوع ترقياً فطلب في سنة ١٩٠٤ بناء مستشفى لطلبة العلم الفقراء يقيمون فيه مدة العلاج، فارتاح الجناح العالي إلى هذا الطلب وأمر بانتخاب قطعة من أرض الاوقاف قريبة من الازهر يبني عليها هذا المستشفى، فكان كذلك فشرع الديوان في بناءه على الأرض التي في آخر السكة الجديدة مما يلي شارع الدراسة وهي أحسن موقع صحي يبني عليه مثل هذا المستشفى

(وهنا عقد الكاتب فصلاً لبيان كل ما كان من إعانة ديوان الاوقاف)

الازهر وهي حثيرة جداً بالنسبة إلى ميزانيته في هذا العهد . ثم فل)

هذه الاعمال الماضية كلها انني شرحتها من أول هذه الرسالة إلى هذه النقطة هي الاعمال المستديرة التي قام بها مجلس الإدارة من عهد تشكيله، وقاسى في وضعها وفي تنفيذ معظمها أكبر الاهوال على ماتبين مما ذكرناه، وتضاف إليها الاعمال الجزئية اليومية من ترتيب المرتبات وتوزيع كساوي التشریف والترقي فيهما وما كان يتحراه في ذلك من وجوه المصاحبة البعيدة عن الغرض، فانا لم نعهد عليه انه أعطى أو منع الا لما يراه نافعاً في التعليم . . .

(ثم عقد الفصل الآتي في محافظة المجلس على حقوق الازهر وشرفه)

محافظة المجالس على حقوق الازهر وشرفه

(كان) من الأعمال اليومية المحافظة على كيان الازهر وشرف الازهرين ، ومكافحة كل جهة من جهات الحكومة وديوان الاوقاف إذا جاء منها ما يمس حقاً من حقوق الازهر وأهليه ، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى (فمنها) المحافظة على حقوق الازهر وطابته في أمور القرعة العسكرية إذ كثيراً ما كانت (نظارة) الحربية تعامل الطالب خطأ بما تراه مجالس القرعة في العاصمة وبلاد الارياف ولا يساعد عليه القانون، فتتكرر المكاتبات بين الازهر والحرية متضمنة للحجج والبراهين ويذهب ذلك العضو المعروف إلى النظارة وينتهي الامر برد المظلمة وتقرير قاعدة لمعاملة الطلبة في المستقبل ، فينتفع بها العموم (ومنها) انه إذا وقع عالم أو طالب فيما يوجب المحاكمة ناضل الازهر عنه بوجه الحق كما حصل في حادثة من شهدوا من العلماء لطالب في بليس وذلك ان هذا الطالب انتحل لنفسه صفة العالمية وعقد عقد زواج بلا حضور المأذون خلافاً للأنحة ، ولما وقع بين يدي النيابة استشهد كثيراً من علماء الازهر على ورقة ليقدمها إلى النيابة فأشبهت فيها وأرسلتها إلى الازهر وطابت منه أن يرسل اليها كل من وقعا عليها لسؤالهم عما شهدوا به ، والتدقيق في البحث معهم فيه . فرأى الازهر أن لا يساهم دفعاً للاهانة عنهم ، واستحضر أولئك الشاهدين من العلماء فقرروا جميعاً انهم لم يعاموا بما شهدوا عليه ، وانهم إنما ختموا على تلك الورقة لأن كاتبها أفهمهم بأنه يريد التوظيف في مسجد ببلده وانه يليق لتلك الوظيفة . ثم أرسلت المشيخة نتيجة التحقيق إلى النيابة في الزقازيق وبها دين المتهم . ثم نشرت المشيخة إلى عموم العلماء منشوراً تحذرم فيه ان يشهدوا بما لا يعامون . ونظائر هذه كثيرة الوقوع

(ومنها) مقاومة ديوان الاوقاف في استئثاره على الازهر ومن فيه خصوصاً في مسائل التوظيف والامامة ومستخدمي الجامع وما ألحق به . و الاشاكل بين

الازهر والديوان في هذا الباب عديدة وأقربها مسألة الاسكندرية الاخيرة ومسألة المنصورة ولا نطيل فيهما الكلام .

ومما كان بين الازهر والاقواف مسائل من يموت من العلماء وله مرتب في الديوان رتب له لانه من العلماء فان المادة (٢٥) من قانون المرتبات تقضى بانه اذا انحل عن أحد العلماء شئ من هذا القبيل لا يعود الى الديوان ولكن يوزعه مجلس الادارة على علماء الازهر في منفعة التعليم وقد مات في زمن الشيخ حسونه بعض العلماء ممن لهم هذا المرتب وكذلك في زمن الشيخ سليم وفي زمن السيد البيلوي وكما قرر الازهر توزيع مرتب واحد منهم على العلماء وأرسل قراره الى الديوان ليأمر بالصرف بموجبه قامت قيامة أهله كلهم بصرفونه من خزائنتهم، ويضطر الازهر الى كثرة الاخذ والرد، والى تردد بعض أعضائه على الديوان حتى ينتهى الامر باجابة الازهر الى ما أراده من المحافظة على القانون (١)

وقد كان من الراجب على الديوان ان لا ينازع ان كان لا بد من المنازعة الا في المرة الأولى ثم يجعل ما انتهى عليه الحال فيها قاعة للعمل في المستقبل، ولكن هكذا كان يقع النزاع في كل مرة بخصوصها.

إني لا تذكر ان مشيخة الازهر كانت كتبت الى الديوان في اواخر عهد السيد البيلوي بما مضمونه (اننا علمنا بان مولانا الجنب العالي قد تفصل على بعض علماء الازهر في هذا الزمن الاخير فاحسن عليهم برواتب مختلفة من جنهين الى عشرة جنيهات في الشهر وصدرت اوامره العلية بذلك، والازهر يهمله ان يعرف اسماء من رتب لهم هذه المرتبات ومقدار ما رتب لكل منهم ليقيد بها في دفعته وليقبضها مباشر الازهر مع المرتبات الاخرى ويسلمها الى أربابها كما هو متبع في سواها) فحفظ الديوان هذه الكتابة عنده زمنا الى ان جاء هذا التغيير الحديث في مشيخة الازهر ومجلس ادارته فكتب الى الازهر جوابا عن تلك الكتابة مضمونه « قد علمت كتابة الازهر المتضمنة طاب اعلامه بمن رتب لهم مرتبات

(١) لولا هذا العضو وهو الامتياز الامام كما هو معلوم لم يتجرأ الازهر على

معارضة ديوان الاوقاف ولا مطالبته ، ولما كان يستفيد من المطالبة ما يريد

حديثه من علماء الازهر ومقدار ما رتب لكل منهم ، وقد تحقق الديوان ان الازهر يريد ادخال هذه المرتبات الجديدة تحت حكم المادة (٢٥) من القانون ولذلك استعلم من الممية السنية عنها فأجابت بان هذه المرتبات لهؤلاء العلماء هي شخصية وعلى ذلك فهي لا تدخل تحت قانون المرتبات الازهري « وهو جواب من الاوقاف غير مقنع كما تراه لا يقتنع به الا من يريد السكوت

(ومنها) تعويد الطلاب والعلماء المواظبة في العمل ، والمحافظة على مواعيد الدراسة الرسمية ، وتعليم الطلاب انه لا يتقدم أحدهم في الجرايات الا بالجد . فشرعت لهم نظمات الانتساب والانتظار ، وحددت لهم فيها المواعيد ، وسنت لهم الامتحانات ليتقدم أهل الاعمال على أهل البطالات فسادت هذه الروح بين الطلبة خصوصا طلبة الحنفية المقيمة أسماؤهم في الرواق وفي الدفتر ، ومستحق وقف المرحوم سليم باشا اتوزير الشهير من الشافعية والمالكية والحنفية ، وكل هؤلاء تحت نظر مفتي الديار المصرية (١) ، بمقتضى شروط الواقفين أو قرارات المشايخ السابقين ، فقد فهموا ان الاستحقاق لا يكون الا بالاشتغال ، وان الاشتغال لا يتبين الا بالاختبار ، فصاروا يتقدمون اليه ، ويتمافتون عليه

(ومنها) فصل ما يقع من المشاكل كل يوم بين الطلبة وبين مشايخ الاورقة والحارات بتحقيق ما يشكو منه الطالب أو الشيخ وتقرير ما يقام الشكوى وما يحسم النزاع واكثر ما يكون وقوع هذا في رواق الصعايدة والشوام ورواق المغاربة ورواق البرابرة ، واما غيرها فوقع النزاع فيها قليل

(ومنها) المراقبة الشديدة على سفر الطلاب والعلماء في غير المواعيد المقررة حتى صار من البديهي عندم ان السفر لا يكون الا بعد الاستئذان من الجهة المختصة باصدار الاذن به وصدور أمرها كتابة الى مريدي الاسفار وشدة الملاحظة والمراقبة على أمر النظافة في الجامع وأروقته وفرشه وخزائنه وكل هذا وغيره مشاهد معلوم

(١) أي وهو الاستاذ الامام المنفذ للنظام فيهم ومن أجدر بتنفيذ النظام من واضحه لقوة شوره بالحاجة اليه

تمهيد لبيان الشعب قبل الانقلاب

لا يشك عاقل متدين في ان هذه الاعمال كلها كليها وجزئها ما يرضاه الدين الخفيف، وبأسر به الشرع القويم، وبقبله العقل السليم، وليس فيها ما يقلق طالبا أو عالما، ولا ما يوجب شغبا أو لغبا، ولا ما يولد شقاقا أو خلافا، ولا ما يفتني زعزعة في العقيدة أو فسادا في الاخلاق، ولا ما يوجب نزوعا إلى الثورة، أو شغلا عن العمل النافع، ولا ما يستدعي ترك علوم الدين وإهمال تعليمها، ولا ما يخرج بهذا المكان عن كونه مدرسة دينية محضة، تدرس فيه العلوم الدينية المحضة، ولا ما يجلب على هذه المدرسة عارا في بلد من البلدان، ولا ما يدعو إلى الاضطراب والهماج، ولا ما يخالف نظام الهدوء والسكينة والاطمئنان، ومن ادعى شيئا من هذا ف عليه ان يميز بين الدين وعدم الدين، فان لم يستطع وأراد محو ما وضع وان كان هو النافع للدين، واحداث ما يغيّره وان كان هو الضار بالدين، فاعليه الا أن يعمل ليستصدر امرا عاليا بالغاء كل ما كان بناء على انه مخالف للدين، وارجاع الازهر إلى ما كان عليه من قبل، وهذا أمر غير ميسور لان الجناح العالي أيده الله قد تحقق من نفع هذه الاعمال وموافقتها للدين، وأنها مفيدة للعلم والتعلمين، موطدة لأركان علوم الدين، لانه كما سبق قد استحسناها جميعا، باستحسان كل واحدة منها عند صدورها، بل ان جناحه العالي هو المبتكر للكثير منها، وأهمه تشكيل مجلس الادارة وصدور الاوامر بما وضعه (المجلس) من القوانين، وهو المؤيد لما يقاها المساعد على إيجادها بما أمدّها به من المونة بأموال الاوقاف الخيرية، وهو أفضل ما تنفق فيه. ولا يرضي جناحه العالي وهو الامام، بان تحل الممجية محل النظام، ولا تسمح نفسه العلية أن يحكم بأن ما أمر به لاصلاح الدين مخالف للدين. وماحب الغرض وان كان يقتدر على تصوير الخير بصورة الشر، وعلى تمثيل الحق بالباطل، والنافع بالماطل، وتشويه المالح، وتزيين القبيح. الا انه لا يلبث أن يظهر مقصده فيقع في شراعه له وان لا يبيت ربا يحميه (وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون) .

ندع هذا كله ليحكم فيه من يطالع عليه ونرجع بالسيد البيلوي إلى ما بعد.

تسعة أشهر من تعيينه سار فيها مع أعضاء مجلس الإدارة بغاية الوئام والوفق كما قد مناه وأخذ العمل الصالح إمامه وجعل مقصده خدمة العلم والعلماء والطلاب [ثم ختم الكاتب كتابه بهد هذه المقدمة بذكر الشغب الذي كان السبب المباشر لاستقالة السيد الببلاوي من مشيخة الأزهر ، والمفتي الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان من مجلس إدارته فنشره وتوفي عليه ببسط الحقائق التي لم يكن يستطيع هو التصريح بها - قال]

الشغب الذي انتهى باستقالة الببلاوي

(والعضوين العاملين بالمجلس)

بعد مضي تسعة أشهر من تعيين السيد علي الببلاوي - والناس في هدوء وسكون، وجميع المدرسين بلا استثناء في وفق على طاعة رئيسهم، والطلاب قد وضعوا بين أيديهم أملاً يقصدونه بعمائمهم - سمع الناس فجأة بضجة بين بعض المدرسين وهياج إلى الشكوى من أمور كانوا من مقتضى الأمر العالي الصاد بنظام الأزهر وما عدا ذلك مما سمع ليس له حقيقة بالمرّة، ووجد بعض الزعّاف من بينهم يدعون الناس إلى الختم على عرائض الشكوى، وموضع تلك العرائض التي يؤند الناس للختم عليها منزل شيخ كان معروفاً من قبل بالبعد عن الناس والابتعاد عن أبواب الأمراء، وكان يظهر من التعفف والتعشف ما يمثل به سيرة الصالحين ولم يكن يطالب من حظوظ الدنيا إلا أن يكون شيخ المقاري بمصر (١) يأخذ جرياتها ويتساقط على قرائها إلا أنه من عدّة سنوات نصّح بعض المعارفين للجناب العالي الخديوي أن يذهب في معيته دوماً للتفسير في شهر رمضان على نحو ما يحصل من سلاطين آل عثمان فأمر الجناب العالي شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري بانتخاب اثنين من العلماء لذلك فانتخب ذلك الشيخ والاستاذ الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الخليلي (١) في مصر طائفة تعيش بقراءة القرآن الدوتي في القبور وفي غير القبور ولها رئيس يدعى شيخ المقاري

على ان من نحن بصددہ يقرأ كل يوم من رمضان في سراي القبة ، وأما الآخر وهو شيخ الازهر الحالي فانه يقرأ كل يوم جمعة منه فقط في سراي عابدين من ذلك العهد خلع الشيخ القصير ثوب النقشف الطويل ، وارتقى على سنه وشيئته إلى درجة من حب الزلفى أقسم فيها بالله: إن أفندينا العباس ولي من أولياء الله. وذلك في حضرة أحد مشايخ الازهر السابقين، ثم ساق له بعض الكرامات، وحكى عنه ما شاهد من خوارق العادات (١). ثم ان الشيخ سليما استعمله في السعي لابطال مكافأة طلاب الازهر التي سبق السكلام عنها، ونحو ذلك من مقاصده التي مر عليك خبرها. أصبح هذا الشيخ وسيلة من الوسائل يتوسل بها من شاء إلى ما شاء. وهو الذي أرسل بعض من يجتمع عليه يدعو بعض المشايخ لختم العرائض بالشكوى من السيد علي البيلاوي ومجلس إدارة الازهر، فأخذوا يوفدون الناس إلى منزله وهو ومن معه يقولون لمن يحضر: إن هذه عرائض بطلب زيادة مرتبات وعد أفندينا بمنحها للمدرسين، ومن طلب قراءتها ليعرف ما فيها اضطروا أن يقولوا له ان هذه الشكوى على رغبة أفندينا ومن ختم نال المكافأة ومن لم يختم صار مغضوبا عليه، وهو يصدق لان الشيخ من الحاشية بحث الباحثون عن السبب في هذه الضوضاء وقيام الشيخ: من يسمع قوله للشكوى وقد كان من الهدوء والسكينة بحيث يضرب به المثل، والذين هاجوا معه كانوا من المنتسبين لشيخ الجامع ولاعضاء مجلس الادارة ومن سبق احسان هؤلاء اليهم، فوجدوا أن ذلك كله كان عقب قرار صدر من مجلس الاوقاف

(١) وهو ان سموه كان بالاسكندرية فكلم الحاشية في سراي القبة: ان الشيخ يحضر لقراءة الدرس فلا تدعوه يذهب حتى يفطر، فلم سموه ان الشيخ سيحضر وهو غائب وهذا من المكاشفة وعلم القيب الظاهر، وما كان يقول هذا الذين يجهلون أن بحيته الى المرأي كان مروقاً لاخديو لاجل الدرس بل يقوله لمن يعلم ذلك؟ وما كان الخديو مكاشفاً وإنما كان كاشفاً لدجل الشيخ وتليسه اذ ادعى انه يجمع له الجن ويربه بعض أعمالهم فأدرك الخديو حياته في ذلك وأظهرها له

الاعلى في مسألة استبدال أرض للوقوف في الجزيرة وقد اشتهر أمرها ولا يزال مشتهراً إلى اليوم . وقال قائلون ان الغرض من هذا كله الانتقام من المفتي لان هذا القرار صدر بموافقة . وسواء كان السبب معقولا أو غير معقول فهذا هو الذي كان يقال ولا يزال يقال

مع السعي والتحريض والترغيب والترهيب لم يوافق الشيخ على الختم أكثر من خمسين مدرسا (من عدد أربعائة ونيف) قام هؤلاء نفر وحملوا عرائضهم وقدموها إلى الجنب العالي فدرجت في الادراج ، وظهر بعد ذلك ظهور الشمس في ضحاها ان ممبث الحركة كان السراي العامرة ، لازالت ببركة الميل الى الوفاق عامرة وحدث في أثناء ذلك مسألة الزوجية المشؤومة على البلاد والعباد ، فظن قوم برجال الازهر التقصير في معونتهم أو انهم يعاونون خصومهم ، ولأول الله أصابوا ، فما رجال الازهر من أولئك الطرفين . فمن ثم كان لهذه الحادثة ما كان لها من التعكير على ادارة الازهر ، ولا يدري عقل ما العلاقة بينها وبين هذا الاثر وقد قيل ما قيل (*)

وقعت هذه الاحن كلها موقع التصديق ، فأحب الجنب العالي على زعم البعض أن يستقيل أعضاء مجلس الادارة أو بعضهم حتى ينتهي المشكل ، ولكن جنابه العالي لم يصرح بذلك لاحد من الاعضاء بطريق رسمي أو شبه رسمي . وإنما كان يذيعه بعض أولئك العلماء ومن أعانهم حتى يصلوا إلى غرض مخصوص ، وأما الحكومة فقد صمت أذنها في ذلك الوقت عن سماع مثل هذه الاصوات ، وتركت

(*) عقد الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد نكاحه على صفة بنت السيد عبدالحالق السادات بدون إذن أبها ، وأخرجها الى بيته فرفع والدتها عليه قضية طاب فيها فسخ العقد لأنه غير كفؤ لها ، فحكم القاضي اشرعي أولا بالحيلولة بينهما الى أن يتم النظر في القضية ، وآخرا ببطالان العقد ائدم الكفاءة . وعدت الامة المصرية عمل الشيخ علي إفسادا لآداب الامة وهاجت عليه الجرائد ، وكانت القضية شغلها الشاغل ، وأمين صاحب المؤيد إهانة فيجة عامة ، وكان الحديو نصيرا له بالطبع ، واتهم هو الاستاذ الامام بأنه عون السيد عبد الحافق السادات عليه ، فهذا ما أبهم المؤلف كما أبهم كثيرا من المسائل أو أظهر الريب فيها تقية واحتراسا

الشاكين والمشكوكين يقولون ويعملون ما يشاءون . فطال الزمن على هذه الضوضاء ولم يشأ رجال الازهر قمع أولئك المحركين باجراء العقوبات المنصوص عليها في قانون الجامع الازهر لانهم جزموا بان أولئك النفر آلات في أيدي أولئك المعينين لهم اللاعبين بهم ، الذين يذيعون ان جميع أقوالهم وأعمالهم إنما تصدر عن رضى واستحسان من ولي الامر ، وما هم في ذلك إلا موهمين

كبرت كل هذه الاحوال عند السيد على البيلاوي ورأى انه معطل عن العمل ولا فائدة من وجوده ان لم ترتب عليه الآثار ، فحاك في خاطره أمر الاستقالة وأفضى به إلى بعض أعضاء المجلس فلم يوافقوه عليه ، فكان في نفسه يتربص الوقت ويتحين الفرص ، حتى رأى ان قد رتب للبعض من أولئك الساعين بالازهر (ومنهم الشيخ المنصوري الذي كانت معونة الشيخ سليم له سببا في عزله من المشيخة) مرتبات من الاوقاف على غير علم منه ولا مذاكرة معه ، ولا أخذ رأي له فيمن يرتب له ومقدار ما يكفيه ، وتجسم خاطر الاستقالة في نفسه وجعله نصب عينيه ، لانه جزم بأن ترتيب هذه المرتبات هو تشجيع لاولئك الناس واستحسان لما يعملون . وانه يحط منزلته بين العلماء ، ويكون عقبة في طريق أعماله التي لا يقصد منها غير فائدة الازهر والازهريين

حدثت بعد ذلك حادثة رواق المغاربة وهي ان فريقا منهم قد احتلوا بعض غرف خالية من السكان في الاروقة العباسية الجديدة ، فأراد مجلس ادارة الازهر إخراجهم منها واجراء التحقيق فيما صنموه ، فلم يمثلوا وأنابوا الانقياد وتراجعوا بالقنسلات الفرنساوية ، فدارت الحجة بين بعض أعضاء المجلس وبين ناظر الخارجية وبينهما وبين القنسلات ، حتى استقر الرأي على أن يعمل الازهر بمقتضى قانونه ان لم يمثلوا لأوامره . فكان كذلك وصدر قرار مجلس الادارة بقطع عدة أشخاص منهم بمقتضى قانون رواقهم ، وطلبت الخارجية امهال تنفيذه حتى تعلم حال القنسلات في شأنهم ، فلم يكن منها أدنى ممانعة للحق والقانون . ولما دعي شيخ رواق المغاربة للمفاوضة معه في شأنهم لم يصر عليه إلا بعد يومين كان فيهما حيث لا يعلم مكانه أحد من الازهر ، ثم عاد فأخبر أن القنسلات توغیر معارضة للازهر في شيء

وأنها تحب أن يعمل الأزهر. معهم بالين أولاً فإن لم يفعل فليجر أحكام القانون
خرج المعارضة من الأمان التي احتلوها وانتهت حادتهم، ولكن شيخهم
هرب ولم يخبر المشيخة بما وقع، فبحثت عنه فقبل أنه في حلوان مرة، وقبل أنه
في غيرها أخرى، ولم يزل غائباً حتى حضر الجناح العالي من الاسكندرية وظهر
أن غيبته كانت في سراي القبة. ولم يزل فيها حتى انتهى الأمر في المشيخة وجاء
يخبر بأن الجناح العالي رأى حلاً آخر غير ما اقتضاه القانون وجرى عليه مجلس
الادارة، ولا ضير فإن أمره أعلى من القانون

في أثناء هذه الحركات الأخيرة تردد بعض الحواري على بيت السيد الببلاوي
فكاشفهم بما يريد من أمر الاستقالة، فما أظنهم إلا قد حسنوها له خصوصاً وأنه
قد ضجر من تكرار هذه الملمات، وجزم بأنه معطل عن العمل لا محالة، وأنه لا يرجي
من بقائه أن يعود إلى عمله المفيد. فكتب في يوم ١٥ مارس سنة ٩٠٥ استقالته
وسلمها إلى رئيس الديوان الخديوي العربي والافرنجي، وهو أبقاها عنده إلى أن
شرف الجناح العالي من بعض تنقلاته، وجناحه العالي تقبلها وأمر بأن يكتب
إليه كتاب القبول، وفيه غاية التلطف والعطف والاحسان، ثم استقر الرأي على
تعيين الأستاذ الحالي الرجل الزاهد المعتقد الجليل، فصدر الأمر العالي بتعيينه بتاريخ
١٣ محرم سنة ١٣٢٣ (١٩ مارس سنة ٩٠٥) وعقب تعيينه استدعي إلى السراي
العامة في محفل حافل من العلماء، لا لباسه الخلعة المعتادة لمن يعين شيخاً للجامع الأزهر
وفي هذه الحلقة قال الجناح العالي قوله المروقة في الأزهر وما يقصده فيه
وما يحبه له، وعلى أثر ذلك جزم العضوان الموظفان بأنهما ربما لا يلائمهما العمل
في هذه الهيئة الجديدة، فاستقلا بعد تعيين الشيخ الجديد بنحو ستة أيام، وقبلت
استقالاتهما وسدرت الأوامر العالية بتعيين بدلها. وعلى ذلك استقرت الحال

وبالجملة فقد كان زمن الشيخ حسونة كله على الأزهر خيراً وبركة، وكان
زمن الشيخ سليم البشري كله زمن وقوف حركه، وكان زمن السيد الببلاوي
كله زمن وثام ووفق، وعمل بقدر ما يطاق، ونسأل الله أن يكون هذا الزمن
الجديد زمن نجاح وفلاح آمين (كتب في أوائل سنة ١٣٢٣)
(هذا آخر مادونه الشيخ عبد الكريم رحمه الله من هذا التاريخ)

خلاصة الكلام في مسألة اصراع الازهر

قد لخصنا ما كتبه الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان من تاريخ الاصلاح الازهر الذي سمي الاستاذ الامام اليه ، وكان هو أكبر أعوانه عليه ، وملخص ما كتبه - وهو وقائع رسمية مقرونة بأسبابها ونتائجها - ان الخديو عباس حلمي باشا كان مقتنعا بما بسطه له الشيخ محمد عبده من الحاجة إلى اصلاح الازهر من كل وجه ، ومخلصا في مساعدته عليه ، وان الشيخ حسونة النواوي أمثل من غيره من الشيوخ استعدادا لقبول الاصلاح وتنفيذ ما يقترحه الشيخ محمد عبده على مجلس الادارة ويقنعه به فيحمله على تقريره ، وانما كان البطء في اللضي في الاصلاح من ضعف استعداد أعضاء مجلس الادارة لتغيير تقاليدهم ، وكان الاستاذ الامام يريد أن يكون الاصلاح برأيهم واقتناعهم واقتناع جمهور العلماء وألفتهم النظام فيه ليكون ثابتا . وكان الشيخ حسونة لا يعارض الاستاذ الامام رأيا ، ولا يخالف له قولاً ، ولكنه يطالبه بأن يسير بالتدرج إلى الاصلاح المؤبدا ، ولولا لسان فيه شوطا بعيداً ، فتخرج فيه باقاء الكتاب ، وصااتم الخلفاء ، وغول العلماء ، وكبار رجال القضاء ، والدعاة إلى الاسلام ، ولوعاظ المرشدين للعوام ، بما تقتضيه حال هذا العصر في كل العلوم والاعمال ، ونشر ذلك في العالم الاسلامي وغيره .

كان الاستاذ الامام صاحب عارضة لا تعارض ، وحبية لا تناقض ، وعزيمة لا يقل لها حد ، وهمة لا يبرض لها فتور ولا يأس ، وكان أعضاء الادارة يعامون أن أمير البلاد يؤيده ، والحكومة تنصره ، وقوة الاحتلال لا تقاومه ، فلا يجاون لهم تفصيا بما يطالبهم به بعد سقوط شبهاتهم دونه ، الا استمانة صديقه الشيخ حسونة عليه بمطالبتة بالرفق واتباع سنة التدرج حتى إنهم ألغوا هذا الرأي إلى الأمير ومن أمثلة كبحه لجدلهم بالشدّة ان الشيخ محمد البحيري - وكان من أذكاهم - قال له في مجلس الادارة في الدفاع عن المنهاج الازهري في التعليم : اننا فعلهم

كما تعلمنا . قال الاستاذ الامام وهذا الذي أخاف منه . قال البحيري ألم تتعلم أنت في الازهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم ، وصرت فيه العلم الفرد ؟ قال الامام إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكره ، فاني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي معلق فيه من وساخة الازهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة ...

وقد اغتر الشيخ حسونه بما كان من الضوضاء في مسألة قاضي مصر الشرعي المشهورة ، فخرج عن رأي الشيخ محمد عبده في سيرته فيها ، فكان ذلك سبب عزله من مشيخة الازهر واقتفاء الديار المصرية معاً ، وسيأتي شرح هذه المسألة في مكانها اللائق بها من هذا التاريخ ، وولي المشيخة بعده الشيخ عبدالرحمن القطب والافتاء الشيخ محمد عبده نفسه كما سيأتي ، ولم يلبث الشيخ القطب أن توفي ، فبادر الخديو إلى تعيين الشيخ سليم البشري شيخاً للازهر

وفي أثناء عهد الشيخ سليم تغيرت نية الخديو وأفكاره بسبب ما ذكره وراجت لديه دسائس العلماء وغيرهم ، فكان ذلك مجرئاً للشيخ سليم على وقف سير الإصلاح في الازهر ، حتى أنه كان يمتنع من تنفيذ قرارات مجلس ادارته ، التي تقرر بالاقتناع معه في الجلسات التي تعقد برياسته ، وكان الشيخ محمد عبده يصبر على ذلك وهو قادر على إكراهه أو عقابه إذا أصر على عدم تنفيذها

قال لي مرة عند الحديث في هذه المسألة : ان الشيخ سليماً مسكين لا يعلم ان مادة كذا من قانون العقوبات تقضي بمحاكمة كل رئيس مصلحة رسمية يمتنع من تنفيذ ما يقرر من أحكام قانونها محاكمة جنائية ، واني لو بلغت النائب العمومي أن مجلس الادارة قرر كذا وكذا في تاريخ كذا بمقتضى قانون الازهر وامتنع رئيسه من تنفيذ هذه القرارات فإنه لا يسمه إلا أن يدعوه للتحقيق في محكمة الجنايات ، ولكنني انما أريد أن يكون اصلاح الازهر برأي شيوخه واقتناعهم لا بسلطة الحكومة الكافلة لتنفيذ القوانين ، ولا فرق فيها بين قانون الازهر وسائر قوانين الحكومة ، إذ هو صادر بمقتضى دكرتو خديوي كغيره

[أقول ولدى مذكرة بخطه في مواد قانون الازهر التي امتنع الشيخ من تنفيذها سأنشرها بعد]

(قال) وانا مادمت في هذا المكان لأدع للحكومة مجالا للتدخل في شؤونها لانها حكومة واقعة تحت سلطة أجنبية

وقد أراد الانكليز التدخل في شؤون الازهر في تلك الفرصة ليرفعوا عنه سلطة الخديو ويجعلوه تابعا لمجلس النظارة، فكان الاستاذ الامام حائلا دون ذلك أخبرني مرة أن لورد كرم أرسل اليه أنه يريد أن يزوره - وقد علم رحمه الله أن الغرض من هذه الزيارة الكلام معه في حالة الازهر إذ كان قد بلغه ما يفعله الخديو من الدسائس فيه ، واستخدام الشيخ سليم فيها ، ويريد أن تتدخل الحكومة في عزل الشيخ سليم كما فعلت في عزل الشيخ حسونه - قلت له وماذا تنوي أن تقول له ؟ قال أقول أحسن ما أعلم ، وأسكت عن شر ما أعلم ، ولا أقول إلا حقا ، ولا أدع منفذاً لنفوذ الاجني أن يتسرب إلى هذا المعهد الديني قلت : حياك الله ، ما أشد جهل قومك بمقامك ، وعلو درجة إيمانك ووطنيتك !

ولكن الازهر صار بعد وفاة الاستاذ الامام خاضعا للحكومة في جميع شؤونها وكذلك مصلحة الاوقاف صارت وزارة مرتبطة بالحكومة بسعي الانكليز ، وهو ما كان أنذر به الخديو كما تقدم في أول هذا المقصد فصح فيه المثل :

بذلت لهم نصحي بمنهج اللوى فلم يستبينوا النصيح الاضحى الغد
ولقد كان على شدة عنايته بالازهر وأهله والدفاع عنهم ومباالغته في تكريمهم شديد الاحترار لهم في نفسه - إلا أفراداً منهم - و كان الازهر عنده ثلاثة ألقاب يطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص عند شدة تألمه من فساد حاله وهي : الاصطبل . المارستان . المحروب (بهذا اللفظ العامي)

ولو أنه هو الذي كتب الكتاب الذي كتبه الشيخ عبد الكريم ولخصناه فيما تقدم كما كان ينوي لفضح هذا المكان المشهور بفضله وعظمته وخدمته للعالم والدين فضيحة لا أستطيع وصفها ولا تقدير سوء تأثيرها في الشرق والغرب ، وامعز أن يزيل ذلك التأثير المخزي كل أحد ، وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم

أنف من شهادة الزور حتى من قضاة الشرع والعقنين . الذين لقب الحق ابن القيم أمثالهم « بالموقعين عن رب العالمين » وكان قد اطلع على ما لم يطالع عليه أحد من مخازيهم بعمله في إدارة الازهر وتفتيشه للمحاكم الشرعية كأكل السحت من الرشوة على الاحكام والفتاوى، وعلى ما هو أشد ضرراً منها وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية ، ثم ناهيك بما هو لاعد لهذه المحازي كلها وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم الذي مكن الخدبو مما ذكر من العبث بهم ، والعزة والكبرياء على المجاورين المساكين والاهانة لهم ، وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شتمهم البذيئة المزرية التي لا تبقى في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة ، ولا عزة الايمان المكتسبة ، وقد كان لكثير من أبناء أولئك الفقراء المساكين من الفلاحين نصيب وافر منها . دع تأثير القذارة والامراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم

ولقد قلت للاستاذ الامام : كيف استطعت أن تعيش نظيف الجسم والثوب والعقل والقلب عزيز النفس في هذه البيئة التي نشأت فيها ؟ فذكر لي ان السيد جمال الدين استغرب هذا منه قبلي ، وذهب الى ان له وراثته عمدة لفظاته فيه فكان يقول له : بالله قل لي أي أبناء الملوك أنت ؟ وسأبسط هذا في الكلام على أخلاقه ، وقلت له مرة : انني جاهدت نفسي في التصرف على تعمد ترك لذائذ الطعام ، والنوم على الارض ، وبذل ما في اليد ، حتى لم يمد يثقي علي من ذلك شيء . واكنني حاولت أن أعود نفسي احتمال الوساخة بترك تغيير اشياب من العرق ، وترك الاستحمام غير الواجب مدة من الزمن ، ففر علي ذلك . إذ كان يضيق صدري منه حتى انه ليفسد علي عبادتي ، فلا أراني فيها مشرح الصدر ، ولا حاضر القلب ، . . فقال وأنا كذلك من كل وجه

وشر من ذلك كله تمكن الخرافات والالوهام من أكثر القوم ، حتى ان الشيخ حسونة الذي كان يعمده الاستاذ الامام أمثلهم كان يقبل يد أحد أذعياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخذعون العوام ، بما يلبسون عليهم ويوهونهم من المكاشفات والكرامات ، فيؤمنونه على نسايتهم حتى انهن كن يدخلن معه الحمام .

وناهيك بما يفعله في احتفالات الموالد المتبدعة ، وشاركهم لسدنة القبور المعبودة فيما ينذر لها من المال والفول النبات وغير ذلك .
إنني أذكر هذه الاشياء وأنا متألم من ذكرها لأين للقاريء أهم الابواب التي كان يريد الاستاذ الامام أن يصورها بقلمه البليغ ، ويذكر أسبابها ونتائجها وسوء تأثيرها في إضاعة الاسلام ، وهداية القرآن ، وسنة محمد عليه الصلاة والسلام ، وما تبع ذلك من إضاعة ملك المسلمين وعزيم ومجدهم .
على أنه قد كان لذلك الاصلاح على ضعف وسائله ، وقوة غوائله ، تأثير عظيم في اصلاح اخلاق الازهريين وصحتهم ونظافتهم ، وكثر فيهم المقاومون للخرافات والأوهام ، والاستعانة على مصالحهم ومنافعهم بالاموات ، وأعود الى ايضاح ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم من سبب غضب الخديو على الاستاذ الامام وانتقامه منه بما عمله في الازهر

الغضب على الاستاذ الامام ورئيس الديوان وما اقتضاه من الانتقام

كان أنكى ما أحفظ سموه على الشيخ محمد عبده المفتي وعلى صديقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم (في ص ٤٨٩) ، وأهمه كالمثاله وهو مسألة أوقاف الجيزة . وبيانها بالإيجاز أنه عرض على مجلس الاوقاف الاعلى طلب استبدال بعض أراضي الاوقاف المدة للبناء في الجيزة من ضواحي القاهرة بمزرعة من مزارع الخاصة الخديوية ، وبني الطالب فيها على تقدير ريع المزرعة وكونه أكثر من ريع تلك الارض ، بما يقتضي أن يزداد عليها ثلاثون ألف جنيه ومع هذا تكون أنفع للوقف ، فقال الشيخ المفتي : الانفع للوقف في مثل هذا إنما يعرف بتقدير الثمن بالبالغة السنوية ، فلا بد من تعيين لجنة من أهل الخبرة برياسة (باشمهندس) الاوقاف بتقدير ثمنها وثمان تلك المزرعة . وكان أول من وافقه على هذا حسن باشا عاصم الذي هو نائب سمو الخديو في المجلس ،

ومن ذا الذي يعارضهما فيه ؟ تقرر تأليف اللجنة فقامت بعملها فكانت النتيجة أن الفرق الذي تتحقق به الانفعية للوقف إعطاؤه عشرين ألف جنيه مصري فوق المزرعة فكانت جملة الخسارة خمسين ألفاً

بهذا اشتدت حفيظة سموه على مفتي الديار وعلى رئيس ديوانه ، وآلى حلقة لاحتلال ليخرجنهما من منصبيهما أو يخرج هو من منصب الخديوية فاما منصب رئاسة ديوانه فأمره اليه وحده ليس للحكومة ولا للاحتلال المسيطر عليها رأي فيه ، ولكن قوانين الحكومة لا تبيح العزل بغير ذنب يحكم فيه مجلس تأديب . وكان سموه يكره احالته على المعاش لانه يحب أن يخرج من عمله عاريا عادما ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستقالة ، فكان سموه يعمل كل ما من شأنه أن يسوءه ليستقيل ، يعمل ذلك بنفسه وبالايعاز إلى موظفي الديوان ، وكان حسن باشا على عزة نفسه وإبائه يتجاهل كل هذا ويصبر عليه حتى لا ينال الخديو أربه منه ، فلما أعياه أمره ، وعيل صبر سموه وما عيل صبره ، أحاله على المعاش وأما منصب الافتاء فله علاقة بالحكومة والمفتي عندها من موظفي وزارة الحفانية لا من موظفي المعية ، فرأى سموه انه لا بد من التوصل إلى النيل منه بارتضاء العميد البريطاني ودولته .

وقد دونت خبر إحالة حسن باشا عاصم على المعاش وخبر استرضاء سمو الخديو للانكليز متعاقبتين في مكان واحد من جزء المنار الذي صدر في غرة شوال سنة ١٣٢٢ (٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤) من المجلد السابع

وذكرت في الخبر الاول اجماع الجرائد على اثناء على حسن باشا عاصم واستغراب إحالته على المعاش من غير سبب ، إلا اللراء فانه رجح أن سبب الاحالة غضب الامير على رئيس ديوانه « منذ حدثت مسألة استبدال مزرعة الامير المعروفة (بمشهر) بارض لديوان الاوقاف في الجزيرة . والمسألة مشهورة وملحها أن طالب الاستبدال كان طلب من ديوان الاوقاف ثلاثين ألف جنيه زيادة ، فما رضي الديوان حتى أخذ منه عشرين ألف جنيه . وكان ذلك بموافقة حسن باشا الخ . وأما مسألة استقالة سموه للانكليز فقد كتبت فيها مانصه (ص ٧٥٩ م ٧) :

﴿ استعراض الامير لجيش الاحتلال احتفالاً بمجلوس ملك الانكليز ﴾

جرت عادة المحتلين بأن يستعرض عبيدهم جيش الاحتلال في ميدان قصر عابدين لما لا يخفى، وقد سبق من توفيق باشا الخديو السابق الترائي للجيش من شرفة القصر، ولكن عباس باشا الخديو الحالي أعرض عن ذلك حتى كان في احتفال هذا العام، وكان في أول أيام الصيام، أن خرج بملابسه العسكرية وحضر الاستعراض مع اللورد كرومر تحت العلم الانكليزي، فكان لذلك تأثير عظيم في النفوس واحيى بهذا مع ماسبقه من قبيله ما كان يتوهمه الدهماء من أن الامير هو المعارض للمحتلين وأن النظار هم المشايعون لهم؛ وعلموا أنه أشد من نظاره وقفاً معهم، لان أوائلك يوافقونهم لمكان القوة فيما يريدون، وهو يمنحهم أكثر مما يطعمون، ولا نقول الا ان ماظهر وتبين نافع، وان خفاء الحقيقة قبله كان ضاراً لما فيه من غش الامة والخذف بها في معامي الغرور والوهم، فللا مبر - وفقه الله تعالى لكل مايرضيه - الشكر أن كذب بمعله أولئك المفررين المخادعين الذين شغلوا قلوب الناس بمسألة وهمية وهي مقاومة المحتلين، ونسأل الله تعالى ان يوفق أهل هذه البلاد إلى الاستفادة من هذه الحلة بالحفاظة على أرضهم وتشييرها وعمارتها، وبالاعناية بتربية أولادهم وتعليمهم العلم النافع ليحيوا حياة اجتماعية شريفة يرتقون بها إلى أن يكونوا أمة عزيزة، فان الحرية الهادئة لا يرتقي فيها إلا المذهب المقتصد، ومن اتبع فيها هواه، خسر دينه وديناه اه وقد كان المؤيد وغيره من الجرائد لبسوا على الناس هذا النبأ الغريب وجملوه من فلتات المصادفات، ونوادير الاتفاقات، فكان ما كتبه آنفاً فضيحة لتليسههم، ولما اطلع عليه الامير استشاط غضبا، وحرق الأرم حنقا، لأن صديقه بمقاومة الاحتلال هو رأس ماله في التجنب إلى الشعب وتبغيض النظار اليه، واستحضر بطرس باشا غالي وزير خارجيته فأعطاه المنار وأمره أن يذهب به إلى نورد كرومر ويترجمه له ويبين له ان الذي أغرى صاحب المنار بهذه الكتابة هو الشيخ محمد عبده لانه يكره الاتفاق معهم هذا ما كان من التهديد السياسي لاخراج المفتي من منصب الافتاء ومن ادارة الازهر، وأما التهديد الديني فمشير اليه بما يأتي:

﴿ التمهيد الديني ، بعد التمهيد السياسي ، للانتقام من المفتي ﴾

غيرة شيوخ الازهر على الدين

في هذه الاثناء كثر خوض العلماء في مسألة الازهر والتبرم مما يسمى الاصلاح فيه ، وازافة ما يسمى بالعلوم الجديدة إلى دروسه ، وتبارت أقلام الكتّاب منهم في الجرائد في الشكوى من هذه العلوم ، والخوف منها على الدين القويم والشرع الشريف ، ومن امتحان الطلبة فيه ، ومن مكافأة الناجحين منهم بالدرهم ومن مفاسد ذلك عندهم ان هؤلاء الناجحين المكافئين يؤلفون حزباً جديداً لبعض العلماء (يعني الاستاذ الامام) وقد كتبت في تلك الايام مقالات كثيرة في الجرائد رددت فيها على ما كان ينشر من ذلك وكنت أضعها امضاء (أزهرى) أو غيره

وكان من تلك المقالات ما نشره الاستاذ الشيخ محمد الاحمدى الظواهري في المؤيد في ٥ المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم) من الانتقاد على طريقة الازهر القديمة في التعليم لبنائها على « التقليد وضيق الفكر » والتسليم لما يقرره المشايخ في تفسير الكتب ، وينتقد طريقة الاصلاح الجديد في مدارس المعاهد الدينية ويقول فيه « وارجو ويرجو المسلمون أن تشملوا هذه المدارس بمعانيكم وان تقطعوا منها جرائم الفساد والانحطاط » . وأذكر ان المؤيد تعقب هذه المقالة بأنها مخالفة لما كتبه الشيخ الظواهري في كتابه (العلم والعلماء) من مدح طريقة الاصلاح الجديدة والترغيب في العلوم الجديدة الخ وانه عاد فكتب مقالة أخرى يؤيد بها رأيه الجديد بنصوص من ذلك الكتاب ، ولا غرض لنا في بيان الرأيين هنا وقد نشرنا في ذلك الوقت أهم ما جاء في كتاب العلم والعلماء من فساد التعليم في الازهر وفساد علمائه وما يجب أن يكونوا عليه ، وضرره الخ العالي لهم بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وما قيل من سبب مخالفة لذلك ومجاراته للشيوخ المعارضين للاصلاح ، فليراجعه من شاء في صفحة ٧٢ و ١١٠ من مجلد المنار الثامن

وانما نقول هنا ان التمهيد السياسي المشار اليه لم يثمر لسموه إلا عدم معارضة الانكباب والحكومة المصرية له في التبديل الذي يريده في الجامع الازهر باستقالة شيخه السيد علي البيلاوي والشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان (رحمهم الله تعالى) وأما إفتاء الديار المصرية فقد صرح لورد كرومر بان الشيخ محمد عبده يظل مفتيا في مصر ماظلت بريطانيا العظمى محتلة لها ، فانحصر انتصار الخديو في هذه المعركة بما ذكر من استقالة الشيوخ الثلاث بتأثير التمهيد الديني الذي علمه القراء ، ولكن هذا النصر كان صوريا لا حقيقيا ، بل هو شر انكسار الامير نفسه ، لأنه أضاع به ما كان يستقل به من الامور الدينية العامة حتى الازهر - وشر خبيثته للشيء الذي يسخرهم الامير لمقاعده كيف يشاء وللأزهر نفسه ، لأنه بني على حرمان الازهر من اصلاح وعلوم لا ارتقاء فيه بدونهما ، وحرمانه بذلك من نخرج القضاة الشرعيين حتى لا يكون للتخرجين فيه نصيب من تنفيذ ما بقى الامة من أحكام الشريعة الاسلامية ؛ إذ لم ترض الحكومة به إلا بعد أن رضي الامير معها بانشاء مدرسة خاصة لتخرج القضاة الشرعيين وموظفي المحاكم الشرعية ، ولكن أكثر أولئك الشيوخ لم يكونوا يعقلون هذه الخيبة والكسرة ، وما عقلوها إلا بعد سنين كثيرة ، أجمعوا فيها على ان إنشاء مدرسة القضاء الشرعي انما كان قضاء على الأزهر نفسه وبذلوا جهدهم لانقاذها ، واعادة النظام الذي حاربوه وسعوا لابطاله مسخرين مدللين

تمام التمهيد بشخص الشيخ الشريفي

كان الشيخ عبد الرحمن الشريفي رحمه الله من أشهر شيوخ الازهر في علومه ومن أشهرهم بالصلاح والزهدي في الدنيا ومناصبها ، وأبعدهم عن التفكر فيما يرتقي به اهلها . وقد عرضت عليه مشيخة الازهر مراراً فأعرض عنها وما قبلها ، ولكنهم في هذه المرة أقنعوه بأنه قد انحصر في شخصه إزالة الفساد الذي يسمى بالاصلاح ، وتوجيه تعليم الازهر الى ما يليق بعلماء الدين من التقوى والصلاح ، وكان أول من اظهر للمسلمين قبوله لذلك الشاعر الكاتب خليل مطران (السوري المسيحي) فتلقى من فمه حديثاً نشره في جريدته (الجوائب المصرية) رددت صداه الجرائد ،

وفي مقدمتها جريدة المؤيد التي كانت مذبذبة في هذه الحادثة ، لان الشيخ علي يوسف كان يعتقد وجوب إصلاح الأزهر وأن الشيخ محمد عبده هو القادر على هذا الإصلاح دون غيره من العلماء وغيرهم ، ولكن سياسته كانت تقديم إرضاء الخديو على كل ما سواه إذا تعارض معه ، وكان قد أساء الظن بالاستاذ الامام في قضيته الزوجية كما تقدم فأثر الانتقام منه لنفسه أيضاً
وهذا نص الحديث

حديث الشيخ عبد الرحمن الشربيني

هذا نص ما نشره خليل مطران في جريدته (الجوانب المصرية) في ٧ المحرم ونقله المؤيد عنها في صدر العدد الذي صدر منه في ٩ المحرم وعنوانه (حديث مع عظيم من علماء المسلمين) قل بعدوصه بحجة وقته وإمام عصره ... الخ
« ماذا يرى مولانا فيما قام بآتمسه اليوم الشيخ الظواهري من الجباب الخديو ؟ »
الاستاذ : الظواهري انما نطق بلسان كل محب لخير الأزهر عالم بالعرض الذي أسس له والخدمة التي أداها للدين ولا يزال يرجى منه أداؤها مادام فيه جدار قائم قلنا : وما ذلك العرض وما تلك الخدمة يا مولاي ؟

الاستاذ : غرض الساف من تأسيس الأزهر إقامة بيت لله يعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كاتركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم ^(١) وأما الخدمة التي قام بها الأزهر للدين ولا يزال يؤديها له فهي حفظ الدين لا غير . وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له . وقد خرج منه

(١) يعني ما نشره المؤيد للشيخ محمد الاحمدي الظواهري في خامس المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم) وتقدمت الاشارة اليه
(٢) المعروف في التاريخ أن الجامع الأزهر قد بناء جوهر قائد المزمع العبيدي إمام الباطنية ومؤسس دولتهم في مصر ، وهؤلاء الباطنيون كما قال الغزالي : ظاهرة الرفض ، وباطنهم الكفر المحض . فالجامع الأزهر وجامع الحاكم قد أسسا لشر مذهبهم الظاهر وكفرهم الباطن لافقه مذهب أهل السنة الاربعة كما قال الشيخ ، وان وافقه الاستاذ الامام في رده الاتي عليه جدلاً أو بناء على الظاهر

بحمد الله في كل زمان ومكان من أدى هذه الخدمة الشريفة حق أدائها فعلاؤه في مشارق الارض ومقاربها هم هذه الخواص ومرجع العوام في الكثير من أمور دينهم.

قلنا : وهل حدث يا مولاي ما يقف للازهر في الخدمة المطلوبة منا ؟

فتبسم الاستاذ ثم قل : بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه، ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفيء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية التي تبعث اليه بالطلبة المستفيدين ويبعث اليها بالعلماء المرشدين، ولقد جاوزت خمسين حجة أطلب العلم وأخدمه بالازهر فلم أعلم ولا سمعت ان مقام الائمة الاربعة وضع في موضع الشكوك والريب الا في هذا الزمن الاخير حيث كثرت بين أفراد الطلبة ممن نجح فيهم سعي المفسدين المتجهمين على مقام الائمة ، الطاعنين بكفاءتهم ، المنكرين علمهم عليا مراتب الاجتهاد

« إني أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة في الازهر ، أو اصلاح الازهر ، واكنيتي لم أر لهذه الحركة وهذا الاصلاح حتى الآن من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه ، وذهاب ما كان من مودة ورحمة ومهابة بين الطلبة وبين مشايخهم الاجلاء ، حتى أصبح الائمة الذين كان يعضو في الازهر من مهايتهم مكانتهم في العلم ، وجليل خدمتهم له ، وما يحملون من شريف شرع الله عرضه للسخرية من بعض الطلبة المخدوعين الذين سمعوا بسببهم وفلسفته فرفوا بما لم يعرفوا ، واشتغلوا بما يليههم من هذا وأمثاله ، عما وجدوا في الازهر من أجله ، وهو طالب علوم الدين لا غير » عرضت عليّ مشيخة الازهر مراراً فاعتذرت وتنصت لعلمي أن العلماء في هذا المسجد أخوة في خدمة الله وشرعه ، فلا يليق بأحدهم وهو خادم الله والعلم أن تأخذه العزة بالرياسة والزعامة (١)

وقد رأيت الكثيرين من اخواني خدمة العلم في منصب المشيخة فوجلتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة . كانوا ينقطعون لخدمة العلم وينجاسون للتدريس كمأثر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر ، وذكرهم العاطر

(١) الرياسة ضرورية للدين والدنيا وهي لا تستلزم أخذ العزة بالانتماء . ثم لماذا قباها الشيخ آخرأ بعد أن رفضها مراراً ؟

قلنا مقاطعين : واليوم يامولاي

قال الاستاذ : اليوم نسمع بوجود أحزاب في الازهر ونرى الطلبة منقسمين
مشتغلين عن طلب العلم الشريف باحاديث أهل النفوذ والجاه والتأثير فيما يزعمون ،
مشغوفين بالفلسفة ، حتى ان من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم
الشريف الى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرأوها أو مجلة فلان ليتصفحوها (١)
ومثل هذا في تاريخ الازهر من قبل ماسمعت ولا رأيت

قلنا أياذن لنا الاستاذ في نشر هذا الحديث لعل في ذلك زاجراً لفريق
من الطلبة ومنهياً للحكومة الجناب العالي الى تلافي الخطب قبل تفاقمه ؟
قال الاستاذ : انشر ماشئت وقل ماشئت ، وألفت نظر الجناب العالي
والحكومة والناس الى أمر واحد جدير بالتأمل والاعتبار ، وهو ان الازهر انما
وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس إلا ، فليتركوه كما هو حصننا للدين ، وذخرا
للمسلمين في اطراف البلاد . وإن أرادوا به اصلاحا فايكن الاصلاح منحصراً
في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وما سوى
ذلك من مبادئ الفلسفة والعلوم الحديثة العالية فلتدخله الحكومة إن شاءت على
مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه اه بحروفه

وقد أثنى المؤيد على هذا الحديث وصرح بموافقة الاستاذ على كل ما قاله فيه
من هدم ما يسمى للاصلاح للدين - إلا ادخال العلوم الحديثة فانه لا يرى ضرراً منها
ولما نشر المؤيد هذا الحديث كتب الاستاذ الامام مقالا فند فيه كلامه كانه
بما يعد تغنيداً لكل ما كتب الشيوخ المسخرون لتلك الفتنة وأقام عليه وعليهم
الحجة التي لا تدفع ، فبيضت المقال ونشرته في النظم في ١٣ المحرم (١٨ مارس)
وأبقيت الاصل عندي وهذا نصه :

(١) يظهر أن الشيخ رحمه الله لم يقرأ كتاب العلم والعلماء للشيخ الظواهري
الذي أيد رأيه في كتابه المفتوح لاخديو ذكر في كتاب العلم والعلماء أن الاطلاع
على الجرائد والمجلات من الضروريات للعلماء وذكر من اسماء هذه المجلات المقتطف
الفلسفي والهلالي التاريخي والناظر الديني

الازهر الشريف

والغرض منه اصلاح طرق التعليم فيه

(لاحد علماء الازهر الاعلام)

ما كنت لأخط سطرًا واحدًا في موضوع ما يكتبه بعض الناس في هذا الوقت . متعلقًا بالازهر الشريف لولا ما نسب كلاما لاحد شيوخه بعد ما وصفه بأوصاف تعين شخصه ، ولولا ما جاء في ذلك الكلام مما يمس الازهر ويمس كثيرا من شيوخه .

لا أتكلم فيما بحثه الناس على ملاقة الشيخ ، ولا مادفع الناقل الى النقل عنه ، فذلك مما عرفه كل قاري . لأول الاطلاع عليه ، ولكن أقول بعض كلمات فيما نسب الى الشيخ دفعا للبس من الباطل قد يستر عين الحق عن فهمهم أن يعرفوه لا ننكر على الاستاذ ماقاله في الغرض من انشاء الازهر فذلك غرض كل من يبني مسجداً لله في أي مكان وأي زمان ، لا يبني مسجد إلا ليعبد الله فيه ويعلم فيه دينه ، ولا ننكر عليه ان الخدمة التي يلزم أن يؤديها الازهر هي تعليم الدين ولكن لم نفهم قوله « وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للازهر به » فان كان يريد ان التعليم في الازهر يجب أن يكون قاصراً على الفقه وأصوله والحديث ومصطلحه ، وعلم تقرير العقائد ، كما ورد به الكتاب والسنة ، وعلم آداب الدين والاخلاق المؤسسة على ماورد منه - وأما ما عدا ذلك وان كان من مقدمات هذه العلوم السابق ذكرها فلا يصح أن يدرس في الازهر - إن كان يريد ذلك فكنت أكون أول موافق في رأيه لو كان التعليم في الازهر قاصراً على ذلك في القرون الماضية ؛ ولو كان حضرة الاستاذ نفسه لم يتعلم ولم يعلم في الازهر غير هذه العلوم . لكننا عرفنا الاستاذ يقرئ فنون البلاغة والنحو والمنطق وعلم الكلام على مافي علم الكلام من المذاهب الفلسفية وغيرها ، وعلى مافي مقدمات

الأدلة التي يأتي بها المتكلمون من التعرض لمعنى الوجود وهل هو عارض للممكنات أو عين الممكنات؟ والتعرض لاحكام الجواهر والاعراض مما لا يمكن فهمه إلا ببحث دقيق في حقائق الـكون ، وقد ذكر لي بعض عشاق الاستاذ ان له براعة في علم الكلام والوقوف على مذاهب الناس في العقائد بما لم يساوه فيها غيره . وقال لي : انه يعرف من كتاب المواقف وشراحه ويقف على اسراره ،الم يتفق لغيره أن يعرفه ويقف عليه . ولقد شاركنا الشيخ في أربعين سنة من الخمسين التي ذكرها ولم نجد للاهتمام في الازهر وجهة الا تعليم فنون الوسائل من النحو والصرف والمعاني وغيرها مما ليس في علوم الدين وإن كان من مقدماتها ، واني أعرف للشيخ طريقة في تدريس تلك الفنون من أغرب الطرق ، فاذا قرأ شرح التلخيص في المعاني والبيان للسعد التفتازاني ألقى فيه بضع سنين يحقق معاني ألفاظه والروابط بين كلماته ، وقلده بعض الناس في ذلك حتى أصبح آباء الطلبة يثنون من طول الإقامة في الازهر الشريف دون أن يحل الطالب منها بطائل ، والفضل في ذلك لمذهب الشيخ في التحقيق والتدقيق ، كأن كلام المؤلف قد أنزل من السماء على معصوم فلا يصح أن تقع فيه أداة إلا ولها من أسرار المعاني مالا يعرفه إلا مثل الاستاذ من عليية المحققين

أما كتاب الله فلا نعهد للشيخ فيه درساً يستوفي من التحقيق ما يستوفيه أحد شروح السعد على التلخيص ولا أخص الشيخ بذلك بل هذا كان شأن الازهر الذي وجدناه عليه ولا يزال الى الآن

كنت أوافق الشيخ على ما رآه إن صح أن يكون ذلك مراده لو سعى -حفظه الله- هو واخوانه من خدمة العلم في انشاء مدارس لتعليم الوسائل التي يرتقى بها الى فهم علوم الدين وبعد أن يستعد الطالب فيها لتلقي العلوم الدينية وينال الشهادة بذلك يأتي الى الازهر ويتعلم الدين خاصة

كل ذلك لم يكن فلم يبق إلا ان الشيخ أراد من علوم الدين ما يجمع مقاصده ووسائله حتى علم المنطق والكلام ، فاذا أراد الشيخ ذلك -ولا محيص له عن أن يريد- فاذا يقول في امام الحرمين والامام الرازي وغيرهما من أئمة مذهبه وفي

جاءنا بالتواتر من كتبهم، وما احتوت عليه من البحث في حقائق الاكو ان ليبنوا عليها الا دلة التي رأوا اقامتها لاثبات مكنونها ؟ وفي العلماء الاجلاء الذين كانوا يقرؤنها في الجامع الازهر في كل زمان وقد يعرفهم الشيخ كما نعرفهم ؟ إن سمح الشيخ لنفسه باليوم على متقدم فانا لا نسمح لانفسنا بلوم أحد منهم على ما رأى من المصاحبة في ذلك . فذا صح معنا ان أئمتنا سبقونا الى اضافة هذه العلوم - علوم البحث في حقائق الاكو ان - الى علوم الدين لانهم عرفوا ان لا سبيل الى اقامة الأدلة الصحيحة على العقائد - التي شرط في العلم بها اليقين - إلا بذلك البحث وقد شاركهم الاستاذ في العمل على تلك الطريقة - فما الذي ينكره الاستاذ من علوم سماها « علوم الأعصر » أو أمور سماها « أمور الدنيا » ؟

هل يعد الحساب من ذلك ؟ وهو باب من أبواب الفقه في قسم من أهم أقسامه وهو علم الميراث أو علم الفرائض ؟ هل يحسب من ذلك سيرة النبي ﷺ التي أمر كثير من المشايخ بتدريسها وهي قسم من الحديث ؟ هل يدخل في ذلك علم الآداب الدينية والاخلاق التي تكتسب من الدين وهو الفقه الحنفي ولا قوام لعلم من علوم الشريعة بدونه ؟ هذه الفنون التي كانت تقرأ من قبل في الازهر - لكن لا على سبيل الالتزام فألزم بها الطلبة وأصبح كل واحد منهم يعرف انه لا ينال درجة العالمية إلا بتحصيلها ، وما عدا ذلك فهو لا يزال على ١٠ كان ، فهل هذه الفنون هي التي يسميها الاستاذ مبادئ الفلسفة ؟

ان من الغريب عندي أن يكون الاستاذ الذين يشيرون اليه قال هذا الكلام الذي نقل عنه ،

الأمر العالي الصادر بتنظيم الازهر موجود والاطلاع عليه سهل فهل منعت التقوى أهلها من أن يطلعوا عليه حتى يعرفوا ماهو الاصلاح الجديد ؟

جاء في ذلك الامر العالي ما يوجب على العلماء والطلبة أن يصرفوا في المقاصد (وهي علوم الدين) أكثر زمنهم وانه لا يباح أن ينفق في تحصيل الوسائل ميساوي زمن تحصيل المقاصد أو يزيد عليه ، فهل هذه هي الحركة الفلسفية التي أرادها الشيخ ؟ ان الذين أرادوا الاصلاح لم يكن يهمهم إلا أن تكون وجهة

الطلبة والمشايخ هي تحصيل الدين والوقوف على أسرارہ والتخاقي بأخلاقه .
والامر العالي الصادر في سنة ١٣١٤ وهو مايسمونه الاصلاح كان كافلا لذلك
لو كان حضرة الاستاذ واخوانه ممن ساعدوا على تنفيذه ، ولكن مثل هذا
الكلام الذي نشر في هذه الايام وأمثاله مما نشر في أوقات أخرى لمقاصد خاصة
بعد الذي حال دون الاصلاح ، وعاق طلابه عن الوصول الى مايقصده حضرة
الاستاذ من جعل التلميم دينيا ، ومن اشراب كل عمل من أعمال الطلبة والاساتذة
روح الدين ، فليهنأ الاستاذ ببقاء الازهر على ما هو عليه قبل الاصلاح وبعده إن
كان لم يباغته ذلك أو باغته ما يخالفه ممن لم يصدقه الحديث

أما قول الاستاذ : ان في الطلبة من يحط من مقام الائمة وينكر عليهم
مراتب الاجتهاد فذلك مما لم أسمعه ولا اظن أحداً يعرفه إلا من بلغه ، غير أنا
نعرف أن كثيراً من الطلبة يختلف الى من لا دين له ممن يسمون بالمسلمين
وبخوضون معهم فيما لا يليق ، لا متعلقا بالائمة فقط ولكن قد يصعدون الى من هو
أعلى وأقدس ، وهوشيء يشكي منه طلاب الاصلاح ويحاولون دفع ضرره بتعليم
الطلبة تاريخ سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين والائمة رضوان الله عليهم
أجمعين ، فان الذي يخذع الطالب ذلاقة لسان المنافق ، وجهل الطالب ونقص
علمه ، فتروج عنده الاباطيل بسهولة ، ولو علم حال من مضى من سلفه كان من
السهل عليه أن يهدي الضال لا أن يتبمه في ضلاله ، فهل يسمح الشيخ بتعليم
تاريخ السلف في الازهر حتى يعرف الطلبة من أحوال الائمة مايدفعون به المطاعن
فيهم ؟ وهل علم الاستاذ أحداً من هو الامام الشافعي ؟ وكيف حصل العلم ؟
وكيف عمل على نشره في الآفاق ؟ وكيف كان يعيش في بعد عن مشاغبات
الخاصة وغوغاء العامة ، مع الوقوف على أحوالهم ، وتقرير الاحكام بما يتفق مع
مصالحهم في شؤون دينهم ودنياهم ؟ فليطاعني حفظه الله على واحد أخذ عنه هذه
السيرة الجليلة سيرة الامام الشافعي محررة بما صح من الاخبار ، لا محشوة بما
لا يعقل من الاوهام ؟

أما الفوضى المنتشرة في ربوع الازهر كما يقول فاننا لم نفهم لها معنى ، لله

يعني ما حصل من المغاربة وعصيانهم أوامر المشيخة في هذه الايام ، لو أراد الشيخ أن يقف على حقيقة السبب فيها لصعب عليه أن يعرف أن ذلك من تآريث بعض اخوانه لسبب يسوءه أن يعرفه ، وهي حركة ضد الاصلاح لاناثثة عنه

يقول الشيخ: انه لا يعرف الا ما أضاع المحبة والرحمة بين الطلبة ومشايخهم ، متى كان هذا ؟ اما انتقاد الطلبة على أساتذتهم فقد كان معروفا مدة الاربعين سنة التي أفتت بها في الازهر والعشرة التي سبقتي بها الشيخ بل قلما توجد مدرسة من مدارس العالم لا ينتقد الطلبة فيها أساتذتهم في بعض أعمالهم (واقوالهم)

وأما وصول الانتقاد إلى حد الاهانة والتقاطع فذلك لم يكن الآن اللهم إلا ان يعني الشيخ ما وقع من أحد حذاق الحمامين من الشدة في نقده لبعض كلامه (١) ولكن ذلك ليس من الطلبة الآن ، وان كان قد سبق له طلب مدة الحسين سنة الماضية أظن ان مجلس الشيخ مطروق باوائك الذين ينقلون له مالا تعرف له حقيقة من أين جاء للشيخ لفظ سبسر وأي طالب نقل اليه هذا الاسم ؟ وأي مبدأ من مبادئ سبسر دخل في الازهر ؟ وماذا يعني الشيخ بهذا الاسم خاصة لو كان هو الذي ذكره ؟ سبحان الله ما كان أحق بالتقوى أن تنهى أهلها عن العز والهز ان الذي يلزمه الشيخ بهذا الكلام طالما نادى في درسه بأن الذي أضرب بالعقائد وباللغة ادخل الفلسفة في الاولى والحذو حذو أهلها في الثانية فهو وأن تعلم شيئاً مما تعلمه لم يحصه إلا ليدفع الشر بالشر إذا لم يمكن وسائل الخير

لم لم يقبل الشيخ مشيخة الازهر بعد حضرة الشيخ حسونه النواوي وقد ظهر له ان ما دخله الشيخ حسونه كان شراً على الازهر ، وكانت مشيخة الاستاذ كافلة بازالة ذلك الشر ؟ زهد في المشيخة حتى لا يملو على بعض اخوانه كما يقول ، سبحان الله ! أفما كان له أسوة في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر بن الخطاب في قبول الرياسة على اخوانهم ليحفظوا نظامهم ؟ هل هو أرهد منهما في الرياسة او أعلم منهما بما فيها ؟

(١) هذا المحامي هو السيد احمد الحسيني - رحمه الله - كان يحضر درس الشريفي

في فقه الشافعية واعترض عليه وناقشه في بعض المسائل بما يعجز بجباله

يمدح المشايخ الذين رآهم في خمسين سنة لا يشتغلون بالسياسة ؟ ومن الذي يشتغل بالسياسة الآن ؟ هل كان الشيخ حسونه يشتغل بها او الشيخ سليم من بعده أو حضرة الشيخ البيلوي اليوم ؟ وأي سياسة يعني الشيخ ؟ ان كان ما يريد منها سياسة الازهر وتنظيمه وتأسيس العمل فيه على قواعد يلزم السير عليها فالباديء بوضع هذا الاساس هو الشيخ العباسي رحمه الله ، ولقد هاج عليه الناس وفيهم كثير من اخوان الاستاذ لانه وضع قاعدة الامتحان على انه كان يفضى من مهاجته كما يعرف الشيخ وأضرت نصائح المشايخ بكثير من الطلبة إذ حقروا لهم أمر الدخول في الامتحان حتى حرموا من نيل درجة العالمية وهم يندبون حظهم إلى اليوم. وقد كنت ممن خدع بتلك النصائح ولولا حادثة حدثت مادخلت في الامتحان ولذبت متاعبي سدى

وان كان يريد للسياسة معنى آخر فما هو ومن هم المشتغلون به ؟ أظن ان الشيخ نفسه قد دخل في الاشتغال بالسياسة من حيث لا يشعر حيث سمح بنشر هذا الحديث أو لعله يشعر بأنه عمل سياسي لكن يستبيح منه انفسه مالا يستبيحه لغيره نعم عهد لعلماء الازهر ولطلبته تبعاً لهم شغل بالسياسة قبل أن يدخل فيه مايسمونه بالاصلاح . ذلك في أيام الفتنة العرابية ، فقد انقسم المشايخ الى قسمين أكثرهم مع عرابي ، وأقلهم مع الخديو السابق ، وكانوا يسمحون لعبدالله افندي نديم أن يدخل الازهر ويخطب فيهم بفتنة السياسة ، وكانوا يحيطون به ويزادون : اللانحة مرفوضة (يعني اللانحة التي قدمها قناصل الدول بطلب نفى كبراء الضباط) كان هذا في مدة الحسين سنة التي ذكرها الشيخ ، وأما ما كان في زمن الفرنسيين وأول مدة محمد علي فلا نتكلم فيه لانه مضى عليه أكثر من مئة سنة وصار أولئك المشايخ سلفاً رضي الله عنهم

ألم يكن الاجمل بحضرة الاستاذ في صلاحه وتقواه أن يبذل جهده أولاً في لقاء الذين يعينهم بكلامه ويبحث معهم فيما يعملون وما يقصدون ، فان رأى خيراً ساعد عليه وإن رأى شراً وعظ ونصح ، فان لم ينجح النصيح كان له الحق فيما ينشره في جرائدسيارة يحب كثير من الناظرين فيها أن تسمع الفاحشة في الذين آمنوا

اللهم ألمم الاستاذ واخوانه أن يقرأوا سورة الحجرات ، وأن يعظموا قول الله فيها ، فاذا جاءهم فاسق بنبأ تبينوا ولم يصيبوا قوماً بمجهالة حتى لا يصبحوا نادمين أما مانشره بعض الناس في تلك الجرائد التي لأشك في منازعة ضماثر أربابها لألسنتهم وأقلامهم من الكلام في الاحاد ، او وجوه الاصلاح ، فهو مما لا يصح النظر فيه بل هو مما يمر به العقلاء كراما . سامح الله هؤلاء المخاطرين بشرف الازهر وأهله الطالبين للاحاق أشد المضرات به ، ونظر الله جل شأنه بعنايته إلى هذا المسجد الشريف وقبض له من يتقلب على هذه المصاعب كلها حتى يصبح مؤديا للوظيفة التي تطلب منه ويتمناها الشيخ الفاضل وإذا كان أصحاب الجرائد التي نقلت كلام الشيخ احراراً فلينفقوا هذا كما نقل ذلك بعضهم عن بعض تأدية للافكار الى قرائهم اه

استدراك على مقالة الرد على الشيخ الشرييني

في اشتغال علماء الازهر بالسياسة

تم نشر المقطع في ١٥ المحرم (٢١ مارس) مقالة عنوانها (علماء الازهر والسياسة ، او السياسة والازهر) بامضاء (مؤرخ) استدرك فيها على المقالة السابقة بان علماء الازهر قد ثبت عنهم الاشتغال بالسياسة الداخلية للحكومة في مدة السنين الخمسين التي نفي الشيخ العظيم نفي اشتغالهم بالسياسة فيها ، وذلك « عند ما أرادهم رب السياسة (الخديو) عليها ، ولم ينبج من شرها إلا الشيخ العباسي . حقني الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر يومئذ »

وذكر الكاتب حادثة محاولة اسماعيل باشا اسقاط وزارة نوبار باشا ونجاحه في ذلك وان تلك الوزارة كانت تسعى لتخفيض ربا ديون الحكومة المصرية من سبعة في المائة إلى اربعة فرأى الخديو ان هذا التخفيض لا يليق بالحكومة ولا بالامة المصرية الشريفة فأمر بوضع لائحة سميت (اللائحة الوطنية) كان من أحكامها أن تضمن الامة المصرية سداد الديون ورباها الفاحش . واستعان على ذلك بعلماء الازهر فوقع اللائحة أكثر من يعرف له اسم من العلماء ومشايخ الطريق ووجوه الامة وأعضاء مجلس نوابها

وبعد أن وضعوا أختامهم بعث بها إلى المرحوم الشيخ العباسي لامضائها وختمها فتعلل بالمرض وكان في حلوان فلم يأذن للرسول بمقابلته... وما زال الخديو يلح عليه في وضع اسمه على اللائحة حتى كتب عليها هذه العبارة «وافق على المشروع من هذه اللائحة» يريد بالمشروع ما وافق الشرع دون ماخالفه من دفع الربا على النحو الذي طلبه الخديو. فاكتفى الخديو بذلك لأن الذي كان يهمه أن يوجد اسم المفتي وشيخ الازهر على اللائحة
ثم قال الكاتب:

«ولعل الشيخ لا يسمي ما كان من أولئك العلماء دخولا في السياسة لانه يشترط في الدخول المذموم أن لا يكون وسيلة للحاكم في الوصول الى رغبته: ولذلك برأ الازهر وعلماءه من الدخول في السياسة في تلك المدة
«وإذا صح هذا يكون قضاء على العلماء بأن يكونوا آلات في إيصال السياسيين إلى حظوظهم ورغائبهم بلا حرج عليهم ولا لأئمة تتوجه اليهم، سواء وافقت السياسة الشرع أم خالفته، وحصر السياسة في نقطة واحدة وهي أن يققه العالم معنى السياسة ويكون بصيراً بتصرفها، ولو لیتی شرها، ويأمن مكرها، ولكن السادة المالكية جعلوا هذا المعنى تعريفاً للفقهاء إذ قال فيه أحد أئمتهم «الفقهاء هو المقبل على شأنه، البصير بأهل زمانه» اهـ ملخصاً
وأقول الآن ان سر الاستاذ الامام رحمه الله هو الذي اشار بكتابة هذا الاستطراك على المقال الاول

وجملة القول ان هذه التمهيدات السياسية والدينية قد انتهت بما تقدم من استقالة السيد البيلوي وتولية الشيخ الشريفي مشيخة الازهر كما تقدم. فكان هذا الشيخ الزاهد كفيه آلة لسياسة الخديو الضارة بالازهر والدين، ثم لم يكن موفقا في مشيخته لشيء من خدمة الدين، ولا راضيا ولا مرضيا من العلماء ولا السياسيين. ونذكر الآن ملخص خطبة سمو الخديو في حفلة لباس الخلاء للشيخ الشريفي وبعض ما كان لها ولترك الاستاذ الامام لادارة الازهر من سوء التأثير في العالم الاسلامي

ملخص خطبة الحديو بقصر عابدين

﴿ في حفلة الانعام بالخلمة على الشيخ عبد الرحمن الشرياني ﴾

شيخ الازهر في ١٧ المحرم سنة ١٣٢٣

قل سموه بعد مقدمة :

« ان الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية .
تنشر علوم الدين الحنفي في مصر وجميع الاقطار الاسلامية . يأتيه المسلمون من
كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الفراء ، ولينفعوا قومهم ،
ويرشدوهم للدين الصحيح متى رجعوا اليهم

« واتقد كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهرين دائماً ، ولكن
من الاسف رأيت أنه وجد فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات
بالدين ، ويكثرون من أسباب اقلقل .

(وهنا ذكر حادثة رواق الغربية التي تقدم ذكرها في ص ٤٩١ ، وأشار إلى .
ما سبقها من حادثة رواق الشوام وهما من حوادث الشغب الذي أحدثه وشكاهه ثم قل)
« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف ،
والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتقني العلوم الدينية النافعة البعيدة .
عن زيف العقائد وشغب الافكار لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء

« إن كل ما بهم الحكومة من الازهر شيئان . الاول استتباب الامن فيه وهو .
ما أوصي به دائماً . والثاني تخرج القضاة الشرعيين ، وهو ما سينشأ له مدرسة .
مستقلة يقصدها كل من يتحصل على شهادة العالمية في الازهر ، ويريد التوظيف في .
القضاء . وستشتغل الحكومة بابراز هذا المشروع من القوة للفعل قريباً

« واني أول من يقدر السيد علي البيلوي شيخ الجامع الازهر السابق .
حق قدره ، ويعرف فضله وتقواه ، وبحترمه مزيد الاحترام ، ولكنه رعاية .
لصحته رأى أن يستقيل من وظيفته ، وقد جريت منذ اثنتي عشرة سنة على هذا .

القاعدة ، وهي أن أقبل استقالة كل من يستقيلني من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالته ، ومن يستقيلني من وظيفته سواء فانا مستعد أن أقبل منه جريا على العادة التي اتبعتها في ذلك . والآن قد اسندت وظيفة مشيخة الازهر للاستاذ الشيخ الشريفي المعترف له من جميع الطبقات - ازهريين وغيرهم - بالعلم والتقوى والصلاح . وأنا مستعد أن أساعده بكل ما في وسعي لتأييد كلمة العلم والدين في الازهر . وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب ، وأن تحثوا اخوانكم والطابة على ذلك . ومن يحاول بث الشغب بالوساوس والادهام أو الايهام بالاقوال أو بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الازهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى أن يرجع إلى بلده ويبت فيها ما يريد من الاقوال والآراء الغفيرة للدين ، ولمصلحة الازهر والازهرين » اه بنصه الرسمي المنيف الذي نشره المؤيد

يرى قاريء خطبة الامير انه يتكلم بلسان الفاتح الظافر ، والملك المستبد القاهر ، كأنه لا يدري ولا يشعر بأنه هو المغلوب المقهور الخاسر ، وان الازهر نفسه هو الذي خسره نهائياً في هذه المعركة ، فان أمر الازهر كان من خصائصه التي لا تعرض له فيها الحكومة ولا سلطة الاحتلال ، فأصبح لا يملك الاستقلال فيه شيء ، وقصارى سلطته أن يقبل استقالة من يستقيل منه ، وأي شيء هذا ؟ وأما قوله (ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده) الخ فهو يعني به هذا العاجز صاحب المنار - كما صرحت بذلك جريدة اللواء - لانه كان أخلص نصير للاستاذ الامام في كل ما كاذبه الامير له ولا سيما مسألة الازهر ووسائلها ، وقد أشار بهذه العبارة إلى ما كان ينويه من اخراجي من مصر منفياً بعد أخذ كتابته من شيخ الازهر بان ما أكتبه في المنار مخالف للعلم والدين ، او اعتداء على علمائه العاملين . وقد بلغ هذا الكيد يومئذ كبار الحكومة وتحدث به مصطفى باشا فهمي رئيس النظار مع الاستاذ الامام فقال انه يريد نفي السيد رشيد رضا من مصر وامكن من ينفذ له . وسأذكر في مقام آخر بعض ما كان من سمعه في شأني وأوله التفريق بيني وبين الاستاذ الامام ، ومنه السعي لاجراحي من هذه البلاد

وأكتفي هنا بذكر بعض ما كتبه في المنار عقب هذا العبث والتغيير في الازهر من بيان ما بني عليه ، ثم أنشر بعده فصلاً فيما كان من تأثير استقالة الاستاذ الامام من ادارة الازهر . وهذا نص ما نشرته في ص ٧٧ من المجلد الثامن

﴿ غرض الحكومة الخديوية من الازهر ﴾

قد شاع وذاع أن سمو الامير اتفق مع حكومته على ان كل ما بهم الحكومة من الازهر شيئاً (الاول) أن يكون أهله في أمان (والثاني) تخرج القضاة الشرعيين . ولما كان التعليم في الازهر غير كاف لتخرج القضاة الذين تصلح بهم حال المحاكم ، وينفذ حكم الشريعة عازمت الحكومة الخديوية على انشاء مدرسة خاصة لتخرج القضاة يكون تلامذتها من طلبة الجامع الازهر ، ولم يكن أحد يصدق هذه الاشاعة لولا أن المؤيد ذكر أن الامير قال ذلك في كلامه الذي خاطب به مشايخ الازهر في حفلة لباس الخلة للشيخ الشريفي وواقعه المقطم في معناه (١) وأسنده إلى أوامير الامور وقد كثر التساؤل بين الناس عن سبب استقالة الشيخ محمد عبده من ادارة الازهر على عنايته العظيمة بخدمة الازهر وحرصه على تخرج رجال فيه يقدرون على خدمة الشرع وتأبيد الدين . وكان ينبغي أن يكون أول سبب يخطر في البال ، بعد الاطلاع على تلك الاقوال ، هو بلوغ الشغب في هذه المدرسة غايته ومثله من رجال الجدد لم يخلق للعب بالشغب ، بدون فائدة تكفي ، إنفاق الوقت في التعب . ثم اكتفاؤه بعناية أولياء الامور بتربية جماعة من طلبة الازهر في مدرسة خاصة ليتخرج منهم أساتذة وقضاة وهو شيء مما كان يميل اليه ، وقد تيسر الوصول اليه ، ويقول المقطم ان الحكومة مستنوط بالشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أمر هذه المدرسة فان صح ذلك فحسبه تربية البعض من الكل ، على أن تركه لادارة الازهر ليس تركه للازهر كله ، فإنه شيخ رواق الحنفية وهو أكثر الاروقة طلاباً فهو يربث فيهم النظام ويرشدهم إلى روح العلم والدين وهذا بعض آخر من كل و « كل ميسر لما خلق له »

(١) غبت بقولي في معناه أن المقطم لم يوافق المؤيد على أن تلك الخطية هي نص ما نطق به الخديو بل نازعه في ذلك مؤيداً نزاعه بشهادة من كان حاضراً للحفلة وسمع الخطبة بأذنه .

تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في المسلمين

نشرنا في (ص ٢٣٧) من مجلد المنار الثامن تحت هذا العنوان مانصه :

لقد اضطربت قلوب عقلاء المسلمين ووجعت نفوسهم لهذا النبأ في كل قطر، فقد جاءتنا الكتب والرسائل في ذلك من السودان وسورية ومن بلاد المغرب والمشرق ما بين شاكية وبائية، منها ما يعرف مرسلوها عن الامام، ويرون أن لا عيب عليه ولا ملام، لو قوفهم على حقيقة أحوال هذه البلاد، فأرأبهم في ذلك كراي اكثر العقلاء في مصر الذين استشار الامام بعضهم فأشاروا بوجوب تركه (١) ومنها ما يتضمن اللوم لاعتقاد أصحابها أن الاستاذ الامام قد يئس من إصلاح المسلمين، فترك خدمة الملة ملأ من مقاومة الجامدين، أو علماً بأنهم غير مستعدين، وقد آلمهم ذلك لأنهم يعتقدون أنه اكبر زعيم للإسلام في هذا العصر وأقوى نصير له في علمائه، ويشعرون بأنهم يستمدون منه الهمة والغيرة والرأي الصحيح على بعد الديار، وتناقي الاقطار، ولا أنكر انني أعرف من أذكاء المسلمين الاقربين داراً بل من المصريين انفسهم من سرى اليه شيء من هذا الوم وقد آلمني وسيؤلم كل ذي غيرة وشعور قول (النواب محسن الملك) ان اليأس والقنوط قد نمثل لأهل النهضة الاسلامية في الهند، وشعروا بأن قد طغى نور الاصلاح المنبعث من هذا الامام، فوقعوا في حنادس الظلام - يحزننا وبعضنا هذا القول من قوم نعتقد أن نهضتهم أعلى من نهضتنا، وهمتهم أعلى من هممتنا، والامل فيهم أقوى من الامل فينا، ولا نفضلهم الا بهذا الرجل وابتقان اللغة العربية، لاننا نراهم يرجوننا اكثر مما يرجون انفسهم، كما انه يسرنا شعورهم بارتباطهم بنا، ولا يأس منا ولا منهم إن شاء الله

ان من أغرب ما كتب اليها في هذه الحادثة نبذة لأحد الفضلاء في دس وهي :

(١) من هؤلاء جل تلاميذه ومريديه من كبار رجال الحكومة كسعد زغلول وفتح زغلول وقاسم امين ومحمد راسم الخ

«قد ساءنا وإيم الله ما بلغنا من استقالة حضرة جناب الاستاذ الامام، وعالم علماء الاسلام، فريد هذا العصر، وغرة جبين الدهر، ذروة جهابذة الآفاق، ونخبة كبراء المصلحين بالاتفاق، مولانا وسيدنا الشيخ محمد عبده أدام الله بقاءه ومرشدا للعالمين - من عضوية إدارة مجلس الازهر الشريف الذي كان متعنا الله بوجوده مجتهداً في إصلاحه، كما ساءتنا تلك الخطبة... ولكن (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقد كدر ورود هذا الخبر جميع محبيكم ومحبي الاستاذ الامام لعلمنا بأنكم من المجتهدين في إصلاح الامة الاسلامية. الخ

وإنما كان هذا غريباً لأن تلك البلاد أبعد بلاد المسلمين عن التفكير في الإصلاح أو الشعور بالحاجة إليه، ولكن هذه الافكار قد سرت في كثير من أهلها من بعض المهاجرين اليهم من المسلمين، ومن قراءة بعض الصحف كالمسار. وقد ختم هذا الكاتب كلامه بقوله: وأدام الله بقاءكم رغباً عن أنف الجاهلين والمستبدين، والمفسدين والمقلدين اهـ

تأثير الاستقالة في الهند

ذكرت نبذة من كتاب عالم فاضل في المغرب الاسلامي الاقصى في سوء تأثير هذه الحادثة حذفت كلمات الطعن منها، وأكثر ما كتب إلي في ذلك يتضمن طعناً شديداً في الخلدو لم يكن نشره ممكناً - واقفي عليه بما كان من تأثيره في أرقى الشرق الاسلامي

كتب إلي زعيم مسلمي الهند وعميد نهضتهم الاسلامية الاكبر، العلامة الكاتب الاشهر، النواب محسن الملك عميد المدرسة الكلية الاسلامية في عليكرة ورئيس الشرف لادارتها كتاباً طويلاً أثني فيها علي وعلى جهاد المنار في سبيل الإصلاح الاسلامي، ثم قال في هذه المسألة مانصه نقلاً عن ص ٢٣٣ م٨ «وقد أدهشنا خبر هائل وصل إلينا من الجامع الازهر وأوحشنا وأقلق جل

أصحابنا والامة، وأراق الدماء من الجفون والمقل، وكادت القلوب لها ان تهيل^(١) وقد انصدعت له الصدور، وتصدعت لها المهج في شلوكل مصدر، وذلك ماشاع: عن هذا الفيلسوف السرسور والحلاحل الوقور^(٢)، والنبراس في ظلمات الديجور، من رفض ما كان اليه من نظارة الجامع المذكور، أسفا على ما تجرب من جفاء اهل عصره، ولا سيما علماء مصره، ومساعدة الحضرة الخديوية للعلماء، وقضاها بخلاف ما كان يرجى من تلك الحضرة انفراد، لما كان أيده الله تعالى يريد من إشاعة العلوم الحديثة، وإذاعة المعارف والحكم الجديدة، وزيادة على ما كان يجري فيه من دروس العلوم الشرعية والمسائل الفرعية. ولما لم يصغ احد الى رأيه ومقالاته، ولم يكثرث رجل الى ما كان فيه من محض نصاحته، تمثل لنا عند ذاك الياس، وتجدد لنا شبح القنوط والابلاس^(٣) لخود هذا النبراس، فقد كنا نظن قبل ذلك أن سوف يرحل به عنا ايل المحن، ويقام عنا دامس الفتن، وتقوض عنا خيام البلاء، وتعطف عنا سهام الضراء، ويتنفس علينا صبح الاقبال، ويطلع على وجهنا فجر الآمال من اجل ذلك البارع الحكيم المفضل، وكنا نظن انه قد توفد في الاسلام مصباح يستوقد منه آلاف الوف من المصابيح، ومفتاح ينفتح به مغالق أبواب الفرج والبرايح، ولكن قد تبين الآن أننا لم نبرح عرضة للبلاء، ودرية لرماح الضراء، وجزراً لسيوف البأساء، ما زالت هذه الحضراء تدور على الغبراء. وما أشبه حال هذا الحكيم الرزين، في المصريين، بحال السيد احمد الذي أعثرناك على حاله في الهنديين، فقد عظمت الرزية وجلت المصيبة، فإننا لله وإنا اليه راجعون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

ولما وصلت جريدة المؤيد إلى الهند ورأوا فيها خبر الانقلاب وخطبة الخديو كتبوا في ذلك مقالات شديدة في الانكار على سموه، لم نهن بترجمة شيء منها في ذلك الوقت لتعذر نشره ونكتفي منه بما نشر في جريدة (الرياض) التي كانت

(١) يقال تهيل لعياله واهتبل اذا اكتسب. ولعل الكلمة في الاصل تهيل من هبل ولده واهتبله اذا ثكله (٢) السرسور بالغم الفطن العالم الدخال في الامور. والحلاحل السيد في عشيرته الشجاع الركين في مجلسه (٣) الابلاس هو الفم من اليأس والحيرة

تنشر بالامتين العربية والاوردية في عليكره وكنا جفطناها لاعتدالها ، وهذا نصه
من الممد الذي صدر في ١٠ صفر سنة ١٣٢٣

﴿ خطبة الجناب العالي الخديوي واصلاح الازهر ﴾

ألقى الجناب العالي الخديو خطبة أنيقة على جمع حافل من العلماء والفضلاء
والمشايخ عند استقبال حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد الرحمن الشريدي
شيخ الجامع الازهر الجديد صرح فيها بأرائه وأفكاره السامية في مسألة الاصلاح
الازهرية فقال حفظه الله :

« إن الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية
تنشر علوم الدين الحنفي في جميع الاقطار الاسلامية يأتيه المسلمون من كل جهة
ليأخذوا أمور دينهم ويكونوا علماء بالشريعة الغراء ، ولينفعوا قومهم ويرشدوهم
للدين الصحيح متى رجعوا اليهم »

وايكن الافادة والارشاد يتوقفان على أن تكون علومهم ومعارفهم أعلى وأرقى
من معارف قومهم سواء كان معارف الاديان ، أو معارف الاكوان .
« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتني أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف
والشعب بعيداً عنه فلا يشتغل علماءه وطلبته بإبتلالي العلوم الدينية النافعة البعيدة
عن زيف العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء »
(وقال حفظه الله في ختام الخطبة)

« وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب وتحثوا إخوانكم على
تأييد كلمة العلم والدين ومن كان يحاول الشغب بالوساوس والواهام أو الإيهام بالقول
أو بواسطة الجرائد والخذ والرد فيها فليكن بعيداً عنه ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء
فأولى له أن يرجع الى بلده ويبيت فيها ما يريد من الاقوال والآراء المغايرة
للدين ، ولمصلحة الازهر والازهرين »

بعد إيراد تلك الكلمات من الخطبة الملوكية لا يسعنا إلا ان نقول بأسف
زائد : ان حركة الاصلاح قد قبضي عليها ، وان هذه المدرسة العظيمة تبقى على

تقاليد قديمة، وأوضاع عتيقة، وطرق غير نافعة، وجود وخود وهبوط، يبقى مستقبل التعليم الديني مظلماً الى ما شاء الله تعالى . فليسكت النار ويرجع الشيخ الظواهري عن الآراء والاقتراحات التي نشرها في كتاب العلم والعلماء والكتاب المفتوح فقط اه ثم نشر في العدد الرابع الذي صدر من هذه الجريدة في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٣ المقال الآتي :-

عجب واسف على قضية الخربو في الجامع الازهر

الحضرة الفاضل العلامة النواب محسن النظام الاعزازي لعليكمه كالج
قد استحرنا وتضجرنا وتحسرنا وتحيرنا من النطق الفاضل والحكم الفاضل،
الذي قضى به سمو الخديو المصري على جامع الازهر، من جهة ما هو عليه من
مكانته في العلم بالمعارف، الجديدة والخبرة الواسعة المنسعة بالعلوم الحديثة، وما كان
يمرأى منه من الترقيات الحالية في أرض اروبا، وعلى معرفة تامة بما يستتبع التعليم
النافع من الآثار الجيدة، والنتائج الحسنة، والفوائد المستحسنة، فليت شعري
كيف بدا له أن يقضي بمثل هذه القضية؟ أم كيف عن اه أن يحكم بمثل هذا
الحكم الذي تنسد به ذرائع الارتقاء والصعود على وجوه المسفين، وانه بنفسه
لينظر إلى باقي الجامع الازهر من ضياع النفقات الكثيرة وضعية الاموال المنفسة
القيمة التي تنفق فيها، وهو بعد على خبرة تامة بحال الطلبة الخارجين عن هذا
الجامع، والذين يتحللون من نصاب دروسهم منه لا يكونون إلا صاماليك وسائلين
وفي الرقاب، وهم مع ذلك من أرباب الجهل البحت، وأصحاب التعصب الذميمة
المحض، وليس للجامع الازهر حظ من التعاليم الدينية الاصلية الحقيقية النافعة،
ولا يوجد فيه ضرب من الدروس التي تنفع الناس، نظراً إلى ارتقاؤهم في معارج
الفضائل الخلقية، والمدارج الدنيوية، ومع كل ذلك فان السعادة الخديوية قضت
على الجامع الازهر أن تدوم له تلك الحال التي كان عليها إلى الآن في التهج القديم
الذي لا يسم ولا يغني من جوع، ولا يقصد فيه إصلاح حال، ولا يرام منه
وعاية لجانب انواق والمآل

وأعظم من ذلك أن الحضرة الخديوية لم تقنع بمجرد هذا الامر، ولا بمحض هذا الحكم، بل أخذت تنبذ بالالقباب من أراد منهم الاصلاح في أحوال الجامع، وزاد الخديو على ذلك بان وعدمه بالاجلاء عن حوزة ملكه، وهددهم بالنفي عن حومة دولته، وأجبر أمثال المقتي محمد عبده الذي من حق العالم الاسلامي أن يفتخر بوجوده، ويختال مرحاً بكونه وشخصه، لعلو كعبه في العلوم، وسعة معرفته وخدمته للمعارف، ودراسته وصفاء سيرته، وتوقد قريحته، وجلاء قلبه ووحدة ذهنه، أنجاه سمو الخديوي إلى الاستقالة وترك العضوية والنظارة، والذي ظهر لنا ان الخديو لا يريد بذلك إلا تطيب نفوس العوام، وإرضاء شيوخ الازهر الاعلام، وتنشيط قلوب هؤلاء الكرام، الذين لا يعرفون من العلم إلا الدارس، ومن الدرس إلا الخلق البالي، كما يحسبهم الجاهلون أنهم هم المسلمون حقاً، وأهل الديانة صدقاء، ويكون محلهم في أعين الخلق محل حماة الاسلام، وسوقهم موقع الذابين عن حى شريعة خير الانام

(وهنا استغرب عدم تدخل لورد كرومر في هذه المسألة: وعلمه بما عن له. ثم قل) فأما اذا كان الامر كما وصفناه فهل يرجحى من أهل مصر أن يعرجوا بشيء في معارج الارتقاء، بعد ذلك القضاء للقلق، والحكم اللوبق، الذي تصدعت له قلوب الحازمين من أهل الاسلام كافتهم؟ وهل يرجحى لهم بعد تلك الحادثة الهائلة أن يمكنوا من الصلوحية للارتقاء في العلم والحكمة، بعد ولوعهم في مثل تلك الدروس الخاوية، وعكوفهم على تلك التعاليم الخلقية البالية، في الجامع الازهر؟ وهل في الوجود أحد أعرف بذاك من سمو الخديوي؟ الخديوي يعرف ان المسلمين الذين يتعلمون في الجامع الازهر في تلك الهيئة الرثة الخلقية، لا يزالون ينحدرون بها في غيابة الجهل والظلمة، ومنتهى غاية الدل والمسكنة، ولا يتقدرون على شيء غير التقمص بقمص التعصب والجهالة، والارتزاق والاستيكال في وجوه الذلة والمهانة، ومن الآن لا يولد في أرض مصر رجل يكون له هوى في الوطن، ووله في ارتقاء القوم، وحرية في العزم والرأي، وان يخلق في هذه الارض نسمة يكون من شأنها ادعاء الصلوحية، ودعوى القابلية للامور الحكيمة،

والملكية لنفسها ، وقد تبين ذلك عند أهل مصر وهم قد افتموا من هذا الحكم الهائل ان سمو الخديو قد آثر رضا الشيوخ ومشايخ الازهر على فلاح القوم وصلاحهم ، وقرب على ذلك بمثل لهذا القربان والله المستعان على ذلك وفي كل نازلة . ولو ان أهل مصر كانوا يتوقعون من المستر دنلوب بعد قنوطهم وإياسهم من جامع الازهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع في أرض مصر ، ويكون فيها نشر التعاليم العالية واشاعة النصاب الاعلى في العلوم والحكم ، لكان في ذلك بمض تعزية عما قد فاتهم من ذلك في الجامع الازهر ، ولكن الذي ظهر لنا انهم لا يتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضا كما قد يثسوا من ذلك الجانب ، وعسى أن ينكشف لديهم ان أعضاء الدولة والذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك أمرها وسلطانها لا يرضون بان يتاح لهم من التعاليم ما تستخير به قلوبهم ، وتستضيء به أدمغتهم ، ويطلعون به على حقوقهم المالية والسياسية ، ويمزمون به على طلباء والاجتهاد والجد في تحصيلها ، واحراز الغائت منها .

فأما الدولة الانكليزية فقد أخذت أزمة الحكومة المصرية وأعتنتها في يدها لمحض النصح اتام لكافة أهلها ، وأن لا تألوا جهداً في تحسين صورتها وتجويد حالها ومنظرها ، ولكننا نسلم ذلك الى الوقت الذي ليس لأهل مصر اطلاع على أحوال السياسة ، وإلام وممارسة بفنون التمدن ، وما فيه قوام الدولة وقيامها ، أو هم ذاهلون عن اكتساب العلوم النافعة التي امتلكت بها أرض أوربا سائر البلاد ، وذلت لنفسها كل صواب الامصار والاقطار . ومعلوم ان هذه الذلة والهوان ، وان ذاك النعاس والنسيان ، وهذا الحرمان والخللان ، وغيرها من المعايير التي توجد في أهل مصر من أجل تلك انتعالم الدارسة البالية في الجامع ، أصلها من هؤلاء الابرار من أهل العلم والمشيخة المقدسين ، وهم السبب الاصيل والعلة انتامة لهذه الحل المتهنة ، وانما يكفي من تعليم الدين محض اسمه لاجل ارضاء المسلمين ، ونفريخ خواطر العامة الجاهلين .

فأما نحن فقد أحطنا خبراً من الجرائد المصرية ان أهل مصر وان كانوا قد أحسوا بما فيه ملكهم ودولتهم من الارتقاء والاصطعام من أجل النظام الحاضر

البريطاني واخضرار عود المملكة به واستقامة عمودها لاجله ، وهم عارفون فضل الحرية التي اكتسبوها ولم يرزقوها من قبل - فهم بعد غير راضين بنهج التعليم الذي وضعه لهم المستر دنلوب رئيس ادارة التعليم وأسمه لهم وأنفذه بينهم في أرض مصر ، وبحسبون ان هذه الطريق لا تأذن لهم بشيء من الارتقاء والصعود . وهم لا يكتفون ذلك ولا يسرون رأيهم هذا ، بل يجاهرون به ويتصارخون في الجرائد المصرية ، ولكن لو أمكن في الوجود سبيل الى اصلاح الجامع الازهر وتسبل اليه اشاعة العلوم النافعة ، أو وقع رأي مثل المفتي محمد عبده وغيره ممن يبتغي الاصلاح في موقع القبول ، لكفت هذه الكلية وحدها لاصلاح المصريين ، وتخرج من هذه الكلية الباهرة متعلمون كانت أرض مصر تصير كمثل أوربا باجتهدهم في نشر التعاليم العالية وإحسان التربية لبني أوطانهم من يتعلم فيها . أوليس انه لو أصلح حال كلية مثل الجامع الازهر الذي يتعلم فيه عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف نفس ، ونشرت فيه العلوم الحديثة على مناج كليات أوربا ، وأتيحت لهم الدروس الدينية مع العلوم العقلية ، وكان هناك نظم جيدة لتربية الرجال المتعلمين فيه - أفلا يتخرج منه في كل سنة مائة نفس يحامون عن الاسلام والمدنية ، وتستنير قلوبهم وأدمغتهم بأنوار العلوم الحقيقية ، ويمحوون بذلك عن المسلمين نسبة الجهالة ، ورسام فقد القابلية للارتقاء والتهضة ؟

الحق ان الحكم الذي قضى به سمو الخديو أنما هو غضب من الله وعذابه حل على أهل مصر ، وقد تمثل وتصور في هيئة هذا الحكم المائل الخديوى ، وللمصريين أن يقنطوا من الآن ويئسوا منذ الساعة من ارتقائهم في معارج الصمود ، وقيموا المآثم بالبكاء والعويل على ما فاتهم من تعليم العلوم النافعة والفنون المفيدة لهم . ولشيوخ الازهر وأساتذتها أن يتعبدوا بمنزل هذا العيد العظيم ، وأن يبارك كل واحد منهم الآخر ويهنئه على انه من الآن لن يتطرق الخلل الى ملاذ هؤلاء العممين ومنافعهم المزخرفة ومعايشهم الدينية والدنيوية ، وان كان يستتبع ذلك هلاك قومهم ، وطف اخوانهم وتاف أبناء أوطانهم

ثم إن علماء الازهر قد وصفوا هذه العلوم الجديدة بأنها مظنة لنور الاسلام

وإن الخديوي بنفسه وصف العلوم التي تتلقى الآن في الجامع الأزهر فقال أنها تبعث الرجل عن عقائده الدينية ، وتحول بينه وبين تركها ، والانصراف عنها ، وقد عبر عن اشاعة العلوم الجديدة الشائعة في تلك السنين والاعوام ، وادخالها في نصاب التعليم بالوساوس والاعوام ، ووصف الذين يبتغون الاصلاح ، ويسعون من أجل تلك الامصار والبلاد ، بأهل الشر والفساد ، وهذه الاقوال والكلمات وإن هي انحلت في مذاق القوم ومطعمهم ، وزاقتهم زخرفها وزبرجها لما يحسبون فيها من احياء رميم الدين ، واعلاء كلمة الشرع المتين ، فإنه بعد قد تبين للعاقل ان مر الحق غير ما ارتآه هؤلاء ، وخلاف مازعنه وذهب اليه أولئك الناس ، وإن قولهم ضد ما يقوله الاسلام بنفسه ، أو رآه سلفنا الصالحون به من قبل ، فهؤلاء كأنهم قد صرحوا بخطاباتهم وكلماتهم تلك ان الاسلام أشد مبعوض وأمر قتل المدنية ، والارتقاء للعلوم الطبيعية ، مباحض لها ولمدلولها أي مباحض ، ومعاد لها ولمنطوقها أي عدا ، وكان المسلمون في رأي هؤلاء بمعزل عن الاستعداد والقابلية في الارتقاء والاصطعاد ، فقد طعن هؤلاء في الاسلام طعنة ماطعنه بها أشد المبعضين له ، ولا رماه بها أعظم المعادين معه ، وقد عادى هؤلاء إخوانهم معاداة لا يستطيع أن يزيد عليها أكبر أعاديهم ، ولا يستزيدها أعظم مبعضيهم

وإنما يزيدك عجباً إلى عجب أن سمو الخديوي الملى علم باستتراده على عرش الملوك الذين سبقوه وتسلطوا في أرض مصر ، وكانوا ممن أشاعوا العلم والحكمة لا في ملكهم خاصة بل في سائر البلاد والاقوام ، أو استنجحوا بما صنعه الكلدانيون (١) وتلاهم في ذلك البطالسة الاقدمون ، وجاء على أثرهم الفاطميون ، وهذا مضافاً إلى ماسببهم في ذلك من جماعة آل عباس الذين امتلكوا هذه البلاد وأشاعوا فيها العلم والحكمة أو مادار في خلدانه خليفة هؤلاء الملوك الماضين ، ومن خلف هؤلاء الساف الفاضلين ؟ وإن أرض مصر أرض تخرج منها أناس كانوا أول من تكلم على صناعة حمو مطرنا (٢) وحسبوا حركات النجوم وتوقعوا سيرها ورجوعها واستقامتها

(١) لعله أراد ان يقول ان فرعونيون فوقع في ذهنه اقرانهم الكلدانيون اهل مدينة

العراق فرسم قلمه هذه موضع تلك ، أو أراد الجمع بينهما

(٢) كذا في الاصل غير منقوط والمراد تخيط الوتر

وتداويرها وجور جرائها وحواملها ومتماتها . واليونانيون بأمرهم على جلالهم في هذا الشأن عيال على هؤلاء المصريين فان تأليسمهم (١) أول من أخذ هذه العلوم منهم، وأخذت الهند علومهم من الفينيقيين الذي كانوا في نوبتهم تعلموا هذه العلوم من المصريين فيما هو مبين من المقالة الرابعة البديعة الحكيمة الشهيرة (بالاولائل العلوية ، في الحكمة العربية) التي نشرت في المرة السابعة من الجزء الاول من البيان الاغر فليرجع اليه

وأرض مصر بنفسها الى الآن مكتنزة لعجائب علوم المصريين وعماراتهم البديعة التي أعجزت الفلاسفة الافرنجيين عن اكتناهم سرها، واعيتهم عن الوصول الى نخوم حقيقتها، وفيها الى الآن من تلك الآثار الغربية والعلوم المبهرة مالا يعلم حدها إلا الله عز وجل

هذا وان سمو الخديوي لا يرى حقاً في ردم باب الحكمة على وجه رعيته، ولا يحسب ذلك ضيماً في شأن صعاليك قومه وملته، ولا يستحي من النظر الى مكانته واستقراره في عرش مملكته ، في أي أرض يملك ؟ أم على عرش من هو جالس ؟ أم خليفة من هو من الملوك الماضيين الفاضلين ، أم رئيس من هو ممن تخرج من الحكماء الكاملين، من تلك الآفاق والارضين

ونحن منمقون شيئاً في هذا الباب في الزمن القابل ونبين للناس غلط الخديوي وشيوخ الازهر من الكتاب والسنة ، وأقويل حكماء الاسلام في العهد القادم . وعما قريب سنوضح للناس أن سعادة الخديوي وعلماء الازهر قد أضروا بالقوم والملة ضرراً لا يستطيع أحد أن يكافئه بشيء . أو يكفي شره بنوع (٢) وهؤلاء الشيوخ والخديو وإن فرحوا الآن بما قد صنعوه في الحال فمما قريب يذوقون من مرارة سمومه في مواخره وصعاب عواقبه ومعاثره (لعلها مصايريه) ، مالا غاية له إلا موت القوم والملة ، ولانهاية له إلا قوت العلم والحكمة (وسيلة الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

(١) هو طالس أقدم فلاسفتهم السبعة (٢) قد أرسل الينا هذا المقال وقشذ

وتشره فيما يلي بعد مقدمته له فيما كان سببه

﴿ تعاقب جريدة الرياض على مقالة النواب ﴾

[الرياض] الازهر أكبر كلية اسلامية في العالم فكان أجدر به ان يخرج منه رجال يفتخر العالم الاسلامي بهم وبعلمهم ، ويستفيد المسلمون من أدوار معارفهم ، ويرتفع بهم الدرجة العلمية الاسلامية التي ألحظت منذ عدة قرون أفليس هذا محل الاسف ؟ ان هذه الكلية الاسلامية مع كثرة المعلمين والمتعلمين فيها لا تنفذ المسلمين إلا تعصبا وجهالة ، ولا يزيدهم إلا خساراً في العلم والتقدم وانحطاطا في العلوم الحديثة والقديمة ، وخسرانا في المعارف الكونية والدينية فأني شخص أعلم من حضرة الخديوي -وهو تربيته ، ونقص تعليمه ، وفساد نصابه ، فان سموه قضى معظم عمره الشريف في سياحة البلاد الاوربية ، واختبر بنفسه نتائج الكليات الغربية ، فهو عالم بالعلوم الحديثة والقديمة عارف بأسباب تقدم الاقوام وتأخرهم ، وترقيهم وتدهورهم وحياتهم وموتهم

بناء على هذه الوجوه عجبنا وعجب كل مسلم في الهند من حكم سموه الذي قضى به في جمع حافل من العلماء ، وشدد التكبر على حزب المصلحين وجماعة المحصلين ، وعنفهم وأنذرهم بسوء عاقبة هذه الوسوس والاهام ، فان اقتضت المصالح المصرية بالغناء العلوم الجديدة من الازهر فكان الانسب عندنا أن يرتفع النصاب الديني إلى الدرج الاعلى في جميع العلوم المتعلقة بالديانة الاسلامية كالفقه وأصول الفقه ، والتفسير وأصولها ، وعلم الحديث بأسانيده وأصوله ، وعلم الكلام الذي هو الفلسفة الالهية الاسلامية إلى النهاية التي بلغت إلى الآن ، والعلوم التي هي مثل المبادئ لهذه العلوم كالادب والبديع والبيان والانشاء والبلاغة بحيث من يتم دروسه يكون على بصيرة تامة في جميع الاصول الاسلامية وفروعها ويقدر على اثبات العقائد الاسلامية بالبراهين القاطعة ، ويكون له نفوذ عظيم في العالم الاسلامي ، فان ارتفع تعليم الازهر على هذه الدرجة يستحق أن يقال له انه نافع للمسلمين في دينهم ، ويبقى الضرورة الدنيوية على حالها ، وإلا فلا أن يصدق على من يخرج من الازهر: ليس له في الدنيا نصيب ، وما له في العلوم الاسلامية من خلاق اه

دفاع المنار عن علماء الازهر

فيما نيزم به النواب محسن الملك

نشرنا فيما تقدم ما جاءنا في كتاب طويل من النواب رحمه الله تعالى خاصا بترك الاستاذ الامام الازهر بعد اطراء طويل للمنار ولنا، وقفنا عليه بمقالته الحافلة في هذا الموضوع التي نشرها في جريدة الرياض الهندية ووعد في آخرها بالرد علينا فيما دافعنا به عن علماء الازهر

واننا ننشر هنا ذلك الدفاع عنهم بنصه ونقفي عليه برد النواب فنقول :
كما بدأنا جواب المنار على كتاب النواب الجليل بما يتعلق باقتراحه علينا الاستمرار على كتابة المقالات الحامزة للقلوب ، الحفازة للهمم ، الموكفة للديم ، ثم عطفنا عليها الجواب عن أقواله الهامزة الهامزة لعلماء الازهر التي أملاها عليه تأمله وتبرمه بما كان من خطبة الخديو وحديث شيخ الازهر السابقين ، وهذا نص عبارتنا (في ص ٢٣٥ من مجلد المنار الثامن)

وأما ترك الاستاذ الامام للازهر فهو لم يكن من يأس ألم بنفسه الكبيرة ، ولا عن ضعف في همته العلمية ، ولا لمقاومة علماء الازهر لما يريد من اصلاح التعليم ، أو اضافة علوم جديدة على ما يقرأ في الازهر من العلوم ، وانما هو ما تنسمتموه من الجرائد المصرية ، ونزيدكم فيه بياناً بمكاتبة شخصية ، وقد ظلم المقلاء عندنا وعندكم علماء الازهر فأنزولهم من درجاتهم في العلم والفهم ، كما أعطوهم أكثر من سهمهم من الشعور والاخلاق

أما ظلمهم إياهم فهو اعتقادهم وقولهم فيهم أنهم يعتقدون أن العلوم الدينية قروض بناء الدين ، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين ، وان اصلاح طريقة التعليم خروج عن صراط السلف المستقيم . وكل هذه الظنون فيهم باطلة فان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدينية في المدارس الاميرية وغيرها ، فكيف لا يخافون الكفر والضلال على أفلاد أكبادهم مع عدم تمكنهم من العلوم الدينية ، ويخافون ذلك على طلاب الازهر التوغلين في علوم الدين ؟

ان هذا شيء لا يعقل . ثم كيف يطعنون باكابر علماء الاسلام الاعلام الذين تمكنوا من علوم الدنيا وصاروا يعدون من الفلاسفة كالامام الغزالي والامام الرازي وفلان وفلان؟ ثم كيف لا يطعنون بدين أكابر أمرائهم وحكامهم في هذا العصر وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا وقلما يوجد فيهم من تلقى عقيدة الاسلام ببراهينها ، أو عرف مهمات أحكامها ، ولو غفلا من دلالتها وحكمها ، وان منهم من يصف بعض هؤلاء الامراء بالتقوى والصلاح . فظلم وآف ظلم لعلماء الازهر أن يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقاً عن علومه ، وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين ، وأنه دين عام وأن لادين بعده أوفق لمصلحة جميع البشر منه ، مع استلزام هذا لكون الاسلام يتفق مع علوم البشر ومدنيته في كل زمان وإلا كان متضمناً لتكليفهم ما لا يطيقون نعم انه يوجد فيهم بعض الاغبياء الذين يعثب بهم هذا الوهم ، ولكن الحكم على جميعهم أو أكثرهم بذلك ظلم وجور . وانني اقول ان الاستاذ الامام لم يقرر في إصلاح الازهر شيئاً إلا برأي جماعة من كبرائهم واستحسنائهم ، وقد نفذ بعض ما طلبه وحاوله برضاهم وموافقتهم ، وأوقف بعض الإصلاح للأسباب التي لا اصرح بشرحها بعد رضاهم به واعترافهم بفائدته (١)

وأما وصفهم بأكثر مما يستحقون من الشعور بالمصلحة وإرادة الخير فهو تابع لذلك الظلم ، وهو اعتقاد كثير من العقلاء في مصر وفي أقطار أخرى ان هؤلاء الناس أعداء الإصلاح الذي عرف سراة الامة وعقلاؤها شدة الحاجة اليه لما في قلوبهم من الشعور بضرره ، ولما عندهم من الارادة القوية والعزيمة الصادقة والغيرة الملتزمة على الاسلام والمسلمين وانهم لا يخافون في ذلك لومة لائم ، ولا سطوة حاكم ، ولا حرماناً من منفعة مالية ، أو كسوة تشريف قصية ، والحق أن هذا الصنف الشريف الذي كان له من قوة العزيمة بالاتحاد والاتفاق ما يقيم به محمد علي باشا حاكماً على البلاد المصرية قد استضعف فضعف حتى صار لا يجهر برأيه الا اذا أيقن ان قويا بمده ، أو حاكماً يسندده وكثيراً ما يستحسن أمراً ثم يستهجنه ، أو يستحب شيئاً ثم يستحسنه ، ولقد كان

(١) أعني إغراء الحديو لهم ، وهذا شر ما شكوته من ضعف أخلاقهم

أكابر علماء الازهر موافقين للشيخ محمد عبده في كل شيء، يقترحه لاصلاح الازهر أيام كان مؤيداً بنفوذ الامير، وانما كانوا يرغبون اليه في أن يكون ذلك بالتدرج البطيء، لانهم لم يتعودوه ويثقل على المرء لاسيما الكبير المضي فيما لم يتعود ولابد للامير في تأييده ومساعدته وقف كل اقتراح، وعرض كل اصلاح حتى لم يبق للحكومة الخديوية ثقة بتخريج القضاة في ذلك المكان فهي ستبني مدرسة جديدة لتخرجهم فيها، ولم يبق لها من العناية بالازهر الا حفظ الامن فيه كاهو حق كل أحد وكل شيء على الحكومة لاجل هذا ترك الازهر ولكن آثاره الصالحة لن تتركه، فهو قد وضع أساس النظام الذي قد يضعف تارة ويقوى تارة وقد يزاد فيه وينقص منه ولكنه لا يزول. وهو قد نفخ في نفوس كثير من الاذكياء فيه روح الشعور بالحاجة الى اصلاح التعليم واصلاح الاخلاق وخدمة الاسلام والمسلمين والسعي في ازالة ما غشهم من البدع والفتن فاضعفهم وأذلهم فلن يموت هذا الشعور. ثم انه لم يزد الارضاء بالله وهمة في خدمة ملته بالاهل والتدريس والتأليف لايثنيه عن ذلك ان الامايل به من المرض أحياناً شفاه الله ونفع به آمين

هذا وان العبرة الكبرى فيما كتب هذا السري الكبير هو احساس المسلمين الخاصين الذين يعرفون الاسلام ويفارون عليه بان الاصلاح اذا ظهر في أى قطر ففائده لابد أن تكون عامة لكل البلاد الاسلامية، وان النور اذا ظهر في هذه الامة من أي مطلع فانه ينبسط على جميع البقاع لان هذه الامة امة واحدة، ربها واحد، وكتابها واحد، ونبيها واحد، والهدى في دينه على ملّة واحدة وهي ما جاء به نبيه (ص) عنه، ومصلحتها لذلك واحدة، فما يضرها يضر جميع المؤمنين لها وما ينفعها ينفعهم أجمعين. لاجل هذا أحس الاحياء من مسلمي الهند بان ما دهي به الاصلاح في الازهر هو مصيبة على الاسلام والمسلمين في جميع الارض لانه كان يرجى أن يكون خيره متى ثبت ونجح عاماً لجميع مسلمي الارض ولو بعد حين. فماذا يقول أولئك الذين يريدون أن يقطعوا أوصال المسلمين بزعزعات «الوطنية» الفاسدة في هذا الاحساس الشريف من إخواننا في الهند وكذا في غيرها؟ اه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإياه نعبد وإياه نستعين ﴾

سعادة الفاضل الحكيم العلامة ، دتم بالعرز والكرامة

سلام عليكم ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، وأعلي على نبيه النبي
الكريم ، وعلى آله وصحبه السادة الالمام (وبعد) فانا قد سررنا وتنشطنا بحسن
صنيعكم الينا من نشر رسالتنا المشبعة الطويلة التي كتبناها اليكم في قضية علماء الازهر
واستقالة الاستاذ الامام الكبير محمد بن عبده في مجلتكم الباهرة الغراء التي صدرت
في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي . وقد سرني أيضا ما قد استنبعتم
ذلك بانتقادكم الحافل البديع عقيب هذه الرسالة تحامون فيه عن علماء الازهر
واستفراغكم الوسع بذلك في دفع مآقع من الغلط والخطأ في الآراء التي ارتآها
الناس فيهم ، ولكن الذي آمل من طيب خلقكم وطهارة سريرتكم ، هو أن
تعمو غني مما قد تجاسرت في الانتقاد على هذا الانتقاد ، فانه يا أخي ليس فيما
أحسب مما يطمئن به بال أحد ، أو أن يفند به ما قد رآه أكثر اهل النظر في هؤلاء
العلماء من انهم لا يحبون إشاعة العلوم الحديثة ، ولا يجوزون لها السبيل والتطريق
في المدارس والكتليات ، ولا واحد عندي بمقلع عن رأيه ذلك فيهم فيما أحسب ،
فقد علمت ياسيدي أن تعسف علماء الازهر وتمصبهم للعلوم الخلقة البالية ، وخلافهم
للإصلاح في شؤون التعليم والاختذ بالعلوم الحديثة ليس مما يرتاب فيه أحد ، فقد
شجنت بذلك الجرائد المصرية كلها لاسيما مجلتكم الباهرة التي نصت على انهم
لا يجوزون العدول بيسير عن المنوال العتيق الذي يجري عليه نصاب التدريس
في الجامع الازهر ، ويتخرجون من تشكيل صناعة التاريخ والجغرافية في نصاب
الدرس الحاضر ، فما ظنك بالعلوم العالية الافرنجية وما هي فيه من المنهاج
الجديد في أرض أوربا ؟

أنسبت ياسيدي ان الذين لا يزالون يقرءون ويتلون الجرائد المصرية ، ولا
يفترون عن مطالعة جريدتكم الغراء ليلا ونهاراً ، أقترأهم يقلعون عن رأيهم في شأن

هؤلاء العلماء؟ أم ترى ان اعتقادهم في هؤلاء فيما أفدتم بنفسكم بأنهم يعتقدون ان العلوم الدينية تقوض بناء الدين، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين، وان إصلاح طريقة التعليم خروج عن الصراط المستقيم - أفترى أن هذا الاعتقاد منهم يزول أو يحول أو يضمحل بشيء عن قلوبهم مما كان عندهم من قبل؟ أم تراهم يوافقونك في قولك: وكل هذه الظنون فيهم باطلة؟ كلا ولا كرامة، وحاشاهم عن ذلك

فأما انتم فاعلمى لم تألو جهداً في الحاماة عن هؤلاء العلماء، وأنتم في بيان ذلك بحجتين، وكتاتهما تنتقد عليهما، وننظر في وزنهما ورجحهما، على منهاج أصحاب النظر، أما الحجة الاولى فقولكم: ان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدينية في المدارس الاميرية وغيرها الخ وأما الاخرى فقولكم: ولا يطفنون بدين أكابر اسرائهم وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوروبا الخ. ولكن هذا الكلام منكم لا يجديهم نفعاً، ولا يحامي أو يذب عنهم بشيء، فقد عرفتم ما هو من دين علماء هذا العصر انهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون. وهم الذين قال فيهم الشاعر العارف الحكيم مصلح الدين السعدي الشيرازي وهو من معاريف الشعراء ومشاهير أهل النظم - قال:

ترك دنيا بمردم آموزند خويشتن سم و غله اندوزند

يعني بذلك انهم يعلمون الناس ويحملونهم على رفض الدنيا وترك زخارفها وهم بأنفسهم يكنزون الذهب والفضة ويحتكرون الطعام لانفسهم* ومن ديدنهم أيضاً ان لا يطفنوا بشيء على الاسراء والولاة كيلا لا يجرموا من صلاتهم، ولا يئاسوا من استجلاب خيرهم ومبراتهم، بل وإنا تراهم يوافقون العامة في بدعهم ولا يشنعون بشيء على أفاعيلهم، ويشاركونهم في الاحداث الفظيعة التي يأتون بها في الدين، فتراهم لا ينكرون عليها بل يماضونهم بموافقتهم ومشاركتهم فيها. وشاهد ذلك قولكم في هذه النمرة التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي « فشاخ الارز» يقرأون في كتب الحديث نهى الشارع عن بناء

(*) قال الشاعر العربي:

وذووا لنا الدنيا وهم يرضعونها أقابيق حتى ما يدرا لها ثمل

القبور واتخاذ المـاجد عليها ، واتخاذها أعياداً وتعظيمها . ثم انهم يشاركون العامة في هذه الاعياد التي يسمونها موالد على ما فيها من المنكرات التي نهى عنها أئمتهم في الفقه . ثم انهم يقرءون في شمائل نبيهم انه كان يسدل شعره الشريف ويفرقه ، وهم ينكرون على من يفعل ذلك من اهل العلم والدين ، وقد أمرني بذلك بمعضهم وكان شيخنا للازهر قائلاً : انك من اهل العلم لا يليق بك أن ترسل شعرك فاحلقه ، فحججته بالسنة ، فحاجني بأن ذلك شعار العلماء الآن » وقد صرحتم قبل ذلك بشيء في قولكم ص ٢٢١ من هذه المرة الحاضرة » وانما صرح العلماء بكراهة حلق الرأس وكونه مخالفاً للسنة لانه كان في الصدر الاول شعار الخوارج ، فأما إذا أخذنا باطلاقهم كان اللوم في ترك هذه السنة موجهاً في هذا العصر إلى علماء الدين فانهم بحلقهم ، بل ينكرون على من لم يحلق وهم مخضئون »

هذا — أم كيف يوافقكم أحد في قولكم « ظلم وألف ظلم العلماء الازهر أن يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقاً عن علومه ، وانهم يجاهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين » الخ — وقد ساف منا مراراً انا قد رأينا في (الجوانب المصرية) انها قالت في شأن رجل عظيم من العلماء « انه محترم المقام بين علماء المسلمين بحله كبيرهم وصغيرهم لعلمه وفضله ، ويعدونه حجة وقته وإمام زمانه في علوم الدين وأصول الشريعة » فهذا العالم الجليل الذي ترأس العلماء في عصره ، ومن رأيه ما يقول لمدير الجوانب ماتلك ألفاظه « غرض الساف من تأسيس الازهر : إقامة بيت الله يُعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كاتركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم ... وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له »

ولما راجعه المدير واستحفاه بالسؤال قائلاً « هل حدث يا مولاي ما يقف للازهر في الخدمة المطلوبة منه ؟ » فتبسم الاستاذ ثم قال « بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني ، ويحوّل هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفيء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية » الخ وبجاءه في آخر كلامه متظاهراً قائلاً « ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ايس إلا »

وليتركوه كما هو حصن للدين ، وان أرادوا به إصلاحاً فليكن الإصلاح منحصراً في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وماسوى ذلك من مبادئ الفلسفة ، والعلوم الحديثة العالية ، فلتدخله الحكومة إن شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه »

أم كيف نصدقكم في قولكم هذا وأنا نرى هؤلاء العلماء قد ثاروا وشغبوا الناس وأناروا في إصلاح الأزهر بما اضطر الخديوي إلى إخماد الفتنة وخاطب شيخ الجامع الأزهر قائلاً « إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تدرس فيها علوم الدين الخفيفة في مصر وجميع الاقطار الإسلامية . » و« لقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً » ولما كان يخال ان هؤلاء الرهط الذين بروموا الإصلاح كلهم مفسدون قل فيهم « أول شيء أطلب أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء ، ومن كان يحاول بث الشغب بالوساوس والالهام او الايهام بالاقوال ، وبواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الأزهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده ويث فيها ما يريد من الاقوال والآراء المغايرة للدين ولمصاحبة الأزهر والأزهريين » (١)

فهل في الوجود أحد يقف على هذه الاحوال ويعرفها حق المعرفة ثم يرتاب في أن هؤلاء العلماء أكثرهم لا يجوزون الإصلاح في النهج القديم للتعليم ويحبسون أن العلوم الحديثة بأمرها مطفئة لنور الاسلام ، ولمعري ان هؤلاء العلماء هم الذين اتخذوا جامع الأزهر الذي كان من حقه أن يكون رحمة وبركة للمسلمين مركزاً للنكبة ، وموطناً للمذلة ، ومعقلاً للمترية ، وموضماً للمسفبة ، ولو نظرت إلى العلوم التي تدرس فيها لوجدته بأسرها علوماً بالية عتيقة اتخذها المقلدة من العلماء علوماً دينية ، ولا تجد فيها إلا تلقين نبذ من المسائل التي تشتمل منها القول ،

وتتج قبولها أحلام الفحول ، وذلك من أجل مخالفتها لقواعد الحكمة وأصول الفطرة ، ولا يوجد فيها غير تعليم ماعداها من الطالب التي لا تستنير بها أدمغة الرجال ، ولا يتسع بها فضاء علمهم ومعرفتهم ، بل يتركز بها التقليد في تخوم قلوبهم ، وقد امتلأ القرآن العزيز بدمه ، وشحن الكتاب المجيد برده ، وجل همهم في أن يحمل الناس على منهاج يعتقدون به ان الاسلام بدع هذه البدع ، ونفس هذه الاحاديث التي ليست بأدون من أحاديث خرافة ، بل عين الشرك الجلي ، فضلا عن الشرك الخفي ، وانما جهدهم في المنع عن تعليم صنعة تنفعهم بشيء إما في الدنيا أو في الدين ، هذا شيء من حالهم في تعليم العلوم . فأما سبل التعليم ومنهاج تدريسيهم ونظام الامور فيه فأمره أشهر من أن يذكر ، وأبين من أن يوضح ، وقد تفجع له بعض فضلا الهند الذي كان حل بالقاهرة وكتب في ذلك كتابا إلى حيدرآباد عاصمة دكن ولقد نشرتموه في الجزء الماشر من المجلد الخامس من مجلتكم الناز وبعد ذلك قهل تحسبون اننا نحسن الظن هؤلاء العلماء ونضعهم في ميزان علمائنا السلف الذين مضوا إلى رضوان الله كالامام الغزالي وابن رشد الاندلسي والامام ابن الخطيب الرازي وغيرهم ، فقد كانوا يعتقدون ان العلوم الكونية والعقلية عين هذه العلوم الدينية ، وكانوا يحضون المسلمين وبحوثهم ومحرضونهم على تحصيلها في تأليفهم وكتبهم وأسفارهم وزيارهم التي كانوا يملونها للنشر تلك العلوم ويخاطبون فيها اخوانهم المسلمين قائلين « معاشر الخلال اني آتست ناراً في وادي هذه للفنون ، لملي آتيكم منها بخبر أو قس لعلكم تصطلون »

أوليس هؤلاء العلماء قد عمروا على قضية عمر بن حنبل فيما أخرج الخبر به الامام الرازي في التفسير الكبير من ان عمر بن حنبل كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الاهري فقال بعض الفقهاء يوما ما الذي تقرءونه ؟ فقال أفسر آية من القرآن وهي قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف نبينها » فأنا أفسر كيفية بنائها . ولقد صدق الاهري فيما قال : فان من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله وعظمته . انتهى كلام الرازي بعبارة الفاظه ولم يعثر علماء الازهر على فصل المقال للحكيم الفيلسوف القاضي أبي الوليد بن

رشد (الذى) نص فيه على وجوب معرفة الموجودات والعلم بحقايقها من جهة الشرع وان القرآن العزيز قد أمرنا بذلك أمراً أكيداً في كثير من الآيات وكتب في آخر ذلك ماتلك عيون أفاظه « وقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع وان من نهى عن النظر فيها فقد صد الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله وهو باب النظر المؤدى الى معرفته حق المعرفة وذلك غاية البعد عن الله تعالى » ولم يدر هؤلاء العلماء ان الامام الغزالي كان من قوله في علم الهيئته فيما نقل عنه الفاضل عصمة الله في (التصريح شرح التصريح) للشيخ العلامة بهاء الدين العاملي من انه من لم يعرف الهيئته والتصريح فهو غنين في معرفة الله (١)

وأعظم من ذلك كله الاثر للمأثور المشهور عن سيدنا علي فيما أشار به على سيدنا عمر رضي الله عنه بعدم احراق خزائن الكتب بالاسكندرية قال انها علوم ليست تخاف القرآن العزيز بل تعاضده وتفسره حق التفسير لامراره الغامضة الدقيقة. وهو قول معروف عنه وقد أخرج الخبر به مفصلاً الحكيم المؤرخ الاسلامي القاضي الصاعد الاندلسي في طبقات الامم فيما نقل عنه العلامة المحدث ابن يعيش اقروني التيمي في بعض مقاطيع القسم الاول من الجزء الاول من كتاب الكشف عن الغائبة فليرجع اليه

هذا وانه ان يذهب عنا الاسف والكمد الذى نجده في أنفسنا من جهة قضية الخديو وآرائه ومن جهة الحال التي نحس في علماء الازهر ونحن بهذا المصرف حاجة إلى مثل الرازي والغزالي وابن رشد الاندلسي وأمثالهم من العلماء ومن كانوا في ميزانهم في الدهر الحاضر مثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده وأضرأ به الذين يضيئون العالم بنور الدين وضياء الاسلام ، ويبينون للناس ومن في قلوبهم مرض وزينع عن الحق ان الديانة الاسلامية كلها اطلاقاً عقل والفطرة حذو القذة بالقذة، وان العلوم العقلية والكونية بأسرها في الاصل علوم دينية يجب على المسلمين تعليمها والاخذ بها وتعلمها ، فيخرجوا بذلك عن قعر الدل وغياية الهوان والصغار التي ألقوا

فيها وهم صاغرون ، وقد لزم الاسلام بهم عار قبيح به منظره ، وساءت بذلك هيئته ، وهم يظنون من أجل ذلك ان الاسلام هو الرادع للناس عن التمدن والارتقاء ، في معارخ العز والاعتلاء ، فأما نحن فلسنا في حاجة إلى أمثال هؤلاء الذين يقولون ان العلوم الحديثة مظنة لنور الاسلام ومخمدة لآثاره ، ومطمسة لآثاره ، ومجلية له عن عثر داره ، ومحله وقراره

أوليس ان الحال التي انتهت اليها هيئة المسلمين مما يتضحك بها الاعداء ، ويتصارخ لها الاولياء بالعويل والبكاء ، وتسكب الدماء ؟ أو ليس قد تراكمت على المسلمين سحائب الذل والهوان ، وجللتهم غياهب العدم من كل جانب ومكان ، أي نقطة في الوجود من نقاط الارض يكون فيها من حال المسلمين مالا يتصدع لها القلوب وتتفطر بها الأكباد ، وتجود لها المحاجر والآفاق بأنهار الدماء السائلات ، وتتسكب لها قاني الأمطار من المقل الغائرات ، خرجت الممالك من أيمانهم ، واضمحلت الدول التي بقيت في أيديهم ، كأنهم لا حراك بهم ، وصاروا في العالم كأنهم اللعبة تتداولها أيدي الأجانب ، وتتلاعب بها أكف الأبعاد ، بما خرجوا عن امتلاك الأقارب ، لا يحس فيهم شيء من آثار القوة ، ولا عندهم ميل إلى التجارة والصناعة بل هم زاهدون فيهم ، وراغون عنها ، يستعجبون شكلها ومنظرها ، ويستفظفون محلها ومصدرها ، ورضوا بالافتقار ، في تحصيل كل شيء حقير وجلب كل ما عون بسير ، من أرض أوربا يستجلبون الفرش والسرير المساجد والصوامع من أرض الفرنج ولا يتخذون من ذلك شيئاً بأنفسهم وأيديهم . لم يبق لهم عزة ولا صولة ، وما بقي عندهم امرة ولا دولة ، وأما عددهم فهم وإن كانوا يبالغون إلى ألف مليون نفس في العالم فهم بعد ليسوا في قطر من أقطار الدنيا ممن يفتخر هنالك بوجودهم ، ولا ممن يتفاخر بهم على لسان ولبيهم وودودهم ، أو يفرح الرجل بالنظر إلى عيونهم وأشخاصهم ، أو يسير اخوهم إذا كان يرمق إلى عددهم وفرادهم — فماذا يكون من السبب الاصيل في ذلك ، ويبد من رهنه ذمة هذه الامور

والذي أحسب ان جل السبب في ذلك ليس إلا نفارهم عن العلوم الحديثة وتعاميهم عنها ، واتم ذلك كله على عاتق هؤلاء العلماء الذين يزرون تلك الاوزار ،

ويجوزون للمسلمين أن يخرجوا عن غمار الذل والصغار . ومن ثم تراهم يرفعون
عن التعاليم الذميمة ، ويردعون الناس عنها بفتاوى التكفير لمن ولع بهذه العلوم
الحديثة، ويحاولون يدينهم ويدينها، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ، ولا يشعرون
أن ارتقاء الاوربيين الذى يضرب به المثل اليوم ليس إلا من جهة توغلم في
العلوم الجديدة، ونبوغهم في الحكم الحديثة ، وكل دولتهم وقوتهم منسوبة في الاصل
الى تجارتهم وحرفهم، وهي في نوبتها منسوبة الى تناغمهم في هذه العلوم الجديدة النافعة
دع عنك أوروبا وانظر الى هذه الامة الحقيرة التي يقال لها أمة جابان ؟ أفلا
يرونها كيف ارتقت في مدة لاتتيف على عدة سنين ، لا تعد إلا على أنامل
الآدميين، ارتقاء مبهراً بهرت الانظار، وخطفت لها النواظر والابصار، أفليس انها
لم تستكمل لنفسها مدة خمسين سنة، وكانت تعد من قبل ذلك في الاقوام المتوحشة،
وتستحققها الامم المتمدنة ، وهي اليوم في كل شأن على أعلى مراتب الصعود
والارتقاء، وقد أدهشت الدنيا بأسرها بأعمالها ابدية التي صدرت منها في هذه الازمان
وكل واحد يحترمها كل الاحترام ، وحرمتها مركوزة في طبع كل انسان، فماذا الذى
قلبا عن حالها القديم ، وانعكس أمرها عن شأنها الفاسد القديم ؟ ماذا لك إلا من أجل
تناغمها في العلوم والحكم ، والازهريون على خبرة من حالها، ومنهاج ارتقانها
ومنوالها، وانما الاسف عليهم من أجل انهم لا يقيسون أنفسهم هؤلاء ولا ينظرون
في علل تلك الاشياء ، ولا يفكرون في أسبابها التي أورثتهم الارتفاع ، وأورثتنا
الانحطاط والانخفاض . ولو كان عندم صواب في الرأي وحزم في الروية ومعرفة
صحيحة بالقرآن والاسلام لكانوا يستحيون مما هم فيه ، ولكان كل واحد منهم
مثلكم ومثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده يخرج نفسه من شرك التقليد الذى
أضل الناس كثيراً، ولكان يسلك في منهاج التحقيق الذى هو الصراط المستقيم،
ويضيء فضاء الارض برحبه، وينور العالم الاسلامي بسعته كلها، بمشعلة الاسلام،
ونبراس كلام الله الملك العلام

وليت شعري ماذا الذى علمنا القرآن والاسلام ؟ هل هو بعض هذه الحركات
البدنية ؟ أم نبذ من تلك المراسم الظاهرية ؟ أو مطالب عديدة من مسائل النفاس

والحيض (التي) يعنون بها التعليم الديني لا غير لا مادون ذلك ؟ كلا ولا كرامه ، وحاشاهما عن ذلك ، بل قد دللنا على ما فيه جل الخير وتام النفع في الدين والدنيا وكال الربح في الاخلاق والمدنية ، وعللنا الاصول التي بها نهتدي الى تحصيل تلك العوائد الثمينه والفوائد الغالية ، وأوجبنا علينا اكتساب العلوم الكونية والعقلية بأسرها . ولو كان علماء الازهر مشاركين في آرائهم لمثلكم ومثل محمد بن عبده وينظرون بنظر الامعان في امضا آآكم (١) البديعة الرشيقة التي علمت الدنيا أن الاسلام من بين سائر المذاهب هو المذهب الواحد الذي يرغب الناس ويشوقهم في تحصيل الفوائد الدنيوية ، والعوائد المالية والقومية ، وهو الذي نأخذ العلم والمقل عين الايمان والدين ونفسهما في الاصل ، ولو لم يكن الازهريون يظنون ظناً باطلا ان العلوم الدينية بأسرها منحصرة في الفقه ومقصورة على جزئيات المسائل الفرعية التي لا يعتد ولا يعابها ، واكثر هذه المطالب ليست بمجدبة للعمل في هذه الاعصر والدهور (٢) ولو عرفوا ما في تعليمها من ضياع العمر وتضييع الوقت ذلك ما هو معلوم عند كل ذى حجي وم يزعمون ان الولوع بها مما يشيد بناء الدين - لما رؤي الطلبة الازهريون كما هم اليوم في غايته من الذل والهوان ، ونهايتهم من الصغار والخذلان ، ولو كانوا يعلمون أن العلوم العقابية والكونية عين العلوم الدينية ، لكات كلية كيمبرج واكسفورد لمحمد كلية الازهر وتغبطها غبطة ما كان يحجدها أحد وتخرج منها في عرض عدة سنين رجال كانوا يصعدون بالبلاد الاسلامية ويخلقون بها الى أعلى ذرى الارتقاء ، التي وصت اليها أمة جابان في هذه الاعصر والازمان ، هذا رأيي ورأي سائر الافراد الذين لهم خبرة باحوال الدنيا ووقوف على أخبارها وإلام بتواريحها ، واني لقاطم بصحة هذا الرأي ورأي هؤلاء ممن عداني ان العلماء هم العلة الاصلية لكل هذا الصغار والهوان ، وتام تلك النوبة والخذلان ، وهم موقوفون غداً بين يدي الرحمن ، ومسؤولون من لدنه فليستعدوا للجواب ، فهم الاصل الاصيل لجل هذه الفاسد وكل تلك الشنائع

وأنت يا أخي لا تستطيع وإن جهدت كل جهدك للمحاربة عن علماء الازهر

(١) يعني بهذه الامضاءات مقالات المنار الاصلاحية (٢) يعني مثل أبواب الرقيق

أن تفصل هذا المار عنهم ، وتدفع هذه التبعة والنقيصة منهم ، فانك لا تستطيع أن تكذب الحس والعيان ، ولا ان تدفع الوقائع التي حدثت في الازهر والازمان . أفهذه الكلية التي مضت لبنائها الف سنة ونخرج منها مليون، بل أضعاف مليون طلبة ، ولا يزال يخرج منها كل عام آلاف من هؤلاء الطلبة، أفيجز أن يكون نهج التعليم في هذه الكلية بحيث يتخرج منها طائفة من صعاليك الناس وسائلين في الرقاب يتخذون غذاءهم بالدلة ، وعشاءهم بالمسكنة ، ويبيتون وهم مخدولون بالمسغبة ، او يجدر بها أن ينفر فيها عن طريق التعليم التي يتخرج منها أناس يرتفع بهم منار الدين، ويتقد به نور الاسلام ويعلو قدر المسلمين، ويتهدي بها المسلمون إلي واجب الصمود والارتقاء، ويزيدهم عزة وبهاء ، وبهي لهم ذرائع الاصطفاة والاعتلاء ،

وانما يحزننا أولاً انا نجد المسلمين في أي مصر وأية نقطة من تقاطع الارض كانوا بأسرهم ذاهلين عن استجلاب العلم واكتساب الحكمة ، غافلين عنها غير مكترئين بها، وثانياً انه حيث ما نجد لهم وسائل التحصيل حاضرة، ولو احب الاكتساب متعة، ومناهج التدريس مطروقة متفتحة، وحيثما يوجد لهم كلية قديمة مثل هذه الكلية التي هي أقدم كليات العالم، يكون فيها مثل هذا التعليم الفاسد الضار، الذي تضع فيه الاعمار ، ويضع فيها الفضة والنضار ، ويصطلح الناس فيه على أن يسموا مثل هذا النهج الباطل العاقل العتيق الذي لا ينبعث المسلمون به للنهضة، وينسلب من أجلها مادة التحقيق عن قلوبهم الخاوية ، ويبغض اليهم النظر في العلوم النافعة، يصطلحون على أن يسموه تعليماً دينياً - وعلى أن يسموا الرجل العارف بمسائل شتى من الطلاق والرجعة والنفاس والحيض رجلاً عالماً ولا غير

هذا واني لست بمسهب مقاتلي في هذا الشأن، ولا بمطنب في شكائتي من علماء الزمان، نظراً إلى ما حوت مجلتكم الباهرة الغراء من أحوال هؤلاء العلماء وشؤونهم واخبارهم، فنحن في غنى عن إطالة الكلام عليها، وبمزرل غن إسهاب المقال فيها، وعلى كل حال فان الاحوال الحاضرة للعلماء ومدارسهم ومكاتبهم مما قد تبين واتضح للناس ضررها وققدان نفعها للمسلمين وضوح للشمس في كبد السماء ، وانما بقي

وحزني على ذلك من جهة ان الازهر كان هو المدراس الواحد في الدنيا من قديم
الاعصر والاعوام الذي كان يرجى فيه اصلاح جميع الفاسد المليية والمدنية في
الاسلام ولا غير، ولو تقبل الناس آراء المغني محمد بن عبده وبادروها بالقبول لكننا
تأمل منه خروج المسلمين عن غيابة الدل والنكبة ، ونترقب صعودهم إلى أعلى
فمن الفوز والسعادة ، ونسكن عليكم بعد أن لا تأسوا من روح الله ، وتجدوا كل
الجد في اصلاح المسلمين ، وأحسنوا ان الله لا يضيع أجر المحسنين . وكتب
يوم الخميس ٢٥ خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ١٣٢٣)

وأنا مخلصكم الصفي الوفي

(محسن الملك)

[المؤلف] اني نشرت اصدقي أمير العلماء والمصلحين في الهند مقالته هذه
في السنة التالية ولم أنقشه في شيء منها ، وهو محتج علي بالنار في كثير مما انتقده
علي . ولكنه لم يفهم مرادي من الدفاع عن علماء الازهر في تلك الحادثة بعد
حملاتي الكثيرة عليهم من قبل لأنني لم أقدر أن أبينه البيان التام كما بينته هنا ،
وهو أن الذين هبوا لمقاومة الاصلاح في الازهر لم يكن الباعث على ثورتهم جهلهم
بالحاجة إلى الاصلاح ولا الغيرة على الدين وانما كان الخديو هو الذي سخرهم
واستخدمهم لذلك وروجت له جرائمه هذا الاتهام وهي المؤيد والواء والجوانب
المصرية والظاهر ، وكان هو يظن أنهم هم الذين بعثوا الخديو بل الجأوه الى ما
فعل . وقد كتبت في تلك الاثناء مقالة في حقيقة حال الازهر واصلاحه لم أتمكن
من نشرها ولو رأها النواب رحمه الله تعالى لما اشتبه في شيء من كلامنا الاول ،
فننشر ههنا مقدمتها وهي

حقيقة الازهر^{*}

❦ وإهوام الناس في علمه وتعليمه ، وما عرض حديثاً في محاولة إصلاحه ❦

للناس في وظيفة الازهر وحاله آراء وخواطر مختلفة يقل فيها الصواب . كان الازهر مدرسة كسائر المدارس الاسلامية الكبرى في الشرق والغرب يشغل فيها المسلمون بجميع العلوم التي كانت معروفة في الارض أيام لا علم إلا عليهم ، ولا عمران إلا عمرانهم ، ولا مدنية إلا مدنيهم . ولما فتكت الادواء السياسية والاجتماعية بعمرائهم ضعف فيهم العلم ، ودرست مدارس العراق والانابلس وهما جناحا عمران الاسلام ، وبقيت مدرسة الازهر في القلب او الوسط عضواً اثرياً ليس له وظيفة حية لها أثر في العمران الاسلامي ، ونعني بكونها عضواً اثرياً أنها حفظت بعض التصانيف التي ألفت في آخر عهد حياة العلم ، وكتبنا أخرى كتبت في عهد موته ، نسخ بها كاتبوها المقلدون ، مما أنشأه وسواه المتقدمون .

يظن بعض الناظرين إلى الظواهر أنه لو لم يحفظ الازهر هذه الكتب بمدارسها لدرست رسوم الاسلام ، ونسيت لغته ، وجهات علومه ، إلا بقايا لا يعتد بها في جامع تونس وجامع فاس ، وبعض البلاد التي غلبت عليها العجمة كببلاد الهند والروم ، فللازهر - على رأي هؤلاء - الفضل الاكبر على الاسلام والمسلمين وخاصة العرب منهم . ولو دققوا النظر لرأوا أن فائدة الازهر في هذه القرون الاخيرة فائدة تاريخية لاحيوية ، كما هو شأن الاعضاء الاثرية ، فيها يعرف المؤرخ البصير كيف انحط العلم في المسلمين وإلى أي هوة هبط ؟ وما كل ما يفيد المؤرخ لامة يكون مفيداً لها ، إذ المؤرخ يبحث عن الضار والنافع ، وعن أسباب الترقى وأسباب التبدل والانحطاط .

ان الطريقة التي جرى عليها الازهر في مدرسة بعض كتب الفنون العربية والعلوم الشرعية غير موصلة إلى الغاية التي وضعت لها تلك الفنون والعلوم ، ثم

(١) مقالة كتبناها في وقت الانقلاب لبيان اسبابه تنشر هنا مقدماً فقط

هي عقبة في كل طريقة يمكن أن يشرعها محبو الإصلاح الذين ينكشف لهم قبحها وانحرافها عن جهة الغاية . ذلك ان اهل الازهر جمدوا على التقليد لما يقيمون من عبارات تلك الكتب فلم يعودوا ينظرون في المقاصد والغايات من العلوم ، ولا في كون الغايات موافقة لمصلحة الامة العامة التي هي روح الشريعة ، وقد اتخذهم الناس رؤساء في الدين وظنوا كما ظن بعض الامم قبلهم انه لا يحل للامة إلا ما يحلون ، وانه يحرم عليها كل ما يحرمون ، فخرم المسلمون بهذا الاستفادة من روح الحياة المنبثة في القرآن لان علماءهم حجاب بينهم وبينه ، كما ان تقليد الكتب حجاب بين هؤلاء وبين القرآن . وحرموا أيضا الاستفادة مما وصلت اليه حالة العصر من الارتقاء الصوري والمعنوي ، لان من لاحياة له لا يستفيد من غيره شيئاً . ولذلك ترى المسلمين لم يستفيدوا من الارتقاء الاوربي الذي يحيط بهم فائدة جوهرية تعطيهم حياة حقيقية ، ومثل ما أصابهم منها كمثل الزينة التي تعلق على الجدران ونحوها من الاجسام غير الآلية لا تخاط جوهرها ولا تدخل في كنه حقيقتها ليس ضرر الطريقة الازهرية في التعليم قاصراً على المسلمين بل هو يعم معهم جميع سكان البلاد التي تسير على هذه الطريقة ، لان البلاد التي يتألف أهلها من عناصر كثيرة تكون صفات العنصر الاكبر فيها هي الغالبة ، ويمسر على الاقل فيها أن ينهض بالاكثر ، وعلى الضعيف أن يؤثر في القوي . بل كان الجمود على تلك الطريقة هو الحائل دون اقتباس ما قضت الضرورة على الشرق أن يقتبسه من الغرب ، والسبب في طول العهد على التباعد والتباغض بين شعوب في الاوطان البعيدة والقريبة بل في الوطن الواحد ، فهي طريقة ضارة بأهلها ونارة بجيرانهم وأهل أوطانهم ، ، وضارة بسائر الناس ، لانها عائق عن ارتقاء طائفة من أبناء الانسان وجعلهم فتنة لآخوتهم ، وعقبة في طريقهم

وجد في مصر وفي غيرها أفراد من اهل العلم والفهم نشأوا على الطريقة الازهرية ، ويظن من لم يعرف تاريخهم أن هذه الطريقة على وعورتها قد توصل إلى غاية صحيحة ، ولكن من يعرف تاريخهم يعرف ان ذكاهم الفطري قد هدام إلى طريقة أخرى في التحصيل بواسطة أخرى أصابوها بسعي او بغير سعي ، على

انه لم ينهض من هؤلاء أحد إلى مرتبة المصلحين إلا عالمنا الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد ، فقد كان هذا الرجل ممن نشأ في الأزهر غرباً عن أهله ، وكان له واسطة غربية لمعرفة الطريقة المثلى للعلم ، فنبح في بلاده ، وكل بالسياحة في افريقية وآسية واوربة ، وعرف أحوال الامم الحاضرة ، وتاريخ الامم الغابرة ، ثم سمت به همته إلى السعي في إصلاح الأزهر ، معتمداً ان اصلاحه خير اصلاح لحال المسلمين الدينية والدنيوية ، ولاصلاح كل من يساكنهم في بلادهم بالتبع لهم ، وأنه خير وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب ، وخير صلة بين المدنية القديمة ، والمدنية الجديدة ، لانه علم ان السبب في التقاطع بين اوربة والمسلمين هو جهل الاوربيين بحقيقة الاسلام ، وعجز المسلمين عن افهامهم تلك الحقيقة ، لانهم غير متحققين بها لاعلماء ولا عملاء ولا تخلفاء ، ثم جهل المسلمين بحقيقة مدنية أوربا وبكيفية ارتقائهم العلمي والاجتماعي . ولو صلح حال التعليم في الأزهر لذب المسلمون إلى طلب العلوم الصحيحة ، والمدنية العزيزة ، كما هبوا لذلك في اول نشأتهم ، فأحيوا ما امانته الزمان من علوم الهندو واليونان ، ، فلا يجدون امامهم إلا اوربة وعلومها الحية ، ويفهمونها انهم خير عون لهم على تكميل مدنيتهم ، فيتعارفون ولا يفتنوا . وإذا عارضت السياسة تعارفهم ، فانه يسهل عليهم من إزالة معارضتها مع التعارف والعلم ، مالا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل

كان هذا الرجل سعى في بث شيء من الإصلاح في الأزهر على عهد الخديو السابق (توفيق باشا) . رأى من جهود اهل المكان مالا يمكن معه العمل إلا بمساعدة منه ، ولم يجد عنده ارجحية لذلك وانما وجد اشد المعارضة . ولما ولي الخديو الحالي وهو قد تربى في اوربا وعرف من الحاجة إلى الإصلاح مالم يمر فسلطه ، عرض عليه الشيخ محمد عبده رأيه في إصلاح الأزهر والخروج به عن كونه تكية للفقراء ، وملجأ للكسالى وجعله مدرسة حقيقية تؤدي وظيفتها كما يجب ، فتخرج للبلاد قضاة عادلين ، ومعلمين ماهرين ، ووعاظاً هادين ، يماجون بروح الدين هذه الامراض النفسية التي أفسدت الاخلاق والعقول ، حتى عمت الخرافات ، وفشت الفواحش والمنكرات فصادف من الامير الجديد أذنا واعية ، وهمة سامية ، وعهد اليه الامير أن يضع

المشروع للإصلاح ، فوضع للأزهر قانوناً وجعل له مجلس إدارة يدير فيه نظام التربية والتعليم ، فانفذ الخديو ذلك وخصص الأزهر مبلغاً صالحاً من مال الأوقاف إعانة على الإصلاح ، وراق ذلك لحكومته فخصصت له مبلغاً آخر من خزانة المالية ، وكان صاحب مشروع الإصلاح الشيخ محمد عبده عضواً في مجلس إدارة الأزهر من قبل الحكومة وكذا زميله الشيخ عبدالكريم سلمان وباقي الأعضاء ينتخبون من علماء الأزهر ، وانفرض من هذا أن يكون هذان العضوان دائمين لا يعرض لهما التبدل ، لأن مدار الإصلاح عليهما . فسار العمل بالتدرج الطبيعي اللائق بحال قوم طال الزمان على جمودهم . ولم يكن في الأزهر أحد يعارض الإصلاح عناداً ، وإنما كانوا يطلبون إرجاء بعض المشروعات بحجة وجوب التدرج في العمل بدأ الإصلاح (أولاً) بتحديد مدة الدراسة وكان الرجل يقضي عمره في الأزهر فلا يستل ماذا قرأ ولا ماذا حصل (وثانياً) بالامتحان السنوي لمن يختاره مع مكافأة الناجح بالمال وكانوا لا يمتحنون طالبا لاجل نفسه من كتاب إلى كتاب ولا لغیر ذلك ، وقد ظهرت فائدة هذا الامتحان وكان يكثر عدد الراغبين فيه عاما فعاما (وثالثاً) بإلغاء بعض الكتب الضارة وتقرير بعض الكتب النافعة وقد عقد لذلك عدة لجان برئاسة الشيخ محمد عبده وتقاريره بما تم فيها مطبوعة محفوظة (ورابعاً) بجعل مدة دراسة المقاصد كاللغة والتفسير أطول من مدة دراسة الوسائل كالنحو والصرف ، وقد تقر هذا قولاً ولم ينفذ فعلاً (وخامساً) بزيادة علم الأخلاق وعلم التاريخ وعلم تقويم البلدان وعلم الحساب والجبر والمقابلة في العلوم التي تدرس في الأزهر ، وكل هذا قليل من كثير ، مما يحتاج اليه الأزهر لنهضة المسلمين سار الأزهر بالتدرج على هذه الطريقة بفاية الهدوء والسكينة وبدأت تظهر ثمارها ، وتوجهت نفوس بعض الطلاب إلى التماس علوم أخرى ، ولكن سمو الخديو تغير في أوائل السير على الشيخ محمد عبده الذي يدير بيده الممكن بالاتفاق مع شيخ الأزهر الذي عين بأقراحه الخ

ولا حاجة الى نشر بقية هذه المقالة فقد نشرنا معناها آنفاً قبل أن نعرض
محفوظاتنا على هذه المقالة ولكننا نقفي على هذا بنشر مذكرة بخط الاستاذ الامام

في بيان ما لم ينفذ من مواد قانون الأزهر بما نفخ فيه روح المقاومة والشقاق، وكان يمكن للأستاذ الإمام محاكمة شيخ الأزهر في محكمة الجنایات بامتناعه من تنفيذها وإنما لم يفعل لما ذكرناه قريباً من مذهبه ومشربه في الإصلاح

﴿مذكرة الأستاذ الإمام﴾

في مواد قانون الأزهر التي لم تنفذ

(المادة الثانية من قانون الأزهر)

(شيخ الجامع ينفذ اللوائح وقرارات مجلس الإدارة، ويتخذ الوسائل لتحسين حالة الأزهر وترقية التعليم، وبدير الأعمال بما لا يخالف القوانين وقرارات مجلس الإدارة)

صدرت قرارات من مجلس الإدارة متعلقة بما يجب على مشايخ بعض الأروقة وقرارات متعلقة بالتعليم وأهمها القرار الصادر بتعيين مدرسين يدرسون العلوم على طريقة جديدة عملية توافق أحكام هذا القانون، ورتبت لهم مرتبات مقدارها ستمائة جنيه في السنة من الأوقاف الخيرية، وشرط في ذلك القرار أن من لم يقم منهم بما عهد إليه ينزع منه المرتب ويعطى غيره والعامل على الاختبار، ولكنهم من يوم عيّنوا إلى هذا اليوم لم ينظر في كيفية تدريسهم، وهم في التدريس كغيرهم لم يمتازوا عن بقية المدرسين بشيء سوى أخذ المرتبات، والقرارات المتعلقة بمشايخ الأروقة لم ينفذ منها قرار واحد

(المادة السادسة)

(مجلس الإدارة ينفذ كل ١٥ يوم مرة على الأقل)

لا ينفذ المجلس إلا عند موت شخص لتوزيع مرتبه أو إعطاء كسوته التشريفية لغيره، أو عند شكوى أو مشاجرة أو نحو ذلك، أما بالنظر في حالة التعليم أو في وضع شيء مفيد له فلا ينفذ، غاية الأمر أنه ينفذ في شهر شوال من كل سنة لتوظيف أو نقل معلمي الحساب والجغرافيا والخط لا غير

(المادة الثامنة)

(مجلس الادارة يقترح طريقة توزيع النقود التي ترد إلى الجامع الازهر سواء كان وزودها بصفة دائمية أو مؤقتة)
 ظنت المشيخة ان المراد من ذلك النقود التي تأتي للتوزيع على انها نقود ،
 أما مايرد في شرط الواقفين من النقود التي يشتري بها جرايات فيوزعها الشيخ
 بدون مدخل للمجلس وهكذا جرى العمل مع ان المراد عموم ماينخصص للازهر
 من النقود سواء اشترى به خبز أو وزع نقوداً

(المادة الحادية عشرة)

(مجلس الادارة يوزع العلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة وعلى
 السنين ولا يجوز لاستاذ أن يتعدى مايقدره المجلس)
 لم يشغل مجلس الادارة بتنفيذ هذه المادة قط في العلوم المهود تدريسها في
 الازهر ، وانما الذي وزع ولا يزال يوزع إلى الآن هو بعض العلوم التي أضيفت
 أي الحساب والجغرافيا والجبر لاغير . وبقية العلوم تهمل لايعرف مايدرس أولاً
 ولا آخرأ إلا ما جرت به العادة في قديم . والمادة المذكورة انما وضعت لاصلاح
 القديم لانه ضار ضرراً ظاهراً

(المادة السابعة عشرة)

تتضمن تقسيم العلوم إلى مسائل ومقاصد ، وأضيف فيها علوم الاخلاق الدينية
 والحساب والجبر ، وعدت هذه العلوم الثلاثة الجديدة من العلوم الالزامية التي يمتحن
 فيها الطلاب حتماً عند طلبه الامتحان لنيل شهادة العالمية وجاء في المادة ٦٠ ان
 من مضى عليه أقل من ست سنوات وقت صدور القانون أو من يدخل الازهر
 بعد ذلك يكون امتحانه على حسب هذا القانون
 ومع ذلك لم يلتفت إلى الزام الداخلين بعد صدور القانون بتعلم هذه الفنون
 ولم ينشر ذلك على الذين دخلوا من قبل ومضى عليهم أقل من ست سنوات بل

لم يقتضه إلى ذلك إلا في هذه الايام حيث قدم بعض الطلبة ممن تنطبق عليهم المادة ٦ طلبات الامتحان فرفض طلبهم بناء على أنهم لم يتمموا الحساب والجبر ولكن ذلك بعد فوات الوقت

(المادة التاسعة عشرة)

المعلوم التي يقصد من تعليمها العمل بها كعلوم البلاغة يجب على مدرسيها تمرين الطلبة على تطبيق العلم على العمل
هذه المادة لم يعمل بحرف منها قط

(المادة ٢٠)

يخصص لعلوم المقاصد أوسع أوقات الدروس ولا يصرف في الوسائل من زمن الدراسة مايساوي الزمن الذي يصرف في المقاصد
لا يزال مظم الزمن يصرف في النحو وهو من الوسائل ،وأما المقاصد مثل تفسير القرآن والحديث فلا يصرف فيها إلا الزمن القليل

(المادة ٢٢)

تمنع قراءة الحواشي والتقارير منعا باتا في جميع العلوم في الاربع سنوات الاولى ويكتفى بالتون والشروح الواضحة ، وبعد الاربع السنوات بحرف الطلبة والاساتذة في النظر في الحواشي ،وأما التقارير فتمنع قطعا إلا بقرار من مجلس الادارة حصل اجتهاد مدة سنتين فقط بعد صدور القانون في تنفيذ هذه المادة بجميع المشايخ الذين يدرسون في السنين الاربع الاولى وإلقاء التنبيهات عليهم لمراعاة هذه المادة ولكن لم يقع تفتيش ولا مرة واحدة لينظر هل يعملون بمقتضى التنبيهات أم لا ؟ نعم بعد ذلك أهمل الامر بالكلية والمشايخ يقرءون الآن مايريدون كما كانوا قبل صدور القانون

(المادة ٢٣)

(لا يباح للطلاب أن يشتغل بعلم من علوم المقاصد قبل أن يستحضر من وسائله ما يمكنه من فهمه وعلى كل طالب أن يتلقى أصول مذهبه)

هذه المادة لا يمكن تنفيذها إلا بتفقد حال كل طالب في دروس المقاصد لمعرفة إن كان تلقى من الوسائل ما يؤهله لفهم كتاب من المقاصد أو كان لم يتلق ما يكفي وهذا أمر لم يقع من يوم وضع القانون إلى اليوم ، بل لم يشتغل مجلس الإدارة بتحديد وسائل كل علم ودعوة الطلاب إلى الاخذ بما يقرره

(المادة ٢٤)

أكثر مدة الطالب ١٥ سنة

مقتضى ذلك ان الطالب لا يقيم على انه طالب في الازهر أكثر من ١٥ سنة ويوجد طلبة لهم أربعون سنة فما دون ذلك ولم يلتفت بمجلس الإدارة إلى النظر في تصفية الجامع من هؤلاء البلاء بل منهم من يطلب الامتحان والشيخة لانه إلى طلبه

(المادة ٣٧)

تقضي بان طلبات الامتحان تقدم إلى المشيخة في الشهور الاربعة الاولى من كل سنة ، وانه بعد ذلك يشكل شيخ الجامع لجانا لامتحان الطالبين ومقتضى ذلك أن يتحنم على الشيخ تشكيل اللجان لامتحان جميع الطالبين وإلا فلا معنى لذكر اللجان بصفة الجمع ولا معنى لتحديد مدة الطالب بالشهور الاربعة ، والآن يوجد ما يزيد على خمسمائة طلب من سنين عديدة ولا يتمحن من الطالبين أكثر من ثمانين شخصا في السنة وفي ذلك قبل للطالبين وهضم لقوام يتناول السنين عليهم بلا فائدة

أما المواد ٤٣ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ المتعلقة بكيفية الامتحانات فلم يعمل بها ولا مرة واحدة

وقد كان الشيخ محمد عبده شرع في تطبيقها عند ما عين عضواً في لجنة الامتحان من نحو ست سنوات فلم يقبل المشايخ الجري عليها واستمر العمل على اهمالها إلى اليوم

والحاصل ان هذا القانون قد عدته مشيخة الازهر ومشايخه وطلبته من قبيل الوصايا التي يجوز للشخص أن يعمل بها ويجوز له أن لا يعمل وهم يحبون أن لا يعملوا بالضرورة لعدم تعودهم العمل اه نص المذكرة من هذه المذكرة يعلم أن مشيخة الازهر كانت معادية للنظام حتى مادة جعل جل العناية في الازهر تحصيل علوم الدين المقصودة بالذات وفي مقدمتها التفسير والحديث ، ويعلم منها ان الذين اتهموا الاستاذ الامام بأنه أضف علوم الدين في الازهر من المنافقين الذين يفترون الكذب وهم يعلمون ونعود الى ما كان من تأثير استقالته في العالم مما نشرناه يومئذ في المنار

صدى الحادثة في أوربا

(أو مقاومة النفوذ الفرنسي والانكليزي للاستاذ الامام في الاصلاح)
 (نشرت تحت هذا العنوان ما يأتي في المنار بعد بيان تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في العالم الاسلامي . وقفيت عليه بانتقاده وهو)
 نشرت جريدة اللواء في عدد يوم الخميس (١٣ ربيع الاول) خبرا قالت انه مترجم عن جريدة (الغلوب) الانكليزية بغير تصرف وهذا نصه بغير تصرف :
 « اختلف العلماء من عهد قريب بشأن التعليم في الازهر ، وسبب ذلك ان رئيسهم الشيخ محمد عبده حاول ادخال نظام للتعليم أوسع من النظام الحاضر - الذي وضع من قرون مضت والذي لا يتضمن غير محض تعليم مواد الاجرومية وقليل من بعض العلوم الاخرى - بقصد تكوين قوة جديدة في الاسلام ، ويريد الشيخ محمد عبده السالف الذكر ادخال العلوم الحديثة في بروغرامه الجديد ليستعين بها العلماء على اكتساب أرزاقهم من طرق العمل واجد لا الكسل والتواكل
 « وقد قاومه العلماء في مشروعه هذا مقاومة شديدة واتصل بنا انه قال في حديث له : ان السبب في عدم نجاحه وفشله النهائي راجع إلى محاربة النفوذ الفرنسي والانسائي والانكليزي السياسيين له ، واستشهد بعبارة نشرت في بعض الكتب

السياسية الفرنسية مؤداها ان سواس فرنسا من الحزب الاستعماري لا يقبلون بوجه من الوجوه تنور المغاربة بنور العلم « اهـ
(اقول) ثم علمت بعد نقل هذا عن جريدة اللواء انها تركت من الاصل كلمة أخرى ذكرت جريدة (الغلوب) وهي ان الشيخ محمد عبده قل لمحدثه « فهل يسر الانكليز بتخريجي لهم رجالا مستعدين يفهمون حقوقهم ويعرفون كيف يدافعون عنها بقوة مستمدة من العلم والمعرفة ؟ » وانما ترك اللواء هذه الجملة لانه يسر المسلمين من الشيخ محمد عبده أن يقول هذا في مقاومة الانكليز وسوء الظن فيهم . وما كان صاحب جريدة اللواء يحب أن يسر المسلمون من الاستاذ الامام بشي .

ملاحظة النار او انتقاده على ذلك

(أي على ما نشرته جريدة اللواء)

يعجب المصريون أن يروا في الجرائد الانكليزية من يخطط في المسائل المصرية على غير هدى ، مع وقوف الانكليز هنا على حقائق الامور ، وقد ذكرنا وذكر غيرنا ممن قرأ تلك التبعة في جريدة اللواء ما كان أشيع هنا بعد ترك الشيخ محمد عبده لمجلس ادارة الازهر من ان بعض المصريين الذين لم حظ فيما حدث في الازهر كلّفوا أحد مكاتبي الجرائد الانكليزية أن يكتب لجريدته التي يكتبها شيئاً يفيد معنى ما كتب في بعض الجرائد المصرية التي لها هوى في الحادثة من أن جميع علماء الازهر مضادون للشيخ محمد عبده فيما يريد من اصلاح التعليم وزيادة العلوم في الازهر ، ويتضمن شيئاً آخر يفيد مخطط الانكليز على الشيخ وأتذكر ان بعض الجرائد الاسبوعية في مصر كتبت شيئاً عن هذه الاشاعة وقالت ان ذلك سيكتب ثم ينقل في بعض الجرائد المصرية اليومية

مالنا ولما أشيع في سبب الكتابة ولما قيل في مصدرها ؟ انما نحن أمام قول يتضمن خبرين (أحدهما) ان علماء الازهر كارهون ومقاومون لما يريد الشيخ محمد عبده من النظام وتوسيع دائرة العلم في الازهر ، وقد بينا في كلامنا على رسالة « محسن الملك » ان هذا غير صحيح ، وان علماء الازهر برآء مما يرمون به من

الغلو في بغض العلم والنظام ، والجهل بما يعلي شأن الاسلام ، و(ثانيها) ان الشيخ يقول انه لم يخفق فيما حاول من اصلاح الازهر إلا بمقاومة النفوذ الفرنسي والانكليزي له ، لان ترقية المسلمين تناقض مصلحتهما في استعمار بلادهم . ونقول ان هذا النقل عن الشيخ غير صحيح ، وإن كان أكثر المسلمين يعتقد صحة علته المذكورة . ولا يعقل أن يقول الشيخ ذلك لان فرنسا لا تنفذ لها في الازهر ولا في مصر فتقاوم ولان الانكليز لم يقاوموه لما هم عليه من الحرية وعدم التعرض للمصالح الدينية . على ان المصريين الذين لم يقدروا حرية الانكليز حق قدرها ولم يعلموا انها تمثلت مع الفضيلة في اللورد كرومر في أبهى صورها ، يتمتعون من عدم مقاومة الانكليز لاصلاح الازهر في السنين الماضية ، ويظنون ان لم بدأ في المقاومة الآن . وأما الشيخ محمد عبده فقد سمعنا غير مرة يقول : انه ما قصد إلى خدمة المسلمين في شيء . واني مقاومة فيه من غيرهم لان انكليزي ولا من افروني ولا من قبلي ولا من شامي . ولا غرو فان جهل المسلمين وتأخذه في هذا العصر كافيان لاجباط كل سعي لترقية شأنهم ، لا يحتاجون إلى مساعد في ذلك ، ومن يسعى بعقل لا يقاومه العقلاء هذه فرنسا التي كان منهجها في مقاومة تعلم المسلمين في الجزائر أسوأ مما عرفنا . قد أنشأت ترجع الى منهج الانكليز في اتساعه وقد تكلم الشيخ محمد عبده مع رجالها في تونس والجزائر في مساعدة المسلمين على التعليم فوجد منهم ارتياحاً الى ذلك وقد نشرت جريدة الطان من عهد قريب مقالة في الاحتفال بمدرسة الجمعية الخلدونية ذكرت فيها ان مصدر هذه الحركة العلمية في تونس هو الشيخ محمد عبده وبعض المجلات العلمية المصرية التي تبحث المسلمين على اجمع بين علوم الدنيا والدين وترد فيها رأي الذين يظنون أن تعليم النساء يضر بفرنسا لان هؤلاء المتعلمين يكونون دعاة لاستقلال البلاد وقيامهم على المستعمرين لها ، وترجت الازهار . مقالة الطان فسر بها المسلمون هنا . اهـ

والمراد ببعض المجلات العلمية المتأخرة وقد نشرنا فيه مقالا طويلا مترجماً عن جريدة الطان لا محل لبسطه هنا ، ولكننا نقول مع الاسف إن ما أظهره بعض رجال فرنسة للاستاذ الامام في الجزائر من ميلهم الى اعطاء المسلمين ما يجب من حرية العلم والدين لم يصبح فكان إما خداعاً وإما رأياً شخصياً ممن أبداه له هنالك

استطرد

في بيان حال الازهر في عهد الشيخ عبد الرحمن الشرييني

قد ظهر للناس عجز الاستاذ الاكبر، الشيخ عبد الرحمن الشرييني عن إدارة الازهر، فلم يستطع أن يعمل فيه عملاً، ولا أن يحقق لسمو الخديو وقدماء الشيوخ الجامدين أملاً، ولا أن يسير كما أراد الشيخ الظواهري سيراً يكون فيه [بين بين] أو مذبذباً

وقد لحقت حالته في هذا الطور الاخير في ورقة واحدة جعلتها مقدمة لمقالة النواب محسن الملك قلت فيها بعد خبر تعيين الشيخ الشرييني وما بني عليه مما ذكره الخديو في خطبته مانصه (ج ٩٩ م ٩ في رمضان سنة ١٣٢٤)

« كان مدار ذلك الكلام على ان كل ما يهيم الامير وحكومته من الازهر أن يكون في أمان وهدوء وبعد عن الشغب والقلق، وأن يظل مدرسة دينية كما كان، وربما كانوا يظنون أن سكون الازهر وراحة أهله ورضاء كبار شيوخه عن الامير وإخلاصهم له هو مما ينتج من جعل الشرييني شيخاً للازهر لانه في مقدمة العلماء الازهريين الذين يرون وجوب بقاء الازهر على حاله التي كان عليها في زمن تعلمهم فيه، ويتوقف هذا على ترك الشيخ محمد عبده له وهو هو الذي يريد تغيير نظام التعليم وزيادة العلوم والفنون فيه، والى كنه جاء الامر على نقض ما كان يظن أولئك الظانون. فاستاء محبو الاصلاح من اهل الازهر اترك الاستاذ الامام لإدارته كما استاء عقلاء المسلمين في كل مكان

« وأما المحافظون على الحالة المتبعة فقد رأيناهم على عهد الشيخ الشرييني أشد استياء من إدارة الازهر منهم على عهد من سبقه. كما أشرنا إلى ذلك في العدد الماضي وكثر في هذا كلام الناس وكتابة الجرائد بالشكوى من حال الازهر والظعن في علمائه حتى ان بعض الافندية كتب في بعض الجرائد اليومية بقول في جهل علماء الازهر وفقد الثقة بهم مامعناه: ان الناس لا يقصدون في حل مشكلات الدين والدفاع عنه إلا بعض حملة الطرايش، وفي ذلك هضم لغير الازهريين من حملة العلم كآساتذة المدارس الاميرية وغيرهم » اهـ

وكتبنا قبله في آخر الجزء الثامن من المجلد (شهر شعبان سنة ١٣٢٤) مانصه :
 « كثر الخوض منذ سنة في الازهر ومشيخته ومجلس إدارته ، وكتب في
 الجرائد بعض مايتحدث الناس به من الخلل في الادارة ، والمحابة في الامتحان
 وشهادة العالمية ، وبيع الشهادات بالدراهم ، وما بين شيخ الازهر ومفتي الديار
 المصرية من المغاضبة والمناصبية . وما أشيع ان الفتى شكاً شيخ الجامع إلى رئيس
 النظار وإلى السيد البدوي (!!) وقد بلغنا أن شيخ الجمع ضاق صدره فاستقال ،
 وانه سيقال بعد أن يعين الشيخ محمد شاكر وكيلاً للازهر تمهيداً لعمله أصيلاً بعد
 استشارة الامير لحكومته في ذلك ، وسنعود إلى ما نراه نافعاً من الكلام عن
 الازهر في الجزء الآتي اه

ثم كتبنا في آخر الجزء التاسع منه ما نصه :

« ذكرنا في الجزء الماضي ما كان بلغنا من استقالة شيخ الازهر وعزم الامير
 على تعيين الشيخ محمد شاكر وكيلاً للازهر تمهيداً لعمله أصيلاً ، وقد تحقق ذلك
 . ولكن استقالة شيخ الازهر حفظت وحمل على طلب اجازة ثلاثة أشهر ، وعين
 الشيخ محمد شاكر وكيلاً لمشيخة الازهر ، فعظم ذلك على أهل الازهر واستنكره
 كبراء الشيوخ واستكبروا أن يكونوا من وسين له على حدائمه في السن والعلم .
 وانتهى الامر إلى الحكومة أولاً إلى أولي الامر ، فخطبوا الامير في ذلك ، وتقرر أن
 الشيخ شاكر لا يكون شيخاً للازهر ولا وكيلاً ، وقد سمي الآن نائباً ، وقد زاد
 الشغب والاضطراب في الازهر في أيام نيابته ، على امداد الامير إياه بنفوذه ،
 ويتوقع أن ينتهي هذا التلاعب في الازهر بعمله تحت مراقبة نظارة المعارف إذ
 لا قرار إلا مع السلطة الثابتة المنتظمة ، ولعلنا نتكلم عن اصلاحه في جزء آخر اه
 وأقول الآن : ان هذه الكلمة الاخيرة كانت انذاراً للخذيو ، سببه أن بعض
 الناس كانوا يسعون إلى هذا كما سمعوا من قبل ، ولكن الانكليز لم يرضوا بذلك ،
 وقد بلغنا أن بعض المصريين المتعاقبين لهم قول لمستر دنلوب مستشار المعارف :
 لماذا لا تصاحبون لنا الازهر كما أصلحتم وزارة المعارف ؟ فقال له المستشار : إن

٧٠ - تاريخ الاستاذ الامام ج ١

الازهر بناء متداع للسقوط من طبعه ولا بد من سقوطه ، فاذا وضعنا يدا فيه
قال الناس اننا نحن الذين أسقطناه

نم كتبنا في آخر الجزء العاشر منه - شوال سنة ١٣٢٤ ما نصه :

ألفت ادارة الازهر ثلاث لجان أو أربعة لامتحان الذين أنموا مدة الدراسة
وهم كثيرون جداً . فامتنع كثيرون من كبراء الشيوخ أن يكونوا من أعضائها
لان الشيخ شاكر نائب شيخ الازهر هو المؤلف لها والقيب عليها ، فكان
أكثر أعضائها من غير المشهورين ، وفيهم من صاروا مدرسين من عهد قريب ،
ولكن هذه اللجان قامت بالامتحان بنظام واهتمام . وقد رأينا الازهر بين المنصفين
يفضلون نظام هذا الامتحان على ما كان قبله ، ولم نسمع الآن ما كنا نسمع في
السنة الماضية (الدراسية) من أخبار المحاباة والرشوة . والفضل في ذلك لمراقبة
الشيخ شاكر ويقظته ، فله الشكر والثناء الحسن . ولعل ماسمعناه من أخبار التساهل
واعطاء الدرجات لافراد لا يستحقونها مبالغ فيه ، ولعل الشيخ شاكر أعنى بتحقيق
الحق في ذلك » اهـ

بعد هذا قبل الامير استقالة الشيخ عبد الرحمن الشريفي وولى مكانه الشيخ
حسونة للمرة الثانية برضاء حكومته . وعلى يده نفذ مشروع مدرسة القضاء
الشرعي . وقد كتبت في الجزء الاول من مجلد المنار العاشر الذي صدر في
الحرم سنة ١٣٢٧ المقالة التالية :

نحرم من الله وفتح قريب

(الازهر ومدرسة القضاء الشرعي)

قال الاستاذ بالامام عليه رضوان الله تعالى « يستحيل بقاء الازهر على حاله
فاما أن يصلح واما أن يسقط » وكان أكرم الله مشواه باذلال عناية في اصلاحه
حذراً من سقوطه وحرمان المسلمين مما يرجى باصلاحه ، و كان أقدر من عرفنا
من الناس على هذا الاصلاح نوسائله ومقاصده ، وأحكمهم في تنفيذه ، الا انه أخطأ

في امر واحد لولاه لم له ما أراد من الاصلاح وهو فوق ما طلب منه . ذلك الامر هو محاولة اصلاحه برضى كبراء شيوخه واستمالهم فيه بالاقناع دون السلطة الا مابدأ به من وضع قانون لادارته ، والسعي في اصدار إرادة من الامير به ، بناء على قرار من مجلس النظار لعله أن العمل بدون ذلك متعذر ، ولا محل لشرح ذلك هنا ، بل موضعه الجزء الاول من تاريخه الذي نعتني بطبعه الآن وانما يريد أن نبين انه كان يحاول تنفيذ هذا القانون بدون استعانة بسلطة التنفيذ في البلد بل بمجرد اقناع شيخ الازهر وأعضاء الادارة

كان الشيخ حسونه النواوي اول من ولي المشيخة واختير للمعمل بهذا القانون مع المرحوم وسائر من اختيروا للادارة ، وكان المرحوم هو الذي اختاره وسعى لدى الامير بتعيينه وكيلًا للشيخ الانبائي المرحوم ثم أصيلا . وقد استعان على هذا ببعض صدقاته كالمرحوم امين باشا فكري . ذلك انه كان يعتد ان الشيخ حسونة أميل الشيوخ وأرجاهم لقبول الاصلاح . علمت ذلك منه اول مقدمي مصر سنة ١٣١٥ اذ قالت له : سمعت من بعض مجاوري الازهر الطرابلسيين ان شيوخ الازهر قد امتنعوا من جعل الشيخ حسونة شيخا للازهر لانهم لا يصدقونه من كبار العلماء ، فقال ان كانوا يعنون بذلك انه لا يقدر على ايراد الاحتمالات الكثيرة في مثل عبارة جمع الجوامع ، فهذا صحيح ، ولكن هذه الاحتمالات التي يوردونها ليست من العلم في شيء ، والشيخ حسونة أمثلهم . وقد دلت التجارب على صدق هذا القول — ولا ننسى فضل المرحوم السيد علي البيلوي الذي ظهر من فضله فوق ما كان يظن فيه — فان ما جرى على يد الشيخ حسونة أولا وآخرآ لم يجر على يد غيره مثله

نعم كان الشيخ حسونة برحيم بعض ما يقترح المرحوم ، عملا بالتدريج عن رأي واعتقاده ، ولكنه لم يكن يقرر الشيء ولا ينفذه كما فعل من جاءوا بعده ماعدا البيلوي ، وقد تقلب على الازهر في هذه المدة عدة شيوخ كان أشهرهم في علوم الازهر أهدم عن الاصلاح . فالشيخ سليم البشري من — أشهرهم — لم يجر على يده شيء من الاصلاح بل كان معارضا لكل شيء ، فأرضى أمثاله من المحافظين

على القديم وأغضب طلاب الجديد ، والشيخ عبد الرحمن الشريفي أشهرهم على الإطلاق وهو لم يفعل شيئاً ولم يرض طائفة من الطائفتين

قلت للاستاذ الامام مرة : ان قرار مجلس ادارة الازهر هو كقرار كل مجلس رسمي وكل محكمة يطالب القانون بتنفيذه ويماقب على تركه ، فلماذا لا تطالب بتنفيذ هذه القرارات الكثيرة التي يمتنع شيخ الازهر من تنفيذها بصفة رسمية ، فلو فعلت هذا مرة واحدة لنفذ كل قرار (١) فقال : ان هذا لا يكون إلا بسلطة الحكومة وانني أرجو أن لأدع الحكومة تتدخل في الازهر مادمت فيه فكيف أكون أنا الذي يدعواها الى ذلك ؟ فنحن ندعو الشيوخ بالاعتناء بمصير البصير وكان يكره أن يكون « للمعية » أصيب في الازهر كما يكره أن يكون للحكومة يد فيه ، لاعتقاده ان خير الإصلاح في العلم والدين ما كان بعيداً عن السياسة ناشئاً عن اقتناع العلماء به واستقلالهم فيه ، ولكن « المعية » ولعت بالازهر ولوعا كاد يكون عشقا وغراما ، ولما رأيت أن تمتعها بهذا المعشوق لا يتم مع وجود هذا العذول الرقيب ، طفقت تماهضه حتى كان ما كان من أمر استقالته من ادارة لازهر ، وكان ما كان بعده من الخلل في هذا المكان ، حتى أدى ذلك إلى اقامة نائب عن شيخه الشريفي بدير الامر من دونه عدة أشهر ، ثم إلى استقالته واعادة الشيخ حسونه إلى المشيخة ، وعلى يد الشيخ حسونة تم مشروع مدرسة القضاء الشرعي وصدر به الامر العالي فصدق قول المرحوم فيه « انه أملهم » في حياته وبعده

مما كان ينويه المرحوم الامام من اصلاح الازهر انشاء قسم قضائي فيه يشرح فيه الطلاب لمنصب القضاء ، زاده حرصا عليه اقتراح المستر سكوت المستشار القضائي الاول اصلاح المحاكم الشرعية وجواز جعل المتخرجين في مدرسة الحقوق الخديوية قضاة شرعيين . ولم أر الاستاذ مهتما في مقاومة شيء كاهتمامه في حمل الحكومة على الاغضاء عن جعل متخرجي الحقوق قضاة للشرع ، سعى في ذلك وحاول اقتناع كبراء الشيوخ بأن يسعوا معه فلم يبر منهم مبالاة فكان يتململ ويقول إذا نفذ

(١) هذا السؤال وجوابه هو عين ما كان قاله لي في شأن الشيخ سليم كما تقدم حاولت بعد مدة أن أقنع بهذه الشدة فرأيت رأيه لم يتغير

هذا المشروع قضي على الأزهر . وقد نجح سعيه فلم ينفذ

وعند ما حاولت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية للمحكمة الشرعية العليا بمصر ولم يتم ذلك قوي عزمه وظن أن الفرصة سنحت لإنشاء القسم القضائي وقد فتحنا كوة للبحث في ذلك ، إذ أنشأنا مقالة في النار الذي صدر في ذي الحجة سنة ١٣١٦ تقترح فيه إنشاء هذا القسم القضائي ، ولكن حال دون إنشائه عزل الشيخ حسونة من المشيخة وتولية الشيخ عبد الرحمن القطب في ٢٤ المحرم سنة ١٣١٧ ولم يلبث هذا أن توفي بعد شهر من توليته ، وولي الشيخ سليم البشري الذي وقف في عهده سير الإصلاح ، وكان من أمر « العمية » من أول عهده إلى الآن ما أشرنا إليه آنفاً ، إلى أن انتهى باستقالة المصلح العظيم من إدارة الأزهر ، وبهذا انقطع رجاء الحكومة من إصلاح حال القضاة الشرعيين الذين ضجت منهم الامة طالبة لسان الجمعية العمومية ، ولسان مجلس الشورى إصلاح المحاكم الشرعية ، فمهدت اليه بوضع مشروع إنشاء مدرسة قضائية يتولى هو بنفسه أمرها ، وكان هذا المشروع آخر عمل إصلاحى عمله ، إذ تم في أوائل مرض الموت ، وما كان يؤمله من هذا المشروع إلا انفصاله عن الأزهر ، وقصارى ما أمكنه من وصله به جملة تحت نظر مفتي الديار المصرية دائماً ، وكان للحكومة معه وقفة في هذه المسألة

تبارك ناصر المحللين ، أحياء وميتين ، فقد قضت حكمته عز وجل أن يقوم بتنفيذ المشروع وبجعله أشد صلة بالأزهر سعد باشا زغلول ناظر المعارف لهذا العهد ، ولا يجهل أحد من المصريين من هو سعد باشا من الاستاذ الامام ، وان يكون ذلك في عهد مشيخة الشيخ حسونة ، وبعد موافقته عليه وجعله تحت نظره ، وقد علم القراء اعتقاد المرحوم في الشيخ حسونة وما كان من نيته في أيام مشيخته الأولى . اهـ

ما أنظره الاستاذ الامام في إدارة الأزهر

قلت في أول هذه المقالة انه أخطأ في اعتماده على اقناع علماء الأزهر بالإصلاح وذكرت في أثنائها انه كان يجب عليه التنفيذ بقوة القانون ولو أفضى إلى تدخل الحكومة . وسأذكر في الفصل التالي رأي خليل باشا حمادة وانه لو قبله لثم له ما أرادته ولكن صده عن هذا دينه وعما قبله وطنيته

الوسائل الخديوية للانتقام من المفتي

قد توسل سمو الخديو بكل ما يقدر من الوسائل للانتقام من الاستاذ الامام وعزله من منصب الافتاء ومن إدارة الازهر ، وكل منها يتوقف على موافقة مجلس نظار الحكومة ، وموافقة المجلس يتوقف على موافقة مستشار المالية والعميد البريطاني من فوقه ، وكان من أسخف التدبير لاقناع لورد كرومر بذلك انهم لفتقوا صورة شمسية له مع جماعة أو أسرة من الرجال والنساء ونشروها في جريدة الحارة الهزلية مع طعن في المفتي بأنه يجالس نساء الافرنج وذلك بعد إزراء بمنصبه الديني . وقد أرسلوا هذه الصورة الى لورد كرومر مع رجل أراد إقناعه بأن هذا يعد إزراء بمنصبه في عرف المسلمين وبنبغي خروجه منه مراعاة لشعورهم ... فتبسم اللورد سخرية من هذه السخافة وقال : ان هذه الصورة لا يثبت لها عندى أصل ولكن الاستاذ يزورنا هنا وتحضر مجلسه لادي كرومر وغير هامن عقائلنا ، فهل يصح ان نعد هذا إهانة له أو لنا ؟ أم يصح أن نهتم بشعور المتعصبين الجهلاء ونبني عليه عملاً مهماً كهذا ؟

والذي اشتهر أن تلك الصورة ملفقة أخذت عن صورة منفردة للمفتي وضعت بجانبها تلك الصور فكان المأخوذ عنهما كأنه مأخوذ عن أصل واحد . وقد نظم الاستاذ ابراهيم بك اللقاني المحامي الشهير والاديب الكبير أياتاً في ذلك قال فيها :

مكيدة لفقوها بصورة مستعارة

ودبروها وكانوا بقبة الاستشارة

ولطخوا بعد هذا بالطين وجه الحارة

يعني بقبة الاستشارة سراي القبة محل إقامة الخديو . وبتلطبخ وجه الحارة بالطين وهو مثل ما أعقب نشر جريدة الحارة للصورة وطعنها من محاكمة النيابة لصاحبها والحكم عليه بالسجن

ومن هذه الوسائل مسألة منم الحج اتقاء للوباء فقد ابتكر هذه الوسيلة سموه وعرضها على لورد كرومر مباشرة ، بأن قال له إنه يمكن ذلك بأجازة العلماء

وإفنائهم، وهو يعلم أن الحكومة لا تعمل إلا بفتوى المفتي الرسمي فإن هو أفتى أقام عليه قيامه العلماء والجراند، وأسقط قيمته عند الأمة كلها، وإن لم يفت اسخط الإنكليز ذكر اللورد ذلك لرئيس النظار، وهذا أخبر به المفتي وسأله عن رأيه فيه فظن لمراد الخديو فرد مكيدته عليه ووضعها في عنقه بأن قال لرئيس النظار: إنه ليس لذلك إلا طريقة واحدة وهي أن يقول أمير البلاد وولي أمرها الشرعي إنه قد ثبت عنده أن السفر إلى الحجاز في هذه السنة موقع للحجاج في خطر وتملكة لحية فحينئذ يفتيه العلماء بأن له منهم من القاء أنفسهم في التهلكة مادامت معلومة ثابتة عنده. قال له الرئيس وهل يكفي ثبوت هذا عند الحكومة؟ قال المفتي: لا بد أن يثبت هذا عند ولي الأمر النائب عن السلطان وتكون مسؤوليته عليه وحده. والاستاذ يعلم أن الخديو لا يقبل حمل هذه المسؤولية ففشلت الدسياسة ويشبه هذه المسألة ما جرى بيني وبين سموه في أثناء انكسار الجيوش البريطانية في حرب الترانسفال، قابلت سموه في قصر القبة وقلت له: إنه خطر في بالي أنه يمكن لأفندينا في هذه الأيام أن يسمى لجلاء جيش الاحتلال عن مصر بأسلوب ودي يمكن أن يرضي الإنكليز، وهو أن يقول أفندينا للعميد الإنكليزي: إذا كنتم في حاجة إلى إرسال من لديكم من جيش الاحتلال عندنا إلى الترانسفال فيمكنكم ذلك بمقتضى اتفاق معنا ترضونه لتأمين مصالحكم في مصر بدون وجود هذا الجيش، بل إذا شئتم أخذ جيش متطوع من المصريين لمساعدتكم فانتا تقبل ذلك... أو ما يستحسنه أفندينا من الأسلوب بعد استشارة من يثق بهم من رجاله لا غشام هذه الفرصة للاتفاق مع الإنكليز الخ

فتهل وجه سموه، وقال هيه! وما هو رأي الشيخ محمد في هذا؟ قلت له: انني لم أذكر هذا له وإنما هو رأي خطر في بالي فرأيت أنه يجب علي عرضه على صاحب البلاد. قال طيب. إذ ذهب من هنا إلى عين شمس واذكره للشيخ ثم ارجع إلي فأخبرني برأيه فيه

فذهبت إلى دار الاستاذ الاسام وتقصصت عليه القصة فقال: أتدري لماذا

أرسلك إلي ؟ إنما أرسلك لاجل أن يقول للورد كرومر إذا وافقت على هذا الرأيه ان الشيخ محمد عبده يعزبني بان أغتنم هذه الفرصة لطرد الجيش الانكليزي من البلاد ... قلت انه ينتظرني لاجل له جوابك فماذا اقول له ؟ قال قل له ان هذه مسألة مهمة يجب على أفندينا أن يتفكر فيها كثيراً قبل أن يبرم فيها رأياً ومن تلك الوسائل مسألة صندوق التوفير الذي أرادت الحكومة إنشاءه في مصلحة البريد فسألت المفتي عن وجه شرعي له فقال يمكن اتخاذ طريقة شرعية لانتفاع الفقراء بما تريد الحكومة ان تعطيهم إياه في مقابلة توفير نقودهم في صندوق البريد . ولما ذكر ذلك لسموه قل بل انا الذي أتولى هذا الامر وبيان الطريقة الشرعية مع العلماء ، وطلب جماعة من علماء المذاهب إلى قصر القبة وذكر لهم المسألة وكان يظن أنهم يتفقون على ان ما اشار به المفتي مخالف للشرع ومبيح للربا ، فخاب الظن وكان رأيهم عيز رأي المفتي ، فلما بلغ ذلك الحكومة فطنت لمراد سموه واما الوسيلة الكبرى فقد كانت الفتوى الترانسفالية المشهورة فهذه هي التي أقاموا لها القيامة ، وقالوا إن المفتي احل ما حرم الله من اكل الموقوذة . وأرادوا استفتاء شيخ الاسلام في الآستانة او استفتوه بالفعل ليحتجوا بفتواه على بطلان فتوى مفتي الديار المصرية فلم يفتهم . وسنبت الكلام على هذه المسألة في المقصد الآتي وهو عمل الاستاذ الامام في منصب الافتاء وفي أثناء ذلك رفعت تقارير إلى السلطان عبد الحميد بالظمن في مفتي مصر ورميه بعداوة الخليفة والسعي لخلعه ، وقابل ذلك آخرون بتقارير في الظمن في سمو الخديو وإثبات انه هو القائم بما يتهم به المفتي بل هو يطمع في منصب الخلافة والمفتي هو الذي يعارضه وحده . ومن أدلة ذلك أنهم اقبوه في مجلس شورى القوانين بصاحب الجلالة فاعترض المفتي الشيخ محمد عبده على ذلك وأمر كاتب المجلس بشطب لقب صاحب الجلالة ووضع لقب الجناح العالي في موضعه ، وقد اشتهر ذلك ونشر في الجرائد . وكذلك فعل أحد الخطباء في خطبة الجمعة على مسمع من سموه ولم يعترض على ذلك إلا المفتي وقد اطلعنا على تقرير رفعه الى المايين سعادة يوسف باشا طلعت صاحب جريدة الراوي نذكر هنا اهم مواده الخاصة بهذه الدسائس وما في معناها وهي :

مواد التقرير الذي رفعه إلى المايين الهمايوني

صاحب السعادة يوسف طلعت باشا صاحب جريدة الراوي اليومية

(البند الاول) ان الخديو يحاول أن يجعل الازهر آلة سياسية دينية يهدد بها مولانا السلطان وغيره لقضاء مآربه وهو متمكن من التأثير على مشايخه البسطاء وليسكن وجود المفتي في الازهر يحول دون غرضه فانه رجل قوي العزيمة ويعتقد أن استعمال رجال الدين في السياسة يضر بالاسلام والمسلمين ، ويعتقد أن المحتلين يتدخلون في كل شيء يتداخل الخديو فيه ، فيخاف أن تمتد أيديهم إلى الازهر فهو يقاوم ذلك وله حزب في الازهر يؤيده حتى ان شيخ الازهر الحالي على رأيه .

(البند الثاني) ان الخديو يستعين على استمالة المشايخ والتأثير عليهم بمال الاوقاف العمومية والخصوصية . والمفتي يعاكسه في ذلك بما له من النفوذ في مجلس الاوقاف الاعلى . وطريق الاستمالة هو أن ماهيات المدرسين والخطباء كلها من الاوقاف ، هذا فضلا عن العطايا الخصوصية السرية ، ويدل على هذا البند وما قبله البنود الآتية .

(البند الثالث) وضع المفتي مشروعاً في الاوقاف يسبي مشروع المساجد اقترح فيه أن يكون جميع الخطباء من المدرسين في الازهر ، وأن تكون ماهياتهم معينة مقررة ، وكذلك رواتب المدرسين والوعاظ لكي يقوموا باداء وظائفهم على الوجه النافع ، ولا يكون لاحد سلطة عليهم ولا تأثير لئلا يفرضهم بشي سياسي كما أغرى بعضهم بترك اسم السلطان في الخطبة غير مرة . وقد رضي الخديو من مشروع المفتي أن يكون الخطباء من المدرسين ، ولكنه عارض أشد المعارضة في أن تكون ماهيات الخطباء والمدرسين مقررة لتكون في يده دائماً .

(البند الرابع) لما كانت الخاصة الخديوية عقدت اتفاقاً مع الخواجه يبساكي الروحي وشركاه لاستخراج معادن طشوز ومنعت الدولة العلية الشركة من ذلك عاد يبساكي إلى مصر وأراد دفع قضية على الخاصة الخديوية يطالبها فيه بالتعويض المالي فأمر الخديو فيضي باشا مدير الاوقاف العمومية يومئذ بصرف سبعة عشر ألف

جنبيه إلى يساكي حتى لا يرفع القضية فدفعها المدير بدون استشارة المجلس الاعلى فعارض المفتي في ذلك واحتج عليه ، وأخيراً قرر عدم المسؤولية على فيضي باشا لانه مأمور من الناظر الحقبقي على الاوقاف وهو الخديو ، وعلى ان هذا هو المستول وحده .

(البند الخامس) لما أرسل الخديو المهندسين الى طشيوز لفتح الطرق للجبال والغابات أمر لهم بستائة جنية من الاوقاف فصرفت بدون اذن المجلس الاعلى فاحتج المفتي على ذلك كالذي قبله . وكان هذا وذلك سببا في فصل الاوقاف الخصوصية عن الاوقاف العمومية . وإيراد هذه الاوقاف يزيد على خمسة وثلاثين ألف جنية في السنة يصرف عليها منها نحو سبعة آلاف جنية ويستعين بالباقي على مقاصده وهذا ماعدا وقف خليل أغا العظيم الايراد الذي ضمه أخيراً

(البند السادس) انه أراد من مدة قريبة أن يربح من الاوقاف العمومية مبلغا عظيما فاتفق مع الخواجه زرفوداكي الرومي على أن يكون هذا واسطة استبدال أبنية للخديو اسمها مشتهر تبلغ نحو ١٢٤٧ فدانا بارض للاوقاف في الجزيرة تبلغ ١١٢ فدانا ونصف قرر المجلس الاعلى أن تباع للمباني وذلك بان يمرض زرفوداكي أرض مشتهر على ديوان الاوقاف بسعر ١٣٠ جنيتها في الفدان وأن يحسب سعر الفدان من أرض الاوقاف بمبلغ ١٢٥٠ جنيتها ثمن الفدان ليكون ربح الخديو من ذلك ثلاثين ألف جنية ، وكلم في ذلك أعضاء المجلس الاعلى واستمال كثيراً منهم . ولما عرضت المسألة على المجلس عارض فيها المفتي ووافقته حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي فاضطر الباقون لموافقتها لان الحق معهم ، وكانت النتيجة أن ديوان الاوقاف لم يكتف بالتخلص من دفع الثلاثين ألف جنية إلى زرفوداكي بل أخذ منه عشرين ألف جنية وبذلك يرى الخديو أنه خسرت هذه الصفقة خمسين ألف جنية

(البند السابع) لما رأى الخديو أن المفتي هو العقبة في طريق اتخاذ الازهر وخطباء آله سياسية أراد أن يزيله من الازهر ، فرأى النظار والمحتالين لا يرضون بذلك ، فأراد أن يستعين عليه بشيخ الازهر وبعض أعضاء إدارة الازهر فرأى

أن نفوذ المفتي هو الغالب وان شيخ الازهر وأعضاء الادارة لا يمكنهم معا كسة المفتي . ومن ذلك انه أرسل الشيخ توفيق البكري الى شيخ الازهر يبلغه أمره بأن يوجه كسوة تشريفة من الدرجة الاولى كانت منحلة الى الشيخ محمد راشد امام المعية وكان مجلس إدارة الازهر قرر توجيه الكسوة الى شيخ آخر قيل للخديو انه من حزب المفتي ولذلك أراد منها عنه ولكن المفتي لم يقبل الا بتنفيذ قرار المجلس وواقعه الشيخ والاعضاء ولم يعمل بامر الخديو

(البند الثامن) رأى الخديو أن يعزل ثلاثة من أعضاء مجلس إدارة الازهر ويضم بدلهم ثلاثة له أمل في موافقتهم له على كل ما يريد منهم امام معيته ، فوعز الى شيخ الازهر بأن يعزلهم فلم يقبل فأرسل اليهم الشيخ توفيق البكري يرغبهم في الاستعفاء ، فقال لهم المفتي : ان البكري لا ثق به ولا يعمل بتبليغه والالزام ممنوع فاذا قال لكم الخديو بصفة رسمية استعفوا فلا بأس ، وعند ذلك يكون لكم عذر عند الحكومة إذا سألتكم عن سبب الاستعفاء ، فلم يقبل احد منهم أن يستعفي . وقد باغ عضو آخر بان الخديو يريد مقابلته « لاجل إقاعه بالاستعفاء » فقال لا أذهب إلا بطلب رسمي . ومعلوم ان الخديو لا يمكنه أن يعمل عملاً رسمياً هناك وانما يريد أن يكون ذلك خفية ويرى أن المانع الوحيد هو المفتي

(البند التاسع) ان الخديو تمكن من إقناع احد الاعضاء بالاستعفاء وذلك بان وعده بزيادة ماهية له في جامع غير الازهر جنهين ونصفا في الشهر فاستعفى . ولكن الخديو لم يقدر أن يعين بدله أحد الذين يثق بهم ويظن أن المحتلين هم الذين حالوا دون ذلك لانهم يعرفون جميع مساعيه وبما كسونه فيها وهو الذي يساءلهم على نفسه فانه لا يمكنهم شيئا فاذا عزم على شيء يباح به جميع من يجتمع به اولئك الذين منهم وان كان يعتقد بعدم إخلاصهم وإذا قال له القورد كرومر : لا تفعل فانه لا يفعل

(البند العاشر) ان الخديو بعد أن رأى نفسه عاجزاً عن عزل المفتي الذي يعارض مساعيه في الازهر والاقايف شرع في معاكسته بأمرين : أحدهما الاستعانة بمولانا الخليفة الاعظم على عزته بحجة انه أفتى بما يخالف الشرع . وثانيها : إنشاء جريدة اسمها (الظاهر) لاجل إسقاط نفوذه الديني وإضعاف حربه المؤلف

من طائفة من العلماء ومن أكثر رجال الحكومة والمدارس (البند الحادي عشر) أن الخديو يظن أنه إذا أمكن غش شيخ الإسلام في دار الخلافة العالية وأخذت منه فتوى ضد المفتي فنها لا تلقى معارضة ، ولكن الأرجح عندنا أنها تلقى أشد المعارضة من المختلين نظراً لسياستهم المعلومة ومن الحكومة لأنها تؤيد المفتي . ومن أكثر العلماء وأهل الفهم في مصر لأنهم مقتنعون بصحة الفتوى ، وقد زادتهم الجرائد تحزبا للمفتي . وقد تحقق أن اللورد كرومر قال للخديو : إن كان تحريك بعض الشايخ ضد المفتي لاجل فصله من الافتاء فاسمح لي بأن أقول أنا مادام لبريطانيا المظلي نفوذ في مصر فإن الشيخ محمداً عبده يكون هو المفتي حتى يموت . واننا نعلم الآن أنه لا يوجد في مصر حزب ضد مقام الخلافة ويخشى أن يوجد ذلك إذا فرضنا مداخله سماحة شيخ الإسلام في هذا الامر لاسيما إذا لم يعمل بقوله كما هو الراجح عندنا

(البند الثاني عشر) أن جريدة الظاهر التي سلطتها للمية على تخطيط فتوى المفتي جريدة غير منتشرة ، وقد قامت ضدها أكثر الجرائد اليومية والاسبوعية ولم تقتصر لها جريدة الا اللواء ككتب فيها جملة مختصرة وجريدة أسبوعية أخرى من الجرائد التي تسمى الساقطة تطبع في مطبعتها ، وإن أكثر الجرائد التي ردت على جريدة الظاهر لم تذكر اسمها لئلا تشتهر . وإن صاحب هذه الجريدة جاهل بالشرع ، ومن الذين يقضون معظم أوقاتهم في شرب الخمر جهرا ولعب القمار فليس لكلامه في الدين أدنى تأثير . وإن الحكومة قد سلبت هذه الجريدة الامتياز فاعتبرتها من الجرائد الساقطة وكان يكتب على كل عدد منها « قررت عموم المحاكم الاهلية جريدة الظاهر رسميا لنشر الاعلانات » فصدر الامر بعدم كتابة هذه العبارة فسقطت بذلك قيمتها بارة وقد ردها كثير من الذين كانوا قبلوها

(البند الثالث عشر) أن الخديو كان قد اتخذ عدة وسائل قبل الطعن بالفتاوى التي اعترضت عليها جريدة الظاهر لايجاد نفوذ ديني في مصر ولإسقاط المفتي ولم ينجح في شيء منها لوقوف الحكومة على أنها مدبرة من قبله . أهمها

مسألة الحج فإن الحكومة في العام الماضي لم تكن تفكر في منع الحج حتى قابل سموه اللورد كرومر وقال له انه يمكنه أن يتخذ طريقة لمنع المصريين من الحج بعد مشاوره العلماء فباع اللورد النظر ذلك فسأل هؤلاء المفتي فقال لا طريق لذلك إلا أن يستغنى الخديو بصفته أميراً للبلاد ، ويقول انه قد تحقق عنده بأن الحجاج المصريين اذا ذهبوا إلى الحجاز يكونون على خطر وانه يريد تأخير الحج إلى أن يزول هذا الخطر المحقق عنده هو . فاذا استغنى على هذه الصورة فإن المفتي والعلماء يقتونه بالجواز والمسئولية عليه . فقال النظر واذا طلبت الحكومة هذه الفتوى بهذه الصورة فماذا تجاب ؟ قال المفتي إن العلماء لا يعرفون في مثل هذا الامر إلا الامير نائب السلطان على البلاد . وبعد ذلك علم الخديو بجواب المفتي للحكومة فغضب غضباً شديداً ثم انتهى الامر باجتماع مجلس النظر تحت رياسته وأقر على الضرورية التي ضربت على الحجاج في العام الماضي ، وخففت في هذا العام ، وكان الخديو أراد أن يكتب في المؤيد ان الحكومة كانت تريد منع الحج وأن الخديو حامي حامي الدين هو الذي عارضها في ذلك ولكن الذي منع من ذلك هو العلم بان الحكومة كانت عازمة على تكذيبهم في الجريدة الرسمية وبيان الحقيقة (البند الرابع عشر) أن من جملة وسائله للظهور عند العامة بمظاهر المحامي عن الدين مسألة صندوق التوفير في البوستة ، فهذا الصندوق جماعته الحكومة لحفظ ما يوفره الفقراء مما يزيد من إيرادهم على مصاريفهم ومصلحة البوستة تستغل هذه الدراهم التي تحفظ فيها . وقد تبين لها أن نحو ثلاثة آلاف فقير لم يقبلوا أن يأخذوا ما تقرر في الديكرتو الخديوي من الربح ، فسألت الحكومة المفتي هل توجد طريقة شرعية ؟ فأجاب شفاهاً بإمكان ذلك بتطبيق استغلال النقود المودعة في الصندوق على أحكام شركة المضاربة . ثم ذكر رئيس النظر الخديو بتحريض الديكرتو الخديوي وتطبيق المشروع على الشرع فأظهر سموه الارتياح ولما قال له رئيس النظر : إننا استشرنا المفتي غضب غضباً شديداً وقال كيف يبيع المفتي الربا ؟ لا بد أن استشير غيره من العلماء ، ثم جمع جمعية من مشايخ الازهر في سراي القبة وكلفهم أن يضعوا له طريقة شرعية لصندوق التوفير ليظهر أمام العامة

بأنه هو المحامي عن الدين والمطابق له على الشريعة ، وأن الحكومة كانت عازمة على إلزام المسلمين بأكل الربا والمفتي مساعد لها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك فإن المشروع الذي وضعه العلماء قدمته العبة لنظارة المالية فمرضته نظارة المالية على المفتي لتأخذه رأيه وتعمل به فوجده المفتي هو عين الرأي الذي كان قاله شفاهاً (البند الخامس عشر) جاء رجل من الترنسفال وسأل المفتي عن ثلاث مسائل : عن جماعة يلبسون البرنيطة لقضاء مصالحهم عند النصارى ، وعن أكل الذبائح التي يذبحها النصارى هناك مع العلم بأنهم يضربون البقر قبل ذبحه بالبلطة ثم يذبحونه بغير تسمية كما يظن فيهم وفي أمثالهم ، وعن صلاة الشافعية خلف الحنفية فأفناه المفتي بأن لبس البرنيطة لا يكون ككفر إلا إذا قصد لبسها بلبسها الخروج من الاسلام والدخول في غيره ، ولا يكون مكروهاً إلا بقصد التشبه بالكافر ، وبحوزة أكل ذبيحة أهل الكتاب ، وصلاة الشافعي خلف الحنفي لأن الجميع مسلمون . فعلم الخديو بذلك وظن أن الفتوى مخالفة للشرع أو للمذهب فأوعز إلى جريدة الظاهر واستكتب بعض المشايخ عريضة فيما قل ذكرها فيها الاسئلة والاجوبة على غير وجهها فيما يقل أيضاً ، وكان يظن أن مجرد ظهور الفتوى كاف في اسقاط نفوذ المفتي الديني أو التوصل الى عزله فظهر له خلاف ذلك

(البند السادس عشر) ان النتيجة من كل ما تقدم أن سمو الخديو بريدان يحمل لنفسه سلطة دينية آلتها الازهر وماليتها الاوقاف وقد حدث بهذا كثيرين وقال ان أوريا تهاب البابا والسلطان لاجل السلطة الدينية وهذه سهلة علينا، وانه مادام الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية وعضواً في الازهر وفي مجلس الاوقاف الاعلى وفي شورى القوانين ، فان يتم له في ذلك عمل إلا العمل الرسمي القانوني الظاهر لكل أحد . وان الشيخ توفيق البكري الذي حسن له هذا الرأي لا نفوذ له في هذه البلاد (١) ، وقد ساءت الناس قصيدته التي كان زين للخديو فيها دعوى الخلافة ورضي عليه هو وحده بسببها واتخذ الآن ساعياً فيها بينه وبين مشايخ الازهر ولكن بدون ذكر لفظ « الخلافة » (٢) فالمفتي هو العقبة في طريق هذه السلطة وحزبه كبير جداً اه المراد من هذا التقرير (١) قد حذفنا من هذين الموضعين كلاماً لصاحب التقرير يضمن فيه على البكري

خلاصة الخلاصة

في اصلاح الازهر

ان اصلاح الذي كان ينشده الاستاذ الامام في الازهر قسبان : صوري ومعنوى ، فاما الصوري فهو (١) النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة البدنية والاجتماعية ، و (٢) توسيع دائرة العلوم والمعارف ، و (٣) ترقية اللغة العربية . وأما المعنوى فهو (١) اصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم و (٢) صحة القصد فيه بما يقضي إلى ارتقاء الامة في دينها ودنياها ، و (٣) اصلاح الاخلاق بالصدق والاخلاص وعزة النفس والسخا والوفاء الخ

فاما الاول فقد شرحنا مافاساه في وضع قوانينه وتنفيذ نظمه مع اعداء النظام ، ولكن النظام وجد ولا يزال يصارع ماتربى عليه القوم من الفوضى والخلل في كل شيء ، ولا بد أن ينتهي الامر بانتصاره ولو بعد حين

وأما الثاني فعمدته فيه ما كان يبثه هو في دروسه التي تفيض روحا محميا ، وتتألق نورا ساطعا ، وقد قال فيه ما معناه : اني بذرت في الازهر بذرا إيا أن ينبت ويشمر ويؤتي أكله المغذي للعقل والروح فيحيا به الازهر حياة جديدة ، وإيمان يقضي الله على هذا السكان قضاءه الاخير ، وقد نبت ذلك البرز فصار زرعاً أخرج شطاه واكن قل من يتعاهده بالسقي ومنع الحشرات الضارة ليستوي على سوقه ويؤتي أكله وقد أشرت إلى هذا فيما زدت بعد موته في (المقصورة الرشيدية) قلت بعد وصفه ، وما قام به من اصلاح مع السيد جمال الدين ومن بعده ، مغالبا فيها الرجا في الازهر على اليأس :

ماتم للامام ماأراد من خطتي اصلاح هدا وبنا
ولم يفته كل ماشاء فقد خرج من يتم كل مابنى
إذا استجاب الله ما به دعا وزال ما حاذره بما رجا (١)

(١) اشارة الى الايات التي قالها قبيل وفاته

وعلم الازهر كيف يفقه الـ دين ويطلب العلوم واللبى
 من غير بحث في مقال من خلوا يكتر فيه الاحتمال والمرا
 علمه التوحيد كي يفقهه بعقله لا بقول من مضى
 علمه التفسير كما يهتدي به على علم صحيح يقتفى
 وعلم (أسرار البلاغة) التي (دلائل الاعجاز) منها تبغى
 علم (بصائر المنطق) كي يقم ميزان العلوم للحجى
 وهل وراء الدين واللسان والـ مقل إذا أصلحت منتهى
 فان يك الازهر لم يصلح بها فقد نأى عن سبل من كان مأى (١)
 ونبتت من غرسه نابتة ستلأم الصدع وترأب الثأى (٢)
 وترفع الحجر عن المعهد او يعود جحر الضب رجبا كالفضا (٣)
 حتى ينال وهو قد أشفى الشفا من مرض بات به على شفا
 ثم يولي السلوك شطره ينحونه من كل فج ورجا
 ماوردوا حياضه وصدروا إلا يفيضون علوما وهدى
 فأحيوا الاسلام في أنفس من واصاهم بهجره صرف الردى
 فعاد أهلا إلى موطنه من غربة طال بها عهد النوى
 واستقبت غربته المجد كما كان فعاد الامر مثلاما بدا (٤)

(١) مأى بالغ وتعق، والمعنى انه قد نأى وبعد عن طرق أولئك الشيوخ
 المنتظمين في التعق بالمناقشات اللفظية في عبارات الكتب (٢) لأم الشيء اصلحه
 والصدع جمعه وشده فالنام وزال، وفي معناه رأيه واصلاحه، والثأى الفساد (٣) اشارة
 إلى حديث « لتبين سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر
 ضب لدخلتموه » قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال « فن؟ » والمعنى أن تلاميذه
 ومريديه سيقفون الحجر عن القول فيفهموا العلم والدين إلى أن يخرجوا اهله
 والمسلمين من الضيق الذي يشبه جحر الضب (٤) اشارة الى حديث « بدأ الاسلام
 غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وفي رواية بمعناه مع زيادة « فطوبى للغرباء الذين يحبون
 ما أمات الناس من سنتي » وبأحيائهم تتمر هذه الغربة المجد، كالغربة الأولى